

دكتور محمد مؤنس عوض

الحروب الصليبية

العلاقات بين الشرق والغرب

الحروب الصليبية

العلاقات بين الشرق والغرب

يصدر هذا الكتاب بمناسبة مرور ٩٠٠ عام على سقوط القدس فى أيدى الصليبيين ١٠٩٩-١٩٩٩م

الحروب الصليبية

العلاقات بين الشرق والغرب

فى القرنين ١٢ - ١٣م / ٦-٧ هـ

د. محمد مؤنس أحمد عوض
كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى
١٩٩٩ / ٢٠٠٠ م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمـــــد إبراهيم الهــــــوارى

د . شــــوقى عبد القـوى حبـــيب

د . عـلــى الســـيـــد عـلــى

د . قـاســــم عـبـده قـاســـــم

مدير النشر: محـمـد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر : عين للدراســـات والبحـــوث الإنسانيـــة والاجتماعيـــة

- ٥ شـــارع ترعة المريوطية - الهـرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خـــالد بـن الـولـيـد بـالـهـرم - رمـز بـريـدى ١٢٥٦٧

Publisher:ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693
P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

المحتويات

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

الفصل الحادى عشر :

الفصل الثانى عشر :

الفصل الثالث عشر :

الإهـــداء

إلى أستـاذى أ.د. إسحق تـاوضروس عـبـيـد؛ خـبـيـر العلاقات اللاتينية البيزنطية، وقضايا الشرق اللاتينى، وفاءً لأستاذى الذى علمنى كيف يكون إشراق العلم وسط دياجير الظلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم أ.د. حسن حبشى

أستاذ العصور الوسطى

كلية التربية- جامعة عين شمس

الكتاب الذى يسعدنى أن أقدمه اليوم للمهتمين بالدراسات الجادة والمشتغلين بالحروب الصليبية، والذى يصدر مواكبًا لمرور تسعة قرون على اندلاع شرارتها للدكتور محمد مؤنس وهو مؤرخ من أبنائنا النابهين ، كلف بهذه الحادثة التاريخية الدامية التى كانت نقطة انتقال وتحول فى تاريخ الإنسانية ، ولازالت ولن تزال موضع دراسات من شتى النواحى ، وكانت آلة الدكتور محمد مؤنس فى هذا المجال الاطلاع على كل ما تيسر له من تاريخ ودراسات ، وهو لايعنى كثيراً «بالتأريخ» لهذه الحروب، ولكنه ينظر فى أحداثها ، ويقلب الفكر فيها، ويفسرها بذهنه الألمعى، ويتناول ما أسفرت عنه من آثار اجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، وفكرية، ونفسية، إلى جانب ما أحدثته من تطورات على مدى مسيرة التاريخ منذ وقوعها وما يترتب على ذلك -إن طال الزمن- لا بين الشرق والغرب فحسب ولكن فى كلٍ منهما أيضًا .

ولقد كنت محجمًا عن كتابة هذه الأسطر، إذ ماذا أقول وللمؤلف الآن من الدراسات الجادة فى مجال الحروب الصليبية ما يغنيه عن سطور تقال فى شأنه، وهى فى نهايتها كلمات لن تزيد فى مكانته العلمية ، فحسبه أنه قرأ فى هذه الحروب ما قرأ، ثم استوعب ما قرأ ، ثم نظر فيما قرأ نظرة فاحصة فوقف على ما قد يخفى على كثيرين غيره، وكان من شأنه فى ذلك شأن الصيرفى الحاذق يعرف الصحيح من الدراهم فيقدمه ، والمردود منها فينحيه ، وكان من اطلاعه الواسع فى مجاله ما لخصته كتبه وأبحاثه ودراساته ، وما تضمنه هذا الكتاب الذى يشرفنى أن أقدمه لطليعة جيل نابه تتطلع إلى أن يتخرج على يديه وعلى نتاج أفكاره من يسلكون دربه المجدى وإن كان شاقًا ، ولكنه شهى ذو ثمرة شهى مذاقها ، نافع أثرها .

ولست فى هذه الأسطر بصدد التعريف بالمؤلف فهو غنى عن التعريف ، ولست بصدد الكلام عن هذا السفر الذى أقدمه ، فلأدعه يتحدث إلى قارئه ومطالعه بآراء عقلية مستنبطة فى ميدانه ، فلأتركه إلى قارئه الراغب فى الحق ، وأرجو من مؤلفه أن يتابع ما أخذ به نفسه فى هذا المجال العلمى ، وليكن له الهدى فى قوله تعالى : «فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» . صدق الله العظيم

أ.د. حسن حبشى

المقدمـة

يتناول هذا الكتاب بالدراسة : العلاقات بين الشرق والغرب خلال الحقبة التى اصطلح الباحثون عليها بأنها «القرون الوسطى» ، وعلى نحو خاص : الحروب الصليبية التى شنها الغرب الأوربى على المسلمين فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، وامتدت على مدى القرنين الثانى عشر ، والثالث عشر الميلاديين/ السادس ، والسابع الهجريين، ثم النتائج العديدة التى نتجت عن تلك الحركة التاريخية الفعالة والمؤثرة فى العلاقات الدولية حينذاك .

ومن الجلى البين : أن الكتاب يتناول دراسة مسحية عامة لتطور تلك العلاقات بين الجانبين المتصارعين ، وعلى مدى قرنين من الزمان ، ولذلك فمنهج تناوله ذاته يرتبط بتقديم ملامح بانورامية دون الخوض فى التفصيلات إلا إذا تطلب أمر المعالجة التاريخية ذلك. والاهتمام الأكبر موجه بصورة أساسية نحو دراسة الدوافع المحركة للحدث التاريخى ثم تطوره الذاتى ، ومن بعد ذلك النتائج المترتبة عليه.

وقد تم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة عشر فصل تعرضت للعديد من مراحل تطور العلاقات بين الطرف الغازى وهو الغرب الأوربى، والطرف الآخر الذى تعرض للغزو ونعنى به الجانب الإسلامى فى مناطق الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، ومصر على نحو أساسى؛ مع عدم إغفال المناطق الأخرى التى امتد لها نشاط الصليبيات خلال تلك المرحلة مثل بلاد الحجاز وتونس.

وفى واقع الأمر؛ هناك العديد من الدراسات التاريخية الاكاديمية التى ألفت عن الصليبيات خاصة فى الجامعات المصرية، وكذلك العربية ، وقد عكست وجهة النظر العربية الإسلامية من الصراع الذى دار منذ تسعة قرون على أرضنا المسلمة، كما أن الغرب الأوربى والأمريكى أصدر العدد الأوفر من الدراسات الأكاديمية التى عكست وجهة نظره بطبيعة الحال ، ومن ثم فإن الاختلاف بين الطرفين ما زال مستمراً ، وعلى المرء أن يدرس توجهات كل طرف من أجل الخروج بتصور شخصى لطبيعة أحداث تلك المرحلة الثرية من تاريخ العلاقات الدولية حينذاك، ومن ثم فمن أهداف إعداد هذه الدراسة تقديم تصور يعكس وجهة النظر العربية الإسلامية لطبيعة الصراع من خلال روح الموضوعية الواجبة وعدم إغفال تصورات المؤرخين الغربيين الذين ساهموا بكتاباتهم فى مجال تاريخ الحروب الصليبية .

ومن زاوية أخرى : ليس الهدف من إعداد هذه الدراسة اللهث وراء الأحداث التاريخية؛ إذ أن كتب الحوليات العربية واللاتينية، والسريانية ، واليونانية تفيض بكم زاخر منها ، وأن الهدف البحث عن «رؤية ما» عن عصر صاخب الأحداث، لايدعى المؤلف أنه أحاط به إحاطة شاملة .

لقد استغرق اعداد كتابى هذا زمنًا طويلاً، ولعل فكرته ألحت فى ذهنى منذ أكثر من عشرين عامًا عندما التقيت بأستاذى أ.د. اسحق عبيد أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة عين شمس ، ثم من بعد ذلك أ.د. أحمد رمضان أحمد أستاذ العصور الوسطى بنفس الكلية وذلك عامى ١٩٧٧م، ١٩٧٨م، ومن خلال هذين المؤرخين الكبيرين ؛ بدأت رحلتى فى عالم الحروب الصليبية الأكثر امتاعًا والأكثر غموضًا فى ذات الحين.

ومن ناحية أخرى؛ أود أن أقدم خالص الشكر ووافر التقدير لعدد من الأصدقاء فمن الولايات المتحدة الأمريكية هناك المستشرق كريستوفر ملتشرت Christopher Melchert ومن فرنسا هناك بيير تينار Pierre Thenard ، أما من فلسطين فإننى أتوجه بخالص التقدير لصديقى الدكتور / سعيد البيشاوى بكلية التربية فى رام الله، ثم هناك صديقى/ عبد الله البردينى الذى أفدت من ملاحظاته على أعمالى السابقة عندما أعددت هذه الدراسة كذلك صديقى شكرى مقبل. وهناك جمع من الأصدقاء ، والزملاء فى مصر ، والمملكة العربية السعودية ، والمغرب فإلى الجميع خالص شكرى ، زد على ذلك، أود أن أقدم خالص شكرى وعظيم تقديرى للعلامة أ.د. حسن حبشى المؤرخ والمترجم والمحقق الكبير؛ إذ أن تفضله بكتابة مقدمة لهذا الكتاب يعد تشريفًا وتكريمًا لمؤلفه لايضاهيه تشريف ولايدانيه تكريم فله وافر التقدير والامتنان ، خاصة أن تشجيعه كان له أكبر الأثر فى انجاز هذا العمل.

كما لا أنسى أن أذكر أفضال الراحل أ.د. عبد المنعم ماجد الذى رحل عن عالمنا فى ٢٠ يناير ١٩٩٩م فقد أفدت من مكتبته وكان رحمه الله تعالى. دائم التشجيع لى من أجل مواصلة البحث فى مجال الحروب الصليبية، كذلك لا أغفل فروسية الدكتور على السيد على الذى غمرنى بكرمه وخلقه على نحو يصعب على المرء أن يجده لدى الآخرين فى عصر ندرت فيه الفروسية فله منى خالص الشكر والتقدير . كذلك اشكر زوجتى وابنىَّ هانى وداليا.

ختاما ؛ اترك القارىء لتصفح حصاد الهشيم المتواضع وأردد قوله تبارك وتعالى «وفوق كل ذى علم عليم» . صدق الله العظيم

محمد مؤنس أحمد عوض

مصر الجديدة - مساكن شيراتون

المدخـل

يتناول هذا المدخل بالعرض؛ تعريف الحروب الصليبية والآراء المتعددة التى ذكرها المؤرخون فى شأنها ، ثم البواعث المحركة لها، كذلك بدايات تلك الظاهرة التاريخية البارزة فى عالم القرون الوسطى. وهل هى نتاج الامبراطورية البيزنطية، أم الغرب الأوربى، ثم من بعد ذلك نتعرض لملامح إشكاليات دراسة تاريخ الحروب الصليبية .

وواقع الأمر ؛ أن تعريف تلك الحروب، يعد أمراً ليس باليسير نظراً لتعدد الآراء التى أوردها المؤرخون فى هذا الشأن. واهتمام كل منهم بزاوية معينة من زواياها المتعددة وتصوره أن تلك الزاوية- وعلى نحو خاص- لها القدح المعلى فى مجال تعريف تلك الأحداث التاريخية السابقة، وهكذا يمكن القول ؛ أن لدينا من جانب المؤرخين لاسيما المحدثين كمًا من التعريفات على مدى قرن من الزمان منذ أخريات القرن الماضى حتى أخريات القرن العشرين، ولذا فمن الأهمية بمكان تتبع تلك التعريفات من أجل التوصل إلى تعريف ما يقترب من طبيعة أحداث ذلك العصر إن أمكن ذلك.

ومن الملاحظ؛ أن هناك من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حروب دينية قام بها الغرب الأوربى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى من أجل استعادة الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين من قبضة المسلمين[1] ، بينما تصور فريق آخر من المؤرخين أن تلك الحروب هى جزء من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى القرون الوسطى، مثلما كانت هناك علاقات بين الشرق والغرب فى العصور القديمة . وأن صراع الغرب الأوربى مع المسلمين هو امتداد لظاهرة تاريخية فى الزمن القديم نجد مثالاً لها فى صورة الصراع بين بلاد اليونان وفارس أو ما يوصف بأنه الحروب الفارسية The Persian Wars غير أن هناك من رأى فى تلك الحروب أنها جزء من المسألة الشرقية The Eastern question [2].

١- Piant , "Inventaire Critique des lettres Historiques des Croisades", A.O.L., T.I, Année 1880, p. 2.

٢- Mariott, The Eastern question , Oxford 1958 ,p. I.

وقد رأى استاذى الراحل أ.د. عبد المنعم ماجد ما نصه «الحروب الصليبية هى المظهر المبكر لما عرف بالمسألة الشرقية questioń d'Orient : انظر :

عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط.بيروت ١٩٦٦م، ص٢١٨ .

كذلك وجد من تصور أن الصليبيات ، ما هى إلا السياسة الخارجية للبابوية [١]، على اعتبار الدور البارز الذى قامت به البابوية فى الإعلان عنها أو الإشراف الروحى عليها من خلال ما توافر للمؤسسة الدينية فى الغرب الأوربى حينذاك من نفوذ كبير.ومن زاوية ؛ إذا ما اتجهنا إلى رنسيمان Runciman نجد أنه يعتبر الحروب الصليبية جدل العالم، حقيقة محورية فى العصور الوسطى، وأنها آخر الغزوات المتبربرة [٢]. وحقيقة الأمر ؛ أنه ذلك المؤرخ البريطانى البارز قد أصاب جانبًا أساسيًا من الحقيقة التاريخية عندما أدرك البعد العالمى للصليبيات ، إذ أنها بالفعل تمثل حربًا عالمية فى العصور الوسطى على اعتبار اشتراك أمم عديدة فيها مثل الفرنسيين ، والايطاليين ، والألمان والانجليز، الاسكندنافيين ، والبيزنطيين، والسلاجقة ، والأكراد ،والفاطميين وغيرهم كثيرون . أما الطابع المتبربر لتلك الحروب فهو أمر ستفصح عنه وقائع تاريخها ذاته من خلال الفصول التالية .

زد على ذلك؛ أن المؤرخ الاسرائيلى براور Prawer [٣] رأى أن الحروب الصليبية وتاريخ مملكة بيت المقدس اللاتينية ذاتها ما هو إلا حركة الاستعمار الأوربى فى العصور الوسطى[٤] ،

١- Barker , The Crusades, London 1949 , p. 3 .

٢- A History of the Crusades, vol. I, The first Crusade, and the Foundation of the kingdom of Jerusalem , penguin Books, London 1978 , Preface , p. XI.

ويلاحظ أن هناك دراسة أعدها المؤرخ بلوك عنوانها الحرب الصليبية جدل العالم، وصدرت فى لندن عام ١٩٥٧م، انظر : Belloc, The Crusade World's debat , Londo, 1957 .

٣- عن ذلك المؤرخ الاسرائيلى ومؤلفاته انظر : محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٦٣ - ٢٨٠ .

٤- أنظر دراسته المهمة :

The latin Kingdom of Jerusalem , European Colonialism in the Middle Ages, London 1979 .

والجدير بالذكر هنا أن أ.د. حسن حبشى كان قد اتجه إلى القول بأن الحرب الصليبية ذات صبغة استعمارية وذلك فى دراسته عن الحرب الصليبية الأولى، حيث قرر أنها بذرة الاستعمار الأوربى الغربى للشرق الأولى تحت ستار الدين. انظر : حسن حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م. ص٣ . =

وهى زاوية على جانب كبير من الأهمية ، مع ملاحظة أن الاختلاف مع تصور براور من خلال تعبير «الاستعمار»؛ إذ أن الصليبيين لم يستعمروا المنطقة من زاوية «التعمير»، بل النهب والسلب المنظم لثروات الشرق، ومن ثم فالأفضل تصور مفهوم «الاستخراب» وبالتالى فالصليبيات حركة الاستخراب الأوربى فى العصور الوسطى وسلب ثروات تلك المنطقة البالغة الحيوية فى حركة الاقتصاد العالمى حينذاك ، ونفس التصور ينبغى أن يظل مرافقًا لنا عند إطلاقه على حركة الاستخراب الأوربى فى العصر الحديث لمنطقتنا العربية من خلال جهد انجلترا وفرنسا لتقسيم ممتلكات الرجل المريض فى صورة الدولة العثمانية .

والآن : من الممكن أن نتساءل ، أى هذه التعريفات يمكن التعامل معه كى يعبر بصدق عن طبيعة الحروب الصليبية؟ والحقيقة أن كافة تلك التعريفات - كما أسلفت الإشارة من قبل - تأخذ بعين الاعتبار جانبًا من تلك الطبيعة الخاصة بالحروب الصليبية وتغفل جانبًا آخر، ولذلك أرى أن كافة تلك التعريفات مجتمعه تعكس ما يمكن وصفه بظاهرة الحروب الصليبية، ولايمكن الارتكان إلى تعريف واحد شامل جامع ليعبر عن الواقع التاريخى لتلك الأحداث الصافية .

على أية حال؛ فإن الجانب التالى من هذا المدخل ما يتصل بالبواعث المحركة للحروب المذكورة ، وواقع الأمر؛ أن تلك الأحداث الجسام والتى امتلكت طبيعة معقدة وتشابكت فيها الأهداف والمصالح وتعددت خلالها قوى الصراع ؛ من الطبيعى تصور وجود عدة بواعث ودوافع محركة لها ، ومن البداية ينبغى التقرير بأن جملة من الدوافع تعاملت وتعاونت معًا من أجل حدوث تلك الظاهرة التاريخية الكبرى فى عالم القرون الوسطى ونعنى بها الحروب الصليبية، وفى هذا المجال نذكر ؛ أن هناك عدة بواعث محركة لها فى صورة البواعث الدينية، والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية ، والفروسية، والتنصيرية ، وسيتم تناول كل باعث من البواعث المذكورة على حدة ، مع الوضع فى الاعتبار عدم «واحديته» على مستوى الواقع التاريخى ذاته بل هو جزء من مجموعة دوافع فاعله مشتركة .

= وأنظر رأيًا مهمًا لدى : عبد العظيم رمضان ، الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة ، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص١٤ .

والحقيقة : أن الباعث الدينى[١] نبدأ به تلك البواعث على اعتبار أنه ظل لقرون عديدة يقدم «المبرر» المثالي لشن الصليبيات على المسلمين فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، خاصة أن الحوليات الصليبية كثيراً ما أظهرت الصليبيين -لاسيما خلال المرحلة المبكرة من تاريخهم- على أنهم جند المسيح Militia Christi وأنهم قدموا إلى بلاد الشام من أجل القيام بالحج ، واستمر تصور الأمر من خلال تلك الزاوية حتى أن الكونت ريان Riant أشار منذ قرابة قرن وعقدين من الزمان إلى أن الصليبيات قامت بصورة مباشرة أو غير مباشرة من أجل استعادة الأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين [٢].

وهكذا : فإن تناول الباعث الدينى للحروب الصليبية باعتباره فى المرتبة الأولى ليس من خلال أهميته التاريخية ولا لتصدره الموقف التاريخى، بل من خلال أنه أقدم البواعث فى تصورات المؤرخين، مع ملاحظة أن الاتجاه العام للمؤرخين الأوربيين الآن تصور البواعث المشتركة والاهتمام بالبواعث الأخرى مجتمعة خاصة الاقتصادية والاجتماعية دون الاعتماد فقط على الباعث الدينى.

ومن الملاحظ : أن الباعث الدينى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بما يعرف بالحج Peregrinato إلى الأرض المقدسة Terrum Sacrum فى فلسطين ، وبداية نقرر : أن المسيحية لاتحتوى ضمن أركانها المعروفة فى صورة التثليث ، والتجسد، والصلب، والقيامة ، على فكرة الحج، ومع ذلك فقد شعر المسيحيون منذ وقت مبكر بالرغبة القوية فى أن يروا بأنفسهم تلك المواقع المرتبطة بذكريات المسيحية مثل الموضع الذى ولد فيه السيد المسيح عليه السلام، والأماكن التى تنقل فيها فى أرجاء فلسطين المختلفة للتبشير بالدين الجديد، وقد ورث المسيحيون عن اليهود تقديراً كبيراً لمدينة القدس[٣].

١- عن الباعث الدينى أنظر الدراسة المهمة التى أعدها عبدالله الربيعى:

عبدالله الربيعى، «الدوافع الدينية للحركة الصليبية»، ضمن ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية، اتحاد المؤرخين العرب، ط. القاهرة . ١٩٩٦م، ص٧٩-ص١٢٢ .

٢- Riant, "Inventaire Critique des lettres Historiques des Croisades", A.O.L., T.I, Anné 1880, p. 2 .

٣- Runciman (S.), "The PilgrimagesTo Palestine before 1095, "in Setton, AHistory of the Crusades, vol. I, pennsylvania 1969, p. 68 .

ومن الملاحظ، أنه خلال القرنين الأولين للميلاد، لم يكن أمر الترحال بهدف الحج إلى المدينة المقدسة أمراً ميسوراً ؛ إذ أن المدينة المقدسة امتدت إليها يد التدمير عام ٧٠م على يد القائد الرومانى تيتوس Titus [١] ، وذلك خلال ثورة اليهود، وخلال تلك المرحلة المبكرة وجدت اشارات عن عدد من الأشخاص ذهبوا إلى فلسطين للحج ومن أمثلتهم ، الأسقف فرميليان Firmilian of Caesates Mazaca وقد زار القدس فى وقت مبكر من القرن الثالث الميلادى[٢].

غير أن التطور البارز فى فكرة الحج فى المسيحية حدث فى عهد قسطنطين الذى أوقف الاضطهاد الذى لحق بالمسيحية، وعمل على اتباع سياسة متوازنة تجاه القوى الدينية المختلفة فى الامبراطورية الرومانية ونجد أن أمه هيلينا Helena ارتحلت إلى فلسطين من أجل الكشف عن رفات السيد المسيح - كما يعتقد المسيحيون- والحصول على كافة متعلقاته، وقامت بالعثور على خشبة الصلب - كما يتصور المسيحيون- وأقامت موضعها كنيسة القيامة، ومنذ ذلك الحين ؛ صار الحج إلى تلك البقاع تقليداً قائماً لدى المسيحيين[٣]، وهم الذين حرصوا على أن يقتفوا أثر القديسة هيلينا St. Helena فى ذهابها إلى هناك .

ومن بعد رحلة القديسة هيلينا ؛ لدينا العديد من الإشارات عن أشخاص قاموا بالارتحال إلى تلك البقاع التى عدت من أقدس مقدسات المسيحيين ، ومن أبرز الأسماء فى

١- William of Tyre, A History of deeds done beyond the Sea, Trans. by Bebcock and Krey , vol . I , New York 1943 , p. 341 .

قاسم عبده قاسم ، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الأولى، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص٣١ .

٢- Runciman , Op. cit., p. 69 .

٣- عن القديسة هيلينا ودورها انظر :

Eusebius , Extraits From Eusebius life of Constantine, Trans . by John Vernard, P.P.T.S., vol. I London 1896, p. 11 .

اسحق عبيد ، «قصة عثور القديسة هيلانه على خشبة الصلب، أسطورة ام حقيقة» ، مجلة كلية الآداب- جامعة عين شمس ، م(١٧) عام ١٩٧٠م ، ص٥ ، ص٢١ .

هذا المجال نذكر القديس جيروم St. Jerome [١]، وبولا Paula[٢]، وايستوكيوم Eastochium[٣]، وغيرهم.

والجدير بالذكر : أنه فى القرن السابع الميلادى/ الأول الهجرى، حدثت حركة الفتوحات العربية الكبرى، ودخلت بلاد الشام بما فيها فلسطين تحت السياد العربية الإسلامية ، وبصفة عامة: اتسمت سياسة المسلمين تجاه الأماكن المقدسة لدى المسيحيين بالتسامح الدينى، ولم تتسم بالتعصب ، وفى تصورى أن تعليل ذلك الموقف يتمثل فى الإسلام كدين يملك القدرة على الحوار مع الأديان الأخرى السابقة على مقدمة.

ولانغفل زاوية مهم هنا ؛ وهى أن الحج المسيحى إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين قد شهد ازدهاراً من خلال توطد العلاقات بين الدولة العباسية خاصة خلال عهد هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩م / ١٧٠-١٩٤هـ) وشارلمان Carolus Magnus (٧٧٨--٨١٣م / ١٦٢-١٩٨هـ) ، ومن الأمور ذات الدلالة أننا لدينا وثيقة تاريخية تدل على مدى تسامح المسلمين تجاه قضية الحج المسيحى، والوثيقة تعرف باسم «مفكرة بكنائس بيت المقدس Commoratorium on the Churches of Jerusalem[٤] وتحتوى حصراً لكنائس وأديرة المدينة والمناطق المجاورة لها ، وكذلك

١- القديس جيروم St. Jerome يسمى أيضا سوفرونيوس يوسابيوس هيرونيموس Sephronius Eu-sebius Hieronpmus ، وقد ولد فى ستريدو Strido بدلماشيا Dalmatia حوالى عام ٣٤٢م، ويعد من أكثر آباء الكنيسة تعليمًا وثقافة ،، وقد قام بالارتحال إلى بيت لحم للحج، ويقال أنه توفى عام ٤٢٠م. عنه انظر:

Attwater , Penguin dictionary of saints, London 1977, p. 185-186 .

٢- القديسة بولا S. Paula ، ولدت فى روما عام ٣٤٧م ، وقد تزوجت من السيناتور توكسوثيوس، وتوفى فتركها أرملة ، وتحت تأثير صديقتها القديسة مارسيلا والقديس جيروم اتجهت إلى حياة دراسية علمية، وفى عام ٣٨٥م اتجهت إلى بيت لحم للحج، وقد توفيت عام ٤٠٤م. عنها : ATTwater, Op. cit., p. 269-270 .

٣- القديسة ايستوكيوم St. Eystochium ، ولدت فى روما عام ٣٦٨م. وقد رافقت القديس جيروم فى بيت لحم ، وتوفيت بها فى عام ٤١٩م، عنها انظر : . A ttwater, Op. cit., p. 124

٤- العنوان الأصلى لذلك المصدر هو:

Commemoratorium De Casis Del vol monasteriis .

وعن طبعات ذلك الدليل انظر :

أسماء وعدد الشمامسة ، والأساقف ، والرهبان الذين يقومون بالخدمة فى تلك المؤسسات الديني المسيحي ، وهناك من يرى أن تلك الوثيقة قد كتبت فى ظل العلاقات الودية بين الخلافة العباسية والامبراطورية الكارولنجية ، وأنه من المستحيل إنجاز ذلك العمل الكبير الدقيق أو الطابع الاحصائى دون أن يكون ذلك من خلال موافقة رسمية(١)، وقيمة الوثيقة أنها توضح أن المؤسسات المسيحية فى فلسطين كانت تعيش مرحلة مهمة من الازدهار حينذاك (٢).

ومن الملاحظ أنه فى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى حدثت تطورات فعالة فى أوربا؛ إذ أن حركة دير كلونى الذى ظهر عام ٩١٠م / ٢٩٨ هـ وأسس فى فرنسا على يد وليم التقى WilliamThe Pious قامت بإصلاح أوضاع الأديرة فى أوربا وأحدثت نهضة دينية كبيرة ؛ عملت على ازدهار حركة الحج، واقامة شبكة كبيرة تهتم بأمور الحجاج وشئونهم ، وسعت إلى عرض كافة التيسيرات اللازمة من أجل توفير ما يلزم الحجاج من احتياجات مختلفة (٣).

Ruhricht (R.), Chronologisches Verzeichniss des Auf die geographi des Heiligen Landes, Bezuglichen literature von 333Bis 1878, Berlin 1890 , p. 15-16 .

وانظر الترجمة الانجليزية :

Commororatorium on the Churches of Jerusalem, in Wilkinson, Jerusalem Pilgrims before The Crusades, London 1977, p. 137-138 .

١- محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م ، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٢ .

٢- عن رعاية الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين من خلال العلاقات المزدهرة بين العباسيين والكارولنجيين حينذاك ، انظر هذه الدراسة المهمة:

سليمان الرحيلى، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة فى عهدى الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان ، ط. الرياض ب.ت ، ص٦٧- ص٩٢ .

٣- قاسم عبده قاسم ، الخلفية الايدولوجية ، ص٣٨-ص٣٩ . أيضاً :

Watt, " Perceptions of the Crusades", in Vad - Nama in Memoria di Alessandro Bausani Li Islamistica , ed . by Biaucamaria Scarcia Amoretti & Lucia Rostagno , Universita di Roma, la Sapienza, S.O., 10 , Rome Bardi 1991, p. 513 .

إبراهيم سعيد فهيم ، حركة الحج الأوربى إلى الأماكن المقدسة فى الشرق الأدنى ١٢٩١-١٥١٧م / ٦٩٠-٩٢٣هـ. رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٩٩٧م، ص٨٤ .

ويعلق بعض المؤرخين أهمية كبيرة على صحوة دير كلوني والاهتمام بالحج إلى الأرض المقدسة وأثر ذلك كله في قيام الحروب الصليبية التي هدفت – فيما هدفت إليه- إلى جعل تلك البقاع المقدسة في قبضة المسيحيين وإبعاد السيادة الإسلامية عنها .

ويمثل القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى مرحلة حاسمة بالنسبة إلى الحج إلى فلسطين ، ويلاحظ أنه حوالى أوائل ذلك القرن قام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٩٩٩-١٠٢١م / ٣٩٠-٤١١هـ) باضطهاد العناصر المسيحية فى دولته[١]، ويقال أنه أمر بتدمير كنيسة الضريح المقدس Church of the Holy Sepulchre ، ومع ذلك ينبغى أن نذكر أن اضطهاد الحاكم بأمر الله لم يكن موجهًا ضد العناصر المسيحية فقط، بل كذلك ضد العناصر المسلمة السنية أيضًا، ويمثل عهده مرحلة استثنائية قصيرة إذا ما قورن بسماحة القوى السياسية الإسلامية تجاه رعاياها من العناصر المسيحية، ويلاحظ أنه فى أعقاب عهد الحاكم بأمر الله ؛ وجد اتجاه نحو وقف سياسته تجاه العناصر والمسيحية ، ونجد أن الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث Romanus III (١٠٢٨-١٠٣٢م / ٤٢٠-٤٢٤هـ) قد اتفق مع الفاطميين لاعادة بناء الكنيسة المذكورة [٢].

كذلك من المعروف أن الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (ت ١٠٣٥-١٠٩٤م / ٤٢٧-٤٨٧هـ) عقد اتفاقية مع الامبراطور قسطنطين العاشر Constantine X (١٠٥٩-١٠٦٧م / ٤٥١-٤٦٠هـ) واعداً إياه بإطلاق سراح الأسرى البيزنطيين لإعادة ترميم

١- عن سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله تجاه أهل الذمة واضطهاده لهم انظر:

ابن الأثير ، الكامل ، جـ٧ ص-٢٤٠ ، ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق التهامى نقره وعبد الحليم عويس، ط. القاهرة ١٤٠٤هـ ، ص٩٩ – ص١٠٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، ط. القاهرة ١٩٧١م، ص٩٤ ، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٩٩- ص١٠١ ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ط. القاهرة ١٩٨٥م . ص٣٥٧-ص٣٦٠ ، ترتون، أهل الذمة فى الإسلام ، ت. حسن حبشى ، ط. القاهرة ١٩٦٧م، ص٥٦ – ص٥٧ ، على حسنى الخربوطلى، الإسلام وأهل الذمة ، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص١٧٥ .

٢- محمد مؤنس عوض ، الرحالة الأوربيون ، ص٢٤ .

كنيسة الضريح المقدس التى دمرها الحاكم بأمر الله . وقد اطلق الخليفة المستنصر سراح الأسرى ودفع الامبراطور البيزنطى الأموال اللازمة لذلك الترميم [١]، مما عكس أن سياسة الحاكم السابقة ثم تجاوزها بالفعل عمليًا .

والجدير بالاشارة: أن القرن المذكور شهد تزايد أعداد الحجاج المسيحيين إلى فلسطين ، ولدينا اشارة مهمة وردت لدى أحد المعاصرين وهو رالف جلابر Ralph Glaber ، إذ يقرر أنه فى البداية ذهب العامة ، ثم أولئك الذين انحدروا من الطبقةالوسطى، ثم قام بالحج العديد من الملوك ، والكونتات ، والمركيزات ، والأساقفة ، وليس هذا فحسب، بل النساء أيضًا، وقد تمنى العديدون أن يدركهم الردى هناك بدلاً من أن يعودوا أدراجهم إلى بلادهم [٢]؛ ومعنى ذلك: أن القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى - وهو القرن الذى حدثت فى أخرياته الصليبيات - شهد تعاظم ظاهرة الحج المسيحى إلى فلسطين ومن الأمور ذات الدلالة أنه خلال المرحلة من ١٠٦٤ إلى ١٠٦٥م / ٤٨١-٤٨٢هـ ؛ حدث الحج الألمانى الكبير الذى قاده سيجفريد Siegfried رئيس أساقفة ماينز Mainz ، وجونسر Gunther أسقف بامبرج Bam-berg ، ومعه عدد آخر من رجال الكنيسة[٣]، ويقال أن عدد الحجاج بلغ سبعة آلاف أو عشرة آلاف[٤]، وقدره البعض باثنى عشر ألفا من الرجال والنساء [٥].

١- Hadia DaJani , "Natives and Frank in pastine perceptons and interaction" in Con-version and Continuty : Indigenous christian communities in Islamic lands , Eight to Fig-teenth centuries , ed. Mechael Grervers and Ramzi Jibran silghazi, papers in Mediaeval studies,9 Toronto. 1990, p. 165 .

٢- Ralph Glaber, Historiarum, in wilkiason, Jerusalem Pilgrims , p. 174 .

قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ط. الكويت ١٩٩٠م، ص٢٢ ، الخلفية الأيديولوجية ، ص٢١٩ - ص٢٢٠ حيث توجد فى الملاحق الترجمة العربية لنص رالف جلابر .

٣- عن رحلة الحج الألمانية المذكورة ، أنظر هذه الدراسة الممتازة :

Joranson, "The Great German Pilgrimage of 1064-1065 ", in the Crusades and other Historical Essays , Presented to D.C. Munro , New York 1928, pp. 3-43 .

عزيز سوريال عطيه : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ت . فيليب صابر ، ط. القاهرة ١٩٧٢م .

٤- Runciman , Pilgrimages, p. 76 .

٥- ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق، ت. الياس شاهين، ط. موسكو ١٩٨٦م، ص٢٣ .

ومع ذلك ؛ فالملاحظ أن الصراع السلجوقى -الفاطمى قد أثر على انسياب الحج المسيحى إلى فلسطين ، فلم يعد بنفس التدفق ، ولم يعد على نفس الدرجة من الأمان، وهو أمر منطقى من خلال المواجهات العسكرية ، وغياب فعاليات السلطة المركزية القادرة على فرض الأمن فى مناطق عديدة فى بلاد الشام ومنها المناطق التى مر بها الحجاج المسيحيون ، مع ملاحظة أنه لم يحدث من جراء الوضع السابق ما يمكن وصفه باضطهاد شامل ووقف للحج المسيحى إلى تلك البقاع المقدسة ؛ إذ أن موجة من الادعاءات الباطلة سيتم ترويجها فى الغرب الأوربى فى أخريات ذلك القرن من أجل خلق مناخ نفسى عام يدعم فكرة اضطهاد الحجاج والمسيحيين الشرقيين، وبالتالى فإن البديل الوحيد المتاح؛ - من وجهة النظر الغرب أوربية- أن يتم تحرير تلك البقاع التى شهدت ذكريات المسيحية المبكرة، وجعلها فى قبضة المسيحيين بعد أن ظلت فى أيدى المسلمين قرابة خمسة قرون من الزمان .

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن هناك من المؤرخين الأوربيين المحدثين من أقر صراحة أن السلاجقة لم يضطهدوا عناصر الحجاج المسيحيين[1]، كما أننا نعلم أنهم أحسنوا معاملة أماكن العبادة المسيحية [2]، ولاارتياب لحظة فى أن تلك الإدعاءات التى ترددت قبيل اندلاع الصليبيات جاءت كجزء من الدعاية اللازمة للمشروع الصليبى المرتقب وكان لها دورها الفعال فى خلق سيكولوجية حشود عامة تريد الثأر من الإسلام وأهله وانتزاع الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين بأى ثمن، وإذا أدركنا أن ذلك العصر شهد تزايد الظاهرة الدينية بصفة عامة بكل رموزها ، ودلالاتها ، وتأثيراتها على إيقاع الحياة السياسية والاجتماعية نفسها ، لاحظنا أهمية ذلك الباعث الدينى وأثره على عقول قطاعات واسعة النطاق من سكان الغرب الأوربى حينذاك .

١- Thompson , Economic and Social History of the Middle Ages, vol. I , London 1959, p. 391 .

٢- كذلك يشير البعض إلى أن السلاجقة كانوا يعفون كنائس المسيحيين من الضرائب ، رأى مهم لدى الراحل الفاضل أ.د. ماجد، انظر :

عبد المنعم ماجد، الدولة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص٣٩ ، حاشية(١).

أما إذا انتقلنا إلى الباعث السياسي : فسنجده على درجة من الثراء مهمة فى دراسة كوامن الحروب الصليبية ، وحقيقة الأمر أن تلك الحروب مثلت «لعبة» سياسة كبيرة شاركت فيها كافة عناصر الغرب الأوربى السياسية من أجل الاستفادة إلى أبعد حدود ممكنة من ذلك المشروع الكبير.

وواقع الأمر أن البابوية ذاتها وهى على رأس المؤسسة الدينية كانت ترى فى مشروع الصليبيات وسيلة ناجحة من أجل توجيه الغرب الأوربى صوب وجهة واحدة ، فلأول مرة منذ قرون عديدة خلت تتمكن البابوية من تحقيق سياسة واحدة مهيمنة على مقدرات القوى السياسية هناك ، بل وتنظر من خلال تلك الحروب إلى أن تخضع كنيسة القسطنطينية ، وهكذا فإن حجم المكاسب كان ضخمًا ، وبالفعل كان على البابوية أن تقاتل؛ من أجل إنجاح هذا المشروع الذى كان وجودها ومستقبلها مرتبطان به إلى حد كبير، أما ما تصوره البعض من أن البابوية كانت حريصة على فشل الحملات الصليبية، ففيه جانب كبير من المغالطة ولايمكن أن ينطبق على كافة الحملات ، وربما كان يرتبط بالصليبية السادسة التى قادها الامبراطور الألمانى فردريك الثانى Frederich The Second (١٢٢٥-١٢٥٠م / ٦٢٢-٦٤٨هـ) الذى شق عصا الطاعة عليها ، فحرصت على إفساد حملته حتى لايقال أن الرجل الخارج على طاعة الجالس على مقعد القديس بطرس فى روما قد حقق نجاحًا لم يسبق إليه أحد.

والمنطق يدعونا إلى تصور أن المكاسب العديدة التى كانت البابوية تعلقها على نجاح المشروع الصليبى جعلها تتمسك به أشد التمسك، وكيف لاتتمسك به وتباركه وهو بمثابة السياسة الخارجية لها على اعتبار الدور البارز الذى لعبته الدبلوماسية البابوية فى سبيل الدعوة والاتصال بين القوى السياسية المختلفة المشاركة فى المشروع الصليبى الكبير.

ومن زاوية أخرى : من الملاحظ أن الأسرات الأوربية الحاكمة فى ذلك العصر؛ مثل أسرة آل كابيه Capet فى فرنسا ، والهوهنشتاون Hohenstaufen فى ألمانيا رأى ملوكها أباطرتها؛ أن الاشتراك فى المشروع الصليبى من شأنه تدعيم النفوذ السياسى الداخلى لتلك الأسرات ، وأنه لم يكن هناك انفصال بين السياستين الداخلية والخارجية لأولئك الحكام . وهكذا لانتصور أن اشترك أولئك القادة السياسيين الكبار من أجل دوافع دينية صرفة كما حرصت على ذلك كتب الحوليات ومؤرخو البلاط ممن كتبوا مدونات سياسية لايغيب عن أذهان مؤلفيها الدعاية السياسية الظاهرة . بل من أجل تدعيم نفوذ بلادهم خارجيًا حيث عدت الحروب الصليبية

مجالاً خصبًا للتنافس الدولى بين الدول الأوروبية من أجل تحقيق أكبر قدر من المكاسب والمغانم، ولاتغفل زاوية محورية وهى أن الخصومات والخلافات التى كان عليها الغرب الأوروبى من عداء بين انجلترا وفرنسا ، وخصومة بين ألمانيا والمدن الإيطالية ، وغيرها ، كل ذلك انتقل بدوره إلى ساحة الصليبيات : مما أدى إلى زيادة حدة التنافس السياسى بين كافة القوى المشاركة فى ذلك المشروع الكبير[1]، ولذلك فلا مبالغة فى القول إذا ذكرنا أن الصليبيات عكست تنافس الأسرات الحاكمة فى الغرب الأوروبى من أجل استعمار شرق البحر المتوسط .

وفى تصورى أن الباعث السياسى : يعد من أهم البواعث المحركة للمشروع الصليبى؛ إذ أنه يكشف لنا عن الطابع البرجماتى للحركة ويضعها فى إطارها التاريخى الصحيح دون الغلاف الدينى الذى تفيض به كتب الحوليات الصليبية. وسيكون لهذا الدافع دوره أيضًا فى إضعاف الحركة ذاتها بعد أن يستقر صراع المصالح السياسية للصليبيين على أرض بلاد الشام وكذلك على أرض القلب البيزنطى وتعنى به القسطنطينية وهو ما ستفصله - قدر الاستطاعة- الصفحات التالية فى حينها.

يبقى أن نذكر زاوية لاتخلو من أهمية : وهى أن الدافع السياسى ذاته يكشف لنا عن أن القائلين بالدافع الدينى لم يفطنوا إلى ثراء الحروب الصليبية وتعدد دوافعها ، وبواعثها ، وبالتالى أهدافها لقد كان الصليبيون بشرًا بكل معانى الكلمة ، وكانوا مقبلين على دنياهم بكل دلالات العبارة - بل بجشع غير مسبوق أحيانًا- وعلى صخرة المصالح السياسية سقطت مسوح الرهبان التى حرص مؤرخو الحوليات الصليبية أن يلبسوها لإبطالهم التاريخيين ، وهو أمر لم يكن دائمًا يمت للواقع التاريخى بصلة.

زد على ذلك : أن الدافع السياسى كشف لنا عن زاوية محورية لاتغفل ، وهى أنه أمام الرغبة فى النفوذ السياسى التعاظم والرغبة فى الزعامة السياسية؛ عمل الجميع بالسياسة من حيث لايدرون حيث كان استعمار الشرق الإسلامى فى بلاد الشام بمثابة الفرصة الذهبية التى

١- والجدير بالذكر هنا أن ذلك الطابع التنافسى انعكس بدوره على واقع الكتاب التاريخية ذاتها ، حيث تباينت وجهات النظر بصورة حادة ومن عوامل ذلك انتساب المؤرخين الأوربيين إلى أمم متخاصمة ومتصارعة ومتنافسة أصلاً على أرض القارة الأوروبية قبل القدوم إلى الشرق.

جاد بها الزمان والتى ربما لاتتكرر فلماذا لايهتم بها قادة أوربا ملوكًا وأباطرة ؟ أن الواقع التاريخى اثبت بالفعل أن المصالح السياسية حركت - إلى درجة كبيرة - القوى المشاركة فى هذا المشروع الذى احتوى عموم القارة الأوربية وبصورة أكبر من الباعث الدينى وتلك هى حقيقة ذلك العصر التى لايمكن إغفالها .

أما الباعث الاقتصادى ، فهو الدافع الذى يحتل هو الآخر مكانة متميزة بين بواعث الصليبيات ، ويكفى أن نثبت وجود ذلك الدافع كواقع تاريخى من خلال الخطاب الرسمى الذى شن المشروع الصليبى ونعنى به خطاب البابا أوربان الثانى . Urbanus II (١٠٨٨-١٠٩٩م/ ٤٨١-٤٩٣هـ) فى مجمع كليرمونت Clermont ١٠٩٥م / ٤٨٩هـ[1]؛ إذ يكشف لنا البابا أنه ذكر أمر أرض كنعان التى تفيض لبنًا وعسلاً ، كذلك أشار إلى أن الأرض فى الغرب الأوربى ولاسيما فى فرنسا حيث وجد الفرنجة ضاقت بسكانها ، ويدل هذا الاغراء الاقتصادى الجلى تمامًا على عمق الدافع الاقتصادى منذ اللحظات الأولى لميلاد المشروع الصليبى.

ومن المهم أن نقرر : أن بلاد الشام - وعلى نحو خاص- مثلت من الناحية التجارية واجهة غرب آسيا ونافذتها المطلة على أوربا ، وكانت خطوط التجارة وقوافلها الثرية تتجه من شرق ووسط آسيا إلى غربها ، حتى موانىء بلاد الشام ومنها تصدر السلع التجارية المختلفة إلى مراكز الاستهلاك فى أوربا وقد قام المسلمون لعدة قرون وبالتحديد من القرن السابع الميلادى/ الأول الهجرى حتى القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى بدور فعال فى الوساطة التجارية بين الشرق والغرب وحقق المسلمون نجاحات كبيرة فى هذا الصدد ولايمكن فصل النهضات الحضارية التى حدثت فى مراحل تاريخهم فى القرون الوسطى ومن جانب عدد من الأسرات الإسلامية الحاكمة كما لدى العباسيين والفاطميين والأمويين فى الأندلس وغيرهم دون الأخذ فى الاعتبار التحكم فى جانب مهم من خطوط التجارة العالمية المارة بمناطق نفوذ المسلمين فى قارات آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا[2] ؛ أى العالم القديم المعروف حينذاك .

١- سيتم تناول أمر خطاب البابا بالتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

٢- أرشح للقارى الدراسة الممتازة التى أعدها المستشرق الفرنسى البارز موريس لومبار Lombard (M.) بعنوان L'Islam dans sa premiere grandeure ، ولها ترجمة انجليزية انظر :

Lombard, (M.) , The Golgen Age of Islam , Trans . by Jean Spencer, Holland 1975 .

لقد رأت القوى التجارية الايطالية مثل البندقية ، وجنوة ، وبيزا فى المشروع الصليبى فرصة سانحه من أجل التحكم فى تجارة الشرق[1]، وتحجيم دور المسلمين كوسطاء تجاريين ومن خلال ذلك يتم تحويل ثروات الشرق إلى أوربا. ولانغفل هنا أن نشير إلى الأهمية الكبيرة لأساطيل المدن التجارية الإيطالية فى الاستيلاء على الساحل الشامى الذى مثل هدفًا استراتيجيًا للصليبيين ظلوا يقاتلون من أجل اخضاعه بالكامل لسيادتهم مدة نصف قرن من الزمان، ومن المؤكد أن الايطاليين لم يساهموا فى المشروع الصليبى إلا من خلال الدافع الاقتصادى ولم تكن الزاوية الدينية تمثل لهم نفس الأهمية، ويكفى أن نشير إلى أن البنادقة رفعوا شعاراً يقول : «نحن بنادقة أولاً ثم مسيحيين من بعد ذلك »، وفى هذا الدليل الجلى على حقيقة اشتراكهم فى المشروع المذكور .

لقد سار التجار الصليبيون وخاصة الايطاليون منهم وراء القادة العسكريين ، وفى كل موقع قدم الايطاليون دعمهم الحربى للصليبيين كان المقابل تخصيص حى بندقى أو جنوى فى الموقع الجديد الذى يسقط فى قبضة الغزاة ، ناهيك عن الاعفاءات من الرسوم الجمركية، وهكذا كان الايطاليون هم أساتذة التجارة الذين بإمكانهم إعادة رسم خريطة المنطقة من خلال دور جديد لهم أكثر توسعًا وثراءً وشراهة أيضًا .

= وهناك ترجمة عربية انظر :

موريس لومبارد، الإسلام فى مجده الأول. ت . اسماعيل العربى، ط. الدار البيضاء ١٩٩٠م.

١- عن دور المدن التجارية الإيطالية فى الحروب الصليبية انظر المؤلفات التالية:

Byrne (E.), "Commercial Contacts of the Genoese in the Syra'n Trade of The Twelfth Century" J.E.H., vol XXXI, 1916 , pp. 128-170 , "Genoese Trade with Syra' in theTwelfth Century", A.H.R., vol. XXV, 1919-1920 , pp. 191-219 .

شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية ت. أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، ط. القاهرة ١٩٤٨م . عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية من الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م مصطفى الكنانى، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى ١١٧١-١٢٩١م/ ٥٦٧-٦٩٠هـ، ط. الاسكندرية ١٩٨١م، عفاف صبره ، العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة ١١٠٠ إلى ١٤٠٠م، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

وهناك العديد من الأمثلة الدالة على الدافع الاقتصادى وكيف حسم زوايا وقضايا عديدة فى تاريخ ما سمى يومًا بالشرق اللاتينى L'Orient Latin , The Latin Orient وهو تعبير يطلق ليعنى مناطق الصليبيين فى بلاد الشام والجزيرة ، فالقسطنطينية عندما سقطت فى قبضة اللاتين عام ١٢٠٤م / ٦٠٢ هـ ؛ كان ذلك من خلال التنافس الشديد بين بيزنطة والبندقية على السيادة التجارية شرق البحر المتوسط ولايمكن - بأى حال من الأحوال- تصور أحداث ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ دون النظر إلى البعد الاقتصادى التجارى الذى لاينكر[١].

ومن زاوية أخرى ؛ نجد أن فرسان الداوية Templars الذين بدأوا كهيئة حربية ونظرت إليهم حوليات العصر على أنهم رهبان فرسان نذروا حياتهم من أجل حماية الحجاج ومحاربة المسلمين نجد أنهم تحولوا فيما بعد إلى صيارفة ورجال بنوك[٢] بل ووصل بهم الأمر إلى حد إقراضهم الملوك كما حدث مع الملك الفرنسى لويس التاسع Loius IX (١٢٢٦-١٢٧٠م / ٦٢٤-٦٦٩هـ) عندما تم أسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ ، ويلاحظ أنهم رفضوا أمر الأقراض فى البداية ووافقوا أخيراً على ذلك على مضض [٣].

ونقدم مثالاً ثالثًا أكثر حدة وتناقضًا من خلال معرفتنا بأن من رجال الدين فى مملكة بيت المقدس الصليبية من كانوا يؤجرون أماكن العبادة من أجل أعمال الدعارة [٤]، وهل هناك دليل أكثر وضوحًا من تأثير المال على نفوس أولئك الذين رفعوا راية الدين من هذا المثال؟

١- سيتم تناول ذلك بالتفصيل فى الفصل التاسع من هذا الكتاب .

٢- عن ذلك انظر :

Favier , "Les Templiers Ou L'échec des banquiers de la Croisade", L'Histoire, T. XLVII, Année 1982 , pp. 44-51 .

٣- Jean de Joinville , The Life of Saint Louis , Trans. by shaw , London , p. 259 .

حسن حبشى، الشرق الأوسط بين شقى الرحى، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص١٠٩ ، جوزيف نسيم يوسف ، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ط. القاهرة ب-ت، ص١١٦ ، العدوان الصليبى على مصر، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م، ص٢٨٥، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر، ط. الاقهرة ١٩٦١م، ص١٠٩ .

٤- انظر اشارات مهمة لدى: جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، ص٩٢-٩٣ .

ونستطيع القول- دون اعتساف فى الاحكام أو قولبة - أن الصليبيين استقروا حيث كانت هناك الوفرة المادية والثراء العريض، وتوسعوا حيث كان هناك الاغراء المادى بالتوسع ، ورفعوا شارة الصليب -فقط- كمبرر دينى ممتاز فى عصر تلك كانت طبيعته .

ولاريب فى أن ذلك كله ؛ من شأنه أن يكشف لنا عن حقيقة جلية وهى أن «أرض كنعان التى تفيض لبنًا وعسلاً دفعت الصليبيين دفعًا نحو سلب ثروات وخيرات الشرق،وأمام الإغراء المادى تساقط الكثيرون من الصليبيين- سواء رجال دين أو علمانيين- كأوراق الخريف .

أما الباعث الاجتماعى [١]؛ فله أهميته الخاصة ، على اعتبار أن مجتمع الغرب الأوربى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى صدر إلى الشرق الأدنى الإسلامى تلك الظاهرة التاريخية، وهى التى اعتمدت على الأساس السوسيو- اقتصادى.

ومن المعروف أنه فى أعقاب انهيار امبراطورية شارلمان ، تلاشت السلطة المركزية ، وظهر إلى الوجود النظام الإقطاعى Feudal System [٢]، وهو نمط الانتاج السائد فى الغرب الأوربى منذ القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى، وفى ظل ذلك النظام وجد هناك الذين يحاربون وهم الفرسان الذين صاروا فى قمة الهرم الطبقى، ثم الذين يتعبدون وهم رجال الكنيسة الذين يأتون فى الدرجة التالية، ومن بعد هؤلاء ، هناك الأقنان الذين يزرعون الحقول ومن الملاحظ أن عناصر الأقنان افتقدت أية حقوق فى ظل النظام الاقطاعى واعتبروا كالدواب ، لافرق بينهم البته، وتعرضوا للفقر وافتراس الأمراض الفتاكة ، وكان السيد الاقطاعى يمتلك الأرض بمن عليها من أقنان ، وإذا ما فكر القن فى الفرار من الضيعة يتم قتله جزاء شقه عصا الطاعة على سيده . ومن الملاحظ أن طبقة الأقنان مثلت الغالبية العظمى من السكان ومعنى ذلك أن كل الحقوق كانت لشريحة صغيرة تمثلت فى الفرسان والغالبية كانت تعانى الأمرين من ذلك النظام.

١- عن الباعث الاجتماعى للحروب الصليبية أنظر :

قاسم عبده قاسم، «الدوافع الاجتماعية فى الحركة الصليبية» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م (٢) ، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص١٨٩- ص٢٣٣ .

٢- عن النظام الاقطاعى فى الغرب الأوربى انظر :

كوبدلاند وفينو جرادوف، الاقطاع فى العصور الوسطى بغرب أوربا، ت . محمد مصطفى زيادة، ط. القاهرة ١٩٤٥م.

إسحق عبيد، الفرسان والاقنان فى مجتمع الاقطاع، ط. بنى غازى ١٩٧٥م.

ومن الملاحظ أن الحروب الصليبية عندما ظهرت إلى الوجود، كان النظام الإقطاعى فى الغرب الأوربى قد وصل إلى قمة نموه على مدى المرحلة الواقعة بين القرنين التاسع والحادى عشر الميلاديين/ الثالث والخامس الهجريين، ومن خلال ذلك وجدنا ظاهرة الفرسان الذين أصبحوا بلا أرض على اعتبار أن توريث الأرض كان للابن الأكبر فقط، كذلك دبت الصراعات والحروب الاقطاعية وعجزت البابوية عن ايقاف نزيف الدم المستمر ولم تتمكن من خلال الهدن المتعددة أو ما يعرف بسلام الرب Pax de Dei تجد حلاً للصراع الداخلى بين طبقة الفرسان، فإذا أضفنا إلى ذلك الوضع المتردى للأقنان؛ أدركنا أن مشروع الحروب الصليبية كان من شأنه إيجاد متنفس للطاقة الحربية التى لدى الفرسان وحتى يكونوا أملاكًا لهم فى الشرق، كذلك فإن الأقنان رأوا أن بإمكانهم مغادرة ضياعهم لأول مرة- بعد أن سمحت لهم البابوية بذلك. وأدركوا أن عليهم الاتجاه إلى الشرق لعلهم يجدوا أوضاعًا معيشية أفضل من تلك التى يعيشون خلالها ناهيك، عن سحر الشرق الذى داعب وجدانهم بقوة.

وهكذا؛ كان المجتمع الاقطاعى بتناقضاته والظلم الواقع على طبقة الأقنان، والصراع الداخلى فى طبقة الفرسان، كان ذلك النظام هو المصدر لظاهرة الحروب الصليبية، من خلال إدراك البابوية أن أفضل الحلول للمشاكل الداخلية التى يعانيها ذلك المجتمع هى توسعة نحو الشرق وتكوين مستعمرات هناك تمتص كافة تلك الطاقات الحربية المهدرة فى الصراع على الأرض الأوربية ذاتها.

أما دافع الفروسية؛ فله شأنه المهم هو الآخر، فمن المعروف أن النظام الإقطاعى. كما أسلفت - أفرز لنا طابعًا خاصًا على المستوى الحربى فى صورة الفروسية Knighthood، ومن الملاحظ هنا أن الفروسية الأوربية فى العصور الوسطى نجد أصولها فى الشعوب الجرمانية التى اشتهرت بقوة الشكيمة وشدة البأس فى الحرب [1] ومع وجود فكرة الحرب العادلة Just War وهى التى أوجدها كبار آباء الكنيسة مثل القديس أوغسطين St. Augustin اتجهت البابوية إلى الاستفادة من ذلك فى صورة توجيه الفرسان إلى قتال أعداء المسيحية فى صورة المسلمين فى أسبانيا ثم بلاد الشام.

١- عن ذلك أنظر: Tacitus, Germany and its Tribes, Complete Works of Tacitus, Trans. by Brodribb, Colombia 1942.

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام ، أن الفروسية الأوربية حينذاك وجدت مجالاً وافراً من خلال المشروع الصليبي ، ولاأدل على ذلك من ظهور العديد من الهيئات الحربية The Military Orders في صفوف الصليبيين بعد استقرارهم في بلاد الشام، ومن ذلك الاسبتارية Hospitallers ، والداوية Templars وهيئة التيوتون Teutonic Order ، وهيئة القديس لازاروس St. Lazarus ، والقدس توماس St. Thomas وغيرهم ، وهو أمر سنتناوله في موضع آخر من هذه الدراسة.

وتبقى ملاحظة هنا بشأن الدافع الخاص بالفروسية، إذ أنه على أرض بلاد الشام ستلتقى الفروسية الصليبية فى مواجهة الفروسية الإسلامية. على نحو سيكشف بجلاء معايير وأخلاقيات وخصوصيات كل فريق من خلال البيئة الأصلية التى نشأ وترعرع فيها.

وننتقل الآن إلى الباعث التنصيري[1]؛ وهو الذى يمثل واحداً من أهم وأخطر الدوافع المحركة للمشروع الصليبي، فقد أرادت البابوية تحويل مسلمي الشرق الأدنى إلى أن يكونوا مسيحيين تابعين للكنيسة الكاثوليكية في روما. وسيؤدي ذلك- في حالة حدوثه بالطبع- إلى تدعيم نفوذ تلك الكنيسة ، لاسيما في مواجهة الكنيسة المناوئة لها وهي كنيسة القسطنطينية التي تمكنت من تحويل الروس إلى المسيحية الأرثوذكسية في عهد الامبراطور البيزنطي باسل الثاني Basil II (٩٧٦-١٠٢٥م/ ٣٦٦-٤١٦هـ) وعهد الأمير الروسي فلاديمير (٩٨٠-١٠١٢م / ٣٧٠-٤٠٣هـ) ، حيث اعتنق الأخير المسيحية وجعلها الدين الرسمي لدولته [2].

١- عن الجانب التنصيري في عصر الحروب الصليبية أنظر :

أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى، ط، بيروت ١٩٨١م، ص١٦٨ . ابن جبير ، الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٨١ .

Baldwin (M.), "Mission To the East in the Thirteenth and Fourteenth centuries ", in Setton, A History of the Crusades, Vol V, philadelphia 1985 , pp. 452-518 .

Kedar (B.), Crusade and Mission, European A pproches to the Muslims, princeton 1988.

وتعد أفضل الدراسات المتخصصة عن الموضوع :

Hadia Dajani , "Natives and Franks in Palestine : per ceptions and interaction" Conversion and Continury : indigenous Christian Communities in Islamic lands, Eighth to Erghteenth Centuries , ed . Mechael Gervers and Ramzi Jibran Bikhozi , papers in Medieval Studies, 9 , Torento , Pontifecal Institute Mediaval Studies 1990, pp. 172-174 .

٢- عن اعتناق فلاديمير المسيحية انظر :

Meyendorff and Paynes , "The Byzantine Inheritance in Russia", in Paynes and Moss,

والأمر المؤكد : أن البابوية باعتبارها راعية لعالم المسيحية Christendom : رأت ضرورة توسيع دائرة معتنقى المسيحية ولايتأتى ذلك لها إلا من خلال السيطرة على ميادين جديدة لنشرها، خاصة إذا كان فى المناطق الجديدة التى ستتوسع فيها مسيحيون ظلوا على ديانتهم على مدى عدة قرون ، وكانت -على أساس ذلك- ترى فى مسلمى الشرق الأدنى فرصة مسافة من أجل إدخالهم نطاق المسيحية وإبعادهم عن الإسلام.

ومما عمق خطورة هذا الدافع على نحو خاص، حدوث تجارب سابقة فى مجال التنصير على الأرض الأوربية وعن أمثلتها الجلية تنصير شارلمان لعناصر السكسون بعد أن أعيته حربهم وقد استعمل القوة وسفك الدماء فى سبيل تحقيق ذلك الهدف كما حدث فى مذبحة فردان عام ٧٨٢م / ١٦٦هـ [١]، التى راح ضحيتها أربعة آلاف وخمسمائة منهم.

والجدير بالذكر : أن عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام ومصر قد شهد حوادث ارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية ، ومن أمثلتها حوادث فردية أورد أمرها الرحالة الأندلسى ابن جبير فى رحلته[٢]، وكذلك اتجاه الصليبيين إلى تنصير نحو اربعمائة طفل مصرى مسلم خلال حملة الصليبيين على دمياط فى أحداث الصليبية الخامسة. وعلى الرغم من ذلك . من الملاحظ أن حالات اعتناق المسيحية. كانت حالات محدودة ولم تمثل البتة ما يوصف بأنه ظاهرة ، بل وجدنا العكس فى صورة اعتناق عناصر من الصليبيين للإسلام[٣] مما يعكس حقيقة محورية

Byzantium, an introduction to East Roman Civilization, Oxford 1952, p. 371-372, = Rybarov, Early Centuries of Russian History, Moscow 1965, p. 51 .

بوريس راوشنباخ ، «تعميد كييف»، مجلة رسالة اليونسكو ، العدد التذكارى بمناسبة مرور ألف عام رقم (٣٢٥) ، يونيو ١٩٨٨م، ص٤- ص٨ ، ليلى عبد الجواد، تاريخ الروس من خلال المصادر العربية ، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص٥٥ ، طارق منصور ، الروس والمجتمع الدولى (٩٤٥-١٠٥٤م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٩م ، ص٩٧ .

١- عن مذبحة فردان انظر :

محمد مرسى الشيخ ، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ط. الاسكندرية ١٩٩٤م، ص٢٥٦ .

٢- الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٨١ .

٣- من ذلك اعتناق ثلاثة آلاف شخص من الصليبيين الإسلام خلال أحداث الصليبية الثانية فى منطقة اتاليا ATalia عام ١١٤٨م / ٥٤٣هـ، عن ذلك انظر : Odo of Deull, De Profectione Ludovici VII in Orientem, Trons. by V.G. Berry, Columia MCMXLVIII, p. 141 .

توماس أرنولد، الدعوة الى الإسلام ، ت. حسن ابراهيم، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص١٠٨-ص١٠٩ .

ألا وهى أن التنصير عجز عن تحقيق مكاسب كبيرة للبابوية بضم معتنقين جدد على نطاق متسع لعالم المسيحية.

وبعد : فتلك أهم ملامح البواعث المحركة للحروب الصليبية وقد تفاعلت معًا فى توافق كامل، وتزامن فعال من أجل صنع تلك الأحداث الصاخبة التى شهدت ما يمكن وصفه بالصراع العالمى فى القرون الوسطى، ولذلك لانتعصب لباعث دون الآخر، والأفضل الرؤية الشمولية واشتراك البواعث جميعها فى صنع حركة التاريخ خلال تلك الحقبة.

وتبقى زاوية نختتم بها الحديث عن البواعث المحركة للحروب الصليبية وتتمثل فى الدور الفردى ، إذ أن تلك البواعث وجدت لها القائد الفرد الذى امتلك القدرة على تحريك أحداث التاريخ، ولذلك أرى أن كافة تلك المحركات لاجدوى لها دون الفرد القائد وخاصة ذو الكاريزما والقدرة على تحريك الحشود الضخمة من البشر من أجل المشاركة فى تحويل الفكرة القائمة فى ذهنه إلى واقع تاريخى معاش تشترك الجماهير فى صنعه ، وهكذا يمكن تصور البواعث مع القائد التاريخى والجماهير ككتل شعبية تصنع الأحداث ذاتها ، لتظهر لنا فى النهاية ، ظاهرة الحروب الصليبية.

على أية حال ؛ يحسن بنا فى هذا المدخل التعرض لزاوية مهمة فى دراستنا فى صورة بداية الحروب الصليبية ، وفى هذا الصدد نجد اختلافًا بين المؤرخين ، فالبعض تصور أن الحملات التى شنها الامبراطور البيزنطى هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١م) ضد الامبراطورية الفارسية ردًا على غزو الأخيرة لأملاك الامبراطورية البيزنطية[١]، نوعًا من الصليبيات Crusades ، وذلك على اعتبار الشعارات الدينية التى صاحبتها مثل الصلبان ، وصورة السيدة مريم العذراء وهى تحمل السيد المسيح -عليه السلام- طفلاً .

ومن ناحية أخرى؛ نجد أن الحملات العسكرية التى شنها القادة العسكريون البيزنطيون (٩٥٩-٩٧٦م) الذين حكموا ضمن الأسرة المقدونية وخاصة الامبراطور نقفور فوقاس

١- عن حروب هرقل ضد الفرس انظر هذه الدراسة الممتازة .

ليلى عبد الجواد، الدولة البيزنطية فى عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين ، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٢٣٠-٢٦٧ .

Nicephorus Phocas[1] (٩٦٣-٩٦٩م/ ٣٥٢-٣٥٩هـ) وكذلك يوحنا تزيمسكس[2] John Tzimisces (٩٦٩-٩٧٦م / ٣٥٩-٣٦٦هـ) والتى وصلت بيزنطة من خلالها إلى مناطق طردت منها منذ القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى بفعل حركات الفتوحات العربية الكبرى. ومن أمثلتها : أنطاكية ، ومعرة النعمان، وشيزر ، وحماه، وحمص، وغيرها، هذه الحملات صاحبتها بعض الشعارات والرموز الدينية من ذلك صيحة نقفور فوكاس أمام حشود البيزنطيين فى الهبدروم Hippodrome بأنه سيذهب إلى بلاد الشام فاتحًا من أجل تحرير القدس حتى تعود إلى أحضان المسيحية من جديد. وقد تصور البعض أن تلك الحملات مثلت نوعًا من الصليبيات ، وبذلك جعلوا الصليبيات تنبع من جانب الإمبراطورية البيزنطية من خلال تاريخها التصادمى مع الإسلام.

ورأى فريق ثالث : أن شارلمان Carolus Magnus مؤسس الدولة الكارولنجية ، بدأ الحروب الصليبية من خلال حملته على الأندلس والتى حاصر فيها مدينة سراقسطة الخاضعة للسيادة الإسلامية ٧٧٨م / ١٦٢هـ وأنه أثناء عودته فتكت عناصر الباسك بجيشه أثناء عبوره من ممر رونشفال عبر جبال البرانس الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا ، وقتل الكثيرون من قواته، ومنهم الفارس رولان الذى صار فيما بعد أساسًا لملحمة شعرية عرفت باسم أنشودة رولان la chanson de Roland[3] والتى تظهر رولان على أنه فارس صليبى دافع عن المسيحية حتى الموت ضد أعدائها، وقد ظلت تلك الانشودة -التى ليس لها مؤلف محدد- تمثل أحد الروافد المختزنة فى العقل الجمعى الأوربى فى العصر الوسيط، بل كانت ضمن الأناشيد الحماسية التى تغنى

١- عنه انظر : كمال توفيق ، الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة، ط. الاسكندرية ١٩٥٩م.

٢- عنه انظر :

Walker, "The Crusade of John Tzimisces in the Light of New Arabic evidences", B. 1977, pp. 301-327 .

وعن عصر القادة العسكريين بصفة عامة انظر : محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية مدخل لدراسة التاريخ السياسى والحربى> ط. بيروت ١٩٨١م ، ص١٩٥-ص٢٠٩ .

٣- عن أنشودة رولان أنظر هذه الدراسة الممتازة التى أعدها عمدة مؤرخى الصليبيات السكندريين المعاصرين .

=

بها الصليبيون فيما بعد فى الصليبية الأولى أثناء عبورهم المسافات الشاسعة من الغرب الأوربى حتى بلاد الشام.

ومن المحتمل أن الموقف المدعم للبابا الثالث Leo III على نحو خاص (٧٩٥-٨١٦م / ١٧٩-٢٠١هـ) الذى قام به شارلمان ، والجانب التنصيرى الذى صاحب حملاته على السكسون، كل ذلك أوهم البعض أنه أمام فارس صليبى من نوع خاص، فتصور لذلك أن شارلمان بحملته على الأندلس قد افتتح الحروب الصليبية.

وفى واقع الأمر : أن حروب الامبراطورية البيزنطية ضد الفرس فى عهد هرقل وكذلك حروبها التى خاضتها ضد المسلمين فى عصر القادة العسكريين ، لاتعد صليبيات Crusades بالمعنى الاصطلاحى ، بل انها توصف بمرحلة ما قبل الصليبيات Pre-Crusades ، وإن كان لها دورها فى الاختزان والاحتشاد فى الذاكرة الأوربية فى العصر الوسيط إلى أن تأتى ساعة الانقضاض على المسلمين فى صورة الحروب الصليبية الفعلية.

وجدير بالذكر : أن الصليبيات من نتاج الغرب الأوربى وليس الشرق البيزنطى ، وقادتها كنيسة روما وعلى رأسها البابا ولم تقدها كنيسة القسطنطينية وعلى رأسها أسقفها؛ حيث أن تلك الأخيرة لم تكن تحبذ فكرة الحرب وتدعوهم إلى الصيام والتوبة لمن يقتل آخراً ، أما الغرب فقد نضجت فيه فكرة الحرب المقدسة Bellum Sacrum بصورة رشحته ليكون الرحم التاريخى الذى منه خرجت الصليبيات ، فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن الصليبيات اقترنت بأخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وأنها ارتبطت بالغفران الكنسى من الآثام والذنوب، أدركنا بالفعل مكان وزمان ميلاد تلك الظاهرة التاريخية الكبرى فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ونعنى بها الصليبيات .

مجمل القول وصفوته : إن مجتمعًا تلك كانت تصوراته عن «الآخر» من المتصور والمنطقى تمامًا أن يكون تعامله معه دمويًا وعنيفًا ومعبراً عن أزمته الحضارية ، وهو أمر تجلى لنا من خلال أحداث الصليبية الأولى الأمر الذى ستحدثنا به الصفحات التالية.

= جوزيف نسيم يوسف، أنشودة رولان قيمتها التاريخية وما أثير حولها من جدل ونقاش ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، ص٢٤٣ - ص٢٧٥ .

وانظر النص الأصلى للأنشودة المذكورة فى ترجمته الانجليزية :

The Song of Roland , Trans . by Sayers, Penguin Classics , London 1977 .

والآن : نصل فى هذا المدخل إلى زاوية إشكاليات الدراسة الخاصة بتاريخ الحروب الصليبية، وفى حقيقة الأمر أن التعامل مع تلك الظاهرة القروسطية يعكس لنا أننا بالفعل أمام العديد من ملامح الاشكالية التى تجعل ارتيادها أمراً ليس باليسير.

فمن الملاحظ أن هناك وفرة المادة المصدرية من جانب جمع غفير من المؤرخين اللاتين ، والبيزنطين والمسلمين، وتباين وجهات نظرهم من خلال اختلاف اتجاهاتهم السياسية والعقايدية، وانعكاس ذلك على اتجاهاتهم التأليفية ذاتها، وقد يرى البعض أن غزارة التراث التاريخى الناجم عن تلك الظاهرة التاريخية سواء من جانب المؤرخين المعاصرين واللاحقين يجعل الأمر سهلاً ميسوراً ، غير أنه ليس فى كل الأحوال يحدث ذلك، لأنه كان هناك عداء مستمر بين المسلمين والصليبيين على أرض الواقع التاريخى، واتصفت المادة التاريخية التى وصلت إلينا بذات الصفة ، وهكذا فنحن أمام تراث تأليفى متصارع ومتعادى ومتنافر ويحمل وجهات نظر متحاربة فى الأصل، والاتفاق هنا على العداء أكثر من أى شيء آخر.

زد على ذلك : هناك مشكلة الموضوعية ، فى صورة كيفية التعامل بموضوعية مع حركة تاريخية جعلت لها أسلوبًا خاصًا من العنف والدموية منذ اللحظات الأولى التى وطأت بأقدامها أرض بلاد الشام. ثم هناك العداء السافر للإسلام وأهله، ومثل هذا الموقف ينبغى ألا يتوقع القارىء أن يجد مورخًا قد تجرد من ذاتيته تمامًا من أجل ما يسمى بالموضوعية، ولذا فأتصور أن الأخيرة لها حدود لاتتجاوزها وفى تقديرى أنه لم يوجد بعد ذلك المؤرخ الذى لاينفعل أمام ما يراه بعينيه وما يلمسه بيديه ويتنفسه من خلال أحداث ذلك العصر التى تفيض بها مصادر ذلك العصر ، وبالتالى مع التقدير للموضوعية، لابد من أن يكون هناك «الذاتيه» الواعية التى تدرك طبيعة العصر، وتحكم على قادته بالبعد الإنسانى الشمولى العام على اعتبار أن الأبعاد الإنسانية لاتتغير بتغير العصور، وإن كان ذلك كله ينبغى أن يتم بقدر وافر من الحذر والاحتياط حتى لانتجرف أمام تيار الشيفونية الخرقاء الغير مأمونة الجانب.

كذلك لانغفل ، ناحية مؤثرة فى صورة المسئولية التاريخية وعلى من تقع، بالنسبة لكل من الجانبين ، خاصة أن المعاصرين اختلفت تصوراتهم بشأنها، وبالتالى تم تضبيب أبعادها وأحيانًا يجد المؤرخ المنصف نفسه فى حيرة محيرة يصعب معه أن يضع تصوراً ما لحدودها أمام البون الشاسع فى وجهات المعاصرين ، وامتد الأمر للمتأخرين فى الكتابة التاريخية بطبيعة

الحال، خاصة أن المسئولية التاريخية في ذلك العصر، لم تكن فردية فقط- كما قد يتصور البعض- بل جماعية أيضًا على اعتبار أن التاريخ تصنعه الشعوب وينسبه المؤرخون للحكام في عالم القرون الوسطى بل وفى كل عصر! ولاريب فى أن ذلك يجعل من أمر البحث عن تلك المسئولية أمراً على جانب كبير من المشقة.

ويؤدى بنا ذلك الموقف فى شأن المسئولية التاريخية إلى مأزق ما فى صورة كيف نحكم على أولئك المسئولين التاريخيين ، هل نلتمس لهم العذر أحيانًا ، أم أننا نقسو عليهم على اعتبار إدراكنا للنتائج الوخيمة - أحيانًا- التى نبعث عن قراراتهم على المدى البعيد فى عمر الزمان، خاصة مع إدراكنا أننا نحكم الآن على تلك الظاهرة التاريخية القروسطية فى تكوينها فى أوربا وكذلك فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادين / السادس والسابع الهجريين ، ونحن نعيش أخريات القرن العشرين الميلادى / الخامس عشر الهجرى، حيث الفوارق العديدة بين المعاصرتين، الصليبيون وغيرهم . ونحن وعصرنا مع اختلاف قضايا كل عصر ، وتصوراته ، ونتاجه التاريخى ذاته.

ولا مراء : فى أن كافة تلك التصورات السابقة تكشف لنا أننا أمام إشكالية حقيقية ، وإن ما يتصوره البعض من أن دراسة تلك الحقبة التاريخية أمر مكرر ومعاد ويعانى من الرتابة أحيانًا ليس حقيقيًا لأن هناك صعوبات للدراسة وهناك على الطرف الآخر محاولة مواجهتها، وعلى قدر المحاولة يكون الحصاد ذاته ليضاف إلى جهد الآخرين فى دراسة عصر لايتصور أحد فهمه فهمًا كاملاً.

ذلك عرض عام لتعريف الحروب الصليبية ، وبواعثها المتعددة تم تحديد بداياتها الزمنية وأخيراً اشكاليات الدراسة ذاتها، أما الفصل التالى ، فإنه يتناول الأوضاع التى كان عليها الغرب الأوروبى وكذلك الشرق الإسلامى قبيل إندلاع تلك الظاهرة التاريخية الكبرى فى عالم القرون الوسطى.

الفصل الأول

الشرق والغرب قبيل الصليبيات

يتناول هذا الفصل بالدراسة الأوضاع التى كان عليها الشرق، وكذلك الغرب قبيل إندلاع الصليبيات ويلاحظ أن الشرق هنا يعنى مناطق الشرق الأدنى الإسلامى خاصة فى مصر والشام، وكذلك الشرق البيزنطى ، أما الغرب فيعنى الغرب الأوربى، على اعتبار أن أحوال كل من الطرفين قبيل الصدام بينهما يمثل أهمية خاصة تعيننا على فهم طبيعة ما حدث، والعلية التاريخية التى صاحبته ، حيث أن الهدف ليس دراسة الصدام فى حد ذاته ، بل مسبباته ومن ثم نتائجه .

الواقع أن دراسة أوضاع الشرق والغرب قبيل اندلاع الحروب الصليبية ليس بالأمر اليسير ، نظراً لتعدد العناصر المشاركة فى تكوين كل من الجانبين المتصارعين ، وتباين التحالفات والتحالفات المضادة ، ومع ذلك من الممكن الاقتراب من الأمر من خلال تصور بانورامى عام لعله يمكننا من تصور الأمور على نحو أفضل من اللهث وراء الجزئيات التى -بالتأكيد- لاتصل بنا إلى إدراك التطور العام لمسار حركة التاريخ خلال تلك المرحلة الصاخبة الأحداث.

وفى تصورى المتواضع : أن الحروب الصليبية تمثل افرازاً من الغرب الأوربى، وهى نتاج طبيعى ومنطقى تماماً للأوضاع التى كانت سائدة هناك ، غير أن ذلك ينبغى ألا يوقعنا فى تناقض أساسه النظر إلى الطرف الإسلامى وكأنه متلقى ساذج لصدمة الغزو الصليبى أو تصوير الأمر وكأن المبادرة التاريخية فى الصدام كانت لدى الصليبيين من الغرب الأوربى وأن المسلمين كانوا مجرد ساكنى النطاق الجغرافى الذى حل به الغزاه . وهكذا فمن البداية ينبغى أن نقرر بالندية بين الطرفين ، بل لا أبالغ إذا ذكرت أن الأحداث التى وقعت لدى الجانب الإسلامى كانت بمثابة البداية الحقيقية لاستنفار الغرب الأوربى، فالمبادرة التاريخية كانت من طرف المسلمين قبل أن تكون من الطرف الآخر، وأرى أن الأمر يدعونا إلى دراسة الطرف الإسلامى خاصة من خلال علاقاته مع الدولة البيزنطية التى ستكون حلقة الاتصال بين المسلمين وقوى الغرب الأوربى المتحفزة من أجل تحقيق أكبر مكاسب على حساب الجانبين الإسلامى ، والبيزنطى وهو أمر سيكشف النقاب عن التطور التاريخى للأحداث ذاتها .

وفى حقيقة الأمر؛ أن المسلمين انقسموا بين خلافة عباسية سنية فى بغداد، وخلافة فاطمية شيعية فى القاهرة؛ وناصبت كل خلافة الأخرى العداء الشديد، الذى أدى بالضرورة إلى استهلاك طاقة كل منهما فيما لاينفع الصالح الإسلامى العام. ويلاحظ أن كلاً من الخلافتين عانى من أوضاع سياسية متردية فالخلافة العباسية سيطر عليها البويهيون الشيعة والخلافة الفاطمية- خاصة فى عصرها الثانى- عانت من ضعف الخلفاء وزيادة نفوذ الوزراء العظام أو وزراء التفويض .

ولاريب فى أن ظهور السلاجقة على مسرح الأحداث أدى إلى تغييرات كبرى فى موازين القوى الإقليمية ومن بعد ذلك العالمية على نحو سيؤدى إلى تغيير خريطة التوزيعات السياسية فى غرب آسيا وكذلك فى آسيا الصغرى على نحو سيرخى ظلاله على الغرب الأوربى ذاته، ولذا نتصور السلاجقة قوة محلية امتلكت القدرة على التأثير ذو البعد القارى، وهو أمر ندر حدوثه فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب منذ عدة قرون مضت .

وبداية ؛ لابد لنا من أن نعرف بالسلاجقة وتطور تاريخهم حتى وصولهم إلى ما وصلوا إليه من قدرة تأثيره كبيرة على مسار الأحداث، ومن المعروف أن السلاجقة ينتسبون إلى أحد قادة القبائل التركية التى عرفت بالغز وهو سلجوق بن دقاق [1]، واتخذت مقراً لها فى صورة بلاد التركستان منذ القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى- وهو قرن محورى فى فهم طبيعة التاريخ السلجوقى- اتجه الغز إلى القيام بحركة هجرة كبيرة من وسط آسيا نتج عنها تأسيس الإمبراطورية السلجوقية بفروعها المختلفة فى إيران والأناضول وبلاد الشام[2]، ويلاحظ أنهم استقروا فى بلاد ما وراء النهر، مع ملاحظة أن الدولة السامانية سقطت هناك عام ٩٩٨م/ ٣٨٩هـ وتنازع مناطقها كل من الخانيين

١- عنه أنظر :

صدر الدين الحسينى ، أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال، ط. بيروت ١٩٨٤م ص٢ ؛ ربيلة عطا، الترك فى العصور الوسطى، بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون ط. القاهرة ، ب.ت ، ص٣٨ .

إرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة فى الفترة ما بين ٤٣٥-٥٧٠هـ، ط. الرياض ١٩٨٨م، ص١٥ .

٢- El- Azhari , The Saljuqs of Syria during The Crusades 463-549 A.H. / 1070-1154 A.D., Berlin 1997 , p. 27 .

والغزنويين [١]، وفيما بعد وقع صدام بين السلاجقة والغزنويين خرج منه السلاجقة يرفعون بيارق النصر على أعدائهم وذلك بالقرب من مدينة سرخس عام[٢] ١٠٣٧م / ٤٣٠هـ، غير أن الانتصار الأكبر للسلاجقة حدث عام ١٠٣٩م / ٤٣١هـ . عند موقع يسمى داند تقان[٣] حيث هزم مسعود الغزنوى شر هزيمة ويعد ذلك الانتصار مرحلة حاسمة فى توسع السلاجقة على حساب جيرانهم.

وقد اتجه السلطان السلجوقى طغرل بك إلى ضرورة توسيع نفوذه بصورة أكبر خاصة بعد النجاحات التى حققها، ولذلك تطلع إلى مصدر الشرعية السياسية فى صورة الخلافة العباسية، وقد تمكن بالفعل من دخول بغداد[٤] وذلك فى عام ١٠٥٥م / ٤٤٧هـ واستطاع القضاء على نفوذ البويهيين لتدخل الخلافة العباسية والقوة السلجوقية مرحلة جديدة فى تاريخها، وتاريخ المنطقة بأسرها، وينسب لطغرل بك أنه تمكن من القضاء على حركة البساسيرى[٥] الذى كان تابعًا للعباسيين ثم انقلب ضدهم وصار حليفًا للفاطميين فى مصر خاصة فى عهد المستنصر لدين الله ونجح فى القضاء على حركته عام ١٠٥٨م / ٤٥٠هـ وبذلك أثبت بجلاء أنه الدرع الواقى للخلافة العباسية من عزوتها التقليدية ونعنى بها الخلافة الفاطمية فى مصر .

١- المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ط. القاهرة ١٩٣٦م، ص٣٢ .

٢- عن معركة سرخس ونتائجها انظر : ارشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة، ص٢٠ .

٣- عن تلك المعركة انظر :

البيهقى، تاريخ البيهقى، ت. يحيى الخشاب، ، ط. القاهرة ١٩٥٦م، ص٦٨٨ .

صدر الدين الحسينى، أخبار الدولة السلجوقية ، ص١١ .

سهيل زكار ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دراسة تتناول قيام الامبراطورية السلجوقية وأحوال الشام والجزيرة عشية الغزو الصليبى، ط. دمشق ١٩٨١ ، ص٥٩ – ص٦٠ .

٤- عن دخوله بغداد انظر :

العماد الاصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار البندارى، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص١٨ إرشيد يوسف، سلاجقة الشام والجزيرة ، ص٢٤ – ص٢٥ .

٥- عن حركته انظر : العماد الاصفهانى ، المصدر السابق، ص١٩–ص٢٠ .

ابن العديم ، بغية الطلب، فى تاريخ حلب، التراجم الخاصة بتاريخ السلاجقة، تحقيق على سويم، ط. الجمعية التاريخية التركية ، ط. انقرة ١٩٧٦م، ص١– ص١٥ .

ويلاحظ أن طغرل بك اتجه إلى تدعيم نفوذه من خلال المصاهرة مع الخليفة العباسى [١]، على الرغم من تقدمه فى السن، وبعد زواج استمر شهور قليلة توفى عام[٢] ١٠٦٣م / ٤٥٥هـ ، ويعد وبحق أكبر سلاطين السلاجقة والمؤسس الفعلى لدولتهم فى إيران والعراق[٣].

ومن بعد طغرل بك ؛ تولى الأمور السلطان الب أرسلان (١٠٦٣-١٠٧٢م / ٤٥٥-٤٦٤هـ) والذى عمل على توسيع نطاق نفوذ السلاجقة فى إيران وكذلك العراق ، ثم عمل على ضم حلب- حاضرة شمال الشام الكبرى - لسيطرته وانتزعها بالتالى من النفوذ الفاطمى وعمل على توسيع نفوذه فى مناطق أخرى من بلاد الشام وبالتالى زاد نفوذ الخليفة العباسى القائم بالله من خلال كافة تلك التوسعات .

ومع ذلك ؛ فإن العمل العسكرى الخالد الذى ضمن لألب أرسلان المكانة العليا فى التاريخ خلال تلك المرحلة ، انتصاره على البيزنطيين بقيادة امبراطورهم رومانوس الرابع ديوجينوس Romanus IV Diogenus (١٠٦٧-١٠٧١م/ ٤٦٠-٤٦٤هـ) فى معركة مانزكرت أو ملازكرد وذلك عام ١٠٧١م / ٤٦٤هـ[٤]. ففى هذه المعركة الحاسمة تمكن الجيش السلجوقى بقيادة الب أرسلان من إلحاق الهزيمة بالجيش البيزنطى بقيادة الإمبراطور المذكور ، بل وقع الأخير أسيراً فى قبضة أعدائه، ولعل من أهم أسباب انتصار السلاجقة -إلى جانب زاوية الجهاد الفعالة- أن قواتهم اعتمدت على الفرسان الرماة بينما اعتمد الجيش البيزنطى على الفرسان الثقيلة إلى جانب المشاة ،وامتاز السلاجقة بالحركة السريعة والقدرة الفائقة على الكر والفر ، ولانغفل أن الجيش البيزنطى نفسه افتقد التجانس إذ احتوى على عدة عناصر مختلفة غير مترابطة فى صورة البلغار ،والبشناق والسلاف، وغيرهم ، ولاريب فى أن جيشًا تلك صورته من المحتم تصور النتيجة التى سيخرج بها من غمار المعركة.

١- العماد الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٢٠ .

٢- نفسه ، نفس المصدر ، ص٢٧ .

٣- أحمد رمضان ، العلاقات بين الشرق والغرب ، الحرب الصليبية ، ط. القاهرة ب-ت ، ص٢٥ .

٤- عن معركة مانزكرت بالتفصيل انظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٩٩؛ العماد الاصفهانى، المصدر السابق، ص٤٠- ص٤٤=

على أية حال؛ من المهم للغاية تتبع النتائج التى نجمت عن تلك المعركة الحاسمة ، ويقرر البعض أن مانزكرت لايقل فى أهميتها ونتائجها عن معركة اليرموك، فإذا كانت المعركة الأخيرة قد قررت مصير بلاد الشام، فإن معركة مانزكرت قررت كذلك مصير آسيا الصغرى؛ حيث نجح الأتراك السلاجقة فى فتحها والتغلغل فيها. مع ملاحظة أن تلك المناطق الشرقية من أملاك الدولة البيزنطية كثيراً ما أمدت تلك الدولة بالأسرات الحاكمة النشطة وكذلك المعين الذى لاينضب من الجنود المرتزقة الذين خدموا فى صفوف الجيش البيزنطى[١]، وبعد أن فقدتها الدولة البيزنطية أصبحت القسطنطينية بمثابة الرأس الذى حرم من الجسد الذى يدعمه[٢].

لقد أثبتت معركة مانزكرت أن السلاجقة امتلكوا القدرة على التأثير بفعالية ليس فقط فى محيط جيرانهم المسلمين، بل «الروم» الأعداء التقليديين للمسلمين منذ القرن السابع الميلادى/ الأول الهجرى، ولذلك كان لانتصارهم رنة فرح عارمة فى انحاء العالم الإسلامى لأنها أعادت إلى الاذهان ذكرى الانتصارات الإسلامية الأولى على البيزنطيين .

وفى الحقيقة ؛ أننا ينبغى ألا نتصور الأمر كضغط سلجوقى عسكرى من الخارج فقط، بل من الممكن البحث عن الأوضاع البيزنطية الداخلية ، فبيزنطة ضعفت من الداخل قبل أن تحل

Psellus , Chronographia, in Ashour and Rabie, Fifty documents in Medieval History , Cairo 1971 , p. 58-60 , Cahen , "la Campagne de Mantzikert ", B., , vol . IX, 1934 , pp. 613-642 , The Turkish Invasion", in setton A History of the Crusades, vol. I , pp. 148-149 , Charanis, "The Byzantine Empire in the Eleventh Century", in Setton, vol. I, pp. 191-192 .

France, Victory in the east, A Military History of the first Crusade , Cambridge 1996, p. 152-153 .

فايز نجيب اسكندر ، البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملازكرد (١٠٧١م/ ٤٦٣هـ) فى مصنف نقفور برينيوس ، دراسة مقارنة للمصادر ، ط. الاسكندرية ١٩٨٤م، ص٧- ص١٠ ، شاكر مصطفى، دخول الترك الغز إلى الشام ضمن كتاب تاريخ بلاد الشام ، ط. عمان ، ١٩٧٤م، ص٣٥٨- ص٣٥٩ ، إرشيد يوسف ، سلاجقة الشام والجزيرة ، ص٥١- ص٥٤ .

١- حسنين ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ط. القاهرة ١٩٩٥م ، ص١٩١ .

٢- نفسه، نفس المرجع والصفحة .

بها كارثة مانزكرت ، ويؤكد استطلاع المسار العام للتاريخ البيزنطى فى المرحلة السابقة على تلك الأحداث أنه مع وفاة بازل الثانى[1] Basil II (ت ١٠٢٥م / ٤١٦هـ)، والذى يعد آخر الأباطرة البيزنطيين الكبار، دخلت بيزنطة فى مرحلة من التدهور امتدت من ١٠٢٥ إلى ١٠٨١م / ٤١٦-٤٧٤هـ، ولا أدل على صدق ذلك من أنه خلال تلك المرحلة التى قدرت زمنيًا بست وخمسين عامًا ، تعاقب على حكمها ثلاثة عشر امبراطوراً وهم قسطنطين الثامن (١٠٢٥-١٠٢٨م / ٤١٨-٤٢١هـ) زوى Zoe (١٠٢٨-١٠٥٠م / ٤٢١-٤٤٣هـ) وشارك فى الحكم أزواجها وهم رومانوس الثالث Romanus III (١٠٢٨-١٠٣٤م/ ٤٤٣-٤٤٩هـ) ميخائيل الرابع Michael IV (١٠٣٤-١٠٤١م / ٤٤٩-٤٥٦هـ) ، ميخائيل الخامس Michael V (١٠٤١-١٠٤٢م/ ٤٥٦-٤٥٧هـ) قسطنطين التاسع Constantine IV (١٠٤٢-١٠٥٤م / ٤٥٧-٤٦٩هـ) ثيودورا Theodora (١٠٥٤-١٠٥٦م / ٤٦٩-٤٧١هـ) ميخائيل السادس Michael VI (١٠٥٦-١٠٥٧م / ٤٧١-٤٧٢هـ) ، اسحق الأول كومنين Essac I Comnenus (١٠٥٧-١٠٥٩م / ٤٧٢-٤٧٤هـ) قسطنطين العاشر Constantine (١٠٥٩-١٠٦٧م/ ٤٧٤-٤٨٢هـ) رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٧-١٠٧١م / ٤٨٢-٤٨٦هـ) ميخائيل السابع Michael VII (١٠٧١-١٠٧٨م / ٤٨٦-٤٩٣هـ) نقفور الثالث Nicephor III (١٠٧٨-١٠٨١م/ ٤٩٣-٤٩٦هـ) [1]، ولاريب فى أن وجود كافة أولئك الأباطرة خلال تلك المرحلة الزمنية عكس عدم الاستقرار السياسى الذى كان له أثره السياسى على جبهة الصراع البيزنطى- السلجوقى .

١- عن الامبراطور البيزنطى بازل الثانى انظر :

Michael Psellus , Fourteen Byzantine Rulers, The Chronographia of Michael Psellus, Penguin Books , London 1966, pp. 27-37 .

Farag ,Byzantium and its Muslim Neighbours during The reign of Basil II, 976-1025, ph. D, University of Birmingham 1979 .

٢- عن تسلسل أولئك الأباطرة انظر :

عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢٤٩-ص٢٥٠ .

ولامراء ؛ فى أن الدولة البيزنطية حينذاك كانت عاجزة عن مواجهة السلاجقة فى مانزكرت وكذلك ما أعقب تلك المعركة من ازدياد النفوذ السلجوقى فى آسيا الصغرى حيث قدم السلاجقة إلى هناك، من أجل الاستقرار والاقامة الدائمة وليس لمجرد السلب والنهب ، والعودة إلى مواقعهم الأصلية التى انطلقوا منها، ويقرر البعض أنه فيما بين عامى ١٠٧١-١٠٨٧م / ٤٦٤- ٤٨٠هـ تمت إقامة دويلات تركمانية مستقلة تحت قيادة زعماء من الأتراك فى أنحاء عديدة من آسيا الصغرى Asia Minor[1] ناهيك عن بلاد الشام، الأمر الذى أكد على نحو جلى تمامًا أن زمن السيادة البيزنطية على اسيا الصغرى قد ولى وأدبر، وأن هناك قوة فتية جديدة تعيد ترتيب موازين القوى لصالحها ، وتغير الخريطة السياسية للمنطقة وفق تصوراتها ومصالحها وتمثلت تلك القوة الجديدة فى الأتراك السلاجقة .

فإذا أضفنا إلى ذلك ؛ أن عام معركة مانزكرت وهوعام ١٠٧١م / ٤٦٤هـ، شهد فى الغرب سقوط بارى Bari آخر الأملاك البيزنطية فى جنوب إيطاليا[2] على أيدى النورمان وزعيمهم البارز روبرت جويسكارد Robert Guischard ؛ ادركنا كيف أن الجسد البيزنطى كان يتلقى الضربات من الشرق والغرب ولايستطيع لها دفعًا ، وهكذا كان العام المذكور ليس مجرد كارثة سلجوقية ضد بيزنطة بل أنه كان كارثة سلجوقية نورمانية مزودجة ، والملاحظ هنا أن كلاً من السلاجقة والنورمان قدر لهم التأثير بفاعلية فى سياسات الغرب الأوربى وشرق البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى.

١- حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٩٣ .

ومما يجدر ذكره هنا أن عملية تتريك الاناضول استمرت على مدى زمنى كبير ويقال أنها اكتملت من الوسط إلى السواحل خلال القرنين ١٣ ، ١٤ م / ٧ ، ٨هـ ، عن ذلك انظر هذه الدراسة :

عثمان توران ، الأناضول فى عهد السلاجقة والإمارات التركمانية، ت. على عوده الغامدى، ط. الرياض ١٤١٨هـ، ص٤ .

٢- Brook, A History of Europe From 911 to 1198 , London 1938 , p. 223 .

سميرة يونس عبد القادر ، النورمان والدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٧٩ ، سيد الناصرى، الروم والشرق العربى، ط. القاهرة ١٩٩٣م، ص٣٧٣ .

على أية حال ؛ فإن معركة مانزكرت كشفت أيضًا عن زاوية جديرة بالاهتمام وهى أن الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية التى ظلت على مدى عدة قرون تقوم بدورها كحامية للمسيحية الشرقية الارثوذكسية فى مواجهة المد الإسلامى منذ القرن السابع الميلادى/ الأول الهجرى، أصبح دورها الآن يتهدده الخطر أمام المد الإسلامى السلجوقى الكاسح، وظهر للغرب الأوربى بجلاء أن هذه القدرة أصبحت موضع شك كبير، ولذا لانتعجب عندما نجد أن الدولة البيزنطية بعد هذه الأحداث الصاخبة والتى انتهت بكارثة ، بدأت تستغيث بالغرب الأوربى من أجل مواجهة الخطر السلجوقى المحدق بها.

ويجدر بنا أن نتوقف هنا لترصد جانبًا مهمًا فى الصراع، وهو أن الصراع كان حتى ذلك الوقت صراعًا سلجوقيًا بيزنطيًا صرفًا ولم يصل إلى «يدول» بالصورة التى سيمتد إليها فيما بعد، وقد أرادت بيزنطة ذات التاريخ العريق فى التعامل بسلاح الدبلوماسية الفتاك ، أن تجعل الغرب الأوربى يدخل فى دائرة الصراع حتى تظل هى بمنأى عن استهلاك طاقاتها الحربية، وحتى لاتقع فى أسر كارثة جديدة من نوع كارثة مانزكرت ولانغفل إن لعبة توازن القوى Balance of Powers سوف تمارسها الدولة البيزنطية حتى تخرج من المأزق السلجوقى غير أنها ستدفع الثمن قادحًا كما سوف نلاحظ فيما بعد عندما تدفع حياتها ثمنًا لتلك اللعبة البالغة الخطورة على كيانها وتاريخها ذاته .

على أية حال؛ فإن عهد السلطان السلجوقى الكبير ألب أرسلان انتهى بوفاته عام ١٠٧٢م/ ٤٦٥هـ وكانت الدولة السلجوقية حينذاك فى أقوى مراحل تاريخها وتدعم دوره من خلال تولى ابنه السلطان ملكشاه الحكم وقد حكم خلال المرحلة من ١٠٧٢-١٠٩٢م / ٤٦٤ -٤٨٥هـ[1] وكان دوره بارزا لاسيما من خلال دور وزيره الأشهر نظام الملك الذى أفاد بخبرته العريضة فى إدارة شئون البلاد.

= جمعه الجندى، حكم النورمان فى صقلية ٤٨٤-٥٨٦هـ/ ١٠٩١-١١٩٤م ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٨٠م، ص٤٤ .

١- عن السلطان ملكشاه انظر :

صدر الدين الحسينى، أخبار الدولة السلجوقية، ص٥٥، ص٦١ .

وقد بذل ملكشاه- الذى يوصف بأنه آخر السلاطين السلاجقة العظام- جهده من أجل توطيد دعائم الدولة السلجوقية وتمكن من دعم النفوذ السلجوقى على حساب النفوذ الفاطمى ويلاحظ أن دولته أديرت ببراعة من جانب وزيره الأشهر نظام الملك[1] الذى أظهر كفاءة كبيرة على المستوى السياسى والإدارى .

ومن الملاحظ أنه خلال عهد ملكشاه قامت المدارس النظامية وهدفت -فيما هدفت- إلى دعم الاتجاه السنى فى مواجهة المد الشيعى، مع ملاحظة أن ذلك المد سيوجه صدمة موجعة للدولة السلجوقية من خلال اغتيال نظام الملك فى عام ١٠٩٢ م / ٤٨٥هـ ، على أيدى الاسماعيلية النزارية أو الحشاشين[2] أتباع الحسن الصباح الذين كان يكن لهم ذلك الوزير السلجوقى كل عداء وحذر منهم فى كتابه الشهير سياست نامه، ودل ذلك الاغتيال على تعاظم حدة الصراع الداخلى فى فى كيان الدولة السلجوقية بين التيارين السنى الذى تدعمه الدولة ، والتيار الشيعى الذى أظهر سلاح الاغتيال كوسيلة للتخلص من المخالفين والمعارضين فأضعف بذلك صفوف المسلمين اضعافًا شديداً .

مهما يكن من أمر ؛ توفى ملكشاه عام ١٠٩٢م / ٤٨٥هـ ، بعد فترة قصيرة من مقتل نظام الملك ، وبوفاته انتهت مرحلة متألقة من تاريخ السلاجقة ليبدأ عهد التفكك والانقسام والتشرذم السياسى على نحو سيؤدى إلى نجاحات غير مسبوقة سيحققها الصليبيون عندما

= العماد الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٥٠ – ص٦١ ، زبيدة عطا، الترك فى العصور الوسطى، ص٤٥ .

٢- عنه انظر : ابن العديم . بغية الطلب- التراجم الخاصة بالسلاجقة ، ص٥٩–ص٩٤ .

وانظر فكره من خلال كتابه ، سياست نامه ، ت. السيد الغراوى، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

٣- عن اغتيال نظام الملك على أيدى الحشاشين انظر : صدر الدين أبو الفوارس ، أخبار الدولة السلجوقية تصحيح إقبال، ط. لاهور ١٩٣٢م، ص٦٦ ، ميرخوند، تاريخ روضة الصفا، جلد دوم، ط. تهران ١٣٣٣هـ، ص٥٠٠، برنارد لويس ، الدعوة الاسماعيلية الجديدة والحشيشة، ت. سهيل زكار، ط. بيروت ١٩٧١م، ص٦٢ ، سعد زغلول عبد الحميد ، سياسة نامه لنظام الملك، تراث الإنسانية ، م (٩)، جـ (٢) ، لعام ١٩٧١م، ص١٩٤ .

يقومون بغزو المنطقة، ولاشك أن ظاهرة التشرذم السياسى تلك التى كانت عليها المنطقة حينذاك مهدت السبيل إلى تحقيق نجاحات الصليبيين.

على أية حال؛ فى أعقاب وفاة ملكشاه ؛ انحلت الدولة السلجوقية ، وظهر النزاع بين أفراد البيت السلجوقى ، فقد كان هناك بركياروق بن ملكشاه ١٠٩٤ - ١١٠٤م / ٤٨٧-٤٩٨هـ ، الذى دخل فى نزاع مع أخيه محمود وان حسم الأمر لصالح بركياروق ولاننفل أن تتش بن الب أرسلان كان قد اتخذ من حلب قاعدة لدولته ، بعد أن استولى عليها عام ١٠٧٨م / ٤٨٠هـ وعندما قتل تتسن فى عام ١٠٨٨م / ٤٨١هـ تولى من بعده ابنه رضوان فى حلب، وفى دمشق تولى ابنه دقاق وكان للصراع على اشده بين الأخوين، ويضاف إلى ذلك أن رضوانًا هذا ارتمى فى أحضان الاسماعيلية النزارية متحالفًا فى الوقت الذى كانت فيه انطاكية فى قبضة ياغى سيان وهو من القيادات التركية البارزة فى ذلك العصر وهكذا نجد أن بلاد الشام حينذاك تعانى من ظاهرة التفكك والتناحر والتشرذم السياسى، حيث كل مدينة فى يد قائد من القادة وهناك التحالفات والتحالفات المضادة ، وأمام المصلحة السياسية العليا تلاشت الاختلافات والفروق العرقية والمذهبية ، ومع التفكك والانقسام ؛ كان الفراغ السياسى، خاصة مع ملاحظة موقع بلاد الشام كمنطقة وسطى بين العراق العباسى، ومصر الفاطمية، فإذا ما لاحظنا أن الغرب الأوربى كان يترصد بالمسلمين حينذاك، وان المنطقة- دون أن يدرى أبناؤها- كانت تقدم للصليبيين الفرصة الذهبية لنجاح غزوهم لها؛ أدركنا حجم المأساة التى لم يدركها مبكرًا المعاصرون لاسيما قادتهم الذين تصارعوا على السيادة السياسية والمناصب ومناطق النفوذ فذهبت ريحهم .

ويضاف إلى كل ما سبق؛ ليس بالإمكان تناول أوضاع الشرق الأدنى الإسلامى قبيل الصليبيات دون التعرض - بصورة موجزة- لعدد من البيوت العربية الحاكمة فى بلاد الشام خاصة بنو عمار فى طرابلس وبنو منقذ فى شيزر ، وكذلك الخريطة الدينية لبلاد الشام حينذاك.

ومن المقرر أنه مع ضعف الخلافة الفاطمية ؛ ظهرت حركات انفصالية عنها فى مناطق من بلاد الشام، ومثال ذلك ؛ إمارة عربية قامت فى مدينة طرابلس بشمال لبنان فى صورة إمارة

بنى عمار [١]، وقد اتجه أمين الدولة أبى طالب ابن عمار[٢] إلى تأسيس امارته بها عام ١٠٧٠م / ٤٦٢هـ واعلان انهاء تبعيته للفاطميين [٣].

والجدير بالذكر أنه اتجه إلى تحقيق أكبر قدر من الاستقرار السياسى لإمارته ، ونجح فى قيادة امارته بذكاء كبير وسط الأنواء وتوفى عام ١٠٧٢م / ٤٦٤هـ.

ومن الملاحظ : أنه فى أعقابه : حكم الامارة جلال الملك أبو الحسن على بن عمار الذى تولى أمرها خلال المرحلة من ١٠٧٢-١١٠٠م / ٤٦٤ -٤٩٢هـ[٤]، ويلاحظ فى هذا الصدد أن أبا طالب ابن عمار لم يعقب أبناءً فتولى الحكم من بعده أحد أبناء أخيه فكان جلال[٥] الملك وهو يعد - وبحق- من أهم أمراء بنى عمار بصفة عامة. وقد امتلك براعة سياسية واستطاع قيادة إمارته وسط الأخطار وعمل على اتباع سياسة حيادية بين كل من المعسكرين

١- عن بنى عمار أنظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٤٦ ، ص١٦١ ، ص١٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٧، ص٢٥٠ ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق ١٩٦٢م، ص١٠٧ - ص١١٢ .

محمد مرسى الشيخ ، الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص١٩١ - ص٢٧٨ حيث يقدم عرضاً ممتازاً ، على عوده الغامدى، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ٤٦٣- ٤٩١ / ١٠٧٠-١٠٩٨، ط. مكة المكرمة ١٩٨٤م، ص٢٧٠-ص٢٧٧ .

٢- عنه : ابن شداد، المصدر السابق، ص١٠٧ .

٣- Khayat , "The Shiite Rebellions in Aleppe in the Sixth A.H. / Twelfth A.D. Century ", R. d. S.O., T. XLVI, December 1971, p. 167 .

٤- عنه : ابن شداد ، المصدر السابق ، ص١٠٧ .

أحمد رمضان ، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٤٩ .

٥- عنه أنظر : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص١٠٨ .

الفاطمى والسلجوقى [1]، ويلاحظ أنه إلى جانب ذلك عمل على توسيع رقعة إمارته من أجل تدعيم نفوذه السياسى فضم إليه جيلة وذلك فى عام ١٠٨١م / ٢٧٣هـ ، وقد توفى جلال الملك فى عام ١١٠٠م / ٤٩٢هـ[2] ليترك الإمارة فى ظروف بالغة الخطورة لمن يتولى أمرها من بعده فى صورة فخر الملك أبو على بن محمد بن عمار الذى يعد آخر ملوك أسرة بنى عمار[3] فى طرابلس، حدث خلال حكمه لطرابلس مقدم الغزو الصليبى للمنطقة ، ويمكن تقسيم عهده إلى ثلاث مراحل وهى الآتى: المرحلة الأولى امتدت على مدى الاعوام من ١٠٩٩-١١٠٢م / ٤٩٢-٤٩٥هـ وأمضاها فى محاولة استعادة ما فقدته الإماره من مدن واعادة السلام إلى ربوعها ، أما المرحلة الثانية فامتدت على مدى المرحلة من ١١٠٢-١١٠٥م/ ٤٩٥-٤٩٧هـ ، وأمضاها فى الصراع مع ريموند الصنجيلى الذى نشط بعملياته العسكرية حينذاك ضد طرابلس لاسقاطها فى قبضة الصليبيين، أما المرحلة الثالثة، فقد امتد من ١١٠٥-١١٠٨م / ٤٩٨-٥٠١هـ وقد أمضاها فى صراع مرير مع وليم جوردان الذى تولى الأمر من بعد ريموند الصنجيلى[4]. وقد بذل أقصى ما يستطيع من أجل أن يقف فى مواجهة الصليبيين وكان لدوره الجهادى البارز فى هذا الصدد أكبر الأثر فى تأخير سقوط مدينة طرابلس فى قبضتهم. ونستطيع أن نصف جهده فى هذ المجال بأنه جهد بطولى وكذلك أهل طرابلس أنفسهم .

ويلاحظ أن فخر الملك بن عمار عندما اشتد به حصار الصليبيين ، اتجه إلى طلب العون من الخلافة العباسية ببغداد ، وغاب عن إمارته مدة أربعة أشهر ، واشتد أمر الحصار على أهل طرابلس مع غياب أميرهم وعدوان الصليبيين المستمر عليهم فاتجه أهلها إلى طلب نجدة الخلافة الفاطمية : وذلك بعد أن أقصوا فخر الملك عن حكم طرابلس، وقد تأخر وصول الدعم البحرى الفاطمى للمدينة المحاصرة ، وبعد أن زادت الأحوال سوءاً فيها اضطر أهلها إلى الاستسلام

١- السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ط. الاسكندرية ب.ت ، ص٦٩ .

٢- نفسه ، نفس المرجع ، ص٧٢ .

٣- عنه : العظيمى ، تاريخه ، تحقيق على سويم، الجمعية التاريخية التركية بأنقرة ١٩٨٨م، ص٢٧ .

٤- محمد مرسى الشيخ ، الامارات العربية ، ص٢٢٦ - ٢٢٧ .

للصليبيين وذلك بعد أن سطروا صفحات مطيئة فى صمود المدن اللبنانية الكبرى فى مواجهة الغزو الصليبى ، وكان سقوط طرابلس فى عام ١١٠٩م / ٥٠٢هـ [١].

ذلك كان أمر بنى عمار فى طرابلس أما بنى منقذ فى[٢] شيزر ؛ فنجد أنهم ارتبطوا بشيزر الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً شمال حماه والشخصية البارزة فى بنى منقذ هو سديد الملك بن الحسن بن منقذ الذى استولى على شيزر عام ١٠٨٧م / ٤٧٠هـ وتعاقب أمراء بنى منقذ فى حكم الإمارة إلى أن تولى أمرها نصر بن منقذ الذى عمل على تدعيم إمارته بضم مناطق جديدة لها فى صورة عدد من الحصون والقلاع مثل حصن لطين بالقرب من مدينة حمص على نهر العاصى ، وحصن أسفونه القريبه من معرة النعمان ، وكذلك حصن أبى قبيس قبالة شيزر ثم حصن مصياف أو مصياث أو مصياب ، ويلاحظ أن كافة تلك الحصون لعبت دوراً مهمًا فى تأمين دفاعات إمارة بنى منقذ فى شيزر[٣] .

مهما يكن من أمر؛ فقد تولى من بعد نصر بن منقذ أخوه عز الدين أبو العساكر سلطان بن على بن منقذ الذى واجه مقدم الغزو الصليبى للمنطقة عام ١٠٩٨ م / ٤٨١هـ) وقد اتبع سياسة سلمية فى مواجهته خوفًا من بطشهم، وعرض عليهم تقديم المشورة والنصح فى مقابل عدم مساسهم بإمارته [٤].

١- عن سقوط طرابلس فى قبضة الصليبيين انظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٦٣، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢، ص١٧١ ، سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، ٤٨١-٥١٧هـ/ ١٠١٨-١١٢٣م، تحقيق سفر الغامدى، ط. مكة المكرمة ١٩٨٧م ، ص٥٠٤ ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة، ص١١١ .

السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام، ص١١٧ ، ص١٢١ ؛ محمد مرسى الشيخ ، الإمارات العربية ، ص٢٧١-٢٧٢ ، على عودة الغامدى، بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى ، ص٢٧٧ .

إسحق أرملة السريانى، الحروب الصليبية فى الآثار السريانية ، ط. بيروت ١٩٢٩م، ص٣٠- ص٣١ .

٢- عن بنى منقذ أنظر :

أسامه بن منقذ، الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى، بيروت ١٩٨١م، ص٦٦-٦٩، ص٧١ ، ص٧٣ ، محمد مرسى الشيخ ، المرجع السابق ، ص٢٧٩- ص٣٥٥ .

٣- محمد مرسى الشيخ ، المرجع السابق ص٣١٥ - ص٣٥٥ .

٤- أحمد رمضان ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص٥٤ .

على أية حال ؛ من الملاحظ من خلال المثالين السابقين بشأن بنى عمار فى طرابلس أو بنى منقذ فى شيزر، أن بلاد الشام حينذاك عانت بالفعل من التفكك والانقسام - كما أسلفت الإشارة من قبل - ومن المهم أن نلاحظ هنا أن الكيانات الصغيرة لم تستطع أن تواجه زحف تلك الظاهرة التاريخية الكبيرة ونعنى بها الحروب الصليبية ، بل أن منها ما تهاون معها من أجل البقاء ، وهكذا يصدق القول بأن بلاد الشام حينذاك افتقدت التاريخ المركزى الموحد، بل التاريخ المجزأ المنتحر ذاتيًا ومثل أنسب الظروف من أجل السقوط فى براثن الغزاه .

أما الخريطة الدينية والمذهبية لبلاد الشام ؛ فنجد أنها اتسمت بالتنوع البالغ ، والتطرف أحيانًا ، والانغلاق والتقوقع أحيانًا أخرى ، والأخطر من كل ذلك رفض الحوار بل الصدام المسلح والاغتيال، وكمصداق لذلك كله كانت هناك العناصر الشيعية ، وكذلك العناصر السنية ومن الأولى انبثقت الاسماعيلية النزارية أو الدعوة الجديدة أو ما عرف بالباطنية أو الحشاشين أتباع الحسن الصباح الذى أخذ يدعو لإمامة نزار بن المستنصر لدين الله الفاطمى، وأقام دولته فى ألموت جنوب بحر قزوين فى إيران [١]، وقد أوجد تنظيمًا خاصًا فى صورة الفداوية[٢]، الذين كانوا من الشباب الصغير السن الذى تراوده أحلام البطولة وعملوا على تنفيذ أوامره فى الفتك بالخصوم والمعارضين فى طاعة عمياء ، وأوجد اتباعًا له يتبعون الدعوة الجديدة، وفى بلاد الشام كان أول من أظهر مذهب النزارية الحكيم المنجم الباطنى الذى امتلك قدراً كبيراً من

١- قلعة ألموت (أى عش العقاب) ، هى قلعة وقعت فى إقليم أذربيجان جنوب بحر قزوين ، وبنيت على شعب ضيقه على قمة صخرية عالية فى قلب جبال البرز وتتحكم بوادية مغلق يبلغ امتداد طوله نحو ثلاثين ميلاً وعرضه فى أعرض نقاطه حوالى ثلاثة أميال ، وتقع على ارتفاع ستمائة قدم فوق سطح البحر، وكان من الممكن الوصول إليها عن طريق ممر ضيق منحدر حلزونى ، عنها انظر : القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٣٠١، ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، ط. الرياض ١٩٧٦م، ص٣٦٩ .

Malheson, Persia , Archaeological Guide , London 1972, p. 56 .

٢- عن الفداوية انظر :

Stanklas , Un Grand Maitre des Assassins au Temps de Saladiue , Paris 1877, p. 23 ,

Lockhart", Hassani - Sabah and the Assassins , B.S.OAs, vol. V, London 1929 , p. 680 .

طه شرف، دولة النزارية أجداد أغا خان كما أسسها الحسن بن الصباح، ط. القاهرة ، ١٩٥٠م ، ص٨٠-٨٧ ، أسامة زكى ، الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية ، القرن الثانى عشر/ السادس الهجرى، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م ، ص٦٥ ، ص٧٦ .

الحذر والتخفى[١]، وكذلك الدهاء الشديد، ويلاحظ أن الاسماعيلية النزارية : حرصوا فى ذلك العصر على السيطرة على عدد من القلاع الحصينة [٢] مثل المينقه، مصياف ، الخوابى، والقدموس، العليقة ، وكانت تتبع طرابلس .

على أية حال؛ فإن أخطر ما ميز الاسماعيلية النزارية الاغتيال وسفك دماء خصومهم . ولاشك أن ذلك عكس مدى الانقسام الذى كان عليه المسلمون حينذاك .

وبالإضافة إلى الإسماعيلية النزارية ؛ وجد هناك الدروز[٣] الذين تفرعوا عن الاسماعيلية. وعرف عنهم اتجاههم نحو تأليه الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وعلى ذلك تعرض الدروز للعداء الشديد من جانب العناصر السنية التى نظرت إليهم على أنهم كفار خارجين عن الإسلام وقد وحدوا فى العديد من المناطق مثل : وادى التيم، وجبل السماق[٤]، والمنحدرات الشرقية لجبل الشيخ[٥] ، وحوران[٦] ، وإفاميه[٧] وإقليم صفد[٨]، وغيرها .

١- ابن العديم ، ثلاثة تراجم من ابن العديم، نشر B. Lewis فى Melanges Fuad Koprulu ، ط. استانبول ١٩٥٣م، ص٣٣٢ .

٢- عنها بالتفصيل انظر :

محمد مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية، ص٢١١ ، ص٢١٢ .

٣- عن الدروز انظر :

ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٤ ، ط. القاهرة ب.ت، ص١٨٤ ؛ حنا أبى راشد ، جبل الدروز ، وأصولهم ، ط. بيروت ١٩٦١م.

Hodgson, “ Al- Darazi and Hamza in the Origins of the Druze Religion “, J.A.O.S., vol. VXXXII, 1962 , Ewing, Arab and Druze at Home , London 1907, Churchill , Druze and the Maronites, London 1973 .

٤- القزوينى ، آثار البلاد ، ص٢٠٧ .

٥- Salibi (K.), Syria under Islam , Byrouth 1969, p. 103 .

٦- ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بول راڤيس، ط. باريس ١٨٩٤ م ، ص٤٦- ص٤٧ ، الخالدى ، المقصد الرفيع المنشأ ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٤٥، ورقة (٨٨) ، (٨٩) .

٧- ابن العديم ، بغية الطلب فى تاريخ حلب، القسم الخاص بتراجم السلاجقة ، ص١٢٨ ، ص١٢٩ .

٨- طه ثلجى الطراونة ، مملكة صفد فى عهد سلاطين المماليك ، ط. عمان ١٩٨٢م، ص١٤٤ .

والواقع : أن نظرة متأنية للمناطق التى استقر بها الدروز خلال ذلك العصر تدل على أنهم عاشوا فى أماكن يغلب عليها الطبيعة الجبلية الوعرة فى غالبها ، وقد ضمن لهم ذلك حصانة كبيرة وتقوقع على نحو لم يكن ليعرضهم فى كثير من الأحيان لخطر أصحاب المذاهب المخالفة لهم. ويربط أحد الباحثين بين أهمية لجوء الدروز إلى مثل تلك المناطق ، وأثر ذلك فى تقوقعهم[١]، وقد تأصلت تلك الناحية على مدى الزمن ، وزاد من هذا الوضع انطواؤهم خوفًا من عداء المسلمين السنيين .

وإلى جانب الاسماعيلية ، والدروز : لانغفل ذكر النصيرية[٢] الذين عرف عنهم تأليه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وهم يجلون عبد الرحمن بن ملجم الخارجى الذى قتل الإمام ويرون أنه بذلك فصل اللاهوت عن الناسوت فى شخصه وقد كانوا على عداء شديد مع أهل السنة، وقد وجدوا فى عدد من الأماكن مثل اللاذقية ، وطرابلس ، وحماه وغيرها.

وإلى جانب هذه العناصر؛ احتوت بلاد الشام على عناصر مسيحية نتعرض لأحدها فى صورة الموارنة، وقد انتسبوا إلى القديس مارون[٣] الذى توفى عام ٧٠٧م / ٨٩هـ واستقر

١- شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز إلى الشام فى النصف الثالث من القرن الحادى عشر، مجلة كلية الآداب- جامعة الكويت العدد (٥) يونيو ١٩٧٤م، ص٤٥ .

٢- عنهم : الرازى ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، تحقيق النشار، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٦١ ، الحسينى عبدالله، الجذور التاريخية للنصيرية العلوية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص٢٧-٦٥ ، سليمان الحلبى. طائفة النصيرية ، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

Dussaud , Histoire de Religion des Nusairis, Paris 1900, Cahen , " Note Sur les Origines de la Communate Syrienne des Busayris, R.E.I, T. XXXVIII, Année 1978 , p. 243-249 , Hammer ," Rableau generalogique des Saixaute Treize Sectes de L'Islam" , J.A., T.VII, 1925 , p. 44 .

محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية ، ص٢٣٦ ، حاشية (١).

٣- William of Tyre, vol. II, p. 458 Jacques de Vitry, p. 79 .

وعنه انظر : يوسف ضو ، تاريخ الموارنة ، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص٢١٠ ، كمال الصليبى، الموارنة صورة تاريخية، محاضرة ألقيت فى دير ضومط. فى ١٢ ، ١٣ سبتمبر ١٩٦٩م، نشرت فى ملف النهار ، العدد (٤٠) يناير ١٩٧٠م، ص١٣ .

الموارنة فى عدد من المناطق فى بلاد الشام مثل : جبيل[١] ، والبترون[٢]، وجبة المنيطرة[٣]، وجبة بشري[٤]، وعكار[٥].

ومن الملاحظ أن الموارنة ناصبوا المسلمين العداء ، ولذلك وقفوا إلى جانب الصليبيين عندما وصلوا إلى المنطقة وهذا يعكس لنا خطورة اعتماد الحركة الصليبية على المسيحيين الشرقيين من أجل مناصرتها .

ولاتغفل – فى معرض حديثنا عن الخريطة الدينية والمذهبية لبلاد الشام قبيل الصليبيات– أن تذكر أن كافة الاتجاهات الدينية السابقة سواءً الاسماعيلية أو الدروز أو التنصيرية أو الموارنة ناصبوا المسلمين السنيين العداء ؛ وهم الذين شكلوا قسمًا كبيراً من سكان بلاد الشام حينئذاك ، وقد تراوحوا بين الحنفية والحنبلية والمالكية والشافعية ، ووجدوا فى المدن الكبرى مثل دمشق عاصمة الشام التاريخية الكبرى، وكذلك فى حلب حاضرة شمال الشمال وغيرها من الحواضر الشامية ، واستطيع التقرير أن العناصر السنية سيقع عليها عبء مواجهة خطرين، خطر العناصر الدينية ذات الطبيعة العدائية تجاه أهل السنة، ثم خطر الغزو الصليبى لبلاد الشام الذى حمل لواء مواجهته– غالبًا– السنة مع عدم إغفال بعض الأدوار المحدوده للعناصر الشيعية لاسيما الدروز .

تلك كانت صورة موجزة للخريطة الدينية والمذهبية لمنطقة الشرق الأدنى على نحو خاص بلاد الشام قبيل مقدم الصليبيين إليها، وهى تكشف لنا بجلاء أن تلك البلاد، كانت وبحق

١– عنها ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٣٢ .

سامية محمد أحمد، جبيل تحت حكم اللاتين وعلاقاتها السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير منشورة ، كلية الآداب– جامعة الاسكندرية ١٩٨٣م، ص٤٣ .

أنيس فريحه ، اسماء المدن والقرى اللبنانية ط. بيروت ١٩٥٦م، ص٨٩ .

٢– الشدياق ، أخبار الاعيان فى جبل لبنان ، جـ١ ، ط. بيروت ، ص٢٠ .

٣– هنرى لامنس ، تسريح الأبصار فيما يحتوى لبنان من الآثار، جـ١، ط. بيروت ١٩١٤م، ص٤٦ .

٤– الشدياق، المرجع السابق، جـ١ ، ص١٩ .

٥– الياس ديب ، العقود الدرية فى المملكة السورية، ط. بيروت ١٨٧٤م، ص٩٥ .

مغزوه من الداخل قبل أن تكون معرضة للغزو الخارجى، ويمكن إدراك مغزى هذه العبارة المهمة من خلال التناحر السياسى والتصارع المذهبى، ولا مراء فى أن ذلك أوضح عجز كافة القوى السياسية والدينية عن حسم ذلك الفيسفساء المتنوع بدرجة كبيرة ، الذى عجز عن التعايش السلمى مع بعضه البعض، لصالح أية قوة على الساحة، وقد أوجد ذلك الوضع نوعًا من الفراغ السياسى يصعب شغله، كما كان من الصعب تمامًا أن يستمر إلى ما لانهاية ، ومن ثم جاء الغزو الصليبى لحسم الأمور من الخارج بعد أن عجزت القوى المحلية عن حسمه فى الداخل ولم يكن معنى الحسم هنا ايجاد «حل» ما لم هو موجود فى الواقع المعاش ، بل الحسم بمعنى اغتنام الفرصة التاريخية والاستقرار فى تلك المنطقة التى فقدت الوعى بخطورة خلافاتها السياسية والدينية على مستقبل وجودها نفسه، وهكذا نستطيع القول أن سكان بلاد الشام على اختلاف توجهاتهم ومشاربهم السياسية والدينية «شاركوا» فى صنع الحقيقة الأجنبية الوافدة على المنطقة وهى «الغزو الصليبى» من قبل أن يصل الصليبيون فعلاً إلى المنطقة ، لقد كانوا «فاعلين» تاريخيين ولكن للأسف الشديد ضد أنفسهم من حيث لايدروا !

على أية حال ؛ ففى الوقت الذى كانت فيه بلاد الشام تعانى بشدة من تلك الأوضاع المزرية، كان الغرب الأوربى قد حقق نوعًا من التماسك لم يتحقق له من قبل . حيث وجدت هناك المؤسسة الدينية وعلى رأسها البابا ؛ وهو الجالس على مقعد القديس بطرس St. Peter فى روما ، ثم كانت هناك الإمبراطورية ممثلة فى ألمانيا وامتداد نفوذها فى إيطاليا، ثم أسرات حاكمة قوية فى فرنسا حيث أسرة آل كابيه، وفى انجلترا وجدنا الأسرة النورماندية التى حكمتها بعد الفتح النورمانى لها عقب معركة هاستنجز Hastings عام ١٠٦٦م / ٤٥٩هـ .

ولا مراء ؛ فى أن القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى- وهو القرن الذى حدث فى ختامه إندلاع حركة الصليبيات قد شهد تقدمًا للغرب الأوربى فى العديد من الجوانب وينبغى أن نلاحظ هنا ما يتصل بالأفكار الألفية والأخروية ، حيث شاع فى أذهان الناس فى ذلك العصر : أن العام سيلقى نهايته بعد مرور ألف عام من موت السيد المسيح عليه السلام [1]،

١- يذكر فى هذا الصدد النص المهم القوى الدلالة الذى أورده الراهب البرجندى رالف جلابر ضمن كتابه المعنون بـ «كتب التواريخ الخمسة»، وقد ترجمه أ.د. قاسم عبده قاسم إلى اللغة العربية ، عن ذلك انظر : =

من خلال الفقرة التى وردت فى سفر الرؤيا (رؤيا القديس يوحنا اللاهوتى) التى تشير إلى أن نهاية العالم ستكون فى ذلك التحديد الزمنى، وعندما مرت تلك السنة دون حدوث ما توقعه الناس كان ذلك دافعًا - كما يقرر البعض- نحو العمل بجدية والاقبال على الحياة، وكذلك التخطيط للمستقبل، ومن المتصور أن ذلك كله كان من العوامل التى أدت إلى الازدهار والانتعاش الذى شهده القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، فى أوربا بصفة عامة فى العديد من المجالات.

ومن المنطقى تصور : أن ذلك الانتعاش كان بمثابة «الرحم» الذى فيه ولدت تلك الظاهرة التاريخية المعروفة بالحروب الصليبية، وهى وإن كانت نتاج تطورات تاريخية عديدة فى الغرب الأوربى قبل القرن المذكور إلا أنه من الممكن اعتباره أكثر القرون أهمية فى ميلاد تلك الظاهرة.

على أية حال : من المهم رصد التطورات والانجازات المتعددة التى حلت فى الغرب الأوربى خلال ذلك القرن. على مستوى القيادة الكنسية تدعم نفوذ البابوية إلى حد بعيد ويكفى أن نذكر هنا وجود عدد من البابوات الأقوياء الذين تولوا المنصب البابوى منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، مثل ليو التاسع[1] Leo IX (١٠٤٩-١٠٥٤م/

Ralph Glaber , Historiarum Libri quinque , in the High Middle Ages , 1000-1300, ed = by Bryce D. Lyon , U.S.A. 1964 , pp. 34-39 .

وتجد الترجمة للنص فى الكتاب التالى:

قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م ، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٤٣- ص٤٨ .

١- ليو التاسع Leo IX ، بابا وقديس ، تولى المنصب البابوى خلال المرحلة من ١٢ فبراير ١٠٤٩ إلى ١٩ أبريل ١٠٥٤ م ١٠٠٢، وكان أبنا للكونت هيو الاجشيمى Hugh of Egisheim ، ويلاحظ أن ذلك البابا قام بدور بارز فى إصلاح الكنيسة وتطهيرها من السيمونية وهى بيع المناصب الدينية ، كما ينسب إليه أنه فتح الطريق امام بابوات المستقبل كى ينتخبوا من جانب كرادلة الكنيسة الرومانية فقط، وارتبطت اسم ذلك الباب ارتباطًا وثيقًا بالانشقاق الأعظم عام ١٠٥٤م، بين كنيستى روما والقسطنطينية، عنه بالتفصيل انظر .

Kelly , Oxford dictionary of Popes, p. 147-148 .

A ttwater, The Penguin dictionary of Saints, p. 217-218 .

٤٤١-٤٤٧هـ) ثم الكسندر الثانى Alexander II[1] (١٠٦١-١٠٧٣م / ٤٥٣-٤٦٦هـ) وجريجورى السابع[2] Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥م / ٤٦٥-٤٧٨هـ) ثم أوربان الثانى[4] Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م / ٤٨١-٤٩٣هـ) ، وقد وضعوا جميعهم نصب أعينهم دعم نفوذ البابوية كى تكون قوة كبرى تتفوق على الإمبراطورية، بل وتقود أوربا جميعها دون معارضه تنفيذاً لسياستها الخارجية.. ويكفى أن نقرر هنا أمر إذلال كانوسا Canossa عام ١٠٧٧م / ٤٧٠هـ، عندما تمكن البابا جريجورى السابع من إذلال الامبراطور الألمانى هنرى الرابع Henry IV (١٠٥٦-١١٠٤م / ٤٤٨-٤٩٨هـ) بصورة مهينة غير مسبوقة .

فإذا أضفنا إلى ذلك : فعاليات دير كلونى بفرنسا والذى خَرَّج عدداً وافراً من تولى مقعد القديس بطرس فى روما ؛ أدركنا أننا بالفعل أمام صحوة المؤسسة الدينية فى الغرب الأوربى على نحو مكنها - فيما بعد - من قيادة المشروع الصليبى .

ومن الزاوية الاقتصادية ؛ ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا التقدم الذى حدث للمدن التجارية الايطالية ؛ إذ أن البندقية Venice تمكنت خلال ذلك القرن من اكتمال مؤسساتها السياسية، ويلاحظ أنها ستلعب دوراً بارزاً فى إنجاح المشروع الصليبى المرتقب من خلال رغبتها فى لعب دور أكبر فى سياسات القارة الأوربية ولذلك نظرت للتوسع الخارجى .

وقد يرد البعض بأن الغرب الأوربى كان يعانى من الصراع بين البابوية والامبراطورية، وأن هناك خصومات بين الدول الأوربية وبعضها مع البعض الآخر غير أننا لانغفل أن ذلك الغرب لم يصل إلى حد التشرذم السياسى الذى كانت عليه أوضاع المسلمين فى الشرق الأدنى، ولم

١- البابا الكسندر الثانى Alexander II تولى المنصب البابوى من ٣٠ سبتمبر ١٠٦١ إلى ١٢ أبريل عام ١٠٧٣م وذلك خلفًا للبابا نيكولاس الثانى الذى تولى المنصب فى المدة من ٦ ديسمبر ١٠٥٨ إلى ١٩ أو ٢٦ يوليو ١٠٦١ م ، عنه :

Kelly , Oxford dictionary., p. 152-153 .

٢- جريجورى السابع Gregory VII ، بابا وقديس ، وقد تولى المنصب البابوى فى المدة من ٢٢ أبريل ١٠٧٣ إلى ١٥ مايو ١٠٨٥م وذلك خلفًا للبابا هونوريوس الثانى الذى تولى المنصب من ١٢٨ أكتوبر ١٠٦١ إلى ٣١ مايو ١٠٥٤ . Kelly , Op. cit., p. 154 . 156

٣- انظر تناول مفصل عنه خلال تناول الحملة الصليبية الأولى ، وهو الفصل الثانى من هذا الكتاب .

تفكك الصراعات قوى سياسية كبيرة مثل الأمر لدى العباسيين والفاطميين ثم السلاجقة، والفاطميين، بل ظل تحت قيادة روحية واحدة لاشك فيها فى صورة البابوية ، وهذه «الوحدة القيادية الروحية» افتقدها الشرق الأدنى افتقاداً كاملاً، وخرجت البابوية من كافة معاركها مع أعدائها منتصرة سواءً بيزنطة (كما نلاحظ فى الانشقاق الأعظم ١٠٥٤م / ٤٤٦هـ) وكذلك فى معاركها مع خصومها السياسيين فى الغرب الأوربى كما بالنسبة لألمانيا وهذا أمر أشرت إليه من قبل، لقد تدعمت البابوية داخليًا ، ولذلك كان عليها أن تنظر إلى الخارج أو «تتوسع سياسيًا وروحيًا »، ومعنى ذلك ، أن التطور التاريخى فى الغرب الأوربى كان منطقيًا تمامًا ولاتناقض فيه البته، وهكذا يمكن القول بجلاء أنه المقارنة بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى؛ تكشف لنا عن حقيقة محورية وهى تناقض وتناحر هنا ، وتكامل ، وتوافق هناك، ومن ثم كانت الأحداث التاريخية تسير وفق تلك المعادلة التى صنعها أبناء كل نطاق جغرافية ومن ثم كانت الحروب الصليبية متجهة من مناطق النضج إلى مناطق المراهقة السياسية .

زد على ذلك كله : أن النظام الاقطاعى فى الغرب الأوربى- - كما أسلفت- وصل إلى ذروة نموه وتمام نضجه ، وهو الأساس السوسيو- اقتصادى الذى ستنطلق من خلاله الصليبيات، وهو نظام على الرغم عن تناقضاته الطبقية الداخلية : إلا أن طاقاته الحربية كان من الممكن استثمارها فى مشروع عسكرى ضخم يوحد أوربا كلها تحت لواء القيادة الروحية للبابوية ؛ وإذا أضفنا إلى ذلك كله وصول فكرة الحرب المقدسة إلى نموها ونضجها هى الأخرى ووجود تطبيق لها من خلال الحرب التى شنها الأسبان ضد المسلمين الأندلسى وباركتها البابوية ؛ أدركنا أن الغرب الأوربى كان - أكثر من أى وقت مضى- مهيئًا للقيام بدور تاريخى لم يكتب له القيام به من قبل ، فلأول مرة يتجه الغرب الأوربى إلى التوسع خارج حدود أوربا فى غرب آسيا وفى قلب ديار الإسلام فى المناطق التى ظل المسلمون يعتبرونها وعلى مدى خمسة قرون كاملة مناطق طبيعية وتقليدية ضمن أملاك الإسلام، وكل ذلك يعنى لنا بجلاء أن الحركة الصليبية كانت بمثابة الزلزال الذى حل بالمنطقة والذى توافرت ظروف عديدة لحدوثه .

ويثار هنا تساؤل على جانب كبير من الأهمية. ألا وهو هل كان الغرب الأوربى يعرف بواقع المسلمين التشرذم سياسيًا والمتصارع مذهبيا وعلى هذا الأساس كان توقيت اندلاع الصليبيات دقيقًا ؛ والاجابة على ذلك السؤال الحيوى الذى ستترتب عليه نتائج على جانب كبير من الأهمية، أنه من المرجح أن القيادات الروحية ، والسياسية هناك كانت على علم بما يجرى فى

الشرق وذلك من خلال الحجاج الذين قدموا إلى هناك عن أجل زيارة المحارم المسيحية المقدسة فى فلسطين ، كذلك لانغفل تردد التجار الذين كانوا يجلبون من جراء رحلتهم إلى الشرق المال والمعلومات القيمة عن كافة أوضاع المنطقة.

وإلى جانب تلك المصادر ، من المهم أن نقرر ما تردد لدى المؤرخ الجنوى كفارو الكاسيكفلونى Caffaro Caschefelone من أن اثنين من قادة الحملة الصليبية الأولى فى صورة جودفرى البوبونى- والذى سيغدو أول حاكم للكيان الصليبى، ومعه روبرت الفلاندرزى[1] ، قدما إلى مصر والشام على ظهر السفينة بوميلا Pomella خلال الفترة من ١٠٨٣إلى ١٠٨٥م/ ٤٧٥-٤٧٧هـ.

وعلى الرغم من أن تلك الرواية فريدة، ولم تتكرر فى المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة الأخرى[2]، إلا أنها تؤكد سياق الأحداث ذاته، فمن المتصور أن مشروعًا بذلك الحجم ونعنى به المشروع الصليبى ؛ لم يكن من الممكن أن يحدث دون «دراسة جدوى» ومعلومات ضافية تتوافر من خلال القائمين عليه وذهابهم لمعاينة المنطقة التى ستكون مسرحًا للأحداث ، ويلاحظ هنا أن ايراد اسم السفينة المذكورة ، والتحديد الزمنى للواقعة وكذلك القيادات المذكورة يدل - على الأرجح- أنها واقعة حقيقية، وكل ذلك يفسر لنا أن نجاح الحملة الأولى لم يكن مصادفة، بل من خلال دراسة متأنية لأوضاع الشرق الإسلامى وكان ذلك من عوامل نجاح تلك الحملة بطبيعة الحال.

١- عن تلك الرواية البالغة الأهمية انظر : مصطفى الكنانى، «المؤرخ الجنوى كفارو الكاسيكفلونى سيرته وأعماله وقيمتها التاريخية»، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م (٣)، عام ١٩٨٥م، ص٣٥٩ .

وأود الاشادة بجهد أ.د. مصطفى الكنانى الذى سلط الأضواء الكاشفة على قيمة ذلك المؤرخ الجنوى البارز.

٢- أورد أ.د. مصطفى الكنانى أراء مقنعة عن الأسباب التى تدعو إلى تأييد تلك الرواية خاصة وضيعته كفارو نفسه وعمله فى منصب القنصل الجنوى.

انظر :مصطفى الكنانى، المرجع السابق ، ص٣٦٠ .

والجدير بالذكر : أن أحد الحجاج وهو المعروف ببطرس الناسك Peter The Hermit[١] : قد قدم إلى الشرق للحج ، وقد واجه بعض المصاعب الطبيعية من خلال التناصر بين الفاطميين والسلاجقة وعاد ليروى ببلاغة وقدرة تأثيرية كبيرة المشاق التى قابلها وأضاف من مخيلته الخصبة الشىء الكثير من أجل إثارة الجماهير الفقيرة لاسيما من الأقنان التى لم تكن على أى قدر من التعليم أو الثقافة أو إمكانية معارضة ما تسمع. ومن الجلى البين أن بطرس الناسك هذا كان خطيبًا مفوهًا امتلك شخصية «كارزمية» ذات قدرة تأثيرية بالغة بحيث أن عباراته كانت تشكل حماس الناس إلى حد كبير خاصة أنه كان ذرى الهيئة يرتدى ثيابًا بالية ويمتطى حمارًا أعرج على نحو أشعر البسطاء بأنه أحدهم وفتنوا به حتى أنهم كانوا ينزعون شعرات من حماره للتبرك بها !!!! ، ولا مراء فى أن الزاوية «الكارزمية» تمثل أهمية كبيرة فى إدراك سيكولوجية الحشود البشرية فى ذلك العصر وبدون تناولها : لانصل إلى حقيقة الأبعاد النفسية المحركة للكتل الجماهيرية التى ستكون بمثابة الوقود الذى يحرك المشروع الصليبى من الغرب الأوربى إلى مواقعه الجديد فى أعالى الفرات وبلاد الشام .

وينبغى ألا نغفل هنا ملاحظة أن الغرب الأوربى وصل حينذاك إلى درجة كبيرة من التعصب الشديد ضد كل ما هو غير مسيحى، وخاصة الإسلام صاحب التاريخ التصادمى مع أوربا منذ بواكير وجوده. وعلينا أن نتذكر جيداً أن البحث الانجيلى أدى بالمؤرخين فى العصور الوسطى فى الغرب الأوربى إلى التمسك بفكرة مؤداها اعتبار ظهور الإسلام غضبًا إلهيا على عالم يعانى من عدم تمسك المسيحيين بدينهم ، كما لاتغفل مسئولية المؤرخين البيزنطيين فى هذا المجال : إذ قاموا بدور بارز فى تدعيم الجهل بالاسلام وعقائده إبان العصور الوسطى حيث كتبوا أهم كتاباتهم فى هذا المجال خلال التهديد الإسلامى للامبراطورية البيزنطية ، وعملوا

١- عن بطرس الناسك بالتفصيل انظر :

Raymond d'Aguilres, Historia Francorum qui Ceperunt Iherusalem, Trans. by John Hugh Hill and Lautita L. Hill , The Americian Philosophical Society, Philadelphia 1968, p. 27 , p. 60, p. 61 .

Anna Comnena, in peters, The First Crusade, The Chronicle of Fulcher of Chartes and Other Source Materials, philadephia 1971, p. 112-114 .

Louise and Jonathan Riley - Smith, The Crusades Idea and Reality , 1095-1274 , London 1981 , p. 10 .

على تغذية خيال الأوربيين على المستوى الشعبى بكم كبير من التشويه عن الإسلام[١] ونبيه (ص) ، ولامراء فى أن ذلك كله- وعلى مدى قرون عديدة- من سوء الفهم المتعمد قد أوجد سيكيولوجية شعبية عامة كارهة للإسلام ولأهله وتراه عدواً لدوداً لاسبيل للتعامل معه إلا بالسيف ، والسيف وحده، ولن تتقيد هذه النظرة إلا بعد استقرار الصليبين فى بلاد الشام وتعاملهم مع المسلمين فتتحسن تلك الرؤية . وفى هذا الصدد يقرر البعض أنه بصفة عامة؛ تكونت فى وعى الأوربيين فى العصور الوسطى ملامح صورة محددة عن الإسلام وهى تتمثل فى أنه عقيدة ابتدعها محمد، وتوصف بالكذب، والتشويه المتعمق للحقائق، وهو دين التفسخ والإنحلال الخلقى ، والشهوات الحسية. وكذلك دين العنف ، والقسوة[٢] والدموية؛ والواقع عكس ذلك بطبيعة الحال.

والآن : من المتصور تماماً أن الغرب الأوربى بسوء فهمه المتعمد للإسلام أوصل نفسه إلى نوع من صدام الحضارات ، فإذا كان الإسلام قد انجب لنا حينذاك حضارة مزدهرة من خلال التعايش مع كافة الأديان السابقة عليه والاستفادة من التراث الحضارى الهندى ، والفارسى، واليونانى؛ فإن أوربا العصور الوسطى قبيل اندلاع الصليبيات وصلت إلى طريق مسدود بفضل التعصب الشديد للمسيحية ورفض كل ما هو سواها فرفضت بذلك التحاور مع حضارة الإسلام ، وكان المخرج الوحيد الممكن من هذا المأزق - مأزق عدم القدرة على حوار الحضارات على الرغم من أن التاريخ ذاته هو حوار الحضارات L'Histoire est dialoge de Civilizations هو

١- عن ذلك انظر :

محمد الدعمى، «تاريخ التأريخ الأوربى للإسلام والعرب من العصر الوسيط حتى عصر الثورة الصناعية» الكلمة العدد (١٦) ، السنة (٤) ١٩٩٧م، ص٨٧ .

٢- اليكس جورافسكى، الإسلام والمسيحية ت. خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٩٦م، ص٧٥ .

والدراسة المذكورة من أفضل الدراسات عن تطور الرؤية الأوربية للإسلام فى العصور الوسطى والدينية، وأود أن أنوه بدراسة مهمة أخرى فى صورة ما ألفه ساوزرن عن الرؤى الغربية للإسلام فى العصور الوسطى ، الصادر من جانب جامعة كمبردج عام ١٩٧٨م عن ذلك انظر :

Sothern (R.W.), Westtern Views of islam in the Middle Ages, Cambridge 1978 .

الحرب الصليبية ضد الإسلام وأهله، ولذلك يحق لنا أن نصف تلك الحروب بأنها تعبر عن أزمة الحضارة الأوربية فى العصر الوسيط عند أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى.

وقد يتصور البعض أن هذا التعليل يحوى نوعًا ما من القولبة أو اعتساف الأحكام أو إسقاط تصور حديث على تجربة ماضوية لم تتوافر فيها مثل تلك المقولات ، غير أن الرؤية المتعمقة لذلك العصر تدعونا إلى تصور ما ذهبت إليه، ودائمًا اتصور أن الحرب- مالم تكن مصحوبة بدور حضارى- تعد بكل المقاييس كارثة إنسانية يكون البشر فيها هم وقودها ولاتصل بهم إلى حلول حقيقية بل إلى المزيد من التأزم كما فى حالة أوربا العصور الوسطى فى تلك الحقبة من تاريخها .

ذلك عرض لأوضاع الشرق الإسلامى، والغرب الأوربى قبيل اندلاع الحروب الصليبية التى تعد -وبحق- الصدام الكبير بين الجانبين فى العصور الوسطى، أما الفصل التالى فإنه يتناول الحملة الصليبية الأولى من مجمع كليرمونت ١٠٩٥م / ٤٨٩هـ إلى سقوط بيت المقدس ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ.

الفصل الثاني

الحملة الصليبية الأولى من مجمع كليرمونت حتى سقوط بيت المقدس

١٠٩٥ - ٩٩ م / ٤٨٩- ٤٩٣هـ

يتصدى هذا الفصل لدراسة الحملة الصليبية الأولى من الدعوة إليها فى مجمع كليرمونت فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م، حتى سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م، وهو بالتالى يعالج مرحلة على جانب كبير من الأهمية والخطورة فى تاريخ الحروب الصليبية ، ويلاحظ أن الأعوام الأربعة المذكورة كان لها تأثيرها البالغ على مسار العلاقات بين الشرق والغرب لعدة قرون تالية .

ومن الملاحظ خلال المدخل السابق؛ وكذلك الفصل الأول من هذه الدراسة ؛ أننا أدركنا كيف أن كافة الملابسات كانت مهيأة من أجل حدوث انبثاق الحروب الصليبية، غير أنها ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالبابا أوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩م / ٤٨١-٤٩٣هـ) الذى لعب دوراً بالغ الخطورة فى قيامها، والتخطيط لها على نحو ظل تأثيره قائمًا على مدى القرنين التاليين فى صورة القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين.

وبداية ؛ أود أن أقرر أنه على الرغم من الاستغاثات التى قدمتها الامبراطورية البيزنطية للغرب الأوربى، بعد أحداث كارثة مانزكرت عام ١٠٧١م / ٤٦٤هـ، إلا أن البابوات حينذاك كانوا فى شغل شاغل بأمورهم عن الاستجابة لاستغاثة الشرق البيزنطى، ويلاحظ أن البابا الكسندر الثانى Alexander II (١٠٦١-١٠٧٣م / ٤٥٣-٤٦٦هـ) عمل على مباركة الاتجاه إلى محاربة المسلمين فى شبه الجزيرة الايبيرية، ودفع المتطوعين نحو عبور جبال البرانس الفاصلة بين فرنسا وأسبانيا للقيام بذلك الدور[1]، ومن المهم هنا التأكيد على أهمية دوره

١- عن دور البابا الكسندر الثانى فى محاربة المسلمين فى أسبانيا انظر :

محمد محمود النشار «البابوية وفرنسا على مسرح الحروب الصليبية فى الأندلس (القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر للميلاد ». ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية- اتحاد المؤرخين العرب، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص١٣٠- ص١٤٩ ، جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الحركة الصليبية، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م، ص٤٧ .

على اعتبار أن الحرب فى أسبانيا كانت بمثابة التجربة الأولى المحدودة التى ستعمم من خلال إعلان الصليبيات والاتجاه صوب بلاد الشام، وهكذا يمكن القول أن شبه الجزيرة الايبيرية شهدت -أكثر من غيرها- التجربة التاريخية السابقة مباشرة على الاعلان الخاص بالصليبيات المتجهة إلى الأرض المقدسة فى بلاد الشام.

أما البابا جريجورى السابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥م / ٤٦٦-٤٧٨هـ) ، فعلى الرغم من مواصلة جهد الكسندر الثانى فى نطاق الجزيرة الايبيرية[1] ؛ إلا أنه ارتبط بأمر الصراع مع الامبراطور الألمانى هنرى الرابع- كما أسلفت من قبل. ولذلك لم يكن بإمكانه التفرغ لمشروع كبير يحتاج إلى جهد كبير ووقت متسع .

وفى تقديرى: أن من الأهمية بمكان ، تسليط الأضواء الكاشفة على ذلك البابا، وليس ذلك من خلال التركيز على دور الفرد فقط فى حركة التاريخ ، بل من خلال القناعة بالتعاون والتفاعل بين الفرد القائد والجماهير فى صنع تلك الحركة.

والواقع ؛ أن أوربا الثانى قد ولد فى عام ١٠٣٥م / ٤٢٧هـ فى شاتيون سير مارن Cha-tillon- Sur- Marne ، واسمه اودو Odu أو Eudes [2]، وقد درس على يدى القديس برنو St. Brumo [3]، الذى أسس نظام الكارسوسيين Carthusians (١٠٣٢-١١٠١م / ٤٢٤-٤٩٥هـ)

١- محمد محمود النشار، البابوية وفرنسا ، ص١٤٩-١٥١ .

ومن المهم هنا الاشارة إلى أهم الأحداث التى وقعت خلال تلك المواجهة فى صورة استيلاء الفونسو السادس Alfonso VI على طليطلة Tudela عام ١٠٨٥م / ٤٧٨هـ. كذلك حدوث معركة الزلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية فى أسبانيا عام ١٠٨٦م / ٤٧٩هـ والتى انتصر فيها المسلمون . عن ذلك انظر :

الحميرى، الروض المعطار فى خبر الاقطار ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٨٧- ص٢٩٢، رجب محمد عبد الحليم، «الحركة الصليبية والغرب الإسلامى فى القرن الحادى عشر الميلادى (دور البابوية) ضمن ندوة الاطار التاريخية للحركة الصليبية أى المؤرخين العرب، ط. القاهرة . ١٩٩٦م، ص١٦٧- ص٢٠٨ .

٢- Kelly , Oxford dictionary of Popes, p. 158 .

٣- القديس برونو St. Bruno ؛ ولد فى كولون Coloyne عام ١٠٣٣ . وهو مؤسس نظام الرهبان الكارسيوسيان The Order of Carthusian Monks ، وقد ولد من أصل نبيل، وكان راهبًا ، وفى =

ويلاحظ أنه فى عام ١٠٦٨ / ٤٦١هـ صار راهبًا فى دير كلونى Cluny بالقرب من ماكون Macon ، وأصبح Prior ، وقد التحق بخدمة البابا المتسلط المؤمن إيمانًا راسخًا بتفوق البابوية على الامبراطورية ، ونعنى به جريجورى السابع Gregory VII وتم تعيينه كاردينالاً أسقفًا لاوستيا Ostia فى عام ١٠٨٠م / ٤٧٣هـ [١]، وخدم الكنيسة فى ألمانيا خلال المرحلة من ١٠٨٤ / ٤٧٧هـ إلى ١٠٨٥-٤٧٨هـ ، وقد ساند على نحو شرعى . البابا جريجورى السابع فى خلال صراعه مع الامبراطور هنرى الرابع ، وقد ارتبط اربان الثانى بسينودس (مجمع كنسى) فى ساكسونى Saxony الذى عقد عام (١٠٨٥م/ ٤٧٨هـ)، وعند وفاة البابا فيكتور الثالث Victor III فى ١٦ سبتمبر ١٠٨٧م فى مونت كاسينو Monte Casino ثم السيطرة على روما عن طريق كليمنت الثالث ، وتم انتخاب أوربان الثانى بعد تأخير طويل فى تراكينا Tar-racina إلى الجنوب من روما بالقرب من جايتا Gaeta، وحمل اسم أوربان Urban الثانى[٢] (١٠٨٨-١٠٩٩م / ٤٨١-٤٩٣هـ) .

= عام ١٠٥٦م تمت دعوته من أجل تولى تدريس اللاهوت فى ريمز قام بهذا العمل على نحو ناجح على مدى اثنى عشر عامًا ، وفى عام ١٠٨٤ نجد مع ستة من رفقائه إلى بقعة جليلة بالقرب من جرينوبل Gren-oble وقاموا ببناء كنيسة صغيرة مع عدد من الاكواخ المتناثرة ، واتجهوا إلى الحياة الجماعية وتسموا كارسوسيان Carthusian وفى الانجليزية نجد تعبير Charterhouie ، وكانت حياتهم فى العبادة والعمل بالغة المشقة ، ويلاحظ أن القديس برونو توفى فى كالابريا Calabria عام ١١٠١م ومن المعروف أن يوم الاحتفال بعيده يوافق يوم السادس من أكتوبر . عند انظر :

A ttwater , The Penguin Dictionary of Saints, p. 75-76 .

١- Kelly , Oxford dictionary,, p. 158 .

٢- Ibid, p. 158 .

وعن أوربان الثانى بصفة عامة انظر :

The Oxford dictionary of Byzantium , Prepared a Dumbarton Oaks, Oxford 1991, Vol. III, p. 2143- 2144 .

من الملاحظ أن تتبع سياسات أوربان الثانى فى العديد من الأخطار الأوربية تكشف لنا عن بعض المعلومات عن ذلك البابا ، ففى انجلترا - على سبيل المثال- لم يتمكن من الوصول إلى قرار نهائى فى أمر النزاع الطويل الذى حدث بين وليم الثانى William II (١٠٨٧-١١٠٠م/ ٤٨٠-٤٩٤هـ) وانسلم الكانتربرى Anselm of Canterbury (١٠٩٣-١١٠٩م / ٤٨٦-٥٠٣هـ) أما فى فرنسا ؛ فقد اتخذنا اتجاهًا حذراً مع فيليب الأول Philip I (١٠٦٠-١١٠٨م / ٤٥٢-٥٠٢هـ) وزواجه الغير شرعى المنطوى على الزنا adulterous Marriage .

وعند الاتجاه صوب أسبانيا ؛ ذات الحساسية الخاصة بحكم أنها شهدت الصراع بين المسلمين والأسبان من أجل استعادة الأخيرين للمناطق إلى سيطر عليها المسلمون- عمل البابا أوربان الثانى جاهداً على أسماء الأسبان «حركة الاسترداد» Reconquesta ومن التبعية الاقطاعية للكرسى المقدس لعدد من الامارات والمدن مثل أراجون Aragon وكتالونيا Cat-alonia، وعمل على تنظيم المناطق الخاضعة للسيادة الاسبانية على أساس كنسى، وفى عام ١٠٨٨م/ ٤٨١هـ نجده عمل على جعل طليطلة Tudela التى انتزعها الاسبان من السيادة الإسلامية على جعلها اسقفية خاصة بها [١].

أما إذا اتجهنا إلى النورمان Normans فى جنوب ايطاليا وصقلية Sicily؛ نجد أن البابا أوربان الثانى قد جعلهم حلفاء الخصوصيين . وتمثل ذلك فى علاقته القوية مع روجر الأول Roger I (١٠٧٢-١١٠١م / ٤٦٤-٤٩٥هـ) [٢].

ومن الممكن أن نلاحظ من كل ما سبق أن البابا أوربان الثانى يعد- وبحق- تلميذ البابا جريجورى السابع الذى يعد واحداً من أقوى البابوات فى (القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى ويكفى أن الأوامر البابوية Dictatus Papae[٢] تنسب إليه وهى تدعم نفوذ البابوية بصورة كاملة ، ويمكن اعتبار البابا أوربان امتداداً طبيعيًا لاستاذه جريجورى

١- Kelly , Oxford dictionary of. poper, p. 159 .

٢- انظر الترجمة العربية لنصوص الأوامر البابوية فى القسم الخاص بالملاحقلى سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ١، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص٧١٦- ص٧١٧ .

السابع، وإذا كانت الظروف التى صاحبت الأخير فى صراعه مع الامبراطورية قد اعجزته عن إعلان الصليبيات فإن الفرصة السانحة كانت لتلميذه الذى اتخذ منهجه وطوره لصالح سيدة كنائس المعمورة ونعنى بها كنيسة روما.

ومن زاوية أخرى؛ نلاحظ أن البابا أوربان اتسم بالنشاط الوافر. واحكام سيطرته على كافة مناطق نفوذ الكنيسة الأم، ولعل موقفه من أسبانيا يمثل لنا بعداً مهمًا ، فقد أيد ذلك البابا الحرب ضد المسلمين، وعندما أمكن للأسبان اخضاع بعض المناطق التى كانت من قبل تحت سيادة أعدائهم سارع البابا بجعلها ضمن نفوذ كنيسة روما، ولاشك أن أوربان الثانى فى دعمه الحرب ضد المسلمين هناك كان يسير على خطى وهدى البابا الكسندر الثانى. وهكذا يؤكد لنا على حقيقة محورية وهى وجود استراتيجية عليا للبابوية فى روما تتجه نحوها وتنفذها بحرص فى القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى على نحو خاص بغض النظر عن تغير وتقلب البابوات، وأهم ملامح هذه الاستراتيجية هى توسيع نفوذ كنيسة روما، وتوحيد الكنائس ، ومحاربة الإسلام أينما وجد باعتباره العدو اللدود الذى لامناص من مواجهته ومحاولة الانتصار عليه بأى ثمن .

مهما يكن من أمر : من الملاحظ أنه من خلال الاستغاثات البيزنطية المتعددة، وانشغال من سبق أوربان الثانى بأمور متعددة ، جاءت الفرصة السانحة لهذا البابا، وفى مجمع بياكنزا Pi-aicnza بايطاليا فى مارس ١٠٩٥م / ٤٨٨هـ اتجه إلى الاستجابة لدعوة الامبراطور الكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus (١٠٨١-١١١٨م / ٤٧٤-٥١٢هـ) ، غير أن الملاحظ أن مجمع بياكنزا أخفق فيه البابا فى الدعوة لشن حرب صليبية ضد المسلمين فى الشرق[1].

وتجدر الاشارة : أن إخفاق مجمع بياكنزا لم يثن ذلك البابا العنيد الطموح عن تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة، وقد اتجه إلى بلاده الأصلية فرنسا من أجل معاونته على نجاح مشروعه المرتقب . وقد دل ذلك الاختيار على ذكائه خاصة أن جنوب فرنسا التقليدى المحافظ كان بمثابة منطقة تماس مع الحرب التى شنها الاسبان ضد المسلمين فى أسبانيا، بالإضافة إلى أن مجرد

١- عن مجمع بياكنزا وإخفاق البابا فى تحقيق مكاسب للدعوة للصليبيات من خلاله انظر :

Munro , " Did The Emperor Alexius I ask for aid at The Council of Piacenza? , A.H.R., vol . XXVII, 1922, pp. 731-733 .

طرح الفكرة على الأرض الفرنسية كان من الممكن أن يحقق نجاحًا فوريًا من خلال أنها الموطن الأصلي للبابا، وهو أدرى بشعابها ، خاصة أنها- في نفس الحين- ذات تاريخ خاص مع الإسلام من خلال معركة تور Tours أو بواتيه المعروفة لدى المسلمين بمعركة بلاط الشهداء عام ٧٣٢م/ ١١٤هـ؛ والتي فيها هزم المسلمون وتم وقف المد الإسلامي واعاقته عن الامتداد فيما وراء جبال البرانس، وسوف ندرك من خلال تحليل خطاب البابا في مجمع كليرمونت أن كافة تلك الزوايا لم تغب عن ذهن ذلك الرجل الحاد الذكاء القوي الإرادة منذ أن تربى في أحضان حركة الكارسوسيان الرهبانية الصارمة.

مهما يكن من أمر؛ فإن البابا اتجه إلى كليرمونت فران Clermont Ferrant بجنوب فرنسا وعقد مجمعًا كنسيًا هناك، وفي اليوم العاشر من عقد المجمع الذي تناول فيه العديد من القضايا التي تهم رجال الكنيسة ؛ ألقى البابا على مستمعيه خطابًا بالغ الأهمية والخطورة وذلك في يوم ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م.

وواقع الأمر ؛ أن الباحثين في تاريخ الصليبيات يفتقدون النص الأصلي لما ألقاه الباب في المجمع المذكور ، ومع ذلك لدينا أربعة نصوص لأربعة من المؤرخين المعاصرين ، هم فوشيه الشارتري Fulcher of Chartres[1] ، وروبير الراهب Robert The Monk[2] ، وجويبرت النوجنتي Guibert of Nogent[3] ، وبودريك الدولي Baldric of Dol[4] ، وهناك تصور بأن فوشيه

١- عن رواية فوشيه الشارتري انظر :

Fulcher of Charters, A History of The Expedition to Jerusalem, Trans. by Rita Rian, Tennesse 1967 , p. 62-65 .

٢- عن رواية روبير الراهب انظر :

Robert the Monk, in Peters, The Crusade, The Chronicle of Fucher of Chartrees and other source Materials, Philadel 1971, p. 1-4 .

٣- عن رواية جيوبرت النوجنتي انظر :

Guilbert of Nogent , in peters, The First Crusade, pp. 10-13 .

٤- عن رواية بودريك الدولي انظر :

Baldric of Dol , in Peters, The First Crusade, pp. 6-10 .

الشارترى كان من بين الذين حضروا مجمع كليرمونت ، وبصفة عامة؛ من الممكن عقد مقارنة بين النصوص الواردة فى مؤلفات المؤرخين الأربعة المذكور من أجل التوصل إلى حقيقة ما أعلنه البابا فى خطبته الشهيرة[1] وعند مقارنة تلك النصوص يمكن استنتاج الآتى :

أولاً : وجه البابا حديثه إلى جنس الفرنجه من أجل التركيز على البعد الأثنى أو العرقى ، وأوضح أن الله قد ميزهم بموقع بلادهم وبعقيدتهم الكاثوليكية ، وعمل على تذكيرهم بالبعد التاريخى من خلال أمجاد شارل مارتل وشارلمان وما قدماه للمسيحية من خدمات جليلة ، على نحو عكس أهمية حافز «الذاكرة التاريخية» فى تشكيل تلك الظاهرة التاريخية الكبرى.

ثانيًا : أشار البابا إلى أن هناك أخباراً مؤسفه ومزعجة قدمت من الشرق مفادها أن جنسًا ملعونًا وهم الفرس (والصواب الأتراك السلاجقة) ذبحوا المسيحيين الشرقيين، وحولوا الكنائس إلى اسطبلات لخيولهم وأن دماء أولئك المسيحيين تنادى مسيحيين الغرب من أجل إنقاذهم من براثن أعدائهم الكفار.

ثالثًا : عمل البابا على إثارة مطامع سامعيه فى ثروات الشرق فأوضح أن الأرض فى الغرب الأوربى ولاسيما فى فرنسا ضاقت بسكانها ، وطلب من الناس الذهاب إلى الشرق حيث أرض كنعان التى تفيض لبنًا وعسلاً، وفى ذلك الدليل الجلى الذى لايقبل ارتياب مرتاب على أن البعد الاقتصادي للحركة الصليبية؛ قد تم الاعلان عنه بصراحة كاملة منذ اللحظات الأولى لميلادها.

رابعًا : وعد البابا كل من يحمل السلاح ويتجه إلى الشرق بأن تغفر ذنوبه وآثامه وبمعنى آخر قدم لهم الغفران الكنسى، أما إذا استشهد المرء فى سبيل تحقيق هدفه فإنه يعد شهيداً Martyrium من شهداء المسيحية الأبرار ، وجميعها مغريات مهمة فى عصر سادته ظاهرة الهوس الدينى العاطفى.

خامسًا : اتجه البابا إلى الإشارة إلى بيت المقدس ، وهى الجنة الأرضية قلب العالم ، التى شهدت ميلاد السيد المسيح وطهرها بموته وذكر لمستعميه أنها تناديكم من أجل تخليصها من براثن محتليها من الكفار. وأود أن أقرر هنا أن تلك المدينة مثلت محوراً على قدر عظيم من الأهمية ؛ من أجل إثارة الشعور الدينى لدى مستمعى البابا وفى أغلب النصوص التى وردت

١- عن تحليل الخطاب انظر: Munro , "The Speech of Pope Urbanus II at Clermont ", A.H.R., vol II, 1905, pp, 231-242 .

اسحق عبيد، روما وبيزنطة ، ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص٨٣- ص٨٦ .

إلينا بشأن الخطاب المذكور نجد أن بيت المقدس تحتل مكانًا بارزاً ومحوريًا، وهو أمر منطقى تمامًا من خلال مكانتها وقداستها الدينية، كذلك أنها مثلت الحلم الجماعى الخاص بالحج المسيحى فى ذلك العصر .

سادسًا : حرص البابا على تدعيم خطابه بعدد من النصوص الواردة فى الكتاب المقدس ؛ من أجل إثارة الشعور الدينى لمستمعيه ، أو ربما من أجل أن يعطى لخطابه قداسه خاصة مثل عبارات ذلك الكتاب فى العقل الجمعى الأوربى فى ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك العبارة الواردة فى إنجيل متى وهى : «من أحب أبًا وأمًا أكثر منى فلايستحقنى، ومن أحب ابنًا أو ابنه أكثر منى فلايستحقنى»[١]. كذلك العبارة القائلة : «من لايأخذ صليبه ويتبعنى فلايستحقنى»[٢]. والتى وردت فى نفس الانجيل المذكور .

سابعًا : فى تصورى أن البابا أوربان الثانى كان بارعًا تمامًا فى عرض أفكاره وكذلك فى اخفاء بعضها، وقد ركز على أمر بيت المقدس حتى يقدم طريقًا واحداً على الغرب الأوربى السير فيه دون تردد ويخلق لمعاصريه «وحدة الهدف» ، من خلال وحدة المؤسسة الدينية الداعية له فى صورة البابوية، وعلى هذا الأساس لم يرد فى الخطاب المذكور أية عبارات عن رغبته العارمة فى توحيد الكنائس واخضاع كنيسة القسطنطينية لسيطرة الكنيسة الأم فى روما، كذلك لم يرد فيه ما يدل على الهدف التنصيرى وهو هدف محورى للبابوية من خلال المشروع المرتقب، وتعليل ذلك الإخفاء يكمن فى أن البابوية أدركت أن هناك أولويات فى طرح المشروع ينبغى عدم تخطيها ، وأن وحدة العالم المسيحى تتطلب عدم تشعيب الأهداف وطرحها حتى لايغيب الأمر منذ اللحظات الأول لميلاد، ويلاحظ هنا أن لغة البابوية فى الخطاب ذات طابع متكتم فى عرض الأهداف الأخرى لها، أما فيما بعد نجاح المشروع والاستيلاء على الرمز الدينى المسيحى فى صورة بيت المقدس ، وجدنا- والأمثلة هنا أكثر من أن تحصى- الإفصاح عن الأهداف الأخرى بوضوح وصراحة كاملتين وفى هذا دليل وضاح على أن تلك المؤسسة الدينية ذات التأثير الفعال رأت تحقيق أهدافها جزءًا جزءًا وليس دفعة واحدة، وهو أخطر ما فى المشروع برمته ، وفى تقديرى : أن البابا أوربان الثانى لم يغب عن تفكيره ذلك الجانب بحكم أنه المهندس الأول للمشروع والداعى الأصلى لفكرته، وفى واقع الأمر : أن الخطاب الذى ألقاه البابا فى مجمع كليرمونت يعد على جانب كبير من الأهمية التاريخية، فلم نسمع

١- الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى ، الاصحاح / ١٠ ، ٢٧ : ٢٨ .

٢- نفس المصدر، الاصحاح ، متى / ١٠ ، ٢٨ .

من قبل فى تاريخ أوربا القرون الوسطى أن خطابًا كان معبراً عن عصره بمثل هذه الصورة ، كما لم تسمع عن خطاب حرك الجماهير الأوربية الغفيرة عن مواطنها الأصلية إلى الشرق بمثل تلك الدرجة التى تحدثنا بها المصادر التاريخية المعاصرة ، ولذلك لاننظر إليه على أنه مجرد خطاب عادى، بل أنه اعلان ما يشبه «الحرب العالمية» فى العصور الوسطى من جانب الغرب الأوربى ضد الشرق الإسلامى، وذلك دونما مبالغة أو قولية أو اعتساف فى الأحكام ، بل من خلال شواهد التاريخ التى وقعت فى أعقابه. ويلاحظ أنه فى أعقاب القاء البابا لخطابه صاح الحاضرون صيحة واحدة هى Deus le Vult أو الله يريد ذلك، وكانت صيحة المسيحية لمحاربة الإسلام وأهله، وأتخذو الصليب شعاراً ومن هنا كانت تسميتهم بالصليبيين[1].

ومن المهم أن نلاحظ ؛ أن خطاب الباب أوربان الثانى افتتح مرحلة على جانب كبير من الأهمية فى صورة الدعاية الصليبية Crusade Propaganda وهى دعاية قامت على أساس الانتقال الشخصى للعديد من المواقع ومخاطبة قطاعات مختلفة من البشر ، وقد كان لها دورها الفعال من أجل إنجاح ذلك المشروع، ومن الممكن ملاحظة أن الحملة الصليبية الأولى- على نحو خاص- ثم الاعداد الدعائى لها بمنتهى البراعة والاتقان منذ الخطاب المذكور وفى هذا الصدد تم حشد جيش من الدعاه من أجل مخاطبة كافة قطاعات المجتمع الأوربى كل على قدر تصوره وقد قام البابا أوربان الثانى بعد عقد مجمع كليرمونت بالانتقال إلى مدن تور، Tours، وبوردو Bordeaux ، ونيميز Nimes ومكث تسعة أشهر داعيًا لمشروعه الجديد [2]، كذلك فإنه قام بإرسال العديد من الخطابات ؛ من أجل الدعوة لمشروعه الصليبى، ومن ذلك الرسائل التى أرسلها كافة المؤمنين فى الفلاندرز وكذلك إلى بولونا وفالومبروز وكذلك إلى كونتات سردانيا وروسيللون، وبيسالو ، وامبورياس[3]، ويلاحظ هنا أن الخطابات المذكورة لايمكن فصلها عن

١- ويلاحظ أن كلمة «صليبيون» لم تكن اعلانًا من المؤرخين المحدثين وإنما هى اعلان قديم منذ بداية الصراع نجده فى كلمة Crucifigi اللاتينية ومعناها الصليبيون ، عن ذلك انظر : على الغمراوى ، المجموعات الحديثة لمصادر تاريخ الغرب الأوربى فى العصور الوسطى وأطوار البحث التاريخى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين ، ط. القاهرة ١٩٩٣م، ص٢٧٥ .

٢- محمد صالح منصور ، أثر العامل الدينى فى توجيه الحركة الصليبية ط. بنى غازى ١٩٩٦م ، ص٢٦٤ .

٣- عن تلك الرسائل انظر :

- Urban to all Faithul in Flanders, Decemer 1095 , in Louise and Jonathan Riley- Smith The Crusades Idea and Reality , London 1981 p. 38 .

- Urban to his Partisans in Bologna , 19 September 1096, Louise and Jonathan Riley - Smithm p. 38-39 .

دور البابا فى مجمع كليرمونت ، فهى تكملة ومواصلة حقيقية لدوره الدعائى للصليبيات وهى تقدم لنا عدداً من التفصيلات التى لم ترد فى خطاب مجمع كليرمونت ومن بينها تقريره بدور المندوب البابوى أدهيمار أسقف لى بوى Adhimar Bishop of le puy ويذكر ضرورة طاعة أوامره كأنها صادرة من البابا شخصيًا ، كذلك قرر أنه لايسمح للرهبان أو القساوسة بالاتجاه إلى الشرق إلا بعد الحصول على إذن من أساقفتهم، وكذلك مقدمى الأديرة تجنبًا للتمرد والفوضى.

وينبغى أن ندرك : أن تلك المصادر الوثائقية التى بين أيدينا تكشف لنا عن العقلية التنظيمية الدقيقة لأوربان الثانى ، ولذلك نتصور أنه امتلك رؤية شاملة للمشروع الصليبى -فى تلك المرحلة المبكرة على الأقل- وقد حرص الحرص أجمعه على نصيحة من سيشاركون فى الرحلة إلى الشرق بضرورة الطاعة العمياء لأوامره ، وكذلك أوامر رؤسائهم المباشرين، كما نستشعر أن البابا ألح على فكرة وحدة العالم المسيحى Christendom ، وكأن ما حدث فى الشرق للمسيحيين – فى زعم الدعاية الأوربية المغرضة– هو أمر يدخل فى صلب اهتمامات قاطنى الغرب الأوربى ، وأن مساعدة الفرنجة وغيرهم للمسيحيين الشرقيين هو جزء رئيسى من واجباتهم كمسيحيين[1].

- Urban to the Religious of the Congregation of vallombrosa October 1096, in Louise = and Jonathan Riley - slith , p. 39-40 .

- Urban to Count of Besakum Empurias , Roussillon and Cerdana and Their knights , January 1096-29 July 1099, in Louise and Jonathan Riley- Smith, p. 40 .

وعن دور الباب أوربان الثانى فى الدعوة لمشروعه فى ألقاب مجمع كلير مونت انظر :

جوناثان رايلى سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ، ت . محمد فتحى الشاعر ، الألف كتاب الثانى ، ط. القاهرة ١٩٩٣م ، ص١٩ .

١- وعلى الرغم من أهمية الدور الذى لعبه أوربان الثانى فى الدعوة للمشروع الصليبى، إلا أن من السذاجة اعتباره من عظماء التاريخ، مثلما توهم الامريكى مايكل هارت الذى اعتمده من العظماء المائة الذين أثروا تأثيرا بارزاً فى التاريخ البشرى ، وقد نؤيده فى تأثيره الذى لاينكر ، لكن لانتفق معه البته فى اعتباره من «العظماء» لأن من أشعل الحرب العالمية فى العصور الوسطى لايعد من أولئك الذين يوصفوا بذلك الوصف، انظر كتابه.

مايكل هارت ، العظماء مائة وأعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ت. أنيس منصور ، ط. القاهرة.

على أية حال : فإن الثمرة الطبيعية للدور الدعائى الكبير الذى قام به البابا ومن وثق فيهم من كبار رجال الكنيسة : قيام الحرب الصليبية الأولى والتى انقسمت إلى قسمين ، الأول : حملة العامة ، والثانى حملة الأمراء ، واحتلت الحملة الصليبية الأولى بشقيها اهتمامًا لانظير له من جانب المؤرخين المعاصرين سواءً اللاتين أو البيزنطيين أو المسلمين وكذلك من جانب المؤرخين المحدثين الذين تخصصوا فى دراسة الصليبيات ولعل مرجع ذلك يكمن فى النتائج الخطيرة التى نتجت عن تلك الحملة على نحو خاص، حيث أدت إلى تأسيس امارات صليبية فى الشرق طال عمر بعضها إلى قرنين من الزمان.

مهما يكن من أمر : فالملاحظ أن حملة العامة احتوت على اعداد غفيرة من الرجال والنساء والأطفال الذين اندفعوا اندفاعًا عاطفيًا اتسم بالرعونة نحو الشرق تلبية لدعوة البابا أوربان الثانى. ومما يذكر هنا ظهور شخصية قيادية بارزة فى صورة والتر المفلس الذى اتجه إلى قيادة العامة عبر هنغاريا فى اتجاه الأراضى البيزنطية ، وطوال الطريق كان السلب والنهب هو السلوك المعتاد من جانب الصليبيين على الرغم من أن ذلك تم على أرض مسيحية ويسكنها مسيحيون، ووصل العامة بقيادة والتر المفلس بالفعل إلى القسطنطينية فى ١٠٩٦م / ٤٩٠هـ بعد ثمانية أشهر فقط من دعوة البابا فى كليرمونت مما يعكس سرعة تأثيرها وقوة فعالياتها، ومما يذكر : أن بطرس الناسك Peter The Hermit واتباعه هاجموا قرية سملين Semlin الهنغارية وقتلوا الآلاف من أهلها ودل ذلك على بواكير الطابع الدموى للصليبيات وهو أمر ستكشف عنه بصورة وضاحة وقائع التاريخ ذاتها عندما يصل الغزاه إلى الشرق وتحديداً بلاد الشام.

وقد التقى الفريقان اللذان يقودهما والتر المفلس ، وبطرس الناسك عند القسطنطينية فى أغسطس ١٠٩٦م / ٤٩٠هـ ، وعندما اتجهوا إلى أعمال السلب والنهب فى المناطق المجاوره للعاصمة البيزنطية : لم يكن هناك مفر من أن يتجه الكسيوس كومنين إلى أن يوجههم إلى تحقيق مطلبهم بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى Asia Minor لمحاربة السلاجقة ، وذلك على الرغم من نصحه لهم بألا يندفعوا وعليهم الانتظار حتى مجيء باقى القوات الصليبية الأخرى التى تكون على قدر أوفر من الاستعداد الحربى، وقد عبر العامة البسفور والتقوا بالسلاجقة الذين فتكوا بهم وأوقعوا بهم هزيمة ساحقة فقتل منهم الآلاف عند قونية[1]، وبذلك تأكد الاخفاق الكامل لحملة العامة التى هى بمثابة التجربة الأولى للصليبيين فى قتال السلاجقة.

١- عن حملة العامة واخفاقها انظر المصادر والمراجع الآتية:

Albert d'Aix, p. 284-289 . Runciman , A History of the Crusades , Vol. I, p. 121-133 .

جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، ص١٤١- ص١٧٠ .

ولا مراء فى أن النتائج التى تمخضت عن حملة العامة كانت على درجة كبيرة من الأهمية فى تاريخ الصليبيات حيث تأكد للغرب الأوربى أن الاندفاع العاطفى والنوعيات الغير مدربة عسكريًا لاتجدى مع الفروسية السلجوقية ولابد من بديل عسكرى فروسى منظم من أجل تحقيق أيه مكاسب عسكرية مستقبلية . ومن ناحية أخرى : أدى الفتك بالآلاف من الصليبيين إلى اعتقاد عناصر عديدة فى الغرب الأوربى بمسئولية الامبراطورية البيزنطية فى تلك الكارثة على الرغم من أن الامبراطور الكسيوس كومنين أوصى جحافل العامة بضرورة التريث دون جدوى، ومن الآن فصاعداً : سنلاحظ أن الامبراطورية البيزنطية ستكون بمثابة الجهة التى سيحملها الغرب الأوربى كل فشل يحل بأية حملة صليبية تصل إلى المنطقة والعجز عن تحقيق أهدافها لأسباب عديدة وفق الظروف التاريخية المختلفة والتى قد لايكون لبيزنطة مسئولية عنها بالضرورة ، ومن الملاحظ أن فشل حملة العامة كانت رصيداً إضافيًا لميراث الكراهية والحقد الذى نشأ بين الغرب الأوربى وبيزنطة وسيتصاعد الأمر حتى حدوث كارثة ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ والتى ستسقط من خلالها العاصمة البيزنطية تحت أقدام الصليبيين .

زد على ذلك ، أن من نتائج حملة العامة المخفقه أن ظهر الإصرار من حانب الغرب الأوربى على قيام حملة جديدة هى حملة الأمراء التى ستتمكن من تحقيق نجاحات كبيرة فى الشرق ستقلب موازين القوى العسكرية وبالتالى السياسية لصالح الصليبيين إلى حد كبير.

على أية حال : من الممكن تقسيم حملة الأمراء إلى أربع مجموعات اعتمد تنظيمها على التقسيمات الجغرافية وكذلك الوضع الجنسى ، واللغوى للعناصر المشاركة فيها ، أما المجموعة الأولى فكان على رأسها جودفرى البويونى Godfrey de Bouillon وأخيه بلدوين Baldwin ، وقد قادا جيش الفلاندرز ، واللورين، وشمال غرب فرنسا ، وبالنسبة للمجموعة الثانية : كان على رأسها بوهيمند Bohemond (١) النورمانى وهو ابن روبرت جويسكارد Robert Guschard الزعيم النورمانى البارز ، وقد قام بقيادة النورمان الايطاليين، وكذلك ابن اخته تانكرد Tanchred (٢) ثم نجد المجموعة الثالثة على رأسها ريموند كونت تولوز

١- عن بوهيمند انظر : Yewdale, Bohemond I, Prince of Antioch, Amsterdam 1970, pp. 9-51 . Fulcher of Chartres, p. 28, p. 29 .

٢- وعن تانكرد أنظر : Nicholson, Tancred : A Study of his Career and Work in Their Relation to the First Crusade and the estarblishmentt of the Latin States in Syria and Palestine . Chicage 1940 . pp. 20-102 .

عن ريموند كونت تولوز انظر : Hill, Raymond IV Count of Toulouse, Syracuse 1962 . William of Tyre, vol . I, p. 139.

Raymond IV Count of Tolowe ، ومعه المندوب البابوى أدهيمار، وقد قادا جيوش جنوب فرنسا والبروفنسال ، أما المجموعة الرابعة فجاء على رأسها روبرت النورماندى Robert of Normandy [١]، ولا مراء فى أن المجموعات الأربع المذكورة عكست الثقل العسكرى لصليبية الأمراء، وفى نفس الحين حملت عناصر القوة والضعف فى آن واحد، نظراً للتنافس والتناحر الذى توافر لدى القيادات العسكرية وهو الأمر الذى سينعكس بدوره على أحداث تلك الحملة الصليبية .

ومن الزوايا المهمة التى ينبغى التعرض لها : أمر اليهود فى الغرب الأوربى عشية قيام الصليبيات ، حيث نلاحظ أنهم مثلوا قوة اقتصادية ذات شأن كبير واستقروا فى المدن الكبرى لاسيما تلك الواقعة على خطوط التجارة العالمية ومن أمثلتها حوض الراين بألمانيا، ونجد أن التجار اليهود قد حرصوا على إقراض من اتجه للاشتراك فى الحملة الصليبية الأولى بفوائد باهظة من خلال انتشار ظاهرة الربا حينذاك، ولانغفل أن اليهود منذ بداية المشروع الصليبى توجسوا منه خيفة على مصالحهم التجارية مع تجارة الشرق ، ويذكر البعض أن اليهود الألمان فى مناطق مثل مينز، وكولونيا جمعوا الأموال ، وحاولوا تقديمها لجودفرى البويونى من أجل اثنائه عن عزمه عن المشاركة فى أحداث تلك الحملة خوفًا من تهديد مصالح اليهود التجارية فى الشرق[٢].

زد على ذلك : أن اليهود فى الغرب الأوربى نظرت إليهم الدوائر الكنسية – صاحبة النفوذ الكبير فى تشكيل عقلية ذلك العصر– نظرة عداء وارتياب دائمين من خلال مواقفهم العدائية من المسيحية فى تاريخها الباكر، ثم أن اليهود عاشوا فى المدن التى أقاموا فيها فى أحياء خاصة بهم أو ما عرف بالجيتو اليهودى ، ومثلوا كيانات منعزلة ومتقوقعه وترفض الاندماج فى المجتمعات الأوربية المحلية الأكبر على نحو أدى إلى توافر نظرة عدائية عميقة تجاههم تزايدت مع تعاقب السنين، مع ملاحظة أن اليهود أنفسهم لم يعملوا من جانبهم على تغيير تلك النظرة العدائية لدى خصومهم.

١– Prawer, The Latin Kindgom, p. 12 .

٢– أحمد رمضان، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٠٧ .

والواقع ، أننا لا نورد كافة تلك الاعتبارات كتبرير للمذابح التى اقترفها للصليبيون ضد اليهود فى حوض الراين كما حدث فى فى مدن سباير وكولونيا وبراين وغيرها[١]، وكان الصليبيون يخيرون اليهود بين الارتداء عن دينهم واعتناق المسيحية أو الموت، وقد ظهر عدد من القادة الذين قادوا هذه المذابح ضد اليهود من أمثال فولكمار Volkmar، وجوتشوك Gottschalk ، واميخو Emicho[٢] ، وقد سقط المئات قتلى، على نحو عكس روح التعصب العارمة التى سادت صفوف الصليبيين وعدم قدرة المسيحية – على أيدى أبنائها المتعصبين- على التحاور مع أهل الأديان الأخرى سواءً على أرض القارة الأوربية ذاتها أو فى بلاد الشام ومصر عندما تصل إليها أقدام الصليبيين .

ولانغفل ؛ أن مثل تلك الحوادث دعمت لدى العقل الجمعى اليهودى فكرة الاضطهاد ، بل ومعاداة السامية Anti-Semitism إدراك مسئولية سلوكياتهم عن ذلك، بل واستغلوا- فيما بعد- مثل تلك الأحداث من أجل استمرار المكاسب السياسية تكفيراً عن الذنوب التى اقترفت فى الماضى .

١- عن تلك الأحداث أنظر المصادر والمراجع التالية :

The Jews and The Crusaders, The Hebrew chronicles of the Firsrt and Second Crusades, Trans. by Shlomo Eideburg , Nadison 1977 .

Nebauer, " Le Memorbuch de Mayence ", R.E.J., T. IV, Ann´´1882, pp. 1-30 .

Paltayean, "les Juifs, Les infideles de L'Europe", L'Histoire, T. LXVII, Année1982 , pp. 38-39 .

Parges , " Les Relations Hebraiques des Persecution des Juifs Pendant la Premiere Croisade ", R.E.J., vol . XXV , pp. 181-201 .

Goitein , " Geniza Sources for the Crusader period; A sarvey ", in Outremere Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer, Jerusalem 1982, p. 308 .

قاسم عبده قاسم ، «الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية ، الظاهرة ومغزاها»، ندوة التاريخ الإسلامية والوسيط، م (١)، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص١٣٧-ص١٦٦ .

٢- يوشع براور ، عالم الصليبيين، ص٣٩ .

وهنا من الممكن إدراك زاوية رئيسية ضمن خصائص الحرب الصليبية بصفة عامة سواء الحملة الأولى أو ما تلاها من حملات، وهذه الزاوية متصلة بالطابع الدموى للصليبيات ، ففى العديد من المواقع التى وطأتها أقدام الصليبيين كان العنف متسيداً ، وكانت الدماء المراقة هى السمة المميزة للفترة ، لقد تحول سفك الدماء إلى ما يشبه الجنون العام ، والصفة الغالبة على المرحلة أننا أمام حشود بشرية كأنها مصابه بالسادية Sadism، ولعل المسلمون هم الضحايا الأكبر عدداً من غيرهم ممن عانى من تفشى تلك الظاهرة الدموية، ومن الممكن أن نقرر أن تواجد مثل تلك الصفة لدى الصليبيين كانت تمثل دليلاً على العجز أكثر من كونه دليلاً على القدرة والقوة.

مهما يكن من أمر، فقد تقدمت الجماعات الأربع المذكورة نحو الشرق. وكانت أولى الجماعات التى وصلت إلى الأراضى البيزنطية تلك التى كانت بقيادة جودفرى البويونى وشقيقه بلدوين ، ويلاحظ أن الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ارسل رسله إلى جودفرى البويونى للاتفاق على ألا تتعرض بلاده إلى السلب والنهب مثلما كان الأمر مع حملة العامة. وفى المقابل قدم للصليبيين المؤن والامدادات إلى أن يصلوا إلى مناطق السلاجقة ، غير أن قوات جودفرى لم تلتزم بذلك واستباحت أحد المواقع البيزنطية فى صورة مدينة سليمبريا Se-lymbria، وقد طلب الامبراطور البيزنطى من جودفرى أن يقسم له يمين الولاء والطاعة واستخدم سلاح قطع المؤن والإمدادات عن قواته إلى أن أرغمه على أن يقسم له ذلك القسم وذلك فى إبريل من عام ١٠٩٧م / ٤٩١هـ وتعهد بأن يرد للامبراطورية البيزنطية ما فقد منها من مناطق ، وتم نقل قوات جودفرى بويون بالسفن البيزنطية إلى آسيا الصغرى .

أما فيما يتعلق بالمجموعة التى بقيادة بوهيمند ابن روبرت جويسكارد فقد كانت الامبراطورية البيزنطية على جانب كبير من الخوف منها ، خاصة أن النورمان مثلوا لها أقوى أعدائها وأخطرهم ، ولانغفل أن أطماع النورمان فى أملاك الإمبراطورية فى جنوب إيطاليا وسقوط بارى Bari آخر أملاك بيزنطة هناك عام ١٠٧١م / ٤٦٤هـ كل ذلك لم يغب عن أذهان المسئولين البيزنطيين البته وهم يتعاملون مع المجموعة المذكورة ، وبصفة عامة وافق بوهيمند على أن يقسم قسم الولاء للامبراطور الكسيوس مع ملاحظة أن البعض الآخر مثل تنكرد ابن اخت بوهيمند وآخرون لم يقسموا ذلك القسم للإمبراطور .

وبالنسبة التى على رأسها ريموند الرابع كونت تولوز: فنعرف أن تلك القيادة الصليبية لم

تقسم يمين الولاء للامبراطور، غير أنها وافقت على القسم باحترام حياته وعدم الإساءة إليه، وفيما يتعلق بالمجموعة التى على قيادتها روبرت النورمندى، فقد وافق الأخير على القسم للامبراطور، وعبرت تلك المجموعة مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى شأنها فى ذلك شأن المجموعات الأخرى.

على أية حال ؛ فإن المكسب الأكبر -الظاهرى- الذى حققه الكسيوس من تعامله مع تلك المجموعات الصليبية: أنه عقد معهم اتفاقية القسطنطينية عام ١٠٩٧م / ٤٩١هـ[١] والتى تعهد فيها الطرف الصليبى بأن يعيد لبيزنطة كافة المواقع التى كانت لها من قبل اجتياح السلاجقة لأراضيها ، ومن المنطقى تصور أن أنطاكية Antioch حاضرة نهر العاصى Orontes الكبرى دخلت ضمن ذلك الاتفاق فى مقابل تقديم بيزنطة للمؤن والإمدادات للصليبيين ويلاحظ أن الصليبيين لم يلتزموا بتلك الاتفاقية التى تصورت الامبراطورية البيزنطية أن من الممكن الزامهم بها دون جدوى .

مهما يكن من أمر ؛ فإن المحطة التالية المهمة فى حملة الأمراء هى نيقية Nicea عاصمة دولة سلاجقة الروم، وقد وصلوا إليها وكان قلج أرسلان السلجوقى متغيبًا عنها ، وفرض الصليبيون الحصار عليها ، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالسلاجقة ، وهو الانتصار الأول لهم ، وقد اتجهت الحامية السلجوقية للمدينة إلى الاستسلام ، واتصلت بصورة سرية بالبيزنطيين وتم الاتفاق على الاستسلام فى مقابل ألا يتعرض أحد للمدينة بالسلب والنهب، وبالفعل فوجىء الجميع بارتفاع الأعلام البيزنطية ترتفع فوق أسوار نيقية وذلك فى يونيو ١٠٩٧م / ٤٩١هـ وعادت نيقية من جديد للسيادة البيزنطية [٢].

١- عن اتفاقية القسطنطينية انظر :

Mathieu d'Edesse, chronique de Mathieu d'Edesse (962-1136) Avec la continuation de Gregoire le Pretre Jusqu'en 1162, ed. M. E. Dulqurier, Paris 1858, p. 214 .

وانظر: الدراسة :

Lilie, Byzantium and The Crusader States (1096-1204) Trans. by J.C. Morris and Jean E. Ridiings, Oxford 1993 , p. 23 .

جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص٢٢٢- ص٢٢٣ .

٢- عن سقوط نيقية انظر :

بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ت. حسين عطيه ، ط. الاسكندرية ١٩٩٨م، ص١١١ .

وجدير بالذكر : أنه من بعد نيقية نجد صداماً عسكريًا كبيراً بين الصليبيين والسلاجقة فى صورة معركة ضوروليوم عام ١٠٩٧م / ٤٩١هـ[١] التى حقق فيها الصليبيون انتصاراً كبيراً على أعدائهم، ومن بعدها وجدنا مؤرخ الجستا Gesta المجهول يردد نصه الشهير بشأن تفوق الأتراك السلاجقة وقوتهم وبسالتهم فى الحرب وتمنى لو أنهم كانوا من المسيحيين ففى هذه الحالة لايمكن أن يساويهم أحد فى القوة، والشجاعة . وفن القتال[٢] ، مما يعكس تقدير ذلك المؤرخ الصليبى- الذى هو فى الأصل من الفرسان النورمان- لدورالاتراك السلاجقة الحربى على الرغم من أن الهزيمة لحقت بهم.

ولا مراء : فى أن معركة ضوروليوم احتلت مكانًا بارزاً فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى، فهى أول صدام عسكرى كبير بين الصليبيين والسلاجقة وتحقق الانتصار للأولين، على نحو كان فاتحة توسعات صليبية غير مسبوقة ، وقد أفاد الصليبيين فى ذلك الانتصار كثرتهم العددية وحسن تنظيمهم ناهيك عن استبسالهم فى القتال ، ومن الممكن أن توصف تلك المعركة بأن شأنها شأن مانزكرت [٣]. وجاءت بمثابة الرد الغرب الأوربى على هزيمة البيزنطيين النكراء فى مانزكرت عام ١٠٧١م / ٤٦٤هـ .

١- عن معركة ضوروليوم انظر :

مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ت. حسن حبشى، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص٣٨ - ص٤٢ ، بطرس توديبود ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٣- ص١١٤ .

Raymond d'Aguilers, Historia Froancorum qui ceperunt Iherusalem , p. 27-28 .

France, Victory in the East, p. 171-186 .

Prawer, The Latin kingdom , p. 13 .

٢- مجهول ، أعمال الفرنجة ، ص٤٢ .

أيضًا : Hill, "The Christian View of the Muslims at the Time of the First Crusade", in : the Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades, ed. by . P.M. Holt, London 1977, p. 2 .

٣- جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص٢٣٥ .

وحقيقة الأمر : أنه من الآن فصاعداً : ينبغى ألا تأخذنا الدهشة من أية اخفاقات عسكرية سلجوقية فى مواجهة الصليبيين، إذ أنه بعد وفاة ملكشاه آخر السلاطين السلاجقة العظام عام ١٠٩٥م/ ٤٨٨هـ والتفكك الذى أصاب الدولة السلجوقية، لم تعد هناك الكفارة الحربية السابقة للسلاجقة ، ولامراء فى أن التغيرات على الساحة السياسية كان لها دورها فى ساحات الصدام الحربى مع الصليبيين ، وهم الذين ارتفعت معنوياتهم إلى حد كبير بعد ذلك الانتصار، وشعروا - أكثر من أى وقت مضى- أنه من الممكن تحقيق انتصارات كبيرة على السلاجقة خاصة فى حالة استغلال الانتصار الكبير فى ضورليوم وصولاً إلى بيت المقدس.

على أية حال : اتجه الصليبيون بعد ضورليوم إلى قونية فى أغسطس عام ١٠٩٧م/ ٤٩١هـ، وساروا من بعدها إلى هرقلة وتمكنوا من السيطرة عليها هى الأخرى بعد الحاق الهزيمة بالأتراك السلاجقة، وعندما بلغت القوات الصليبية ارمينية الصغرى رحب بهم الأرمن وقدموا لهم كل مساعدة ، ومن بعد ذلك صار هدف الغزاة يتجه نحو مدينة أنطاكية Antioch [1] درة شمال الشام وحاضرة نهر العاصى المزدهرة التى فيها أطلق لأول مرة تعبير مسيحيين على اتباع السيد المسيح عليه السلام ، والتى تمتعت بأهمية استراتيجية واضحة من خلال موقعها الفريد كمفتاح شمال الشام وإلى الغرب من حلب المتصلة بدورها بخط دفاعى استراتيجى مع الموصل حاضرة شمال العراق ، كما لانغفل أن خطوط التجارة القادمة من الشرق منها ما كان يمر بأنطاكية حيث وجه لها ميناء سان سيمون أو السويدية الذى من خلاله كانت تتم تصريف تجارة المدينة إلى الأسواق الأوربية.

ومما يجدر ذكره : أن أنطاكية تمتعت بحصانة كبيرة حيث أحاطت الجبال المرتفعة بها من جهتى الشرق والجنوب، وفى الشمال وجدنا المستنقعات والأحراش ، ومن الغرب حدها نهر الأورنت أو العاصى Orontes الذى وصفه العرب بهذا الوصف على اعتبار أنه يعصيهم ويمر

١- أفضل الدراسات عن إمارة أنطاكية الصليبية نجدها من خلال جهد كل من :

Cahen , La Syrie du nord a' L'epoque des Croisades, paris 1940 .

حسين عطية ، امارة انطاكية الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية عام ١٩٨١م، إمارة انطاكية والمسلمون ، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م.

فى ديار أعدائهم ، فإذا أضفنا إلى ذلك كله قلعة المدينة البالغة الحصانة أدركنا ما تمتعت به المدينة من حصانة كبيرة على نحو جعل الاستيلاء عليها أمراً على جانب كبير من الصعوبة ، ولاريب فى أنها عدت اختباراً عسيراً أمام الفروسية الأوربية حينذاك ممثلة فى الصليبيين.

اتجه الصليبيون إلى حصار أنطاكية ، وطالت مرة المصار بحكم حصانتها واستمر ذلك الحصار نحو سبعة أشهر من أكتوبر ١٠٩٧م / ٤٩١هـ حتى يونيو عام ١٠٩٨ م / ٤٩٢هـ ، وقد تعرض الصليبيون خلال ذلك الحصار للعديد من صنوف المعاناة، ونقصت المؤن والامدادات حتى أنهم أكلوا أوراق الأشجار أو الاشواك ، والخيول، والبغال، والجمال والكلاب واتجهوا إلى مهاجمة القرى الواقعة فى نطاق المدينة من أجل الحصول على الطعام وقد وقعت بينهم وبين المسلمين بقيادة ياغى سيان[1]- حاكم المدينة- العديد من الصدامات ، ولانغفل فى كل تلك الأحداث أن الأمراض الوبائية تفشت فى صفوف الصليبيين على نحو أدى إلى الفتك بالعديد منهم .

وخلال مرحلة حرجة من مراحل الحصار الصليبى لأنطاكية، تردد فى المصادر الصليبية أن رجلاً يدعى بطرس بارثليميو Peter Parthlemiou رأى رؤية منامية تفيد بموقع الحربة المقدسة The Sacred Lance التى يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح عليه السلام عذب بها ، وخرج على الصليبيين بالقصة وحفر فى الموقع الذى «رآه» فى منامه وعثر عليها، وفى حقيقة الأمر أن الأمر كان تلفيقًا خالصًا ، وأنه لم تكن هناك حربة مقدسة بل مخيلة خصبة لذلك الرجل.

على أية حال؛ كان للعثور على الحربة المقدسة ؛ أكبر الأثر فى نفوس الصليبيين الذين ارتفعت معنوياتهم إلى حد كبير [2]، وقويت عزائمهم على الاستمرار فى القتال من أجل اسقاط انطاكية فى قبضتهم .

وينبغى ألا نغفل زاوية مهمة هنا، وهى أن بوهيمند الذى تاقت نفسه للسيطرة على المدينة هدد - فى إحدى المراحل الحرجة من الحصار- هدد بالانسحاب ، ما لم يوافق الصليبيون على

١- عنه أنظر :

العظيمى ، تاريخه ، تحقيق على سويم، ص٢٢، ص٢٥ ، ص٦٠ .

جمال الزنكى، « مؤيد الدين ياغى سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الأولى ٤٧٧-٤٩١هـ/ ١٠٨٥-١٠٩٨م» حوليات كليات الآداب- جامعة الكويت الحولية (١٨) الرسالة ١٢٦ ، ط. الكويت ١٩٩٧-١٩٩٨م. ص٤٣- ص١٥٦ .

٢- Prawer, The Latin Kingdom , p. 14 .

أن يجعلوا المدينة له من بعد سقوطها ، وعندما رضوا بذلك قرر بوهيمند البقاء ومواصلة العمليات الحربية ولاشك فى أن ذلك يثبت لنا أنه أمام أسوار أنطاكية وخلال تلك المرحلة المبكرة من بدايات الغزو الصليبى لبلاد الشام ظهرت الروح البرجماتية لدى قادة الحركة الصليبية على نحو عكس أن «جند المسيح» Militia Christi كانوا شرهين للسلطة والنفوذ والمال.

مهما يكن من أمر؛ فحيث أن حصانة المدينة أعجزت الغزاة، اتجهوا إلى الخديعة ، وتمكن بوهيمند من الاتصال بأحد الحراس الأرمن ويدعى فيروز وهو الذى أسند إليه أمر حراسة أحد أبراج المدينة، وتم الاتفاق على فتح ما عجز الصليبيون عن فتحه بالحرب، عام ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ [1] عن طريق الخديعة والخيانة ، وبالفعل دخل الغزاة المدينة وأباحوها أيامًا للسلب، والنهب والقتل. والاغتصاب ، وكشرت الصليبية عن أنيابها ، وتحول جند المسيح إلى قتلة وسفاكى دماء ومغتصبين وتأكد للتاريخ بالفعل ما وصف به السير ستيفن رنسيمان Steven Runciman من قبل الحرب الصليبية بأنها آخر الغزوات المتبربرة ، ويلاحظ هنا أن أنطاكية ستكون المدينة التى شهدت بدايات سياسة الصليبيين الدموية فى بلاد الشام، حيث كانوا شرهين للغاية للمال والسلطة وسفك الدماء وهو أمر يمكن إدراكه بجلاء من خلال مطالعة نصوص كتابات المؤرخين الصليبيين المعاصرين أنفسهم.

ويحسن بنا هنا استعراض النتائج التى نتجت عن الاستيلاء على انطاكية من جانب الصليبيين ، حيث تأكدت قدرتهم على تغيير الخريطة السياسية لشمال الشام- على الأقل- لصالحهم فها هى أنطاكية تسقط على نحو يجعل حلب مهددة إلى الشرق منها ، ويجعل

١- عن سقوط أنطاكية فى قبضة الصليبية انظر :

ابن الأثير ، الكامل، ط. بيروت ١٩٦٦م، جـ١٠ ، ص٢٧٥، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص١٩٧ ، Cahen , La Syric denord a' L'epoque des croisades, Paris 1940, p. 257-260

Fulcher of Chartres, p. 106 .

Gabrieli, Arab Historians of The Crusades Trans. by Costello London 1969, p.3 .

Prawer, The Latin Kingdom, p. 14 .

الصليبيين يخضعون موقعًا استراتيجيًا مهمًا خاصة قرب أنطاكية من ميناء السويدية (حوالى ٢٠ ك م) على نحو يجعل إمكانية الاتصال بأوربا أمراً ميسوراً ومدعمًا للصليبيين إلى حد كبير، وبصفه عامة أدى استيلاؤهم على تلك المدينة إلى فتح الطريق إلى بيت المقدس [١].

على أية حال؛ فإن سقوط أنطاكية أثبت بجلاء أن الصليبيين ما نجحوا إلا من خلال فرقة المسلمين ، فقد تعاملوا مع كل كيان صغير على حدة وغابت عن المسلمين فكرة المشروع الوحدوى والمصير الواحد، ولم يتناسوا خلافاتهم فكان مصيرهم المحتوم تحت سنابك خيل الصليبيين وسيوفهم البتارة بالاضافة إلى استبسالهم فى قتال المسلمين وهى حقيقة لابد من الاعتراف بها.

ولا أدل على ما ذكرته ، من أن هناك رواية تتردد من أن الفاطميين فى مصر، وهم أعداء السلاجقة الألداء، عندما كان الصليبيون يحاصرون انطاكية ، قدمت سفارة فاطمية تعرض على الصليبيين تقسيم المنطقة نصفين فيكون شمال الشام لهم، وجنوبه بما فيه فلسطين للفاطميين، وقد أحسن الغزاه استقبال السفارة وأخفوا حقيقة نواياهم ومطامعهم التى لاتحد فى المنطقة.

لقد تردد أمر هذه السفارة البالغة الأهمية والدلالة لدى المصادر التاريخية الصليبية [٢]، وأشار إليها المؤرخ العراقى البارز ابن الأثير ، وإن ختمها بقوله : «والله أعلم»[٣]، مما جعل البعض - ممن دافع عن الفاطميين- يستبعد مثل ذلك المسلك منهم ، غير أننا من الممكن أن نقبل ما حدث على اعتبار أن الفاطميين خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الغزو الصليبى للمنطقة لم يتصوروا حقيقة أهداف الصليبيين وأنهم ما قدموا إلا من أجل إقامة كيان دخيل فى المنطقة على حساب السلاجقة والفاطميين معًا، وإنهم قوة لايمكن مهادنتها لأنها تريد

١- Prawer, The Latin kindgom , p. 14 .

٢- William of Tyre, vol. I, p. 223-224 .

٣- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص١٠١ .

والنص كالآتى :«... وقيل أن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزه ولم يبق بينهم ومن مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الاقسيس إلى مصر وحصرها فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم، وبين المسلمين والله أعلم».

ويلاحظ أن الخلاف لايزال قائمًا حول تلك الزاوية على نحو خاص بين مدافع عن الفاطميين وبالتالى رافض لتلك الرواية ، وبين مؤيد لها .

افتراس الجميع على حساب مصلحتها العليا فقط، وتوهم الفواطم أن من الممكن عقد حلف مع الصليبيين ضد السلاجقة .

لقد أكدت السفارة الفاطمية للغزاه كم كان واقع المنطقة مأساويًا على نحو فتح معه حكام القاهرة أيديهم لمن هزم السلاجقة فى ضورليوم ومن يحاصر أنطاكية من أجل إسقاطها وضمها لسيادته السياسية.

مهما يكن من أمر؛ فإن مصير أنطاكية قد تحدد بإحكام السيادة الصليبية عليها خاصة بعد اخفاق كربوغا أتابك الموصل فى أمر الدفاع عنها، ومن قبل عندما قتل ياغى سيان حاكمها فى الصراع الذى دار حولها.

من الملاحظ : أنه فى الوقت الذى كانت الأحداث التاريخية تجرى لاهثة فى أنطاكية ؛ كان الفاطميون قد حققوا انتصاراً مهمًا على السلاجقة من خلال استعادتهم لبيت المقدس فى أغسطس عام ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ ، وفى نفس الحين شرع الغزاه فى مواصلة زحفهم من أجل تحقيق الهدف المعلن الرسمى ونعنى به الوصول إلى القدس، وتقدم الصليبيون جنوبًا ووجدوا مساعدة من جانب عناصر المسيحيين المحليين خاصة موارنة لبنان، ولم تسع قوى محلية صغيرة للصدام معهم مثل بنى منقذ فى شيزر خوفًا من بطشهم وتعرضهم للمصير الدموى الذى تعرضت له أنطاكية وغيرها من المدن.

على أية حال؛ فرض الصليبيون الحصار على المدينة المقدسة وكان بها حاكمها الفاطمى وهو افتخار الدولة الذى عمل على تنظيم الدفاع عنها واستمر حصارها شهراً كاملاً ابلى الفريقان خلاله صنوفًا عديدة من المقاومة حتى سقطت المدينة فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ (١)،

١- عن سقوط بيت المقدس فى قبضة الصليبيين انظر :

Anonymous , The deeds of the franks and other pilgrims, to Jerusalem Trans, by R. Hill, London 1992, p. 91 . Fulcher of Chartres , p. 122 .

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٣٧ ، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، ص١٩٧ ، السيوطى تاريخ الخلفاء ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص٤٢٧ .

Hagenmeyer , " Chronologie de la Premiere Croisade, R.O.L., T. VII, Année 1899, pp. 477-479 .

ميخائيل اسكندر ، القدس عبر التاريخ ، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٥٧- ص٥٨ ، سعيد عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٤م ص١٠ .

أعقب سقوطها مذبحة مروعة شملت الرجال والنساء والأطفال وعمليات سلب ونهب واستمرت المذبحة طوال عشرة أيام كاملة ؛ فلم تتوقف إلا يوم ٢٥ يوليو ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ ولدينا أوصاف عديدة لوقائعها على أيدى المؤرخين الصليبيين المعاصرين ومنهم شهود عيان، ومن خلال ذلك؛ نعرف أن المذبحة كانت مروعة وعكست البربرية التى عليها الصليبيون ، فيقرر مؤرخ الجستا Gesta المجهول أن خيول الصليبيين كانت تخوض فى الدماء حتى ركبها[١]، كذلك أشار إلى أن جماجم القتلى لو جمعت لبلغ ارتفاعها ما يفوق أسوار المدينة وفى هذا دليل وضاح وشهادة شاهد من أهلها تدل على مدى السادية التى أصابت الغزاة على نحو جعلهم يصنعون تاريخهم الأسود الدموى على جماجم القتلى من المسلمين - فى الغالب- واليهود.

ومن الملاحظ أن أعداد القتلى من جراء مذبحة بيت المقدس البشعة كانت بكل تأكيد مرتفعة، إلا أننا لانستطيع أن نؤكد ما ورد فى المصادر العربية من أن القتلى بلغوا سبعين ألف نفس فى المسجد الأقصى[٢] ، خاصة مع افتقادنا إلى أية أدلة إحصائية فى مثل ذلك العصر بصفة عامة ، وفى مثل تلك الأحيان العصيبة على نحو خاص .

ومما يدعونا إلى تصور ارتفاع معدل القتلى أننا نعلم أن بيت المقدس حينذاك ؛ كانت مستقراً ومقاماً من جانب العديدين الذين قدموا إليها من العلماء والزهاد والعباد من أجل مجاورة المسجد الأقصى الذى كان بمثابة مركز إشعاع دينى وعلمى على مستوى عال، بالنسبة للعالم الإسلامى بأسره إلى جانب الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز بطبيعة الحال، ويضاف إلى ذلك؛ أن الغزاة احتاجوا أعداداً من السكان المحليين- ممن نجوا من المصير التعيس- من أجل المساعدة فى تنظيف المدينة المقدسة من جثث القتلى حتى لاتنتشر الأمراض الفتاكة فى صفوفهم[٣].

١- Anonymous, p. 91 .

٢- ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول ، ص١٩٧ .

٣- مصطفى الحيارى ، القدس فى زمن الفاطميين والفرنجة ، ط. عمان ١٩٩٤م، ص٤٤ .

ومن المؤسف حقًا ، بعد تلك الكارثة الإنسانية بكل المقاييس ، أن نجد مؤرخًا بارزاً مثل هايد، يقرر =

وبصفة عامة : أكدت مذبحة القدس الشنيعة على عدد من الحقائق التى صارت بمثابة قواعد أساسية كشفت عن الوجه الحقيقى للغزو الصليبى للمنطقة.

فيلاحظ : أن الصليبيين كشفوا عن الوجه القبيح المتعصب للحركة الصليبية ، والطابع الدموى الذى سيطر على عقولهم وجعلهم لايرون إلا الجثث والدماء والجماجم ، وهكذا : كشفت المذبحة عن الطابع العدائى التصادمى للحركة الغازية وأنها ما جاءت من أجل اقامة جسور الثقة أو من أجل ايصال رسالة حضارية لأبناء المنطقة بل من أجل غرس كيان دخيل أجنبى غاصب بقوة السلاح وعلى حساب أبناء الأرض الأصليين .

زد على ذلك: أن الغزاة أثبتوا - مبكراً- أن الاحتكام إلى قوة السلاح هو الفيصل فى مواجهة الكارثة التى حلت بالمنطقة من جراء مقدمهم الآثم- وهناك من يقرر أنه كلما لاحت فيما بعد بوادر سلام بين الجانبين الإسلامى والصليبى كانت ذكرى مذبحة القدس تقضى على أية امكانية للتعايش السلمى بين الطرفين إلا ما ندر .

ولانغفل هنا زاوية على جانب كبير من الأهمية : وهى أن الصليبيين - على ما يلوح لنا- عرفوا التطهير العرقى فى ذلك العصر المبكر من قبل ما حل بالمسلمين فى البلقان على أيدى الصرب فى عصرنا، إذ أن الواقع كشف لنا بجلاء أننا لسنا أمام مذبحة عادية بل محاولة إبادة لم تتوقف إلا من خلال إدراك الغزاة أنهم فى حاجة إلى السكان المحليين من أجل القيام بالأدوار الحياتية الأخرى الضرورية لاستمرار الحياة فى المدينة المقدسة.

ومن الملاحظ : أن الصليبين قدموا لأبناء المنطقة رسالة مفتوحة بالغة الدلالة والفصاحة بل والدموية على مدى الطريق من أنطاكية حتى بيت المقدس فمن يسالمهم تكتب له النجاه ويستمر قائمًا دون إبادة ، ومن يقاومهم يكون مصيره القتل والذبح، وهكذا اثبت الصليبيون أنهم على

= ما نصه «وكان بين الصليبيين الذين اشتركوا فى أول عمل بطولى فى الحرب الصليبية وهو الاستيلاء على بيت المقدس، جنود من جنوة...» واتصور أن الأمر لم تكن فيه أية بطولة لأن البطولة التى تبنى على الجامجم والدماء، مخادعة ومضللة ، وأبعد ما تكون عن البطولة الحقيقية.

انظر اشارته :

هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ١ ، ت. أحمد محمد رضا، مراجعة عز الدين فودة ، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص١٤٨ .

جانب كبير من التعصب المرضى ضد كل ما هو مسيحى ، فلم يحدث أن أصاب المدينة المقدسة أو أية مدينة فى بلاد الشام مذبحة تحل بالمسيحيين الشرقيين الذين عاشوا فى أمن وأمان فى حضن ديار الإسلام إلا ما ندر من حوادث عارضة استثنائية ابتعدت عن روح الإسلام المتسامحة أصلاً، فالتعصب صنيعة صليبية ولم تكن مرتبطة بالإسلام وأهله، وخير تصديق لهذا القول مذبحة القدس التى كشفت بجلاء أن من اسموا أنفسهم «جند المسيح» تحولوا إلى أن يكونوا من كبار سفاكى الدماء فى المرحلة القروسطية .

وفى واقع الأمر : كان سقوط بيت المقدس فى قبضة الصليبيين معناه أن الهدف المعلن عن قيام الحرب الصليبية وهو تخليص المدينة المقدسة من أيدى المسلمين قد تحقق، وأن هذه المحصلة الختامية احتاجت إلى عمل شاق دام قرابة أربعة أعوام من ١٠٩٥ إلى ١٠٩٩م/ ٤٨٨ إلى ٤٩٣هـ ، وقد تحرك الفاطميون فى صورة الأفضل بن بدر الجمالى من أجل مواجهة الصليبيين - وكان تحركهم متأخراً فى صورة معركة عسقلان عام ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ التى هزم فيه الفواطم وانتصر فيها الصليبيون ، وجاءت نتيجتها لتؤكد أن بيت المقدس صارت بالفعل فى أيدى قوة أجنبية جديدة فتية غازية للمنطقة وأن الفاطميين ليس بإمكانهم إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، وينبغى ألا نعفى الأخيرين من المسئولية ، ولاريب فى أن تأخر الأفضل بن بدر الجمالى عن مواجهة الصليبيين بفاعلية فى معركة عسقلان يجعلنا ندرك بجلاء أن الغزو الصليبى للمنطقة جاء ليكشف لنا عن ضعف الدولة الفاطمية فى مواجهة التحدى الصليبى، ولانغفل هنا أن عقلية الفاطميين اتجهت إلى التفكير فى محاربة السلاجقة أكثر من التفكير فى حرب الصليبيين خلال تلك المرحلة المبكرة من وجودهم فى المنطقة، وهى مرحلة كان من الممكن - من خلال أن الوجود الصليبى نفسه : لم يكن قد تمكن من تثبيت أقدامه بعد- تحقيق مكاسب خلالها فى حالة الاتحاد والتماسك ورأب الصدع بين المسلمين خاصة بعد ظهور مطامع الصليبيين جليه فى كافة المناطق المتاحة أمامهم لا فرق فى ذلك بين سلاجقة وفاطميين .

ولانغفل هنا، أن نستكمل صورة نفوذ الصليبيين وتوزيعاتهم فى المنطقة ، فقد تمكن بلدوين البويونى من السيطرة على الرها Edessa فى أعالى الفرات ، وأسس هناك إمارة صليبية ، وقم تم اقامة تلك الإمارة من أجل أن تكون بمثابة دولة جاهزة Buffer State بين سلاجقة آسيا الصغرى وسلاجقة العراق وكذلك بلاد فارس [1]، وكى تكون بمثابة محطة انذار مبكر

١- سوسن محمد نصر ، «منطقة الجزيرة الفراتية بين التفكك والوحدة خلال القرن السادس والهجرى، مجلة الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس العدد (٧) عام ١٩٩٠م، ص٩٨ .

للصليبيين فى مواجهة أية أخطار عسكرية قادمة لهم من الشرق، وأفضل وصف لموقع الرها بالنسبة لجيرانها فى أنطاكية، وطرابلس ، وبيت المقدس أنها مثلت رأس البلطة وذراع البلطة الصليبية لجده فى الساحل الشامى وفى هذا الدليل الوضاح أن الغزاه الجدد كانوا يدركون أهمية زرع كياناتهم فى مواقع جغرافية ذات أهمية استراتيجية خاصة، ويلاحظ هنا أن إمارة الرها- على نحو خاص- ستتعرض للعديد من الضربات من جانب المسلمين وستقوم بدور الحامية والمدافعة المتقدمة عن باقى اخواتها الصليبيات فى بلاد الشام على نحو سيكون له دوره فى الاجهاز عليها مبكراً عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ.

زد على ذلك ؛ أن النورمان وعلى رأسهم بوهيمند أسسوا إمارة صليبية فى أنطاكية بعد سقوطها فى قبضة الصليبيين عام ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ ، وصارت بيت المقدس بمثابة أساس المملكة الصليبية وذلك منذ عام ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ ، أما طرابلس ؛ فستكون مركزاً لإمارة صليبية وذلك عند سقوطها عام ١١٠٩م/ ٥٠٣هـ، وبذلك صار الصليبيون يسيطرون على مواقع مهمة واستراتيجية على الساحل الشامى من أجل ضمان اتصالهم بأوربا وهى الوطن الأم للصليبيات ومنها يتدفق المتطوعون والأموال الوفيرة المدعمة لميزانية الصليبيين التى تستهلك كثيراً بسبب الصراع الحربى مع جيرانهم المسلمين ، كذلك ضم الصليبيون إليهم مواقع ذات قداسة خاصة جعلتهم يتحكمون فى حركة الحج إلى فلسطين ، فإذا أضفنا إلى ذلك أهمية مواقعهم فى السيطرة على حركة التجارة الصادرة والواردة من وإلى المنطقة؛ أدركنا حجم الإنجاز الذى تحقق خلال أحداث الصليبية الأولى وما تلاها من أعوام قلائل .

تلك صورة لوقائع الحرب الصليبية الأولى ، ويتضح منها كيف أنها حققت انجازات كبيرة من خلال الانتصارات العسكرية ضد كل من السلاجقة والفاطميين فى آن واحد، ويلاحظ أن باقى الحملات الصليبية لن تستطيع أن تحقق انجازات كبيرة مثل تلك التى تحققت فى الحملة الأولى. ولذلك توصف وبحق بأنها حملة تأسيس الوجود الصليبى فى الشرق، وكانت أساس كافة الحملات الصليبية التى أتت من بعدها والتى قدمت إلى المنطقة من أجل انقاذ ما ضاع من الصليبيين على أيدى المسلمين ومن قبل بناه الأولون فى ظل الصليبية الأولى.

وتبقى ناحية أخيرة فى هذا الفصل ؛ وهى أننا نضطر اضطراراً إلى أن ندرس الحملات الصليبية من خلال الأرقام على اعتبار الاعتياد على ذلك من جانب البعض الذين هدفوا إلى تسهيل الدراسة وتيسيرها ، غير أنه من الضرورة بمكان إدراك أن المشروع الصليبى يعد

مشروعًا واحداً لايتجزأ على أرض الواقع التاريخى، وأن ما يتجه إليه المؤرخون أحيانًا . من تجزئة وتفتيت لايمت للواقع الذى عاشه المعاصرون بأية صله - وهو أمر أشبه بالتقسيم الثلاثى الاعتسافى لعصور التاريخ- ولذا فمن الأهمية بمكان تصور الصراع بشمولية دون تجزئة الدراسة.

ذلك عرض؛ لأحداث الصليبية الأولى، من مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥م / ٤٨٩هـ حتى سقوط بيت المقدس فى أيدى الغزاه عام ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ، أما الفصل التالى فإنه يتناول أخطر مراحل وجود الصليبيين فى الشرق فى صورة تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية خلال الأعوام من ١٠٩٩ إلى ١١١٨م / ٤٩٣-٥١٢هـ .

الفصل الثالث

تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية

من ١٠٩٩-١١١٨م / ٤٩٣-٥١٢هـ

يتناول هذا الفصل بالدراسة تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية خلال المرحلة الواقعة من عام ١٠٩٩م/ ٤٩٣هـ إلى ١١١٨م/ ٥١٢هـ أى خلال العقدين الأولين من تاريخ الصليبيين فى الشرق.

وواقع الأمر : أننا لانبالغ إذا ما اتجهنا إلى القول بأن الأعوام المذكورة من بين قرابة قرنين من الزمان عاشها الصليبيون فى المنطقة- كانت بمثابة الأعوام الأهم والأخطر فى حسم وجود الصليبيين أو عدم وجودهم ، ولذا توصف - وبحق- بأنها السنوات الحاسمة والمحورية ، وعلى أساس الأعوام المشار إليها تحدد شكل ذلك الكيان الدخيل وطبيعته، علاقاته المحلية مع أعدائه المسلمين على مدى عقود عديدة من الزمان ، وكذلك علاقاته الخارجية، مع عدم اغفال ما استجد من عوامل أخرى فيما بعد المرحلة التاريخية المذكورة حتى لاتقع فى مأزق الانحياز لمرحلة ما من تاريخ الصليبيين وإغفال أهمية المراحل التالية .

وينبغى أن نقرر منذ البداية : أن الاهتمام بمملكة بيت المقدس الصليبية - بحدودها الفلسطينية المعروفة - أمر له دلالته : لأنها مثلت القلب بالنسبة للوجود الصليبى فى بلاد الشام ، والجزيرة الفراتية ، ولا مراء فى أن مراحل القوة لتلك المملكة انعكست بالضرورة على باقى الإمارات الصليبية، كما تكرر ذات الأمر مع مراحل الضعف على نحو كشف لنا بجلاء تأثير «القلب» الصليبى على الأطراف الأخرى إيجابًا وسلبًا ، والوحدة الفعلية التى كانت لدى الصليبيين بين مناطق توزيعاتهم لاسيما خلال مراحل قوتهم، وكذلك انتفائها فى عصر الضعف.

وبداية : من الملاحظ أنه فى أعقاب دخول الصليبيين بيت المقدس عام ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ : تأسس فى المدينة حكم علمانى خاضع للإشراف من جانب البابوية فى روما، وهى التى حرصت على أن يكون الوليد الصليبى الحديث مستمر فى الارتباط بالرحم البابوى حتى بعد ميلاده وظهوره على أرض الواقع فى بلاد الشام، والجزيرة ولامراء فى أن البابوية حرصت على ألايقام

حكم دينى فى المملكة الجديدة حتى لايمثل لها أدنى قدر من المنافسة ودل ذلك على مدى حنكة ودهاء تلك المؤسسة الدينية الضخمة التى على رأسها الجالس على مقعد القديس بطرس فى روما.

وخلال المرحلة الواقعة من ١٠٩٩ إلى ١١١٨م / ٤٩٣-٥١٢هـ ؛ تعاقب على حكم مملكة بيت المقدس شقيقان احتلا أهمية كبرى فى تأسيس دعائمها ، هما جودفرى البويونى[١] ، وشقيقه بولدوين ، وقد حكم الأول عامًا واحداً من ١٠٩٩ إلى ١١٠٠ / ٤٩٣-٤٩٤هـ ، ومع قصر مدة حكمه إلا أنه مثل أهمية خاصة فى تاريخ الغزو الصليبى للمنطقة.

وواقع الأمر؛ أن جودفرى البويونى بعد أن انتخب ليكون حاكمًا للكيان الجديد، رفض أن يتخذ لقب ملك Rex ، وإنما اتخذ لقب حامى القبر المقدس Advocatus Sancti Sepulchri [٢]، وقد كان أمام ذلك الفارس دور مهم فى مواجهة الخطر الفاطمى القادم عبر مصر فى صورة الأفضل بن بدر الجمالى الذى قاد جيشه لمواجهة الصليبيين ، ومن ثم كان الصدام فى صورة معركة عسقلان Ascalon -السابق الإشارة إليها- وقاد جودفرى القوات الصليبية، ولعب عنصر المفاجأة دوره، فقد هاجم الصليبيون أعداءهم فجأة واختلت صفوف الجيش الفاطمى، وتعدد قتلاه وجرحاه ، وانتهت المعركة بالهزيمة الفادحة للفاطميين[٣].

ولا مراء ؛ فى أن معركة عسقلان عدت بمثابة أول اختبار عسكرى لجودفرى من بعد توليه مهام منصبه الجديد فى المملكة الصليبية ، ومن الواضح أنه اجتاز ذلك الاختبار بنجاح أضيف إلى نجاحاته السابقة على مدى الطريق إلى بيت المقدس.

١- عن جودفرى البويونى بالتفصيل انظر :

Fulcher of Chartres , p. 72 , p. 80 William of Tyre , vol II, p. 43 , p. 57 . Parisee , "Godfrey de Bouillon , Le Croisade examplaire", L'Histoire, T.XLVII, Année 1982 .

Aube, Godefroy de Bouiion, paris 1985 .

Mayer , The Crusades, Trans. by John Gillingham, p. 45 .

سعيد برجاوى، الحروب الصليبية فى المشرق ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص١٧٦- ص١٩٠، ، عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية ، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص٦٢- ص٩٩ .

٢- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٥٣ .

٣- عن معركة عسقلان انظر : William of Tyre , vol . I, p. 394 .

سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص٢٥٨-٢٥٩ .

ومن ناحية أخرى؛ سعى جودفرى إلى تحقيق أكبر قدر من المكاسب العسكرية على الرغم من قلة القوات الصليبية التى معه خاصة بعد رحيل العديدين من المنطقة على اعتبار انتهاء رحلة الحج، وسقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين .

ويلاحظ أنه امتلك قوة عسكرية محدودة نسبيًا عليها مهام جسام سواءً هجومية أو دفاعية خلال تلك المرحلة القلقة من تاريخ الصليبيين ، وقد عمل على السيطرة على الخليل على اعتبار أهميتها بحكم كونها منطقة داخلية ذات ثراء زراعى ومشرفة على الطرق التجارية المارة بها ، كما أن إخضاع الخليل لايحتاج إلى أسطول بحكم كونها منطقة داخلية وبالتالى فلا خطر من تدخل الأسطول الفاطمى لنجدتها، كما هو الحال بالنسبة لمدن الساحل الشامى الأخرى، فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما تمتعت به الخليل من مكانة دينية لوجود المزارات بها خاصة مقام ابراهيم عليه السلام : أدركنا أهميتها الكبيرة للصليبيين، وبالفعل استولى جودفرى البويونى عليها عام ١١٠٠م/ ٤٩٤هـ وتم إطلاق اسم St. Abrahams ، كذلك تم تشييد قلعة بها، وذلك فى نفس العام ووصفت تلك القلعة بالمناعة والحصانة ، وهى بالطبع من أولى القلاع التى شيدها الصليبيون فى بلاد الشام عمومًا [١] وفلسطين على نحو خاص.

زد على ذلك : أنه اتجه إلى محاولة ضم مدينة أرسوف[٢] الساحلية الواقعة إلى الجنوب من قيسارية وذلك فى ديسمبر من عام ١١٠٠م / ٤٩٣هـ، وكان دافعه إلى ذلك تأمين الطريق

١- عن الخليل أنظر : Rabbi Jacob Ben R. Nathaniel Ita Cohen , in Adler , Jewish Travellers , in the Middle Ages, New York 1987, p. 98 .

وعن جودفرى البويونى وسياسته تجاه الخليل انظر :

على أحمد السيد، الخليل والحرم الابراهيمى عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص١٠٦-ص١١٠ .

٢- أرسوف مدينة وقعت على ساحل فلسطين بين قيسارية Caesarea، ويافا Joppa وبعدت عشرة أميال إلى الشمال من يافا ، وكانت المسافة بينها وبين قيسارية نحو ثمانية عشر ميلاً ، ومن المحتمل أن اسم أرسوف Arsuf مشتق من اسم الإله السامى رسيف Reseph ، وسميت فى المصادر الجغرافية الأوربية =

البرى الواقع بين بيت المقدس والساحل ، غير أنه عجز عن إخضاعها [١]. لاريب فى أن محاولته إخضاع أرسوف قد كشفت لنا عن أن اهتمام الصليبيين باخضاع الساحل السامى مَثَّل بالنسبة لهم؛ قضية حياة أو موت ؛ من أجل تدعيم اتصالهم بالوطن الأم فى أوربا ، وهى سياسة صليبية عامة استمر الملوك الصليبيون يسعون إليها على مدى مايزيد على نصف قرن كامل من تاريخ وجودهم فى بلاد الشام.

زد على ذلك؛ أن سياسة ذلك القائد الصليبى كانت تتجه إلى مهاجمة المدن الفاطمية الساحلية من الناحية البرية طالما أنه ليس بإمكانه الاستيلاء عليها من الناحية البحرية خاصة مع ملاحظة فعاليات الأسطول الفاطمى وحتى يحرمها من مؤنها التى تحصل عليها من الريف[٢].

= فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى بعدة أشكال فهى أحيانًا أتسوف Atsuph ، أو أزوتس Azotus كما لدى سايولف أو أرسور Arsur أو تارسوف Tarsuf ، كما لدى دانيال الروس ، ويلاحظ أنه فى القرون الأولى من عهد الخلافة عدت أرسوف واحدة من المدن الحصينة الرئيسية فى فلسطين وارتبط بها عدد من المجاهدين وانتسب إليها عدد من العلماء ، عنها انظر :

Guide Book to Palestine, Trans . by J.H. Beranrd, P.P.T.S., Vol. V London 1897 , p. 34 .

المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٠٩م، ص٥٤ ، ياقوت ، معجم البلدان، جـ١ ، ط. بيروت ١٩٧٧م، ص١٥١ - ص١٥٢ ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق ١٩٦٢م، ص٢٥٣ ، حاشية (١) ، أبو الفداء، تقويم البلدان ، تحقيق رينو ودى سلان، ط. باريس ١٨٤٠م، ص٢٣٨-ص٢٣٩ ، شيخ الربوة الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، تحقيق مهرن، ط. بطرسبرج ١٨٦١م، ص٢١٣ .

محمد مؤنس عوض ، فى الصراع الإسلامى الصليبى معركة أرسوف (١١٩١م/ ٥٨٧هـ، ط. القاهرة ١٩٩٧، ص٧ .

١- عن فشل محاولة جودفرى الاستيلاء على أرسوف انظر :

Fulcher of Chartres, p. 152 .

حسن عبد الوهاب ، تاريخ قيسارية الشام، ص٦٢ .

٢- Runciman , Vol. I, p. 308 .

وقد عمل جودفري البويوني من خلال شن العمليات العسكرية ضدها؛ عمل على إشعار أهلها بأنهم تحت رحمة قوته وبطشه وأن تلك المدن ليس بمقدورها العيش دون التوصل إلى حل سلمي مع قائد القوة الصليبية الجديدة، ومعنى ذلك أنه أراد أما أن تسقط المدن الإسلامية في النطاق الساحلي أو أن يفرض عليها «السلام» بالقوة الحربية .

وكان طبيعيًا بعد ذلك كله ؛ أن وجدنا مدن أرسوف ، وعسقلان[١]، وقيسارية[٢] وعكا[٣] تتجه إلى مهادنته[٤] وإرسال المؤن والإمدادات شراء للسلام الشاحب الحذر مع الصليبيين ، بل أنهم عرضوا دفع مبلغ سنوي من المال من أجل تحقيق ذلك السلام، ويحاول المؤرخ البريطاني

١- عسقلان ، وقعت على ساحل فلسطين على بعد اثنى عشر ك.م إلى الشمال من غزة ، وعندما قدم الصليبيون إليها ، كانت عسقلان خاضعة للسيادة الفاطمية ومثلت ميناءً تجاريا مهمًا وقاعدة بحرية متقدمة للفاطميين في فلسطين ، ويلاحظ أنها سقطت في أيديهم عام ١١٥٣هـ / ٥٤٨هـ. عنها أنظر :

اليعقوبي ، كتاب البلدان، تحقيق دى جوية، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص٢٢٩ الزهري، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد الحاج صادق B.E.O.,T. Année 1968, XXI، ص٢٣٦ ، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٢٢٢، آدم سميث ، الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة، ط. بيروت ، ب.ت، ص١٥٤ .

٢- قيسارية ، تكتب قيسرية أو قيسارية وهناك قيساريتان قيسارية فلسطين ، وقيسارية كبادوكيا بآسيا الصغرى، أما الأولى- وهي التي تهمنا هنا- فقد وقعت على الساحل الفلسطيني وبعدت عن يافا من الناحية الشمالية بثلاثين ميلاً وبعدت عنبيت القدس بستة وثلاثين ميلاً ، وقد استولى عليها الصليبيون عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ. عنها انظر : Anonymous, The deeds of the Franks and other pilgrims , p. 87, Fulcher of Chartres, p. 153-154 .

حسن عبد الوهاب ، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م.

٣- عكا، تكتب عكا أ عكاء أو عكه . وهي من مدن الساحل الفلسطيني وبعدت عن قيسارية في مسافة ستة وثلاثين ميلاً، ويلاحظ أن أحمد بن طولون عمل على تحصينها كي تشابه حصانه صور ، وفيما بعد استولى عليها الصليبيون عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ. وصارت من مدن الصليبيين الرئيسية عنها انظر:

المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وتحقيق دي جو. ط. ليدن ١٩٦٧م، ص١٦٢-ص١٦٣ ، ناصر خسرو ، سفرنامه ، ت. الخشاب ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص١٥ الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق جاريلي وديلاتيا وآخرون ، جـ٤، ط. نابولي، ص٣٦ .

٤- Runciman , Vol. I, p. 309 .

ستيفن رنسيمان Steven Runciman أن يوهمنا بأن علاقات ودية ما نشأت بين حكام تلك المدن وجودفري البويوني [١]، وهو أمر لايمكن قبوله لعدم توافر الرغبة أصلاً ثم الندية الحربية، ولأن التاريخ الدموي القريب العهد بين الصليبيين، والمسلمين ؛ كان يقضي على أدنى احتمال لمثل تلك الصداقة المزعومة ، وكل ما في الأمر أن العلاقة بين الجانبين كانت علاقة باطش قوي بكيانات صغيرة تريد البقاء بأي ثمن حتى لو كان ذلك عن طريق تقديم المؤن، والإمدادات ، والأموال للأعداء، وما قيل عن بعض مدن الساحل يصدق أيضًا على شيوخ شرق الأردن[٢].

زد على ذلك : أن إغارات جودفرى البويوني امتدت نحو الجولان ذات الموقع الاستراتيجي الحيوي عند حدود المملكة الصليبية الشمالية تجاه دمشق؛ تعمل على تهديد المناطق الزراعية الواقعة ضمن نفوذ مدينة دمشق ، ويلاحظ أن مثل تلك الاغارات كانت بالاشتراك بينه وبين تنكرد أمر الجليل. وفي تصوري أنه هدف من تلك الاغارات إلى اشعار سكانها المسلمين بعدم جدوى استمرار نشاطهم الزراعي والدعوي فيها وبالتالي ينزحون إلى دمشق وما جاورها من مناطق وبالتالي يسهل - أكثر من ذي قبل- مهاجمتها تمهيداً للاستيلاء عليها .

وهكذا يمكن القول : أن ذلك الحاكم الصليبي حاول- خلال مدة حكمه القصيرة - أن يظهر القوة الحربية أمام المسلمين في العديد من الاتجاهات من أجل اجبارهم على الاستسلام للصليبين أو تقديم التنازلات إلى أن يتمكن في وقت لاحق من الاجهاز على مدنهم الواحدة تلوا الأخرى لاسيما في فلسطين حيث القلب الصليبي كما أسلفت .

أما على المستوى الداخلي؛ فالملاحظ أن جودفرى البويوني عمل على تقديم المنح، والهبات لبطريرك بيت المقدس القوي ديمبرت Daimbertus ، من ذلك أنه منحه يافا وبيت المقدس[٣]، ولاشك في أن تلك كانت بداية لتزايد نفوذ تلك البطريركية على نحو كبير الأمر الذي سيؤثر- بالتأكيد - على مستقبل الكيان الصليبي، وربما كان ذلك من العوامل التي جعلت العديد من

١- Runciman , vol . I , p.309 .

٢- Ibid, vol I, p. 309-10 .

٣- عن المنح التي قدمها جودفري البويوني لديمبرت انظر : Ruhricht,, Regesta Regni Hierosolymitani, Ocnipont 1893, p. 3 .

المؤرخين يتصورون جودفرى البويونى على أنه رجل تقى وورع ويكفيه أنه رفض من قبل لقب الملك واستبدله بحامى القبر المقدس، وفى تصورى المتواضع أن الطابع الدينى الذى صبغ به المؤرخون المعاصرون ذلك الحاكم الصليبى- على نحو خاص كما نجد لدى وليم الصورى على سبيل المثال - كان من مخيلة أولئك المؤرخين الصليبيين الذين حرصوا أشد الحرص على صنع نموذج دينى يحتذى به كافة ملوك المملكة الصليبية ، والأمر لايعدو دهاء سياسى منه، لأنه لم يكن فى تصوره إغضاب المؤسسة الدينية ، ولذلك حرص على ارضائها بأى ثمن، وهكذا من الممكن التقرير بأنه بالفعل كان حاكمًا قويًا ، وضعفه أمام بطريرك بيت المقدس أمر- خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ المملكة - يعد متوقعًا لأنه لم يكن من الممكن الاصطدام معها حينذاك، ولاريب فى أن العام الذى حكمه قد عكس بالفعل أننا أمام رجل عسكرى الطابع، لم يتهاون فى التعامل مع أعدائه وتمكن من فرض قوته عليهم وإن لم يتمكن من ايجاد حلول ناجحه لقضية الساحل الشامى، وهو أمر سيتجه إلى التعامل معه شقيقة بلدوين ، وبالتالى يوصف عهده بأنه المقدمة الحقيقية لعهد شقيقه .

وقد يتصور البعض أننى ادافع عن ذلك القائد الصليبى وأن هناك شبهة اعجاب ، والحقيقة عكس ذلك تمامًا، إذ أنه بمقياس حضارى وأخلاقى نجد أنه من الجيل الصليبى الأول الذى تربى فى حضن التعصب الأوربى ضد الإسلام وأهله ولذلك فإن تاريخه دموى الطابع، وهذا هو الجانب الجلى فى خلال مدة حكمه، وقد يوجد من يرد على ذلك بأن قادة التاريخ ينبغى عدم تقييمهم بالمقياس الأخلاقى والحضارى فى عصر ذو طبيعة تصادمية ، غير أن الواقع يثبت عكس ذلك ؛ فبدون هذا التقييم يفتقد التاريخ معانيه ودلالاته، ومن المؤكد- فى تصورى- أن جودفرى البويونى على الرغم مما يقال من أن أسطورة نسجت من حوله من جانب الصليبيين- إلا أنه لايصلح ليقدم لنا نموذجًا فروسيًا يستحق التقدير على النطاق الإنسانى إلا فى نطاق الصليبيين أنفسهم ، والعكس تمامًا إذا ما قارناه- والقياس مع الفارق الشديد- مع شخصيته مثل صلاح الدين الأيوبى الذى استحق تقدير واعجاب حتى أعدائه من خلال البعد الأخلاقى المدعم لفروسيته ، وحتى أسطورة جودفرى البويونى[١] ذات أثر محدد للغاية إذا ما قورنت

١- عن أسطورة جودفرى البويونى انظر : جوزيف نسيم يوسف ، «الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية»، مجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية م ١٦) ، عام ١٩٦٢- ١٩٦٣م، ص١٩٧- ص١٩٨ .

Prawer, The Latin kingdom , p. 37 .

بأسطورة صلاح الدين الأيوبى نفسه التى عاشت قرونًا من بعده وهو أمر لم يتوافر لأسطورة ذلك القائد الصليبى.

وإذا كان ذلك هو الأمر بالنسبة لجودفرى البويونى؛ فإن أخاه بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨م / ٤٩٤-٥١٢هـ) يعد وبحق - كما وصفه العلامة سعيد عاشور- مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية [١]، وقد تسلم بلدوين الأول مقاليد الحكم بعد أن انتقل من الرها التى تولى حكمها من قبل. واستطاع الوصول بسلام إلى بيت المقدس بعد مصاعب عدة ومحاولات القوى الإسلامية فى بلاد الشام الايقاع به فى الطريق دون جدوى .

وقد تسلم بلدوين الأول الحكم من بعد شقيقه جودفرى ، والمملكة تحف بها الأخطار من كل حدب وصوب. ويكفى أن نذكر أن الساحل الشامى كان لايزال فى غالبيته خاضعًا لسيطرة قوى غير صليبية لاسيما بالنسبة للفاطميين، كما أن الصليبيين كانوا يعانون بشدة من مشكلة خطيرة وهى نقص العنصر البشرى؛ إذ أنهم كانوا قليلى العديد بصفة عامة بعد تسريح الجيش الصليبى الذى اشترك فى الحملة الصليبية الأولى- وهو خطأ استراتيجى هدد الصليبيين تهديداً كبيراً- وعودة العديدين إلى أوربا ، فإذا أضفنا إلى ذلك كله كيف أن الصليبيين عاشوا فى وسط محيط اسلامى وكأنهم جزيرة منعزلة تريد فرض نفسها بالقوة على الآخرين، وإن المسلمين تمتعوا بميزة كبرى وهى توافر سهول الوديان الفيضية فى دجلة والفرات، والعاصى، والنيل على نحو ضمن - بصفة عامة- كثافة سكانية طبيعية مستقرة ولاتحتاج إلى دعم بشرى طارىء وغير مستقر من الخارج كما بالنسبة للصليبيين- إذا أدركنا ذلك كله عرفنا كم كان الوضع قلقًا للغاية بالنسبة لمملكة الصليبيين الوليدة.

ولانغفل مشكلة الأمن؛ وهى مشكلة لها جانبها الكبير من الخطورة ، حيث أحاط بالصليبيين من الشرق، والشمال ، والجنوب وخاصة القطاعين الأخيرين. قوى إسلامية عديدة، حقيقة أن منها من هو متصارع مذهبيًا وسياسيًا مع بعضه البعض ؛ إلا أنها بصفة عامة توجه عداءها ومواردها لمواجهة الصليبيين، وقد استعرت نيران الشنآن بين الجانبين خاصة بعد مذبحة بيت المقدس ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ ، ومقتل الآلاف، وفرار من فر من السكان من خلال ظاهرة «الجفل» وقدومهم للمدن الخاضعة للسيادة الإسلامية حيث رووا ما حل بإخوانهم على أيدى

١- الحركة الصليبية، جـ١ ، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٣٤٤ .

الغزاء مما دعم العداء بين الطرفين . خاصة مع استمرار تدفق الرواية الشعبية من جيل إلى آخر، حتى صارت جزءاً مقدسًا من الذاكرة لاتمحه الأيام بل تؤكده سياسات الصليبيين العدائية يومًا بعد آخر .

ومعنى ذلك كله: أن بلدوين الأول تسلم المملكة الصليبية من جودفرى البويونى على الرغم من فعالياته السابقة- وهى مثقلة بالأخطار ، ومجرد كيان هش صغير محدود ومحصور وسط محيط إسلامى عام معادى، وكان على ذلك الحاكم الجديد أن يحقق الايجابيات العديدة من خلال الافادة من سلبيات المسلمين، ومن ناحية أخرى: كان عليه استغلال عنصر «الوقت» ، بمعنى تحقيق الإنجازات فى أسرع وقت ممكن استغلالاً للموقف ، وحقيقة الأمر أن وقائع التاريخ خلال تلك المرحلة العصبية من تاريخ الصليبيين اثبتت بما لايدع مجالاً للشك أن ذلك القائد الصليبى الجديد حقق لبنى جلدته انجازات كبيرة ، وهو بالفعل من أقوى قادة الجيل الصليبى الأول الذى اتسم بشدة البطش ، والتعصب المقيت والعمل الدؤوب خدمة لأهداف الصليبيين العليا على حساب المسلمين بالطبع .

على أية حال : فإن من أهم أعمال بلدوين الأول فى تاريخ المملكة الصليبية، إنما هو إخضاع العديد من مدن الساحل الشامى لسيطرته وبذلك حقق حلم الصليبيين فى فرض السيادة الصليبية- ولو بصورة جزئية- على ذلك الساحل الحيوى الممتد من سان سيمون (السويدية) ميناء أنطاكية شمالاً حتى غزه جنوبًا ، وكانت القوة المعاونة له فى تحقيق ذلك الهدف، متمثلة فى المدن التجارية الايطالية لاسيما جنوة Genoa والبندقية Venica والتى رأت فى دعم مطامع الصليبيين فى الساحل الشامى على نحو خاص فرصة سانحة بل وذهبية من أجل تحويل تجارة الشرق لتكون فى قبضة الإيطاليين أكثر من أى وقت مضى، وهكذا ، اتجه الصليبيون بقيادة بلدوين إلى الاستيلاء على أرسوف ، وذلك عام ١١٠١م/ ٤٩٥هـ[١]، ومن بعدها تمكنوا من السيطرة على قيسارية فى نفس العام المذكور[٢]، مع عدم اغفال السلوك

١- عن سقوط أرسوف فى قبضة الصليبيين انظر : Fulcher of Chartres, p. 152, William of Tyrem Vol . I, p. 434 .

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٩ ، ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص١٢٩، فهمى توفيق مقبل، الفاطميون والصليبيون، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص٨٢ .

٢- عن سقوط قيسارية انظر : Anonymous , The deeds of The Franlas , p. 87, Fulcher of Chartres, p. 153. 154 , William of Tyre, vol. I, p. 485-486 .

حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م، ص٧٠-ص٧٢ .

الهمجى البربرى الدموى خاصة فى المدينة الأخيرة، ومع ذلك فإن الإنجاز الأكبر لبلدوين الدول تجاه قضية الساحل تمثل فى إخضاع مدينة عكا ذات الأهمية التجارية الكبيرة والتى تعد وبحق درة الساحل الشامي، لوجود ميناء صالح لرسو السفن طوال العام، ولأنها كانت متصلة بدمشق بخطوط برية تجارية نشطة ولذلك اعتمدت حاضرة الشام الكبرى دمشق على عكا- بالإضافة إلى بيروت - من أجل تصريف فائض انتاجها إلى الدول الأوربية ، وفى اخضاع تلك المدينة تحقيق هدف مهم فى صورة خنق اقتصاديات القوى الإسلامية لاسيما فى دمشق، وجعلها قوى برية حبيسة ليس لها سند بحرى، وقد بذل بلدوين الأول جهداً كبيراً من أجل إسقاط عكا، وقدم الجنوية له كل مساعدة من أجل تحقيق ذلك الهدف ، وقد وقفت المدينة الحصينة صامدة أمامه، ووصلت إليها الإمدادات الإسلامية من أجل الحيلولة دون الوقوع فى أيدى الصليبيين، لجد أنه فى عام ١١٠٤م / ٤٩٨هـ تمكن الصليبيون من إسقاط المدينة[١] بعد حصارها براً وبحراً وبعد أن أجهد حاكمها من قبل الفاطميين وهو زهر الدولة الجيوشى، ولم يتمكن من مواصلة المقاومة ، فانضم إلى نفس مصير افتخار الدولة حاكم القدس الفاطمى من قبل .

ولا مراء فى أن الاستيلاء على عكا - على نحو خاص- مثل مغنمًا للصليبيين لايضاهيه أى مغنم منذ الاستيلاء على بيت المقدس ، فإذا كانت الأخيرة عدت المركز الدينى والروحى للكيان الصليبى؛ فإن عكا اعتبرت بمثابة المركز الاقتصادى التجارى لذلك الكيان، ولذلك فإن تاريخ الصليبيين فى فلسطين - فى جانب مهم وحيوى منه- هو فى الأساس تاريخ القدس وعكا، مع عدم اغفال المدن الأخرى المهمة بطبيعة الحال كل حسب دوره التاريخى فى منظومة الصراع الصليبى الإسلامى .

١- عن سقوط عكا فى قبضة الصليبيين انظر :

Fulcher of Chartres, p. 176 .

William of Tyre, vol. I, p. 454 -456 .

مكسيموس مونروند ، تاريخ الحرب المقدسة المدعوة بحرب الصليب، ت. مكسيموس مظلوم، سيد الحريرى، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٣١٧هـ، ص٤٩ .

ومن المحقق ؛ أن استيلاء الصليبيين على عكا قدم لهم مكسباً كبيراً من كافة النواحى، فقد تأكد حرص الغزاه على أن تكون لهم قواعد بحرية على الساحل الشامى تمكنهم من الاتصال الدائم بالوطن الأم أوربا ، وتدعمت مكانتهم السياسة فقد ظهر بجلاء أنهم كل حين وآخر يحققون المكسب وراء الآخر ضد الفاطميين الذين فقدوا قاعدة بحرية مهمة لهم فى تلك المنطقة الحيوية من بلاد الشام، ومن الممكن تصور أن عكا تعد فاتحة صراع صليبى، فاطمى على الساحل لن ينتهى إلا فى عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ عندما تمكن الملك الصليبى بلدوين الثالث Baldwin III من انتزاع عسقلان من أيدى الفواطم .

على أية حال ؛ من بعد سقوط المدينة حصل البنادقة على الثمن فى صورة إعطائهم ثلثها ، مكافأة على دور أسطولهم فى انتزاعها من قبضة [1] الفاطميين بالإضافة إلى مساحة مماثلة من الأرض المجاورة لها وكذلك منحهم ثلث ايراد جمارك مينائها . ومن المحقق أن الدعم البحرى من جانب المدن التجارية الايطالية قد جعل موازين القوى تميل إلى صالح الصليبيين، بالإضافة إلى قدرات الصليبيين العسكرية بطبيعة الحال، وهو أمر ينبغى عدم انكاره حينذاك ، ناهيك عن ظاهرة التشرذم السياسى والتصارع المذهبى بين المسلمين وهو أمر فصلته من قبل.

وهكذا يتضح لنا أن بلدوين الأول فى عهده تمكن من إخضاع ارسوف، وقيسارية، وعكا للسيادة الصليبية أو يلاحظ أنه اتجه إلى مهاجمة بيروت وبالفعل تمكن من إخضاعها فسقطت- بعد مقاومة بطولية من أهلها وحصار دام أربعة أشهر- وذلك فى عام ١١١٠م / ٥٠٣هـ [2]،

١- هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ١ ، ص١٥١ .

٢- عن سقوط بيروت فى قبضة الصليبيين انظر : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٦٧ عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٣٨٦- ص٣٨٧ .

٣- عن دور ذلك الملك النرويجى دعم الحركة الصليبية حينذاك انظر : The Saga of Sigurd the Crusader (1107-1110) , in Wright, Early Travels Palestine, London 1848 , pp. 50-57 .

محمد مؤنس عوض، الحملة الصليبية النرويجية الملك سيجورد ودوره فى دعم الحركة الصليبية فى المرحلة من (١١٠٧-١١١٠م/ ٥٠١-٥٠٤هـ) ، سلسلة دراسات شرق أوسطية ، مركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٩٥م.

=

ومن بعد ذلك تمكن بلدوين الأول بمساعدة أسطول نرويجى بقيادة الملك النرويجى سيجورد Si-gurd (١١٠٣-١١٣٠م / ٤٩٨-٥٢٥هـ) من الاستيلاء على مدينة صيدا فى نفس العام [١]، ويلاحظ أن الفارق الزمنى بين المدينتين كان مجرد سبعة شهور فقط حيث سقطت الأولى فى شهر مايو ، والثانية فى شهر ديسمبر وجاء ذلك إيذانًا بأن السيادة الصليبية على الساحل الشامى تتزايد يومًا بعد آخر ، وأن هيبة الفواطم تنتحر ببطء، أمام شراسة الهجوم الصليبى وضرباتهم المتلاحقة السريعة ورغبتهم الأكيدة فى تحقيق أكبر قدر من الانتصارات والمكاسب فى خلال أقصر فترة زمنية ممكنة .

وينبغى ألا نغفل : أنه فى عام ١١٠٩م / ٥٠٣هـ ، أى العام السابق مباشرة على سقوط بيروت وصيدا ؛ تمكن برتداند ابن ريموند الصينميلى من الاستيلاء على طرابلس بشمال لبنان، مما عكس، أنه خلال عامين فقط سقطت ثلاثة مدن لبنانية رئيسية على الرغم من البطولة الكبيرة التى أبداها اللبنانيون فى الدفاع عن مدنهم ، كما لم يكتف بلدوين الأول بالانتصارات السابقة على المدن الساحلية المسلمة ، بل اتجه إلى صور وعسقلان غير أنه لم يتمكن من اخضاعها نظرًا لمناعة الأولى الطبيعية فى الأساس ، ثم دفاع الفاطميين عن الثانية حتى لايتزايد حجم كارثة تساقط مدن الساحل الشامى.

ومن الممكن تصور أن بلدوين الأول يعد وبحق من أكبر الملوك الصليبيين الذين حققوا نجاحات فى «جبهة» الساحل، وكل من أتى من بعده من ملوك حكموا المملكة الصليبية ساروا على نفس دربه حتى عهد بلدوين الثالث ، مما يدل على أهمية دوره فى تاريخ الصليبيين خلال تلك المرحلة من تاريخهم المبكر فى بلاد الشام.

Fink, "The Foundation of the Latin States (1099-1118), in Setton, A History of the = Crusades, vol. I, Madison 1969, p. 386 .

١- عن سقوط صيدا فى قبضة الصليبيين انظر : ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ص١٧١ ، أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ط. بيروت ب.ت ، ص٢٢٤ ، ابن كثير البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ط. بيروت ب.ت ، ص١٧٢ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى ، ط. الاسكندرية ١٩٨٦م ، ص٩٩- ص١٠٣ ، أسامه زكى زيد، صيدا دورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، ط. الاسكندرية ١٩٨١م، ص٩١ ، ص٩٨، أحمد عارف الزين، تاريخ صيدا ، ط. صيدا ١٣٣١هـ، ص٥٧ .

وبالإضافة إلى ذلك ؛ تمكن بلدوين الأول من صد خطرين ، الأول فاطمى، فى صورة معركة الرملة الأولى عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ، ثم معركة الرملة الثانية عام ١١٠٢م / ٤٩٦هـ، وأخيراً معركة الرملة الثالثة عام ١١٠٥م / ٤٩٩هـ[1]، ويلاحظ أن الثلاث حملات تمت على يدى الأفضل بن بدر الجمالى، وجميعها انتصر فيها الصليبيون على الفاطميين ومن الممكن تصوراته خلال الأعوام الواقعة من ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ ، وهو العام الذى وقعت فيه معركة عسقلان الشهيرة ، وحتى عام ١١٠٥م/ ٤٩٩هـ وهو عام معركة الرملة الثالثة، تأكد لنا كيف وصل التفوق الحربى الصليبى على نحو مكنهم من تحقيق أربعة انتصارات فعالة خلال سبعة أعوام فقط ، فإذا أضفنا إلى كل ذلك تساقط المدن الساحلية مثل أرسوف ، وقيسارية ، وبيروت ، وصيدا ، وعكا؛ أدركنا مدى الهوان الذى وصل إليه الفاطميون ، ومدى القوة التى حققها الصليبيون الذين استطاعوا أقصى ما يمكن تحقيقه من انتصارات على المسلمين فى زمن قياسى بكل التصورات ، ولم يكن هناك ما يمكن وصفه «بالمعجزة» الصليبية ، بل شارك فى صنع ما حققوه من مغانم ومكاسب ضعف المسلمين أنفسهم .

ومن ناحية أخرى؛ تمكن بلدوين الأول من مواجهة خطر آخر فى صورة الخطر السلجوقى، وقد تمثل ذلك فى حملتين على جانب كبير من الخطورة فى كل من عامى ١١١١م / ٥٠٥هـ، ١١١٣م / ٥٠٧هـ . وقد قاد المسلمون فيهما أتابك الموصل شرف الدين مودود ويلاحظ أن حملة ١١١٣م/ ٥٠٧هـ ، كانت الأخطر حيث تمكن المسلمون من تحقيق انتصار مهم على الصليبيين فى صورة معركة الصنبرة [2]، وتم أسر الملك الصليبى وتمكن من النجاه بعد جهد

١- عنها أنظر : Fulcher of Chartres, p. 79, p. 250 .

أسامة زكى زيد ، «حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل (١١٠١-١١٠٥م / ٤٩٥-٤٩٩هـ، مجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية العدد (٢٩) ، عام ١٩٨١م، ص٣٨-ص٤٨ .

٢- عن معركة الصنبرة أنظر :

شاكر مصطفى ، «طغتكين رأس الأسرة البورية» ، مجلة كلية الآداب - جامعة الكويت العدد (٢١ عام ١٩٧٢م، ص٦١ وما بعدها .

محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية، ص١٠٩-١١٠ .

جهيد . ويلاحظ أن المسلمين لم يتمكنوا من الإفادة من انتصارهم ، ووصل دعم بشرى من الغرب الأوربى غير الموازين لصالح الغزاه ، وفيما بعد ستفتال خناجر الحشاشين بطل الجهاد شرف الدين مودود فى عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ، مما كشف عن حجم الانقسام فى داخل المعسكر الإسلامى.

أما الإنجاز الآخر الذى قام به الصليبيون فى عهد الملك بلدوين الأول، فيتمثل فى مواجهة مشكلة نقص العنصر البشرى، وهى المشكلة المزمنة بالنسبة للصليبيين ، ويلاحظ أن ذلك الملك الصليبى اتجه إلى تغيير جزئى لخريطة التوزيع الديموغرافى فى المنطقة من خلال العزف على وتر المسيحيين الشرقيين، الذين أعلن الخطاب البابوى فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ أن الحركة الصليبية قامت من أجل انقاذهم من الاضطهاد الإسلامى المزعوم ، خاصة مع إدراكه لخطورة وجود كثافات سكانية اسلامية فى قلب المناطق الصليبية ، وقد أثبتت أحداث عام ١١١٣م / ٥٠٧ هـ، وقوف المسلمين فى الجليل بشمال فلسطين وهم تحت السيادة الصليبية مع اخوانهم الذين هاجموا المملكة الصليبية فى ذلك العام ، وهكذا وجدنا ذلك الملك الصليبى يتصل سراً بالعناصر المسيحية المحلية الموجودة شرقى الأردن، وفى حوران ، وكذلك عناصر من الأرمن والنساطرة فى الرها، والموارنة فى طرابلس، وقدم لهم الاغراءات الخاصة بالأمن والحماية والمال، والاستقرار الدائم لاسيما فى مدينة القدس القلب الروحى للمملكة الصليبية والتى تهفوا لها قلوب كافة المسيحيين ، ويلاحظ أن المدينة المقدسة صارت عامرة بهم [(١)].

ولا مراء ؛ فى أن ذلك الملك الصليبى حقق العديد من الأهداف من وراء تلك السياسة ؛ فقد دعم الوجود البشرى المسيحى فى مدينة القدس ومن المتصور أنه بذلك عوض المدينة المقدسة عن الخلخلة السكانية التى أصيبت بها من جراء مذبحتها الشهيرة، وأوجد قوة اقتصادية مهمة على اعتبار أن تلك العناصر المسيحية برعت فى العديد من الحرف والصناعات مثل الرعى والزراعة وغيرها ولذلك احتاجتها المملكة الصليبية الوليدة

١- William of Tyre, vol. I, p. 508.

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٣٢٢ ، انظر أيضاً :

Prawer, "The Settlement of the latins in Jerusalem", S., vol. XXVII, Cambridge, 1952, p. 496, The Lat'n kingdom, p. 39-40.

رينيه جروسيه، رصيد التاريخ، ت . محمد خليل الباشا، ط. بيروت ، ب.ت ، ص١٢٣ .

ولانغفل أيضًا أن وجود ذلك التكتل المسيحى الجديد فى بيت المقدس له دلالاته فى الدفاع عن المدينة – حتى بصورة معاونة للقوة العسكرية الأصلية– ضد أية مخاطر قادمة من ناحية مدينة عسقلان الفاطمية التى أجهدت الصليبيين بالعديد من الهجمات والتى وصلت بالفعل إلى أسوار المدينة المقدسة [١]. ويضاف إلى كل ذلك : أن بلدوين الأول بتلك السياسة قد أكد بعداً دعائيًا سياسيًا : إذ ظهر فى المنطقة على أنه المدافع والحامى للمسيحيين الشرقيين ، وكأنه بذلك «يغازل» غيرهم من العناصر التى لاتزال تحت السيادة الإسلامية للهجرة إلى المملكة الصليبية عندما تحين الفرصة .

والمؤكد: أن كافة العناصر المذكورة لعبت دورها فى ذلك القرار السياسى الصليبى وتداعياته ، ومن الجلى البين– من خلال ما سبق– أن الدافع الدينى لم يكن هو المحرك الوحيد للقيادة الصليبية لاتخاذ القرار السابق، بل إن هناك اعتبارات أخرى عديدة دفعتها دفعًا نحو ذلك الأمر، وفى ختام تناولنا لتلك الزاوية على نحو خاص، من الجلى البين أن عصر الحروب الصليبية شهد إعادة توزيع الخريطة الديموغرافية لدى الغرب الأوروبى، مثلما الأمر فى غربى آسيا وتحديداً بلاد الشام[٢]. على نحو يكشف لنا عن طبيعة ذلك العصر الدائم التحول والتغير بالنسبة للبشر وكذا المواقع الجغرافية ، فإذا ما وضعنا فى الاعتبار حدوث التزاوج بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين الشرقيين وظهور جيل جديد فى صورة «الأفراخ» أو البولانى Bullani[٣] أدركنا حجم التغير والتطور الذى حدث على مستوى البنية السكانية فى العلاقات بين الشرق والغرب فى ذلك الحين ، وهو تزاوج ستكون عواقبه – أحيانًا– ليست محمودة بالنسبة للصليبيين أنفسهم، وهو أمر ستوضحه الصفحات التالية من هذه الدراسة .

١– عن هجمات حامية عسقلان الفاطمية على الصليبيين وتهديدها حتى القدس انظر :

Fulcher of Chartres, p. 29 , p. 250.

فتحية النبراوى ، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور الوسطى، ١٠٠٠–١٣٠٠ ، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص١٥٣ .

٢– أفضل دراسة عن الناحية السكانية عند الصليبيين أنظر ،

Russel, " The Population of the Crusader states", in setton, The Crusades, vol. V, Madison 1985, pp. 295-314 .

٣– سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٣٣٨ ، حاشية (١) .

أما الإسهام التالى البارز الذى ينسب إلى بلدوين الأول؛ فخاص بإقامة القلاع الصليبية من أجل تأمين أملاك الصليبيين فى فلسطين ولمواجهة نقص العنصر البشرى، وحيث كانت القوة العسكرية لديه محدودة ، فإنه اتجه إلى إقامة القلاع كى تكون بمثابة دروع واقيه تحول دون سهولة اختراق المناطق الصليبية من جانب المسلمين، وفى هذا المجال نجد أنه شيد عام ١١١٥م/ ٥٠٩هـ قلعة الشوبك [١] Crac Montreal جنوبى البحر الميت Dead Sea، وفى العام التالى ١١١٦م/ ٥١٠هـ أقام قلعة فى ايلة، كذلك أقام احدى القلاع فى جزيرة فرعون Ile de Graye امام ايلة وبذلك تحكم فى رأس خليج العقبة[٢]. فى خليج العقبة ، ولامراء فى تلك القلاع استهدفت مناطق استراتيجية لها حساسية خاصة فيما يتصل، بمصر وشقيقتها التاريخية بلاد الشام، ومن هنا ينبغى أن نلاحظ أن الصليبيين عملوا على إعاقة «الشامصر» وهى الوحدة الجغرافية والتاريخية بين مصر والشام، وما قلعة الشوبك إلا لتحقيق هذا الهدف ، كما أن قلعتى ايلة وجزيرة فرعون هدفت، فيما هدفت إليه- أن تكون مدخلاً لقدوم الصليبيين إلى شبه جزيرة سيناء غازين [٣]حيث أدركوا بجلاء أنها بوابة مصر الشرقية أو بمعنى أدق البوابة التى من خلالها يمكن اقتحام عقر دار رجل المنطقة المريض فى صورة الخليفة الفاطمى.

زد على ذلك ؛ ان ذلك الملك الصليبى أقام قلعة منيعة جنوبى صور فى صورة قلعة اسكندرونه Scandalium ؛ من أجل العمل على إخضاع مدينة صور المنيعة للسيادة الصليبية.

١- عنها انظر :

ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ط. بيروت ١٩٩٠م، ص٤٢٠، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٤٧، يوسف درويش غوانمه، امارة الكرك فى العصر الأيوبى، ط. عمان ١٩٨٤م، ص٦٤ ، حاشية (٢)، مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ت. محمد وليد الجلاد، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص١٤٠ سعد محمد المومنى ، القلاع الاسلامية فى الأردن الفترة الأيوبية والمملوكية، ط. عمان ١٩٨٨م، ص٢٤٣- ص٢٥٣ .

٢- أحمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٦٥-ص٦٦ .

٣- أفضل الدراسات عن شبه جزيرة سيناء فى عصر الحروب الصليبية انظر :

نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، ط. القاهرة ١٩١٦م أحمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

والدراسة الأخيرة على جانب كبير من الأهمية نظراً لتخصصها فى عصر الصليبيات .

ويلاحظ أن معلوماتنا عنها نستمدها من فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres ، ووليم الصورى William of Tyre ، ويقرر الأول أن الملك بلدوين الأول قام ببنائها وأنها سميت سكاند ليون وهى تعنى ميدان الأسد Field of the Lion ، ويقرر وليم الصورى أنها شيدت فى موقع يسمى الكسندر يوم Alexandrium على اسم الاسكندر المقدونى Alexnder of Macedon ، ويقرر أن الاسم أطلق بصورة شائعة على أنه سكاند ليوم Scandalium ، ومن الممكن تصور صحة الآراء التى أوردها وليم الصورى بحكم خبرته بمنطقة صور على نحو خاص بالإضافة إلى معارفه اللغوية المتمكنة[1].

وفى حقيقة الأمر، أن ذلك الملك الصليبى عمل على إقامة تلك القلاع، ولذا فمن الآن فصاعدا سيكون، أمر مهاجمة مملكة بيت المقدس الصليبية واحتلال مواقع استراتيجية داخلها يحتاج إلى مجهود عسكرى أكبر من ذى قبل، على أساس أن الأمر ليس مجرد معارك فى مناطق سهلية أو جبلية أو حتى أحراش؛ بل هناك القلاع الحصينة التى تشغل مهاجميها بعمليات حربية تستهلك طاقاتهم على نحو يمكن الصليبيين من الاستعداد لأفضل أداء عسكرى فى المناطق المجاورة لتلك القلاع ، ويلاحظ أن كافة ملوك مملكة بيت المقدس الذين تولوا مقاليد أمورها من بعد بلدوين الأول وحتى الملك عمورى (١١٦٣-١١٧٤م/ ٥٥٩-٥٧٠هـ) ساروا على ذات السياسة، وحرصوا على تشييد القلاع بطول المملكة الصليبية وعرضها على نحو يجعلنا نصف تلك المملكة ويحق أنها مملكة القلاع Kingdom of Citadels .

١- عن قلعة اسكندرونة بالتفصيل انظر :

Fulcher of Chartres, p. 220. William of Tyre, vol. I, p. 514 .

Burchard of Montsion , Trans . by Abury Stewart, P.P.T.S., vol. VII, London 1896, p. 10 , note(1).

Marino Santo, Secrets for True Crusaders to help them to recover the Holy land , Trans. by Aubrey stewart, P.P.T.S., vol . VII, London 1896, p. 8 .

Ludolph von Suchem, Description of The Holy land , Trans . by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol . XII, London 1895 , p. 61-62 . Runciman , vol . II, p. 99 .

Prawer , The Latin kingdom of Jerusalem , p. 362 .

وأخيراً : فإن الإسهام الآخر المتميز للملك بلدوين الأول، نجده فى سياسة التوسع صوب مصر التى مارسها بعد أن تأكد له أن الضعف الفاطمى حقيقة تاريخية واقعة لابد من التعامل معها من أجل تحقيق أكبر مكاسب للمملكة الصليبية . وفى هذا الصدد قام بحملة على مصر عام ١١١٨م / ٥١٢هـ وقطع المسافة من غزة إلى العريش ثم الفرما ولم يصادف الغزاه أية مقاومة على نحو عكس البيات الشتوى الطويل الذى راح الفاطميون خلاله فى سبات عميق ، وهناك بعض الآراء التى تقول أنه وصل بالفعل إلى مصب فرع النيل عند مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة [١].

حقيقة الأمر : أن حملة ذلك الملك على مصر تكشف لنا عن حقائق على جانب كبير من الأهمية فى قضايا الصراع الإسلامى- الصليبى، والأمر المؤكد أن الحركة الصليبية كانت أشبه شىء بأخطبوط بأذرع عديدة فبالأمس كانت الدعوة فى كليرمونت تتحدث عن بيت المقدس ، غير أن الأيام أثبتت لنا أن الأمر ليس القدس بل تكوين أشبه شىء «بمملكة» صليبية شملت مناطق بلاد الشام وأعالى الفرات ، وها هو بلدوين الأول يصل إلى مصر، وأين مصر من الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين ؟ إننا بالفعل أمام مطامع لاتحده وجنون السيادة الصليبية فوق كل بقعة يمكن أن تصل إليها أقدام الصليبيين وبالفعل لقد تحولت آلة الحرب الصليبية إلى آلة تعصف بالجميع من أجل مصلحتها فقط ولاشىء غير ذلك .

ولانزاع فى أن بلدوين الأول يعد أول من فكر من الصليبيين ونفذ بالفعل تطلعاته نحو مصر، وإذا كان المؤرخ الصليبى رايموند اجيلير Raymond d'Aguiller أورد من قبل أن الصليبيين حتى من قبل غزو القدس فكروا فى غزو مصر[٢]، إلا أن العبرة هنا بالفعل وليس بمجرد التفكير، وبالتالى يوصف بأنه صاحب أول حملة صليبية على أرض الكنانة، وحقيقة أن حملته كانت ذات طابع استكشافى، نظراً لقلة عدد أفرادها الذين لم يتجاوزوا بضعة مئات ؛

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٣٣٥ .

عن حملة بلدوين على مصر أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 221 William of Tyre , vol. I, p 515. Runciman, vol . II, p. 99 .

٢- رايموند اجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة القدس ، ت. حسين عطية ، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م، ص٢٢٥-ص٢٢٦ .

إلا أنها عكست الاهتمام الصليبى المبكر، والرغبة فى مد النفوذ الصليبى، كذلك اثبتت أن هذه هى امكانيات الصليبيين حينذاك، غير أن المستقبل سيشهد المزيد من الإمكانيات ، والأطماع الصليبية تجاه مصر وهو أمر تأكد من خلال أحداث التاريخ ذاتها.

وهكذا؛ فإن تطلعات الصليبيين لم تكن بالضرورة آسيوية إنطلاقًا من أوربا ؛ بل أن منطقة شمال شرقى أفريقيا – ونعنى بها مصر- ستدخل فى نطاق آلة الحرب الصليبية ، وفيما بعد الشمال الافريقى أيضًا خاصة تونس !!! ، لقد بدأ البابا أوربان الثانى المشروع الصليبى بإمكانيات وتصورات معينه ، أما الآن فإن الصليبية أصابها التطور الذاتى- من خلال قوتها المتنامية وضعف جيرانها- ولذلك سيمتد التوسع الصليبى إلى مناطق جديدة، وبصفة عامة فإن حملة ١١١٨م / ٥١٢هـ ، عكست أن اليوم «الاستكشاف» ، وغداً الغزو الفعلى، وهو تطور منطقى عكس أن الصليبيين- خلال تلك المرحلة على الأقل – اتسم تفكيرهم بالمنطق، والعقلانية ، وعدم الاندفاع- ويكفى أنهم لم يلقوا بكل ثقلهم خلال تلك المرحلة المبكرة صوب مصر بل اكتفوا بالاستطلاع دون التورط الفير محمود العواقب ، على الرغم من أن الصورة العامة التى كان عليها الفاطميون فى مصر كانت تغرى بمزيد من التوغل بل والعمليات العسكرية الأوسع نطاقًا .

ومن زاوية أخرى؛ من الملاحظ أن كافة مظاهر القوة ، والتوسع من جانب الملك الصليبى بلدوين الأول ينبغى ألا تصرفنا عن إدراك أن الكيان الصليبى فى عهده مر بعدد من الصعوبات الأمنية والاقتصادية، فعلى صعيد الأمن الذى سعى إليه الصليبيون بكل وسيلة ممكنة خاصة فى المناطق الخاضعة لسيادتهم السياسية ، اتضح فى العديد من الأحيان أنه أشبه شيء بالسراب، ويكفى أن نقرر هنا أن العناصر المسلمة من أبناء فلسطين قاومت الغزاه مقاومة شعبية صادقة من خلال حرب عصابات منظمة استطاعت أن تصيب العديدين من الحجاج الذين قدموا إلى المملكة وكانوا جزءاً لايتجزأ من الدعم البشرى الذى قدم من الغرب الأوربى دعمًا للكيان الصليبى، وخير مثال دال على ذلك طريق يافا – بيت المقدس وهو طريق مر بمناطق ذات طبيعة جبلية ، إلى أن يصل إلى السهل الساحلى وقد بلغ امتداده سبعة وستين ك.م ، وبدأ من غرب بيت المقدس من باب يافا واستمر فى الامتداد على هضبة القدس نفسها ثم يعبر دير ياسين ، وأبوغوش ، ثم الرملة، وتجدر الإشارة إلى أنه فى منطقة أبى غوش ينحدر

الطريق إلى الرملة ويطلق على الإمتداد الواقع من جهة الرملة إلى السهل السحلى اسم باب الوادى[١] .

ومن خلال وصف يفيض حيوية يقدمه الحاج الروسى دانيال Daniel والذى من المرجح أنه زار المملكة الصليبية فيما بين عامى ١١٠٦م / ٥٠٠هـ ، ١١٠٧م / ٥٠١هـ ، نعرف ان الحجاج الأوربيين كانوا فى رعب بالغ، حيث أن المكان تم هجره وفيه يقتل المسلمون الحجاج ، ويقرر أنه بصفة عامة يمتد الطريق بين يافا وبيت المقدس فى منطقة ذات جبال صخرية، وهو مخيف للغاية[٢]، ومن الملاحظ أن نص ذلك الحاج الروسى يوضح صورة صادقة للطريق المذكور، وهو طريق على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للمملكة الصليبية حينذاك ، إذ أنه الممر الحيوى والرئيسى الذى سلكه الحجاج القادمون من أوربا لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية فى أنحاء المملكة الصليبية وأهمها بيت المقدس بطبيعة الحال، ولانبالغ إذا ذكرنا أن مسألة تدفق الحجاج إلى تلك المواقع كانت بالغة الحساسية للمملكة الصليبية، إذ أنها كانت تعنى قدرتها على حماية المحارم المسيحية المقدسة، ولانغفل أن الوضع الدولى لتلك المملكة كان يستمد مكانته من خلال إشرافها على طرق الحج وتوفير الرعاية للحجاج القادمين من كافة أنحاء العالم المسيحية الذين يوفرون لها دعاية سياسية جيدة بعد عودتهم إلى ديارهم .

١- عن طريق يافا - القدس انظر :

Daniel , Pilgrmage of the Russian Abbot Daniel, in The Holy land , Trans . by Wilson, P.P. T.S., vol . IV , London 1895, p. 9 .

Issac Ben Joseph Ibn Chelo, in Adler, Jewish Travellers in The Middle Ages, p. 137 .

سيد فرج ، «القدس عربية إسلامية» ، الدارة، العدد (٣)، السنة (٨)، يناير ١٩٨٤م، ص١٢، على السيد على ، القدس فى العصر المملوكى، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص٢١٣، محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر م، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص١٨٦ ، عبد الرحمن زكى، «القلاع فى الحروب الصليبية »، المجلة التاريخية المصرية، م(١٥) ، عام ١٩٦٩م، ص٦٢ فتحى عبد العزيز عبدالله، دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م، ص١٢٢ .

٢- Daniel , p. 9 .

أما بالنسبة للصعوبات الاقتصادية ؛ فنعرف أن الثروات التى أمكن الحصول عليها من المغانم والأسلاب التى وجدت من جراء الاستيلاء على المدن الإسلامية لم يكن من الممكن الاعتماد عليها ، كذلك فإن الرسوم المالية المفروضة على الحجاج والقوافل التجارية- فى ذلك الوقت المبكر- كانت عرضة للتغير وفق مقتضيات الأحوال[١]، وقد اتجه الملك بلدوين الأول إلى بذل أقصى الجهد من أجل الحصول على موارد اضافية لخزانة المملكة خاصة أن آلة الحرب الصليبية احتاجت إلى سيولة نقدية وافرة ، وقد اتجه إلى الأديرة بفضل ما عرف عنها من ثراء عريض، ومن أمثلتها دير جبل صهيون Mount Sion الذى بلغ من الثراء حداً جعله أحياناً يمتلك حياً بأكمله فى مدينة القدس ذاتها، مع تمتعه بحق فتح بوابة فى الأسوار المحيطة بالمدينة ، وامتلك ممتلكات وأراض فى مدن أخرى عديدة- [٢]. وهكذا ؛ عمل بلدوين الأول على الحصول على بعض الهبات التى قدمت إلى تلك الأديرة ، ويقال أنه فى عام ١١٠١م/ ٤٩٥هـ، طلب من بطريرك بيت المقدس التنازل للخزانة الملكية عن قسم من الإيرادات التى تصل إلى البطريركية من أجل دعم ميزانية المملكة الوليدة[٣].

غير أننا ينبغى ملاحظة ، أن ذلك الملك الصليبى بعد أن تحسنت الأوضاع المالية للملكة ؛ قام بتقديم بعض الهبات لأحد الأديرة وهو دير Notre Dame فى وادى يوسفات Josaphat ؛ الذى اشتهر بالثراء العريض وذلك عام ١١٠٨م / ٥٠٢هـ[٤].

١- عبد القادر اليوسف، العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر ، والخامس عشر، ط. بيروت ١٩٦٩م، ص٨٠- ص٨١ .

٢- سعيد عاشور ، «ملامح المجتمع الصليبى فى بلاد الشام» ، مجلة المستقبل العربى، عدد (٨) ، عام ١٩٨٧م، ص٢٦ .

ومن أمثلة المنح التى قدمت للدير المذكور أنظر وثيقة المنح المقدمة من البابا الكسندر الثالث AlAlexand-er III عام ١١٧٨م، وهذه الدراسة الممتازة عنها :

على أحمد السيد ، «وثيقة عهد البابا الكسندر الثالث لدير صهيون فى القدس عام ١١٧٨م عرض دراسة وتحليل»، بحث مقدم لمؤتمر فلسطين عبر العصور على ضوء البردى، جامعة عين شمس ١٩٩٨م.

٣- ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق، ص١٥٣ .

٤- Ruhricht, Regesta , p. 10, Kohler , "Chartres de la vallée de Josaphat en Terre Sainte (1102-1291)", R.O.L., T. VII, , p. 112 .

ومن الممكن أن ندرك من خلال ذلك الموقف ومواقف أخرى مدعمة لبطريركية بيت المقدس؛ اتجاه ذلك الملك الصليبى إلى دعم المؤسسة الدينية داخل المملكة الصليبية وبذلك يكون قد سار على نفس السياسة التى سار عليها من قبل شقيقة جودفرى البويونى ، ومع ذلك من الملاحظ أنه اتبع سياسة دينية ماهرة ، ومكتفيه من الاحتفاظ بالسلطة العليا فى حكومة القدس وتجنيب المملكة الناشئة أية صراعات بين السلطتين الدينية والعلمانية (١).

على أية حال : فإن الملك بلدوين الأول فى أعقاب حملة على مصر، لقى حتفه ومات عام ١١١٨م / ٥١٢هـ، بعد أن حكم المملكة الصليبية على مدى قرابة عقدين من الزمان ، ولامراء فى أعماله تحتاج إلى تقويم تاريخى من أجل الوصول إلى تصور ما عن دور ذلك الملك البارز فى تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام.

ومن الواضح أن سياسة ذلك الملك اتسمت بالحزم، والحسم، والبطش، فتمكن من تكوين مملكة صليبية «حقيقية» بحدود جغرافية واضحة ظلت محافظة عليها لأعوام عديدة من بعده إلى أن أتى إليها زلزال حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، ومن الممكن إدراك حدودها الجغرافية

= وقد وقع وادى يوسفات ؛ شرقى مدينة القدس بين جبل الزيتون شرقًا وجبل صهيون غربًا، وخلال العصور الوسطى أطلق عليه المؤرخون عدة تسميات مثل وادى جهنم ، أو وادى مريم، أو وادى النار أو وادى سلوان ، وخلال عصر الحروب الصليبية اشتهر ذلك الوادى بكثرة النساك ، وبوجود أحد الأديرة فيه وهو أمر أشار إليه الرحالة الألمانى يوحنا الورزبرجى، عن ذلك انظر :

William of Tyrem Vol. I, p. 341 .

Burchard of Montsion , p. 69, p. 71 , p. 72 .

Ludolph von Suchem , p. 97 , p. 110 .

Felix Fabri, The Wanderings of Felix Fabri , Thans Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol. VII, Part 11, London 1893 , p. 458 .

Rabbi Jacob The Messenger of rabbi Jechiel of paris, in Adler, Jewish Travellers, p. 118.

سعيد البيشاوى، الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م) . ط. الاسكندرية ١٩٩٠، ص١٣٢ .

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ، ص٣٤٠ .

بنهر الليطانى بجنوب لبنان ومرتفعات الجولان شمالاً ثم الامتداد إلى إيلات (أم الرشراش» جنوبًا ، ومن نهر الأردن شرقًا إلى البحر المتوسط غربًا ، مع وجود مناطق إستعصت عليه لاسيما صور وعسقلان كما أسلفت الاشارة من قبل، ويلاحظ أن تلك المملكة كانت حدودها مع جيرانها متسمه بالطابع الجغرافى الطبيعى كالأنهار أو المرتفعات أو البحار أو الخلجان ، ودعمته بالطابع الصناعى فى صورة القلاع الحصينة .

زد على ذلك : أن تلك القيادة الصليبية- من خلال الاستقراء التاريخ أدركت ضرورة أن يكون الكيان الصليبى مسيطراً على مصادر مياه تؤمن وجوده ، ولاتكون خاضعة للسيطرة الإسلامية قدر الاستطاعة ، ولذلك وجدنا الصليبيين فى عهده يسيطرون على قسم من نهر الأردن [1]، ونهر العوجا ، وكذلك أنهار جنوب لبنان فى صورة الليطانى[2] والزيدانى، والحاصبانى ، وكذلك بحيرة طبرية ثم لاتغفل أن قسمًا من نهر العاصى فى الشمال عند امارة انطاكية سيطر عليه الغزاه، فإذا أضفنا إلى ذلك العيون، والينابيع، والآبار التى امتدت فى العديد من المناطق، أدركنا الصورة على نحو أوضح على اعتبار أن منطقة شمال فلسطين سواء مع حدودها مع لبنان أو سوريا الحالية عدت أساس الأمن المائى عند الصليبيين .

من الملاحظ أن إدراك الغزاه الأهمية عنصر المياه ، جعلهم يقاتلون بشراسة من أجل السيطرة على مواقع منابعها حتى لايتعرضوا لخنق مواردهم من خلال سيطرة المسلمين عليها ،

١- يلاحظ أن نهر الأردن ترفده ثلاثة أنهار رئيسية تأخذ مياهها من ينابيع عالية التصريف هى نهر الحاصبانى، ونهر بانياس ونهر الدان وتلتقى هذه الأنهار فى شمال فلسطين شمالى بحيرة الحولة، أما نهر اليرموك فهو الرافد الأكبر لنهر الأردن وينبع من الأراضى السورية ، عن ذلك انظر عبدالله الدرويى ، «المياه فى الاستراتيجية الاسرائيلية ، مجلة مستقبل العالم الإسلامى، مركز الدراسات العالم الإسلامى فى مالطة، عدد (١٥) عام ١٩٩٥م، ص٤١ - ص٤٣ .

٢- يتشابه ذلك الأمر مع سياسة إسرائيل تجاه المياه فى جنوب لبنان حيث عملت على حفر قناة من أجل تحويل مصب نهر الليطانى ليصب فى مناطقها الشمالية لزراعتها. كما أنها حرمت على الفلسطينيين حفر آبار فى مناطقهم دون إذن من الحاكم العسكرى الاسرائيلى فى مناطق الضفة الغربية وغيرها من المناطق.

وبصفة عامة انظر هذه الدراسة المهمة: جمعه رجب طنطيش، المياه فى فلسطين، دراسة فى الجغرافية الاقتصادية والسياسة ، ط. بنى غازى ١٩٨٩م، ص٧٩ - ص١١٧ ، سامر مخيمر وخالد حجازى، أزمة المياه فى المنطقة العربية الحقائق والبدائل الممكنة، سلسلة عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٩٦م، ص١٩٤- ص١٩٧ .

ولا أدل على ذلك من مرتفعات الجولان التى عملوا على مناصفة وتقاسم اخضاعها ووجدت قلعة الصبية هناك تدعم الوجود الصليبى بها، ومن الممكن القول دون تردد أن تحركات الصليبيين اتجهت إلى مواقع المياه حيث الزراعة والاستقرار فى الداخل وكذلك إلى المنافذ البحرية فى بلاد الشام حيث حركة التجارة وتدفق الأموال الطائلة .

ومن الأمور الملفتة للانتباه : كيف استطاع ذلك الملك الصليبى خلال أعوام قليلة صنع كيان سياسى حقيقى على الأرض المسلمة ، ومن المؤكد أنه امتلك قدرات سياسية وكفاءة عسكرية غير أنه لايختلف عن سلفه ، وهو امتداد طبيعى لتعصب الجيل الصليبى الأول الذى رضع الحقد على الإسلام وأهله، وكانت الدماء وسيلة حقيقية لصنع انتصاراته ، ولذا فأرى أنه- على الرغم من انجازاته لبنى جلدته. إلاأنه لايمثل طرازاً إنسانيًا لبطولة الفرسان ومن الممكن تصور أن الصليبيين وعلى مدى تاريخهم فى بلاد الشام - دون أية رؤية شيفونية عجزوا عن تقديم ذلك النموذج على الرغم من محاولات المؤرخين الغربيين اللاهثة - لاسيما الفرنسيين منهم- لصنع ذلك النموذج من خلال تصوراتهم الخاصة بهم.

وقد يتوهم البعض: أن الجهد الذى بذله المؤسس الفعلى للملكة الصليبية ، قد منح تلك المملكة نوعًا من شرعية الوجود، ولذلك فأمام كفاءته وكفاءة أبناء الجيل الأول- من الصليبيين، امتلكت المملكة جدارة الوجود التاريخى على الأرض المسلمة ، غير أننى أوكد عدم صحة ذلك التصور ، فما بذل من تأسيس مملكة الصليبيين لم يعط لتلك المملكة أية شرعية لدى جيرانها ، وهذا هو بيت القصيد حقيقة أن الغرب الأوروبى كان يرى فى وجودها امتداداً نحو الشرق من جانبه ، ودعمًا لقضية بقاء الأماكن المقدسة المسيحية فى قبضته؛ إلا أن المملكة الصليبية لم تقم على أى أساس شرعى ، وظل المسلمون ينظرون إلى ذلك الوجود على أنه وجود مغتصب قام على سفك الدماء والجماجم ، ولذا أرى أن «المؤسس» عجز عن التحاور مع جيرانه[1]، لأن لغة الحرب كانت هى المسيطرة على فكره ، وليس الاتهام يوجه إليه فقط،

١- وقد توهم رينيه جروسيه أن المسلمين أحبوا ذلك القائد الصليبى وأشار إلى أنه استطاع أن يقع موقعًا مستحبًا عند أبناء الصحراء ببعض أعمال الفروسية التى كان يقوم بها والواقع أن المثال المذكور محدود القيمة بالفعل ويحاول أن يجمل تاريخ بلدوين الأول وفى نفس الحين يصور المسلمين المعاصرين لتلك الأحداث بأنهم على قدر كبير من السذاجة بحيث يعجبوا بقاتليهم !!!

انظر : رصيد التاريخ ، ص١٢٢ .

بل الفكرة الصليبية أصلاً التى أظهرت عجزها وقامت على التعصب ، ولذلك فإن ذلك الكيان حتى بعد تأسيسه كان يدل دلالة واضحة على أنه يوماً ما سيزول لأنه نتاج جيل غير متصالح مع التاريخ فى صورة جيل الصليبيين الأول، ولذا تصدق العبارة القائلة أن بلدوين الأول أسس للمملكة الوليدة العديد والعديد من الركائز والاركان غير أنه لم يتمكن من أن يؤسس مشروعيتها فى نفوس جيرانه .

ذلك عرض لتأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية خلال المرحلة من ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ إلى ١١١٨م / ٥١٢هـ أما الفصل التالى فإنه يتعرض لملامح حياة الصليبيين فى بلاد الشام.

الفصل الرابع

ملامح حياة الصليبيين فى بلاد الشام

يتناول هذا الفصل بالدراسة حياة الصليبيين فى بلاد الشام خلال القرنين ١٢ ، ١٣ م / ٦، ٧هـ، وذلك من النواحى السياسية، والاجتماعية ، والاقتصادية ، من أجل إيجاد تصور عام عن نمط الحياة لدى الصليبيين خلال المرحلة الزمنية المذكورة .

وواقع الأمر : أن الكتابة التاريخية عن حياة الصليبيين فى بلاد الشام ليست بالأمر اليسير ، بل أنها تعد مشكلة فى حد ذاتها ، على اعتبار أن المصادر التاريخية التى ألفها الصليبيون أنفسهم شغل أصحابها بالجوانب السياسية والحربية فى المقام الأول ولم يتعرضوا - على نفس الدرجة من الاهتمام- بالجوانب الحضارية الأخرى، ناهيك عن وجود مراحل تاريخية يعانى فيها الباحثون المحدثون من وجود ثغرات أو فجوات مصدرية ، ومن ثم فإن حجم المادة التاريخية عن هذا الموضوع ليست متوازنة بصفة عامة .

ومن زاوية أخرى: فإن المصادر العربية تعانى هى الأخرى من كثافة الاهتمام السياسى والحربى، وضآلة البعد الاجتماعى والاقتصادى خاصة فيما يتصل بالتعامل مع الآخر ، ونعنى به الصليبيين ، ناهيك عن الطابع العدائى- وهو أمر متوقع تمامًا- الذى كنه المسلمون للصليبيين وكذا الاخيرون لهم، ولاشك فى أن ذلك يجعلنا ندرك أننا أمام صعاب جمه من أجل ايجاد تصور عام عن حياة الصليبيين فى بلاد الشام.

والجدير بالذكر: أن هناك ملاحظة عامة من الضرورة بمكان إيرادها قبل التعرض بالحديث لأمر حياة الصليبيين هناك، وفى هذا الصدد نلاحظ، أن الصليبيين سيطرت على حياتهم فى الشرق فكرة الحرب، فهم كيان محارب فى الأصل، وظلت ظلال الحرب تخيم عليهم بصفة عامة، حقيقة أن هناك مراحل محدودة للسلام بين الغزاه والمسلمين إلا أن ذلك كان بمثابة الاستثناء أمام تعاظم فكرة الحرب. ولم يتمكن الصليبيون من العيش فى سلام دائم على أرض بلاد الشام، ولعل موجة الغزو الأولى الدموية : أدت إلى ذلك الوضع، بالإضافة إلى عمليات النهب المنظم لثروات المنطقة ، ومن ثم كان هناك العداء المتأصل بين الجانبين ، ولم يتغير ذلك إلا بعد عدة أجيال من استقرار الصليبيين فى الشرق ، وبعد حدوث عمليات «النهجين»

والتزاوج على نحو أدى إلى تقليل حدة العداء والصراع، ويمكن أن نصف الأمر بكلمة واحدة وهي التمشرق Orientation أي خضوع الصليبيين للعديد من المظاهر الشرقية ؛ وهو أمر سنتناوله في موضع آخر من هذا الفصل ، لما له من أهمية خاصة في قضية الصراع بين الجانبين.

أما النظام السياسي والقضائي للملكة الصليبية، فيلاحظ أن النظام السياسي للصليبيين في بلاد الشام كان عبارة عن الملك الصليبي وأمراء الإمارات الصليبية الأخرى يتبعونه في الرها، وأنطاكية، وطرابلس ، والعلاقة بينه وبينهم أشبه شيء بعلاقة السيد الاقطاعي في الغرب الأوربي بالأفصال التابعين له، ويلاحظ أن الملك الصليبي كانت له أملاكه الخاصة في صورة بيت المقدس Jerusalem ونابلس Neapolis وعكا Acre، ثم من بعد ذلك الداروم Darum، ومن الأمراء التابعين له أمراء يافا Joppa والجليل Galile ، وصيدا Sidon وشرق الأردن Trans Jordon[1]، وكان على كل أمير تابع للملك الصليبي أن يقدم له عدداً محدداً من الفرسان عندما احتاج إلى الدعم الحربي من أتباعه .

ومن الملاحظ أن مملكة بيت المقدس الصليبية كان لها دستورها غير أنه لم يوصف في أي وقت من الأوقات أنه دستور ثابت، ويقرر رنسيمان أن الذين وضعوا مؤلفات مثل كتاب إلى الملك Livre au Roi أو قوانين مملكة بيت المقدس Assizes de Jerusalem ؛ اتجهوا إلى النقاط التي غيرت فيها قرارات معينه ما كان من قبل عرف مسلم به، ولم يتجهوا إلى وضع قانون ثابت [2].

ومن المهم إدراك؛ أن الملك الصليبي، حيث أن المسيح رسمه ملكًا- كما اعتقد الصليبيون- كانت له مكانة كبيرة، وقد تولى رئاسة المحكمة العليا . كما كان بمثابة القائد

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٤٩٢ .

٢- Runciman , Vol. II, p. 299 .

وعن كتاب الملك انظر هذه الدراسة :

Greilsammer , Structure and Aims of the Livre au Roi " the Outremer studies in the History of Crusading Kingdom of Jerusalem , Presented to Joshua prawer, ed. by B. kedar, H. Mayer, R. Smal. Jerusalem, 1982, pp. 218-226 .

الأعلى لقوات المملكة ، وانيطت به مسئولية الإدارة المركزية حيث قام بتعيين موظفيها، كما اتجه إلى تقديم المنح والهبات مع ملاحظة أن الكرم الزائد فى هذه الزاوية على نحو خاص ، أدى إلى تحقيق الموارد الملكية، وصار الملك الصليبى باستمرار يفتقر إلى المال[١]، على نحو سيكون له أثره السيء وعواقبه الوخيمة على الكيان الصليبى ذاته.

وقد ارتبط بالملك الصليبى بالنظام القضائى لاسيما فى صورة المحكمة العليا، وهى محكمة كانت تقوم بسن القوانين وتشريعها . كما أنها كانت تحاكم من أفرادها من ارتكب جريمة ما من الجرائم ويلاحظ أنها انعقدت فى بيت المقدس أو عكا، ونظراً لحرص النبلاء على حضور المحكمة ، اتخذوا لهم سكنًا باحدى هاتين المدينتين وهكذا لم يعطوا اقطاعاتهم ذات الاهتمام، مع ملاحظة أن سلطة أولئك النبلاء حل بها الضعف من جراء ما كان ينشأ بينهم من خلافات ومنازعات كانت أحيانًا متوارثة وزادت مع تعاقب الأعوام[٢].

وإلى جانب المحكمة العليا؛ وجدت هناك المحكمة البورجوازية[٣] وما كان من دعاوى بين نبيل من النبلاء وأحد العناصر البورجوازية كانت تنظره المحكمة ، ويلاحظ أنها عقدت بانتظام فى أيام الاثنين، والأربعاء ، والجمعة من كل أسبوع، وذلك باستثناء أيام المواسم وكذلك الأعياد[٤].

وإلى جانب ذلك ؛ وجدت محاكم فى المدن التى بلغ عددها ثلاث وثلاثين مدينة وعرفت محكمة المدينة باسم Cour de la Fonde ، وكانت تختص بنظر القضايا التجارية وكذلك الجنائية، ومن الملاحظ أن تلك المحكمة اختصت بتسجيل عقود البيع والهبات الملكية بعد التأكد من صحتها ، ومن الممكن استئناف أحكامها أمام المحكمة البورجوازية ، ثم هناك محكمة المرفأ أو ما عرف بأسم Cour de la Chaine وذلك فى المدن الساحلية، واختصت بقضايا

١- Runciman , vol. II, p. 300 .

٢- Runciman , Vol. II, p. 301 .

٣- عن المحكمة البورجوازية انظر :

Prawer, Crusader Institution, Oxford 1980, pp. 263-295 .

Runciman, vol II, p. 301-302 .

٤- Runciman , Vol. II, p. 302 .

الشحن والجمارك إلى غير ذلك، ويضاف إلى ذلك محاكم خاصة بالجاليات الايطالية عرفت بالمحاكم القنصلية ، كما وجدت محاكم مختصة بالبارونات وما ينشأ بين الفرسان التابعين لهم من منازعات ، وقد بلغ عددها اثنتين وعشرين محكمة بالإضافة إلى أربع مختصة بالاقطاعات الملكية [١].

ولاريب فى أن استعراض أهم المحاكم التى وجدت لدى الصليبيين من خلال العرض الموجز السابق: يكشف لنا عن تعددها واختلاف تخصصها، وأن كل قطاع من قطاعات المجتمع الصليبى كانت له محاكمه الخاصة به على نحو كشف لنا أننا أمام عدة مجتمعات مختلفة داخل كيان واحد ، كما اتضح لنا الأهمية التى علقها المؤرخون على عهد الملك الصليبى عمورى (١١٦٣-١١٧٤م / ٥٥٩-٥٧٠هـ) الذى أقام فى عهده محاكم مختصة بالنظر فى نوعية محددة من القضايا ، كما لاحظنا فى المحاكم التى وجدت فى المدن الرئيسية ، وكذلك الموانىء الساحلية ، ولانغفل أن ذلك الملك - على نحو خاص- وسع تشكيل المحكمة العليا وذلك فى عام ١١٦٦م / ٥٦٢هـ على نحو كشف عن دوره البارز فى التاريخ القضائى للصليبيين فى بلاد الشام.

ومن زاوية أخرى: ليس بالامكان تناول النظام السياسى الصليبى دون التعرض للمؤسسة الكنسية الصليبية ، وفرق الرهبان الفرسان وهى مؤسسات دينية حربية لقبت دوراً فعالاً فى البناء السياسى الصليبى .

ومن الملاحظ أن المؤسسة الدينية تعاظم دورها فى ذلك الكيان، واتسعت رقعة أملاكها ، ويلاحظ أن رجال الدين الكاثوليك بعد نجاح الصليبيين فى زرع كيانهم فى بلاد الشام- استولوا على ما كان لرجال الدين الأرثوذكس، وصاروا يمتلكون الهبات ، والضياع وتزايدت أملاكهم يومًا بعد يوم ، ولذلك نستطيع القول أن المؤسسة الكنسية فى الكيان الصليبى صارت بمثابة دولة داخل بلاد الشام، وحتى فى أوربا، فإذا ذكرنا أن تلك الأملاك كانت بلاضرائب ، كما أن رجال الدين تم اعفاؤهم من الخدمة العسكرية ؛ أدركنا الصورة بصورة أكثر جلاءً ، ولاشك أن ذلك جعل النبلاء والفرسان يكنون كل حقد على أفراد المؤسسة الدينية وهكذا وجد تياران متصارعان داخل الكيان الصليبى: التيار الكنسى والتيار العلمانى خاصة

١- Runciman , vol . II, p. 302 .

أن التيار الأخير كان منه الفرسان الذين بذلوا دماءهم فى ساحات الوغر[١] دفاعًا عن وجود الصليبيين بكافة عناصرهم واتجاهاتهم .

والأمر المحقق: أن المؤسسة الدينية الصليبية قد تعاظم شأنها من خلال ظهور هيئات دينية صليبية ليس للملكة سيطرة عليها ، بل أنها مسئولة أمام البابوية . ويتجلى ذلك فى هيئات الاسبتارية ، والداوية ، والتيوتون، وهيئة القديس لازاروس، وغيرها من الهيئات ، ولذلك ستتجه إلى إلقاء الضوء على تلك الهيئات.

أما الهيئة الأولى: فقد نشأت من خلال تلك المستشفى التى أقامها الأمالفيون أهالى مدينة أمالفى Amalfi [٢] الإيطالية ، فى القدس فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى وعرفت الهيئة بالاسبتارية Hospitallers [٣]، وعرفت في المصادر اللاتينية باسم Ordo Equitum Hospitaliorum Sancti Johannis Hierosolymitani[٤].

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٤٩٧ .

٢- أمالفى Amalfi: مدينة وقعت فى كامبانيا Campania بإطاليا فى مقاطعة سالرنو Salerno على الساحل الشمالى من الخليج الذى اتخذ نفس اسم المدينة Gulf of Salerno ، وقد كانت أمالفى مستعمرة بيزنطية وحصلت على استقلالها منذ وقت مبكر من بعد ذلك لسيطرة النورمان وزعيمهم روبرت جويسكارد Robert Guischard ، وقد دخلت أمالفى فى علاقات تجارية نشطة مع الفاطميين فى مصر.

عن أمالفى انظر :

Pirenne , Mohammed and Charlemagne, London 1954, p. 152 .

Citarello , "The Relations of Amalfi with the Arab world befor the Crusades ", Speculum , vol . XLII, pp. 299-312 .

Gibb, "The Italian Cities and the Arabs before 1095", in Setton , the Crusades, vol . I, p. 52 .

٣- Woodhouse, The Military Religious Orders, London 1879, p. 23 .

٤- Hume, Medical Work of the Knights Hospitallers of Saint John of Jerusalem , Balthimore 1940, p. 3 .

وفيما بعد عندما طرد الصليبيون من بلاد الشام ، واتجه الاسبتارية إلى جزيرة رودس صار اسمهم فرسان رودس The Knights of Rodes [(١)]، وأخيراً اتجهوا إلى جزيرة مالطه Malta عام ١٥٣٠م / ٩٣٧هـ، فعرفوا باسم فرسان مالطه The Knights of Mala [(٢)].

والجدير بالذكر هنا : أن البابا باسكال الثانى Paschal II قد أصدر أوامره بالاعتراف بالهيئة المذكورة فى ١٣ فبراير عام ١١١٣م ، وقد حمل اسم : Pie Postulatio Voluntalis [(٣)]

وعلى ذلك : من الممكن افتراض أن التأسيس الرسمى للهيئة المذكورة تم حوالى ذلك الوقت، وتتضح أهمية المرسوم البابوى فى أنه احتوى كافة الممتلكات والهبات التى قدمت للهيئة ، وسنجد أن الولاء من جانبها سيكون من الآن فصاعداً للبابوية وليس للملك الصليبى على نحو عكس ظهور قوى دينية لها نفوذ متعاظم غير خاضع لسيطرة ذلك الملك على نحو كان له أسوأ الأثر على أوضاع الصليبيين فى بلاد الشام.

ويلاحظ أن هيئة الاسبتارية جعلت القديس الحامى Patron Saint لها هو القديس يوحنا المتصدق John Almsgiver[(٤)] ، ثم تحولت إلى القديس يوحنا المعمدان John The paptist [(٥)].

١- عنهم أنظر : سامى سلطان سعد ، الاسبتارية فى رودس، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة ، عام ١٩٧٥م.

٢- Cavaliero, The Last of the Crusaders , London 1960 .

٣- عن تلك المنحة البابوية وتحليل المؤرخين لها انظر :

Smail , The Gusaders in Syria and the Holy Land , p. 59, Mayer, The Crusades, p. 83 .

٤- القديس يوحنا المتصدق هو بطريرك الاسكندرية فى الفترة من ٦١٠ إلى ٦١٦م وقد عرفت بأعماله الخيرية الواسعة النطاق ، وكانت له مكانة خاصة لدى سكان مدينة القدس على نحو خاص بسبب مساعدته للمسيحيين هناك وذلك بعد أن نهبت على يد خسرو الثانى Chosrus II ملك الفرس ، وهناك اعتقاد بأن متعلقات ذلك القديس توجد فى كاتدرائية برسبرج ، عنه انظر :

William of Tyre , vol. I, p. 80, note (1) , Attwarer, Dictionary of saints, p. 190-191 .

٥- عن القديس يوحنا المعمدان انظر :

متى، الاصحاح (٣) من ٣ : ٥ ، مرقص ، الاصحاح (٦) من ١٦ : ٣٠ .

=

وقد قامت الهيئة على أساس النظام البندكتى الذى أقامه القديس بندكت St. Benedict (١).

وجدير بالذكر : أن هيئة الاسبتارية ستغدو ذات فعاليات حربية إلى جانب دورها الخيرى والعلاجى وستشارك بقوة فى صنع التاريخ الحربى للصليبيين فى بلاد الشام.

أما الهيئة التالية فهى الداوية؛ Templars التى أسسها فى الأصل الفارسان هيودى باين Hugh de Paynes وجودفرى السانت أوميرى Godfrey de Saint Omer وذلك فى عام ١١١٨م / ٥١٢هـ(٢). وقد قامت الهيئة فى الأصل بحماية الطريق الواقع بين يافا والقدس والذى أسلفت الإشارة إليه من قبل من خلال مخاطره الخاصة ، ويلاحظ أن الداوية حصلت على الدعم الكبير فى مجمع تروى فى عام ١١٣٨م / ٥٢٢هـ ، حيث قام القديس برنارد الكليرڤورى Bernard de Clairvaux (٣) بالقاء خطاب امتدحهم بعنوان De Laude Novae Militae أو On The Praise of the New Knighthood أى فى مدح الفروسية الجديدة(٤).

Hastings, Dictionary of the Bible, New York , 1952 , p. 509-510 , Grant, Historical = Introduction to to the New Testament , New York 1963 , pp. 309-312 , Attwater, Dictionary of Saints, p. 191 .

١- عن القديس بندكت ونظامه الديرانى انظر :

Culton , Medieval Panorama, Cambridge 1949, p. 269 .

Artz, The Mind of the Middle, Ages, New York 1953, p. 185.

٢- William of Tyre , vol. I, p. 81 .

٣- عنه بالتفصيل انظر :

Vacandard, Vie de Saint Bernard Abbé de Clairvaux , Paris 1895, T.I, p. 227-249 .

De Brouwer, Saint Bernard Homme d'Eglise , paris 1953 , pp. 47-57 .

Vanchez , " Saint Bernard , un predication irreseistible", L'Histoire, XLVII, Année 1981, pp. 27-29 .

٤- يوجد النص اللاتينى لخطاب القديس برنارد فى المجلد رقم ٨٢ من الباترولوجيا اللاتينية P.L., T. CLXXXII.

ويلاحظ أن هيئة الداوية[١] كانت من أشد العناصر الصليبية عداءً للمسلمين ، وشاركت - مع الاسبتارية- فى صنع تاريخ المعارك الحربية التى وقعت بين الصليبيين والمسلمين.

وبالنسبة لهيئة التيوتون [٢]، تعرف أنها ظهرت خلال أعمال حصار عكا أثناء الصليبية الثالثة ، عندما قام تجار ألمان من مدينة لوبيك Lubeck ، وبرمن Bremen بانشاء مستشفى من أجل رعاية الحجاج الألمان [٣]، وفيما بعد شارك الفرسان التيوتون فى معارك الصراع الصليبى مع المسلمين ، وإن لم يكن لهم نفس التاريخ الحربى الذى توافر للهيئتين السابقتين .

ويضاف إلى ذلك : وجود هيئة القديس لازاروس St. Lazarus [٤] والتى قامت فى الأصل من أجل رعاية المبرصين ، وتحولت ليكون لها دور حربى هى الأخرى ، وهى بصفة عامة أقل شأناً فى دورها التاريخى من الهيئات الثلاث السابقة .

١- عن هيئة الداوية انظر :

ابراهيم خميس ابراهيم ، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين فى مصر والشام (١١٩٣-١٢٩١م / ٥٨٩-٦٩٠هـ) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨٣م.

٢- أفضل دراسة بالعربية عن هيئة التيوتون قام بها د. حسن عبد الوهاب، عنها انظر :

حسن عبد الوهاب ، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة حوالى ١١٩٠-١٢٩١م / ٥٨٦-٦٩٠هـ ط. الاسكندرية ١٩٨٩م.

محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الاسلامية والمسيحية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م، ص٣٨٢- ص٣٩٠ .

٣- نفسه، نفس المرجع ، ص٣٨٢ .

٤- عن هيئة القديس لازاروس انظر :

Ludolph Von Suchem, p. 40 Richard , Hospitallers and Hospital Congregation , in Outremere Studies presented to Joshua prawer, ed. by R. Smail , B Kedar, H. Mayer, Jerusalem 1982, p. 98 .

King, The Knigts Hospitallers in The Holy Land , London 1931, p. 304 .

من الملاحظ أن تلك الهيئات ، امتلكت الأراضي والهبات والمنح، وصارت لها القلاع والحصون المنيعة، وكذلك- وهذا هو الأخطر- استقلالية قرارها السياسي عن قرار القيادة العليا الصليبية على نحو جعلها وبحق دولة داخل الدولة الصليبية مما عكس خطورة دورها حينذاك.

وفى ختام الحديث عن الجانب السياسى للمملكة الصليبية ؛ لانغفل أن هناك عصرين للصليبيين فى بلاد الشام ، العصر الأول، هو عصر الملوك الصليبيين الكبار، وهو يبدأ من ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ حتى ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ ، والتاريخ الأول- كما هو معروف تاريخ بداية حكم جودفرى البويونى، والتاريخ الثانى هو نهاية حكم الملك عمورى آخر الملوك الصليبيين الكبار، وبه ينتهى الجيل الثالث فى تاريخ الوجود الصليبى فى بلاد الشام- مع الأخذ فى الاعتبار تميز الجيل الأول كما أسلفت من قبل- أما المرحلة الواقعة من ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ حتى ١٢٩١م / ٦٩٠هـ فهى مرحلة الضعف العام ، وزيادة الاعتماد على التحالف الاستراتيجى مع الغرب الأوربى- ويكفى أن تلك المرحلة شهدت زلزال حطين ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ الذى أسقط مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولم تتمكن الحملات القادمة من الغرب الأوربى أن تغير فى موازين القوى كثيراً إذ باءت بالفشل إلى أن تم طرد الصليبيين نهائيًا من المنطقة فى ١٢٩١م / ٦٩٠هـ .

أما البناء الاجتماعى للصليبيين ؛ فالملاحظ أن الكيان الصليبى انقسم إلى طبقات محددة فى صورة الطبقة العليا من النبلاء والفرسان وهى التى أفرزت لنا عناصر الحكام فى الفرس والرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وقد لاحظ العلامة سعيد عاشور أن تلك الطبقة كانت قليلة العدد، وتناقص عددها بفعل الحرب مع المسلمين ، وأنهار من ناحية أخرى- ظلت محتفظة بنقائها فى القدس غير أن الأمر لم يستمر على ذلك المنوال فى الإمارات الصليبية الأخرى مثل الرها وانطاكية حيث أنها لجأت إلى التزاوج من العناصر المحلية من المسيحيين الشرقيين[١].

ومن بعد ذلك ؛ تأتى الطبقة التالية ، وهى طبقة عامة المحاربين من الصليبيين ، وهم من غير النبلاء والفرسان ، وقد شكلوا عناصر المشاه فى جيوش الصليبين، وهناك من يقرر أنهم

١- الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٤٠٥ وعن تلك الطبقة انظر :

محمود الحويرى ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص٨٠ - ص٨٢ .

عملوا على التزاوج مع العناصر المسيحية المحلية على نحو أدى بدوره إلى ظهور طبقة جديدة هى طبقة البولانى Pullani أو الأفراخ(١).

ومع ذلك : هناك وجهة نظر أخرى أوردتها المؤرخه م.د. موروجان M.R. Morgan التى أظهرت فى أطروحتها للدكتوراه من جامعة أكسفورد Oxford عن التكملات الفرنسية القديمة لحولية وليم رئيس أساقفة صور حتى عام ١٢٣٢م / ٦٣٠هـ : أشارت إلى أن كلمة بولانوس Pullanus أو فى الفرنسية القديمة بولان Polain اشتقت من بولوس Pullus (صغير حيوان ما) وأن البولانى كانوا على الأقل الجيل الثانى من المستعمرين ولم يكونوا على الاطلاق من دماء مختلطة (٢).

وفى واقع الأمر، أن طبقة البولانى- بغض النظر عن الاختلاف بشأنها - نجد أنها تأثرت بالتقاليد والعادات الشرقية، ويلاحظ أن دافعية القتال لديها كانت محدودة، ومن الممكن تصور أنها طبقة صليبية -أكثر من غيرها- تعرضت لظاهرة التمشرق Orientation وهى زاوية كان قد عبر عنها بصورة أولية المؤرخ الصليبى فوشيه الشارترى Fulcher of Chartres ، عندما أورد عبارته الشهيرة «نحن الذين كنا غربيين صرنا شرقيين»، إلى آخر النص الشهير، غير أن فوشيه الشارترى كان ينتمى إلى الغرب الأوربى، بينما فيما بعد . كان البولانى أو الأفراخ أكثر تمشرقًا ليس من خلال امتلاك أرض فى الشرق فقط، بل من خلال أنهم صاروا يجدون من الممكن قيام علاقات غير حربية مع المسلمين، بل فى تصورى أنهم صاروا يفكرون بعقول شرقية.

والجدير بالذكر أن المؤرخ وليم النيوبورجى William of Newburgh قد انحى باللائمة على

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٥٠٤ .

٢- عن ذلك انظر :

Davis, "William of tyre", in Relations between east and West in the Middle Ages by Derek Baker, Edinburgh 1973 , p. 75 , note (7) .

وعن طبقة البولانى انظر :

Hadia Dajani , Natives and Franks in Palesine , p. 174 .

عناصر البولانى لاسيما بعد كارثة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ حيث أشار إلى أن السكان المحليين الجدد لتلك الأرض والذين يسمون البولانى Pullani أفسدوا بمجاورتهم للمسلمين ، وأنهم لم يكونوا كمسيحيين ولاكمسلمين [١]، وذات الأمر وجدناه لدى جاك دى ڤترى Jacques de Vitry مؤرخ المملكة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى الذى كان أكثر نقمة على عناصر البولانى وحملهم كل الكوارث التى لحقت بالصليبيين على أيدى المسلمين ، وقد أشار إلى أنهم يعقدون المعاهدات مع المسلمين ، وهم سعداء لكونهم فى سلام مع أعداء المسيح، وهم سريعى الشجار والتصارع مع بعضهم البعض ويشعلون الحرب فى صفوفهم وهم يستدعون الأعداء من أجل مناصرتهم ضد المسيحيين ولايشعرون بالعار لتبديد قواهم وأموالهم التى ينبغى عليهم استعمالها ضد الكفار (أى المسلمين) [٢].

ومن ناحية أخرى؛ نجد أن وليم الصورى William of Tyre وهو المؤرخ الرسمى للمملكة الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى- كان واحداً منهم- أى من البولانى كما يلاحظ ديفز Davis - ونجده فى تاريخه يقرر أن من أسباب ضعف الصليبيين فيما قبل حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ أن «أهل الشرق» الآن لم يعتادوا الحرب والقتال.

وهكذا، من الممكن بجلاء ملاحظة، أن البولانى أو الأفراخ فقدوا- بالتدريج - دافعية القتال ضد المسلمين على عكس الجيل الصليبى الأول الذى تشرب العداء للإسلام والمسلمين فى أوربا، ولذلك يصدق القول بأن هذه الطبقة- على نحو خاص- كانت أكثر طبقات الكيان الصليبى تأثراً بظاهرة التمشرق وأود أن أقرر أن الصليبيين هزموا المسلمين عندما قدموا إلى المنطقة هزيمة عسكرية ، ثم لم يلبث أن هزمهم المسلمون بالسلاح الفتاك وهو «التمشرق».

١- William of Newburgh, in Chronicles of The Reigns of Stephen, Henry II and Richord I, ed. by Richard Howlett, R.S., London 1884-1899, vol. I, p. 224 .

نقلاً عن : Davis, " William of Tyre", p. 66 .

٢- Jacques de Vitry , History of Jersalem , Trans. by Aubrey stewart, P.P.T.S., London 1896, p. 64-65 .

ثم هناك ؛ طبقة بورجوازيى المدن الأوربية ، وهم من الأحرار ومنهم من كان من مقاطعات مثل بروفانس Provence فى جنوب غرب فرنسا، ومقاطعة برجنديا Burgandy فى شرق فرنسا، ومقاطعة افرجين Auvergne فى جنوبها [١]، وغيرها من المناطق فى الغرب الأوربى، ويلاحظ أنهم مثلوا طبقة متفوقة ارستقراطية ، ونجد أنهم احتشدوا فى مدن الساحل حيث التميز الاقتصادى والاجتماعى- وكذلك بعض المناطق الداخلية فى مملكة بيت المقدس الصليبية، وهناك من يقرر أن الطبقة البورجوازية على الرغم من أنها وقفت فى مكانة أقل من طبقة النبلاء ، إلا أنها شغلت مكانة أرقى من السكان الوطنيين[٢].

والجدير بالذكر ، أن هناك من يقرر أن تلك الطبقة ظهرت إلى الوجود فى عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ، وأخذت فى النمو إلى أن سمح لها الملك الصليبى بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١م / ٥١٢-٥٢٦هـ) فى عام حكمه الأخير أى عام ١١٣١م / ٥٢٦هـ بأن ينظموا أنفسهم من خلال المحاكم البورجوازية [٣]، خاصة أنهم تزايدوا عدديًا من خلال توافد المهاجرين الأوربيين القادمين للاستقرار فى مناطق الشرق اللاتينى [٤].

ومن المهم ملاحظة ؛ أن تلك الطبقة كان لها دورها المهم فى الكيان الصليبى حتى على المستوى الحربى، فشكلت قوة محلية عسكرية محلية عرفت بالميليشيا البورجوازية Burgher Militia عملت على الاشتراك فى الحرب إلى جانب عناصر البارونات وكذلك الهيئات الحربية[٥] السالفة الذكر من قبل .

١- سعيد البيشاوى، الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٢٨٧، حاشية (٢) .

٢- محمود الحويرى، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص٨٣ .

وعن الطبقة البورجوازية بصفة عامة انظر :

Rey, Les Colonies Franques, pp. 57-94 .

٣- حاتم عبد الرحمن الطحاوى، الحياة الاقتصادية فى المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام (٤٩٤ / ٥٨٣هـ - ١٠٩٩ / ١١٨٧م) رسالة ماجستير كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام ١٩٩٢م، ص٣٦ .

وأود الإشادة بالجهد الجدير بالتقدير فى اعداد هذه الدراسة الممتازة.

٤- Mayer, The Crusades, p. 152 .

٥- محمود الحويرى ، المرجع السابق ، ص٨٤ .

على أية حال ، من المؤكد أن الطبقة البورجوازية دعمت الوجود السكانى الصليبى على حساب المسلمين ، كما أنها احتلت قسمًا من الأرض على نحو سيؤدى دور فى تغيير معالم المنطقة لصالح الكيان الصليبى الدخيل .

ثم تأتى طبقة المسيحيين المحليين فى صورة الأرمن، Armenians والموارنه Maronites ، والسريان Syrians ، واليعاقبة، Jaqubida ، ويلاحظ أنهم مثلوا الطبقة التى راهن المشروع الصليبى على إنقاذها من الاضطهاد المزعوم الذى روجت له الدعاية الصليبية المغرضة، ويلاحظ أن الصليبيين بعد استقرارهم فى المنطقة اظهروا احتقاراً للمسيحيين الشرقيين فى الغالب، واعتبروهم هراطقة ليسوا جديرين بالاحترام [١]، كما أنهم عينوا عناصر مسيحية كاثوليكية على المراكز الدينية؛ بدلاً من العناصر الأرثوذكسية ، وتأكد عمليًا أكاذيب الصليبيين، فها هو قطاع مهم وحيوى من المسيحيين الشرقيين يتعرض للتهميش من جانب الغزاه لا لشىء إلا بسبب الفوارق المذهبية بين الجانبين .

والجدير بالذكر ؛ أن الموارنة – على نحو خاص– كانوا من أكثر عناصر المسيحيين الشرقيين الذين أظهروا الود للصليبيين منذ اللحظات الأولى لمقدمهم إلى المنطقة، وقد عملوا كمرشدين وأدلاء لهم[٢]، وعملوا كذلك كتراجمة وأطباء ولذلك نجد أن عمدة مؤرخى الصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى؛ ونعنى به وليم الصورى William of tyre ، قد امتدحهم وأشاد بالمساعدات التى قدموها لبنى جلدته[٣] منذ أن وصلت الحملة الصليبية الأولى

١– كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ت. أحمد الشيخ، ط. القاهرة ١٩٩٥م ، ص٢١٥ .

٢– قاسم عبده قاسم ، «بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية،» مجلة عالم الفكر ، م (٢٢) ، العدد (٢) ، أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر ١٩٩٣م، ص٣٧٣ .

٣– William of Tyre, vol . III, p. 459 .

وعن مساعدة الموارنة الحربية للصليبيين انظر :

Gibb, The Damascus Chronicle of the Crusades, London 1932 , p. 28 .

Mayer, The Crusades, p. 274 Smail , The Crusaders in Syria and The Holy Land , p. 161.

لمناطق توزيعات الموارنة لاسيما فى طرابلس وما جاورها وظل تاريخ الموارنة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالصليبيين حيث وقفوا معهم ضد المسلمين السنيين الذين حملوا راية الجهاد ضدهم ، ومن المتصور أن دعم الموارنة للصليبيين وتمكنهم من المناطق الجبلية ربما كان من الأسباب التى جعلت إمارة طرابلس الصليبية أطول الإمارات الصليبية عمراً وتأخر سقوطها حتى عام ١٢٨٩م / ٦٨٨هـ.

ويلاحظ أنه إلى جانب الموارنة ؛ كان هناك الأرمن الذين أيدوا الصليبيين ، ولذلك ؛ احتلوا مكانة سامية لديهم، وحدثت حالات للتزاوج بينهم وبين الصليبيين[١].

ومن بعد ذلك ؛ نجد طبقة الإيطاليين[٢] من جنوة والبندقية وبيزا ، الذين قدموا إلى بلاد الشام من أجل الإفادة من ثروات الشرق التى قدمها لهم المشروع الصليبى ، ولامراء فى أن الإيطاليين كانوا من أكثر العناصر الرابحة من جراء غزو الغرب الأوربى للشرق الأدنى الإسلامى، وكانت تلك الطبقة على جانب كبير من الثراء ، ووجدت فيها أسرات كبيرة احتكرت حركة التجارة لصالحها ، وقد تركزت تلك الطبقة فى المناطق الساحلية خاصة عكا على نحو خاص حيث الاتصال بالوطن الأم فى ايطاليا ، وحصلت تك الطبقة على العديد من

= عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ص١١٤ ، زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٥٨م، ص١٦١ ، سمايل ، الحروب الصليبية ، ت. سامى هاشم، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٥٣ .

Vryonis , " The Experience of Christians under Seljuk and Ottoman Domination , Eleventh to Sixteenth Century in Conversion and Continuity: Indiyenous Christian Communities in Islamic Lands , Eightin to Eighteenth Centuries, ed Michael Gervers and Ramzi Jibrau Bikhazi , Papers in Mediaval studies 9 , Toronto pontidical of Mediaeval studies 1990 , p. 306 .

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٥٠٥ .

٢- عن طبقة الايطاليين انظر: Rey , les Colonies Franques de Syrie au XII et XII Siecles, Paris 1883 , pp. 69-74 .

الامتيازات منها أمتلاك أحياء فى المدن وحق المحاكمة ليس فقط لابناء جنسيتهم بل أيضًا لمن يسكن أحيا ءهم فى بعض الحالات [١].

وبصفة عامة؛ من الممكن القول أن طبقة الايطاليين الذين انتسبوا إلى المدن التجارية الكبرى فى ايطاليا كانوا من عوامل الازدهار التجارى الذى أصاب الشرق اللاتينى ، ويلاحظ أن مصلحتهم التجارية كانت فى المقام الأول بالنسبة لهم ومن بعد ذلك كانت الاعتبارات الصليبية .

أما الطبقة التالية : فتتمثل فى المسلمين الخاضعين للاحتلال الصليبى، وهى طبقة شكلت كثافة سكانية كبيرة لايستهان بها ، ومن الملاحظ هنا؛ أنه مع الأحداث الدموية التى صاحبت غزو الصليبيين لمنطقة بلاد الشام والجزيرة ، ثم الفتك بالآلاف - كما أسلفت الإشارة من قبل- وفر الآلاف من المسلمين إلى المدن الإسلامية المجاورة للمناطق الصليبية طلبًا للأمن والحماية، غير أنه كان هناك أعداد كبيرة من المسلمين لم تستطع الفرار وظلت باقية تحت الاحتلال الصليبى، ونعرف أنهم تركزوا فى المنطقة الممتدة من بانياس إلى عكا وكذلك فى حوض نهر العاصى، وأيضًا فى سهل البقاع[٢]، ومن الممكن ملاحظة أهمية تلك المواقع على المستوى الاقتصادى لاسيما الزراعى والرعوى، ولاريب فى أن الغزاه تركوا المسلمين يعملون فى مجالات حياتهم المختلفة من أجل تفرغ الغزاه لأمور الحرب والقتال وحتى يوفر السكان المحليين الغذاء والمؤن والإمدادات .

ولامراء : فى أن القطاعات المسلمة التى كانت تحت الاحتلال كانت من أكثر العناصر إثارة لمخاوف الغزاه ، فلم تستطع وسائل البطش، والتنكيل؛ أن تخيفهم أو تمنعهم من المقاومة ولذلك وجدنا صوراً للمقاومة. كما لاحظنا من قبل- فى مناطق الجليل الأعلى بشمال فلسطين[٣]

١- Riley - Smith , "Governent in Latin Syria and The Commercial Privileges of Foreign Merchants", in Relations between East and west in the middle Ages, ed. by Derek Baker, Edinburgh 1973 , p. 109 .

٢- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٥٠٦ .

٣- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ / ، ص٤٢ .

ليلى طرشوبى ، اقليم الجليل فترة الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى. رسالة دكتوراه غير منشوره - كلية الآداب - جامعة القاهرة ، عام ١١٨٧م، ص١٦٠ .

وكذلك طريق يافا - القدس[١]، ونلاحظ بجلاء أن الصليبيين لم يثقوا البتة فى طبقة المسلمين الخاضعة لاحتلالهم، حيث تعلقت قلوبهم باخوانهم فيما وراء الحدود .

وقد يرى البعض أن المسلمين الخاضعين لسيطرة الصليبيين كانت أوضاعهم أحسن حالاً من أولئك الذين خضعوا لحكم القوى السياسية الإسلامية فى مناطق أخرى من بلاد الشام ومن الممكن لذلك الفريق الاحتجاج بما ورد لدى رحلة الرحالة الأندلسى ابن جبير[٢]، إلا أننا ينبغى ألا نأخذ الأمور بظاهرها ، كذلك فإن ما أورده ذلك الرحالة النابه لاينطبق على كل المناطق الخاضعة للسيادة الصليبية ، ويقرر المؤرخ الفرنسى البارز كلود كاهن Claude Cahen أننا ينبغى أن نلاحظ أن ما أورده ابن جبير بشأن المقاطعات الأخرى على اعتبار الشروط الخاصة التى لزم قبولها عام ١١٢٤ / ٥١٨هـ ، عندما تم الاتفاق على استسلام المدينة للغزاة[٣].

وهناك زاوية جديرة بالاهتمام ، حيث لاحظ براور أنه فى العقد الثانى من عمر المملكة الصليبية، حدث تحول ملحوظ فى السياسة الصليبية التعسفية ، حيث حاول افراد طبقة النبلاء منع عملية نهب وذبح أهالى المدن التى تم الاستيلاء على تلك المدن فى شكل اقطاعات، وفضل أولئك النبلاء استلام تلك المدن بأسواقها التجارية العامرة دون أن يلحقها الدمار لا أن تكون مجرد خرائب واطلال [٤].

١- Daniel , p. 9 .

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون ، ص٧٨ .

٢- عنه أنظر :

المقرى، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب؛ جـ٣ ، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص١٤٣ ، محمد مؤنس عوض، «الصراع السنى- الشيعى فى بلاد الشام فى القرن السادس الهجرى من خلال رحلة ابن جبير »، ندوة العرب وآسيا ، جامعة القاهرة ابريل ١٩٨٩م، ص١٢ - ص١٣ ، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص٢٢٥- ص٢٢٦ .

٣- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ص٢١٦ .

٤- The Laton Kingdom , p. 19 .

زد على ذلك ؛ أن الصليبيين تركوا عدداً من النظم الإسلامية[1] قائمة فى مناطق المسلمين مثل الرئيس، والقاضى، والمحتسب وغيرها، إلا أن ذلك لم يكن يلغى فكرة أن المسلمين تحت الاحتلال الصليبى رضوا بالوضع القائم نظراً لقوة الصليبيين ثم توقفوا عن الخضوع لهم بصورة متدرجة حينما استعاد الأمراء المسلمون قوتهم [2].

وهنا تثار زاوية على جانب كبير من الأهمية ؛ فالملاحظ أن المؤرخين الأوربيين لاسيما الفرنسيين منهم الذين ألفوا كتابات عن تاريخ الحروب الصليبية Croisades ، فى أخريات القرن الماضى ، وأوائل القرن الحالى. عملوا على الإفادة من المثال الذى ورد لدى ابن جبير للتدليل على نجاح الصليبيين فى إيجاد نوع من التعايش بينهم وبين المسلمين أو خلق كيان متجانس بصورة ما، وذلك حتى يروجوا لفكرة دور فرنسا فى التاريخ الحديث ، وأن «الاستعمار» الفرنسى لديه رسالة حضارية يقدمها لأبناء المنطقة العربية لاسيما فى سوريا ولبنان وبلاد المغرب العربى ، كامتداد للرسالة السابقة التى قدمت خلال مرحلة الصليبيات ، بينما الواقع أنه لم تكن للصليبيين رسالة ما حضارية بالمعنى الدقيق للكلمة؛ لأنهم دخلوا المنطقة كغزاة فاتحين وخرجوا منها- أيضًا- كغزاة مطرودين كما أنهم هم أنفسهم استفادوا من حضارة الشرق وذات الأمر بالنسبة لما سمى بحركة الاستعمار الأوربى الحديث، إذ أنه كان عملية سلب ونهب لخيرات الدول التى تعرضت للاستعمار أو «الاستخراب» بالمعنى الأدق ، وهذا يعكس لنا خطورة تصورات الأوربيين المحدثين لتاريخ بلادهم فى القرون الوسطى لاسيما فى علاقاتها مع العالم الإسلامى حينذاك، وخطورة الأخذ بتصوراتهم دون وعى أو نقد أو تمحيص. ولانغفل أن جانبًا مهمًا من التأليف التاريخى الأوربى الحديث عن الصليبيات كان من نتاج الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين حيث كانت الدول العربية تعانى من الاحتلال الأوربى لها . ولاشك فى ذلك الوضع انعكس على كتابات الأوربيين حينذاك .

١- Prawer, The latin kingdom , p. 19 .

٢- كلود كاهن ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص٢١٦ .

وعن أوضاع المسلمين تحت الاحتلال الصليبى بصفة عامة انظر:

محمد فتحى الشاعر، أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م ، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص٥- ص٢٨ .

على أية حال ؛ إلى جانب الطبقات السابقة ؛ كانت هناك طبقة الأقنان Slaves وقد عانوا معاناه شديده من خلال معاملة الصليبيين القاسية[1] وبصفة عامة كانوا أسفل الهرم الطبقى الصليبى.

على أية حال؛ من الملاحظ من خلال الاستعراض السابق لطبقات الكيان الصليبى ، أنه كيان غير متجانس عرقيا كما أنه متنافر لأنه احتوى الغزاه والذين تعرضوا للغزو ، ومصالح كل طرف مختلفة تمامًا عن الآخر، فإذا أدركنا الاختلاف المذهبى بين الكاثوليك والأرثوذكس، كذلك تعدد الجنسيات الوافدة على ما سمى يومًا بالشرق اللاتينى Latin Orient حيث كان هناك الفرنسيون ، والألمان ، والايطاليون والانجليز والروس ، والاسكندنافيون وغيرهم ، أدركنا أننا بالفعل أمام «فسيفساء» صليبى مختلف الأهواء، والمشارب السياسية والمذهبية والعرقية. مع ملاحظة أن «الصليبية» لم تستطع أن توحد ذلك الفسيفساء ، واستمرت الخلافات الواقعة على الأرض الأوربية ، قائمة فى الشرق اللاتينى، وهكذا يمكن دون عناء وصف الكيان الصليبى بأنه «مملكة متفجرة» من الداخل . وأن المسلمين بالتالى كانوا -دون إدراك منهم بطبيعة الحال- أصحاب «فضل» على الصليبيين حيث جعلوا الأخيرين يتحدون فى مواجهة عدو واحد على الرغم من تباين أعراقهم وعقائدهم وميولهم السياسية إلى حد كبير.

من الملاحظ أن الصليبيين على المستوى الاجتماعى ؛ استمروا على نفس عاداتهم وتقاليدهم التى اعتادوا عليها فى الغرب الأوربى غير أنهم تأثروا بالمسلمين- مع تعاقب العقود- فصاروا يأكلون طعامهم. وهناك إشارة طريفه لدى أسامه بن منقذ توضح أن رجلاً صليبيًا يقرر لصديقه المسلم أنه لايأكل طعامًا فيه لحم الخنزير [2]. كما أنهم صاروا يرتدون الثياب الشرقية، ويلاحظ أن ذلك التأثر ليس وليد القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى كما قد يتصور البعض ، بل أنه وليد القرن الأول من تاريخ الوجود الصليبى فى بلاد الشام ونعنى به القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى ويكفى تدليلاً على ذلك روايات شاهد العيان المسلم اسامه بن منقذ الذى هو نتاج القرن المذكور .

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص٥٠٦ ، ص٥٠٧ .

٢- الاعتبار ، ص١٨٠ .

من زاوية أخرى : قد يتصور البعض أن المجتمع الصليبى الذى رفع ومهندسو المشروع الصليبى شعارات الطهارة والنبل بشأنه، مجتمع يغلب عليه الطابع الروحى والاخلاقى بينما الواقع التاريخى عكس ذلك ، إذ أن ذلك المجتمع احتوى على المفاسد والمساوىء اللاأخلاقية التى أقرتها المصادر التاريخية المعاصرة على نحو عكس بجلاء واقع الصليبيين المعاش والنقمة التى صبها المؤرخون الصليبيون - وهم كانوا من أصحاب التعليم الكنسى فى الأصل- أحيانًا على رأس ذلك المجتمع الذى احتوى على الكثير من السلبيات اللاأخلاقية.

وعلى سبيل المثال : نجد أن الدعارة انتشرت فى صفوف الصليبيين[١]، وفى مدينة عكا: كان هناك الحى الأحمر الذى حقق شهرة واسعة فى هذا المجال، وكانت السفن الصليبية تأتى من الغرب الأوربى بالعاهرات من أجل الترفيه عن الجنود الصليبيين، وهناك من المصادر التاريخية ما يشير إلى أنهن تصورن أن ذلك سيكون تقربًا لله[٢]- والعياذ بالله تعالى- ولانغفل أن من رجال الكنيسة من كان يؤجر أماكن العبادة من أجل أعمال الدعارة لما كان يدر عليهم ذلك من أرباح طائلة ، وأن البابوية بح صوتها لإيقاف ذلك دون جدوى ويقدم لنا المؤرخ الصليبى جاك دى فترى Jacques de Vitry اشارات مهمة فى هذا الشأن أنه كذلك أوضح أنه بالنسبة لطبقة البولانى أو الأفراخ يندر وجود شخص منهم دون أن تكون له مثل تلك التجارب الجنسية المشينة [٣].

١- عن ذلك الجانب بالتفصيل انظر :

Jcques de Vitry , p. 64

العماد الاصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ط. القاهرة ب.ت ص١٧٠، جمعه الجندى، حياة الصليبيين ونظمهم فى الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، دراسة تطبيقية على مملكة بيت المقدس، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس عام ١٩٨٥م، ص٢٩٩- ص٣٠٠ ، زكى نقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية ، ص١٥٢ ، قاسم عبده قاسم ، والحروب الصليبية فى الف ليلة وليلة»، ضمن كتاب بين الأدب والتاريخ، ط. القاهرة ١٩٨٨م، ص٣٣ .

وهذه الدراسة الممتازة الخاصة بالحملة الأولى :

Brundage "Prostitution , Miscegenation and Sexual purity in The First Crusade ", in Crusade and settlement , ed. by peter Edbury, Cariff 1985 , pp. 57-72 .

٢- العماد الاصفهانى ، الفتح القسى، ص١٧٠ .

٣- Jacques de Vitry , p. 64 .

ومن زاوية أخرى ، هناك ارتفاع معدلات الجريمة فى الكيان الصليبى، ومن ذلك : نعرف أن النساء الصليبيات فى مدينة عكا، وجد منهن من قامت بدس السم لزوجها فى الطعام[١] للتخلص منه كى ترتبط بعشيق لها قدم من الغرب الأوربى ، مع ملاحظة أن أنواع السموم النباتية والحيوانية والمعدنية عرفت لدى الصليبيين وتم استخدامها فى مثل هذه الأغراض وكذلك للتخلص من المتنافسين سياسيًا ، ومن المتصور أن ذلك المسلك مثل ما يوصف بالظاهرة الاجتماعية التى عكست مدى التفسخ الذى عاشه المجتمع الصليبى حينذاك .

زد على ذلك ؛ أن المجتمع الصليبى عانى من تفشى ظاهرة الرشوة[٢]. وهو أمر أشارت إليه المصادر التاريخية المعاصرة ، وكذلك الأبحاث المتخصصة، على نحو عكس وجود تلك الأمراض الفتاكة تعصف بالمجتمع الصليبى من الداخل، مع ملاحظة أن تلك الزوايا لم تكن مجرد حالات فردية محدودة الفعالية والتأثير ، بل أنها شكلت «ظاهرة اجتماعية» لايستهان بها، وظلت مثل تلك الأمراض تنهش فى جسد الوجود الصليبى إلى أن سقط من الداخل قبل سقوطه على أيدى داوية الإسلام المماليك.

وقد يتصور البعض أننى انطلق من منطلقات شيفونية فى العرض السابق لسلبيات المجتمع الصليبى، والرد على ذلك يسير، وهو هل كان وليم الصورى وجاك دى فترى ينطلقان من نفس تلك المنطلقات ؟ الإجابة لا، أنه النقد الذاتى للصليبيين الذى قدمه مؤرخون ثقاه شهروا بعلامات الانهيار الداخلى التى لم يدرك الصليبيون المعاصرون حقيقته وأدركها بعض مؤرخيهم ممن تمتع ببعد النظر والرؤية المستقبلية .

١- Jacques de Vitry . p. 64 .

٢- عن ظاهرة الرشوة فى الكيان الصليبى : هذه الدراسة الفريدة فى موضوعها بالعربية .

حسن عبد الوهاب، «الرشوة فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام منذ الحملة الصليبية الأولى وحتى سقوط بيت المقدس ١٠٩٥-١١٨٧م / ٤٨٨-٥٨٣هـ، ضمن كتاب مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية، ط. الاسكندرية ١٩٩٧م، ص٩٣ - ص١٥٤ . »

ذلك أمر البناء الاجتماعي للصليبيين ؛ أما الحياة الاقتصادية. فهي ذات ثراء خاص، فقد أدركنا من قبل كيف أن الباعث الاقتصادي مثل أساسًا مهمًا من الأسس التي قامت عليها الصليبيات ، ولاريب في أن الحياة الاقتصادية للصليبيين في بلاد الشام تكشف لنا عن جوانب بالغة الأهمية على نحو يجعلها بالفعل جديرة بالدراسة.

أما على المستوى الزراعي؛ فنعرف أن الصليبيين الذين قدموا في الأصل من الغرب الأوربي الذي ساده النظام الاقطاعي، عملوا على نقل ذلك النظام إلى بلاد الشام، وبالتالي تم تقسيم الأراضي الخاضعة لسيادتهم إلى مقاطعات ، ويلاحظ هنا؛ أن العلاقات الاقطاعية بين طبقات المجتمع الصليبي، لم تكن تختلف عن مثيلاتها في المجتمع الأوربي في العصور الوسطى، مع ضرورة ملاحظة بعض الاختلافات التي فرضتها طبيعة الغزو الصليبي التوسعي وما نتج عنه من علاقات إقطاعيـة قائمة على الخدمة العسكرية بشكل أساسي ، وعلى استنزاف الإقطاعات لتمويل خزائن مملكة بيت المقدس الصليبية لمواجهة هجمات المسلمين المتكررة[١].

ويلاحظ أن الصليبيين عملوا على تنظيم أمور الزراعة وقسموا الأراضي إلى وحدة عرفت باسم الكاريوكا Carioca وتم زراعتها بالعديد من المحاصيل، والأشجار ، والخضروات ، وقد تم تنظيم الحقول بسلاسل من الحجارة من أجل تفادي المشكلات التي كانت تقع بين أصحاب الأراضي المتجاورة ناهيك عن مخاطر الجرانها[٢].

ويلاحظ أن الطبقة البورجوازية قامت بدور حيوي في المستعمرات التي أقامها الصليبيون في الضفة الغربية لنهر الأردن مثل تلك التي كانت في البيرة[٣]، وكفر مالك، والقبيبة وأهمها

١- حاتم الطحاوي ، الحياة الاقتصادية في المستعمرات الصليبية في بلاد الشام، ص٢٤ .

٢- سعيد البشاوي، الممتلكات الكنسية ، ص٢٣٨ . وعن الزراعة في المناطق الصليبية انظر :

Richard , "Agricultural Conditions in the Crusader States", in Setton, A History of the Crusades, vol . V, p. p. 251-294 .

زكي نقاش، العلاقات الاجتماعية والتقاليد الاقتصادي بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، ط. ب.ت، ١٩٥٨م، ص١٦٨- ص١٧٨ .

٣- وقعت البيرة على بعد ستة عشر ك .م إلى الشمال من القدس على الطريق المؤدي إلى مدينة نابلس =

جميعًا البيرة، وفيها تم طرد سكانها المسلمين الذين عملوا بالزراعة ، وتم احضار أفراد من المدن الأوروبية وكانوا أحرارًا وعملوا على زراعتها فى مقابل ضريبه تدفع لرجال الدين فى كنيسة القيامة فى صورة اقتسام محصول الأرض معهم ، ويلاحظ أن مستعمرة البيرة اكتمل بناؤها عام ١١١٥م / ٥٠٩هـ[1]. وهذا يعنى أن التصور الخاص بعمل المسلمين فى مناطقهم مقابل تقديم قسم من المحصول للصليبيين ، يضاف إليه : وجود أوربيين أحرار عملوا فى المستعمرات التى أقامها الصليبيون كمراكز حضارية ذات توزيعات سكانية تدعيمًا للوجود الصليبى فى مواجهة الكثافة السكانية المسلمة، ومعنى ذلك: أن الزراعة دخلت ضمن مخطط الصليبيين ولم يجعلوا المسلمين يحتكروا العمل بها بل أن المستوطنين الأوروبيين الذين هاجروا من أوربا وقدموا إلى بلاد الشام منهم من عمل بالزراعة .

= وقد شغلت سهلاً فسيحًا ، وامتازت بتوافر الينابيع وخصوبة تربتها الزراعية. عنها انظر :

Theoderich , p. 60 .

John of, Wurzburg, p. 14 , note

سعيد البيشاوى ، الممتلكات الكنسية، ص١٨٥- ص١٨٦ .

١- عن مستعمرة البيرة الصليبية انظر :

Abel , " Les deux " Mahomerie " El-Bireh , El- qoubeibeh ", R.B., T. XXXV, 1926 , p. 273-275 .

Genevieve , le Cartulaire du Chapitre de Saint Sepulchre de Jerusalem , Paris 1984 , pp. 86-88 .

Pringle (D.), "Magna Mahumeria (Al birea) : The Archaeology of a Frankish Town in Palestine" , in Crusade and Settlement , ed . by peter W. Edbury , Cardiff 1985 , p. 148 .

Tibble (S.), Monarchy and Lordships in the Latin kingdom of Jerusalem (1099-1291), Oxford 1989, p. 78 .

Ellemblum (R.), Frankish Rural Settlement in the latin kingdom of Jerusalem , Cambridge 1998, pp. 75-85 .

Prawer (J.), Crusader Institutions, p. 127 .

ولا مراء : فى أن ذلك كله يكشف لنا عن حقيقة محورية مهمة. وهى أن الصراع بين الجانبين كان صراعًا فى الأساس على الأرض ، فهاهم الصليبيون يفرغون الأرض من سكانها الأصليين سواءً بالمذابح كما حدث فى موجة الغزو المبكرة ، أو من خلال الاستيطان وإيجاد مواقع للمهاجرين القادمين من الغرب الأوربى، ويلاحظ أن المملكة الصليبية قدمت المغريات لتلك العناصر للاستقرار الدائم الغير مؤقت ، من ذلك أن تلك المناطق وصفت بخصوبة التربة وثرائها بصفة عامة، كذلك كانت أكثر أمنًا إلى حد ما بالمقارنة بغيرها من المناطق بالإضافة إلى أن الشبكة الكثيفة والمنظمة من القلاع الصليبية وفرت قدرا ما من الأمن لهم .

ولاريب فى أن ذلك يكشف لنا بوضوح كيف أن الصليبيين امتلكوا مشروعًا محدداً للاستعمار وإحلال البنية السكانية الأوربية محل السكان الأصليين وأرضهم على الأقل بصورة جزئية ، وهكذا ندرك أن زاوية الاستعمار (أى الاستخراب) كانت هى الزاوية المحورية التى لاتغفل.

من ناحية أخرى: إذا ما اتجهنا صوب التجارة ، فلاريب أن القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين \ السادس والسابع الهجريين شهدا جانبًا مهمًا من الأزدهار الاقتصادى لاسيما التجارى ، والعصور الوسطى: شهدت ثورة تجارية خلال المرحلة من ١١٠٠ -١٥٠٠م/ ٤٩٤-٩٠٦هـ شهدت ثورة تجارية ولم تشهد ثورة صناعية . ولانزاع فى أن الصليبيين باخضاعهم لبلاد الشام ومناطق فى شمال العراق، أخضعوا شبكة بالغة الأهمية من خطوط التجارة القادمة من شرق ووسط آسيا إلى غربها من أجل تصدير فائض الانتاج الزراعى الصناعى إلى مراكز الاستهلاك فى أوربا، ومن ثم غنم الصليبيون مغانم وفيرة من عوائد المكوس، وكذلك من إخضاع قسم كبير من حركة التجارة فى أيديهم، ويلاحظ هنا أن كافة التكوين العرقى والاثنى الذى كان عليه المجتمع الصليبى ما التقى على أرض الشام إلا من خلال الثراء الاقتصادى الذى كان للمنطقة ، لتحدث من بعد ذلك أكبر عملية نهب يقودها على نحو خاص تجار المدن الايطالية الذين عقدوا الصفقات التجارية الكبرى بعد أن صاروا الوسطاء التجاريين بين تجارة الشرق والغرب .

ومن الملاحظ : أن تجارة العصور الوسطى اعتمدت على أركان رئيسية وهى الذهب، التوابل، الرقيق، الحرير ، وكانت هذه الأركان بمثابة أنواع التجارة عابرة القارات التى من خلالها عملت حشود بشرية كثيفة فى الانتاج بمراحله المتعددة ، وكذلك فى التصدير إلى مناطق الاستهلاك .

وإذا اتخذنا من ركن واحد من تلك الأركان مثالاً : سنجد التوابل Spices تحتل مكانة بارزة، ويمكن وصف ذلك العصر بأنه عصر للصراع على التوابل ، التى كانت تنتج فى جنوب آسيا ، فى بيئات حارة واحتاجتها أوربا احتياجًا كبيراً من أجل إحراق البخور فى الكنائس وكذلك من أجل حفظ الأسماك استعداداً لمواسم الصيام عن المسيحيين ، وقد وجد لدى المسلمين تجار «الكارم» أو تجار التوابل الذين عملوا على الحصول عليها من مراكز انتاجها فى الهند وغيرها، ونقلها البحر الأحمر، ومن بعد ذلك تصل عن طريق مصر إلى أوربا من خلال التجار الايطاليين ، وكانت بلاد الشام بحكم التجاور الجغرافى تمثل جانبًا مهمًا من مراكز تجارة التوابل ، وعندما استولى الغزاه على مدينة قيسارية- على سبيل المثال- وجدوا بها كميات من الفلفل الأسود[1]، وهى بالتأكيد موجود فيها من خلال النشاط التجارى حيث لاتنتج قيسارية هذا النوع من التوابل أو يمكن أن نلاحظ الأمر بصورة أدق إذا أدركنا أن ذلك العصر شهد التخصص فى التجار وأنواع التجارة، بل وجد هناك التاجر الركاض الذى هو المستورد الذى يستورد السلعة من مراكز انتاجها من أجل جلبها إلى مناطق الاستهلاك ، وأيضًا التاجر الخازن ، أو تاجر الجملة حقيقة أن ذلك الوضع وجد لدى المسلمين ، إلا أن الصليبيين أنفسهم توافر لديهم ما يوازى هذا الوضع خاصة لدى الايطاليين بمعنى التخصص فى العمل التجارى بما يتفق مع طبيعة العصر.

من ناحية أخرى؛ لم يكن سعى الصليبيين لإحكام قبضتهم على الساحل السامى إلا من خلال الرغبة فى دعم الاتصال بالوطن الأم فى أوربا، وكذلك اخضاع تجارة الساحل بدرجة كبيرة لسيطرتهم ، وجعل الدول الإسلامية فى الظهير البرى خلف ذلك الساحل تخضع للسيادة التجارية الصليبية، فلايتم توزيع فائض الانتاج لدى المسلمين إلا من خلال وساطة الصليبيين التجارية ، وقد تم لهم ذلك عام ١١٥٣م/ ٥٤٩هـ ، ولن يفك أسر الساحل بالنسبة للمسلمين إلا على أثر زلزال حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ ، وعندما تصل إليه أقدام المسلمين بعد أعوام طويلة من السيطرة السياسية والتجارية الصليبية.

ونأتى الآن إلى زاوية مهمة : وتتمثل فى العلاقات التجارية بين الصليبيين والمسلمين، فيلاحظ أنه على الرغم من استمرار العداء بين الجانبين : إلا أن كلاً منهما حرص على المتاجرة

١- هايد ، تاريخ التجارة فى العصور الوسطى، جـ١، ص١٥١ .

مع الآخر ، ونجد أن الصليبيين تاجروا مع أعدائهم على اعتبار أن الساحل فى أيديهم، وقد غنموا من وراء ذلك أموالاً طائلة من خلال قيامهم بدور الوسيط التجارى بين المسلمين والقوى الأوربية حيث مراكز الاستهلاك، وفى هذا الصدد لدينا شهادة شاهد عيان فى صورة الرحالة الأندلسى الفذ ابن جبير الذى قدم إلى عكا من دمشق فى ركاب قافلة تجارية كبيرة ، وذكر أن القوافل تخرج من مناطق الصليبيين ومن مناطق الأخيرين إلى مناطق المسلمين ، كما أشار إلى أن أهل حرب فى حربهم ، وأهل التجارة فى تجارتهم وأظهر تعجبه من ذلك الموقف[١].

ولا جدال ، أن احتياج كل طرف للآخر جعل العلاقات بينهما تأخذ جانبًا سلميًا لامفر منه من أجل استمرار تدفق التجارة وهكذا فإن فكرة المقاطعة الاقتصادية فى ذلك العصر لم تكن واردة لدى أحد منهما لأنها كانت تعنى الانتحار لكل من الجانبين، ولايغيب عن أذهاننا أن البابوية طالبت المدن التجارية الايطالية مرات ومرات أن تقاطع القوى الإسلامية تجاريًا من أجل تضييق الخناق عليها دون جدوى ، لأن التجار الايطاليين كانوا على استعداد للوقوف إلى جانب المشروع الصليبى وتأييد البابوية غير أنهم لم يكونوا مستعدين للانتحار من أجل الأخيرة.

على أية حال؛ ينبغى أن نلاحظ أن العلاقات التجارية أدت إلى إدراك قطاع من الصليبيين؛ كم كانت الدعاية البابوية عن الإسلام وأهله مغرضة وأن المسلمين ليسوا بالصورة الوحشية التى صورت لهم فى الغرب الأوربى، بل على جانب وافر من الحضارة ، ومع التعامل التجارى بين الجانبين انتقلت حضارة المسلمين للغزاه مع عدم إغفال أشكال التداخل الأخرى بطبيعة الحال.

وهناك زاوية مهمة فى مجال النشاط التجارى، فى صورة النقود، فيلاحظ أن الصليبيين كانت لهم عملاتهم التى تعاملوا بها على الصعيد التجارى وفى كافة مناحى الحياة الأخرى، ويلاحظ أن النظام النقدى الخاص بالصليبيين فى بلاد الشام انقسم إلى قسمين رئيسين، النقود الذهبية والفضية الخاصة بالفاطميين والأيوبيين فى مصر والشام ، وكذلك نقود برونزية ونحاسية ذات كتابه يونانية أو لاتينية أو فرنسية[٢].

١- الرحلة ، ص٢٦٠ .

وعن إشارات المصادر الصليبية للتعامل التجارى بين الطرفين انظر :

Fetellus , p. 24 . Theoderich , p. 65 . Burchard of Mont Sion,p. 163 Ludolph von Suchem . p.5 .

٢- حاتم الطحاوى، الحياة الاقتصادية، ص١٨٨ .

ويلاحظ أن الصليبيين عملوا على تزوير العملات الفاطمية والأيوبية، وذلك من أجل إضعاف اقتصاد تلك الدول الإسلامية ، وفى هذا الصدد سك الصليبيون عملات ذهبية ونحاسية وفضية من أجل اتمام العمليات التجارية اليسيرة أو اليومية [١]، ومع ذلك فإن البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤م / ٦٤١-٦٥٢هـ) رفض الشعارات الإسلامية على تلك العملات المقلدة وحرمها ، الأمر الذى جعل الصليبيون يتلفون على الأمر من خلال سك نفس العملات وغلبها بعض المحتويات المسيحية للعملة[٢].

ومن الملاحظ أن الأسواق تعددت فى كافة المدن الخاضعة للسيادة الصليبية، خاصة تلك الواقعة فى المدن الساحلية ، حيث احتشدت بالعديد من الجنسيات التى عمل أفرادها بالتجارة أو كانوا من المستهلكين ولدينا وصف يفيض بالحيوية لمدينة عكا الصليبية من جانب عدد من الرحالة الأوربيين مثل ، بنيامين التطيلى Benjamin of Tudela [٣]، وثيودريش Theo-derich[٤]، ويوحنا فوكاس John Phocas [٥]، ومن المسلمين هناك وصف فذ من جانب ابن جبير[٦]، وتتفق كافة تلك الأوصاف على أهمية عكا التجارية وثراء أسواقها ، وبالنسبة للأخير، نجد أنه اشار إلى أنها تضيق فيها مواطىء الأقدام نظراً للكثافة السكانية التى وجدت فى أسواقها .

تلك صورة موجزة عن ملامح حياة الصليبيين فى بلاد الشام ، أما الفصل التالى فإنه يتصدى لتناول تطور حركة الجهاد الإسلامى من كربوغا وحتى عماد الدين زنكى أى من ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ إلى ١١٤٦م / ٥٤١هـ .

١- حاتم الطحاوى ، الحياة الاقتصادية، ص١٨٩ .

٢- نفسه ، نفس المرجع ، ص١٩٠ .

تولى المنصب البابوى من ٢٥ يونيو ١٢٤٣ إلى ديسمبر ١٢٥٤م وذلك فى أعقاب البابا كلستين الرابع الذى تولى بدوره ٢٥ أكتوبر - ١٠ نوفمبر ١٢٤١م، عنه انظر :

Kelly, Oxford dictionary of Popes, pp. 192-193 .

٣- Benjamin of Tudela, in wright, Early Travels in palestine, London 1848, p. 80 .

٤- Theoderich , p. 59 .

٥- John Phocas, p. 11 .

٦- الرحلة ، ص٢٧٦ .

الفصل الخامس

تطور حركة الجهاد الإسلامى

من كربوغا حتى زنكى ١٠٩٨-١١٤٦م / ٤٩٢-٥٤١هـ

يتناول هذا الفصل بالدراسة : نشأة وتطور حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين منذ عهد أتابك الموصل كربوغا ، حتى عهد زنكى الذى كان من أتابكة المدينة المذكورة، ويتجه الفصل إلى دراسة الأبعاد الأيديولوجية لحركة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر، مع ملاحظة أن دراسة حركة الاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى الذى واجه المنطقة فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى ، لايتم إلا بدراسة فكرة الجهاد حينذاك كفكرة محورية وقاعدة أساسية تكونت على أساسها كافة الانتصارات التى حققها المسلمون حينذاك مما يعكس أهمية دراستها.

وبداية ؛ أود أن أقرر أنه من سوء حظ الصليبيين أنهم قاموا بغزو منطقة حيوية ليس فقط بالنسبة لموقعها الجغرافى ، وأهميتها الجيوبوليتيكية فقط، بل من خلال أنها امتلكت هوية دينية محددة فى صورة الإسلام الذى عمر فيها على مدى خمسة قرون كاملة، وتعايش أبناؤه مع المسيحيين ، واليهود فى توافق، وتوازم حضارى دون أن تكون هناك مشكلة ما فى الاعتراف «بالآخر» المختلف عقائديًا ؛ وذلك كله يعود إلى سماحة الإسلام وقدرته على الاحتواء والامتصاص . وإذا كان الصليبيون قد أتوا للمنطقة وكانت فكرة الحرب المقدسة قد اضمرت فى العقل الجمعى الأوربى، إلا أن المسلمين كانت لديهم فكرة محورية أخرى فى صورة الجهاد: الذى هو ذروة سنام الإسلام، وأصبحنا أمام فكرتين متصارعتين تنفذهما أمم وحشود بشرية ضخمة ، الحرب المقدسة فى مواجهة الجهاد على أرض بلاد الشام والجزيرة، وعلى مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين .

وهكذا: من الممكن القول أن «الهوية الإسلامية» هى التى واجهت الصليبيين وسط دياجير الظلام ، والاحتلال الاجنبى ، والغزو المخرب الدموى لديار المسلمين ، ولاتفهم زاوية تلك الهوية بدون إدراك فكرة الحرب فى الإسلام أو بكلمة أخرى «الجهاد» .

وواقع الأمر: أن الجهاد ، لغة ؛ هو التعب والمشقة ، ويقال جهد الرجل فى الأمر جهداً ،

ويقال أيضًا بذل المرء جهده أى أنه بذل طاقته[١]، ومن الواضح أن الجهاد احتل مكانة متميزة فى الإسلام، ويتضح ذلك فى الأهمية الكبيرة التى يعلقها القرآن الكريم[٢] عليه وعلى القائمين به ، ثم جاءت الأحاديث النبوية الشريفة لتدل على نفس الاتجاه نحو تعظيم المجاهدين، وقد مثل القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة : اتجاهًا واحداً فى دعم فكرة الجهاد وترسيخها فى الفكر الدينى الإسلامى[٣].

ومن المهم أن ندرك هنا: أن الجهاد فى الإسلام قد مر بعدة مراحل حتى وصل إلى الوضع الذى صار من خلاله على المسلمين أن يقاتلوا المشركين كافة ، وإذا تتبعنا آيات الجهاد فى القرآن الكريم؛ وجدنا أن فى أول الأمر، كان هناك التوجيه من الله عز وجل نحو كف المسلمين عن القتال فى مكه، وفى أول العهد بالهجرة النبوية إلى المدينة المنورة[٤]، ثم من بعد ذلك أذن للمسلمين بالقتال لمواجهة أعدائهم [٥]، ومن بعد ذلك : فرض عليهم القتال لمن قاتلهم، وذلك باستثناء من لم يقاتلوهم [٦]، وأخيراً فرض عليهم قتال المشركين كافة[٧].

١- عن الأصل اللغوى لكلمة الجهاد انظر :

ابن منظور ، لسان العرب ، م١ ، ط. بيروت ، ب.ت ، ص.٥٢٠- ص٥٢١ ، المقرى الفيومى، المصباح المنير، ط. القاهرة ١٩٢٦م، ص١٥٥ .

٢- من ذلك قوله تعالى : «وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» الأنفال، رقم (٨) ، آية رقم (٦٠) .

«وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله» التوبة رقم (٩) آية رقم (٤١)

«وجاهدوا فى الله حق جهاده» الحج رقم (٢٢) ، اية (٧٨) .

٣- عن ذلك عن أبى ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه قال : «قلت لرسول الله : أى الأعمال أفضل؟ فقال الايمان بالله والجهاد فى سبيله» حديث متفق عليه ، وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لغزوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » حديث متفق عليه، وعن الأحاديث النبوية الخاصة بالجهاد انظر :

مسلم ، صحيح مسلم ، جـ٣ ، ط. القاهرة ، ص١٣٥٦-- ص. ١٤٥٠ ، الترمذى ، سنن الترمذى، تحقيق أحمد شاكر ، ومصطفى الحلبى، جـ٤ ، ط. القاهرة ، ص١٦٧ .

٤- قال تعالى : «كفوا أيدكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » النساء ، رقم (٤) آية (٧٧) .

٥- قال تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير» ، الحج ، رقم (٤) ايات (٣٩-٤١) .

٦- قال تعالى : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » البقرة ، رقم (٢) ،، آية (١٩٠) .

٧- قال تعالى: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » التوبة رقم (٩) آية (٣٦) .

ويلاحظ أن مفهوم الدفاع فى فكرة الجهاد فى الإسلام : تتجاوز حدود الناحية الحربية المحضة إلى ما هو أرحب من ذلك ، فالدفاع هنا هو دفاع عن الإنسان نفسه ضد عوامل تقييد حريته، خاصة تلك المتمثلة فى المعتقدات والتصورات وكذلك الأنظمة السياسية القائمة على الحواجز العنصرية ، والطبقية ، والاقتصادية التى كانت سائدة حينذاك [١]. أضف إلى ذلك ، أن فكرة الجهاد فى الإسلام : هى فكرة يمكن اعتبارها ذات صفة حضارية من حيث أنها ارتبطت بالمثل العليا ، ولم يكن الإسلام ليقاتل القوى المناوئة له لمجرد القتل والسلب والنهب- كما زعم قطاع من المستشرقين - وإنما سعى إلى تقدم الإنسانية من خلال نشر افكاره الدينية المتحضرة، ولانغفل هنا أن اعتناق الإسلام لم يكن بالوسائل القسرية، ولم يمكن هناك إكراه فى فرضه فى نفوس غير المقتنعين له، وهناك الآية القرآنية الصريحة القائلة «لا إكراه فى الدين» [٢]، وهذا يبين لنا أن الجهاد فى الإسلام لم يكن ليعنى توسعًا اقليميًا[٣]، دون القيام بالالتزام الحضارى تجاه الشعوب المفتوحة.

وقد أدرك مفكرو الإسلام أهمية فريضة الجهد وعظم شأنها ، ونجد مثالاً وضاحًا لذلك لدى العامرى (ت٣٨١هـ/ ٩٦٢م) عندما قرر أن أقسام العبادات فى الإسلام منها العبادات النفسانية كالصلاة، والبدنية كالصيام، والمالية كالزكاة ، والعبادة المشتركة بين هذه العبادات الحج، أما الجهاد ، فقد اعتبره العبادة الملكية[٤]، أما ضرورة القيام به فيتمثل فى أنه «لولا قيام أهل الدين بالمحاماه عن دينهم بالسيف، لاجتاحهم أعداؤهم ، ولظهر الفساد فى البر والبحر ، ولهدمت صوامع، وبيع وصلوات ومساجد»[٥].

١- سيد قطب ، معالم فى الطريق، ، ط. القاهرة، ١٩٨٢م، ص٧٢ ، وانظر كذلك الجزء الذى خصصه لشرح فكرة الجهاد فى الإسلام فى كتابه نحو مجتمع إسلامى، ط. القاهرة ، ١٩٨٢م، ص١٠١-ص١٠٩ .

٢- البقرة ، رقم (٢) آية رقم (٢٥٦) .

محمد أبو زهرة ، نظرية الحرب فى الإسلام، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص١٨ .

٣- جمال الدين محمود ، الإسلام وقضية السلام والحرب، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص٨٤ ، جمال الدين الرمادى، الأمن والسلام فى الإسلام ، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٩ .

٤- الاعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق أحمد عبد الحميد غراب، ط. القاهرة ، ١٩٦٧م، ص١٢٤ .

٥- نفسه، نفس المصدر ، ص١٤٧ .

زد على ذلك : أنه وجدت عدة مبادىء للحرب فى الإسلام تمثلت فى أن السلم هو الأساس القائم فى العلاقات الإنسانية ، وإن وجدت الحرب فهى فى حالات الضرورة دون عدوان ، وينبغى ألا يتأثر بالحرب من لايشتركون فيها ، ثم هناك المسارعة إلى تلبية دعوة السلم وذلك فى حالة إظهار أحد الأطراف المتصارعة ميلاً حقيقيًا للمسالمة وكف الحرب، ثم أن الإسلام احتوى فى مبادئه ضرورة الإحسان للأسرى من جيوش الكفار والمشركين [١]، وذلك من قبل معاهدة جنيف بقرون عديدة على نحو يكشف لنا عن البعد الحضارى فى تعامل ذلك الدين الختامى مع أعدائه بعد انقشاع غبار المعركة .

وقد صار أمر الجهاد فى الإسلام فرض كفاية وفرض عين، وكان يفرض على من يقع عليهم العدوان فإن لم يكن منهم كفاية لصد المعتدين ، فإن الجهاد عندئذ يفرض على من يليهم، وأقرب الناس إليهم ، وهكذا يتسع نطاق الفرض حسب مجريات الحال وقدرات المعتدى الهجومية حتى يشمل أمر الجهاد المسلمين أجمعهم[٢] ، وحينئذ نجد العاجزين عن الجهاد من المسلمين : عليهم المجاهدة بأموالهم[٣].

ومن الملاحظ أن المسلمين السنيين أوجدوا مكانة بارزة للجهاد ، ونفس الأمر لدى الشيعة الذين اعتبروه من أركان الإسلام، وواحداً من أسسه[٤]، وهكذا التقى السنة والشيعة على

١- الماوردى، الأحكام السلطانية ، ط. القاهرة، ب.ت ، ص٤١ ، ابن حزم ، مراتب الاجماع فى العبادات ووالمعاملات والاعتقادات ، ط. القاهرة ، ب.ت ص١١٩ ، محمد كامل مراد ، «القتال فى الإسلام» مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ، جـ٢ ، عام ١٩٧٢م، ص١١٩ ، محمد شلتوت ، الإسلام دين وشريعة ، ط. القاهرة، ٤٦٦ .

٢- السنهورى ، الإسلام والجهاد، ط. القاهرة ، ص٦١ ، محمد شديد، الجهاد فى الإسلام، ط. القاهرة ، ص١٥٤ ، أحمد شلبى، الجهاد والنظم العسكرية ، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٦٦- ص٦٧ .

٣- ابن تيمية ، الحسبة فى الإسلام ، ط. القاهرة ١٤٠٠هـ ، ص١٧ .

٤- النعمان بن حيون، دعائم الإسلام ، جـ، تحقيق فيظى، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص٣٩٩، تأويل الدعائم ، جـ١ ص٥١ ، كتاب الاقتصاد ، تحقيق وحيد ميرزا ، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص٦٧ - ص٦٨ ، سميره الليثى، جهاد الشيعة ، ط. بيروت ١٩٧٦م، ص١٣ ، حسن عباس حسن، الصياغة المنطقية للفكر السياسى الإسلامى، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة عام ١٩٨٠م، ص٤١٠ .

أهمية الجهاد على نحو وضح فى كتابات الفريقين الدينيه ، وهو أمر يكشف لنا أنه على الرغم من الفروق المذهبية بين الجانبين ، إلا أن الجهاد ذاته لم يكن موضعًا للاختلاف حيث هناك الاتفاق على دوره المحورى فى حياة الأمة المسلمة.

والأمر المؤكد : أن زاوية الجهاد وضحت منذ البواكير الأولى لدولة المدينة التى أسسها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ويعلق أحد المستشرقين على ذلك العصر قائلاً : «... وهكذا نشأت الدولة العربية التى كان قد أسسها محمد عليه السلام امبراطورية بعد موته، وتحولت الجماعة المحمدية إلى جيش تحولاً تامًا. وصارت الصلاة والصوم وبقية الشعائر الدينية فى المرتبة الثانية بعد الجهاد »(١).

على أية حال؛ فإن اصطدام المسلمين مع الإمبراطورية البيزنطية، وكذلك الدولة الساسانية كان مجالاً لتطبيقات عملية لفكرة الجهاد، ومن خلال ذلك، توسع المسلمون على حساب ذلك الكيانين السياسيين الكبيرين وصارت حدود عالم الإسلام ممتدة من قرب سور الصين العظيم شرقًا حتى قرب باريس غربًا ، ولم يكن ذلك إلا من خلال نضج وانتعاش تلك الفكرة وتحولها إلى واقع عملى معاش ، غير أنه إذا كان ذلك فى عهد قوة المسلمين خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين / الأول والثانى الهجريين ، فإنه مع بوادر الانقسام والتشرذم السياسى والتصارع المذهبى صار المسلمون محطًا لمطامع ادعائهم ، وكانت الصليبيات من مظاهر ذلك.

والآن لنتساءل عن الدوافع البواعث التى دفعت بالمسلمين إلى محاربة الصليبيين بعد استقرارهم فى بلاد الشام والجزيرة؟ وكيف تحولت تلك الدوافع إلى واقع معاش استمر قائمًا ليمثل الاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى إلى أن أمكن طردهم نهائيًا من المنطقة؟

وواقع الأمر؛ أن الإسلام الذى تعمق فى نفوس أبنائه على مدى عدة قرون مضت كان فى حد ذاته الأساسى الدينى لحركة المقاومة ، وكان الجهاد الأساس النظرى وراء كل هجوم مسلم

١- يوليوس فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ت . عبد الهادى أبوريدة ، ط. القاهرة : ١٩٥٨م، ص٢٤ .

وعن تطور فكرة الجهاد خلال تلك المرحلة انظر :

Watt, " The Islamic Conception of Jihad", in the Holy war, ed. by James Brundage , Ohio State 1974 , pp. 142-147 .

Michean , "Jihad" , L'Histoire, T. XLVII, Année 1982, p. 102 .

ضد الصليبيين ، ولاشك أنه من خلال تجارب المسلمين فى قتال أعدائهم على مدى المراحل التاريخية الطويلة والمتعددة التى سبقت مقدم الصليبيين إلى المنطقة ، لاشك فى أن ذلك كله، جعل فكرة الجهاد هى الملاذ أمام كارثة الغزو الصليبى لديار الإسلام.

والأمر المؤكد، أن التعصب الشديد الذى أظهره الصليبيون تجاه الإسلام وأهله وتمثل ذلك فى تحويل المساجد إلى كنائس[1] إلى نحو ذلك ، كشف للمسلمين عدم امكانية مهادنة الغزاه، وأن دينهم فى خطر ما لم يقفوا لمواجهة أعدائه، مع ملاحظة أن هذه هى المرة الأولى فى تاريخ المسلمين فى بلاد الشام والجزيرة التى يتعرضون فيها لغزو قوة أجنبية غير مسلمة وتستقر فى الأرض المسلمة، فليس الأمر مجرد عمليات سلب ونهب والعودة إلى القواعد الأصلية التى انطلق منها الغزاه، بل أن الصراع – كما أسلفت من قبل- كان على الأرض والهوية على نحو كشف بجلاء عن حجم الخطر الداهم الذى مثله الاجتياح الصليبى للمنطقة.

زد على ذلك؛ أن المذابح التى أقامها الغزاه للمسلمين وعمليات التطهير العرقى التى وقعت، لم تكن هناك وسيلة لمواجهتها إلا بحمل السلاح من أجل رد المعتدين والتعامل معهم بالقوة المسلحة القادرة على إجهاض مشروعهم، وفى تصورى أن فكرة الجهاد الإسلامى بعث من مرقدها فى ذلك العصر على نفس الأرض التى سالت عليها دماء آلاف المسلمين المدنيين الأبرياء الذين سفك دماءهم على أيدى أبناء آخر الغزوات المتبربرة[2]، فإذا أضفنا إلى ذلك

١- ابن جبير، الرحلة ، ص٢٧٦ .

أنظر أيضًا : محمد فتحى الشاعر ، أحوال المسلمين، ص٢٣ .

٢- من أمثلتها انظر :

Anonymus , The deeds of the Franks, p. 91 .

Fulcher of Chartres, p. 122 .

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٣٧ .

٣- هذا التعبير فى الأصل مأخوذ من المؤرخ ستيفن رنسيمان كما أسلفت من قبل ونصه :

"The last of the Barbarian Invasions"

أى آخر الغزوات المتبربرة .

الواقع : أن الصليبيين حاربوا المسلمين وحرموهم فى لقمة عيشهم وحولوا الكثيرين من أصحاب حقوق إلى مجرد لاجئين يتجرعون كأس الذكرى الأليمة ذكرى الاجتياح والمذابح والطرد والهوان؛ وأصبحنا ظاهرة : «الجفل»[1] وهى لجوء الآلاف من المسلمين من المدن المنكوبة بالغزو الصليبى إلى المدن الأكثر أمنًا مثل دمشق وحلب وغيرهما ، أدركنا الصورة على نحو أوضح .

ولانغفل ناحية أخرى مهمة : وهى أن الغزو الصليبى للمنطقة قد نتج عنه اقامة القلاع الصليبية فى العديد من الأنحاء ، وأدرك المسلمون أكثر من أى وقت مضى أن تلك الحركة الغازية هدفت إلى تغيير الطبيعة الجغرافية للأرض وتثبيت أقدامهم بكل وسيلة ممكنة، وهكذا لم يكن من الممكن مواجهة هذا العدو الواعى تمامًا لما يفعل إلا بمقاومته عسكريًا .

زد على ذلك : أمر الطموح السياسى لقادة حركة الجهاد الإسلامى ، فأولئك القادة رغبوا فى أن يتم وضعهم السياسى من خلال توسيع نفوذ كياناتهم المحلية على حساب الوجود الصليبى[2] فى بلاد الشام والجزيرة ، ومع ذلك؛ ينبغى ألا يغيب عليهم وجود ذلك الطموح طالما أنه يفجر فى ساحة الجهاد ضد الصليبيين، ولانغفل أن العديد من أولئك القادة تعرض لمشاق سياسية بالغة ومعارك مع خصومة السياسيين حتى من المسلمين، ناهيك عن أن منهم من تعرض للاغتيال، وذلك كله يعنى أن قضية الجهاد لم تكن أمراً سهلاً ميسوراً بل شاقًا محفوفًا بالمخاطر والأهوال دونما مبالغة .

ولانزاع : أن العامل الدينى احتل مكانة سامية من بين عوامل حركة الاستجابة الإسلامية للتحدي الصليبى، باعتباره العامل الايدولوجى مع عدم اغفال أهمية العوامل الأخرى، ويلاحظ

١- عن ذلك انظر :

ابن طولون القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية، جـ١ تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط. دمشق ١٩٤٩م ، ص٢٦- ص٢٨ ، وهذه المقالة الممتازة لعمانويل سيفان :

Sivan , "Refugiés Syro- Palestinies au Temps des Croisades, ", R.E. I, T. XXXV, Anneé 1967, pp. 135-147 .

٢- عنها أنظر :

محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية ، من ص٤١٨- ص٤٦٦ .

أن العامل الدينى لن يمثل شعاراً تختفى من ورائه دوافع ومطامع أخرى كما حدث بالنسبة للصليبيين ، لأن الهجوم والغزو كان من جانب الأخيرين ، والدفاع كان من جانب المسلمين، ومثل الدين خط الدفاع الأول بالنسبة لهم، ولذا يتم اعتباره الأساس الأول، ومن بعده تأتى العوامل والبواعث والدوافع الأخرى.

وقد يتوهم البعض أن حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين لم تكن إلا صراعًا حول خطوط التجارة العالمية المارة ببلاد الشام والجزيرة فى المقام الأول، غير أن ذلك يحوى قولبة واعتسافًا فى الاحكام، وتصور أبناء ذلك العصر بلاهوية دينية يدافعون عنها، وفى تصورى أن الجهاد كان حقيقة تاريخية واقعة، ولم يكن المكسب المادى فقط هو المحرك ، فالأمر دوافع عديدة وفى مقدمتها الدين خاصة إذا ما تعلق الأمر بالإسلام الذى استقر على مدى قرون فى نفوس ابنائه فى تلك المنطقة ذات التاريخ الحافل فى الصدام بين ابناء الاسلام وابناء المسيحية على نحو خاص، حيث أن الإسلام حينذاك مثل «الهوية العقائدية» على الرغم من تباين الاعراق المعتنقه له فى بلاد الشام والجزيرة ومصر .

من ناحية أخرى ؛ نلاحظ أن ذلك العصر شهد تأليف العديد من المؤلفات الخاصة بالجهاد وفضل المجاهدين[١] ، ولاتعليل لظاهرة التأليف فى ذلك الموضوع على نحو خاص إلا من خلال إدراك المؤلفين – الذين لم ينفصلوا عن عصرهم بطبيعة الحال- لأهمية الكتابة عن ذلك الأمر لأن العصر عصر الجهاد، ويضاف إلى ذلك : تأليف مؤلفات فى فضائل المدن الإسلامية فى بلاد الشام لاسيما القدس[٢]، ويلاحظ أن القدس فى ذلك العصر- خاصة بعد سقوطها

١- عن هذه المؤلفات انظر :

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، م (١) تحقيق صلاح المنجد ، ط. دمشق ، ١٩٥١ م ، ص٣٠ ، ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ط. القاهرة ١٣١٧هـ ، ص١٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط. القاهرة ١٩٤٨م ، ص٨٥ ؛ أحمد أحمد بدوى ، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام، ط. القاهرة ب.ت ، ص٥٣٧، الحياة العقلية فى مصر والشام فى عصر الحروب الصليبية، ص١٣٠ ، عواد الأعظمى ، «تراث العرب الفكرى والعلمى فى فلسطين فى ظل الحكم الإسلامى» ، المؤرخ العربى ، العدد (٢) ، لعام ١٩٧٥م، ص١٦٣ .

٢- من أمثلة هذه المؤلفات هناك ما ألفه الحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م) فى صورة رسالة =

الدموي في أيدى الغزاه. تحولت إلى رمز مقدس أكثر من ذى قبل وصار حلم تحريرها وعودتها للسيادة الإسلامية يداعب وجدان الأمة كبيرها وصغيرها على حد سواء ومن هنا صار أمر التفريط فيها- فيما بعد- جريمة كبرى لاتغتفر بكل المقاييس .

مهما يكن من أمر ؛ فإنه على مدى المرحلة الزمنية الواقعة بين عامى ١٠٩٨-١١١٠م/ ٤٩٣-٥٠٤هـ. أقام الصليبيون كياناتهم فى المنطقة، وتوسعوا فى الساحل وصدوا مظاهر المقاومة الفاطمية ، والسلجوقية ، وليس هناك انجاز مهم للمقاومة الإسلامية إلا من خلال صد المسلمين بقيادة كمشتكين بن دانشمند للحملة الصليبية التى قدمت إلى الشرق عام ١١٠١م / ٤٩٤هـ وبذلك تم اخفاق تلك الصليبية ووصولها إلى طريق مسدود حيث قتل من الصليبيين الكثيرون[١].

وبصفة عامة : فطوال السنوات العشر المذكورة ، حاولت القوى المحلية فى بلاد الشام أن تحقق أية انتصارات تغير خريطة التوزيعات السياسية للمنطقة دون جدوى، وتأكدت حقيقة محورية وهى أن التعامل المحلى والاقليمى مع الحركة الصليبية يعد أمراً قاصراً ، ولم يكن المسلمون يدركون خطورة الأعوام الأولى فى تاريخ الغزاه ، حيث أنهم حققوا انجازات كبيرة خلال مرحلة زمنية قصيرة نسبيًا مع غياب الرؤية التى تتجاوز الحد الاقليمى الشامى إلى ما ورائه ولاريب فى أن ذلك كلف المسلمين الكثير ، وأخر نضج حركة الجهاد الإسلامى زمنًا .

= فى فضائل بيت المقدس وهى محفوظة بالجامعة العربية بالقدس ، انظر عنها : الواسطى المقدسى، فضائل البيت المقدسى، تحقيق اسحاق حسون ، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية بالجامعة العربية بالقدس ، ط. القدس ١٩٧٩، ص١٢٠ ، ثم هناك ماألفه القاسم بن عساكر (ت ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م) وهو ابن الحافظ ابن عساكر تحت عنون فضائل القدس الشريف ، عن ذلك انظر :

السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى، جـ٥ ، ط. القاهرة ، ب.ت ، ص١٤٨ ، كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى، جـ٦ ، ت ، ط. القاهرة ١٩ م ، ص٧٤ .

١- عن صليبية عام ١١٠١م / ٤٩٤هـ، ومقاومة كمشتكين بن دانشمند لها فى آسيا الصغرى انظر :

Gate (J.L) , " The Crsade of 1101", in Setton A History of The Cruasdes, Vol . I, pp. 343-367 .

على عوده الغامدى، المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين ، ط. الطائف ١٤١١هـ، ص١٢ – ص٧٥ ، على بن صالح المحيميد ، الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول ، ط. الاسكندرية ١٩٩٤م، ص٣٧ – ص٤٩.

والجدير بالذكر هنا ، أن حاضرة شمال العراق ، الموصل قدر لها لعب دور محورى فى تاريخ الجهاد ضد الصليبيين ، ويلاحظ أن الموصل عدت مركزاً إسلامياً يقع خلف مناطق المطامع الصليبية ، ثم من ناحية أخرى، كان موقف إمارة الرها Edessa بين الموصل وحلب، قد جعل حكام الموصل يدركون خطورة الموقع الصليبى المتقدم فى مواجهة مراكزهم فى شمال العراق، وهناك من يقرر أنه منذ الأيام الأولى لوصول طلائع القوات الصليبية إلى مشارف بلاد الجزيرة وكذلك بلاد الشام، وضح أن ولاة الموصل من السلاجقة سيقومون بدور محورى وحاسم فى الصراع مع الصليبيين على اعتبار موقعهم الحصين بعيداً عن الأخطار المباشرة للهجوم من جانب الغزاه، بالإضافة إلى أنهم مثلوا حلقة الوصل المباشرة بين القوى السلجوقية التى يعملون تحت إمرتها وبين الإمارات المنتشرة فى الجزيرة والشام والتى وقع على كاهلها عبء التصدى للهجوم الصليبى[1].

على أية حال : من المهم الإشارة إلى جهد اثنين من أتابكة الموصل فى صورة قوام الدولة كربوغا (١٠٩٥-١١٠٠م / ٤٨٩-٤٩٥هـ)، ثم شمس الدولة جكرمش (١١٠٠-١١٠٦ م / ٤٩٥-٥٠٠هـ) ، ويلاحظ بالنسبة لكربوغا ، أنه اتجه إلى نجدة ياغى سيان، ووقعت عمليات عسكرية أهمها حصار كربوغا[2] ومن معه من القوى الإسلامية لأنطاكية بعد استيلاء الصليبيين عليها عام ١٠٩٨م غير أن جهده باء بالفشل نتيجة لعدد من الأخطاء السياسية والعسكرية ، كذلك تفضيل حلفائه من المسلمين لمصالحهم الشخصية على الصالح

١- عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى عصر ولاة السلاجقة فى الموصل ٤٨٩-٥٢١هـ/ ١٠٩٥-١١٢٧م، ط. الرياض ١٩٨١م، ص٦٩ .

٢- عن دور كربوغا انظر :

Fulcher of Chartres, p. 101, 104 Wiliam of Tyre, vol I. pp. 262-294, Krey, The First Crusade, Princeton 1958, p. 163 .

وهذه الدراسة المهمة المتخصصة :

إبراهيم خليل، كربوغا صاحب الموصل ودوره فى مقاومة الصليبيين ، المؤرخ العربى، العدد (٥) ، ص٩٥- ص١١١ .

وأيضًا : محمد مرسى الشيخ ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ١٠٩٧-١١٤٤م، ط. الاسكندرية ١٩٧٢م، ص١٠٧- ص١٥٠ .

الإسلامى العام، واشتعال التنافس فيما بينهم [١]، ومن الممكن لذلك تصور: أن كربوغا ساهم القادة المسلمون الذين عاصروه فى إفشال حركته لجهاد الصليبيين ، ونذكر عدداً منهم فى صورة جناح الدولة حسين صاحب حمص، وثاب بن محمود وهو أحد القادة العرب، ثم يوسف بن أمجد أمير الرحبة، وكذلك رضوان بن تتش أتابك حلب[٢]، ومن الخطأ تصور الأمر على أنه - بمفرده- يتحمل كارثة فشل صد الخطر الصليبى المجتمع فى أنطاكية خلال تلك المرحلة المبكرة .

أما الدور التاريخية لجكرمش : فيمكن ملاحظته من خلال تحالفه مع سقمان بن ارتق أمير الأراتقة فى ديار بكر من أجل التصدى للصليبيين وقد أمكن تحقيق لجاح كبير عليهم من خلال معركة حران[٣] أو البليخ التى وقعت عام ١١٠٤م/ ٤٩٨هـ ، وقد اشترك فيها من الصليبيين بلدوين البورجى Baldwin de Bourg أمير الرها ، وجوسلين Joscelin صاحب تل باشر وبوهيمند Bohemond أمير أنطاكية ، وقد انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، وتم أسر كبار الأمراء الصليبيين مثل بولدين البورجى وجوسلين ، بينما تمكن بوهيمند من الفرار[٤].

١- عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى، ص٨١ .

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، جـ٢ ، تحقيق سامى الدهان ، ط. دمشق ١٩٥٤م، ص١٣٦ ويعبر ابن العديم عن الموقف قائلاً : «تفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته» ، نفس الصفحة.

٣- عن معركة حران أنظر :

William of Tyre, vol. I , p. 458 .

ابن العديم ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص١٤٨ ، عليه عبد السميع الجنزورى، إمارة الرها الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص٩٧ - ص١٠٠ ، عصام الدين عبد الرءوف ، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ط. القاهرة ب.ت ص١٣٨- ص١٣٩ .

Cahen, la Syrie du nord , p. 236, Barker , The Crusades, London 1949 , p. 27 , Stevenson, The Crusaders in The east , Beirut 1968, p. 77 .

٤- عماد الدين خليل، المرجع السابق ، ص٨٤ .

ولا مراء : فى أهمية تلك المعركة والنتائج العديدة التى نتجت عنها ، فقد كشفت عن حجم الانجاز الكبير الذى بمقدور المسلمين تحقيقه فى حالة اتحادهم ونبذ الخلافات فيما بينهم، كما أنها وجهت لطمه قوية لإمارة الرها الصليبية بأسر أميرها، وقدمت انجازاً مبكراً لحركة الجهاد الإسلامى وهى تخطو خطواتها الوليدة . وقد عبر المؤرخ الدمشقى ابن القلانسى من الموقف بعبارات تعكس ارتفاع الروح المعنوية للمسلمين من جراء الانتصار قائلاً : «كان نصراً حسنًا للمسلمين لم يتهيأ مثله»[1].

ومن زاوية أخرى: يقرر البعض أن تلك المعركة أدت إلى إيقاف زحف الصليبيين صوب الشرق واتمام إخضاعهم لإقليم الجزيرة [2]، ولاريب فى أن معنوياتهم وصلت إلى الحضيض من جراء ما حل بهم .

ولانغفل : أن معركة حران قدمت دليلاً مهمًا للمسلمين أفادهم فى مستقبل صراعهم مع الصليبيين ، ومفاده أن الاطراف الصليبية أقل خطراً وشأنًا من القلب الصليبى، ومن الممكن -فى حالة وحدة العمل السياسى والحربى- ضرب القلب من خلال الاطراف لاسيما إمارة الرها التى كانت بمثابة رأس البلطة المتطرفة إلى الشرق والبعيدة عن شقيقاتها فى الساحل الشامى وقسم من ظهيره .

على أية حال : ظهر دور محدود لأحد حكام الموصل فى صورة جاولى سقاوة (١١٠٦-١١٠٨م / ٥٠٠-٥٠٢هـ) ويلاحظ أنه اتجه إلى استغلال الخلافات الواقعة بين الصليبيين ، وقد تحالف مع بلدوين البورجى بعد إطلاق سراحه ، غير أنه أخفق فى تحقيق مكاسب حقيقية لصالح المسلمين [3].

١- ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٣ .

محمود سعيد عمران ، القادة الصليبيون الأسرى فى أيدي الحكام المسلمين ٤٩٣-٥٣١هـ/ ١١٠٠-١١٣٧م، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٢٩ .

٢- عماد الدين خليل ، المقاومة الإسلامية ، ص٨٦ وانظر التحليل الممتاز لنتائج المعركة لدى : عماد الدين خليل ، الامارات الارتقية فى الجزيرة والشام (٤٦٥-٨١٢هـ/ ١٠٧٢-١٤٠٩م) أضواء جديدة على المقاومة الاسلامية للصليبيين ، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢١٤ - ص٢١٧ .

٣- عن دوره انظر : ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٥٧-ص١٥٨ ابن الأثير، الباهر، ص١٦ ، ص١٧ ، ص٣٢ عماد الدين خليل ، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى، ص٤٤- ص٤٧ .

ومن بعد ذلك : كان الدور التاريخى البارز لأكبر قادة الموصل فى ذلك المرحلة المبكرة ، ونعنى به شرف الدين مودود بن التونتكين (١١٠٨-١١١٣م / ٥٠٢-٥٠٧هـ) ، وقد بدأ دوره من خلال ضغط شعبى لأهالى حلب الذين أوفدوا وفداً يمثلهم إلى الخليفة العباسى فى بغداد وطالبوا بالتدخل لنصرتهم [١] بعد أن استفحل خطر إمارة أنطاكية الصليبية وتزايد اعتداؤها على حاضرة شمال الشام الكبرى حلب، وأمام الضغط الشعبى اتجهت الخلافة العباسية إلى تكليف أتابك الموصل شرف الدين مودود إلى التحرك لمواجهة الصليبيين ، ويلاحظ هنا الرابطة الفعلية الجغرافية والتاريخية بين شمال الشام وشمال العراق فهما امتداد واقعى لكل منهما ناهيك عن أن الموصل وحلب مثلا خطا دفاعياً استراتيجياً[٢] فأى خطر خارجى تتعرض له حلب سيؤثر بصورة أو بأخرى على شقيقتها الموصل، والعكس صحيح، وهذا يكشف لنا عن حقيقة محورية ، وهى أن غاية آمال الصليبيين أن يتعاملوا مع المسلمين ككيانات صغيرة هشه منعزلة غير مترابطة ، أما الآن فقد وضحت خاصية جغرافية وتاريخية مهمة فى صورة ارتباط المدن الإسلامية أمام الشعور بالخطر الخارجى الداهم.

مهما يكن من أمر؛ فقد اتجه مودود إلى محاولة الاستيلاء على إمارة الرها Edessa، وقد واجهته صعوبات بالغة فى تحقيق ذلك، بسبب حصانتها ثم دعم الصليبيين لأميرها وليم البورجى، خاصة من جانب تنكرد صاحب أنطاكية، ووليم جوردان صاحب طرابلس، ثم بولدين الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية[٣]، وبالفعل عجز المسلمون بقيادة مودود عن إسقاطها

١- عن ذلك انظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص١٧٣، عبد الغنى ابراهيم رمضان ، «شرف الدين مودود أتابك الموصل والجزيرة»، مجلة كلية الآداب- جامعة الرياض، م (٤) ، السنة (٤)، ص. ١٣٩

Cahen , " The Turkish Invasion " , p. 173 .

٢- من الممكن للقارىء الرجوع إلى رسالة الماجستير التى أعدها باحث جزائرى واعد هو كمال بن مارس فهى مفيدة فى هذه النقطة على نحو خاص، انظر :

كمال بن مارس، العلاقة بين الموصل وحلب وأثرها على الحرب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة عين شمس عام ١٩٩١م.

٣- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٩ .

وعن حملة مودود انظر : ابن الأثير ، الباهر ، ص١٧ ، عصام الدين عبد الرءوف، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى الثانى، ص.١٤٠ .

ومن بعد ذلك اتجه صوب تل باشر - ثانى أهم مركز صليبى بعد الرها فى أعالى الفرات- وذلك عام ١١١٠م/ ٥٠٤هـ وهناك لعبت الرشوة دورها ، فيذكر عدد من المؤرخين المسلمين أن جوسلين صاحب تل باشر ؛ قد اتصل بالأمير أحمديل الكردى صاحب مراغة وقدم له المال ، والهدايا من أجل سحب قواته من أمام المدينة ، فأجابه إلى ذلك على الرغم من كراهية باقى الأمراء[1] ، ولاريب فى أن ذلك يعكس لنا كيف أن المصلحة الفردية لبعض القادة المسلمين كانت هى الغالبة ولم يكن هناك تفكير لديهم فى المصلحة العليا للمسلمين التى هى- كما هو مفترض - فوق كل اعتبار لاسيما وقت الصراع مع الأعداء ، وعندما اتجه مودود إلى نجدة حلب من بعد ذلك بناء على طلب حاكمها رضوان بن تتش ، فوجىء الجيش السلجوقى بأن حاكمها يأمر باغلاق أبواب المدينة بل الأدهى والأمر؛ أنه أوكل بأمر الأبواب لعناصر الاسماعيلية النزارية أو الباطنية [2]؛ مما عكس عدم صدق نيته فى التعاون من أجل جهاد الغزاه .

على أية حال ؛ لم يقدر لحملة مودود الأولى أن تكلل بالنجاح ، وقد قام بثلاث حملات أهمها وأخطرها ، ما وقع عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ حيث التقى بالجيش الصليبى بقيادة بلدوين الأول. وجرى الصدام عند طبرية وشارك مع مودود عدد من القادة أهمهم أتابك دمشق ظهير الدين طغتكين ، وقد جرت أحداث المعركة المعروفة بالصنبرة. ووصفت بالفعل بأنها هائلة ، وقد نتج عنها أن حلت الهزيمة بالصليبيين على نحو فاضح ، وأخذوا بالقتل والأسر من جانب المسلمين[3]، بل أن الملك الصليبى بلدوين نفسه قد أسره لم يعرف شخصيته من أسره فأطلق سراحه ولجا ، ويبدو أن تفوق المسلمين ارتبط بعمليات واسعة النطاق استهدفت التخريب فى مناطق أعدائهم لحرمانهم من مواردهم خاصة المزارع وما بها من محاصيل، وزاد من خطورة ذلك الأسلوب القتالى أن ذلك كله تم على أرض «القلب» الصليبى فى فلسطين ، وليس فى

١- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٥، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص١٥٩ .

٢- نفسه، نفس المصدر، ص١٧٥ ، نفسه، نفس المصدر، جـ٢ ، ص١٥٩ ، ويقول ما نصه: «جرت منه أمور غير محمودة فى قتال الفرنج» ابن العديم، بغية الطلب، تحقيق على سويم، ص١٤٩ .

٣- Fulcher of Chartres, p. 205-206 .

Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897 , p. 88 .

الأطراف النائية ، ويقرر ابن القلانسى نفسه أنه لم تعد ضيعة عامرة بين عكا وبيت المقدس[١]، على نحو عكس فداحة التأثير التدميرى الذى قام به جيش مودود وطفتكين خلال تلك المرحلة، أما إذا اتجهنا إلى المصادر اللاتينية ، وجدنا منها ما يقرر ما نصه « ياله من حزن عميق !! إن الملك بلدوين قد فر تاركًا علمه وخيمته ومثله فى ذلك مثل البطريرك الذى كان حاضراً فى المعركة ، ولقد فقدنا ثلاثين من خيرة فرساننا وحوالى ألف ومائتين من الرجالة »[٢].

على أية حال ؛ فإن ذلك كان أهم انجاز لأتابك الموصل المجاهد الكبير غير أن نقطة الضعف الحقيقية تمثلت فى عدم التنسيق بين جبهة الشمال فى صورة السلاجقة وجبهة الجنوب فى صورة الفاطميين[٣] لاسيما فعاليات حامية عسقلان التى بالفعل شنت هجماتها على مدينة بيت المقدس ، ولاريب فى أن العداء السياسى والصراع المذهبى وقفا ضد أى محاولة لتنسيق العمل الإسلامى ضد الصليبيين حينذاك. ولم يتمكن مودود من تحقيق تغير حقيقى على خريطة الجغرافيا السياسية للمنطقة، وعندما عاد أدراجه إلى دمشق ؛ لم يلبث أن اغتيل على أيدى الفداوية من الاسماعيلية النزارية فى عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ[٤]، ودل ذلك على أنهم كانوا الأداة التى وجهت سلاح الاغتيال الرهيب فى قلب خصومها ، ومن المحتمل أن يكون أتابك

١- ذيل تاريخ دمشق ، ص١٨٦ ، عبد العزيز رمضان، شرف الدين مودود أتابك الموصل والجزيرة ، ص١٤٥ .

٢- Fulcher of Chartres, p. 206 .

٣- فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، العصر الفاطمى والسلجوقى والزنكى، ط. بيروت ١٩٨٥م، ص١٥٨ .

٤- عن اغتيال مودود انظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٧٧، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان، جـ٧ / ق١، ط. حيدر أباد الدكن ١٩٥٥م، ص.٥٠-٥١، شاكر مصطفى ، «طفتكين رأس الأسرة البورية» ، مجلة كلية الآداب- جامعة الكويت ، العدد (١)، يونيو ١٩٧٢ م، ص٦١، عثمان عشرى، الاسماعيليون فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م، ص٤٦٣- ص٤٦٤ .

دمشق ظهير الدين طغتكين وراء ذلك الأمر [١]، ويبدو أن باقى القوى الإسلامية المحلية فى بلاد الشام – خشيت من تعاظم قوة مودود بانتصاره على الصليبيين، وخشيت على وجودها منه، ومن ثم كان التخلص منه حلاً ناجحًا لها .

وعلى الرغم من الإخفاق الذى حل بحملات بطل الموصل الشهيد، إلا أنها تمخضت عن عدد من النتائج المهمة فى مسار تاريخ حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين ، ويمكن إجمالها فى الآتى :

أولاً : إن أتابكية مودود– على قصر مدتها– تعد نقطة تحول فعاله فى تاريخ الصراع الإسلامى– الصليبى خلال تلك المرحلة المبكرة ، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة[٣]، ووجدت فارسها المخلص الذى حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التى تولى فيها أمر أتابكية الموصل .

ثانيًا : يمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكى – مع عدم إغفال الفارق الزمنى فى صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين انجاز كل منهما– والتى أدت إلى سقوط إمارة الرها Edessa الصليبية عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ، حيث أن مودوداً وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها على نحو نصفه بأنه المقدمة الأولى لجهود زنكى ضدها، على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

ثالثًا : كشفت حملات مودود عن الضعف الذى كانت عليه القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة وعدم اخلاص بعضها لقضية الجهاد ضد الغزاه الصليبيين .

وعلى الرغم من الدور الرائد الذى قام به مودود؛ إلا أننا نجد البعض يرى أن عماد الدين

١– جاد موقف طغتكين من حيث قطع رأس القاتل وحرقه فى سرعة وتعجل، جاء ذلك ليعطى ايحاء برغبته فى إخفاء أداة الجريمة انظر فى ذلك :

ابن القلانسى ، المصدر السابق ، ص١٨٧ حيث يشير إلى الواقعة ، وشاكر مصطفى، المرجع السابق، ص٦١ ، حيث يقدم رأيه المقنع .

٣– عبد الغنى رمضان، شرف الدين مودود، ص١٥٠ .

٤– محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية، ص١١١ .

زنكى هو الذى وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين[١]، وفى هذا اجحاف بدور تلك القيادة السلجوقية ، وقد وجد من المستشرقين من أدرك قيمة دوره من ذلك أن ستيفنس -Ste venson يعتبر حملاته على الشام نقطة تحول مهمة فى تاريخ الاحتلال اللاتينى[٢]، كما أن فنك خصص له دراسة مستقلة واعتبره البطل المسلم الذى سبق صلاح الدين الأيوبى فى أمر الجهاد ضد الغزاه [٣].

وواقع الأمر: أن المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من تاريخ الصراع الإسلامى- الصليبى انبهروا بحجم الانجاز الكبير الذى قام به عماد الدين زنكى من حيث إسقاط أول إمارة صليبية أقيمت فى المنطقة ، فتصوروا أن المراحل السابقة عليه ليست ذات قيمة كبيرة على الرغم من أنها كانت المهدة الحقيقة لانجاز عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ، ولانغفل أيضًا أن الدعاية السياسية الناجحة والفعالة التى قدمها المؤرخ العراقى الفذ ابن الأثير من خلال كتابه الباهر لمؤسس البيت الزنكى قد جعلت المؤرخين يتأثرون بها بصورة أو بأخرى ، على نحو جعل سابقى عماد الدين زنكى فى مثل ذلك «المأزق» من حيث تقويم دورهم التاريخى، ويكفى مودود فخراً أنه نجح فى ضرب الوجود الصليبى فى الجليل، وهى منطقة لم تصل إليها فعاليات المسلمين منذ قرابة عقدين من الزمان، ويكفيه أنه ألحق الهزيمة بمؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية، ونستطيع أن نصل إلى رؤية محددة من خلال أن قادة الجهاد الإسلامى كل يكمل الآخر ولاخصومة بينهم، وما قام به مودود أفاد القائد العظيم صلاح الدين الأيوبى، ولذا فبالإمكان القول، اليوم الصنبرة وغداً حطين ؛ وهذا ما اثبته السياق العام لتاريخ تلك المنطقة فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى .

١- السيد الباز العرينى، مصر فى عصر الأيوبيين، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٢ .

٢- Stevenson, The, Crusaders in The east, p. 87 .

٣- Fink, " Maudud of Mosul precursor of Saladin in " , M.W., vol. XTIII, 1953, pp. 18-37 .

أما من الدراسات المتخصصة بالعربية انظر :

عفاف صبره ، «والأمير مودود بن التونتكين» الدارة، العدد (٢) ، السنة (١٢) عام ١٩٨٦م، ص١٠٩- ص١٣٢ .

والواقع أن الموقف السابق يثبت لنا أن أبطال الجهاد الإسلامي حظ بعضهم كبير من الشهرة، والبعض الآخر حظه محدود وليست المسئولية تعود عليهم ، بل المؤرخون أنفسهم هم الذين يتحملون جانبًا من الأمر يمثل هذه الصورة ، فالمؤرخ الذى تخصص فى شخصية من الشخصيات القيادية الإسلامية فى جهاد الصليبيين ، تصور أن دوره يفوق غيره ، وعمل على إبراز انجازاته، وبالتالى تعصب- لاشعوريًا- لتلك الشخصية ، دون غيرها، بينما الواقع التاريخى يثبت أن حركة الجهاد حينذاك كانت حركة تراكمية ، واللاحق أفاد من السابق وفى بوتقة الجهاد انصهر الجميع سلاجقة ، واكراد ، ومماليك.

على أية حال ؛ عند مقارنة جهد مودود بسابقيه فى صورة كربوغا ، وجكرمش ، وجاولى سقاوه سيتضح لنا أنها أدوار متدرجة ومتصارعة ، فكربوغا انحصر أمره فى نجدة انطاكية ، وجكرمش زاد الأمر من خلال تحالفه مع سقمان بن ارتق على نحو أدى إلى الانتصار فى معركة حران ١١٠٤م / ٤٩٨هـ، أما مودود فإن دوره أكثر تعاظمًا على نحو أدى إلى هزيمة الصليبيين فى معركة الصنبرة عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ ، هو أمر يثبت لنا أنه خلال نحو تسعة أعوام فقط تم الحاق هزيمتين كبيرتين بالصليبيين ، غير أن العقبة القائمة تمثلت فى عدم الافادة من كل من الانتصارين فى اجتياح مناطق الاعداء، وتحقيق انتصار سريع خاطف يصعب على الصليبيين تعويض خسائرهم من جرائه، غير أن بقايا ظاهرة التشرذم السياسى، والتباغض بين القيادات الإسلامية كان عائقًا دون تحقيق ذلك.

مهما يكن من أمر ؛ فإن أتابكية الموصل التى كانت رحمًا لإنجاب أبطال الجهاد ضد الصليبيين، لم تعقم بعد مودود، وها هى تدفع إلى قافلة الجهاد ، قائداً آخر، فى صورة ايلغازى الذى تمكن من تحقيق انتصار كبير على الصليبيين فى معركة ساحة الدم[1] أو موقعة البلاط Field of Blood, Ager Sanguinis فى عام ١١١٩م/ ٥١٣هـ، وفيها تم قتل روجر

١- عن معركة ساحة الدم انظر :

ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، Fulcher of Chartres , p. 226-227 .

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١، ص٥١٧ ؛ فايد حماد عاشور ، جهاد المسلمين ، ص١٦٣ - ص١٦٥ ؛ محمود الحويرى ، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة ، ط. القاهرة ١٩٩٢م ، ص٧٤ .

الأنطاكى، وقد صارت أمارة أنطاكية خالية من أميرها، إلى أن قدم الملك الصليبى بلدوين الثانى Baldwin II (١١١٨-١١٣١م / ٥١٢-٥٢٦هـ) .

لقد كانت تلك المعركة من المعارك المؤثرة خلال تلك المرحلة، وأدت إلى رفع الروح المعنوية لدى المسلمين، والعكس لدى الصليبين، واثبتت لنا وقائع التاريخ أن من الممكن إلحاق هزائم كبيرة بالإمارات الصليبية كما حدث بالنسبة لإمارة انطاكية ، غير أننا لانتصور أن الطريق كان مفتوحًا تمامًا لتقدم ايلغازى إلى المدينة المذكورة[١]، لأنه فى هذه الحالة من المتصور أن الامبراطورية البيزنطية لن تقبل بامتداد السيادة الإسلامية لأية قوة ما محلية إلى حاضرة نهر العاصى المزدهرة انطاكية التى كانت من قبل من أملاك تلك الامبراطورية ، إذ أن هناك اتجاهًا لدى قطاع من المؤرخين المسلمين الذين عاصروا مراحل الحروب الصليبية وجهاد المسلمين فيها عملوا على إبراز «الفرص الضائعة» ، فى حلبة الصراع بين الجانبين، غير أننا ينبغى علينا إدراك أن تلك معطيات العصر، ولم يكن للقادة أكثر مما فعلوا ، فلانتعامل مع المفروض بل الواقع التاريخى فقط .

ومن الملاحظ : أن ذلك التصور لم يكن قاصراً على المؤرخين المعاصرين لأحداث الحروب الصليبية، بل امتد ليشمل قطاعًا من المؤرخين المسلمين المحدثين، مثل العلامة شاكر مصطفى، الذى رأى من قبل بشأن معركة الصنبرة أنها كان من الممكن أن تكون لها نتائج حطين وتؤدى إلى نفس الآثار التى حدثت فى أعقاب المعركة الأخيرة الحاسمة ، وعلق عليها إن حطين تأخرت نحو سبعين عامًا تعليقًا عليها[٢]، وفى تصورى أنها ليست قضية تقديم وتأخير، بل تحميل الأحداث أكثر مما تحتمل من زاوية عقدة «الفرص الضائعة» ، وهو أمر سيستمر حتى فى عصر نور الدين محمود عندما واجه إمارة أنطاكية عدة مرات ولم يسقطها ، وهو أمر سيتم تناوله فى الفصل التالى تفصيلاً .

على أية حال : تواصلت القافلة ، وأشار التاريخ إلى قائد آخر من قادة الجهاد فى صورة أق سنقر ١١١٤-١١١٥م / ٥٠٧-٥٠٩هـ ، ١١٢٩-١١٢٦م/ ٥١٥-٥٢٠هـ ، وقد نجح

١- محمود الحويرى، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، ص٧٤ .

٢- حطين والفرص الضائعة ، مجلة العربى العدد ٣٤٤، يوليو ١٩٨٧م، منشور ضمن كتاب تاريخية وبقايا صور ، ط. الكويت ١٩٨٩م، ص٧١ - ص٨٢ .

فى الاستيلاء على حلب فتأكد بذلك الارتباط بين شمال العراق وشمال الشام من خلال وحدة الموصل وحلب وخضوعهما لسيد واحد، الأمر الذى عكس نتائج سيئة على الكيان الصليبى لاسيما فى شمال الشام، ويعبر أحد المؤرخين عن الموقف قائلاً : «لقد بدأ واضحًا أن اتحاد حلب مع الموصل وخضوعهما لسيطرة البرسقى؛ أضحى يهدد كيان الصليبيين» (١)، وهو أمر يعكس لنا أن قادة الجهاد الإسلامى خلال تلك المرحلة لم يكونوا أصحاب توجهات مصلحية شخصية بعيداً عن دائرة الوحدة والجهاد ، فهم دعاة الاثنين معًا الوحدة والجهاد، وقد أدركوا أهمية تلازمهما من أجل الحصول على أفضل النتائج وأكثرها حسمًا .

وفى خضم دراسة التطور التاريخى لحركة الجهاد ضد الصليبيين : من المهم التنويه إلى دور بلك بن بهرام وهو ابن اخ ايلغازى الذى حكم خرتبرت وأضاف إليها حران، وذلك بعد وفاة ايلغازى وتفكك دولته(٢) وقد عمل على قتال الصليبيين بجسارة وأظهر شدة المراس فى حربهم، ومن أعماله استعادة خرتبرت من قبضة الصليبيين، كما قام بنقل بلدوين الثانى Bald-win II إلى حران ليسجن بها، ثم اتجه إلى منبج للقضاء على قلاقل نشبت بها وخلال حصارها أصيب بسهم طائش فتك به عام ١١٢٤م / ٥١٨هـ (٣).

ومن بعد بلك بن بهرام : ظهر دور فعال من جانب أق سنقر البرسقى، الذى عمل على إخضاع حلب لسيادته السياسية بعد أن حاصرها الصليبيون بقيادة بلدوين الثانى وحلفاؤه من ضعاف المسلمين، ولاريب فى أن ذلك عد من أهم أعماله، ومن زاوية أخرى؛ حارب الصليبيين بقوة وإن تعرض أحيانًا للهزيمة كم حدث له عام ١١٢٥م / ٥١٩هـ ، ويلاحظ أن ذلك القائد المسلم المجاهد تعرض للاغتيال على أيدى الاسماعيلية النزارية وذلك فى عام ١١٢٦م/ ٥٢٠هـ(٤) بالموصل . وهكذا ؛ أثبت الباطنية عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامى فى ذلك

١- عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية، ص١٢٢ .

٢- محمود الحويرى ، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة ، ص٧٧ .

٣- نفسه، نفس المرجع ، ص٧٨ .

٤- عن اغتياله انظر :

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢١٤، ابن الأثير ، التاريخ الباهر ص١٥ ، =

العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقًا نحو تثبيت أقدامهم فى بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامى ، فى ذلك العصر ، معًا فى النهاية الدموية - فى بعض الأحيان- فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود ، والآن نجد أق سنقر البرسقى يلقى نفس المصير، وقد عكس ذلك كله ؛ أن مسلك الاسماعيلية النزارية فى ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاه . نظرًا لوجود عدوين فى وقت واحد أمام القيادات المسلمة السنية، على نحو عكس المشاق البالغة التى واجهت أولئك القادة فى سبيل صنع تاريخ أمتهم .

وفى واقع الأمر : كشفت كافة التطورات السابقة لنا عن حقيقة محورية وهى أن الانقسام، والتصارع المذهبى فى داخل المعسكر الإسلامى كان وراء كل إعاقة لحركة الصحوة الإسلامية ضد الغزو الصليبى، ولا مراء فى أن الكيان الصليبى أفاد تمامًا من ذلك الوضع فى تدعيم جذوره فى المنطقة ؛ طالما أنها لم تستأصل عوامل انقسامها وتشرذمها السياسى.

وعلى الرغم من ذلك التصور ؛ إلا أن حركة الجهاد طورت نفسها ذاتيًا ، وتمكنت من تحقيق إنجاز غير مسبوق فى صورة إسقاط أولى الإمارات الصليبية فى المنطقة وهى الرها Edessa وهو ما تم على يدى أتابك الموصل عماد الدين زنكى ، (١١٢٦-١١٤٦م / ٥٢١-٥٤١هـ) الذى تمكن من تحقيق ذلك الهدف المنشود عام ١١٤٤م/ ٥٣٩هـ [(١)].

= ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ، ص٢٤٢- ص٢٤٣ ، رشيد الجميلى، دولة الأتابكة بالموصل بعد عماد الدين زنكى، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص٤٤ ، محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية، ص٢٣٠، سعيد الديوجى، الموصل فى العهد الأتابكى، ط. بغداد ١٩٥٨م، ص١٩ .

١- عن إسقاط الرها انظر : William of Tyre, vol. II, p. 140-143 .

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٧٩، ابن الأثير ، الباهر ، ص٦٨ ، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢، ص٢٧٨ - ص٢٧٩ ، الأصفهانى، تاريخ دولة آل سلجوق، ط. القاهرة ١٩٠٠م، ص١٨٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ط. القاهرة ١٩٣٥م ص١٩ ، اليافعى ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ٣ ، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٤٨هـ، ص١٧٥ ، عليه الجنزورى ، إمارة الرها الصليبية ، ط . القاهرة ١٩٨٦م، ص٢٩٥- ص٣١٢ .

والواقع : أن هناك العديد من العوامل التى ساعدت على تحقيق زنكى لذلك الهدف[1] ، فهناك تنامى حركة الجهاد الإسلامى حتى عصره وحصاد تجربة المسلمين فى ذلك المجال، فلاريب فى أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكى تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط فى أيدى قادة الجهاد الإسلامى حينذاك ، وقد اجهدها أمر الإغارات المستمر من جانب اتابكة الموصل على نحو خاص طوال ما يزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مثل موتًا بطيئًا لها إلى أن تم الإجهاز عليها فى العام المذكور ، ويضاف إلى ذلك براعة زنكى العسكرية الذى فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثانى Jocelin II عنها، ووجه لها ضربته القاضية التى انتهت بإسقاطها ، وهكذا أثبت ذلك القائد المسلم أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكرى الكبير .

زد على ذلك : أن الخلاف الواقع بين إمارتى الرها وأنطاكية أثر بدوره على إمارة الرها، وأدى إلى إجهادها واستهلاكها سياسيًا، وعسكريًا[2] على نحو أثبت أن الخلافات التى كانت تحدث بين القيادات الصليبية أثرت بدورها على كياناتهم السياسية وها هى - لحسن الحظ- إمارة الرها تدفع الثمن بأن سقطت فى قبضة من استحقها من قادة الصحوة الإسلامية فى ذلك الحين .

ولانغفل - من ناحية أخرى- شخصية أمير الرها جوسلين الثانى، الذى لم يكن على نفس القدر من الكفاءة السياسية والعسكرية التى اتصف بها والده جوسلين الأول، وكان أميل إلى

Alptekin (C.), The Reign of Zangi (521-541 / 1127-1146), ATaturk University , Er- = zurum 1978, pp. 64-65 .

Gibb CH.) , "Zengi and the fall of Edessa", in Setton , A History of The Crusades, vol . I, p. 461 .

١- أنفضل تحليل لعوامل سقوط الرها سواء كانت عوامل داخلية أو خارجية نجدها لدى الدراسة المتخصصة التالية:

عليه الجنزورى ، امارة الرها الصليبية، ص٢٩٥- ص٣١٢ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص٢٩٥ .

حياة الخلاعة والمجون والسعي الحثيث إلى الملذات ، بل كثيراً ما غادر مدينة الرها ذاتها واتجه إلى تل باشر من أجل أن يجد هناك ما يبحث عنه من صور الفساد[١] ، ولذلك أدرك فيه المسلمون تلك الزاوية فأحسن قائدهم الإفادة منها وهاجم الرها وقت أن غاب عنها جوسلين الثاني، فأصابها في مقتل. وهذا الوضع يكشف لنا عن أن الجيل الصليبي الذي حل بعد الجيل الأول الذي أسس الكيان الصليبي وحافظ عليه، لم يكن قادراً على الحفاظ على ما شيده السابقون بل لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخي في ذلك الموقع الشديد الحساسية الذي أحاطه المسلمون من كل جانب ، وهكذا شارك جوسلين الثاني- دون أن يدري- في إنجاح حركة الجهاد الإسلامي حينذاك بقيادة قائدها الكبير عماد الدين زنكي.

على أية حال ؛ من الممكن ملاحظة أن من المؤرخين الغربيين من حاول إظهار عوامل الضعف الداخلي في إمارة الرها ، وجعل تلك العوامل وحدها هي التي أدت إلى إسقاطها ، وهدف من وراء ذلك إضعاف فعاليات المسلمين السياسية والحربية .

غير أن المنطق التاريخي يدعونا إلى تصور أن العوامل الداخلية والخارجية تعاونت معًا من أجل صنع انتصار عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ، ومهما كان شأن عوامل «النحر» و«الانتحار» الداخلية ونتائجها في الرها فإنها ما كانت لتسقط دون الفعاليات العسكرية لقائد موهوب مثل عماد الدين زنكي ، وجنوده من خلفه .

وبصفة عامة؛ وجد زنكي المؤرخ الذي قدم لها الدعاية السياسية التي يستحقها بعد تحقيق ذلك الانتصار الكبير، وتمثل ذلك في المؤرخ العراقي الفذ ابن الأثير ربيب البيت الزنكي ، الذي جعله يحتل مكانة سامية ضمن كتابه الباهر، بالاضافة إلى الكامل، وإن كان الكتاب الأول أكثر اسهامًا في الجانب الدعائي حينذاك ، وأود أن أشير هنا إلى أهمية الجانب الدعائي في تاريخ الصليبيات سواءً لدى الصليبيين أو لدى المسلمين، إذ لعبت الدعاية السياسية دورها الفعال في ذلك العصر ، ولاريب في أن دعاية ابن الأثير لعماد الدين زنكي في مؤلفيه ؛ كانت محفزة للآخرين ممن يأتون من بعده من أجل أن يحزوا حزوه ، وهو أمر سيتزايد في العصر الأيوبي على نحوخاص ، على نحو سيدعم قضية الجهاد.

١- عليه الجنزوري، إمارة الرها الصليبية ، ص٢٩٧ .

مهما يكن من أمر : فإن القدر الأسود كان ينصب شباكه الآثمة حول ذلك الفارس المغوار، وبعد عامين فقط من تحقيق انتصاره الكبير، كان أحد رجاله ويدعى «برنقش» يدخل التاريخ من أبوابه الخلفيه باغتياله لزنكى خلال نومه، وذلك عام ١١٤٦م / ٥٤١هـ [١]، وهكذا عادت من جديد ملامح السمه التى وجدناها لدى عدد من قادة الجهاد فى صورة النهاية الدموية المأساوية، مودود، ومن بعده أق سنقر، والآن زنكى، وذلك قدر الرجال العظام فى عصر وجد فيه من الأقزام ممن لايعترفون بأدوارهم الشامخة .

أما النتائج التى نتجت عن إسقاط الرها عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ فهى متعددة، وتكشف لنا عن ثراء الانجاز الذى تحقق، بعد طول لأى ، وكبير مشقة.

فلقد تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامى وصلت إلى سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون فى ذلك إجحاف بانجازات القادة السابقين على زنكى لاسيما مودود- وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية ، واليوم اسقاط الرها وغداً إسقاط باقى الكيان الغازى الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء ، وانجاز.

زد على ذلك : تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة ، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسى والعسكرى الدخيل ، وبالتالى عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبى الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق وكذلك بلاد فارس[٢].

ولانغفل أن باسقاط الرها: زاد الضغط على النطاق الصليبى الذى اتخذ شكلاً طوليا من انطاكية فى الشمال إلى ايلات (أم الرشراش) جنوبًا ومن نهر الأردن شرقًا إلى الساحل الشامى - باستثناء عسقلان إذ أن صور سقطت بالفعل عام ١١٢٤م / ٥١٨هـ- بما اشتمله من إمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس الصليبية ، فالمؤكد أن رأس البلطة الصليبية التى تمثلت

١- عن اغتيال عماد الدين زنكى انظر:

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٤ - ص٢٨٥ ، ابن الأثير، الباهر، ص٧٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ص٢٨٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص٩٨ ، علية الجنزورى، إمارة الرها الصليبية، ص٣١٢- ص٣١٤ .

٢- سوسن محمد نصر، منطقة الجزيرة الفراتية ، ص٩٨ .

فى الرها سقطت إلى غير رجعة ، والآن أصبح ذراعها قائمًا فى باقى الكيان الصليبى ، ولذلك ازداد الضغط العسكرى عليه من قبل القوى الإسلامية التى سيطرت على الظهير الشامى الموازى للساحل والسهل الساحلى، وكأن المعركة صارت - على المستوى الجغرافى- معركة بين الساحل والظهير ، واعتمد الأول على الدعم الخارجى الأوربى فى الأساس، واعتمد الثانى على امكاناته المحلية الوافرة التى تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين .

ومن جهة أخرى؛ أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعى الاستراتيجى القائم بين الكيان الصليبى فى الشرق، والرحم الأم فى الغرب الأوربى ، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسى والتاريخى فى الشرق أن ينهار قطعة قطعة ، بل لابد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاض فعاليات أتابكية الموصل، ومن ثم كان قيام صليبية ١١٤٧-١١٤٩م / ٥٤٢-٥٤٤هـ التى اشتهرت بالصليبية الثانية ، وهى من النتائج المباشرة لإسقاط الرها عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ، وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامى ؛ حاربوا قوى عالمية ، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية وأنهم بالفعل كانوا جزءًا من صراع قارى أو عالمى على نحو يجعل لهم مكانة بارزة فى تاريخ المسلمين - عامة- فى المرحلة القروسطية لاسيما عصر الصليبيات .

ويبقى من بين النتائج العديدة التى نتجت عن ذلك الانجاز، ارتفاع شأن عماد الدين زنكى إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلى محدود النطاق والفعالية ، تردد اسمه سريعًا فى الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً فى مجرى أحداث الشرق اللاتينى، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين ؛ فقد احتل مكانة بارزة، وجاء اغتياله الآثم ليوصف من بعد «بالشهيد» وليصبح بطلاً مجاهداً سفك دمه على نحو دراماتيكى ، وعلى أية حال؛ فإنه يعد صاحب أكبر انجاز حققه المسلمون منذ قدوم الصليبيين إلى المنطقة، ونجاحهم فى زرع كياناتهم فيها.

وفى ختام التعرض للدور التاريخى لعماد الدين زنكى فى الرها؛ نتعرض لآراء المستشرق الأمريكى جون لامونت John La Monte [١]، وهو يعد واحداً من أبرز المؤرخين الأمريكيين خلال

١- مؤرخ أمريكى ولد عام ١٩٠٢م، اهتم على نحو خاص بتاريخ الحروب الصليبية ، وله دراسات رائدة فى هذا المجال، خاصة كتابه عن الملكية الاقطاعية فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، وشارك بدور بارز فى مشروع كتاب سيتون وبلدوين ، عن تاريخ الحروب الصليبية وقد توفى فى ٢ أكتوبر ١٩٤٩م.عنه أنظر : =

النصف الأول من القرن الحالى، وتعددت مؤلفاته فى مجال الصليبيات ، ولاسيما دراسته الوافية عن الملكية الاقطاعية فى مملكة بيت المقدس اللاتينية[1] ، غير أن له دراسة أخرى عنوانها الحرب الصليبية والجهاد[2] ضمن كتاب التراث الإسلامى الذى نشره نبيه فارس وفي هذه الدراسة؛ ؛ اتجه لامونت إلى تفنيد فكرة الجهاد عند المسلمين حينذاك ، وتصور تحرك قادة الجهاد الإسلامى حينذاك على أنه من خلال الدوافع السياسية والاقتصادية فقط .

على أية حال ؛ ذكر لامونت «أن زنكى ينبغى ألايعتبر بأى حال من الأحوال بطل الجهاد، فإن عماد الدين وإن كان يطمح فى استرجاع الرها منذ وقت طويل كما يقول كمال الدين بن العديم ، لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً ، وإلا بعد أن حثه على ذلك أمير حران جمال الدين أبو المعالى فضل الله بن ماهان الذى بين له سهولة احتلال المدينة [3]، ويستمر فى تصوره قائلاً «الظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجًا عن سياسته وعملاً قام به بناء على تحريض الآخرين»[4]، وذكر أيضًا «أن استيلاء زنكى على حماه ، وحمص ، وحلب ، وحروبه ضد الارتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا لاءم ذلك حاجته»[5] .

= محمد مؤنس عوض، فصول ببليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص١٥٣ ، نجيب العقيقى، المستشرقون ، جـ٢ ، ط. القاهرة، ص١٩٧ - ص١٩٨ .

١- La Mont , The Feudal Monarchy in the latin kingdom of Jerusalem , New York 1970.

٢- la Monte , The Crusade and Jihad , in Islamic Heritage, ed. by Nabih Faris, Princeton. 1944 .

وقد أفدت من الترجمة العربية :

جون لامونت ، الحرب الصليبية والجهاد ضمن كتاب دراسات اسلامية ، ت. نقولا زيادة ط. بيروت ١٩٦٨م.

٣- جون لامونت ، الحرب الصليبية والجهاد ضمن كتاب دراسات إسلامية ت. نقولا زيادة ، ط. بيروت ١٩٦٨م، ص١١٢ ، وانظر رواية ابن العديم المشار إليها، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٢٧٩ ، ورواية مشابهة فى بغية الطلب ، تحقيق على سويم، ص٢٥٩ ، ص٢٦١ .

٤- جون لامونت ، المرجع السابق، ص١١٢ .

٥- نفسه، نفس المرجع ، ص١١٢ .

ومن الممكن تفنيد تلك الآراء على النحو التالي:

أولاً : كان اتجاه عماد الدين زنكي لمهاجمة الرها متأخراً وذلك أمر لايقلل البتة من دوره الجهادي خاصة أنه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية في صراعاته وحروبه معها ضد حصونها ومعاقلها ، ثم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبرغور دفاعاتها، ومعرفة نقاط الضعف فيها، وكذلك نقاط القوة ، ومن ناحية أخرى، من الطبيعي تصور أن نصيحة أمر حران لزنكي باسقاط الرها لم تكن لتغير من الموقف شيئًا لو لم يكن زنكي قد خطط مسبقًا لذلك ، بل أغلب الظن أن سقوط تلك الإمارة من الصعب تصور حدوثه على النحو الذي يصوره لامونت ، بل أنها في الأغلب كانت في مخططات الزنكيين منذ أمد بعيد، أما تعليل عدم تبكير زنكي بالاستيلاء عليها، فذلك مرجعه إلى عدم رغبته في اجهاض قوته الحربية في صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه المبكرة ، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرها - على نحو ما فصلته المصادر اللاتينية والسريانية والعربية- يعتبر بحق من أبرز دلائل حنكة زنكي السياسية .

ثانيًا : يبدو أن إدعاء لامونت بأن إسقاط الرها كان بعيداً عن سياسة عماد الدين زنكي؛ هو أكبر الإدعاءات التي لاتجد سنداً تاريخيًا يدعمها ، فمن المعروف أن زنكي كان مشتركًا في جيش مودود ، وبنص عبارة ابن الأثير «شهد معه حروبه» [١]، ولاريب في أنه أدرك أهمية إسقاط الرها، بل إن ذلك الحلم ترسب في ذهنه منذ زمن بعيد والمتصور أنه أراد النجاح فيما أخفق فيه مودود من قبل، وقد اعتقد أن إسقاطها أمر ضروري على اعتبار أنها الهدف الصليبي الأقرب إلى الموصل ، كما أن تحقيق مثل ذلك الهدف من شأنه تيسير اتصاله بشمال الشام، وخاصة من خلال رؤيته التوحيدية الثاقبة .

ثالثًا : إن افتراض لامونت بأن زنكي كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية ، افتراض يدعم حنكة زنكي السياسية ، فقد لجأ إلى عقد الاتفاقيات مع الصليبيين أحيانًا من أجل التقاط الأنفاس ، وعدم الوقوع في آتون جبهتين جبهة الشرق بصراعه مع قواه السياسية وجبهة الصراع مع الصليبيين ، ثم أنه أراد أن يبعث الطمأنينة في نفوس الأخيرين من خلال مثل تلك الاتفاقات ، في حين كان يبطن النيه للاجهاز على الرها ، ولذا جاءت عمليات الحصار من جانبه نحوها أمراً مفاجئًا لأهلها .

١- الباهر، ص١٧ .

رابعًا : أما القول بأن زنكي لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرها؛ بل إنه كان يسعى أيضًا إلى بناء دولته على حساب جيرانه سواء المسلمين أو الصليبيين فينبغي ملاحظة أن كافة القيادات الإسلامية التي ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين وساهمت في قضية الجهاد؛ كان لديها طابع ما من الطموح السياسي، وكانت تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية المجاورة لها ، غير أن العبرة هنا بأن الطموح السياسي- كما أشرت من قبل- يتم تفجيره في قضية الأمة بأسرها وهي الجهاد ، لأن مثل تلك القيادات كان من الممكن أن ترضى العيش في ذلة، وانكسار مع الصليبيين ولاتتوسع على حسابهم تجنبًا لإثارة المشكلات السياسية معهم ولسقوط القتلى والجرحى بل وتعرض مناطق نفوذها الأصلية لاعتداءات الغزاة غير أنها رفضت ذلك وقبلت التحدي الصليبي وأظهرت قدرتها على تغيير الجغرافية السياسية للمنطقة من خلال تبنيها لمشاريع الجهاد.

خامسًا : لايخفى على دارسي تاريخ العلاقات الإسلامية مع القوى المسيحية في المرحلة القروسطية ، كيف أن قطاعًا من المستشرقين حرص على سلب المسلمين انجازاتهم، وشككوا في المراحل الناصعة من تاريخهم ، كما أن هناك ثأراً ملازمًا ذلك القطاع منهم لاسيما مع فكرة الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام ولذلك حرصوا الحرص أجمعه على انكارها، والتشكيك فيها، والاساءة إلى كافة التجارب الجهادية الماضوية للمسلمين، حتى لايتبنوها في الحاضر والمستقبل، وهكذا من الممكن التقرير- بموضوعية ودون اعتساف في الأحكام- أن عصر الحروب الصليبية شهد نقلة نوعية في تطور فكرة الجهاد في الإسلام ، حيث أن الجهاد هذه المرة ضد عدو استقر على الأرض العربية ، بعد ضعف المسلمين من جراء صراعاتهم مع بعضهم البعض، فإذا ما أدركنا أن هويتهم الدينية كانت في خطر أمام مشاريع التنصير التي علقت عليها البابوية آمالاً كباراً ، أدركنا كم كانت فكرة الجهاد فكرة محورية في عصر الصليبيات.

ذلك عرض لتطور حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين من كربوغا حتى زنكي على مدى المرحلة الزمنية الممتدة من ١٠٩٨ - ١١٤٦م/ ٤٩٢-٥٤١هـ. أما الفصل التالي ؛ فإنه يتناول تطور الصراع الإسلامي- الصليبي خلال مرحلة توازن القوى فيما بين ١١٤٦- ١١٧٤م / ٥٤١ -٥٧٠هـ.

الفصل السادس

الصراع الإسلامى- الصليبى فى مرحلة توازن القوى

من ١١٤٦-١١٧٤م / ٥٤١-٥٧٠هـ

يتجه هذا الفصل إلى دراسة الصراع الإسلامى- الصليبى خلال مرحلة توازن القوى الممتدة من ١١٤٦م / ٥٤١هـ حتى عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ، وهى مرحلة فعالة من مراحل الصراع بين الفريقين وامتدت من اغتيال زنكى بطل إسقاط الرها، حتى وفاة ابنه نور الدين محمود .

ومن الملاحظ : أن المرحلة التاريخية المذكورة تعد مرحلة وسطى فى تاريخ العلاقات الدولية شرق البحر المتوسط فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، ويمكن إدراك مكانتها الصحيح من المسار العام للأحداث من خلال القول بأنها مهدت الطريق لتحقيق الانجاز التاريخى البارز لعام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، ونعنى به إسقاط المملكة اللاتينية فى القدس على أثر معركة حطين الحاسمة، ثم لانغفل أن المرحلة المذكورة بذلك تعد مرحلة وسطى بين إسقاط الرها من ناحية ، وإسقاط القلب الصليبى فى القدس من ناحية أخرى ، وقد ارتبطت العلاقات بين الشرق والغرب حينذاك بعدد من كبار الشخصيات السياسية سواءً لدى المسلمين أو الصليبيين، فعلى المستوى الإسلامى: نجد نور الدين محمود (١١٤٦-١١٧٤م / ٥٤١-٥٦٩هـ) مع عدم إغفال أهمية الدور الذى لعبه صلاح الدين الأيوبى خلال تلك المرحلة، ثم هناك على المستوى الصليبى الملك بلدوين الثالث Baldwin III (١١٤٤-١١٦٢م / ٥٣٩-٥٥٧هـ) [1]، وكذلك الملك عمورى الأول Amaury I (١١٦٢-١١٧٤م / ٥٥٧-٥٦٨هـ)[2]، وهما من ملوك بيت المقد الصليبية ولانغفل قيادات صليبية أخرى ، مثل ريموند دى بواتيه Raymond de poitiers (١١٣٦-١١٤٩م / ٥١٩-٥٤٣هـ)[3] أمير أنطاكية

١- عنه أنظر : William of Tyre vol . II , pp. 136-294.

٢- عنه أنظر : William of Tyre , vol. II, pp295-396 .

٣- عنه انظر : William of Tyre , vol. p. 218.

Rey , " Resume Chronologique de L'Histiore des Princes d'Antioch, R.O.L., IV, Année 1890, pp. 347 .

شـاتيـون Reynauld de Chatillon المعـروف فـي المصـادر العـربيـة بـاسم ارنـاط[1] (١١٥٣-١١٦٢م/ ٥٤٨-٥٥٧هـ) ، وأيضًا بوهيمند الثالث[2] Bohemond III (١١٦٣-١٢٠٠م/ ٥٥٨-٥٩٥هـ) وهم من أمراء إمارة أنطاكية الصليبية، ولانغفل كذلك أحد أبرز أباطرة الامبراطورية البيزنطية حينذاك فى صورة الامبراطور مانويل كومنين[3] (١١٤٥-١١٨٠م / ٥٤٠-٥٧٥هـ) .

وبداية : أود التقرير ، أن السمه العامة على طبيعة تلك المرحلة التاريخية، أنها كانت مرحلة توازن قوى، ولم تكن مرحلة حسم، فالمؤرخون الذين استهوتهم أحداث انهيار الكيانات

١- عنه أنظر :

Otto of St. Blasion , The Third Crusade from the chronicle of Otto of St. Blasion , in Thatcher, Source, Book of Medieval History, New York 1903 , p. 529-530 .

مجهول ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، ص١٠٥ ، ابن ايبك الدوادارى، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤٠٩ تاريخ ، ورقة (٤٩٨)، السلامى، مختصر التواريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٤٣٥ تاريخ ورقة (٥٨) ، محمود رزق محمود ، العلاقات بين ارناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبى حتى موقعة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس عام ١٩٧٧م.

Schlumberger, Renauld de Chatillon, prince d'Antioch, Paris 1933.

٢- عنه أنظر : William Of Tyre , vol. II, p. 311 .

٣- عنه أنظر :

Cinnamus, The Deeds of John and Manuel Comnenus , Trans. by Charles M. Brand , Columbia 1976 .

أما أحدث وأفضل دراسة أكاديمية عن ذلك الامبراطور؛ فهى التى أعدها بول ماجد ولينو بعنوان : امبراطورية مانويل كومنين ١١٤٣-١١٨٠ الصادرة من جامعة كمبردج عام ١٩٩٧م ، ووقعت فى ٥٥٧ صفحة فهى بالفعل أشمل دراسة حتى الآن عنه انظر :

Magdalino , The Empire of Manuel I Komnenos, Combridge 1997.

أما سياسته الشرقية فقد درسها باقتدار محمود سعيد عمران : محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد مانويل كومنين ، ط. الاسكندرية ١٩٨٥ م.

السياسية وسقوطها فى عصر الصليبيات ،أحيانًا لم يدركوا طبيعة تلك المرحلة ، واتسمت أحكام بعضهم خلالها على عدد من الأبطال التاريخيين بالقسوة وعدم التوازن أحيانًا ، ولذا ؛ فمن المفترض التقرير بداية على أن تلك طبيعة المرحلة، وكافة الأحداث التاريخية خلالها ستدور حول ذلك المحور الأساسى، ومن بعد ذلك ستظهر فى الساحة مرحلة أخرى- تعد وبحق نتيجة طبيعية للمرحلة الأولى- فى صورة مرحلة الحسم حيث تتغير خريطة التوزيعات السياسية فى المنطقة إلى درجة كبيرة.

على أية حال ؛ سيتم تناول العلاقات بين نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى، وهو الذى ظهر فى ساحة الصراع حينذاك فى أعقاب اغتيال والده، وكافة القوى الصليبية فى المنطقة.

ولنبدأ بتناول العلاقات بين الدولة النورية والإمارات الصليبية ، وفى هذا الصدد، نجد أن جوسلين الثانى حاول استرداد امارته المفقودة الرها فى عام ١١٤٧م / ٥٤٢هـ، وذلك بعد مقتل عماد الدين زنكى، بمساعدة العناصر الأرمينية داخلها [١]، وأمكنه عبور نهر الفرات Euphrates فى أكتوبر ١١٤٧م / ربيع الثانى ٥٤٢هـ، وساعده الأرمن على فتح أبوابها والاستيلاء عليها[٢]، وإن عجز عن قلعتها [٣]؛ نظرًا لمناعتها وتجهيزها بالرجال والمعدات ، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها[٤].

١- سبط الجوزى ، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١ ، ص١٩١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩٠ ، النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٢٧ ، تحقيق سعيد عاشور، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص١٥٢ .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 158.

٣- Ibid, vol. II, p. 158.

ابن العديم ، المصدر السابق، ، جـ٢ ص٢٩٠ .

Rohricht, Beitrage Zur Geschichte der Kreuzzuges, Easter Band, Berlin 1974, p. 313.

٤- William of Tyre, vol. II, p. 158.

وعن محاولة جوسلين الثانى أنظر :

يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ت. قاسم عبده قاسم ومحمد خليفه حسن ، ط. القاهرة ١٩٨١م، ص٦٩ .

وأمام هذا الموقف ؛ هب نور الدين إلى انقاذ الرها ، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين الثانى بالفرار [١]، وقد قامت القوات النورية - وفقًا للمؤرخ السريانى المجهول- بسلب المدينة ونهبها، كعقاب لأهلها على تمردهم وغنمت من وراء ذلك الغنائم الوفيرة[٢].

والواقع أن نور الدين محمود هدف من وراء ذلك إلى انقاذ الانجاز الكبير الذى تم خلال عهد والده باخضاع أولى الإمارات الصليبية كذلك أراد ايقاف محاولات الصليبيين التوسع فى منطقة شمال العراق، زد على ذلك ؛ أن عودة الرها للسيادة الصليبية أمر من شأنه توجيه ضربة قوية لخطر الدفاع الاستراتيجى القائم بين الموصل وحلب ، والذى حرص نور الدين محمود على عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة[٣].

ولاريب فى أن محاولة الصليبيين الاستيلاء على الرها، قد زادت من إدراك نور الدين لأهميتها فى الصراع الإسلامى- الصليبى، وأهمية زيادة دفاعاتها لمواجهة الأطماع الصليبية.

من ناحية أخرى ؛ وقع صدام عسكرى بين قوات القائدين عندما حاول نور الدين الاستيلاء على بعض الأملاك التابعة لجوسلين الثانى، وتمكن الأخير من إلحاق الهزيمة بنور الدين محمود عام ١١٥٠م/ ٥٤٥هـ[٤] واستطاع أسر عدد من قادة الجيش النورى ، ويبدو أن تطور الأحداث بمثل هذه الصورة دفع نور الدين إلى التفكير فى أسره من أجل حرمان الصليبيين

١- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٨، ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى، تحقيق نيكيتا اليسيف، مجلة الدراسات الشرقية م (٢٥) عام ١٩٧٢م، ص١٣٦

B.E.O., TXXV, Annéc 1972.

٢- Anonymous Syriac Chronicle, The First and Second Crusade, Trans by Tritton , J.R.A.S., 1933, p. 161 .

٣- محمد مؤنس عوض ، فى الصراع الإسلامى - الصليبى السياسة الخارجية للدولة النورية، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص١٦٦ .

٤- ابن الأثير ، الباهر، ص١٥٤ ، ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول ، ص٢١٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٠١، ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ١ ، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ص١٢٣ ، النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٧ ، ص١٥٦ - ص١٥٧ .

من قيادة مهمة، وبالفعل تم له ذلك فى نفس العام المذكور[١] وظل فى الأسر تسعة أعوام إلى أن أدركته منيته عام ١١٥٩م/ ٥٥٤هـ [٢].

ويلاحظ أن النتيجة المنطقية لأسره تمثلت فى الاستيلاء على عدد من أملاكه مثل تل باشر، وعين تاب، واعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، ودلوك وغيرها من المناطق[٣]، ومن المهم إدراك أن نور الدين محمود هدف من وراء الاستيلاء على تلك المناطق تأمين خطوط التجارة بين حلب والموصل، وكذلك بين حلب ودولة سلاجقة الروم والامبراطورية البيزنطية، ووقوعها غرب نهر الفرات أمر له أهميته الكبيرة؛ إذ أنها - على ما يبدو- فرضت نوعًا من النفوذ على حركة التجارة بين شرق الفرات وغربه وعلى نحو خاص فى الجزء الشمالى من بلاد الشام[٤].

ذلك أمر إمارة الرها؛ وقد اتضح لنا كيف أن تلك القيادة الإسلامية عملت جاهدة على الحفاظ على المكاسب السابقة ومنع الصليبيين من محاولة إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، وهو أمر يكشف لنا عن استمرارية دور الأب من خلال الابن وهو ما تم بالفعل فى صورة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود حيال تلك الإمارة الصليبية

١- ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص٦٢- ص٦٣، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٠٢، ابن قاضى شهبه، الكواكب الدرية فى السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط. بيروت ١٩٧١م، ص١٣٦- ص١٣٧.

وعن مناقشة التحديد الزمنى لأسره انظر:

محمد مؤنس عوض، فى الصراع الإسلامى- الصليبى، ص١٦٧، حاشية (١).

٢- William Of Tyre, vol. II, p. 201, note, (26), Stevenson, The Crusaders, in The east, p. 181.

٣- ابن العديم، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٠٢- ص٣٠٣، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص١٢٤، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ص٢٠٢، ابن الشحنة، روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر، بهامش جـ٨ من الكامل لابن الأثير، ط. القاهرة ١٢٩٠هـ، ص٥٥، النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٧، ص١٥٧.

٤- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق ص١٦٦.

أما علاقات نور الدين محمود تجاه إمارة انطاكية، فالملاحظ: أنها اتسمت بتعدد المعارك

الحربية التي وقعت بين الجانبين ، من ذلك معركة يغرى[١] في نوفمبر ١١٤٨م / رجب ٥٤٣هـ، وقد اختلف المؤرخون من حيث انتصار المسلمين[٢] أو هزيمتهم فيها[٣] ، وذهب البعض إلى القول بأن المعركة وقعت في مرحلتين ، مرحلة حالف النصر فيها الجيش النورى، ومرحلة أخرى منى فيها بالهزيمة وعلى ذلك أغفلت المصادر العربية الهزيمة وأبرزت الانتصار[٤]. ومع ذلك فالمنطقة يدعونا إلى القول بانتصار الجيش النوري فقد أكدت المصادر إرسال الغنائم والأسرى إلى إخوته وإلى الخليفة العباسى [٥]، وبديهى أن نور الدين محمود ما كان ليجرؤ على اتخاذ مثل تلك الخطوة- لو لم يحقق الانتصار فى ساحة الوغى.

ومن بعد ذلك ؛ وقعت معركة أنب[٦] في يونيه ١١٤٩م / صفر ٥٤٤هـ، وقد حقق الجيش النورى فيها انتصاراً كبيراً وتم قتل ريموند دى بواتيه، وعدد كبير من كبار قادة الصليبيين[٧]،

١- وقعت يغرى على النهر المعروف باسمها حيث صب فى بحيرة انطاكية أنهار ثلاثة ، النهر الأسود إلى الشرق، ونهر يغرى فى الوسط، ونهر عفرين إلى الغرب، ووقعت يغرى إلى الشرق من دربساك فى شمال انطاكية عنها انظر :

ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٩٢، حاشية (٤)، محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد مانويل كومنين، ص١٦٨، حاشية (٢) .

٢- ابن العديم المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٩٢ ، ابن الوردى، تتمة المختصر فى أخبار البشر، ط. القاهرة ب.ت ، ص٤٨ ، حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨١م، ص٢٣٣ .

٣- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٢- ص٣٠٣ .

Anonymous Syriac Chronicle, p. 300 .

٤- حسن حبشى، نور الدين والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص٧٩ .

٥- ابن الأثير ، الكامل، جـ١١ ، ص٥٥ .

٦- وقعت أنب ضمن اعمال اعزاز فى شمال الشام عنها ، كرد على، خطط الشام ، جـ٢ ، ط. دمشق ١٩٢٥م، ص٢٣ .

٧- عن تفاصيلها انظر :

Anonymous Syriac chronicle ,p. . 300 , Elisseff, Nur Al.Din, un prince Musulman au Temps des croisades T. II, Damas, 1967 . p. 430 - 432 .

ويلاحظ أن الاسماعيلية النزارية وقفوا خلال المعركة إلى جانب الصليبيين ؛ مما كشف بجلاء عن حقيقة دورهم خلال تلك المرحلة وجاءت جثة مقدمهم على وفا الذى لقى مصرعه خلالها ؛ دليلاً على التواطؤ والتعاون مع أعداء الإسلام[١].

ولانزاع ؛ فى أن انتصار أنب يعد من أهم انتصارات نور الدين محمود خلال تلك المرحلة المبكرة من حكمه ، ولذا يعد نقطة تحول مهمة فى صراعه مع الصليبيين لاسيما إمارة انطاكية ويلاحظ أن وقوع معركتين كبيرتين خلال ثمانية شهور فقط ؛ دل على احتدام الصراع بينهما وسعى نور الدين الأكيد إلى إضعاف تلك الإمارة الصليبية التى مثلت تهديداً أساسياً لشمال الشام وأملاك المسلمين هناك .

ومن الملاحظ أنه فى أعقاب تلك المعركة والهزيمة الفادحة التى أصيب بها الصليبيون ؛ صار الطريق مفتوحًا أمام مدينة أنطاكية غير أن نور الدين محمود لم يدخلها وتعليل ذلك أن الامبراطورية البيزنطية لم تكن لتقبل زيادة نفوذ أية قوة إسلامية فى حوض نهر العاصى وعاصمته المزدهرة انطاكية ، وقد كان من الممكن أن تقبل سيادة صليبية على المدينة إلى حين عودتها إلى الحضن البيزنطى لكن لم تكن لتقبل ذلك من جانب أية قوة إسلامية محلية فى المنطقة ، ومن المهم أن ندرك ذلك التعليل على نحو واضح حتى لايتصور البعض أن هناك فرصًا ضائعة لم يحسن المسلمون حينذاك الإفادة منها ، فالمرحلة تلك كانت امكانات قادتها ، وتلك كانت الخطوط الحمراء التى لم يكن من الممكن تجاوزها .

من ناحية أخرى؛ اتجه نور الدين محمود إلى أسر أمير أنطاكية رينو دى شاتيون مثلما فعل ذلك من قبل مع جوسلين الثانى[٢]، وبالفعل تم أسره حوالى عام ١١٦٢م/ ٥٥٨هـ[٣] على نحو بعث الاضطراب فى تلك الإمارة الصليبية، وبصورة عكست أن أسلوب أسر حكام الإمارات الصليبية ؛ مثل أفضل الأساليب حينذاك التى من خلالها يتم إضعاف ذلك الكيان الصليبى وبعث الاضراب والفوضى فى صفوف أبنائه بصورة أو بأخرى .

١- عن مقتل على بن وفا انظر : ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٤، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢، ص٢٩٨- ص٢٩٩ .

٢-عن أسر رينودى شاتيون انظر :

Anonymous Syriac Chronicle, p. 303 . William of Tyre, vol . II, p. 283-284 .

السيد الباز العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٦١٩- ص٦٠٢ ، مسفر الخالدى، الجهاد ضد الصليبيين، ط. جدة ١٩٨٦م، ص٢٦٧- ص٢٦٨ .

٣- عن ذلك التحديد الزمنى ومناقشته أنظر : محمد مؤنس عوض ، فى الصراع الإسلامى- الصليبى، ص١٧٤ حاشية (٢) .

وإذا كانت معركتى يغرى ، وأنب مثلتا أهمية كبيرة خلال تلك المرحلة من العلاقات بين الطرفين : فإن معركة حارم[1] عام ١١٦٣م / ٥٥٩هـ مثلت - وبحق- ذروة الصدام الحربى مع إمارة أنطاكية ، وقد عبرت عن التحالف الصليبى البيزنطى - الأرمينى ضد نور الدين محمود ، وقد انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف[2] ، ويقال أن الأسرى بلغوا ستة آلاف[3] ، ومن بين كبار القادة الصليبيين نذكر بوهيمند الثالث Bo-hemond III ، وأمير طرابلس ريموند الثالث Ramond III ، وأمير كيليكيا Cilicia البيزنطى قسطنطين كارلومان Constantine Carloman ، وهيودي لوزينيان Hugh de Lusignan[4].

ولانزاع فى أن معركة حارم؛ أثرت على نطاق متسع على العلاقات النورية - الأنطاكية، فقد مثلت انتصاراً لفعاليات الجيش النورى فى شمال الشام، وفقدت تلك الإمارة الصليبية

١- وقعت حارم ضمن إمارة أنطاكية على بعد عشرة أميال غربها وهى حاليًا من مناطق أولبا فى شمال سوريا وتبعد عن أولبا مسافة ٥٣ ك.م عنها انظر :

William of Tyre , vol. II, p. 306. Jacques de Vitry , p. 94 .

فتحى عثمان ، الحدود الإسلامية - البيزنطية ، جـ١ ، ط. القاهرة ١٩٦٦م، ص٢٣١ .

وعن المعركة بالتفصيل انظر :

Anonymous Syriac Chronicle , p. 303 .

William of Tyre , vol II, p. 306-308 .

ابن الأثير ، الباهر ص١٢٤ ، الاصفهانى ، البستان الجامع فى تواريخ الزمان، تحقيق كلود كاهن، B.E.O., T. VII-VIII Anné 1937-1938 ، ص١٣٥ ، محمود سعيد عمران، «معركة حارم » العدد (٨) عام ١٩٧٧م، ص٩٠- ص١١٢ .

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٢٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٤٥؛ الذهبى، دول الإسلام، ص٧٤ .

٣- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ٨ / ق١ ، ص٢٤٧، أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ط. بيروت ١٩٦٠م، م(٢)، جـ (٥) ، ص٥٦ .

٤- Anonymous Syriac Chronicle, p. 304.

العماد الاصفهانى ، سنا البرق الشامى، ص١٩، أبو شامة، الروضتين ، ق١ / جـ٢ ، ص٣٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ص١٤٥ ؛ الذهبى العبر ، جـ٤ ، ص١٦٧ .

العديد من فرسانها بين قتيل وجريح مع صعوبة تعويض ذلك الفاقد البشرى على المدى الزمنى القريب على الأقل، وحق لكلود كاهن Claude Cahen أن يصفها بأنها كارثة حارم[١] "Le de-sastre de harim" ومع ذلك ينبغى ألا نبالغ فى قيمة تلك المعركة ؛ إذ أنها لم تؤد إلى سقوط إمارة انطاكية فى قبضة المسلمين ، حيث أن الامبراطورية البيزنطية وقفت لتحول دون امتداد السيادة الإسلامية إلى أنطاكية . وليس معنى ذلك التقليل من شأن تلك المعركة ، غير أننا من الممكن أن نتعامل معها ومع نتائجها دون الطابع الدعائى الكبير الذى عمل على اشاعته ابن الأثير– ربيب البيت الزنكى– لاسيما من خلال «الباهر» ومن بعد ذلك «الكامل» وليس فى الإمكان مقارنتها بمعركة حطين التى وقعت من بعدها بنحو ربع قرن من الزمان لأنها لم تغير الخريطة السياسية للمنطقة على نحو كبير، ومع ذلك من الانصاف القول أنها أضعفت إمارة انطاكية ، وكانت رصيداً مهمًا فى تاريخ حركة الجهاد الإسلامى حينذاك .

على أى حال ؛ تلك كانت أهم ملامح العلاقات النورية – الأنطاكية، انتصارات تلو انتصارات بلغت ذروتها فى حارم، ومع ذلك لم تسفر عن تغير حاسم ، وكأن الأحداث اثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية طالما أن الامبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك ، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على اضعاف الصليبيين وتفوقها هى عليهم غير أنها فى نفس الوقت لم تكن لتقبل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع فى موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها .

أما العلاقات مع إمارة طرابلس الصليبية ؛ فأهم ما حدث خلال يتمثل فى معركة البقيعة عام ١١٦٢م / ٥٥٨هـ [٢] التى هزم فيها نور الدين محمود وقواته عند سفح حصن الأكراد

١– Cahen La Syrie du nord , p. 204 .

٢– عن معركة البقيعة انظر :

William of Tyre , vol . II, p. 306, Michael le Syrienne, Chronique, ed. par Chabot, peris, 1903, p. 324 .

ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١١٩ ، الباهر، ص١٣٧– ص١٣٨ ، عبد العزيز عبد الدايم، إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشرم، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب– جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، ص٨٩ .

Richard , la Comte de TRipolis Sous la Dynastie Toulousaine, Paris 1945, p. 21 .

Cracdes Chevaliers (1)، وقد تمكن القائد المسلم الكبير من الفرار بأعجوبة وكان عنصر المفاجأة من العوامل الفعالة التى جلبت النصر للصليبيين ضد المسلمين .

على أية حال ؛ ينبغى أن نلاحظ أنه لم يحدث طوال عصر الحروب الصليبية أن قائداً ما لدى المسلمين أو لدى خصومهم حقق انتصارات كاملة ولم يهزم فى معركة ما ، إذ أن تاريخ قادة كل من الجانبين تراوح بين النصر تارة والهزيمة تارة أخرى.

ومن زاوية أخرى؛ من الملاحظ أن العلاقات النورية - الصليبية خاصة مع الإمارات الصليبية أثبتت بجلاء أن الوصول إلى الساحل الشامى يكاد يكون أمراً مستحيلاً وبالتالى ظلت الدولة النورية دولة برية حبيسة ، وتعليل ذلك واضح فيما يتعلق بخطر التدخل البيزنطى ولن تحل مشكلة الساحل أم الدولة النورية إلا فى جبهة أخرى فى صورة مصر الفاطمية ، حيث سيمثل الساحل المصرى بديلاً - مرحليًا ومؤقتًا- عن الساحل الشامى ، إلى أن تحل هذه القضية المستحكمة التعقيد على أثر أحداث عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ فى صورة حطين وهو ما سيتم تناوله فى حينه .

أما العلاقات مع مملكة بيت المقدس الصليبية ؛ فقد عاصر حكم نور الدين محمود أثنان من الملوك الصليبيين فى صورة بلدوين الثالث وعمورى الأول ، ويعد بلدوين الثالث أول الملوك الصليبيين الذين ولدوا على أرض المملكة ، وقد تمكن من توسيع حدودها وأمكنه الاستيلاء على عسقلان عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ، وأمن بالتالى حدوده الجنوبيه ، كذلك عمل على تشييد عدة قلاع وحصون من أجل تدعيم مناطق سيادته فى مواجهة أعدائه المسلمين، كذلك

١- عنه أنظر :

ابن شداد الحلبى، الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، جـ٢، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق ١٩٥٦م، ص١١٧ .

Marino Santo, Secrets for Tryc crusaders, p. 5.

مصطفى طلاس ومحمد وليد الجلاد، قلعة الحصن ، حصن الأكراد، ط. دمشق ١٩٩٠م، مرفت محمد سالم، حصن الأكراد ودوره فى الصراع الصليبى- الإسلامى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٢م.

اتجه إلى حماية إمارتى أنطاكية وطرابلس من خطر الفوضى الداخلية [١]، والأخطار الخارجية، وهدف إلى كسب عون الامبراطورية البيزنطية لتساعده فى مواجهة الأحداث فى شمال الشام.

والجدير بالإشارة هنا: أن نور الدين محمود تمتع بزاوية دينية فى حروبه ضد الصليبيين، ومن الطبيعى تصور أن الدافع الدينى والرغبة فى جهاد الصليبيين احتل مكانًا بارزًا من بين الدوافع المحركة للسياسة الخارجية النورية تجاه مملكة بيت المقدس الصليبية وكذلك الإمارات الصليبية الأخرى بطبيعة الحال، ويلاحظ أن المؤرخين المسلمين المعاصرين للحروب الصليبية تفيض كتاباتهم بالإشارة إلى الطابع الدينى فى شخصية نور الدين محمود ، بل إن منهم من اتجه إلى القول بأنه كان صاحب ميول صوفية [٢].

والواقع أنه جاهد ضد الصليبيين وأن روح المرابطة ظهرت جلية فى عصره من خلال ميله الشخصى للجهاد . وقد رأى فى نفسه المدافع الرئيسى عن الإسلام وواصل الحرب على أساس دينى[٣]، مع عدم اغفال أهمية الدوافع الأخرى بطبيعة الحال.

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٦٤٧ .

وعن بلدوين الثالث وسياسته الخارجية انظر : عبد اللطيف عبد الهادى، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية فى عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٠م.

٢- عن الجانب الدينى فى شخصية نور الدين محمود انظر :

الوهرانى، منامات الوهرانى ومقاماته ، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش، ط. القاهرة ، ١٩٩٨م، ص١٤ ، ابن الأثير ، الباهر، ص١٦٤ ، الهروى، الإشارات إلى معرفة الزيارات تحقيق دومنيك سورديل ، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص١٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣١٥ ، ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٤٤ ، العماد الأصفهانى، سنا البرق الشامى، ص٣٢ .

٣- السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام، ص٢٤٩ ، حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص١٠٠، كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ت . بدر الدين قاسم، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص٣٦٢ .

وقد يرد البعض بأن ابن الأثير قدم روايات ذات طابع دعائى عن الجانب الدينى فى شخصه، وقد يكون ذلك أمراً واقعًا إلا أنه عبر عن حقيقة تاريخية ، ولا أدل على ذلك من عمدة مؤرخى الصليبيين ونعنى به وليم الصورى William of Tyre اعترف بأن نور الدين كان متدينًا [١]، مراعيًا لحقوق دينه ولا جدال فى أن شهادة الأعداء هى خير شهادة ثم أن المستشرق الفرنسى نيكيتا اليسيف – وهو المتخصص الأول فى الغرب الأوربى فى تاريخ نور الدين محمود اعترف صراحة بذلك وذكر ما نصه : «... إن الجهاد كأحد العناصر الأساسية هذا إذا لم يكن هو العنصر الرئيسى لسياسة نور الدين ، فقد حدد الجهاد أبعاد كل الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرن السادس الهجرى/ الثانى عشر فى سورية»[٢]، وأتصور أن ذلك يفند تمامًا ما ذهب إليه جون لامونت– الذى واصل حملته ضد الجهاد وقادته في عهد الصليبيات– عندما أشار إلى أن نور الدين محمود لم يكن مهتمًا بالحروب الدينية اهتمامًا خاصًا ، وأنه حارب الصليبيين على أساس أنهم وجدوا فى مجال توسعه الطبيعى[٣]، وهكذا شهد شاهد من أهلها على خطأ تصور ذلك المؤرخ الأمريكى.

وواقع الأمر ؛ أن دوافع نور الدين تمثلت فى الدافع الدينى وعامل الجهاد فى المقدمة، ومن خلفه العوامل السياسية والاقتصادية لاسيما الرغبة فى تدعيم النفوذ السياسى لدولته ، وكذلك السيطرة على خطوط التجارة فى المنطقة لاسيما فى الظهير الشامى بعد أن حسم أمر

١- William of Tyre , vol . II, p. 146 . p. 394 .

وفى ذلك يقول وليم الصورى ما نصه باللاتينية :

"Princeps Justus et providus et Secundum gentis suae traditions religious"

وترجمتها «أمير عادل يقظ متدين معين لأبناء جنسه مراع لتقاليده» انظر حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ط. القاهرة ١٩٤٨م، ص١٦٩ ؛ نور الدين ، سيرة مجاهد صادق، ط. القاهرة ١٩٨٤، ص٣٦٦ .

٢- السلطان نور الدين بن زنكى محمود بن زنكى أق سنقر (٥١١-٥٦٩هـ/ ١١١٨-١١٧٤م)، ت. سليم قندلفت ، ط دمشق ١٩٩٨م، ص١٤ .

٣- الحروب الصليبية والجهاد ، ص١١٤ .

الساحل لصالح الصليبيين على حساب خنق اقتصاديات المسلمين؛ ولاتناقض بين تلك الدوافع التى تعمل متزامنة ومتعايشة معًا.

على أية حال، فإن أهم ملامح علاقات نور الدين محمود بالصليبيين فى مملكة بيت المقدس ما عرف بالمشكلة الحورانية ، عندما تمرد الأمير الأرمنى الأصل التونتاس[١]، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركى والذى تولى حكم بصرى وصرخد[٢]- تمرد على سيده معين الدين انر أتابك دمشق [٣]، ولم تلبث الأحداث أن تطورت لاهثه فى عام ١١٤٧م / ٥٤٢هـ، إذ لجأ إلى الصليبيين طالبًا دعمهم فى عهد الملك بلدوين الثالث ووالدته الوصية على العرش ميلزندا، وقد عرض فى مقابل التدخل الحربى للصليبيين استيلاءهم على بصرى وصرخد على أن يعينوه سيداً على اقليم حوران[٤].

على أية حال ؛ من الملاحظ أن نور الدين محمود ، تصاهر من ابنة معين الدين انر أتابك دمشق عام ١١٤٧م / ٥٤٢هـ[٥]، وجعلت منه هذه الزيجة بمثابة عون سياسى وعسكرى لدمشق ، وأمام دعم الصليبيين للتونتاش أرسل معين الدين أمر بطلب مساعدة صهره ضدهم[٦]، وقد تقدم نور الدين محمود بقواته حتى بلغ دمشق، كذلك قدم سيف الدين غازى

١- أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق١ ، ص١٣٠ .

٢- بعدت بصرى مسافة ١٤١ ك عن دمشق، وعدت قصبة اقليم حوران، أما صرخد ، فبعدت عن السويدات بنحو ٣١ ك.م وامتازت بجبل بركانى بنيت عليه قلعة حصينة ، عنها انظر :

William of Tyre , vol . II, p. 146-147 .

ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٢٧٤ ، السيوطي، اتحاف الاخصى بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٨ ، ص٢٨٢ ، يوسف سمارة ، جولة فى الاقليم الشمالى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٠٢ .

٣- عن تمرد التونتاش انظر :

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٩، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٢٩ .

٤- ابن القلانسى، المصدر السابق، ص٢١٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٦١٧ .

٥- ابن عساكر ، ترجمة محمود بن زنكى، ص١٣٧ .

William of Tyre , Vol. II, p. 148 .

٦- ابن القلانسى ، المصدر السابق، ص٢٨٩ ، تيسير بن موسى، غزوات الفرنج ، ط. بنى غازى ١٩٨٣م، ص١١٨ .

الذى كان أخًا لنور الدين وتمكنت القوات المسلمة المتحالفة من الاستيلاء على بصرى من زوج التونتاش ومنعت الصليبيين من الاستيلاء عليها والحقت الهزيمة بهم [١].

ولانزاع ؛ فى أن المشكلة الحورانية أشعرت نور الدين محمود بخطورة بقاء دمشق دون أن تكون تحت سيطرته ، ويلاحظ هنا أن حلب- مركزه الرئيسى فى الشمال- ارتبط بدمشق برباط دفاعى استراتيجى وكذلك اقتصادى تجارى، ومنطقى أنه ما كان ليشعر بالطمأنينة مع بقاء الخطر الصليبى قائمًا عند مرتفعات الجولان ؛ حيث يمكن تهديد دمشق ، كما يمكن دعم أية قوى سياسية خارجة عن حكم أتابكيتها، وهو أمر حدث بالفعل فى صورة تمرد التونتاش .

ومن جهة الصليبيين، كشفت المشكلة الحورانية عن حقيقة محورية وهى أن مملكة بيت المقدس فى عهد بلدوين الثالث بدأت عهدها باظهار عدم الحنكة السياسية ، لأنها كانت مرتبطة بهدنة أتابكية دمشق ، ومع ذلك فضلت أن تتحالف مع ذلك المتمرد على سيده دون أية اعتبارات للهدن مع المسلمين .

ويضاف إلى ذلك ؛ إسقاط الرها عام ١١٤٤م/ ٥٣٩هـ : أدى إلى حدوث ما عرف بالحملة الصليبية الثانية، وقد قام البابا يوجين الثالث [١] (١١٤٥- ١١٥٣م/ ٥٤٠-٥٤٨ هـ) بالدعوة لها، وقام بالدعاية لها القديس برنارد دى كليرفو

١- سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ص٢١٠ .

٢- عن ذلك انظر :

"Eugene III writing to king louise VII of France and his subgects Proclaims The Secend crusade on God's behalf, March 1146", in the Crusades Idea and reality , London 1981, by Louise and Jonathau Riley - Smith, pp. 57-59 .

"Eugene III announce acrusade, December I, 1145", in Thatcher, Source Book for Medieval History , New York 1905, pp. 526-529 .

وعن الحملة الصليبية الثانية تفصيلاً انظر :

William of Tyre, vol II , pp. 163-194 , Anonymous Syriac Chronicle, pp. 298-299,

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٩٨- ص٣٠٠ .

Bernard de Clairvaux . ودون الخوض فى تفاصيل تلك الحملة الصليبية التى شارك فيها الملك الفرنسى لويس السابع Louis VII[1] (١١٣٧-١١٨٠م / ٥٣٢-٥٧٦هـ) والامبراطور الألمانى كونراد الثالث Conrad III (١١٣٨-١١٥٢م / ٥٣٣-٥٤٧هـ) من المهم أن نركز الحديث على أهم عناصرها بما يفيد فى دراسة دور نور الدين محمود فى الجهاد ضد الصليبيين . فعلى الرغم من العلاقات القائمة بين اتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية ، إلا أن الحملة بدلاً من أن تقوم بإنقاذ الرها؛ إذ هى تتجه إلى دمشق مخالفة بذلك كل الأعراف والمعاهدات والاتفاقات الدبلوماسية التى من المفترض أن تحترم ، إذ أن الجشع فى إخضاع عاصمة الشام التاريخية وتأمين حدود المملكة من جهة الجليل، والمكاسب الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية كل ذلك جعل الصليبيين يتجهون إلى دمشق، وبالفعل أمام الخطر القائم اتجه معين الدين انر إلى طلب مساعدة صهره نور الدين محمود فى حلب الذى عمل على تقديم المساعدة له[2]، وقد حاصر الصليبيون المدينة، غير أن أهلها قاوموا الحصار مقاومة بطولية خلدها التاريخ لهم، كما أن الصليبيين وقعوا فى عدد من الأخطاء العسكرية ، كذلك شب نزاع حول من سيتولى حكم المدينة بعد سقوطها [3].

١- عنه بالتفصيل لاسيما خلال الصليبية الثانية :

Odo of Deuil , De Profectione Ludovici VII in Orientem , ed. with an Enghlish Translation by Virginia Gingerick Berry , pp. 6-122 .

٢- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١١٢ ، ابن أيبك الدوادارى ، الدرة المضيئة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٥٥١، الحريرى ، الاعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق سهيل زكار ، ط. دمشق ١٩٨١م، ص٧٦ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، جـ٤، ص١٣٤ .

Berry , "The Second Crusade" , in Setton, A History of the Crusades, vol . I, Pennsylvania 1958, p. 508 .

٣- Ibid, p. 509 .

وعن موضوع الحصار الصليبى على دمشق انظر :

William of Tyre , vol . II, p. 194, John of Wurzburg , p. 21 .

ويقرر الرحالة الألمانى المذكور أن فرسان الداوية تلقوا رشوة من الدماشقة على نحو أضر بخطط الصليبيين الحربية .

وهكذا منيت الصليبية الثانية بالخسران المبين، وظهر بجلاء كيف عجز كبار ملوك وأباطرة أوربا عن تغيير الواقع السياسى الجديد الذى حل بالمنطقة فى أعقاب إسقاط الرها فى قبضة حركة الجهاد الإسلامى عام ١١٤٤م/ ٥٣٩هـ. ودل ذلك أن ذلك الواقع اكتسب قوة أكثر من ذى قبل، ويكفى أن كل ذلك الثقل السياسى والحربى للحملة المذكورة لم يتجه نحو الرها بل نحو مطامع جديدة على نحو عكس مدى قصر نظر السياسة الصليبية.

ولعل من أهم النتائج التى تمخضت عن الصليبية الثانية أنها أججت العداء الغرب أوربى تجاه الامبراطورية البيزنطية؛ إذ أن المعاناة التى لقيها الامبراطور الألمانى كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسى لويس السابع من خلال الطريق البرى الذى مر بمناطق بيزنطة أكد العداء المتأصل بين الطرفين وهو عداء سيتراكم طوال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى.

زد على ذلك؛ أثرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبى فى الشرق، فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعى استراتيجى مع الغرب الأوربى، الذى وفر لها كل دعم مادى ومعنوى من أجل القيام والنمو والازدهار ، بل وفر لها كل حماية ممكنة، وسط المحيط الإسلامى المعادى، والآن بعد المصير الذى وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التى علقت على نجاحها ، اتضح لنا بجلاء أن اعتماد الصليبيين على الدعم الاوربى الخارجى؛ خلال تلك الحملة الفاشلة. لم يغنيهم شيئا ، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة فى احتلال مناطق المسلمين، طالما أن أطماعهم لاتحد، وجشعهم ليس له حدود لقد ظل الوجود الصليبى فى الشرق أشبه شىء برضيع لم يكتب له النمو الطبيعى من خلال ارتباطه المرضى بالوطن الأم فى أوربا وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك الوليد ليس لها حل حقيقى فى آلية الصراع الصليبى- الإسلامى.

ونخلص من ذلك : إلى أن الكيان الصليبى بامكاناته المحلية عجز عن تغيير واقع عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ، وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضًا وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة ، أن حركة الجهاد الإسلامى حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من الآن فصاعدًا الانجاز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائيًا من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامى الذى مهد للغزاة القدوم للمنطقة.

وهناك زاوية على جانب كبير من الأهمية ؛ فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود فى حلب إلى حد كبير ، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية؛ إلا أنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث [١]، وتدعم وضعه السياسى فى شمال الشام، بصورة أقوى ، فقد اعترف الدماشقة ضمنيًا بقوة نفوذه السياسى، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس[٢] حليفة الأمس، ثم أن الحملة المذكورة لتلقى الضوء على مدى الضعف الذى وصلت إليه أتابكية دمشق ؛ إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبى عليها، ولذلك طلبت العون العسكرى الخارجى ولاريب فى أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكده على نحو جعله يخطط أكثر من ذى قبل من أجل إسقاط دمشق فى قبضته .

ومع ذلك ؛ فإن تطوراً على جانب كبير من الأهمية وقع فى جنوب بلاد الشام لاسيما على الساحل فى صورة عسقلان ، التى تمكن الصليبيون من الاستيلاء عليها عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ فى عهد ملكهم بلدوين الثالث [٣]، وجاء ذلك فى وقت كانت فيه دولة الفواطم فى مرحلة الاحتضار الطويل الأجل فى ظل واجهة اسمها الخليفة الفاطمى ، وقوة سياسية فاعلة فى صورة الوزراء العظام .

والواقع ؛ أن أهمية الانتصار الصليبى فى عسقلان يأتى من خلال إدراك أهميتها ذاتها، فقد مثلت مركزاً تجاريًا مهمًا على الساحل الفلسطينى، واعتبرت حلقة وصل بين الساحل

١- أنتونى بردج ، الحروب الصليبية، ت. غسان سبانو، ط. دمشق ١٩٨٥م، ص١٥٩ .

٢- عصام الدين عبد الرءوف ، بلاد الجزيرة ، ص١٧٥ .

٣- عن سقوط عسقلان انظر :

William of Tyre , vol . II, p. 184 . 234 Anonymous Syriac chronicle, p. 301 .

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٨ ، ابن الأثير، الكامل ، جـ١١، ص٧٧ ، الباهر ، ص١٠٦ ، السيد عبد العزيز سالم والعبادى، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، ط. بيروت ١٩٧٤م، ص١٠٨ ، مصطفى عبد العزيز العسقلانى ، عسقلان ودورها فى الصراع الإسلامى -الصليبى، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٢م.

الشامى ، والساحل المصرى، كما كانت قاعدة للأسطور الفاطمى كان الفاطميون من خلالها قد تمكنوا من دعم الموانىء الإسلامية الساحلية فى بلاد الشام وأخروا سقوطها إلى يومها المقدر ، وبسقوط عسقلان سقطت آخر المعاقل الفاطمية فى الشام، وبذلك امتدت السيادة الصليبية على طول الساحل الشامى من الاسكندرية شمالاً حتى غزة جنوبًا ، وبذلك صارت مملكة بيت المقدس وتوابعها فى انطاكية وطرابلس تمتلك أطول حدود ساحلية على البحر المتوسط، بينما من خلفها القوى الإسلامية الشامية حبيسة فى نطاق الظهير البرى ، ويلاحظ أن الاستيلاء على تلك المدينة قد مهد السبيل لغزو مصر ، فلم تكن هناك مشاريع صليبية «حقيقية» لغزوها ، فمن قبل كانت عمليات استكشافية [١]، أما الآن مع وجود موضع القدم الصليبى المتقدم الجديد فى عسقلان ، وصار من الممكن- أكثر من أى قبل- توجيه نظر المطامع الصليبية نحو الجار الجنوبى للصليبيين الثرى والضعيف فى آن واحد، ولاريب فى أن الأحداث عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ جاءت لتحمل للصليبيين تفوقًا استراتيجيًا فى حدودهم الجنوبية ، بينما عجز نور الدين محمود عن تقديم أية مساعدة لعسقلان نظراً لوقوف دمشق عقبة قوية أمام تحقيق ذلك.

على أية حال؛ لم يكن من الممكن لسيد حلب ابن قاهر الرها : أن يقف لايحرك ساكنًا أمام التحرك الصليبى فى الجبهة الجنوبية ، وسرعان ما أتى الرد دون تأخير ، فتمكن نور الدين محمود بالفعل من الاستيلاء على دمشق عام ١١٥٤م / ٥٤٩هـ أى فى العام التالى مباشرة وبذلك حقق مكاسب أكبر من أن تحصى، فقد مد حدوده إلى الجنوب، ولم يعد منعزلاً فى الشمال، خاصة أن الأحداث التاريخية أثبتت بجلاء أنه لم ولن يتمكن من إسقاط انطاكية من خلال الاعتبارات البيزنطية ، وقد تمكن بذلك الانجاز من تهديد حدود مملكة بيت المقدس ذاتها، ولم يعد أمامه إلا نطاق جغرافى ضيق محدود لكى يوجه ضرباته إلى الجليل بصورة لم تكن متوافرة له من قبل، وشتان بين توجيه الضربات فى الأطراف والوصول إلى قرب القلب الصليبى.

ولانغفل أنه باخضاع دمشق : صار نور الدين محمود يسيطر بصورة أو بأخرى على ثلاثة مدن رئيسية يمكن أن توصف بأنها مدن الظهير الإسلامى فى الجزيرة وبلاد الشام وهى :

١- راجع ما سبق أن ذكرته بشأن حملة الملك الصليبى بلدوين الأول، فى الفصل الثالث عن هذه الدراسة.

الموصل – التى دانت له بالولاء– ، وحلب، ودمشق، وهى مدن ذات كثافة سكانية فاعلة، وأهمية اقتصادية حيوية من خلال وقوعها على خطوط التجارة الدولية ، فإذا لم يغب عن ذهننا أننا أمام قائد للجهاد نذر نفسه له، أدركنا كم كانت المكاسب كبيرة للمسلمين بضم عاصمة الأمويين من قبل دمشق ، خاصة مع عدم اغفال أنها المرة الأولى التى اتحدت فيها حلب ودمشق منذ العصر السلجوقى تحت سيطرة سيد واحد.

ومن الزوايا ذات الأهمية البالغة: إدراك أن توجيه ضربات فاعلة للصليبيين تؤثر على قلبهم فى بيت المقدس، لن يكون إلا بإخضاع المدن الأربع المؤثرة فى قبضة سيد واحد وهى الموصل، حلب، دمشق ، القاهرة، وهكذا لم تعد هناك إلا مدينة واحدة : هى القاهرة قلب الوجود الفاطمى الذى بلغ من الكبر عتيًا ، ويلاحظ أن ضمها لشقيقاتها الثلاث الأخريات سيتأخر من خلال اعتبارات عديدة سيتم تناولها فى موضع آخر من هذه الدراسة.

على أية حال: من الممكن تناول قضية مهمة وهى أيهما حقق مكاسب سياسية وحربية أخطر، بلدوين الثالث باستيلائه على عسقلان عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ أم نور الدين محمود باستيلائه على دمشق عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ ، والتساؤل له مبرره خاصة من خلال أن الحدثين تعاقبا فى عامين متتالين وكأنهما جاءا كنوع من المنافسة والتسابق بين الحاكمين الصليبى والمسلم: وفى تصورى أن إسقاط عسقلان على الرغم من أهميته السابقة كان بمثابة اسقاط إحدى المدن الشامية الساحلية وربما كان له تأثيراته الكبيرة فى حالة عدم تمكن ذلك الحاكم المسلم من انتزاع دمشق من قبضة البوريين، إذ أنه اكتسب العديد من المميزات وأدى ذلك إلى نقله لمجال جديد أرحب من ذى قبل ، ويلاحظ أنه إذا كان الصليبيون باستيلائهم على عسقلان انفتحت أمامهم الأبواب نحو مصر، على اعتبار أن عسقلان عدت بوابتها ، إلا أن الاستيلاء على دمشق فتح الطريق هو الآخر أمام نور الدين محمود نحو ذات الهدف، ومن ثم سيحدث فيما بعد التسابق بينه وبين الصليبيين لإسقاط مصر الفاطمية.

وهكذا نصل إلى حقيقة مفادها : إن استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان، كان من الممكن أن يكون على أكبر قدر من المكاسب فى حالة استمرار الوضع القائم فى صورة ارتباط نور الدين محمود بحلب فى شمال الشام ، أما الآن بعد الاتجاه جنوبًا نحو دمشق، تأكد للصليبيين أن سيد حلب صار سيد حلب ودمشق معًا. ويكفى أن نطالع ما سطره مؤرخ الصليبيين البارز وليم الصورى كى ندرك كيف أن اخضاع عاصمة الشام عد أحد مظاهر الخطر الإسلامى القادم

فى الأفق على نحو ينذر بأوخم العواقب على الصليبيين ، وهكذا نستطيع القول بأن الاستيلاء على عسقلان ، وكذلك دمشق أدخل المواجهة بين الصليبيين والمسلمين إلى مرحلة جديدة اتسمت باحتدام الصراع بينهما والتسابق على مناطق نفوذ جديدة بقوة عسكرية أكبر وكأننا أمام استعراض عسكرى للقوة من كل من الطرفين المتنافسين ، وواقع الأمر أن التسابق على ضم مصر لأحد الجانبين لم يكن ليبدأ دون تلك الخطوة التكتيكية المحورية فى صورة إسقاط الصليبيين لعسقلان والرد من جانب نور الدين بالاستيلاء على دمشق .

على أية حال ؛ من الأحداث المهمة فى علاقات الدولة النورية بمملكة بيت المقدس الصليبية، حدوث معركة بانياس عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ ، التى وقعت فى وقت كانت مملكة بيت المقدس الصليبية فى حالة تهادن مع أتابكية دمشق ، غير أن مطامع بلدوين الثالث فى الاغنام والماشية التى عرفت بها بانياس أدت إلى الاشتباك هناك والذى انتصر فيه المسلمون انتصاراً كبيراً ، ويلاحظ أن الجيش الصليبى احتوى على عناصر من خيرة فرسانه فى صورة الاسبتارية والداوية وعلى الرغم من ذلك كانت الهزيمة حليفة له [٢]؛ ومع ذلك ؛ من الملاحظ أن

١- بانياس ، وقعت بانياس على بعد واحد وعشرين ميلاً من بحيرة طبرية، بالقرب من شواطىء بحيرة الحولة وهى توصف بأنها بانياس الداخلية من أجل التفرقة بينها وبين بانياس الساحلية عنها أنظر :

المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ، ص٣٠ ، ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص٤٦٠ .

Fulcher of Chartres , p. 205 , Ernoul , Ernoul's Account of palestine , Trans . by C.R. Conder, P.P. T.S., vol . VI , London 1896, p. 51 .

عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبى، الملحق الخاص ببانياس ، ص١٩٤- ص١٩٥ ، وعن بانياس الداخلية فى عصر الحروب الصليبية انظر :

آمال هاشم، بانياس الداخلية ودورها فى الصراع الإسلامى- الصليبى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م / ٤٨٧-٦٩٠هـ) رسالة ماجستير كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨٧م.

٢- عن معركة بانياس انظر :

William of Tyre , vol . II, p. 256 .

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٣٨،

Boase , Kingdoms and strongholds of the Crusades, London 1971, p. 114 .

تلك المنطقة الحدودية الاستراتيجية كانت متبادلة السيادة بين الجانبين ، فتارة يسيطر عليها المسلمون ، وتارة أخرى يسيطر عليها الصليبيون ، وقد عكس ذلك- بطبيعة الحال إدراك كل طرف لأهمية إخضاعها لسيادته السياسية .

مهما يكن من أمر ؛ فتلك كانت ملامح العلاقات بين نور الدين محمود والكيانات الصليبية سواء في الإمارات أو في المملكة الصليبية ذاتها في بيت المقدس ، غير أن الصراع امتد فيما بعد إلى مصر الفاطمية ، واتخذ جبهة افريقية بعد أن ساد طويلاً الجبهة الآسيوية الغربية.

وواقع الأمر؛ أننا لن نسترسل في تناول تفصيلات ذلك التسابق بين نور الدين محمود والصليبيين في عهد الملك عموري الأول على مصر، بل نوجز الأمر على اعتبار تناوله تفصيلياً في دراسة سابقة للمؤلف [1]، مع تقديم ملامح عامة عن تطور الأحداث في تلك الجبهة.

وفي حقيقة الأمر : أن الخلافة الفاطمية في عصرها الثاني خاصة منذ عهد المستنصر بالله، تحولت إلى كيان هامشي ليس له حضور تاريخي فعال ، على نحو لايتفق مع ما كان لها من قوة في عصرها الأول، ومن سمات العصر الثاني ضعف الخلفاء ، واستفحال نفوذ الوزراء العظام، وإلى جانب ذلك، وقعت كوارث اقتصادية نتيجة انخفاض منسوب نهر النيل على نحو اجهد الاقتصاد الفاطمي ، فإذا أضفنا الصراع بين عناصر الجيش، كذلك الخطر الصليبي الداهم الذي اقتطع أملاك أن الفواطم في بلاد الشام على مدى المرحلة الواقعة من ١٠٩٩ إلى ١١٥٣م / ٤٩٣-٥٤٨هـ أدركنا أننا بالفعل أمام كيان يحتضر ، والأمر المؤكد أن ذلك الضعف لم يغب عن القوتين المجاورتين للفاطميين في مصر ونعني بذلك الدولة النورية ، ومملكة بيت المقدس الصليبية ، ومن ثم تحفز كل منهما من أجل الإجهاز على ذلك الكيان وتوسيع نفوذ كل منهما إلى النطاق الأفريقي ، وهو أمر كان بمثابة حلم يتحرق له شوقاً كل طرف نظراً لموقع مصر الاستراتيجي وموانئها العديدة على البحر المتوسط والأحمر ، ومرور طرق التجارة الدولية بها .

١- محمد مؤنس عوض، في الصراع الإسلامي- الصليبي، السياسة الخارجية للدولة النورية ، من ص٧٧ إلى ص١٠٦ .

وينبغى أن ندرك أن الدولة النورية ارتبطت بتحالف قوى مع الخلافة العباسية ، وقد امدتها الأخيرة بكل الامكانات اللازمة من أجل تحقيق حلم العباسيين الذى طالما راودهم طويلاً فى صورة إسقاط حكم الفاطميين وعودة مصر مرة أخرى إلى المعسكر السنى.

ولعل العام الجدير بالأهمية فى تاريخ العلاقات النورية- الفاطمية ، بعد أن مرت بمرحلة محاولة التنسيق العسكرى، ثم الاتصالات الدبلوماسية [1]، تمثل فى عام ١١٦٣م/ ٥٥٨هـ، وهو العام الذى لجأ فيه الوزير الفاطمى لنور الدين محمود فى دمشق بعد أن تنازع مع منافسة ضرغام على أمر الوزارة فى مصر الفاطمية ، وبناء على ذلك دخلت العلاقات النورية الفاطمية، مرحلة التدخل العسكرى المباشر، خاصة أن ضرغام لجأ إلى البحث عن حليف وارتمى فى أحضان الملك الصليبى عمورى متحالفًا ، ومن هنا بدأ التسابق بين نور الدين محمود وعمورى من أجل الفوز بمصر ، لتدخل من بعد الصليبيات منحى أفريقيًا صرفًا لم يسبق لها ، دخوله بمثل هذه الفعالية والتنافس مع المعسكر الإسلامى المتمثل فى الدولة النورية.

ويلاحظ أن شاوراً عرض على نور الدين محمود عرضًا مغريًا فى صورة اعادته إلى الوزارة وفى المقابل ؛ يتعهد شاور بتكاليف الحملة النورية وأن يقدم لنور الدين ثلث دخل مصر فى صورة إتاوة سنوية ، كذلك تعهد بأن يحكم نيابة عنه، ووفق مشيئته ، وأن يجعل بمصر حامية عسكرية من الجيش النورى[2]، وكان ذلك يعنى أن تصير مصر ولاية تابعة للدولة النورية.

والأمر المؤكد ؛ أن مثل ذلك العرض البالغ الإغراء ، جاء ليعبر عن ضعف مركز شاور فى صراعه مع ضرغام وتخوفه من ارتماء الأخير فى أحضان الصليبيين، كما أنه قدم كل تلك العروض من أجل أن يرغب الدولة النورية ويجعلها تكسب مكاسب عديدة لاتستطيع رفضها ، ويلاحظ أنه على مدى عصر الحروب الصليبية ؛ لم يحدث مثل ذلك العرض السخى للغاية فى

١- عن تفاصيل المرحلتين المذكورتين انظر :

محمد مؤنس عوض ، فى الصراع الإسلامى- الصليبى، ص٨٢ - ص٨٤ .

٢- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٢٠ ، سيد الحريرى، الأخبار السنية فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٣١٧هـ ، ص١١٧ ، وقد ذكر دوجان أنه عرض على نور الدين السيطرة على بعض القلاع والحصون.

Duggan, The story of the Crusades, London 1960, p. 130

غير أن ذلك لاتدعمه المصادر العربية .

أية مفاوضات بين قوتين مسلمتين ، مما عكس تفرده، وان شاوراً وضع جميع الأوراق فى سلة نور الدين محمود مراهنًا على أن عرضه لن يرفض.

ويذكر ابن الأثير رواية مفادها تردد نور الدين محمود فى قبول طلب شاور بالتدخل فى مصر الفاطمية، نظراً لوجود الصليبيين فى الطريق الذى تمر منه القوات النورية فى حالة تدخلها[١]، والأقرب إلى المنطقة أن طلب شاور لم يلقى أدنى تردد من جانب نور الدين محمود، إذ جاء بالمبرر السياسى للتدخل فى مصر، ويبدو أن ذلك المؤرخ أراد إظهار نور الدين محمود على أنه زاهد فى مصر ، وهو أمر بعيد تمامًا عن الواقع التاريخى ، ولانزاع فى أن الحملات التى وجهها صوب أرض الكنانة ، وما أنفقه من أموال طائلة فى سبيل أعدادها جاءت لتؤكد تمامًا أطماعه فيها من أجل إكمال سلسلة المدن الأربعة الرئيسية (الموصل- حلب - دمشق- القاهرة) ، ولانغفل أن من العوامل التى شجعته للتقدم صوب مصر، وجود قيادة عسكرية محنكة فى صورة أسد الدين شيركوه ، ولامراء فى أنه شجع سيده على الاقدام على غزوها، وقد فطن أحد المؤرخين إلى أهمية دور شيركوه واعتبره الروح المحركة فى كل مرحلة من مراحل الهجوم على مصر[٢].

مهما يكن من أمر : تقدم الجيش النورى وعلى رأسه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وينبغى ألانقبل ما ذهب إليه البعض من أن صلاح الدين قدم إلى مصر وهو كاره[٣]؛ إذ أن ذلك لايستقيم البته مع طموحاته التى أسفرت عنها الأحداث بجلاء ، ولاريب فى أنه أدرك فى مقدمه إليها أنها فرصته الذهبية لتفجير طموحاته بها، وقد تمكن الجيش النورى من محاربة ضرغام وألحق به الهزيمة[٤] وقتل ضرغام فى عام ١١٦٤م /

١- ابن الأثير ، الباهر ، ص١٢٠ .

٢- Stevensonson , The Crusaders, p. 187 .

٣- أبوشامة ، الروضتين، جـ١ ، ق٢ ، ص٢٩٣ .

٤- William of Tyre , vol. II, p. 303 .

ابن ظافر الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة الدولة الفاطمية ، تحقيق أندريه فرييه ، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص١١٤، ابن قاضى شهبه، الكواكب الدرية، ص١٦٤ .

٥٥٩هـ[١] واستتبع ذلك أن تولى شاور الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد مرة أخرى، وتلقب بالملك المنصور[٢].

ومن الملاحظ ، أن شاوراً قلب ظهر المجن لنور الدين محمود بعد ذلك الانتصار ، فرفض تنفيذ الاتفاق ، وطالب أسد الدين شيركوه بمغادرة مصر، ورفض الأخير، واتجه إلى احتلال المنافذ الشرقية للبلاد ، وأرسل صلاح الدين إلى بلبيس حيث قام باحتلالها وجبى خراجها ، وأقام تلك التطورات رأى شاور أ يبدل تحالفه تجاه إلى الملك الصليبى عمورى واستدعاه إلى مصر وقدم عرضًا مغريًا[٣]- وهو الخبير فى تقديم العروض المغرية دون امكانية التأكد من تنفيذها ا- وقام الصليبيون ومعهم قوات شاور بمحاصرة بلبيس ثلاثة أشهر، وقد اتجه نور الدين محمود إلى الضغط على الصليبيين فى جبهة الشمال؛ على نحو أدى إلى حدوث معركة حارم ١١٦٤م / ٥٥٩هـ ،وفيها؛ انتصر الجيش النورى انتصاراً كبيراً كما أسلفت الذكر من قبل. وهو أمر يعكس لنا كيف أدرك نور الدين محمود الارتباط الوثيق بين «الشامصر» ، وأن ما يحدث فى بلاد الشام يؤثر على مصر والعكس صحيح، ويعلق أحد المؤرخين على الموقف قائلاً : إن المعركة الحقيقية لم تحدث فى مصر فى هذه السنة ، بل فى الشام [٤].

وحيث أن الحرب لم تحسم أمراً، كان لابد من طرق أبواب الحل الدبلوماسى، وهو ماتم بالفعل. وقد تم الاتفاق على انسحاب قوات شيركوه من مصر، وكذلك القوات الصليبية، وأن يتسلم شيركوه ثلاثين ألف دينار [٥]، ولاريب فى أن تلك الأموال عوضت بعض نفقات

١- William of Tyre , vol. II, p. 309 .

ابن الأثير، الكامل، جـ١١ ، ص١٢١ ، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٣٩ .

٢- William of Tyre, vol. II, p. 305 .

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٣٦ .

٣- William of Tyre, vol. II, p. 305 .

٤- Stevenson, The Crusaders in The east, p. 188 .

٥- ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢١ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٤٧، شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص٣١٧ .

الجيش النورى فى حملته الأولى على مصر، كما أن ذلك المبلغ دل بوضوح على حرص شاور على ابعاد الخطر النورى عن البلاد بأى ثمن[١] .

ومن الملاحظ : أنه على الرغم من الجبهة الجنوبية إلا أنه حقق بعض المكاسب المهمة، تمثلت فى استطلاعه لأوضاع مصر السياسية[٢]، والعسكرية كما درس عن كثب المواقع التى مر بها والتى سيتكرر الصراع حولها، كما أن ذلك الجيش برهن على قدرته على التغيير السياسى فى مصر الفاطمية، وهذه الناحية لازمت التطور السياسى للخلافة الفاطمية فى مصر حينذاك .

أما فيما يتعلق بالحملة النورية الثانية : فقد وقعت أحداثها عام ١١٦٧م / ٥٦٢هـ[٣]، وقد سار الجيش النورى حتى بلغ مصر وعبر النيل عند أطفيح[٤] (وهى قرية من قرى الجيزة تابعة الآن لمركز الصف) ، ونزل بالجيزة ، وأمام تلك التطورات استدعى شاور حلفاءه الصليبيين مرة أخرى، فأتوه على الصعب والذلول على قول بعض المؤرخين[٥]. وفيما بعد وقعت بين الطرفين معركة البابين (وهى إلى الجنوب من المنيا بعشرة أميال) ، وذلك عام ١١٦٧م/ ٥٦٢هـ، ولحقت الهزيمة بالجيش الصليبى وحقق الجيش النورى انتصاراً كبيراً[٦]، وظهر دور بارز لصلاح الدين فى أحداثها، وفى أعقاب ذلك[٧] : اتجه أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين صوب الفيوم، ومنها إلى الاسكندرية للاستيلاء على أكبر ميناء فاطمى

١- محمد مؤنس عوض، فى الصراع الإسلامى- الصليبى، ص٩٣ .

٢- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٢ ، حسن ابراهيم ، الفاطميون فى مصر، ط. القاهرة ١٩٣٢م، ص٣٠٣ .

٣- ابن الأثير، الباهر، ص١٣٢ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص١٣٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية، جـ١٢، ص٢٥٢ .

٤- عنها انظر : أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦١، حاشية (١) .

٥- ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٣٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، جـ١ / ق٢ ، ص٣٦٤، ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٤٩ .

٦- عن معركة البابين انظر :

ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٣١- ص١٣٢ ، الباهر ، ص١٣٢- ص١٣٣ ، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص١٢٣ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٤٩، نظير حسان سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص١٠ ، عبد الرحمن سيد الأهل، أيام صلاح الدين، ط. بيروت ١٩٦١م، ص١٨١ .

٧- عن الموقف بعد البابين انظر :

William of Tyre, vol . II, p. 334-335 .

على البحر المتوسط ، وليساوم به الصليبيين وشاوراً ، وقام الصليبيون من بعد ذلك بفرض الحصار عليها ، ومرة أخرى ، تم طرق أبواب الدبلوماسية وتم الاتفاق على أن يحصل أسد الدين شيركوه على خمسين ألف دينار مقابل إنسحاب القوات النورية من مصر؛ وخاصة الاسكندرية ، وكذلك الأمر بالنسبة للصليبيين على ألا يسيطروا على أية منطقة فى مصر[١]. على أنه يبدو أن شاوراً لم يحترم تلك التعهدات بدليل تركه بعض القوات الصليبية المتحالفة معه تقوم بحماية أبواب القاهرة ، وبالتالى أثبتت شخصيته على نحو مؤكد مدى مناورته وخداعه ، وعدم إلتزامه بالعهود والمواثيق الموقعة ، وأنه فى سبيل مصلحته الخاصة ارتمى فى أحضان أعداء الإسلام متحالفًا مما عكس أنانيته وقصر نظره السياسى.

وفيما يتصل بالحملة النورية الثالثة، نجد أن دوافعها تمثلت فى وجود القوات الصليبية على أرض مصر ، وقد سارع الفرسان الصليبيون يطلبون من ملكهم عمورى التعجيل بالتقدم إلى مصر للاستيلاء عليها [٢]، وبالفعل تقدم إليها وذلك عام ١١٦٨م / ٥٦٤هـ، واستولى على بلبيس حيث أقام فيها الصليبيون مذبحة مروعة[٣] وبالتالى كشر التاريخ الدموى للصليبيين فى المنطقة عن أنيابه ، وأثبت الغزاه أن ذلك التاريخ قسم منه فى بلاد الشام وقسم آخر على أرض الكنانة ، ولاريب فى أن تلك المذبحة أعادت إلى الأذهان ذكرى المذابح التى اقترفها الصليبيون على أرض الشام فى أخريات القرن الحادى عشر، وأوائل الثانى عشر الميلاديين / الخامس ، والسادس الهجريين[٤] على نحو كشف عن أن ذلك الطابع الدموى غريزة متأصلة فيهم ليس بالإمكان استئصالها مهما تقادم الزمن ! .

أمام تلك الأحداث التى أخذت تجرى مهرولة ؛ عمل شاور على إحراق الفسطاط حتى لاتقع فى قبضة الصليبيين ، واستغاث الخليفة العاضد بنور الدين محمود طالبًا منه التدخل العسكرى ضد الصليبيين وقد عرض عرضًا مغريًا ، قوامه تقديم ثلث بلاد مصر وأن يكون شيركوه مقيمًا عنده فى عسكر واقطاعهم عليه خارجًا عن الثلث الذى لنور الدين [٥]، وبالفعل

١- ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٤ .

٢- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص١٣٧ ، الكامل، جـ١١، ص١٣٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٥٦ - ص١٥٧ .

٣- William of Tyre . vol II, p. 351 .

٤- انظر ما سبق ذكره خلال أحداث الصليبية الأولى .

٥- ابن الأثير ، الباهر، ص١٣٨، الكامل، جـ١١، ص١٣٦، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٥٨، ابن قاضى شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٧٦، المقريزى ، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٢٩٣ ، السيوطى، حسن المحاضرة، فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٢ ، ط. القاهرة ، ص٤ .

أرسل الأخير أسد الدين شيركوه وصلاح الدين عام ١١٦٩م / ٥٦٤هـ[١] بعد أن صارا خبيران بأوضاع مصر والصراع الدائر على أرضها.

ومن الملاحظ : أن الملك الصليبي عموري؛ اتجه إلى ضم القاهرة بعد الاستيلاء على بلبيس؛ نشمر أبناؤها عن ساعد الجد مدافعين عنها[٢]، وأمام مقدم القوات النورية ، اتجه الصليبيون إلى التفاوض مع شاور للإنسحاب، ، وتم الاتفاق على أن تقدم مصر لهم ألف ألف دينار ويتم تعجيل دفع مبلغ مائة ألف دينار ، والباقى فى صورة قطيعة سنوية بالإضافة إلى كميات ضخمة من الغلال[٣]. وهكذا ؛ ندرك بجلاء أن الصراع الإسلامي- الصليبي من جانب القوى السياسية الشامية ممثلة في الدولة النورية ، وكذلك مملكة بيت المقدس الصليبية على أرض مصر ، لم يحل- فى أحيان عديدة عسكريًا بل من خلال التفاوض على نحو عكس أهمية الدبلوماسية فى بعض مراحل تاريخ الصراع بين الطرفين.

على أية حال ؛ أدرك أسد الدين شيركوه - بعد الانسحاب الصليبي- أن الغصة القائمة أمام تدعيم الوجود العسكرى النورى متمثلة فى شاور ، فعمل على التخلص منه وبالفعل قتله صلاح الدين الأيوبى عام ١١٦٩م / ٥٥٩هـ[٤]، ولاريب أن شاوراً برحيله على ذلك النحو لم يأسف عليه أحد جزاء ما كسبت يداه من التحالف مع الصليبيين ومحاربة القوى الإسلامية؛ حرصًا على مصالحه السياسية المحدودة بالإضافة إلى عدم التزامه بأية اتفاقات كما أسلفت .

ومن بعد ذلك ؛ تولى أسد الدين شيركوه الوزارة للعاصمة نحو شهرين ، ولم يلبث أن قضى نحبه فى نفس العام[٥]، وبذلك انتهى ذلك الدور التاريخى البارز لذلك القائد العسكرى

١- ابن الأثير ، الباهر، ص١٣٩، ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٢٦- ص٣٢٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١، ص١٥٦ .

٢- المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٩٦ .

٣- ابن الأثير ، المصدر السابق، ص١٣٨، المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص٢٨٩ .

٤- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٤٠ ، ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد، ص٦٣، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ١ ، ص١٦١- ص١٦٣، . William of Tyre, vol . II, p. 357

فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، جـ٢، ت. اليازجى، ط. بيروت ١٩٥٩م، ص٣٣٥، كازانونا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ت. دراج ، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص٢٩ .

٥- ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد، ص٦٣، أورد استاذى الراحل أ.د. ماجد اشارة تلمح إلى احتمال =

المحنك الذى أظهر براعة خاصة فى حرب الصحراء والمدن واستطاع عبور الطريق من الشام إلى مصر عدة مرات فى أوقات قياسية من خلال تسابقه المحموم مع الملك الصليبى عمورى[١]، ويلاحظ هنا أن المؤرخين اعتادوا تسليط الأضواء الكاشفة على صلاح الدين الأيوبى بصورة كبيرة، وعلى نحو أقل نور الدين محمود ، أما أسد الدين شيركوه القائد العام لمعركة السباق على مصر الفاطمية، فإنه لم يحظ بالتقدير الجدير به ، والواقع أننا ينبغى أن ندرك الأمور بصورة أكثر موضوعية ، ونعيد لذلك البطل المسلم المكانة الجديرة به ، والجدير بها؛ فبدون إخلاص ذلك القائد البارز وكفاءته العسكرية لم تكن المعركة على مصر الفاطمية تحسم لصالح الدولة النورية بنفس الدرجة التى وقعت بها، ولاريب أنه يعد- وبحق- أحد كبار قادة الجهاد الإسلامى خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، وإن لم ينل نفس القدر من الدعاية السياسية التى نالها غيره من القادة المسلمين فى ذلك العصر.

ولا مراء؛ فى أن الصفحات التالية لتاريخ حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين سطرت من خلال رجلين بارزين هما نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى، ويلاحظ أن الأخير عمل وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد بعد وفاة أسد الدين شيركوه، ولانتشكك فى طموحاته السياسية الكبيرة، وبصفة عامة قام بثلاثة أدوار فى وقت واحد ، فهو رجل العاضد، وفى نفس الحين رجل نور الدين محمود فى مصر، كما أنه – وهذا هو الأخطر – رجل طموحاته السياسية.

وواقع الأمر ؛ أن الشاب اليافع الذى أرسله نور الدين محمود مع عمه أسد الدين شيركوه ، ونعنى به صلاح الدين الأيوبى قام بالأدوار الثلاثة ببراعة لاتدانيها براعة ، ونعرف أنه صد

= أن يكون صلاح الدين الأيوبى وراء قتل عمه شيركوه، والواقع أنه لايوجد دليل مصدرى يدعم ذلك التصور، ولا أتصور أن صلاح الدين الأيوبى الذى تمتع بأرقى مستويات الأخلاق الفروسية النبيلة بشهادة الصليبيين أنفسهم يقدم على مثل ذلك الأمر، انظر اشارته :

الدولة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص٨٢ .

١- أدين لأستاذى أ.د. أحمد رمضان بالتقدير لإثارته تلك الفكرة الحيوية فى نقاش علمى معه خاصة أنه خبير عسكرى بأرض سيناء الحبيبة فى حروب ١٩٦٧، ١٩٧٣م، وقد أوضح لى أن أسد الدين شيركوه من أبرع قادة حرب الصحراء فى ذلك العصر.

حملة صليبية على دمياط عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ [1]؛ عندما هاجمها الملك الصليبى عمورى الذى أراد غزو مصر من خلال أقرب الموانىء المصرية إلى الموانىء الصليبية ويلاحظ أن دمياط غدت مركزًا اقتصاديًا صناعيًا وتجاريًا مهمًا فى المنطقة [2]. وفى خلال العمليات الحربية الصليبية على المدينة، اتجه نور الدين محمود إلى الضغط على جبهة الصليبيين فى بلاد الشام من أجل تخفيف الضغط على دمياط ، وباءت حملة الملك عمورى بالخسران المبين، ومن الممكن إدراك أن من أهم عوامل الاخفاق الصليبى ؛ التنسيق العسكرى القائم بين القيادتين المسلمتين فى الشام ومصر، وهو تنسيق افتقد على مدى طويل من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى إلا ماندر، وبصفة عامة كان الخطر الصليبى على دمياط آخر خطر كبير يتعرض له صلاح الدين الأيوبى من جانب الصليبيين خلال تلك المرحلة المبكرة قبيل إسقاط الخلافة الفاطمية .

وبصفة عامة، عمل صلاح الدين الأيوبى على تدعيم النفوذ السنى فى داخل مصر الفاطمية خلال توليه منصبه كوزير للعاضد ، وعمل على انشاء المدارس السنية من أجل تحقيق ذلك الهدف، كذلك وطد أقدامه فى البلاد ، وطلب من نور الدين محمود أن يرسل له أفراد عائلته كى يتقوى بهم فى مواجهة الفاطميين، ومن ناحية أخرى؛ ألح عليه سيده - من خلال ضغط العباسيين فى الأصل- من أجل إسقاط الحكم الفاطمى وعودة مصر للمعسكر السنى؛ غير أنه تردد أكثر من مرة خوفًا من حدوث انتكاسة لمسعاه فى هذ الشأن ، خاصة أن الخلافة الفاطمية استمرت حوالى مائة وثمانين عامًا وليس من اليسير أن تنتهى بين عشية وضحاها ، ومع ذلك

١- عن الحملة على دمياط انظر :

الحريرى، الاعلام والتبيين ، ص٧٨، ويلاحظ أنه يعتبر تلك الأحداث وقعت عام ١١٦٦م/ ٥٦١هـ. والصواب ما أثبته فى المتن.

٢- عن أهمية دمياط الاقتصادية انظر :

ابن حوقل ، صورة الأرض، تحقيق دى جويه، ط. ليدن ١٩٣٨م، ص١٠٢ .

ابن زولاق، فضائل وأخبارها ، تحقيق على محمد عمر، ط. القاهرة ١٩٩٠م، ص٥٧، أمينة الشوربجى ، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى، (٣٥٨-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م) ، ط. القاهرة المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى ، ط. القاهرة ١٩٨٦م، ص١٥٣ .

Lombard, The Golden Age of Islam , p. 165 .

صفاء حافظ عبد الفتاح، الموانىء والثغور المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص١٥٣- ص١٥٤ .

من الممكن القول أن التأخير فى إسقاط الدولة الفاطمية من أسبابه رغبة صلاح الدين الأيوبى فى توطيد أقدامه فى مصر، ولاشك فى أن الأدوار الثلاثة لصلاح الدين السالفة الذكر كانت من عوامل التأخير فى إعلان سقوط الدولة الفاطمية ، مع عدم اغفال العوامل الأخرى بطبيعة الحال .

وأخيراً : أعطى نور الدين محمود – رجل العباسيين فى المنطقة- إنذاراً لصلاح الدين الأيوبى لافسحة فيه من أجل اسقاط رجل المنطقة المريض فى صورة الفاطميين ، وهو ما تم بالفعل فى ١٠ سبتمبر عام ١١٧١م / أول جمعة من المحرم من عام ٥٦٧هـ[١]، وقد تم الدعاء للخليفة العباسى، ومن بعد ذلك مات الخليفة العاضد بعد رحلة مع المرض حزنًا وكمداً وبذلك سقطت الخلافة الفاطمية . أما مهندس سقوطها فهو- بلا ريب- نور الدين محمود ، ومن تولى التنفيذ بخبره ، وحنكة ، واقتدار ، صلاح الدين الأيوبى.

ولانزاع فى أن سقوط الدولة الفاطمية يعد حدثًا على جانب كبير من الأهمية على كافة الأصعدة والمستويات ، ويمكن وصفه بالاعصار الشامل الذى غير المنطقة تغييراً كان له أثره على مسيرة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر وبالتالى مستقبل الوجود الصليبى ذاته.

فقد عادت مصر بكل امكاناتها البشرية والاقتصادية وتفرد موقعها الجغرافى إلى المعسكر السنى ولم تعد تناصب العباسيين العداء، وهو عداء اجهدها ، وبدد طاقاتها فيما لايفيد المسلمين . ومن الآن فصاعداً تم ضخ دماء زكية جديدة فى جسد حركة الجهاد فالعملاق المصرى الذى كان فى سبات عميق فى عهد الفاطميين؛ استيقظ الآن ليضع تاريخًا وثابًا جديداً بالتعاون مع الشقيقة الجغرافية والتاريخية لمصر فى صورة بلاد الشام.

أضف إلى ذلك : أن العباسيين حققوا حلمهم الذى راودهم طويلاً ، ولم يحققوه إلا بشق الأنفس ، وبعد أن بلغ بهم الاجهاد كل مبلغ، فكم نافست القاهرة بغداد ، طويلاً ، والآن صار

١- ابن حماد، تاريخ ملوك بنى عبيد، ص٦٣ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٣٤١، السيوطى، تاريخ الخلفاء ، ص١٧٩ ، الذهبى، دول الإسلام ، جـ٢ ، تحقيق شلتوت ومصطفى ابراهيم ، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص٧٩- ص٨٠ ، خاشع المعاضيدى، الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى، ط. بغداد ١٩٧٦م، ص٢٠٥ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العرينى، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٦٠ .

O'Leary , Ashort History of the Fatinid Khalifate , London 1923 , p. 243 . *

النفوذ العباسى فى قلب عاصمة الفاطميين السابقة ، ومع انتصار العباسيين تأكد نجاح الحلف العباسى- النورى فى تحقيق هدفه النهائى باسقاط خلافة الفواطم، ولانزاع فى أن الدعم المادى والمعنوى العباسى الغير محدود للدولة النورية[1] كان وراء نجاح ذلك التحالف فى تحقيقه هدفه الاستراتيجى .

ولانغفل أن انضمام مصر للمعسكر السنى؛ أشعر الصليبيين بالقلق من عواقب الأمور، إذ أن سماءهم غدت ملبدة بالغيوم المنذرة بأوخم العواقب على وجودهم فى بلاد الشام، ولانغفل أنه على مدى سبعة عقود كاملة أفاد الصليبيون من الانقسام السياسى والمذهبى لدى المسلمين وكان الصراع والتنافس الفاطمى- العباسى من أهم عوامل نجاحهم فى زرع وجودهم فى المنطقة- كما اسلفنا الإشارة من قبل- أما الآن، فإن البيئة التى كانت صالحة لنمو الكيان الدخيل، تغيرت تمامًا ، ولم يعد هناك الانقسام بل الوحدة التى تمهد لطرد الدخلاء إلى غير رجعة ، ومن المؤكد تاريخيًا أن الشامصر وحدة عضوية حقيقية ، ومن المنطقى تصور أن التغير فى مصر اعقبه تغير فى بلاد الشام ويكفى أن الوجود الصليبى صار محاصراً من جهة شمالية، وجهة جنوبية وهو ما كان الصليبيون يخشونه على مدى تاريخ وجودهم فى المنطقة، وعندما نطالع ما سطره المؤرخ الصليبى البارز وليم الصورى William of Tyre سنتأكد أن ذلك الرجل أدرك أن الخطر أحدق ببنى قومه أكثر من ذى قبل.

ولاشك فى الأعوام التالية لعام سقوط حكم الفواطم وهو عام ١١٧١م / ٥٦٧هـ يمكن أن توصف وبحق بأنها أعوام العد التنازلى لإسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية ، وليس غريبًا أن ذلك وقع بعد ستة عشر عامًا فقط من ذلك الانجاز الكبير، ولانبالغ إذا ذهبنا إلى القول بأن إسقاط دولة الفواطم كان المقدمة الحقيقية لما حدث فى حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ .

زد على كل ذلك؛ أن صلاح الدين الأيوبى تألق نجمه بصورة غير مسبوقة ، لقد أثبتت ذلك الشاب النابه أنه أجاد تنفيذ خطة مهندس حركة الجهاد الإسلامى فى النصف الثانى من القرن

١- من أمثلة ذلك أنه عندما وقع زلزال مدمر بمناطق الشام عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ، وأصيبت من جرائه الدولة النورية ؛ سارعت بطلب العون من الخلافة العباسية التى سارعت بنجدتها، عن ذلك انظر بالتفصيل ، الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى، ص٤٨- ص٤٩ ، محمد مؤنس عوض، الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٩٥- ص١٠٩ ، وانظر ملحق رقم (١٠) ص١٧١- ص١٧٢ .

الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى، وفى حقيقة الأمر أن الفاطميين بضعفهم وانفصالهم عن المصريين على المستوى الأيديولوجى وتعنى به الدعوة الشيعية التى لم تتمكن من تحقيق نجاحات كبيرة فى صفوفهم ، أعانوا صلاح الدين فى تنفيذ أهدافه نحو اسقاطهم دون أن يدروا.

وهكذا نصل إلى قناعة مؤداها أن الفاطميين بضعفهم سقطوا من الداخل قبل أن يسقطوا من الخارج، فقد عاشوا فى بيات شتوى طويل الأجل، وكان العالم من حولهم يتغير وهم لايتغيرون ولذلك خرجوا من التاريخ بجدارة ، مثلما دخلوه من قبل- فى عصر قوتهم- بجدارة.

وختامًا : من الصعب أن نجد طوال المرحلة السابقة من تاريخ الصراع الإسلامى - الصليبى حدثًا تاريخيًا أثر على ما أتى من بعده من أحداث - لاسيما فيما يتعلق بالجانب الإسلامى وبناء جبهته المتحدة - مثلما فى إسقاط الدولة الفاطمية عام ١١٧١م/ ٥٦٧هـ.

على أية حال؛ من بعد تلك الأحداث ، نجد الأربع سنوات القلقة فى حياة صلاح الدين الأيوبى وهى الممتدة من ١١٧١م / ٥٦٧هـ إلى ١١٧٤م / ٥٧٠هـ والعام الأخير هو عام وفاة نور الدين محمود ، وواقع الأمر أن الخلاف دب بين الرجلين، وهناك تصورات متعددة فى تعليل ذلك الخلاف، فهناك رأى يرى أن نور الدين محمود استهان بالهدية التى أرسلها صلاح الدين الأيوبى إليه من خزانة العاضد[١]، وكذلك ما أرسله من أموال ورغبته فى محاسبته على ما فى مصر من خراج ، بينما وطد صلاح الدين أقدامه فى مصر وارتفعت مكانته على نحو لم يعد يقبل معه أن يعامله سيده على مثل ذلك النحو ، ويذهب ابن أبى طىء إلى أن من عوامل الخلاف بين الرجلين أن صلاح الدين تولى الوزارة للعاضد دون علم سيده[٢]، وهو قول مردود ؛ إذ أنه خلال ذلك الحين لم يكن صلاح الدين يقدم على عمل من الأعمال لاسيما تولى منصب بمثل تلك الأهمية ، والخطورة دون مشورة سيده نور الدين ، ومن المحتمل أن الجوانب المادية السالفة الذكر كان لها اعتبارها ؛ غير أن الحادثة الأكثر أهمية فى تفكير صفو العلاقة

١- ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية، ص٢٢٠ .

٢- الذهبى ، دول الإسلام، جـ٢ ص٨٢ .

٣- نقلاً عن : ابن قاضى شهبة، المصدر السابق، ص١٨١ .

بينهما: تمثلت فى طلب نور الدين محمود من صلاح الدين القيام بمحاصرة حصن الكرك الاستراتيجى معه، غير أنه لم يلق منه سوى المماطلة ، وقد أدى ذلك إلى أن فكر نور الدين محمود جديًا فى غزو مصر إلا أن المنية فاجأته .

ومن المحتمل أن صلاح الدين الأيوبى أدرك بما لديه من فطنة وذكاء : أن الحملة على الكرك لن يكون الهدف من ورائها مجرد إسقاط حصن صليبى بل إسقاطه هو عن مصر، وابعاده عن معقله الحصين حتى يسهل القضاء عليه، ولذلك قرر، عدم الاشتراك فى ذلك الأمر، وتعلل بالخوف من أية تحركات مضاده من جانب أنصار الفاطميين.

ويقرر ابن الأثير: أن صلاح الدين كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج عن طريقه : أخذ البلاد منه فكان يحتمى بهم عليه ولايؤثر استئصالهم [١]، ومع إدراكنا الكامل لتحامل ابن الأثير- ربيب البيت الزنكى- على صلاح الدين إلا أنه من الممكن تصور أن ذلك كان حقيقيًا فى تلك المرحلة؛ إذ أن رغبة صلاح الدين فى الاستقلال بمصر، جعلته يستفيد من الوجود الصليبى بينه وبين سيده فى بلاد الشام المجاورة لمصر، وبذلك كان ذلك الوجود بمثابة الحاجز الذى فصل بين الرجلين. غير أنه- وهذا هو المهم- بعد أن انتهى خطر الأخير عليه بوفاته عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ : قام بالجانب الأكبر فى جهاد الصليبيين وأبلى فى ذلك بلاءً حسنًا على نحو ضمن له أعظم مكانة فى تاريخ أبطال الجهاد فى ذلك العصر.

على أية حال، جاءت وفاة نور الدين محمود عام ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ بمرض الذبحة الصدرية، لينهى حياة أحد أبطال حركة الجهاد الإسلامى الأفذاذ الذين لم يحصلوا على حقهم من التقدير على نحو كاف، ولعل من أسباب ذلك أن قطاعًا من المؤرخين ممن استهوتهم عمليات إسقاط الإمارات والممالك الصليبية ، نظروا للرجل على أنه لم يحقق أمرًا حاسمًا فى صراعه مع الصليبيين[٢]، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه ر. سى. سميل R.C. Smail واتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم [٣]، وأرجع ذلك إلى جبنه، وانعدام روح المبادرة لديه، وخوفه من التدخل البيزنطى لصالح الدول اللاتينية[٤].

١- الباهر، ص١٦١ .

٢- عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٥٦ .

٣- الحروب الصليبية، ص٧٢ .

٤- نفس المرجع والصفحة .

وفى حقيقة الأمر : أن كافة الآراء السابقة لاتنطبق على الواقع التاريخى، فيكفى نور الدين محمود شرفًا أنه مد سيادته إلى دمشق عام ١١٥٤م / ٥٤٩هـ، وبالتالى وحد الموصل وحلب ودمشق لسيطرة سلطان واحد، وكان اتحاد حلب ودمشق هذا لأول مرة منذ العصر السلجوقى وما اتسم به من تصارع وتناحر لاسيما بعد دخول السلاجقة فى مرحلة الضعف الشهيرة ، ويكفيه تسابقه المحموم مع الملك عمورى على نحو حسم الأمر فى النهاية بخضوع مصر للمعسكر السنى لتدعم حركة الجهاد ولاتقع فى قبضة الصليبيين . أما ما توهمه ر. سى. سميل بشأن نور الدين فلاينطبق على الحقيقة فى شىء، ويكفى الرجل أنه حارب فى العديد من المعارك شخصيًا وتمنى الشهادة ولم ينلها، ومن المحتمل أن صورته وهو يفر فى معركة البقيعة عند سفح حصن الأكراد عام ١١٦٢م/ ٥٥٨هـ، جعلت البعض يتصوره بالفارس الذى يفر من المعركة والواقع أنه كان هجومًا صليبيًا مفاجئًا ، وما فر الرجل إلا ليعود ليقاتلهم بشراسة أكثر من ذى قبل، أما خوفه من التدخل البيزنطى فهو أمر واقعى تمامًا ، وإذا لم يخشى التدخل البيزنطى لربما قضى على جيشه قضاءً مبرمًا أمام التحالف البيزنطى-الصليبى، ويلاحظ أنه جبهة شمال الشام استغلقت تمامًا عليه ، والانفراج أتى له من الجنوب من مصر فى نهاية المطاف.

أما اتهام نور الدين محمود بعدم الطموح[1] فهو أمر تفنده الأحداث التاريخية ذاتها، إذ امتدت ساحة صراعه مع الصليبيية من إمارة الرها إلى أنطاكية إلى طرابلس وكذلك مملكة بيت المقدس، بل فى عهده فتحت جبهة أفريقية جديدة غير مسبوقة ، فهل يعد ذلك قول بعدم الطموح؟ أنها أوهام بعض المستشرقين ممن لم يتعمقوا فى دراسة تاريخ الرجل، وأطلقوا أحكامًا عامة على جهاده ، ومن ثم لم يحالفهم التوفيق، وواقع الأمر: أن الباحثين الذين نظروا فيما بعد إلى حجم الانجازات الكبيرة التى حققها المسلمون فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، وتمكنه من إسقاط مملكة بيت المقدس عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ نظروا إلى مجهودات نور الدين محمود بشىء من الازدراء نظرًا لعجزه عن تحقيق ما حققه عامله على مصر، بينما الأحداث التاريخية ذاتها تثبت لنا أن صراع نور الدين محمود مع المملكة المذكورة قد مهد السبيل لصلاح الدين لتحقيق ما حققه[2] ، وهكذا: كان صلاح الدين خير تلميذ لخير أستاذ للجهاد فى صورة نور الدين محمود .

١- سميل، الحروب الصليبية ، ص٧٢ .

٢- محمد مؤنس عوض، فى الصراع الإسلامى- الصليبى ص١٦٠ .

تبقى زاوية أخيرة فى هذا الفصل : وهى ضرورة التأكيد على تكامل أدوارد قادة الجهاد وعدم تنافرها؛ فقد مثلوا سلسلة متصلة الحلقات، وفى نفس الحين كانت أدوارهم تراكمية، فكل أفاد من سابقه، وكلما مر الزمن على تلك الحركة كلما بلغت شأنها من النضج والكمال، ومن ثم من الضرورة عدم النظر إلى مرحلة النضج فقط واغفال مراحل النمو السابقة، إذ أن ذلك يجعلنا نجتزىء مراحل التاريخ، ونهتم ببعضه ، ولانعطى ذات القدر من الاهتمام للبعض الآخر، ناهيك عن أن من قادة الجهاد الإسلامى حينذاك من امتلك شخصية كارزمية آثره ، وامتلك جهازاً دعائيًا فعالاً ، والبعض الآخر- على الرغم من انجازاته- لم يكن لديه تلك المقومات وانعكس ذلك بدوره على اهتمام المؤرخين أو عدم اهتمامهم ببعض القادة دون غيرهم.

ذلك عرض للصراع الإسلامى - الصليبى خلال المرحلة من ١١٤٦ - ١١٧٤م / ٥٤١-٥٧٠هـ ، أما الفصل التالى؛ فإنه يتصدى لتناول أوضاع مملكة بيت المقدس الصليبية وزلزال حطين الذى أصابها عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ .

الفصل السابع

أوضاع مملكة بيت المقدس الصليبية

وزلزال حطين (١١٧٤-١١٨٧م ٥٧٠-٥٨٣هـ)

يتناول هذا الفصل بالدراسة أوضاع مملكة بيت المقدس الصليبية خلال المرحلة الواقعة من عام ١١٧٤ / ٥٧٠هـ إلى ١١٨٧م / ٥٨٣هـ وهى مرحلة بالغة الأهمية فى تاريخ تلك المملكة ، والعام الأول هو عام وفاة الملك عمورى الأول آخر الملوك الصليبيين الكبار، والعام الأخير هو عام زلزال حطين الذى أدى إلى سقوط مملكة الصليبيين، ودخول المسلمين مدينة بيت المقدس لأول مرة منذ سقوطها فى قبضة الغزاة فى عام ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ .

وواقع الأمر : أن المرحلة المذكورة تعكس لنا بجلاء ضرورة دراسة الكيان الصليبى من الداخل من أجل إدراك عوامل القصور والضعف التى أدت فى النهاية إلى سقوطه، على اعتبار أن سقوط الكيانات السياسية يكون من الداخل قبل الخارج، وفى نفس الحين ندرس حجم الانجازات الإسلامية على صعيد مواجهة الصليبيين من أجل تعاون العوامل الداخلية والخارجية فى صنع أحداث عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ الذى عصف بالمملكة الصليبية .

وبداية من الممكن تصور أن السنوات الأربع عشرة المذكورة اتسمت بظاهرة جديرة بالانتباه ، وهى «عنصر الزمن» ، وكيف تعامل معه كل طرف من الطرفين الإسلامى والصليبى، فإذا كنا قد لاحظنا من قبل كيف أن بلدوين الأول مؤسس الكيان الصليبى أدرك أهمية الإفادة من الأوضاع المتردية للمسلمين ولذلك أفاد من العنصر المذكور، وفى خلال سنوات قليلة أقام كيانًا من لاشىء، فيبدو بجلاء الآن- وخلال السنوات الأربع عشرة المشار إليها- أن تلك الزاوية افتقدها الصليبيون تمامًا ، وأن مميزات الأمس، صارت أخطاء المرحلة القاتلة، وأنهم كأنهم قاموا بعملية تغيير فصارت لهم ذات المساوىء التى كانت للمسلمين عشية مقدم الحركة الصليبية إلى المنطقة، ومميزاتهم انتقلت إلى اعدائهم ، وأصبح حجم الفعالية السياسية والحربية المسلمة كبيراً على نحو يفوق بمراحل حجم السنوات المذكورة ، وهذه زاوية يعد فهمها من الضرورة بمكان لإدراك حقيقة مقدمات معركة حطين الشهيرة .

على أية حال ، من الأمور المؤكدة أن وفاة الملك الصليبى عمورى الأول عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ، كانت نهاية مرحلة ، وبداية أخرى فى تاريخ الصليبيين فى بلاد الشام، فقد انتهى عهد آخر الملوك الصليبيين الذين فكروا فى الخروج من النطاق الآسيوى، ومحاولة الانتقال إلى النطاق الأفريقى الحيوى سياسيًا واقتصاديًا ، غير أن حملاته- كما أسلفت- باءت بالفشل، ومع ذلك يعد واحداً من كبار القادة الصليبيين ، وهكذا بدأ عهدهم القوى فى المنطقة ببلدوين الأول وانتهى بعمورى الأول، ومن المهم إدراك أن فشل حملات ذلك الملك الصليبى على مصر من خلال الجهد البارز لفعاليات الحلف النورى- العباسى، لاتجعلنا نقلل من أهمية دوره فى تاريخ الصليبيين فى ذلك الحين .

وهكذا ، أدت وفاة عمورى الأول إلى ايجاد فراغ سياسى صعب أن يشغل بملك صليبى آخر على نفس امكاناته [1]، فيلاحظ أنه من بعده ؛ تولى ابنه بلدوين الرابع Baldwin IV (١١٧٤-١١٨٥م / ٥٧٠-٥٨١هـ) الذى كان قد بلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا ، وقد تولى الوصاية عليه الكونت ريموند الثالث Raymond III of Tripolis (١١٥٢-١١٨٧م / ٥٤٧-٥٨٣هـ) صاحب طرابلس ، وهو شخصية تأثرت بحياة المسلمين ، وتعلم اللغة العربية، ولم يكن يفضل أسلوب الفرسان الصليبيين الأوائل الأشداء، ويلاحظ زن المملكة الصليبية حينذاك تنازعها حزبان ، الحزب الأول وتمثل فى البارونات المحليين والاسبتارية [2]، وقد خضعوا للوصى على العرش، وفضل ذلك الحزب التعايش مع المسلمين والتفاهم معهم قدر الاستطاعة ، أما الحزب الآخر ؛ فإنه تمثل فى حديثى العهد بالإقامة فى مناطق الصليبيين من المهاجرين الجدد من الغرب الأوربى ، وهم الذين أشار أسامه بن منقذ (ت ١١٨٨م/ ٥٨٤هـ) من قبل إلى تعصبهم الشديد ضد المسلمين- وكذلك عناصر الداوية، ومثل ذلك الحزب الاتجاه المتشدد الذى يفضل الحرب كوسيلة لحسم النزاع مع المسلمين فى أية خلافات تنشب بين الطرفين، ويلاحظ أن الحزب الأخير سيورد المملكة الصليبية موارد الهلاك، والتاريخ المهم فى

١- على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية فى مصر ، ط. القاهرة ، ١٩٥٢م، ص٢١٠ .

وفى ذلك يقرر على بيومى أن وفاة الملك عمورى الأول مثلت خسارة كبرى بالنسبة للصليبيين، ولم يوجد بين الأخيرين من يملأ الفراغ الذى وجد من جراء رحيل ذلك الملك الصليبى انظر الصفحة المذكورة .

٢- Runciman, vol . II, p. 443 .

حياة ذلك الحزب هو عام ١١٧٥م / ٥٧١هـ، عندما أطلق المسلمون سراح الفارس الفرنسى المغامر رينو دى شاتيون Renauld de Chatillon ، وهو ما ستكشف عنه الصفحات التالية .

ويلاحظ أن بلدوين الرابع أصيب بالجزام على نحو أنهك صحته، وفى نهاية المطاف تخلى عن السلطة، ، وتولى من بعده بلدوين الخامس Baldwin V (١١٨٥-١١٨٦م / ٥٨١-٥٨٢هـ) ، وقد توقف مصير الأسرة الحاكمة على سيبيلا وهى الأخت الكبرى للملك الصليبى، وقد تزوجت من وليم مونتفرت William Montfort عام ١١٧٦م / ٥٧٢هـ، الجبت له بلدوين الخامس، وحيث أنه مات بعد عام، فقد تزوجت من بعده من جى لوزينيان Guy de Lu-signan وذلك عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ، تولى بلدوين الخامس الحكم عام ١١٨٥م / ٥٨١هـ وفى نفس الحين تولى ريموند الثالث صاحب طرابلس الوصاية عليه لمدة عشرة أعوام (١).

ولامراء : فى أن ذلك كله عكس انشقاق الصليبيين على انفسهم، ولكى تكتمل صورة الصراع لابد من الاتجاه إلى الطرف الإسلامى كى نعرف حجم الانجازات التى تحققت .

وواقع الأمر؛ أن صلاح الدين الأيوبى مثل عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ عامًا محوريًا فى حياته السياسية ، فقد توفى نور الدين محمود ، كذلك تم القضاء على ما عرف بالمؤامرة الدولية الكبرى التى أشترك فيها أنصار الفواطم فى مصر وعلى رأسهم الشاعر عمارة اليمنى، والحشاشين فى بلاد الشام ، والقوى الصليبية من أجل الإطاحه به، غير أن خيوط المؤامرة تم اكتشافها من قبل التنفيذ ، وتم إعدام قادتها وعلى رأسهم الشاعر المذكور وبذلك قدر لصلاح الدين النجاه من تلك المؤامرة التى كان من الممكن فى حالة نجاحها الفتك بمشروعه الوليد فى مجال الوحدة والجهاد ضد الصليبيين(٢).

١- فاروق عمر فوزى ومحسن حسين ، تاريخ فلسطين فى العصور الإسلامية الوسطى، ط. بغداد ١٩٨٧م، ص٢٤٠- ص٢٤١ .

٢- عن تلك المؤامرة وفشلها أنظر :

ابن أيبك الدوادارى ، الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، تحقيق سعيد عاشور ، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٥٥ ، المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٥٣ ؛ ابن قاضى شهبة، الكواكب الدرية ، ص٢٥٤ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٧٠- ص٧١ ، ابراهيم طرخان، الناصر صلاح الدين وتحرير القدس، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص٢٠- ص٢١ ، عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى، ط. بيروت ١٩٦٢م، ص٩٣ - ص٩٥ ، مصطفى غالب، أعلام الإسماعيلية ، ط. بيروت ١٩٦٩م، ص٤٢٠ ، ص٤٢٢ .

ومن الملاحظ أن صلاح الدين الأيوبى اتجه من بعد وفاة نور الدين محمود إلى التقدم إلى بلاد الشام، بعد أن عصفت بدولته الخلافات خاصة مع تولى ابنه القاصر الصالح اسماعيل الحكم، وتمكن من دخول دمشق بالفعل عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ، وقد جعل ذلك المسلك البعض ينظر إليه على أنه رمز للعقوق والتهجم على أملاك سيده [١]، وفى حقيقة الأمر أنه كان يحمى دمشق من الوقوع فى براثن التفكك والانقسام ، وفى نفس الأمر يوحد مصر وعاصمة الشام التاريخية من الجنوب إلى الشمال على عكس الاتجاه السابق لحركة الجهاد الإسلامى التى اتجهت من الشمال إلى الجنوب ، ومن بعد ذلك اتجه إلى فرض سيادته على باقى حواضر الظهير البرى لبلاد الشام ولامراء فى أن تدخل صلاح الدين السريع نحو دمشق ؛ عكس روح المبادرة لديه وعدم وقوفه مكتوف اليدين أمام تلاحق أحداثها.

ولانغفل ، أن ذلك السلطان الأيوبى تعرض للأخطار المحدقه به، ولا أدل على ذلك من تعرضه لمحاولة اغتيال من جانب الاسماعيلية النزارية أو الباطنية وعلى رأسهم مقدمهم فى بلاد الشام راشد الدين سنان (١١٦٣-١١٩٣م / ٥٥٩-٥٩٠هـ) وذلك عام ١١٧٦م / ٥٧١هـ[٢]، خلال حصاره لحلب بشمال الشام ، غير أن المحاولة فشلت وكتبت له النجاة بأعجوبة .

ويلاحظ أنه التقى مع خصومه من المسلمين فى معركة قرون حماه فى ١٤ أبريل ١١٧٥م / ١٩ رمضان ٥٧٠هـ[٣] وقد انتصر فيها انتصاراً ساحقًا وغنم مغانم وفيرة ،

١- من أمثلة المهاجمين بشراسة السلطان الأيوبى انظر : حسن الأمين ، صلاح الدين الأيوبى نظرة مختلفة، العربى، العدد (٤٤٢) سبتمبر ١٩٩٥م ، ص١٠٤- ص١٠٧ .

وهو هجوم فيه الكثير من التحامل بل والتجنى؛ ومن المدافعين انظر : أحمد حمد أحمد ، «فقه التاريخ وانتصارات صلاح الدين » ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد (٥٩) السنة (١٥) ، صيف ١٩٩٧م، ص٣٣- ص٤٧ .

٢- عن محاولة الباطنية اغتياله عام ١١٧٦م / ٥٧١هـ انظر :

ابن الأثير ، الكامل ،جـ١١ ، ص١٣٠ ، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ص٣٢٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٢٤ ، برنارد لويس، الدعوة الاسماعيلية الجديدة، ص١٣٠ ، جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، جـ٢ ، ط. القاهرة ١٩٦٧م، ص٤٥ .

٣- عنها: سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الايوبيين والمماليك، ص٤٠ .

وفى أعقابها اسقط اسم الصالح اسماعيل من الخطبة والسكة ، ولاريب فى أنه أدرك أكثر من ذى قبل مدى قوته على نحو مكنه من أن يخطو تلك الخطوة الجريئة .

ومن الأحداث المهمة فى حياة ذلك القائد المسلم البارز، تعرضه لمحاولة اغتيال ثانية آثمة من جانب الباطنية عام ١١٧٦م / ٥٧١هـ خلال حصاره لإعزاز، وكتبت له النجاه هذه المرة مثلما الحال فى المرة السابقة ، ولامراء فى أن محاولتى الاغتيال أكدت كيف أن الإسماعيلية النزارية عملت على اعاقة حركة الجهاد الإسلامى حينذاك، وها هو قائد الحركة يتعرض لمحاولتين آثمتين ، وكأن تلك الفرقة وقفت مع الصليبيين فى خندق واحد، والأمر المؤكد هنا- دون الاتهام بالارتماء فى أحضان التفسير الدينى الذى لايروق البعض - أن العناية الإلهية حفظت لهذه الأمة التى اشتاقت لمذاق الانتصار قائد الوحدة الذى سيتحقق على يده الآمال الكبار، ومهما امتلك ذلك السلطان من أساليب احترازية فى مواجهة أولئك الآثمين ما كان له أن يكتب النجاه لنفسه دون دعم الله تبارك وتعالى، وهى حقيقة بديهية تحتاج - للأسف الشديد- إلى تأكيدها أمام افتراءات البعض .

على أية حال : شهد عام ١١٧٦م / ٥٧٢هـ حدثين مهمين فى حياة ذلك السلطان ، الأول، اقترانه، بعصمة الدين خاتون ابنة معين الدين انر وأرملة نورالدين محمود [٢]، ولاشك فى أنه هدف من وراء ذلك الزواج السياسى أن يظهر بمظهر الوريث الشرعى للبيت النورى على نحو يعيشه على تحقيق مشاريعه السياسية[٣]. ومن الجلى البين أن ذلك السلطان تمتع بجانب كبير من الدهاء السياسى على نحو وظفه فى ساحة الجهاد، وسلك كافة الدروب الممكنة من أجل تحقيق الأهداف المنوطة به لمصالح أمته.

١- عن تفاصيل ذلك أنظر :

سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق١، ص٣٣٥، الأصفهانى ، البستان الجامع، ص١٤١، المقريزى، السلوك، جـ١ / ق١ ، ص٦٧ ، حامد غنيم، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، جـ٢ ، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٧٤ ، يوسف الدبس، تاريخ سوريا ، جـ٦ ، ط. بيروت ١٩٠٠م، ص٨٦- ص٨٧، محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية، ص٢٥٠ .

٢- العماد الاصفهانى ، سنا البرق الشامى، تحقيق فتحية النبراوى، ط. القاهرة ١٩٧٩ن، ص١١٣ .

٣- محمود الحويرى، أثر قيام الجبهة الإسلامية ، ص١٧٤ .

أما الحدث الثانى : فهو تشييد قلعة الجبل التى بدأ تشييدها فى عام ١١٧٦م / ٥٧٢هـ[١]، واكتمل بعد ثلاثة عقود كاملة فى عهد السلطان الكامل الأيوبى[٢] (١٢١٨-١٢٣٨م / ٦١٥-٦٣٥هـ) والجدير بالذكر هنا؛ أن ذلك السلطان أدرك أهمية مصر فى أمر الصراع مع الصليبيين ، ولذلك عمل على تحصينها من خلال تلك القلعة المنيعة، وقد أشرف على تشييدها بهاء الدين قراقوش الذى يعد من أبطال تلك المرحلة، وتم تشويه سيرته من خلال ابن مماتى[٣] ، غير أن التاريخ المنصف يثبت لذلك الرجل مكانته البارزة فى ذلك العصر ، وتقف قلعة الجبل شاهدة على دوره الذى لاينكر، وبصفة عامة؛ نلاحظ أن ذلك العام الذى مكثه صلاح الدين فى مصر انهمك فيه بتأمينها وتحصينها إدراكًا لحجم الخطر الصليبى، ومن بعد ذلك انصرف إلى بلاد الشام ولن يكتب له القدر العودة مرة أخرى إلى أرض الكنانة.

من الملاحظ : أن ذلك السلطان الأيوبى، مثل طاقة متجددة للجهاد ، وحركة دائبة، فلم يركن إلى حياة الدعة والترف التى عاشها الفاطميون من قبل، بل ارتبط بالجهاد ارتباطًا وثيقًا، واستحق عبارة بهاء الدين بن شداد الخالدة حيث قال : «ما كان له حديث إلا فيه ، ولانظر إلا فى آلته. ولاكان له اهتمام إلا برجاله ، ولاميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، وقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة» [٤].

وتصديقًا لتلك الكلمات الصادقة : يحسن بنا أن نتعرض - بإيجاز- لأهم معاركه مع

١- عنها بالتفصيل انظر :

ابن جبير، الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٥ .

كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة . أحمد دراج ، مراجعة جمال محرز، ط. القاهرة ١٩٧١م .

٢- كليفورد بوزورث ، الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى دراسة فى التاريخ والأنساب، ت. حسين على اللبودى مراجعة سليمان ابراهيم العسكرى، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٩٤ .

٣- انظر :

ابن مماتى، الفاشوش فى حكم قراقوش ، تحقيق عبد اللطيف حمزة ضمن كتاب حكم قراقوش ط. القاهرة .

٤- النوادر السلطانية ، تحقيق الشيال، ص٢١ .

الصليبيين حتى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ . فيلاحظ[١] أنه اشتبك بقواته معهم عام ١١٧٧م / ٥٧٣هـ ، فى معركة تل الصافية التى لقى فيها هزيمة نكراء نتيجة شن الصليبيين لهجوم مفاجىء على القوات الأيوبية ، وانسحبت تلك القوات على نحو مزرى عبر صحراء شبه جزيرة سيناء ، ولدينا وصف مسهب لتلك المعركة من جانب المؤرخ الصليبى وليم الصورى[٢]، وقد تأكد له فى أعقابها ضرورة أن يجعل بلاد الشام خاصة دمشق ؛ قاعدة عملياته العسكرية ضد الصليبيين نظراً لقرب المسافة منها إلى مناطق الصليبيين ، أما مصر ؛ فهناك عقبة بعد المسافة بينها وبين فلسطين لاسيما فيما يتعلق بتأمين خطوط التموين للقوات المحاربة[٣].

ومن بعد ذلك ؛ حقق الجيش الأيوبى انتصاراً على الصليبيين فى العام التالى ١١٧٩م / ٥٧٤هـ بالقرب من بانياس ، وكان من ضمن القوات الصليبية الملك بلدوين الرابع نفسه[٤]، كذلك تحقق انتصار آخر على ذلك الملك وريموند الثالث بالقرب من تل القاضى عند سهل مرج عيون فى نفس العام[٥]. ومن بعد ذلك تم له الاستيلاء على حصن جسر بنات يعقوب الذى شيده الصليبيون[٦] فأكمل بذلك ثلاثة انتصارات فى عام واحد.

١- عن معركة تل الصافية انظر :

William of Tyre, vol. II, p. 397 .

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٣ ، الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى، ص١٣٠ ، يوسف درويش غوانمه ، دراسات فى تاريخ الأردن وفلسطين فى العصر الإسلامى، ط. عمان ١٩٨٣م، ص٦٨٩، محسن محمد حسين ، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين ، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٤١٢ .

٢- William of Tyre, vol . II, pp. 397-454 .

٣- يوسف درويش غوانمه، المرجع السابق، ص١٨٩ .

٤- ابن واصل، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٧٢- ص٧٣ .

٥- محمود الحويرى، أثر قيام الجبهة الإسلامية ، ص١٨٤ .

٦- ابن شاهنشاه الأيوبى، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق حسن حبشى، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص٢٤ - ص٣١ . هاملتون جب، صلاح الدين الأيوبى، دراسات فى التاريخ الإسلامى، ت. يوسف أيبش، ط. بيروت ١٩٧٣م، ص١٣١ .

وفى الحقيقة : ليس هناك تعليل لتلك الانتصارات العديدة خلال ذلك العام إلا من خلال ملاحظة أن ذلك السلطان الأيوبى زمام المبادرة فى الهجوم على الصليبيين ، واتبع حرب الاستنزاف الأيوبية الطويلة ضدهم، ووجد ضرباته في العديد من الاتجاهات ، وفى مختلف المناطق على نحو جعل الغزاه لايستطيعون له دفعًا ، ومن المتصور أنه أدرك بذكاء أن خير وسيلة للتعامل مع أعدائه إرهاقهم بحرب استنزاف مستمرة لا هوادة فيها ولايستطيعون معها اعادة ترتيب صفوفهم ، خاصة أنه أدرك الضعف الذى دب فى أركان المملكة بعد عام ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ، وفى نفس الوقت كانت تحت يديه جبهة إسلامية متحدة، وسهول وديان النيل، والفرات، والعاصى وغيرها من الأنهار تمده بكثافات سكانية أفادته فى مواجهة غزاه عانوا أصلاً من صعوبه تعويض الفاقد البشرى، والأهم من ذلك كله خضوع تلك المناطق لإمرة سلطان واحد.

وأمام تلك الضربات العديدة، والمؤثرة فى ذات الحين ، طلب الملك الصليبى بلدوين الرابع الهدنة، وذلك عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ، وبالفعل وافق السلطان الأيوبى على ذلك، وكانت مدتها عامين مع ملاحظة أن انطاكية وطرابلس لم يشملها الاتفاق ، بصورة جعلت الجيش الأيوبى لايتردد عن مهاجمة شمال الشام[١].

ومن الملاحظ: أن الصليبيين حينذاك كان فى صفوفهم رينو دى شاتيون المعروف بإرناط ، وهو شاب فرنسى مغامر تدم إلى المنطقة بحثًا عن فرصة لكى يتألق نجمه ، وقد اقترن بكونستانس Constance صاحبة أنطاكية عام ١١٥٣م / ٥٤٧هـ، ونعرف أنه وقع أسيرًا فى أيدى المسلمين عام ١١٦٠م/ ٥٥٦هـ، وظل فى الأسر ستة عشر عامًا حتى أطلق سراحه عام ١١٧٦م / ٥٧٢هـ فخرج يقاتل المسلمين بكل إصرار وعناد وتعصب أكثر من ذى قبل ، وحيث أن زوجته توفيت فقد تزوج وريثة إمارة الكرك فى جنوب شرق البحر الميت، ولاشك فى أن تلك الزيجه قد جعلت منه مسيطرًا على تلك المنطقة الاستراتيجية والتى مرت عندها قوافل المسلمين المتجهة صوب مصر وكذلك الحجاز[٢].

ولانزاع فى أن ذلك الفارس الفرنسى وصف بالاندفاع والحمق، وقد قام بمحاولة فاشلة لمهاجمة المدينة المنورة عام ١١٨٠م/ ٥٧٦هـ وبالفعل وصل إلى واحة تيماء، إلا أن القوات الأيوبية سارعت بمهاجمة الكرك، فاضطر إلى العودة إلى امارته وتوقف مشروعه الآثم.

١- محمود الحويرى، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، ص١٨٥ .

٢- نفسه ، نفس المرجع ، ص١٨٦ .

ويلاحظ أن إرناط كرر تلك المحاولة بصورة أخطر فى عام ١١٨٢م / ٥٧٨هـ، ومن الملاحظ أن المحاولة الجديدة كانت تتسم بالاندفاع والتهور والتعصب المقيت، وكذلك الاستعداد الكامل بالمقارنة بالحملة الأولى، وقد أراد أن يهاجم المدينة المنورة ونبش قبر نبى الإسلام محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام، وقد أعد أسطولاً من الأخشاب ، وحملها على ظهور الجمال وتوجه إلى إيله على رأس خليج العقبة ، ومن هناك اتجهت السفن الصليبية إلى مهاجمة مراكز اسلامية على الجانب الأفريقى من البحر الأحمر، مثل عيذاب [١]، وكانت تعد ميناء حيويًا للحج إلى مكة المكرمة ، كذلك اتجه القراصنة الآثمون إلى الحجاز فهاجموا ينبع ميناء المدينة المنورة، ويقال أنهم كانوا على مسيرة يوم واحد منها .

وأمام ذلك الخطر الداهم على مقدسات المسلمين بالحجاز ، وجدنا العادل الأيوبى الذى تولى حكم مصر نيابة عن صلاح الدين ، قد بادر بإرسال حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول الأيوبى لمطاردة الصليبيين، وتمكن بالفعل من اللحاق بهم، وفر من فر من الصليبيين ومنهم رينودى شاتيون نفسه وتم الفتك بعدد من الصليبيين الذين شاركوا فى تلك العملية الآثمة بذبحهم فى منى فى موسم الحج ، أما الباقين [٢] ، فقد أخذوا أسرى وتم استعراضهم فى الاسكندرية .

١- وقعت عيذاب فى أقصى الساحل الجنوبى لمصر الذى يطل على البحر الأحمر بالقرب من حدودها مع السودان، وقد ساد الاعتقاد من قبل أن عيذاب وقعت فى موقع برنيس القديمة فى مقابل مدينة اسوان غير أن تيودور بنت Theodore Bent - كما يقرر أ.د. السيد عبد العزيز سالم - توصل بعد رحلته التى قام بها إلى هناك عام ١٨٩٦م إلى تحديدها على اعتبار أنها تبعد ١٢ ميلاً شمال قرية حلايب وعرفت هذه الخرائب عند بدو البشارية حاليًا باسم سواكن القديمة ، عنها انظر :

ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٥١ ، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١٣٠- ص١٣١ ، ابن مماتى، قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، ط. القاهرة ١٩٤٣م، ص٣٢٥ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق السقا والمهندس ، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص٩- ص١٠ ، أحمد دراج ، «عيذاب» ، مجلة نهضة أفريقيا ، السنة الأولى، العدد (٩) ، يوليو ١٩٥٨م، ص٥٣ - ص٦٠ ، أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب،ط. الكويت ١٩٧٩م، ص٨٠، السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى، ط. الاسكندرية ١٩٩٣م، ص٤١ .

٢- عن حملة إرناط على الحجاز عام ١١٨٢م/ ٥٧٨هـ أنظر :

وتحتاج حملة رينو دى شاتيون على الحجاز إلى مناقشتها من أجل إدراك طبيعة الكيان الصليبى حينذاك ، ونوعية القادة الذين يحركون القرار السياسى والحربى فى ذلك الكيان، وقد أراد ذلك الفارس الصليبى أن يضرب المسلمين فى أعز مقدساتهم الدينية على نحو عكس الحقد الدفين الذى فى نفس ذلك القائد الصليبى على الإسلام وأهله، وبصورة كشفت لنا عن أن الحركة الصليبية التى أعلن البابا أوربان الثانى فى يوم ميلادها فى كليرمونت عام ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م أنها هدفت إلى تحرير بيت المقدس من سيطرة المسلمين، والآن تهدف إلى الاتجاه نحو منطقة جديدة، وهى الحجاز ، ويتأكد لنا مرة أخرى أن المطامع الصليبية فى المنطقة بلا حدود ، وأن المعلن من المشروع الصليبى شىء ، والواقع الفعلى شىء آخر أكثر اتساعًا بصورة كبيرة لأن الأطماع الصليبية فى مناطق المسلمين لم يكن لها نهاية أمام الحقد على الإسلام وأهله والرغبة فى تحقيق أكبر قدر من المكاسب الاقتصادية.

ولانغفل : أنه أراد أيضًا ضرب حركة التجارة فى البحر الأحمر، خاصة تجارة الكارم أو التوابل القادمة من الهند، وهى تجارة مزدهرة إلى حد بعيد فى ذلك العصر ، وغنم من ورائها الفاطميون من قبل والأيوبيون من بعد مغانم وفيرة، ومن الواضح من خلال الرسائل التى أرسلها صلاح الدين الأيوبى إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله أن الصليبيين أرادوا

Ernoul, Chronique d'Ernoul et Bernard le Tresorier, ed. Mas latric , paris 1971, p. 69-70.

أبوشامة ، الروضتين ، جـ٢ ، ص٣٧ ؛ ابن منكلى، الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر، تحقيق عبد العزيز عبد الدايم، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٧٤م، ص٨٥- ص٨٦ ، فاروق جرار ، «أسطول صلاح الدين الأيوبى» مجلة الأبحاث - الجامعة الامريكية ببيروت ، السنة (١٣) جـ(١١) عام ١٩٦٠م ، ص٨٥ - ص٨٦ ، حسنين ربيع ، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ندوة البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص١٠٨- ص١١١ ؛ عائشة بنت عبدالله، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ط. مكة المكرمة ١٩٨٠م، ص٤١- ص٤٤ ؛ أحمد مختار العبادى ، البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك ، ضمن كتاب تاريخ البحرية المصرية، ط. جامعة الاسكندرية ١٩٧٢م، ص٥٦٨ ؛ جميل حرب محمود، الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى ، ط. جده ١٩٨٥م، ص٦٨- ص٧٥ ؛ حسن عبد الوهاب ، مصر وأمن البحر الأحمر فى عصر الحروب الصليبية ، ضمن كتاب مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية ط. الاسكندرية ١٩٩٧م، ص٢٠٣- ص٢٠٤ ؛ عبد الرحمن زكى ومحمود عيسى، الحروب بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٤٧م، ص٣٢ .

الاستيلاء على عدن على مدخل البحر الأحمر الجنوبى[1] والتى اعتبرت حينذاك ميناءً بحريًا حيويًا لتجارة المنطقة مع الهند على نحو يدل بجلاء على اتساع مطامع الصليبيين من وراء تلك العملية الهجومية الغادرة وأن الغزاه نظروا بعيداً إلى ما وراء البحر الأحمر ذاته فى صورة خط التجارة من الهند إلى مصر عبر ذلك البحر .

لقد كان لتلك الحادثة العديد من النتائج والآثار، فقد اهتز العالم الإسلامى من جرائها حيث أنها المرة الأولى التى يصل فيها الصليبيون على مثل هذه الصورة إلى قرب أقدس مقدسات المسلمين، كما اكتسبت الدولة الأيوبية وسلطانها مكانة كبيرة على اعتبار أنها تمكنت من الدفاع عن المحارم الإسلامية عندما واجهت خطر الصليبيين، وهكذا أفاد ارناط السلطان الأيوبى فى الدعاية السياسية له من حيث لايدرى على نحو عكس قصر نظره وحماقته ، كما كشفت تلك الحملة عن حقد الصليبيين الدفين ضد الإسلام وأهله وقد أقسم صلاح الدين الأيوبى أن يفتك بذلك الفارس الصليبى إذا ما وقع فى قبضته ، وأدرك العباسيون – أكثر من ذى قبل– أن الدولة الأيوبية ينبغى تقديم كل عون لها ماديًا ومعنويًا طالما أنها تواجه أخطار الصليبيين بمثل تلك الصورة التى كشفت عنها حملة ذلك الفارس الصليبى الغادرة ، وتصد تلك الأخطار بتلك السرعة والكفاءة التى عالجت بها تلك الحملة الفاشلة .

على أية حال ؛ من الملاحظ أن صلاح الدين الأيوبى كان يدرك أهمية العمل المزدوج توحيد الجبهة الإسلامية ، وجهاد الصليبيين ؛ نظراً لما بينهما من اتصال وثيق، ومما يذكر هنا؛ أن عام ١١٨٦م/ ٥٨٢هـ، شهد الاتفاق مع عز الدين مسعود صاحب الموصل على أن يكون تابعًا له، وذلك استطاع أن يخضع الأربعة مدن الإسلامية الرئيسية التى تحكمت فى الظهير البرى وهى القاهرة ، دمشق ، حلب، الموصل، وجميعها سيكون لها شأنها البارز فى مشروع الجهاد.

من زاوية أخرى، لانغفل أن الصليبيين وعلى رأسهم ريموند الثالث كونت طرابلس، اتجهوا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين وذلك عام ١١٨٥م/ ٥٨١هـ مدتها أربع سنوات ، ومن الملاحظ أن كلاً من الجانبين احتاج إليها من أجل تنظيم قواته والتقاط الأنفاس.

١- من تلك الرسائل انظر :

ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٢٩– ص١٣١ .

ومن الملاحظ ، أن ذلك السلطان الأيوبى امتلك بعد النظر والحنكة السياسية، فقد لجأ إلى المهادنة من أجل المحافظة ، على قواته، وعدم تبديد فعالياتها فى عمليات حربية كبيرة مستمرة لاسيما مع الصليبيين ، ولذا نجده يتجنب طوال تلك الأعوام الدخول فى معركة حاسمة معهم ولايتعجل الأمر، بل يترك عوامل الانقسام والفرقة تلعب دورها فى صفوفهم ، ومن المتصور أن من أخطر قراراته السياسية قرار «السلام» المؤقت مع الصليبيين . ومن المهم إدراك أن تلك المعاهدة عندما سيتم خرقها ستعطيه المبرر لشن حرب التحرير الشاملة التى من ثمارها معركة حطين ونتائجها البعيدة المدى، والتى انتظرها أمداً طويلاً.

على أية حال، من قبل تناول حرب التحرير التى خاضها مع الصليبيين يحسن بنا الآن، التعرض لرأى المؤرخ الصليبى وليم الصورى فى ذلك القائد المسلم على نحو خاص ، حيث أن شهادات الأعداء فى عصر الحروب الصليبية تكتسب أهمية خاصة ، وفى ذلك يقرر ذلك المؤرخ؛ فى تعليقه على تولية صلاح الدين السلطة عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه عام ١١٦٩م / ٥٦٤هـ، أنه «رجل ذو روح متقدة، شجاع فى الحرب، وكريم إلى درجة السخا»[١]، وفى إشارة مهمة أخرى ، يقرر «إن كافة الممالك التى تحيطنا تأتمر بأمره رجل واحد، وهى تخدمه بمجرد تلقيها أول إشارة منه، كافة تلك الممالك تحت سيطرة صلاح الدين»[٢].

تلك رؤية ذلك المؤرخ الصليبى النابه الذى وجه النقد اللاذع للصليبيين ، وتحدث فى الفصل الأخير من تاريخ الأعمال Historia Rerum عن من ينقذ مملكة بيت المقدس من المصير المأساوى الذى تتجه إليه[٣]. ويلاحظ أن ذلك المؤرخ كان أشبه شيء بزرقاء اليمامة بالنسبة لبنى قومه، لكن أحداً لم ينتبه إلى نصحه ، وعندما نطالع ما ذكره عن قادة حركة الجهاد الإسلامى منذ كربوغا حتى صلاح الدين الأيوبى، نجد أن الأخير- على نحو خاص وبصورة غير مسبوقة - قد نال تقدير ذلك المؤرخ- فى أغلب الأحيان- وفى تصورى أنه أدرك - أكثر من غيره من الصليبيين- اختلاف نوعية صلاح الدين الأيوبى كقائد الجهاد الإسلامى ونجاحه فى توحيد الصفوف لدى المسلمين مما سينعكس سلبياً على الصليبيين .

١- William of Tyre, vol. II, p. 358-359 .

٢- William of Tyre , vol .II, p. 408 .

٣- William of Tyre . vol. II, p. 505 .

على أية حال ؛ لكل حرب فى أحداث التاريخ شرارة ، وشرارة الصدام بين صلاح الدين الأيوبى والصليبيين ، أتت من الفارس الصليبى، رينو دى شاتيون أو ارناط ، وهو الفارس الذى أدخلته رعونته التاريخ من أوسع أبوابه ! فقد خرق ارناط الهدنة الموقعة بين الصليبيين والسلطان الأيوبى ، من خلال اعتدائه على قافلة مسلمة عامرة بالخيرات من السلع التجارية، وتم نهبها ، وقد طلب السلطان الأيوبى من الملك الصليبى حينذاك جى لوزينيان إطلاق سراح الأسرى وكذلك إعادة ما نهب من القافلة، غير أنه لم يستطع إثناء ارناط عن فعلته، وجاء ذلك فى وقت قوى فيه أمراء الأطراف من الصليبيين على القلب فى صورة الملكية الصليبية، وكان ذلك فى حد ذاته بمثابة اعلان حرب من جانب الصليبيين ضد السلطان الأيوبى. ويلاحظ هنا أن الأخير كان قد استعد لذلك اليوم على مدى أعوام عديدة من ١١٧١م / ٥٦٧هـ إلى ١١٨٧م / ٥٨٣هـ وفى حالة عدم استعداده لعمل على احتواء الموقف بأية صورة دبلوماسية أو يلعق جراحه من جراء ما حدث للقافلة المذكورة ، غير أنه كان ينتظر المبرر الذى من خلاله يعلن الحرب الشاملة على أعدائه دون أن يعيب عليه أحد ذلك، لقد قدم ارناط لذلك السلطان «المبرر» لاعلان الحرب، ولذلك أتصور أن ما حدث للقافلة كان اعلان حرب صليبى وكان الرد الأيوبى سريعًا وحاسمًا كما حدث فى معركة حطين ٤ يوليو ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ [1]، فقد جمع

١- عن معركة حطين أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية، تحقيق الشيال، ص٧٥- ص٧٩ ،

Richard , "La bataille de Hattin, Saldin defait l'Occident" L'Histoire T.XLVII, Année 1982 , pp. 104-111 ", An Account of the battle of Hattin reffering to the Frankish Mercenaries in Oriental Moslem state, S. , T. XXXII, pp. 168-175. Fuller, Decisive battles of Western Europe and Their influnences upon History , London 1954 , p. 427 .

ديفيد جاكسون ، «معركة حطين والاستيلاء على القدس»، ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص٨٦- ص١١٠ ، جوزيف نسيم يوسف، «معركة حطين ، خلفياتها ودلالاتها »، عالم الفكر م (٢٠) ، ص٢٣٥- ص٢٥١، جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ت. محمد فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص١٠٣- ص١٣١، أحمد توفيق الطيبى، «وقعتا حطين والأرك نصران متوازيان على الغزاة الصليبيين فى المشرق والمغرب» مجلة البحوث التاريخية، السنة (١٠)، العدد (١) ، يناير ١٩٨٨م، ص٥١- ص٦٤ ، سعيد عاشور «حطين وقائع وعبر» مجلة العربى، العدد (٣٤٤) يوليو ١٩٨٧م، ص٤٢- ص٤٥ .

السلطان الأيوبى قواته، استعداداً للقتال، ويلاحظ هنا أن القوات الصليبية قد تجمعت عند عين صفورية ، وهو موقع امتاز بوفرة مصادر المياه فيه، وقد وقع على بعد ميل إلى الجنوب من صفورية ، وخمسة عشر ميلاً بعيداً عن بحيرة طبرية، أما السلطان الأيوبى: فإنه اختار موقعًا فى صورة جنوب بحيرة طبرية، وقد اتجه إلى مهاجمة طبرية من أجل تحفيز الصليبيين على ترك موقعهم الممتاز والقدوم إليه فى منطقة عرفت باسم قرون حطين، وقد قرر جاي دى لوزينيان بالفعل التقدم إلى هناك وترك الموقع الأصلى ، بينما عارض رايموند الثالث ذلك وفضل الارتداد إلى المدن الساحلية ذات الحصانة والمنعة الخاصة، وكانت معاناة الجيش الصليبى من خلال اشتداد حرارة الصيف فى شهر يوليو من عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ، كذلك الظمأ الذى كاد يهلك أفراده ، وفى يوم ٤ يوليه من ذلك العام : هوجمت مقدمة الجيش الصليبى بقيادة ريموند ومنعت من الوصل إلى المياه، وقد اشتبك الطرفان، وكان النصر حليفًا للمسلمين، وقد احرق الأخيرون الأعشاب الموجودة فى المنطقة وكانت الرياح شديدة فاجتمع على الصليبيين حر الشمس وحر النار، وكانت نتيجة المعركة سقوط أعداد كبيرة من الصليبيين بين قتلى وجرحى ، ولدينا نص قوى الدلالة أورده ابن الأثير أشار من خلاله إلى أن من رأى القتلى من الصليبيين يظن أن المسلمين ما أسروا أحداً، ومن رأى الأسرى يظن أنهم ما قتلوا أحداً[١]، وفى حقيقة الأمر أن المسلمين لم يثأروا من الصليبيين فى يوم من الأيام مثل يوم حطين الذى صار يومًا خالداً فى تاريخ الصراع الإسلامى- الصليبى على نحو خاص، وفى أعقاب المعركة: كان من الأسرى الصليبيين الملك الصليبى، والفارس إرناط، وكذلك مقدمى الاسبتارية والداوية، وقد عامل السلطان الأيوبى الملك الصليبى معاملة طيبة أما ارناط الذى كان له التاريخ الأسود الحافل مع المسلمين واماكنهم المقدسة- فقد قتله صلاح الدين بيده ، كذلك أمر بالفتك بالأسرى من الاسبتارية والداوية[٢] وكانوا حوالى ثلاثمائة وستين رجلاً، والأمر المؤكد:

١- الكامل، جـ ١١ ، ص٢١٨ .

ويلاحظ أن براور تقدر اعداد القتلى والأسرى على أنه ١٢٠٠ فارس و١٥٠٠٠ جندى من المشاه Prawer, Thelatin kingdom , p. 28 .

٢- عن قتل صلاح الدين الأيوبى للاسبتارية والداوية انظر :

العماد الاصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد صبيح ، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص٨١، ابن شداد، النوادر السلطانية ، ص٧٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٩٦- ص١٩٧ ، الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى، ص٢٩٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٣٧ .

أن دورهم الحربى السابق ضد المسلمين كان دافعًا له لذلك المسلك خاصة أنه عرف عنهم عدم احترامهم للعهود والمواثيق ، كما أنه أدرك أنه فى حالة إطلاق سراحهم سيعودون إلى قتال المسلمين بصورة أشرس من ذى قبل، كما لانغفل أن منهم من شارك فى حملة ارناط الآثمة على الحجاز، وأمام كافة تلك الاعتبارات، لم يتردد ذلك السلطان الأيوبى فى الفتك بأولئك الأسرى من الصليبيين وقد تعرض للهجوم من جانب عدد من المؤرخين الغربيين المحدثين الذين نسوا أو تناسوا ما فعله الصليبيون من مذابح فتكوا فيها بالآلاف المؤلفة من المسلمين، وليس هذا بجديد على العقلية الغربية التى نجدها - أحيانًا- تكيل بمكيالين وتبيح لنفسها ما تحرمه على غيرها ، ولانغفل أن ذلك الأسلوب من صلاح الدين جاء استثناء لسياسة متسامحة بصفة عامه تجاه أعدائه .

وفى واقع الأمر؛ أن معركة حطين توصف وبحق بأنها معركة فاصلة وحاسمة ، لأننا نلاحظ أنها غيرت خريطة التوزيعات السياسية فى المنطقة، ففى أعقابها اتجه ذلك السلطان المجاهد إلى فتح مدن الساحل الشامى، وتساقطت الواحدة تلو الأخرى باستثناء صور ذات المنعة والحصانة السالفة الذكر ، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامى الذى طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ولم يعد المسلمون أصحاب وجود برى حبيس ، وهكذا تساقطت مدن عكا، ويافا، وصيدا، وبيروت ، وجبيل، وعسقلان وغيرها(١). والواقع أن من يطالع نصوص المصادر التاريخية لذلك العصر تتملكه الدهشة من موجة سقوط تلك المدن الصليبية بصورة غير مسبوقة عكست التفوق العسكرى الساحق للمسلمين ضد أعدائهم .

= Jacques de Vitry, p. 101 .

Richard, "An Account of the battle of Hattin referring to the Frankish Mercenaries, p. 169 .

Oman , A History of the art of war in the Middle Ages , vol . II , p. 332 .

Belloc, The Crusade, World's debate, London 1957, p. 294 , Kerr, The Crusades, London 1966, p. 49 .

جوناثان رايلى سميث ، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠-١٣١٠ ، ت. صبحى الجابى، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص٧٧ .

محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية، ص٤٩٥ .

١- عن سقوط مدن الساحل الشامى فى قبضة المسلمين فى أعقاب حطين انظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، تحقيق الشيال، ص٨٦- ص٩٠ ، العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ط. القاهرة ١٣٢١هـ، ص١٠٤- ص١٠٩ .

كما تهاوت القلاع الصليبية التى طالما أغارت على مناطق المسلمين[١] وأحالت حياتهم أحيانًا إلى جحيم ، ومن أمثلة القلاع التى تهاوت أمام فعاليات الجيش الأيوبى نذكر، طبرية ، صفد، هونين، تبنين ، بغراس، دربساك ، حجر شغلن، القصير، وغيرها كثير ومن بعد ذلك جاء فتح المسلمين لبيت المقدس عاصمة الكيان الصليبى ، وقد تم ذلك بعد حصارها وبالفعل سقطت يوم ٢ أكتوبر ١١٨٧م / ٢٧ رجب ٥٨٣هـ [٢]، وجاء ذلك تتويجًا لكفاح طويل بذله قادة الجهاد المسلمون منذ تقدم الصليبيين إلى المنطقة ، وحتى عهد صلاح الدين الأيوبى ..

ومن المهم هنا أن نقرر : أن ذلك السلطان المتحضر فى عصر التعصب الصليبى المقيت، دخل المدينة المقدسة دخولاً سلميًا أبيض، فانتصر بذلك على الصليبيين مرتين ، الأولى عند قرون حطين ، والثانية عند بيت المقدس، فلم يرق فيها قطرة دماء واحدة، على الرغم من أن ذلك كان ممكنًا تمامًا بالنسبة له ولرجاله. أمام انهيار الكيان سياسى أو حربى للصليبيين حينذاك .

١- عن موجة سقوط القلاع الصليبية فى أعقاب حطين انظر :

ابن شداد، النوادر السلطانية ، تحقيق الشيال، ص٨٩- ص٩٦ ، العماد الأصفهانى، الفتح القسى، فى الفتح القدسى، ط. القاهرة ١٣٢١هـ، ص١٠٩- ص١١٩ .

٢- عن سقوط بيت المقدس انظر :

ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٢٢٥ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٢١٥ ، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ ، ق١ ، ص٣٩٧ ، الفتح البندارى ، سنا البرق الشامى، ص٣٨٥ ، ابن الشحنة ، روضة المناظر ، ص٢٨ ، ملكوم ليونز وجاكسون ، صلاح الدين، ت. على ماضى ، مراجعة نقولا زيادة وفهمى سعد، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٣٢٠ ، عزيز سوريال عطيه، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ت. فيليب صابر ، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٦٨ ، أمين معلوف ، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ت. عفيف دمشقية، ط. بيروت ١٩٨٩م، ص٢٤٩ ، على عبد الحليم محمود ، الغزو الصليبى والعالم الإسلامى، ط. الرياض ١٩٨٢م، ص١٠٦ .

Hadia Dajani , Some Medieval Accounts of Salah Al-Din's Recovery of jerusalem (Al-quds) in Studia palaestine , Studies in honour of Constatine K. Zurayk ed. by Hashim Nashaba, Institute for palestine studies, Beirut 1988, pp. 83-113 .

وقد قرر فدية على الصليبيين بلغت عشرة دنانير للرجل ، وخمسة للمرأة ، ودينارين للطفل، بل أنه افتدى من ماله الخاص عناصر من أعدائه ممن لم يتمكنوا من دفع تلك الدنانير الزهيدة وبالتالى أثبت ذلك القائد المسلم كم كان عظيماً فى تعامله مع أعدائه وقد تحول فيما بعد إلى أسطورة[1] لدى الصليبيين والغرب الأوربى بصفة عامة ، ويكاد يكون الوحيد من المسلمين الذى صار لدى العقل الجمعى الأوربى حينذاك يمثل تلك الصورة ، وفى هذا الدليل الوضاح على أن ذلك السلطان العظيم تمكن بنجاح منقطع النظير من أن يغزو الصليبيين غزواً سلمياً رائعاً لايمكن أن يغادرهم لأنه فى عقولهم بفضل فروسيته وشجاعة وتسامحه العظيم. وحتى لايتصور البعض اننى انطلق من أية منطلقات شيفونية دينية أقدم للقارىء الكريم نصاً من كتاب المؤرخ البريطانى ستيفن رنسيمان حيث يقول «أنه اثبت بالدليل القاطع ، ما لدى الشرق من قوة وروح ، ففى قرون حطين ، وعلى أبواب بيت المقدس ، انتقم صلاح الدين لما حدث فى الحرب الصليبية الأول من المهانة والإذلال ، وأثبت كيف يحتفل الرجل الشريف بانتصاره»، وفى هذا دليل جديد يضاف إلى رصيد ذلك القائد، ومن المتصور أنه فى حالة بقاء وليم الصورى حياً حتى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، - وهو افتراض لمجرد تعميق الصورة التاريخية لا أكثر- - وشاهد الدخول السلمى لصلاح الدين، من المتوقع أنه كان سيكتب عنه العبارات الجديرة به من خلال شواهدنا السابقة لعدد من مواقفه السابقة تجاه ذلك القائد .

ويلاحظ أن تسامح السلطان الأيوبى لم يقتصر على الصليبيين فقط الذين رفعوا السلاح ضده، بل امتد إلى اليهود فى انسانية بالغة حيث سمح لهم بالعودة إلى المدينة المقدسة بعد أن طردهم الصليبيون منها عندما استولوا عليها عام ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ[3]، ويلاحظ أنه على المستوى الشخصى اتخذ منهم أطباء بارزين ومنهم الطبيب الأشهر موسى بن ميمون صاحب «دلالة الحائرين» [4].

١- أنظر الدراسة الرائعة التى قام بها المؤرخ البريطانى كارول هيلنبراند عن تلك الناحية:

كارول هيلنبراند، «صلاح الدين : تطور أسطورة غربية»، ضمن كتاب ٨٠٠عام حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص٩٦- ص١١٠ .

٢- تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢، ت. السيد الباز العرينى، ط. بيروت ١٩٩٣م، ص٧٦٥ .

٣- عن ذلك بالتفصيل انظر: Ashtor , "Saladin and the Jews", in H.U.C.A., vol. XXVII, Cincinnati 1956, pp. 305-326 .

٤- عنه أنظر : إسرائيل ولفنسون ، موسى بن ميمون ، ط. القاهرة ١٩٣٦م.

وفى واقع الأمر: أن ما حدث للصليبيين فى حطين وفى أعقابها يوصف بالفعل بأه «زلزال» فالواقع أننى لم أجد تغييراً ضخماً على كافة الأصعدة والمستويات ، مثلما حدث من جراء حطين وفى أعقابها ، فلأول مرة يتم إسقاط القلب الصليبى وليس مجرد إمارة من الإمارات - مع عدم التقليل بالطبع من أهمية ذلك- ولأول مرة تفقد المملكة الصليبية كل هذا الكم الهائل من الأفراد لقد تجنب الصليبيون بصفة عامة المعارك الحاسمة لأن معناها فقدان الكثيرين من ابنائهم فى ساحات المعارك ، أما الآن، فالمعركة فرضت عليهم- وشارك ارناط بحمقه فى ذلك- وتعرضوا من جرائها لأكبر معركة حاسمة فى تاريخهم على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين .

من المقرر : أن زلزال حطين وتوابعه أصاب الكيان الصليبى فيما يشبه المقتل، وقد تأكد أن الصليبيين بامكاناتهم المحلية فشلوا فى أول معركة حاسمة كبرى مثل حطين ، وأن لابد من الحلف الدفاعى الاستراتيجى مع الغرب الأوربى من أجل التدخل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا الوجود الصليبى فى بلاد الشام، ولكى ندرك الصورة على نحو أكثر جلاءً من الملاحظ أن ذلك الوجود لم يبق منه بعد حطين سوى مدينة انطاكية وحصن المرقب، ومدينة طرابلس، وقلعة انطرطوس، وحصن الأكراد، وصور [1]، ومواقع ثانوية أخرى كان من الممكن أن تتهاوى تلك البقايا القليلة لو لم يتم التدخل الأوربى.

تبقى زاوية أخيرة فى هذا الفصل ، وهى أن المؤرخين اعتادوا أن ينسبوا حطين لصلاح الدين، وهو خطأ شائع ، لأن التاريخ تصنعه الشعوب وينسبه المؤرخون للحكام ، فالواقع أن المسلمين وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبى تمكنوا من ذلك - بتوفيق الله عز وجل- فلاينبغى أن نغفل الجندى الأيوبى الصغير الرتبة العسكرية الذى بذل دماءه فى المعركة أو غيره الذى أدى واجبه، ولم يصل إلينا اسمه ، لا لشىء سوى لأنه لم يكن من علية القوم، ولانغفل دور الجبهة الداخلية من المدنيين المسلمين فى مصر والشام الذين وقفوا من وراء القوات المحاربة، وهكذا نقرر أن معركة حطين انتصار كل المسلمين وليست انتصاراً لقائد واحد فقط.

ذلك عرض لأوضاع مملكة بيت المقدس الصليبية وزلزال حطين (١١٧٤-١١٨٧م / ٥٧٠-٥٨٣هـ)، أما الفصل التالى فإنه يتناول النشاط الصليبى خلال المرحلة من ١١٨٩ إلى ١١٩٢م / ٥٨٥-٥٨٨هـ .

١- سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، ط. بيروت ب.ت، ص٦٢ .

الفصل الثامن

النشاط الصليبى خلال المرحلة

من ١١٨٩ إلى ١١٩٢م/ ٥٨٥-٥٨٨هـ

يتناول هذا الفصل بالدراسة : النشاط الصليبى خلال الأعوام الواقعة من ١١٨٩م / ٥٨٥هـ حتى ١١٩٢م / ٥٨٨هـ. أى فى الأعوام التالية مباشرة على أحداث زلزال حطين، وأثر ذلك على قضية الجهاد الإسلامى خلال تلك المرحلة ، وبصفة عامة شهدت السنوات المذكورة أحداثًا جديرة بأن نخصص لها فصلاً مستقلاً من هذا الكتاب.

وواقع الأمر: أن الحدث الجوهرى خلال تلك الأعوام تمثل فى تقدم فعاليات الحلف الدفاعى الاستراتيجي الغرب أوربى من أجل انقاذ الكيان الصليبى الذى أوشك على الانهيار التام من جراء فعاليات حركة الجهاد الإسلامي حينذاك، وهو ما عرف بالصليبية الثالثة، التى شارك فيها الامبراطور الألمانى فردريك بارباروسا Frederich Barbarossa[1] (١١٥٢-١١٩٠م / ٥٤٧-٥٨٦هـ) أو فردريك ذو اللحية الحمراء، وفيليب أوغسطس Philip Augustus (١١٨٠-١٢٢٣م / ٥٧٦-٦٢٠هـ) ثم الملك الانجليزى ريتشارد الأول قلب الأسد Richard I Lionhearted [2](١١٨٩-١١٩٩م / ٥٨٥-٥٩٦هـ) . وهم أكبر أباطرة وملوك عصرهم فى الغرب الأوربى .

١- عن فردريك باربا روسا انظر :

Otto of Freising , The deeds of Frederich Barbarossa, Trans. by Chales Christopher Microw, Toronto 1966 .

عن دوره فى الصليبية الثالثة انظر :

Otto of St. Blasion, The Third Crusade 1187-1190, From the chronicle of Otto of St. Blasion, in Thatcher, Source Book of Medieval History , New York 1902 , pp. 529-535 .

حامد زيان غانم، الامبراطور فردريك باربا روسا والحملة الصليبية الثالثة، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

٢- عن دور ريتشارد الأول قلب الأسد فى الصليبية الثالثة انظر : =

ومع ذلك ؛ فإن مقدم تلك الحملة لم يكن فقط من أجل انقاذ الكيان الصليبى المتهاوى، بل أيضًا من أجل استمرار حركة الاستخراب الأوربى شرق البحر المتوسط، فالملاحظ أن التاريخ الأوربى فى المرحلة القروسطية وخاصة خلال أخريات القرن الحادى عشر الميلادى\ الخامس الهجرى، والثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، توزع قسم فعال منه فى ذلك النطاق الجغرافى، ولم يكن القائمون على أزمة السياسية هناك؛ ليقبلوا بأن يقتل القسم النابض بالنهب المنظم لثروات الشرق، والنابض بالادعاءات الدينية التى اكتسبت بعداً تاريخيًا فى الدوائر الصليبية فى الغرب الأوربى على مدى قرابة قرن كامل من الاحتلال الصليبى، ومن المتصور أنه مثلما قاتل المسلمون بشراسة دفاعًا عن معاقلهم هناك ؛ اتجه الغرب الأوربى للدفاع عن وجوده وكيانه شرق البحر المتوسط، وبذات الاصرار ولم يكن ليقبل أن ينتهى كل المجاز هناك على أثر زلزال حطين الحاسم.

ولانغفل ؛ أن من ضمن دوافع أولئك الأباطرة والملوك للاشتراك فى المشروع الصليبى فى الشرق؛ مصلحتهم السياسية العليا، فالمؤكد أن الامبراطور الألمانى العجوز فردريك باربااروسا أراد ألا يقتصر دور الصليبيات على فرنسا والجلترا، بل لابد لألمانيا من دور فعال شرق البحر المتوسط ، ونتصور أن الاشتراك الألمانى الصليبى- مثلما كان من قبل على يدى كونراد الثالث فيما عرف بالصليبية الثانية – ما هو إلا سياسة الاتجاه للشرق Drang Nach Osten فى المرحلة القروسطية ، وقد هدف فردريك من ذلك الاشتراك تدعيم نفوذه الداخلى ، كذلك أن يثبت لأوربا أنه الصليبى الكبير الذى لم ينس صليبيته ، وأن تقدمه فى السن لم يعقه دون

Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de lion , in Chronicles of the Crusades, = London 1908, Geoffrey of Vinsauf , Crusade of Richard Coeur de Lion , in Chronicles of the Crusades, London 1908 , Ambroise, The Crusade of Richard Heart of Lion , Trans . by Hubert , New York 1943 .

Chronicle of the Third Crusade , A Translation of Itinerarium peregrinorum et Gesta Regis Recard, Trans. by Helen Nicolson , 1997 .

زينب عبد القوى ، الانجليز والحروب الصليبية فى الفترة من ١١٨٩- ١٢٩١م، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص١٢٢- ص١٣٧ .

الإسهام فى تاريخ الصليبيات . وليس معنى ذلك- بطبيعة الحال- أن الزاوية الاقتصادية انتفت لديه، فالمتصور أن تلك الزاوية كان لها شأنها، وهكذا فإن ذلك الامبراطور رغب فى أن يكون لألمانيا مكاسبها فى الشرق، ولايكون الأمر مجرد مكاسب إيطالية وفرنسية بالدرجة الأولى .

أما الملك الفرنسى فيليب أوغسطس ، فلاريب فى أنه امتلك عدة دوافع دفعته للاسهام بالنشاط الصليبى هناك، فيلاحظ أنه أراد تدعيم نفوذ أسرة آل كابيه عبر المتوسط وكانت الصليبية هى الحل الناجح من أجل ذلك الدعم الكبير لنفوذ تلك الأسرة الحاكمة ومكانتها بين الأسرات الأوربية الحاكمة حينذاك مثل الهوهشتاوفن فى ألمانيا ، البلانتاجيت فى انجلترا ، وغيرها، ولانغفل أن فرنسا- على نحو خاص- كانت ترى أن المشروع الصليبى هو المولود الذى خرج من الرحم الفرنسى، ولذلك فإن الصليبيات هى قسم من تاريخ فرنسا فى العصر الوسيط Histoire de France au Moyen Ages وهكذا لم يكن لفيليب أوغسطس إلا أن يشترك فى الصراع شرق البحر المتوسط، ثم أن اشتراك انجلترا فى ذلك المجال كان من الضرورة مواجهته باشتراك فرنسى فعال يعكس الثقل السياسى لها، من خلال التنافس التقليدى بين الدولتين فى ذلك العصر، ولانغفل- من ناحية أخرى- أن سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية يمثل هذه الصورة وهى الفرنسية التكوين والطابع مثل إهانة بالغة للتاج الفرنسى، ولم يكن أمام الملك الفرنسى إلا التدخل إنقاذاً للهيبة الفرنسية ، ويضاف إلى ذلك كله، استمرار الرغبة الفرنسية فى الحصول على أكبر جانب من المكاسب الاقتصادية من الشرق، شأنها فى ذلك شأن القوى الغرب أوربية الأخرى .

أما بالنسبة لانجلترا : فإن ريتشارد الأول الملقب بقلب الأسد أراد أن يدعم نفوذ بلاده سياسيًا أمام التنافس مع فرنسا فى شرق البحر المتوسط ، كما أن «عقدة» التاريخ الانجليزى فى ذلك العصر وهى الانفصال الجغرافى عن الجسد الأوربى، كان مردوده الرغبة القوية لدى ملوك انجلترا فى الإسهام بفعالية فى سياسات القارة الأوربية لاسيما غربها خاصة أن معركة هاستنجز Hastings ١٠٦٦م/٤٥٩,هـ أنهت من قبل- عزلة انجلترا عن القارة الأوربية ، والآن، فإن انجلترا مثلت قوة أوربية لها شأنها فى دعم المشروع الصليبى ، بل أن التاريخ اثبت قدراتها على أن تحدث تغييراً لصالح الصليبيين- مع عدم إغفال كافة العوامل الفاعلة الأخرى- ومعنى ذلك أن مصلحة انجلترا العليا كانت مع فكرة اشتراكها فى الحملة الصليبية المعدة للاتجاه نحو انقاذ بيت المقدس من قبضة المسلمين .

نخلص من ذلك إلى فكرة رئيسية وهى أن المصالح الاقتصادية والسياسية للقوى الغرب أوربية ؛ حتمت أمر انقاذ ما بقى من الشرق اللاتينى .

ومن زاوية أخرى؛ من الملاحظ أن السلطان صلاح الدين الأيوبى من بعد انتصاره فى حطين، ودخوله بيت المقدس منتصراً ؛ أطلق سراح الكثيرين من الصليبيين من خلال فروسيته ونبله وتسامحه وقد أخذ المواثيق على كبارهم - خاصة جاى دى لوزينيان- بألا يرفع سيفًا فى وجهه، وقد تجمع الصليبيون فى مدينة صور الساحلية، وكان الجيش الأيوبى منهمكًا بعمليات الفتح الأخرى لاسيما مدن الساحل وعندما وصل إلى صور استعصت عليه، ويحاول المؤرخ ابن الأثير النيل من صلاح الدين مؤكداً مسئوليته عن فشل حصار صور من خلال إطلاقه لسراح الصليبيين بعد انتصاراته التى حققها [1]، وهكذا فإن صور كانت بداية الوهن، حيث أن منها استغاث الصليبيون بالغرب الأوربى من أجل نجدتهم ، وبالفعل أتى ملوك الغرب لإنقاذهم .

وواقع الأمر؛ أن القضية ليست قضية صور، بل قضية ابن الأثير- ربيب البيت الزنكى- الذى عمل على ترصد السلبيات من أجل ابرازها لاسيما عند الكتابة عن صلاح الدين الأيوبى، لقد أراد الأخير فتح صفحة جديدة مع اعدائه ، وترفع على إراقة الدماء ، غير أن الصليبيين نكثوا بعهودهم وأظهروا الغدر .

زد على ذلك ؛ أن الغرب الأوربى كان من المتصور وصول جيوشه إلى بلاد الشام ، سواءً تمكن الجيش الأيوبى من الاستيلاء على صور أو لم يتمكن عن ذلك ، ناهيك عن أن صور تمتعت بحصانة طبيعة خاصة بحيث استعصت على الكثيرين من المتغلبين على مدى تاريخها القديم والوسيط، ولم يكن صلاح الدين بعد أن طال حصار قواته لها أن ينفق الوقت والجهد على تلك المدينة ويغفل غيرها من المدن الشامية المهمة الأخرى، ولانزاع فى أن انجازه بفتح الساحل يتفوق مرات ومرات على عجز قواته عن إخضاع صور .

وليس معنى ذلك ؛ إعفاء صلاح الدين الأيوبى من المسئولية ، بل أنه يتحمل قسمًا منها، غير أنه- وفى نفس الحين- يعد بطل فتح المدن الساحلية الأخرى، وتلك حقيقة عمل على إبرازها ابن الأثير نفسه، وهكذا ينبغى أن تكون الموضوعية طريقنا؛ لا سلب أبطالنا التاريخيين انجازاتهم خدمة لدوافع حزبية ضيقة الرؤية.

١- الكامل ، جـ١١ ، ص٣٢١ .

على أية حال ؛ من الملاحظ ظهور دور مهم وفعال لأحد القادة الصليبيين فى صورة كونراد المونتفرتى Conrad de Montfort الذى عمل على الطواف فى أنحاء أوربا بصورة ضخمة فيها الضريح مقدس - كما يتصور المسيحيون- ومن فوقه فارس مسلم يمتطى صهوة حصانه ويدوس بأقدامه ذلك الضريح، وقد أحدثت تلك الصورة تأثيراً شعبيًا جارفًا فى انحاء الغرب الأوربى[١]، الذى عاصر نوعًا من التدين العاطفى الممزوج بالتعصب الأعمى ضد كل ما هو مسيحى ، ووجد بالتالى رد فعل شعبى هناك بضرورة إنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين بأى ثمن ، ويلاحظ هنا أنه تم فرض ما عرف بعشور صلاح الدين Tithes of Saladin وهى مبالغ كانت تفرض على كل من لم يستطع الخروج للمشاركة الفعلية فى الحرب فى الشرق، ولاشك فى أنها عكست مدى الحالة النفسية التى وصلت إليها أوربا خلال صراعها مع المسلمين فى ذلك الحين.

ويلاحظ أن من أوائل من تحرك من قادة الغرب الأوربى، وليم الثانى William II ملك صقلية Sicily وقد اتجه إلى عقد صلح مع الامبراطورية البيزنطية عام ١١٨٨م/ ٥٨٤هـ وأرسل رسائله إلى باقى ملوك أوربا من أجل حثهم على التدخل لانقاذ ما بقى للصليبيين من أملاك فى بلاد الشام ، كذلك أرسل أسطول بحرى إلى طرابلس وقد نجح فى منع السلطان الأيوبى من الاستيلاء على طرابلس، واللاذقية [٢].

أما الامبراطور الألمانى فردريك بارباروسا؛ فقد تلقى الصليب على يد الكاردينال البانو فى مدينة مينز فى ١١٨٨م/ ٥٨٤هـ، وعهد بالوصاية على العرش لابنه الذى سيتولى فيما بعد الحكم تحت اسم هنرى السادس، ويقال أنه أرسل عدة رسائل إلى ملوك وحكام المناطق التى سيمر بها مع جنيشه مثل ملك المجر، والامبراطور البيزنطى اسحق الثانى انجيلوس Issac II Angelos (١١٨٥-١١٩٥م/ ٥٨١٥٩٢هـ) والسلطان السلجوقى قلج أرسلان وكذلك صلاح الدين الأيوبى[٣] ومن الجلى البين ؛ البعد السياسى الدعائى فى تلك الرسائل كما أنها حملت طابع التلويح بالقوة خاصة فيما يتعلق بالأخير، وإن لم تجد معه نفعًا .

١- Barke, The Crusades, p. 61.

٢- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص. القاهرة ١٩٦٣م، ص٨٤٢ .

٣- رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص٣٢ .

وعن رسالته إلى صلاح الدين على سبيل المثال انظر :

جلال حسنى سلامه ، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، ط. نابلس ١٩٩٨م، ص١٥٢ حيث توجد الترجمة العربية.

ويلاحظ أن جيش ذلك الامبراطور كان ضخمًا وقدره البعض بخمسين ألف رجل، بل وصل لدى البعض الآخر إلى مائة ألف[1]، وقد واجهت الامبراطور الألمانى مصاعب خلال مروره بمناطق الامبراطورية البيزنطية[2] ولا مراء فى أن سوء النية المتبادل كان أساسًا أكيداً لزرع الصراع بين الطرفين ، وصل الأمر بفردريك بارباروسا أن راسل ابنه فى ألمانيا يطلب منه إعداد القوات اللازمة لقتال بيزنطة ، ثم هدأت الأمور بين الجانبين من بعد ذلك .

ويلاحظ أن الامبراطور البيزنطى اسحق الثانى انجليوس كان قد ارتبط بحلف مع السلطان الأيوبى ، ولدينا وثيقة عبارة عن رسالة مرسلة من الامبراطور البيزنطى إلى صلاح الدين الأيوبى أوردها المؤرخ بهاء الدين بن شداد، فى النوادر ذكر فيها الأول لحليفه أن عليه الاطمئنان وأنه صديقه الدائم وسيخبره بتحركات الجيش الألمانى[3]، على نحو عكس نجاح الدبلوماسية الأيوبية فى الافادة من الخصومة القائمة بين البيزنطيين والألمان لصالحها.

ويضاف إلى ذلك : أن قلج أرسلان عمل على مهاجمة القوات الألمانية عندما مرت بمناطق نفوذه فى آسيا الصغرى Asia Minor ، وأدى ذلك إلى الفتك بالكثيرين من أفرادها ، وزادت الأمور تدهوراً بالألمان عندما نزل الامبراطور البالغ من الكبر عتيًا كى يستحم فى نهر

١- رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٣٣ .

٢- عن علاقة الامبراطور فردريك باربارosa بالامبراطورية البيزنطية خلال الصليبية الثالثة انظر الفصل الذى خصصه تشارلز م براند لذلك :

Brand , Byzantium Confronts The west 1180-1204, Cambridge 1968, pp. 176-188 .

٣- النوادر السلطانية، تحقيق الشيال، ص١٣٢- ص١٣٣ .

وعن الصلات الدبلوماسية بين صلاح الدين والامبراطورية البيزنطية قبيل حطين وحتى الصليبية الثالثة انظر :

زبيدة عطا، الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين ، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص٨٧- ص١٠٠ .

وعن الحملة الألمانية بصفة عامة انظر هذه المقال الذى يحوى تجميعًا لنصوص المصادر العربية :

عبد الكريم كلشنى ، الصليبيون الألمان فى الشام من ٥٨٥-٥٨٦هـ/ ١١٨٩-١١٩٠م، المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، ط. عمان ١٩٧٤م، ص٢٤٥- ص٢٥٣ .

سالف Saleph [1] من أنهار كيليكيا Cilicia بآسيا الصغرى Asia Minor، فغرق وذلك فى يوم ١٠ يوليو عام ١١٩٠م/[2] ٥ جمادى الأولى ٥٨٦هـ، وبذلك وجهت ضربة قاضية لمصير الحملة الألمانية ، فقد تفرق أغلب أفرادها ، وفتك المرض بالعديدين، ووصل العدد القليل من الألمان إلى بلاد الشام حيث شاركوا فى حصار مدينة عكا الساحلية، ويعلق البعض على مصيرها موضحًا أنها فى حالة وصولها إلى المنطقة لقيل أن مصر والشام كانتا من أملاك المسلمين [3]، كناية عن قوتها الكبير ، والخطر الداهم الذى أحاط بالمسلمين من جرائها.

والأمر المؤكد هنا : أن غرق الإمبراطور الألمانى على هذا النحو حول حملته إلى موكب جنائزى[4] ، وقد أثلج تفرق جيشه صدور المسلمين وعلى رأسهم القيادة الأيوبية وحرم الصليبيين من قوة كبيرة كان من الممكن أن تساعد فى تغيير موازين القوى لصالحهم ، وأمام كافة تلك الأحداث ، كان من الضرورى أن تسارع فرنسا ، وانجلترا للتدخل شرق البحر المتوسط تعويضًا للإخفاق الألمانى ودعمًا للتحالف الاستراتيجى بين الشرق اللاتينى والغرب الأوربى .

١- من الملاحظ أن ذلك النهر يرد أحيانًا على أنه نهر الفاتر ، كما لدى ابن العديم، انظر :

زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٣ ، تحقيق سامى الدهان، ط. دمشق ١٩٦٧م، ص١١٤ أو نهر اللامس كما لدى لسترانج :

Le Strange The lands of The Eastern Caliphate, Mesopatamia From the Moslem conquest to The Time of Timur, London 1966, p. 141 .

٢- Otto of St. Blasion , p. 535 .

انظر أيضًا : Chronicle of The Third Crusade, A Translation of Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Recardi, pp. 64-65 .

Johnson , "The Crusade of Frederick Barbarossa and Henry VI" , in Setton, A History of the Crusades, vol . II, Madison 1969, p. 114 .

٣- عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص١٧٧ .

٤- Johnson, Op. cit., p. 114 .

وفى ختام تناول ذلك الإمبراطور الألمانى ؛ من الملاحظ أن نهر سالف ، وان ابتلعه غريقًا، إلا أن أسطورة نشأت حوله، هى أسطورة فردريك باربار وسا The Myth of Frederich Barbarossa [1]، حيث جعلت منه فارسًا صليبيًا مغوارًا تعمق فى العقل الجمعى الألمانى ، وفيما بعد وفى قرننا الحالى ظل تأثيره قائمًا من خلال الزعيم النازى أدولف هتلر Adlof Hitler الذى جعل مقر قيادته ذات الموقع الذى اتخذه من قبل ذلك الامبراطور[2] وكأنه أراد التشبه به، على نحو يثبت أن الأساطير لاتموت فى التاريخ وانما بقاياها لاتزال تعيش.

على أية حال ؛ من الملاحظ أن مركز الصلبية الثالثة ارتبط بمدينة عكا الساحلية، والتى اتجه الصليبيون إلى حصارها حيث ستدور حولها أطول معارك الحروب الصليبية على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين وأكثرها شراسة واستبسالاً من الجانبين الإسلامى والصليبى ويلاحظ هنا أن الملك الفرنسى فيليب أغسطس كان سباقًا إلى القدوم إلى المنطقة وشارك بقواته فى عمليات الحصار .

أما الملك ريتشارد قلب الأسد ؛ فيلاحظ أنه فى طريقه إلى الشرق، استولى على جزيرة قبرص Cyprus عام ١١٩١م / ٥٨٧هـ ذات الموقع الفريد فى مواجهة الساحل الشامى ،

١- عن أسطورة فردريك باربار وسا ؛ نعرف أنها ارتبطت بجبل كيفهاوزر Kyffhauser Mountain ، ونجد فيها الربط بين فردريك باربار وسا وبين الامبراطور الألمانى فردريك الثانى، وفى هذه الأسطورة التى لايمكن بمفردها أن تكفى لكتابة تاريخ ذلك الامبراطور، بل لابد من المصادر التاريخية الأخرى مثل ما كتبه أتو الفريزى Otto of Friesing وأوتو أوف سانت بلازيون Otto of St. Blasion وغيرهما - وفى هذه الأسطورة نجد التصور بأن فردريك باربار وسا سوف يعود ويسترد الامبراطورية لأنه فى عصره كان ناجحًا للغاية فى بناء امبراطوريته .

عن تلك الأسطورة انظر الفصل الممتاز الذى خصصه بيتر منز فى دراسته التالية:

Munz. Frederick Barbarossa Astudy in Medieval Politics, London 1969, pp. 3-22 .

كمال الدسوقى، تاريخ ألمانيا ، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص٣٩ .

عبدالله الربيعى، الدوافع الدينية للحركة الصليبية ، ص١٠٣ .

٢- محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨١ م .

وكان يحكمها حينذاك اسحق دوكاس كومنينوس Issac Docas Comnenus ، الذى حمل لقب الامبراطور، وقاد ثورة ضد الامبراطور البيزنطى إسحق الثانى انجليوس Issac II Anglus [١]، ويلاحظ أن هناك عدة دوافع دفعت بالملك الانجليزى إلى الاستيلاء على تلك الجزيرة ، ولم يكن الأمر مجرد الثأر لخطيبته من سوء معاملة حاكم الجزيرة لها كما تصور البعض ، بل إن ذلك العنصر يعد عنصراً جانبيًا إذا ما قورن بالدوافع الأخرى البالغة الأهمية ، فقد أراد تدعيم نفوذ انجلترا شرق البحر المتوسط ، كما هدف إلى توجيه لطمة قوية إلى الإمبراطورية البيزنطية، إذ أن قبرص عدت من أملاكها - على الرغم من التطور السياسى العارض الذى حل بها- ولامراء - فى أن ذلك جاء كمؤشر لتزايد المطامع الغرب أوربية فى أملاك الامبراطورية البيزنطية، ونستطيع القول- دونما تردد- أن اليوم قبرص ، وغداً القلب البيزنطى فى صورة القسطنطينية، ولانغفل أن ذلك الملك الانجليزى أراد- فيما أراد- إيجاد مركز متقدم للصليبيين فى مواجهة الساحل الشامى[٢] ومن خلاله بإمكان الصليبيين التزود بالمؤن والإمدادات قبل مقدمهم إلى بلاد الشام، وكذلك من الممكن اللجوء إلى تلك الجزيرة فى حالة إنسحاب الصليبيين من بلاد الشام وهو ما أكدته وقائع التاريخ ذاتها.

١- يلاحظ أن ريتشارد قلب الأسد تمكن عام ١١٩١م / ٥٨٧هـ، من هزيمة القبارصة فى منطقة سكيرمش Skirmish كذلك هزمهم فى قرية تريميتوشا Tremetousha وتمكن من الاستيلاء على نيقوسيا Nicosia وكيرنيا Kyrenia انظر :

Edbury , The kingdom of Cyprus and The Crusades, 1191-1374, Cambridge 1981 , p. 7 .

أيضًا : عاطف مرقص ، قبرص والحروب الصليبية فى القرنين ١٢ ، ١٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١١٩١م، ص٩٧ .

٢- يتضح ذلك بجلاء من خلال إدراكنا لموقع تلك الجزيرة التى وصفت بأنها وقعت فى الركن الشمالى الشرقى من البحر المتوسط بين خطى عرض ٣٤,٥ و ٣٥,٥ شمالاً وبين خطى طول ٣٢ و ٣٤,٥ تقريبًا ، وقد بعدت عن دمشق بمسافة ٢٠٩,٤٥ ك.م تقريبًا ، وعن الأناضول ١٨٥,٣٣ ك.م تقريبًا وعن مصر ٤٢٦,٢٣٥ كم تقريبًا ، وفق ما يقدره البعض، عن ذلك انظر :

عبد الوهاب حسن القرشى، قبرص والصراع البيزنطى الإسلامى فى الفترة من ٢١-٣٥٤هـ / ٦٤١-٩٦٥م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٩٦م، ص٤٧- ص٤٩ .

ويرى أحد كبار المؤرخين، أن دخول قبرص دائرة الحروب الصليبية عن طريق الفتح كان أهم ما نتجت عنه الصليبية الثالثة من آثار ، فالشرق اللاتينى الذى أراد له صلاح الدين الأيوبى أن يلقى به فى البحر المتوسط قدر له أن يحيا مرة أخرى على شواطىء الجزيرة القبرصية [١].

ولاريب ؛ فى أن التفسير الواحد لدوافع القادة الأوربيين القادمين لدعم المشروع الصليبى فى بلاد الشام من شأنه ايقاعنا فى منزلق القولية، والأحكام المتسرعة ، ومن الممكن القول أن عقلية الساسة الأوربيين حينذاك اعتادت تحقيق عدة أهداف مجتمعه من خلال عمل حربى قائم بذاته، ومن المتصور أن الاستيلاء على قبرص تمت دراسته بدقة من أجل أن يكون مكسبًا متعدد الأوجه ، ويلاحظ أنه من الآن فصاعدا حدث ارتباط وثيق بين تلك الجزيرة وتاريخ الحروب الصليبية ولعدة قرون تالية على نحو عكس أهمية غزوها على يد ملك انجلترا حينذاك.

على أية حال ؛ التقت القوات الفرنسية والانجليزية عند أسوار عكا، من أجل إسقاطها فى قبضة الصليبيين ، ويلاحظ أن تلك المدينة مثلت بالنسبة للصليبيين المحليين أو الغرب أوربيين نقطة بالغة الأهمية من أجل إعادة قسم حيوى من الكيان الصليبى إلى ما كان عليه قبل زلزال حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، وقد أدرك الصليبيون أن عليهم استعادة العاصمة الاقتصادية فى عكا أولاً قبل استرداد العاصمة الدينية بيت المقدس ، ودل ذلك على إدراكهم الجيد للأولويات فى الأهمية وقد عبرت عن ذلك الموقف إحدى المؤرخات بقولها «وجه افرنج الشام كل عناياتهم للاستيلاء على عكه ليتخذوا منها مفتاحًا يستردون به باقى ممتلكاتهم المفقودة»[٢].

ومن الملاحظ ؛ أن القتال حول عكا اشتد بصورة كبيرة ، وأراد كل طرف تحقيق أكبر قدر من المكاسب على الآخر، فقد حرص السلطان الأيوبى على استمرار مقاومة الحامية المسلمة بالمدينة حتى يشعر أعداء« أن الحصار الطويل لاجدوى من ورائه إلا استهلاك طاقاتهم العسكرية ، أما الصليبيين ؛ فقد أرادوا إسقاط المدينة من أجل أعادة خريطة المنطقة سياسيًا

١- سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٥٧ م ص. ٩١

٢- راجية ابراهيم عبد الوهاب، الاستراتيجية العسكرية لصلاح الدين، سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس، عام ١٩٨٦م، ص١٥ .

وعسكريًا إلى ما قبل أحداث معركة حطين ويلاحظ هنا أن تلك الحملة الصليبية- على نحو خاص- شهدت فصولاً متميزة من التاريخ الدبلوماسي فقد وقعت اتصالات بين الطرفين حتى فى وقت الصراع الحربى بينهما[1]. ومن الممكن تصور أن الإلحاح على استمرار العمليات العسكرية كان من أهدافه تحقيق مكاسب عسكرية تضعف الموقف التفاوضي للطرف الآخر قدر الاستطاعة.

وواقع الأمر؛أن أحداث حصار عكا تعددت بصورة ملفتة للانتباه ، فلم يكن الأمر مجرد حصار مدينة ساحلية ، بل عدة معارك متصلة ، ومن أهم ما يذكر خلالها ما عرف بحريق المنجنيقات [2]، والمعركة الخاصة بمحاصرة برج الذباب، وهو برج شيد فى وسط البحر على قطعة صخرية، واحتل أهمية بالنسبة لميناء عكا، وقد حاول الصليبيون إخضاعه لتشديد تحكمهم فى المنطقة[3]، وكذلك ما عرف بحريق برج الكبش [4]، ثم وقعة الكمين التى جرت عند أحد التلال الواقعة شمال عكا[5]، ومن المنطقى تصور أن معارك عديدة وقعت بين الجانبين غير أن ابرزها هى التى أوردها المؤرخون المعاصرون .

مهما يكن من أمر ؛ فعلى الرغم من البسالة الكبيرة التى أظهرها المدافعون المسلمون الأبطال- وهذا الوصف هو حقهم علينا عندما نكتب تاريخهم - إلا أن المدينة سقطت فى أيدى الصليبيين[6]، وذلك فى ١٢ يوليو ١١٩١م / ١٧ جمادى الآخر ٥٨٧هـ، وبذلك انتهت المعركة

١- عن ذلك الجانب انظر :

عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين دراسات تحليلية وثائقية فى التاريخ الدبلوماسى، ط. الاسكندرية ١٩٨٦م، ص١٧٢ .

٢- عن ذلك انظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية، ط. بيروت ب.ت ، ص١٢٠ .

٣- نفسه ، نفس المصدر، ص١٢٣-ص١٢٤ .

٤- نفسه ، نفس المصدر، ص١٢٦-ص١٢٩ .

٥-نفسه ، نفس المصدر، ص١٣٦- ص١٣٧ .

٦- نفسه ، نفس المصدر، ص١٦١ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ / ق١ ، ص١٠٤ - ص١٠٥ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٤٥ .

Ambroisse, p. 229 . Lane poole, Saladin and the Fall of the Latin kingdom of Jerusalem, London 1898, p. 293 .

التى دامت عامين كاملين ١١٨٩-١١٩١م / ٥٨٥-٥٨٧هـ [١]؛ ومن الممكن القول إن من العوامل التى ساعدت على سقوطها الكثافة العددية للصليبيين وتقدم معداتهم الحربية خاصة بعد مقدم الدعم الحربى من الغرب الأوربى لاسيما فى صورة الملكين الانجليزى - على نحو خاص- وكذلك الفرنسى، كذلك صعوبة ايصال المؤن والامدادات للقوات المسلمة المحاربة داخل عكا والتى قادت الحصار بكل ما أوتيت من قوة.

ويضاف إلى كل ذلك ؛ هناك عنصر فعال أثر على مجريات الصراع مع الصليبيين فى معركة عكا، فمن الملاحظ أن السلطان الأيوبى اعتمد على إمكاناته الذاتية فقط، أمام التحالف الغرب أوربى لدعم الشرق اللاتينى، وقد حاول الحصول على دعم حربى - لاسيما بحرى- من جانب الموحدين ببلاد المغرب[٢] ، خاصة السلطان يوسف بن يعقوب المنصور الموحدى (١١٨٤-١١٩٩م / ٥٨٠-٥٩٦هـ) إلا أن الأخير لم يستطع تقديم يد العون له لعدة اعتبارات، فيقال أن الأيوبيين لم يخاطبوه بعبارة أمير المؤمنين على نحو أوغر صدره ضدهم، كذلك لانغفل حملة الأيوبيين على برقة التى أثارت غضب الموحدين، غير أن الأهم من ذلك ، أن الموحدين لم يكن لهم امكانات بحرية كبيرة يستطيعون بها مساعدة اخوانهم فى الشرق ضد الصليبيين[٣]، ومن المتصور ؛ أن ما روجه التجار المغاربة بشأن ضخامة فعاليات الأسطول

١- تصور براور أن الحصار استمر ثلاث سنوات

انظر : Prawer, The Latin kingdom , p. 29.

وهو أمر تفنده وقائع التاريخ ذاتها، حيث نعرف أن جى لوزينيان بدأ الحصار فى ٢٥ أغسطس ١١٨٩م/ ١٣ رجب ٥٨٥هـ، وسقطت المدينة فى ١٢ يوليو ١١٩١م / ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ، عن ذلك انظر هذه الاطروحة المتخصصة :

جلال حسنى سلامه ، عكا اثناء الحملة الصليبية الثالثة .ط. نابلس ١٩٩٨م، ص٨٤ .

٢- عن العلاقات بين السلطان صلاح الدين الأيوبى والمنصور الموحدى انظر :

سعد زغلول عبد الحميد، «العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور يوسف بن عبد المؤمن الموحدى»، مجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية، م (٦)، (٧) عام ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ، ص٨٤- ص١٠٠ .

أيضا : ابتسام مرعى خلف الله، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى ٥٢٤-٩٣٦هـ/ ١١٣-١٥٢٩م ، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص١٤٧- ص١٦٥ .

٣- اعتمدت فى هذا الشأن على التحليل الدقيق الذى أورده سعد زغلول عبد الحميد فى مقالته السابقة.

الموحدى لم يكن إلا دعاية سياسية فى المقام الأول، زد على ذلك : أن ذلك الأسطول كانت له جبهته الخاصة به فى صورة الانهماك بمحاربة بنى غانية فى جزر البليار الواقعة شرق شبه الجزيرة الايبيرية[١]، وهكذا وقفت عناصر عديدة تحول دون أن يتمكن الغرب من تقديم الدعم الحربى لقضية الشرق على المستوى الرسمى .

ومع ذلك ؛ فإذا كانت الزاوية الرسمية لم تتحقق ؛ فمن الإنصاف التاريخى التقرير بأن المغاربة- على المستوى الشعبى وهو الأهم- قاموا بأدوار بارزة فى دعم جهاد إخوانهم المشارقة[٢]، وأن قضية الجهاد حينذاك لم تكن قضية مشرقية فحسب بل ومغربية أيضًا ، وأن الانقطاع بين المشرق والمغرب لم يكن موجوداً فى ذلك العصر أمام تنامى قضية الجهاد.

وقد يرى البعض : أننا نسوق العديد من العناصر والعوامل التى أضعفت الموقف العسكرى الأيوبى أمام التحالف الصليبى فى معركة عكا، غير أن الأمر ليس تبريريًا ، بل احقاقًا للموقف التاريخى فلم يكن يستطيع الأيوبيون الاستمرار فى تلك المعركة الطويلة للغاية، والمجهدة للغاية، ولم يكن للحصار أن يستمر إلى مالانهاية ، ويكفى أن مؤرخًا بريطانيًا محدثًا مثل إرنست باركر Ernest Barker وصف ذلك الحصار بأنه أسطورى يشبه حصار طرواده[٢] (قرية حصار لك التركية حاليًا) التى خلدتها الأشعار الهومرية فى الإلياذة

١- عن تاريخ المسلمين فى جزر البليار انظر هذه الدراسة الممتازة لشيخ المؤرخين الغزاويين المعاصرين : عصام سالم سيسالم ، جزر الإسلام المنسية ، التاريخ الإسلامى لجزر البليار، ط. بيروت ١٩٨٤م.

٢- عن ذلك انظر : ابن جبير ، الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٧٤ على أحمد ، «دور الأندلسيين والمغاربة فى الحروب الصليبية على مسرح الشام ومصر» ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٠٩- ص٢٣١ أحمد بدر «الأندلسيون والمغاربة فى القدس »، مجلة أوراق ، المعهد الأسبانى العربى، العدد (٤) ، مدريد ١٩٨١، ص١٣٣ ، عبد الهادى التازى، «بلاد الشام فى الوثائق الدبلوماسية المغربية »، المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام ، ط. عمان ١٩٧٤م، ص٤٣٤ .

٢- يقول ما نصه : "The Siege of Acre , as arduous and heroic in many of its episodes as The Siege of Troy" The Crusades, p. 62 .

والأوديسا، وفى هذا تكريم وضاح لأبطال أشداء دافعوا عن عكا حتى النهاية ثم ذبحوا(١) ليدخلوا التاريخ بجدارة واحترام.

وجدير بالذكر: أنه فى أعقاب سقوط المدينة المذكورة : أقام الملك الانجليزى مذبحة مروعة للحامية المسلمة التى قدرها البعض بنحو ألفين وسبعمائة فرد، فى منطقة تل العياضية الواقعة خارج المدينة وذلك فى أغسطس ١١٩١م ٥٨٧هـ، بعد فشل المفاوضات بين الجانبين وعدم تقديم المسلمين لصليب الصلبوت للصليبيين ، ولدينا وصف مؤثر من جانب الرحالة المسلم السائح الهروى ت ١٢١٥م / ٦١١هـ) الذى مر بالمنطقة بعد تلك الأحداث الدموية (٢).

لقد أثبت ريتشارد الأول قلب الأسد بتلك الحادثة ، الطابع الدموى فى شخصيته، وأكد بما لايدع مجالاً لارتياب مرتاب مدى عدوانية القادة الصليبيين ، وأن منهم من كانت تحركه سادية Sadism مريضة لايمكن أن تبرر بأى حال من الأحوال. ويلاحظ أن من المؤرخين الغربيين من غض الطرف عن تلك الزوايا ولم يعمل على إظهارها على الرغم من أنها محورية فى فهم أبعاد نفسية الشخصية الصليبية خاصة القادمة من الغرب الأوروبى- حيث الرحم الذى ولد فيه التعصب الصليبى ضد الإسلام وأهله- ومن الطريف والمخزى فى آن واحد أن من المؤرخين الغربيين: من تعامل مع ريتشارد الأول قلب الأسد بتلطف بالغ عندما أشار إلى تلك المذبحة

١- عن المذبحة المذكورة انظر :

ابن الأثير الكامل ، جـ١٢ ، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص٦٧ ، العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، تحقيق محمد صبيح ، ص٥٧٨، ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك، م٤ / جـ١ ، تحقيق حسن الشماع، ط. بغداد ١٩٦٩م، ص٢٧ .

Jacques de Vitry , p. 113 .

Roger of Wondover, Flowers of History , Trans. by Giles, Vol . II, London 1849 , p. 105

أحمد عبد الجواد الدومى، صلاح الدين الأيوبى الناصر لدين الله، ط. صيدا ، ب.ت ص١٢٤ ، جنفياف شوفيل ، صلاح الدين بطل الإسلام ، ت. جورج أبى صالح ، ط. بيروت ١٩٩٢م، ص٢٠٣ ، وفاء محمد على، دراسات فى تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٤١٠هـ، ص٧٢ ، تدرى تلمجى، صلاح الدين الأيوبى، قصة الصراع بين الشرق والغرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر م، ط. بيروت ١٩٧٩م، ص٣٩٥ .

٢- الهروى ، الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق ، دومنيك سورديل، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص٢٣ .

المروعة !! ونجد أن المؤرخ الأمريكي الشهير ول ديورانت Well Durant قرر تعليقًا على تلك الحادثة سمح ريتشارد ذو النزعة الروائية الشعرية لنفسه أن يفعل مالايتفق مع حياته النبيلة[1]، وفى حقيقة الأمر أنه تصور توافر ذلك الجانب فى شخصية الملك الإنجليزى الدموى الطباع ، على اعتبار أنه ابن اليانور Eleanor عاشقة شعر التروبادور Trupador ابنة وليم دوق اكويتاين William of Aquitaine غير أن ريتشارد لايفهم برومانسيته بل من خلال دمويته، وفى الوقت الذى ترصد بعض مؤرخى الغرب للسلطان صلاح الدين الأيوبى قتله لفرسان الاسبتارية والداوية عقب حطين وأشبعوه هجومًا ، على الرغم من تاريخه البالغ التسامح مع الصليبيين بصفة عامة ، إلا أنهم غضوا الطرف عن مذبحة تل العياضية التى جاءت لتثبت دموية الصليبيين ، ولايستطيع مؤرخ - أيًا كانت توجهاته الدينية أو السياسية- إلا أن يشعر بالاشمئزاز من ذلك السلوك للملك الانجليزى المذكور الذى دخل التاريخ على جماجم شهداء تل العياضية.

على أية حال فإن : أن إسقاط عكا قد أدى إلى عدة نتائج بالنسبة للطرفين المتحاربين ، فقد تمكن الصليبيون من تحقيق أول انتصار بارز لهم منذ وقوع كارثة حطين، واثبتوا بذلك للمسلمين أن بإمكانهم تحجيم انتصارهم فى المعركة المذكورة والنتائج العديدة التى حققوها فى أعقابها، فلاغرو أن ارتفعت روحهم المعنوية إلى حد كبير، خاصة من خلال إدراكنا لأهمية موقعها للكيان الصليبى ، كذلك ارتفع نجم ملك انجلترا حيث ظهر بمظهر «البطل الصليبى» الذى أمكن إعادة عكا إلى السيادة الصليبية على يديه- خاصة بعد إنسحاب الملك الفرنسى فيليب أغسطس ، وعودته إلى بلاده ، خلال تلك الأحداث- أما بالنسبة للمسلمين ؛ فقد عد سقوط عكا بمثابة كارثة، خاصة النهاية المأساوية لحاميتها التى دافعت عنها طوال عامين كاملين ، وقد حُرم المسلمون من المزايا العديدة الاستراتيجية والاقتصادية التى كان من الممكن الحصول عليها من خلال إخضاعهم لها، ظهر واضحًا أن الصليبيين بامكانهم- من الآن فصاعداً- تحقيق مكاسب عديدة بعد أن نجحوا فى إسقاط تلك المدينة - كذلك من المتصور أن الضغط على بيت المقدس زاد فى مخططات الصليبيين بعد إنجازهم البارز فى عكا.

١- قصة الحضارة ، جـ٤ / م٤ ، ت. محمد بدران ط. القاهرة ١٩٧٦م ، ص٤١ .

محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات وبحوث تاريخية ونقدية ، ط. عمان ١٩٩٩م .

على أية حال، فإن الحدث البارز بعد اسقاط عكا، معركة أرسوف ولذلك اتجه إلى تسليط الأضواء الكاشفة عليها لما لها من أهمية خاصة خلال تاريخ الصليبية الثالثة .

ويلاحظ أن الصدام الحربى هناك قد وقع وكان هدف الصليبيين العسكرى يتمثل إقامة قاعدة توفر لهم امكانية مهاجمة بيت المقدس من خلالها ، ولذلك اتجهوا صوب يافا Joppa، واتخذوا فى سبيل ذلك الطريق الساحلى Via marina أو الرومانى Via Romana ، ووفق ما نقرره المصادر التاريخية المعاصرة، فإن الصليبيين بعد فراغهم من أمر عكا؛ برزوا منها فى ٢٢ أغسطس ١١٩١م/ ٢٨ رجب ٥٨٩هـ، واتجهوا فى مستهل شهر شعبان صوب حيفا Haifa واتجه الجيش الأيوبى إلى مضايقاتهم فى سيرهم ، ومناوشتهم وتمت مهاجمتهم بالسهام على نحو وصف بأنه «ما كان يحجب الشمس»[١] وقتلوا وجرحوا من أعدائهم عدداً كبيراً .

ومن الجلى البين : أن المسلمين أرادوا إلحاق أكبر قدر من الخسائر البشرية والمادية فى صفوف أعدائهم ، وبالتالى إنهاك الجيش الصليبى على نحو يؤدى إلى ضعف فعالياته الحربية بصورة أو بأخرى، ولا ريب فى أن تلك الهجمات الأيوبية لاسيما من خلال السهام كان لها دورها فى بعث الاضطراب فى القوات المعادية : على نحو كان له أثره فى الانضباط العسكرى أو ما عرف لدى الصليبيين باسم Disciplina Militarisi [٢]، كذلك لانغفل أن المسلمين أرادوا الثأر من إخوانهم شهداء تل العياضية .

١- ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص٢١٥ .

ويلاحظ أن المؤرخ الصليبى جوفرى اوف فينزوف قرر أن الأتراك (ويعنى بهم المسلمين) رموا السهام على الجنود كالمطر أو البرد المتساقط من السماء، ويقول ما معناه يا لعدد الخيول التى تساقطت ، ويا لأولئك الرجال الذين سقطوا من جراء جراحهم ، عن ذلك انظر :

Geoffrey of Vinsaduf , p. 232 .

وعن معركة أرسوف بصفة عامة انظر :

Chronicle of The Third Crusade, A Translation of The Iiinerarium peregrinorum et Desta Regis Ricard, p. 246-261 .

٢- محمد مؤنس عوض، فى الصراع الإسلامى- الصليبى معركة أرسوف ١١٩١م / ٥٨٧هـ ، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص١٠ .

ومن الملاحظ أنه خلال عملية الزحف من جانب الصليبيين بمحاذاة البحر، أظهروا جلداً واضحًا عرف عنهم من قبل، كذلك امتازوا بتنظيم العمل، فكان جيشهم يتبادل الراحة حتى لايرهق ، فهناك قسم يشارك فى الصدام مع المسلمين ، والقسم الأخير يستريح فلايقاتل ، فإذا لحق الإرهاق القسم الأول تولى الثانى الأمر بدلاً منه ليستريح القسم المجهد، بينما كانت عناصر الخيالة فى الوسط لاتخرج إلا عندما تحمل على المسلمين فقط[١].

والجدير بالذكر هنا: أن ما حدث من صدام بين الجانبين فى الطريق إلى أرسوف يمكن وصفه بالقتال أثناء الزحف ، وذلك من خلال هجمات خاطفة للجيش الأيوبى، وقد بذل الصليبيون - لمواجهة ذلك- مجهوداً كبيراً من أجل الانضباط والبقاء فى صورة طابور متراص[٢]، ومع ذلك فقد تم ايقاع الخسائر فى الصليبيين وكذلك خيولهم [٣]، بالإضافة إلى أن السهام ذاتها كان من شأنها فرض التوتر العصبى الشديد على الجنود الذين تعرضوا لها [٤]، كذلك نجد أن المسلمين عملوا على تخطف الصليبيين وقتلهم [٥]، وقد وضح ذلك الأسلوب على نحو خاص

١- ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص٣٦٥ - ص٣٦٦ .

٢- Smail , Crusading Warefare (1097-1193, Cambridge 1956, p. 156.

٣- Ibid , p. 231 .

٤- Geoffrey of Vinsauf, p. 231 .

وفى هذا الصدد نجد أن هناك نوعًا من السهام يتردد ذكره فى المصادر الخاصة بالعصر الأيوبى على نحو خاص، وهو الزنبورك، وهو سهم فى سمك الابهام، وطوله مقدار ذراع وله أربع أوجه ، وله طرف من الحديد، وهو أيضًا ذو ريش من أجل أن يكون أكثر ثباتًا عند الإنطلاق، ووصف الزنبورك بأنه أينما سقط فإصابته مؤكدة ، ويقال إنه يخترق درع الجندى وملابسه ، وبامكانه كذلك اصابة أحجار الأسوار ، والجدير بالإشارة إلى أن الزنبورك سمى بذا الاسم لأنه يشبه فى صوت انطلاقه صوت حشرة الزنبور ، عنه انظر :

الطرسوسى ، تذكرة أرباب الألباب، تحقيق كاهن . B.E.O , T. XII, Années 1947- 1948

ص١٥٣- ص١٥٤ ، ابن واصل ، المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٢٤ ، حاشية (٤) .

٥- ابن الأثير، الكامل ، جـ٩، ص٢١٥ .

خلال عملية الزحف من قيسارية إلى أرسوف ذاتها [١]، ويلاحظ أن ذلك الأسلوب القتالى استمر حتى قرية عرفت بدير الراهب[٢] حيث جرت مفاوضات بين الجانبين اخفقت نظراً للبون الشاسع بينهما ، ورغبة الملك الانجليزى أن ينسحب المسلمين من المواقع التى حصلوا عليها فى أعقاب حطين . ويلاحظ أن ذلك الاجتماع التفاوضى بين الطرفين وقع فى ٥ سبتمبر ١١٩١م / ١٢ شعبان ٥٨٦هـ، أى قبل خوض غمار معركة أرسوف بيومين فقط؛ حيث وقعت فى ٧ سبتمبر ١١٩١م / ١٤ شعبان ٥٨٦هـ، وقد مثل آخر فرصة ممكنة من أجل التوصل إلى حل سلمى بين الجانبين وتجنب الصدام الحربى بينهما[٣].

والجدير بالذكر : أن معركة أرسوف يمكن أن تقسم إلى ثلاثة مراحل، الأولى وقد اتسمت بأن الجيش الأيوبى بادر بالهجوم وأحدث الخسائر فى صفوف أعدائه الذين اتخذوا موقف الدفاع، أما المرحلة الثانية فقد تحول الصليبيون من الدفاع إلى الهجوم المفاجىء العنيف ، وقد قاده اثنان من الاسبتارية Hospitallers هما المارشال وليم William Borrel ، وكذلك فارس فلمنكى أونورمانى هو بلدوين لى كارون Baldwin de Varon ، وصاحا صيحة قوية تتعلق بالقديس جورج St. George وردد الباقون الصيحة ذاتها واشتبكوا مع المسلمين [٤]، وعندما

١- ابن الأثير ، الكامل، جـ٩ ، ص٢١٥ .

٢- ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٣٦٧ .

٣- محمد مؤنس عوض، فى الصراع الإسلامى- الصليبى معركة أرسوف ، ص١٥ .

٤- Geoffrey of Vinsauf, p. 228-229.

والقديس جورج St. George ، هو جورج الشهيد عاش بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين، واعتبر القديس الحامى Patron Saint لإنجلترا ، ويعد أحد أكبر الشهداء المسيحيين شهرة فى عهد المسيحية المبكرة . ومن المحتمل أنه قتل فى اللد Lydda فى أخريات القرن الثالث وبدايات القرن الرابع الميلاديين، ونسجت حوله أسطورة عرفت باسطورة القديس جورج ، ويقال أنه قتل تنيناً، وهناك من يرى أن قصة التنين أضيفت إلى أسطورته فى أخريات العصور الوسطى ويرى البعض أن الملك ادوارد الثانى جعل ذلك القديس حامياً لانجلترا ، ومنذ عام ١٤١٥ م صار يوم الاحتفال به من أكثر الأيام المحتفل بها أهمية من جانب الانجليز . ويلاحظ أن يوم ٢٣ أبريل اعتبر يوم الاحتفال بذكراه ، عنه انظر :

Attwater, The Penguin dictionary of Saints, p. 148 .

صباح محمود محمد، «التنين فى المصادر العربية» ، ضمن كتاب دراسات فى التراث الجغرافى العربى ، ط. بغداد ١٩٩٨١م، ص٩٠ .

لاحظ ريتشارد أن زمام المعركة بدأ يفلت من قبضته أصدر أوامره الفورية بالاصطدام مع المسلمين[١]، والتوقف عن مرحلة الدفاع المنظم وتحويلها إلى مرحلة الهجوم العنيف، ويقدم لنا شاهد عيان مسلم معاصر أثر الهجوم الصليبي بقوله : «لقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة، وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وخرج لهم رجالهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها، فحملت طائفة على الميمنة ، وطائفة على الميسرة ، وطائفة على القلب، فاندفع الناس بين أيديهم»[٢].

ويلاحظ أن الهجوم السابق قد أدى إلى تفرق عناصر الجيش الأيوبي حتى ليقال أن صلاح الدين الأيوبي لم يبق معه في طلبه سوى سبعة عشر رجلاً فقط من رجاله[٣]، وهكذا يصدق قول بعض المؤرخين أن تلك المعركة «نال المسلمون وهن شديد» فيها[٤].

وأمام تلك الملابسات ، والظروف العصيبة ؛ لجأ المسلمون إلى الاحتماء بأية منطقة توفر لهم ذلك، فكان اللجوء إلى منطقة كثرت فيها الأشجار الكثيفة[٥] وجدت عند أرسوف ، وتوافرت هناك فوق عدد من التلال [٦]، ومع ذلك ؛ فإن السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي وجد جيشه يمثل تلك الصورة ثبت في ميدان المعركة ، وعمل على تجميع أمرائه وقواته مرة

١- Ambroise , p. 260 .

٢- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، تحقيق الشيال ، ص١٨٣ ، نبيله مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص٦٣ .

٣- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٦٨ والطلب جمعه أطلاب وهو لفظ كردي يعني الأمير الذي يقود مائتي فارس ويطلق أيضًا على قائدة المائة، وكذلك على قائد السبعين، وكان أول استعماله في عهد صلاح الدين الأيوبي، عن الاصطلاح المذكور انظر ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٦٢ حاشية ٣ .

انظر : حسان سعداوي، جيش مصر في أيام صلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٥٩م ص٩ حاشية ٢ .

٤- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٩ ، ص١٩٧ .

٥- ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص٢١٥ ، نايف حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٢٢٤ ، بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٩٨م، ص١٦٤ .

٦- جنيفاف شوفيل ، صلاح الدين بطل الإسلام، ص٤٠٧ .

أخرى لشن هجوم آخر على الصليبيين ، واتجه إلى الأمر بدق طبول الحرب وإثارة الحماس فى صفوفهم ، من أجل إعادتهم إلى التماسك من جديد[1]، ومن بعد ذلك : هاجم الصليبيين غير أنه لم يتمكن من تحقيق مكاسب حربية ضدهم ، وبصفة عامة : خسر المسلمون المعركة ولحقت بهم الهزيمة .

والأمر المهم فى معالجتنا لمعركة أرسوف : تناول رؤية المؤرخين الأوربيين لها. وكيف أنهم عالجوا قضيتها خدمة لأهدافهم ومصالحهم . وقد قرر المؤرخ البريطانى تشارلز أومان Charles Oman أن معركة أرسوف تعد حاسمة ، وأعطت للصليبيين كل الأراضى الساحلية الواقعة جنوبى فلسطين [2]. غير أن هذا التصور لاتؤيده منطقية الأحداث التاريخية ذاتها، إذ أن الجيش الأيوبى بعد أحداثها ظل يحتفظ بفعالياته الحربية، وقدراته على الأخذ بزمام المبادرة[3]، بالإضافة إلى أن منطقة أرسوف ذاتها، حيث البحر المتوسط ، والوادى والغابات لاتسمح بوجود معركة حاسمة تحقق مكاسب عسكرية كبيرة لأحد طرفى الصراع ضد الطرف الآخر[4]، وفى حالة كون أرسوف- جدلاً- فى منطقة متسعة لايعقبها البحر من الغرب، والغابات من الشرق : لكان من الممكن افتراض توافر الصفة السابقة لتلك المعركة .

ومن زاوية أخرى؛ فإن القول بأن معركة أرسوف جعلت الصليبيين يسيطرون على كافة الأراضى الساحلية جنوبى فلسطين ، توجه يحوى مغالطة ، لأنه يعكس أنهم تمكنوا بإمكاناتهم الحربية تحقيق ذلك. بينما اتجه الجيش الأيوبى نفسه إلى التخلى عن بعض مواقعه من خلال استراتيجية دفاعية مميزة ، وخير مثال وضاح دال على ذلك ما حدث بالنسبة لعسقلان وهو أمر سنوضحه فيما بعد .

١- عن دور السلطان الأيوبى خلال تلك الظروف العصيبة انظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١٨٤، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٣٦٨، المقريزى، السلوك ، ص١٠٥ .

٢- A History of The art of war in the Middle Ages, vol . II. p. 315 .

٣- Gibb, The Life of Saladin, Oxford 1973,p. 71 .

٤- أدين بهذه الفكرة لأستاذى أ.د. أحمد رمضان بوصفه خبيراً عسكريًا تخرج من الكلية الحربية بالقاهرة، وأتوجه له بالشكر على تعاونه معى بالنقاش فى هذه الزاوية على نحو خاص .

ونخلص من ذلك كله : أن معركة أرسوف لم تكن حاسمة ، بل أراد لها ذلك بعض المؤرخين الغربيين وعلى نحو خاص البريطانيين من أجل محاولة صنع معركة موازية لحطين يهزم فيها الصليبيون المسلمين ، غير أن ذلك السعى باء بالفشل، فلم تكن أرسوف نداً لحطين ، ولم تؤثر على خريطة التوزيعات الجغرافية السياسية فى فلسطين ، والدليل على صدق ذلك، أنها لم تحقق للصليبيين استعادة بيت المقدس، إذ ظلت المدينة المقدسة فى أيدى أعدائهم ولم يتمكنوا من استردادها بعد تلك المعركة التى بالغ فيها مؤرخو الغرب الأوربى واحاطوها بدعاية واضحة لاسند لها من الواقع التاريخى .

أما نتائج معركة أرسوف؛ فلاشك فى أنها جلبت التفوق للصليبيين لاسيما للملك ريتشارد الأول قلب الأسد. كذلك رفعت من الروح المعنوية للصليبيين بصورة أكبر من ذى قبل، أما بالنسبة للمسلمين، فإنها أحدثت آثارها النفسية السيئة فيهم ، ففى إشارة قوية الدلالة يقدمها لنا أحد المؤرخين المعاصرين من شاهدوا وقائعها أوضح أنه كان فى قلب السلطان الأيوبى من أثر تلك المعركة مالايعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، وأن الناس كانوا إما فى أزمة نفسية أو من المجروحين بدنيًا ، مما عكس حجم الأثر السىء الذى تركته المعركة على المسلمين قائداً وجنوداً .

ويرى المؤرخ الألمانى هانز ماير Hans Mayer أن أسطورة تفوق صلاح الدين قد انهارت[٢]، وتصور ستيڤن رنسيمان Steven Runciman أنه تعرض لمهانة شخصيته وإذلالاً عند الناس [٣]، وفى تصورى أن ذلك التوجه فيه مبالغة بعض الشىء ، إذ أن تلك الهزيمة لم تستطع أن تنال شيئًا من مكانة القيادة الأيوبية ذاتها فى نفوس المسلمين ، فانتصار حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، واسترجاع الساحل الشامى وإسقاط القلاع الصليبية استرداد بيت المقدس كانت آثاره قائمة ، وأتصور أن المسلمين طوال عصر صلاح الدين لم يختلفوا البتة عليه كقائد له كاريزما خاصة حقق من الانتصارات ما لم يحققها سابقوه- مع تقديرنا الكامل لأدوارهم التاريخية الفعالة واختلاف الظروف التاريخية- ولم يكن لانتصار أرسوف الهذيل والمحدود النتائج أن ينال من مكانة بطل الجهاد الذى أجمعت عليه الجماهير خاصة أنه لم يكن هناك أدنى منافس له طوال

١- ابن شداد، النوادر السلطانية ، ط. بيروت ب.ت- ص١٧٧ .

٢- The Crusades, Oxford 1987, p. 145 .

٣- The Crusades, Vol . II, p. 57

عصره. وقد يكون الإذلال الحقيقى فى حالة أن تؤدى تلك المعركة لاسترجاع بيت المقدس على أيدى الصليبيين ، الأمر الذى لم يحدث ويرى المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه Réne Grousset - ضمن تقييمه لنتائج أرسوف- أن تيار الحرب الدائرة بين المسلمين والصليبيين والذى صار فى صالح المسلمين منذ سنة ١١٧٠م / ٥٦٦هـ بدأ يتحول بعد تلك المعركة ليكون فى جانب الصليبيين لمدة طويلة من الزمان تصل إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وبالتحديد عام ١٢٥٠م / ٦٤٦هـ[1]، وهو العام الذى سقطت فيه الدولة الأيوبية ذاتها.

والواقع أن هذا القول ، يحوى مبالغة غير منطقية ، فإذا كانت تلك المعركة لم تحدث فعاليات كبيرة فى المرحلة الزمنية التالية مباشرة ، فكيف يتم التصور بأن فعالياتها امتدت لتشمل قطاعًا زمنيًا امتد بدوره إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى ؟!!

على أية حال ؛ فإن معركة أرسوف عدت آخر محاولة أيوبية من أجل تحطيم جيش ريتشارد الأول [٢]، ويلاحظ أنه فى المرحلة التالية على تلك المعركة شهدت اتباع سياسة دفاعية من جانب الأيوبيين ، ومن ذلك الاتجاه إلى تدمير بعض المواقع الاستراتيجية الخاضعة لسيادتهم؛ حتى لاتقع فى قبضة الصليبيين على نحو يجعلهم يحققون مكاسب على أرضية الصراع، وهكذا اتجه السلطان الأيوبى إلى تدمير عسقلان من أجل أن يصل إليها الصليبيون فيجدونها خرابًا[٣]، وقد أمر بإخلائها من السكان، وتم إحراقها ، وهكذا افترست السنة اللهب المدينة التى وصفت يومًا بأنها عروس الشام؛ غير أن الحرب أملت قراراتها التى لارجعة فيها. ولاريب أن السلطان الأيوبى قد أدرك بثاقب بصره أن أعداءه هدفهم بيت المقدس ، وأن عليه تركيز دفاعاته فى المدينة الأخيرة، وخشى أن يتخذ الصليبيون من عسقلان مركزاً للانطلاق إلى المدينة المقدسة، ومن هنا جاء قراره بتخريبها ، ويلاحظ أن ذلك التدمير حدث فى يوم ١٢ سبتمبر١١٩١م[١] / ١٩شعبان ٥٨٧هـ، أى بعد خمسة أيام فقط من الصدام الحربى فى أرسوف ، على نحو يكشف لنا بجلاء أن تلك السياسة كانت نتيجة مباشرة للمعركة المذكورة.

١- Histoire des Croisades et de Royaume franc de Jerusalem , T. III, paris 1946, p. 71 .

٢- Painter , " The Third Crusade: Richard The Lion hearted and Philip Augustus ", in Setton, A History of The Crusades, vol. II, Madison 1969, p. 75 .

٣- وفى ذلك يقول ابن الأثير ما نصه «حتى لايبقى للفرنج فى قصدها مطمع»، ابن الأثير، الكامل ، جـ٩ ، ص٢١٦ .

٤- عن تدمير عسقلان انظر : Geoffrey of Vinsauf, p. 231 .

على أية حال ؛ فإن المرحلة التالية لتعامل القيادة الأيوبية مع الأحداث المتلاحقة من جراء تقدم الحملة الصليبية الثالثة للمنطقة ؛ ارتبطت بالاهتمام بأمر بيت المقدس وزيادة دفاعاتها[١]، وفى هذا المجال ؛ عمل السلطان الأيوبى على تحصينها وعمارة أسوارها ، وحفر عدداً من الخنادق ، وحمل هو نفسه الحجارة، وكذلك أولاد الأمراء والعلماء والجنود[٢]، كما أنه سعى إلى هدم ما كان حول المدينة المقدسة من صهاريج وآبار، حتى يحرم الصليبيين إذا ما أتوا إليها من أية موارد لقواتهم عند حصارها ، والأمر المؤكد هنا ، أن الأيوبيين نجحوا تماماً فى معركة بيت المقدس، فقد ظلت فى أيديهم وعجز «قلب الأسد» عن جعل المدينة المقدسة فريسة سهلة بين أنيابه !، وبذلك عجزت الصليبية الثالثة عن استعادة المدينة التى ارتبطت بها ذكريات المسيحية المبكرة ، وطوال المرحلة التالية على أحداث أرسوف ، ظل السلطان الأيوبى يقوم بدور الفارس المسلم المدافع عن بيت المقدس دفاعاً بطولياً فلاعجب عندما وصفه مؤرخ سيرته بهاء الدين بن شداد أنه كان مهموماً هماً عظيماً بتلك المدينة، واستطيع القول- دونما مبالغة- أن بيت المقدس - على نحو خاص- أعطت لصلاح الدين الأيوبى شهادة ميلاده كبطل تاريخى للإسلام- فهى ليست مجرد مدينة من مدن المعمورة ، بل رمز بعيد الأثر والمدى، ويكفى أنها لدى المسلمين ارتبطت بمعجزة الاسراء والمعراج . ويلاحظ أنه فى إحدى رسائله للملك الانجليزى المذكور أوضح له أن القدس مقدسة عند المسلمين مثلما الأمر عند المسيحيين، وأنه لن يحصل عليها البته، وقد أوفى السلطان المجاهد بكلمته فلم يفرطه فى المدينة التى عادت بدماء الشهداء ، ولم يقدمها للغزاه على طبق من ذهب على الرغم من الحشود الضخمة والآلات الحربية التى أحضرها ملوك أوربا لاسيما الملك الانجليزى، لقد أدرك أن عودة بيت

= ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص١٨٧ ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٩ ، ص١٩٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٣٦٩- ص٣٧٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ٦ ، ص٤٦- ص٤٧ ، السيد الباز العرينى، الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، الأيوبيون ، ط. بيروت ١٩٦٧م، ص١٠١ .

١- ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٣٧٠، أحمد عبد الجواد الرومى، صلاح الدين الأيوبى الناصر لدين الله، ص١٢٦ .

٢- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢، ص٣٧٥ ، شاهنشاه بن أيوب، كتاب التاريخ ، منتخبات منه منشورة فى ختام كتاب النوادر السلطانية لابن شداد، ط. بيروت ب.ت ، ص٣٠٠ .

المقدس هى الثمرة الكبرى لحطين، ولذلك لم يفرط فيما لايفرط فيه مجاهد مسلم عاقل، وهنا قيمته، لقد صار رمزاً مثل بيت المقدس تمامًا ، ولذا كتب لاسمه- بإذن الله تعالى- الخلود .

مهما يكن من أمر : فأمام عجز الصليبيين عن إسقاط المدينة المقدسة ، لم يكن هناك بد من طرق بوابة الدبلوماسية لعل التفاوض يحقق ما عجزت عنه آلة الحرب الشرسة ، وقد دامت المفاوضات عامًا كاملاً، بدأ منذ لقاء دير الراهب السالف الذكر فى ٥ سبتمبر ١١٩١م / ١٢ شعبان ٥٨٦هـ، واستمرت متصلة حينًا ومتقطعة حينًا حتى تم الاتفاق على صلح الرملة(١) الذى وقع فى ٢سبتمبر ١١٩٢م/ ٢٢ شعبان ٥٨٧هـ الذى أذن بأن تضع الحرب بين الطرفين أوزارها. وقد تقرر أن تكون هناك هدنة شاملة في البر والبحر والسهل والوعر. وأن تكون مدته ثلاث سنوات . وثلاثة أشهر، وثلاثة أيام، وقد حصل الصليبيون بمقتضاه على المنطقة الواقعة من يافا جنوبًا حتى عكا شمالاً، وتصبح اللد والرملة مناصفة بين الطرفين، وتظل عسقلان مخربة ، ووافق السلطان الأيوبى النبيل المتسامح على قيام الصليبيين بالحج، فقدموا إلى بيت المقدس وحجوا ومنهم ريتشارد الأول نفسه ، وعكس ذلك مدى تحضر ذلك السلطان .

والآن نتساءل ما هى الظروف التى أدت إلى عقد ذلك الصلح سواءً بالنسبة للصليبيين أو المسلمين فبالنسبة للأولين : أدرك الملك الانجليزى أن الحرب ضد المسلمين لاطائل من ورائها، وأن استبسالهم فى الدفاع عن بيت المقدس بطولى على نحو عجز تمامًا عن إسقاطها فى

١- عن صلح الرملة وشروطه أنظر :

العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، ص٦٠٥ ، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٤٠٤، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٣ ، ص١٢١-ص١٢٢ .

Ambroise, p. 429-430, Geoffrey of Vinsauf , p. 429-430 , Richard of Devizes, p. 63-64 , Roger of Wendover , Flower of History vol, London , p. 123 , Campbell, The Crusades, London 1925 , p. 328 .

عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية، ص١٨٢- ص١٨٣ ، محمود سعيد عمران، الهدن المسلمين والصليبيين فى عصر الدولة الأيوبية، ضمن كتاب دراسات فى بحوث تاريخ العصور الوسطى، ط. الاسكندرية ١٩٩٦م، ص٢٦- ص٢٧ ، خاشع المعاضيدى وسوادى عبد ودريد نورى، تأريخ الوطن العربى والغزو الصليبى، ط. بغداد ١٩٨٦م، ص١٩٠ .

قبضته، وفى نفس الحين كانت الحرب مع المسلمين مكلفة وتساقط رجاله بين قتيل وجريح ، أضف إلى ذلك ؛ أنه لم يكن يحارب على أرضه بل على أرض أعدائه الذين امتلكوا الأرض، والاستبسال فى الدفاع عنها، والقدرة الكبيرة على تعويض الفاقد البشرى من خلال الكثافة السكانية التى توافرت لهم، فإذا ما لاحظنا أن مؤامرات رفيق سلاحه فى الشرق وغريمه الحقيقى فيليب اغسطس ملك فرنسا ، قد وصلت إلى مسامعه من انجلترا ، خاصة أنه ترك على العرش شقيقه يوحنا نائبًا عنه؛ أدركنا أن الضرورة الملحة فرضت على ملك انجلترا العودة إلى بلاده ، والتوصل إلى اتفاق دبلوماسى ما مع المسلمين يقر ببعض المكاسب ويدعم وضع الصليبيين المحليين، ويترك لهم «قاعدة ما» يمكن من خلالها أن يبدأوا من جديد بعد أحداث حطين العاصفة.

أما السلطان الأيوبى؛ فقد أدرك أن الحرب مع الصليبيين مجهدة ، مكلفة ، ومدمرة ، وقد فقد المسلمون الكثيرين خلالها، ويكفى للتدليل على ذلك أنه خلال يوم واحد ، وهو يوم «تل العياضية» سقط منهم نحو ٢,٧٠٠ رجل على نحو عكس فداحة الخسائر ثم أن السلطان الأيوبى لم يكن يستطيع الحفاظ على قواته متماسكة بعد طول حرب دامت عدة أعوام، فطوال المدة الزمنية الممتدة من ١١٨٧م / ٥٨٣هـ وحتى ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ، لم يهدأ الجيش الأيوبى، وظل فى صراع حربى مستمر فى حرب كادت تكون بلا نهاية ، يفنى فيها زهرة جيشه من أجل عناد لاطائل من ورائه ، خاصة أن بيت المقدس ظلت فى القبضة الإسلامية لاتفريط فيها، ولذلك قبل الصلح مع الصليبيين، ثم أن المتابع سيرة ذلك السلطان الفذ يدرك أن الحرب كانت لديه الطريق نحو السلم. ولم يكن يقبل عليها لمجرد الحرب فى ذاتها بل لتكون البوابة التى من خلالها يكون السلام ثابت الخطوة مرفوع الرأس ، فإذا أضفنا إلى كل ذلك التفاف الجميع حوله ، بشخصيته الآثره التى سحرت حتى أعداءه من الصليبيين ؛ أدركنا بالفعل أن موقفه التفاوضى كان أفضل من خصمه الانجليزى الذى لم يحقق مكسبًا حقيقيًا سوى «عكا» ثم انتصار مبتور فى أرسوف.

وهكذا ؛ كان صلح الرملة نهاية مرحلة ، وبداية أخرى ، نهاية الحرب Bellum وبداية السلام، Pax ، فلاعجب إذا عمت الفرحة الجانبين بعد طول عناء، وتساقط القتلى والجرحى وترمل النساء وتيتم الأطفال فى حرب ضروس افترست بأنيابها البشر والأخضر واليابس، ويحسن بنا هنا؛ أن نتعرض بالتحليل لشروط ذلك الصلح الذى توصلت إليه الدبلوماسية الأيوبية بعد عناء عام كامل من التفاوض. فيلاحظ أن مدة الصلح وهى ثلاث سنوات، وثلاثة

أشهر ، وثلاثة أيام تعد مدة واقعية تمامًا من خلال إدراكنا لخرق الصليبيين للعديد من الاتفاقات والهدن بينهم وبين المسلمين، كما أن تلك السنوات الثلاث لن تؤدى إلى ترهل الجيش الأيوبى وكفاءته الحربية، بل أنها فرصة سانحة من أجل اعادة التنظيم والتسليح بعد إنهاك طويل فى العمليات الحربية فى المرحلة السابقة.

أما فيما يتصل بحصول الصليبيين على المنطقة الواقعة من يافا جنوبًا حتى عكا شمالاً[١]، فهو أمر منطقى تمامًا، فقد أراد الصليبيون الحصول على قطاع ساحلى حيوى وفعال ، واحتوى على يافا- ميناء القدس العريق، ثم عكا المركز التجارى الذى تصارعوا من أجله عامين كاملين وحصلوا عليها بالسيف ، ولذلك جاء نص الاتفاق تأكيدًا لما تم انجازه فى الصراع الحربى بين الصليبيين والمسلمين ، كما تقرر أن تكون اللد والرملة مناصفة بينهما، وهو أمر متصور من خلال أن عصر الحروب الصليبية بصفة عامة؛ احتوى على ظاهرة «بلاد المناصفات» وهى المناطق التى توصف بأنها مناطق محايدة ، وكان يتم الاتفاق بين الطرفين Condominium على عدم استخدام مثل تلك المناطق للهجوم على أى جانب من الجانبين ، وهناك من يقرر أن إدارة مناطق بلاد المناصفات كان يتم عن طريق إدارة مشتركة بين المسلمين والصليبيين يرأسها نائب عن كل طرف[٢]، ويلاحظ أن الإشارة الخاصة بجعل اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين تعد من الإشارات الأولى فى المصادر العربية عن نظام بلاد المناصفات، وهو أمر سيستمر فيما بعد ونجد صدى له فى عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى وعلاقاته لصليبيين[٣] .

١- يلاحظ أن المؤرخ اللبنانى حسن الأمين يهاجم السلطان الأيوبى لإعطائه تلك المناطق للصليبيين ناسيًا أنها نتاج الجهد العسكرى الذى بذله الصليبيون خلال الصليبية الثالثة ، انظر رأيه :

حسن الأمين ، صلاح الدين الأيوبى نظرة مختلفة ، ص١٠٧ .

٢- عمر كمال توفيق ، الدبلوماسية الإسلامية، ص٢٢١ .

على السيد على ، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٤٨ .

من نظام المناصفات؛ من الملاحظ أنه وجد من قبل فى مرتفعات الجولان التى خضعت للسيادة المشتركة ب حكام دمشق والصليبيين انظر : Prawer, TheLatin kingdom, p. 42 .

ر كمال توفيق ، المرجع السابق، ص٢٢٠ .

زد على ذلك؛ أن السلطان الأيوبى لم يقدم بيت المقدس للصليبيين - كما أسلفت- وجعل لهم امكانية الحج وفى هذا رسالة حضارية بالغة الأهمية حيث أراد أن يوضح لهم تسامح الإسلام، وأنه لاتوجد أية مشكلات فى شأن تدفق حركة الحج المسيحى مع وجود المحارم المسيحية المقدسة فى أيدى المسلمين ، وبذلك يقضى على الفكرة الأصلية والمبرر الأساسى - المعلن بطبيعة الحال- لقدوم الصليبيين إلى المنطقة لحماية تلك البقاع المسيحية المقدسة من سيطرة المسلمين وشرورهم .

وواقع الأمر؛ إن نظرة متأنية لذلك الصلح وبنوده ؛ تكشف لنا عن أن الدبلوماسية الأيوبية حققت انتصاراً غير مسبوق ، ولم تفرط- حتى الآن- فى المقدسات ، بل تم اعطاء الصليبيين ما تمكنوا أنفسهم من الحصول عليه بالحرب وبعد جهد جهيد. ويلاحظ هنا الاصرار على الحصول على صلح مشرف لاذرة تنازل ولاتفريط فيه، وما لم يتمكن الصليبيون من تحقيقه بالحرب عجزوا عن تحقيقه بالتفاوض ، ولذلك نصف التفاوض الأيوبى- الصليبى بأنه حرب دبلوماسية ، خرج منها الأيوبيون، مرفوعى الرأس نظراً لحصافة وحنكة المؤسس الكبير صلاح الدين الأيوبى الذى لم يغرر به الملك الانجليزى فى المفاوضات .

ونصل الآن إلى زاوية مهمة ؛ وهى تتعلق بتقويم الصليبية الثالثة بين النجاح والفشل، وفى حقيقة الأمر، أن الهدف الأساسى الذى من أجل قدم ملوك وأباطرة أوربا للمنطقة وهو تحرير بيت المقدس من السيادة الإسلامية لم يتحقق ، وعجز الملك الانجليزى ريتشارد الأول قلب الأسد من تحقيق ذلك حيث وقفت فكرة الجهاد الإسلامى ومن ورائها ابناؤها المخلصون لتجعل ذلك سرابًا لاطائل من ورائه ، ويكفى للتدليل على الموقف من رواية مؤرخ الجليزى معاصر فى صورة إرنست باركر Ernest Barker حيث أشار إلى أن الصليبية الثالثة اخفقت لأنه يستطيع جيش فرقته الميول والأهواء - يقصد الجيش الصليبى- ويحارب على أرض أجنبية أن يحقق انتصاراً على جيش موحد بقائد صلاح الدين وتحركه الروح الدينية[١]، وهكذا شهد شاهد من أهلها على إخفاق تلك الصليبية وعجزها .

١- The Crusades, p. 66 .

يقول ما نصه : The Crusade had failed . Failed because a leaderless army , Torn by Polit-ical dissensions and Fighting on a Foreign soil, could not succeed againest forces united by religious Zeal under The banner of a leader like Saladin" .

وأقدم هذه الشهادة الصادقة لذلك المؤرخ البريطانى لأولئك الذين يتوهمون أن الجهاد الإسلامى فى عصر الصليبيات وفكرته ما هو إلا عبارات انشائية جوفاء .

ومع ذلك ؛ من الإنصاف التاريخى أن نقرر أن هناك مظاهر للنجاح حققها الصليبيون وأهمها عودة عكا لسيادتهم مرة أخرى، كذلك فإنهم تمكنوا - من خلال دور ريتشارد الأول قلب الأسد- من السيطرة على قبرص التى ستكون قاعدة صليبية متقدمة فى مواجهة المسلمين فى بلاد الشام، غير أن ذلك الانجازات لاتتفق مطلقًا مع حجم الآمال الكبار التى علقت على تلك الحملة عندما شرعت فى التوجه إلى الشرق.

ونصل الآن إلى ناحية محورية، فى صورة النتائج التى نتجت عن تلك الحملة الصليبية، فيلاحظ أنها تركت نتائج على جانب كبير من الأهمية وكانت مؤشرات فاعلة لما سيتحقق فى القرن التالى ونعنى به القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى ، إذ أن سقوط قبرص فى أيدى الانجليز ، قد أثبت حقيقة الأطماع اللاتينية السافرة فى أملاك الإمبراطورية البيزنطية، ويلاحظ أن العداء بين الجانبين تصاعد على مدى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، غير أنه فى أخريات ذلك القرن كشرت الأطماع اللاتينية عن أنيابها ، وكان التهام قبرص ، ولامراء فى أن ذلك يعد مؤشراً لما حل بالقسطنطينية ذاتها فى خلال أحداث الصليبية الرابعة.

زد على ذلك؛ حدوث التداخل الاجتماعى بين المسلمين والصليبيين لاسيما فى أعقاب توقيع الصلح[1]، وذلك عكس - فيما عكس- عجز آلة الحرب والتعصب المقيت عن وقف التواصل الإنسانى حتى بين الأعداء ، ويكفى أن نذكر كيف أن الطرفين تداخلا اجتماعيًا حتى فى أحلك ساعات الصراع الحربى بينهما.

وإلى جانب ذلك؛ من الملاحظ أن من نتائج الصليبية الثالثة إدراك الصليبيين لأهمية دور مصر المحورى فى مقاومة الغزوه الصليبية الشرسة، -مع عدم اغفال فعاليات شقيقاتها المجاورات[2]- ، ومما يذكر فى هذا الصدد؛ أن الملك الانجليزى ريتشارد الأول قلب الأسد وهو يغادر المنطقة نصح الصليبيين بأن رأس الأفعى هى مصر ، وأن الطريق إلى بيت المقدس يبدأ

١- Barker, The Crusades, p. 66 .

٢- أود أن أقرر هنا ضرورة إدراك دور مصر من خلال تعاون ذلك الدور مع الأدوار البارزة للشعوب الإسلامية فى الشام والعراق ومناطق أخرى فى بلاد المغرب، إذ أن من الخطورة بمكان انعكاس الروح الوطنية على الكتابة التاريخية وبالتالى اعتساف الأحكام التاريخية من خلال رؤية وطنية قاصرة ولاتعارض - فى تصورى- بين أدوار تلك الأقطار فى ذلك العصر من خلال شمولية روح الجهاد ذاتها وانصهارها فى حركة شعوب مجاهدة وراء قادة يحققون لها آمالها فى مواجهة الصليبيين .

من القاهرة ومع ذلك ؛ فإنه بذلك لم يتصور أمراً فريداً يحسب له، بل أن الغزاه أدركوا ذلك منذ زمن بعيد، وما حملات الملك الصليبى عمورى الأول إلا إثباتًا لتلك الزاوية التى أدركها الصليبيون من قبل ريتشارد بعدة عقود » غير أن المهم فى إدراك ذلك الملك الإنجليزى أنه أوضح أن السلطان الأيوبى الفذ دعم «الشامصر» ، وبذلك لم يواجه كل قطر الصليبيين منفرداً، بل من خلال تعاون وثيق مع التركيز على الإمكانيات المصرية البارزة التى مثلت عمقًا استراتيجيًا لقضية الجهاد ضد الصليبيين وهكذا سنجد أن العديد من الحملات الصليبية فى القرن التالى وهو القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى ؛ ستتجه نحو مصر بالحاح كبير على نحو يدل على أن الغزاه أدركوا الدرس جيداً وعملوا بنصيحة ذلك الملك الانجليزى الذى أخفق أمام عبقرية «الشامصر» الجغرافية والتاريخية .

وفى تصورى ؛ أن من أهم وما نتج عن تلك الحملة الصليبية؛ المواجهة التى تمت بين الفروسيتين ، الشرقية الإسلامية، والغربية المسيحية، وقد مثل الأولى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ومثل الثانية الملك ريتشارد الأول قلب الأسد، ودونما شيفونية جوفاء، من المؤكد أن الأول تفوق على غريمه على المستوى الحضارى، ويكفى أن الملك الانجليزى عندما مرض فى يافا أرسل صلاح الدين إليه طبيبه الخاص ومعه الفاكهة والثلج، ودل ذلك على ذروة التحضر فى عصر صبغة الصليبيون بالتعصب المقيت ، ولاريب فى أن ذلك جعل الصليبيين يدركون أنهم أمام طراز فريد ونادر من الأبطال المسلمين فوقعوا أسرى الإعجاب به، فلاعجب إذا ما عرفنا أن منهم من اعتنق الإسلام على يديه ، وهكذا لانغادر الحقيقة إذا ما اعتبرنا الصليبية الثالثة هى الرحم الابداعى الذى منه خرجت أسطورة صلاح الدين فى الفكر الأوربى فى العصر الوسيط.

مهما يكن من أمر، فبعد تلك الأحداث الصاخبة، غادر المنطقة الملك الانجليزى ريتشارد الأول قلب الأسد عائداً إلى بلاده ، ويلاحظ أنه وقع أسيراً فى يد ليوبون دوق النمسا فقام بتسليمه إلى الامبراطور هنرى السادس الذى قام بدوره بالقائه فى السجن حتى جمعت حكومته فدية كبيرة لإطلاق سراحه ، وما أن عاد إلى انجلترا؛ حتى شن حربًا شعواء ضد ملك فرنسا فيليب أغسطس ، وكذلك أخيه حنا، وقد لقى ريتشارد حتفه عام ١١٩٩م / ٥٩٦هـ أثناء حصار قلعة شاتوس[1] Chatus من خلال سهم قذف به عن طريق الخطأ من أحد رجاله .

١- عن ذلك انظر : Geoffrey of vinsauf, p. 358-359 .

نظير حسان سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص٩٢- ص٩٣ .

أما السلطان الأيوبى : الذى أنهكته الحرب، والصراع مع الصليبيين ، فقد وقع فريسة المرض، وأصيب بالملاريا ، وتوفى فى ١١٩٣م/ ٥٩٠هـ. فحزنت عليه الجماهير المسلمة وحتى غير المسلمة حزنًا بالغًا ، ويكفى أن نطالع ما أورده ابن شداد فى النوادر السلطانية لندرك كم كان حصاد ذلك السلطان من الحب الجارف فى قلوب معاصريه ضخمًا(١). ورحل ذلك القائد ، غير أن جهاده ضد الغزاه ما يزال يتحدث عنه .

ذلك عرض للصراع الإسلامى الصليبى ونشاط الصليبيين خلال المرحلة من ١١٨٩ إلى ١١٩٢م ٥٨٥-٥٨٨هـ. أما الفصل التالى فإنه يختص بتناول سقوط القسطنطينية ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ وانتحار الصليبيات .

١- يقول ابن شداد : «والله لقد كنت اسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء» بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخيص إلا فى ذلك اليوم فإن علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس».

النوادر السلطانية ، ط. بيروت ، ب.ت ، ص. ٢٥٠ ومثل تلك الاشارة وغيرها كثير تجعلنا نرجع الجانب الكارزمى فى شخصية ذلك السلطان الأيوبى الكبير.

الفصل التاسع

سقوط القسطنطينية ١٢٠٤م

وانتحار الصليبيات [١]

يتناول هذا الفصل بالدراسة الأحداث التاريخية التى أدت إلى إسقاط القسطنطينية لأول مرة فى تاريخها منذ تم تشييدها وافتتاحها عام ٣٣٠م، وذلك عام ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ، ثم يتعرض للنتائج العديدة التى نتجت عن ذلك التاريخ المحورى فى وقائع الحروب الصليبية ، ولماذا يعد- وبحق- انتحاراً لتلك الحركة التاريخية الأوربية.

وفى حقيقة الأمر : أن ما يعرف بالحملة الصليبية الرابعة ليس من اليسير على الباحث أن يجعل بداياتها مرتبطه بأوائل القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى ؛ بل من المتصور أن تلك الحملة لها بدايات مبكرة امتدت على مدى قرون عديدة من تاريخ القارة الأوربية فى المرحلة القروسطية ، ومن الأفضل تتبع الجذور التاريخية التى أدت إلى حدوث ما حل بمدينة قسطنطين خلال تلك الصليبية.

وجدير بالذكر : أن الامبراطور قسطنطين الكبير Constantine The Great (٣٠٥-٣٣٧م) غادر روما القديمة Roma Antiqua ، على ضفاف التيبر ، واتجه إلى اقامة عاصمة جديدة هى القسطنطينية Constantinople أوروما الجديدة Roma Nova على ضفاف البسفور التى افتتحها بالفعل فى ١١ مايو ٣٣٠م، وقد عاشت الأخيرة فى قلب حضارات العالم القديم المصرية والفارسية واليونانية، ونهلت من ذلك الميراث الحضارى الخصب، وبمرور القرون ازدهرت تلك المدينة ازدهاراً بالغًا ، ومع انهيار روما القديمة عاصمة الامبراطورية الرومانية Imperium Romanum على أيدى العناصر الجرمانية بقيادة ادواكر ، وإسقاط حكم رومولوس اوجستيلوس Romulus Augustilus عام ٤٧٦م، ثم بقاء القسطنطينية بعيدة عن التأثير الجرمانى الكاسح المدمر، بدأنا ندرك أن هناك فوارق حضارية أخذت فى الاتساع بين الطرفين ، الشرق البيزنطى، والغرب الأوربى ولايستطيع الباحث المنصف حتى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس

١- تعبير انتحار هنا مجازى ولايعنى الواقع التاريخى لأن الصليبيات استمرت فيما بعد عام ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ.

الهجرى إلا ويدرك أن هناك ما يمكن وصفه بالفجوة الحضارية بين الجانبين ، مع ملاحظة أنه منذ القرن المذكور بدأت تلك الهوة تضيق نسبياً بينهما من خلال ظهور ما يعرف بنهضة القرن الثانى عشر The Renaissance of the Twelfth Century [١] ؛ وهى أخطر النهضات الأوربية فى المرحلة الفروسطية بصفة عامة، ومع ذلك ؛ ظل البيزنطيون ينظرون إلى الغرب الأوربى نظرة ازدراء واحتقار ، لقد شعروا بأنهم خلفاء الرومان، وحتى الامبراطور البيزنطى نفسه كان يصف نفسه بالإمبراطور الرومانى، ولم تكن بيزنطة تعترف بوجود امبراطور آخر فى الغرب الأوربى. ومعنى ذلك أن كلاً من الجانبين افتقد القدرة على الاعتراف بالآخر، وهذه زاوية محورية من أجل فهم أبعاد الصدام الذى حدث فى عام ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ .

ومع ذلك ؛ لم تكن الهوة الحضارية هى كل ما فى الأمر، بل إن الصراع العقائدى ، لعب دوراً بارزاً هو الآخر، من أجل تعميق التباعد بين الجانبين ولعل من الأحداث البارزة التى تجعلنا ندرك حجم الموقف التدهور بينهما ، قطيعة فوشيوس Photian Schism عام ٨٦٩م / ٢٦٨هـ ثم الانشقاق الاعظم Great Schism عام ١٠٥٤م/ ٤٤٦هـ، وقد أدت إلى نتائج بعيدة المدى فى العلاقات بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى .

غير أننا ينبغى ملاحظة أن القطيعتين المذكورتين لم تقعا دون مقدمات سابقة لها أهميتها فى التمهيد على المستويين الكنسى والسياسى، وفى هذا المجال نجد أنه فى أواخر القرن السادس الميلادى تزايد الخلاف بين الجانبين عندما اتخذ بطريرك القسطنطينية لقب المسكونى Oecumenical ، وبذلك أعطى لنفسه صفة العالمية، وهى صفة ارتبطت كنيسة روما بها على اعتبار أن مؤسسها هو القديس بطرس St. Peter وأنها بالتالى سيدة الكنائس ، وقد أظهر اعتراضه على ذلك البابا جريجورى الكبير Gregory The Great (٥٩٠ - ٦٠٤م) الذى عمل من قبل عدة سنوات فى القسطنطينية بوصفه وكيلاً للبابا قبل توليه منصبه البابوى ، ولاريب فى أن ذلك يعكس لنا أن التنافس والصراع بين الكنيستين حول الزعامة العالمية له جذوره التاريخية الفاعلة[٢].

١- عن تلك النهضة انظر دراسة هاسكنز الممتازة :

Hashins , The Renaissance of The Twelfth Century . Cambridge 1928 .

٢- عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى ، ط. دمشق ١٩٨٠م، ص٣٢٦ .

زد على ذلك : أن القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى : شهد مرحلة مهمة من الخلاف بين الطرفين، وذلك من خلال السياسة التى أتبعها بعض اباطرة الأسرة الأيسورية فى صورة ليو الثالث الايسورى Leo III The Isaurian (٧١٧-٧٤١م / ٩٩-١٢٤هـ) ومن بعده ابنه قسطنطين الخامس Constantine V [1] (٧٤١-٧٧٥م / ١٢٤-١٥٩هـ) ، وقد غضبت البابوية فى الغرب وتمثل ذلك فى البابا جريجورى الثانى Gregory II (٧١٥-٧٣١م / ٩٧-١١٣هـ)[2]، الذى رأى فى تلك السياسة البيزنطية نوعًا من التأثر باليهود والمسلمين[3]، وقد اجتمع مجلس من الأساقفة فى الغرب الأوربى دعا إليه البابا المذكور، وصب ذلك المجلس اللعنة على الأباطرة الأيسوريين الذين حطموا الايقونات [4]، وبصفة عامة: عد الصراع حول الايقونات مرحلة مؤثرة فى زيادة الهوة بين الطرفين البيزنطى واللاتينى .

= والبابا جريجورى الكبير، هو جريجورى الأول Gregory I تولى البابوية من ٣ سبتمبر ٥٩٠ حتى ١٢ مارس ٦٠٤م، وحمل لقب الكبير Great شأنه ذلك فى شأن البابا ليو الأول Leo I ، وقد ولد البابا جريجورى فى عام ٥٤٠م من جانب أسرة ثرية عملت بالجوانب الكنسية ، ويلاحظ أن ذلك البابا كانت له اهتمامات متسعة شجع الرهبنه وعمل على تقديم الهبات القيمة للرهبان ، وهو أمر متوقع منه حيث أنه كان، راهبًا وترهبن عندما بلغ الخامسة والثلاثين من العمر، أنفق قسمًا من أمواله من أجل إقامة أحد الأديرة فى روما، ، ويلاحظ أنه يعد الرابع بين أكبر أطباء الكنيسة اللاتين، كما أنه خلال المرحلة من ٥٧٩ إلى ٥٨٥م عمل فى منصب وكيل البابوى apocrisianus فى القسطنطينية ، وبعد عودته إلى ديره بخمسة أعوام ، انتخب بابا وهو الراهب الأول الذى احتير لذلك المنصب ويلاحظ أن يوم عيده يوافق ١٢ مارس . عنه أنظر :

Kelly, Dictionary of Popes , pp. 65-68 .

Attwater, The Penguin dictionary of Popes, p. 157-158 .

١- عن سياسة الاباطرة اللايقونيين خاصة ليو الثالث وقسطنطين الخامس انظر :

Ostrogorsky , Hisrory of the Byzantine State, pp. 143-147 .

٢- جريجورى الثانى Greagory II ، بابا وقديس ، ولد فى روما عام ٦٦٩ من أسرة ثرية، وتولى المنصب البابوى من ١٩ مايو ٧١٥ إلى ١١ فبراير ٧٣١م، ويلاحظ أنه يوم عيده يوافق الحادى عشر من فبراير. عنه أنظر :

Kelly , Op. Cit., p. 86-87 .

٣- Ibid , p. 87 .

٤- محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص١٠٢ .

زد على ذلك ؛ أن البابوية وجهت لطمة قوية للامبراطورية البيزنطية من خلال اتجاه البابا ليو الثالث[١] (٧٩٥-٨١٦م / ١٧٩-٢٠١هـ) إلى تتويج شارلمان carolus Magnus (٧٦٨-٨١٣م / ١٥١-١٩٨هـ) امبراطوراً فى عام ٨٠٠م / ١٨٤هـ فى كنيسة القديس بطرس فى روما[٢]، ولاريب فى أن ذلك كان يعنى ظهور امبراطور فى الغرب الأوربى ينافس الإمبراطور البيزنطى، وأرادت البابوية ، ممارسة لعبة توازن القوى بين الامبراطورين ، غير أن الامبراطورية البيزنطية لم تكن لتعترف بذلك الإمبراطور الجديد، ولم يكن لإمبراطور القسطنطينية أن يقبل بكونه نصف إمبراطور ، ومن المؤكد أن البابوية بتتويجها شارلمان امبراطوراً ؛ قطعت آخر الخيوط التى تربطها بالإمبراطورية البيزنطية ، ويعلق أحد المؤرخين على الموقف قائلاً : «لاشك فى أن تتويج شارلمان كان طعنة نجلاء صوبتها البابوية إلى الأباطرة البيزنطيين ؛ الذين كانوا يتمسكون دائمًا بمبدأ وحدة الامبراطورية الرومانية من جهة ، وينظرون إلى كل الفرنجة على أنهم برابرة لا أكثر من جهة ثانية، ولذا رفضت الحكومة الامبراطورية فى القسطنطينية الاعتراف بالامبراطور الجديد (شارلمان) ، وبدأ فى نظرها مدعيًا ومغتصبًا بل و«تافهًا وسخيفًا» على حد قول باراكلاف ، وفى نفس الوقت أصبح البابا فى نظر البيزنطيين مجرد مواطن متمرد، وجاحد لأنه قام بتتويج شارلمان الفرنجى» [٣].

ونصل الآن إلى قطيعة فوشيوس ؛ وقد وقعت أحداثها فى عصر الأسرة المقدونية (٨٦٧-١٠٥٧م / ٢٥٣-٤٩٠) هـ وخاصة فى عهد الإمبراطور بازل الأول Basil I

١- ليو الثالث Leo III بابا وقديس ، وقد تولى المنصب البابوى فى ٢٦ ديسمبر ٧٩٥ م حتى ١٢ يونيو ٨١٦م، وهو من أصل رومانى من جنوب ايطاليا وعمل راهبًا وكردينالاً لستا سوزانا Sta Susanna ، وينسب إليه أمر تتويج شارلمان امبراطورا عام ٨٠٠م ، وعرف عنه كفاءته الادارية ، ويلاحظ أن يوم عيده يوافق ١٢ يونيو ، عنه انظر :

kelly , Oxford dictionary of Popes , pp. 97-99 .

٢- عن تتويج شارلمان انظر :

Loyn and John Percival, The Reign of Charlemagne, Documents on Carolingian Cover-ument and Ad Ministration, London 1975, p. 26 .

٣- عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية ، ص٣٢٨ .

(٨٦٧-٨٨٦م / ٢٥٣-٢٧٣هـ) ، ويلاحظ أن الأسقف البيزنطى فوشيوس[١] (٨٥٨-٨٦٧م / ٢٤٤-٢٥٣هـ) ، (٨٧٧-٨٨٦م / ٢٦٤-٢٧٣هـ) ، كان قد كتب مقالاً بعنوان De Spir-itu Mystagogia ، هاجم فيه ما أسماه بانحراف قانون الايمان عند اللاتين بسبب إضافة كلمة Filioque «الروح القدس المنبثق من الابن أيضًا » ، وقد أوضح أن تلك الإضافة تعد انحرافًا عما اتفق عليه آباء الكنيسة الأوائل فى المجامع المسكونية التى عقدت من أجل الاتفاق على صيغة محددة حول طبيعة السيد المسيح ، وقد اعتقد فوشيوس أن تلك الإضافة تعد بدعة تؤدى إلى الخلط بين طبيعتى كل من الآب والابن [٢].

على أية حال ؛ وقع انقلاب فى القسطنطينية عام ٨٦٧م / ٢٥٣هـ، انتهى بالفتك بالامبراطور ميخائيل الثالث واعتلاء بازل الأول العرش وقد تم تعيين اغناطيوس اسقفًا وعزل فوشيوس، ومن بعد ذلك تم عقد مجمع فى العاصمة البيزنطية عام ٨٦٩م / ٢٥٦هـ وفيه تم إدانة فوشيوس ولعنه [٣]، ويلاحظ أن البابا يوحنا الثامن John VIII (٨٧٢-٨٨٢م / ٢٥٩-٢٦٩هـ) اتجه إلى لعن فوشيوس وشاركه فى ذلك جمع من البابوات ، بل أنه فى نهاية القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى ، وأوائل العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى ظهرت موجة عدائية فى الغرب الأوربى ضد بيزنطة بسبب قضية فوشيوس وتم لعنه وكذلك كنيسة القسطنطينية التى ظهرت على أنها مهرطقة ومارقة[٤].

وإذا كان ذلك شأن قطيعة فوشيوس : فإن الأهم منها ما عرف بالانشقاق الأعظم الذى وقع عام ١٠٥٤م / ٤٤٦هـ ، ويلاحظ أن عناصر النورمان فى جنوب ايطاليا زحفوا على

١- Nicol, Biographical dictionary of The Byzantine Empire, London 1991, p. 106-107 .

٢- اسحق عبيد، روما وبيزنطة ، ص١١ .

٣- عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية، ص٣٢٣ .

٤- اسحق عبيد، المرجع السابق ، ص١٧ ويوحنا الثامن John VII ، تولى المنصب البابوى فى ١٤ ديسمبر عام ٨٧٢ حتى ١٦ ديسمبر عام ٨٨٢م، وذلك عقب وفاة البابا هادريان الثانى Hadrian II (٨٦٧-٨٧٢م)، عنه بالتفصيل انظر :

Kelly , Oxford dictionary of Popes, pp. 110-111 .

ممتلكات البابوية بعد أن توسعوا فى أملاك الامبراطورية البيزنطية هناك، واتجه البابا ليو التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤م/ ٤٤١-٤٤٦هـ) إلى التحالف مع الامبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع مونوماخوس Conastantine IX Monomachus (١٠٤٩-١٠٥٥م / ٤٤١-٤٤٧هـ) من أجل العمل على ضد النورمان عسكريًا ، ويلاحظ أن بطريرك القسطنطينية فى ذلك الحين تمثل فى ميخائيل الأول كيرولاريوس Michael I Keroullarios (١٠٤٣-١٠٥٨م/ ٤٣٥-٤٥٠هـ)[1]، وقد رفض التحالف بين بيزنطة والبابوية على اعتبار أن ذلك من شأنه الإضرار بمصالح بيزنطة لأنه سيفتح الأبواب على مصاريعها من أجل التدخل البابوى فى الشئون الكنسية الخاصة بها[2]، وقد بدأالنزاع عندما وصلت إلى مسامع كيرولاريوس أخبار تفيد بأن النورمان أعاقوا اليونانيون فى جنوب ايطاليا عن ممارسة شعائرهم الدينية والخطير فى فى الأمر أن ذلك تم بموافقة كنيسة روما، وكرد على الموقف أمر بطريرك البيزنطى الكنائس اللاتينية فى العاصمة البيزنطية بأن تتبع الشعائر اليونانية، وعنما أثبت ذلك أصدر أوامره بإغلاقها فى نهاية عام ١٠٥٣م / ٤٤٥هـ .

والواقع أن البابا ليو التاسع لم يكن له أن يقف مكتوف اليدين أمام ذلك الموقف فقد أرسل إلى الامبراطور البيزنطى يتهم كيرولاريوس ، ومن ثم تجدد العداء بين الكنيستين من جديد وبصورة أشرس من ذى قبل ووصل الأمر إلى حد أن أصدر البابا ليو التاسع قرارًا بالحرمان ، لم يشتمل كيرولاريوس فقط بل كنيسة القسطنطينية أيضًا، ووضع قرار الحرمان فى مذبح كنيسة أيا صوفيا Hagia Sophia (الحكمة الالهية)[3] بالعاصمة البيزنطية . ويلاحظ أن الشعب البيزنطى تعاطف مع بطريركه ضد كنيسة روما، غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئًا وزادت الهوجة بين كنيستى روما والقسطنطينية. ومع ذلك : هناك من يرى أن أحداث تطيعة عام ١٠٥٤ / ٤٤٦هـ ، كانت أكثر إثاره من النتائج التى ترتبت عليها، فالأمر لم يكن انشقاقًا بصورة نهائية، ومن زاوية أخرى، من المهم ملاحظة أن تلك القطيعة لم تؤثر على المركز البابوى فى الغرب أو فى الشرق على حد سواء . كما أنها لم تؤد إلى التأثير على حركة العناصر

١- عن ميخائيل كيرولاريوس انظر :

Nical, Boigraphical dictionary , p. 91 .

٢- اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص٢٥ .

٣- نفسه ، نفس المرجع، ص٣٢ .

الكاثوليكية فى الإمبراطورية البيزنطية، واستمر قدوم الغربيين بعد تلك القطيعة فى صورة تجار أو حجاج أو عابرى سبيل واستمر هؤلاء يقومون بتشييد كنائسهم على الأرض البيزنطية كما ظل المرتزقة اللاتين يعملون فى الجيش البيزنطى[١].

وقد يكون لدى صاحب هذا الرأى بعض الحق، على اعتبار أن الامبراطورية البيزنطية حرصت على ابقاء قدر من الاتصال مع روما . إلا أن من المؤكد أن العلاقات بين الطرفين لم تكن كسابقتها ، وتفاعلت أحداث الانشقاق من الأعظم ، مع قطيعة فوشيوس مع الفجوة الحضارية بين بيزنطة والغرب الأوربى على نحو أوجد نفسية عدائية عامة لدى الطرفين ، وليس فى مقدورنا الغاء تلك الزاوية على الرغم من وجود «مصالح متبادلة» بين الشرق البيزنطى والغرب الأوربى حرص الطرفان على الاحتفاظ بها، وجاءت الصليبيات من بعد ذلك كى تزيد الهوة اتساعًا .

على أية حال ؛ ذلك شأن الانشقاق الأعظم عام ١٠٥٤م / ٤٤٦هـ، وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وقعت التطورات السياسية والعسكرية فى الشرق الإسلامى على نحو أدى إلى هزيمة الامبراطورية البيزنطية فى مانزكرت ١٠٧١م/ ٤٧٣هـ وهرولت وقائع التاريخ لاهثه لنجد انفسنا أمام الصليبية الأولى- التى سبقت دراستها من قبل - وقد اتجه الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس (١٠٨١-١١١٨م / ٤٧٤-٥١٢هـ) إلى عقد اتفاقية القسطنطينية من أجل أن يعيد الصليبيون إليه المناطق التى فقدت منهم من جراء التوسع السلجوقى، وكان من أهم تلك المناطق درة شمال الشام، أنطاكية؛ إلا أن النورمان أسسوا فيها إمارة نورمانية ورفضوا عودتها للامبراطورية البيزنطية ، ومن ثم وجد ما يعرف بالمشكلة الأنطاكية فى السياسة البيزنطية؛ وتعنى سعى بيزنطة الدءووب من

١- عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية، ص٣٤٩ .

وقد عبر عن ذات التوجه المؤرخ البريطانى هاملتون الذى رأى أنه على الرغم من التاريخ السابق بين الجانبين فى صورة الصراع على الايقونات ، وقطيعة فوشيوس ، والانشقاق الاعظم ، إلا أن رجال الكنيسة كان يحدوهم الأمل فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى فى أن يجدوا حلاً للخلاف بين الكنيستين انظر :

Hamilton, The latin Church in Crusader States, London 1980, p. 2 .

أجل استعادة أنطاكية بكافة الوسائل المتاحة لها سواء السياسية أو الدبلوماسية بل والتلويح بالقوة فى مواجهة الأطماع النورمانية التى لاتحد.

وبصفة عامة: تأكد للامبراطورية البيزنطية أنها استعانت بطامع فى أراضيها من أجل مواجهة الخطر السلجوقى، ولاريب فى أن عدم تنفيذ الصليبيين لاتفاقية القسطنطينية ؛ قد جعل الأباطرة البيزنطيين يحاولون استعادتها دون جدوى فى صورة الكسيوس كومنين، وحنا كومنين، ومانويل كومنين[١]، وفى تصورى المتواضع أن اخفاق الأباطرة الكبار الثلاثة فى ايجاد حل للوجود الصليبى فيما كانت تراه بيزنطة تابعًا لها من قبل مقدم الصليبيين إلى المنطقة وكذلك ايجاد حل ما لتنامى الخطر اللاتينى الجامح القادم من الغرب كل ذلك كان بمثابة المقدمة المنطقية الطبيعية لما حدث عام ١٢٠٤م / ٦٠٢ هـ ، وفى نفس الحين ، صار البيزنطيون ينظرون إلى كل حملة صليبية قادمة عبر أراضيهم نظرة عداء ويلاحظ أنه عندما فشلت الحملة الصليبية الشعبية وأجهزت سيوف السلاجقة على العامة بعد عبورهم البسفور اتهم الغرب الأوربى بيزنطة وجعلها العامل الأساسى وراء ذلك الإخفاق ، وفيما بعد ، عندما قدمت الصليبية الثانية وعلى رأسها الملك الفرنسى لويس السابع والامبراطور الألمانى كونراد الثالث قابلت بعض المصاعب على الأرض البيزنطية ومن زاوية أخرى تعرضت الممتلكات البيزنطية إلى السلب والنهب على أيدى أفراد تلك الحملة، وهو نفس الأمر الذى وقع خلال الصليبية الأولى، وعندما أخفقت الصليبية الثانية كسابقتها؛ اتهمت بيزنطة أنها ساهمت فى ذلك الإخفاق من خلال سلوكها المعادى لجند المسيح ! .

١- عن محاولات الأخير على سبيل المثال انظر دخوله أنطاكية عام ١١٥٩م / ٥٥٤هـ ومن خلفه الملك الصليبى بلدوين الثالث ورينودى شاتيون ، عن ذلك :

Cinnamus, Epitome Historiarum , in C.S.H.B., Boon 1836 , p. 187 .

Chalandon, Jean II Commene et Manuel I Commenue T.II, Paris 1912 . p. 451-452 , Hussey , The later Macedonians , The Comneni and The Angeli , C.M.H) vol . IV , p. 234 , Baldwin , The Latin States under Baldwin III and Amalric I, in Setton , A History of the Crusades, vol . I, pennsylvania 1958 . p. 544 , Ostrogorsky , Hist. of The Byzantine State , p. 343 , Vasiliev, History of The Byzantine Empire , vol . II, Madison 1929, p. 80 .

أسد رستم ، الروم ، جـ٢ ، ط. بيروت ١٩٥٦ ، ص١٥٣ .

وفى الصليبية الثالثة : من الملاحظ أن هناك تحالفًا قد تم بين السلطان الأيوبى صلاح الدين والامبراطور البيزنطى اسحق الثانى انجليوس - كما أسلفت من قبل- ومن المنطقى تمامًا أن تسعى تلك الامبراطورية إلى ايجاد توازن ما مع القوى الإسلامية المجاورة فلم تكن لتقبل بانتصار ساحق للصليبيين على المسلمين فى بلاد الشام؛ على نحو يؤدى إلى زيادة قوتهم وبالتالى يواجهون تلك الامبراطورة بشراسة أكبر، لقد أرادت بيزنطة أن تجعل كافة الأطراف تحتاجها سلميًا أو حربيًا من خلال لعبة توازن القوى التى برعت فيها فى أحيان عديدة .

ويلاحظ أن الحملة الصليبية الثالثة : كشفت عن مدى العداء الذى كنته الجيوش الصليبية لبيزنطة - فكما أسلفت من قبل- فكر فردريك بارباروسا فى غزو القسطنطينية، كما أن ريتشارد قلب الأسد استولى على قبرص فى مؤشر وضّاح دال على تزايد حجم الأطماع اللاتينية فى أملاك الامبراطورية البيزنطية ، لقد كانت شهية الغرب فى أملاكها لاتحد، ولم يعد الأمر مسألة النورمان، بل انضم لهم الألمان، والانجليز ، وفى ذلك ما يعكس كيف أن الاطماع الغرب أوربية احاطت بيزنطة من كافة الاتجاهات ويمكن وصف المرحلة الممتدة من عام ١٠٧١م / ٤٦٤ هـ وهو العام الذى شهد سقوط بارى آخر الأملاك البيزنطية فى ايطاليا - حتى عام ١٢٠٤م / ٦٠١هـ، وهو العام الذى شهد سقوط القلب البيزنطى، بأنها شهادة اثبات تاريخية على تنامى الاطماع اللاتينية فى أملاك بيزنطة ، وقد بدأت تلك الأطماع بالأطراف البعيدة نسبيًا ، ثم اقتربت أكثر فأكثر حتى وصلت إلى القلب، ولاريب فى أن ميراث العداء، والكراهية تجاه تلك الإمبراطورية ، وكذلك الاختلافات العقائدية ، ثم الفجوة الحضارية، كل ذلك صنع لنا كافة تلك التطورات المتلاحقة، فإذا أدركنا أن الإمبراطورية المذكورة وقعت فى مرحلة ضعف بعد وفاة بازل الثانى عام ١٠٢٥م / ٤١٦هـ حتى عام ١٠٨١م / ٤٧٤هـ ثم شهدت صحوة الأسرة الكومنينية من ١٠٨١ حتى ١١٨٠م / ٤٧٤-٥٧٦هـ ومن بعدها مرت بمرحلة ضعف جديدة ، أدركنا أن أوضاعها ذاتها كانت تشجيع الطامعين على الإنقضاض عليها .

وبالتالى : فليس هناك ما يدعو إلى القول «بالخيانة البيزنطية» للقضية الصليبية ، ومثل ذلك التصور تصور غربى أوربى صرف فى ذلك العصر، ومن الأفضل تصور الأمر على أن بيزنطة كانت لها قضيتها الخاصة بها، ومن غير المنطقى أن تتخلى عن قضيتها من أجل الغرب الذى أكدت وقائع التاريخ أن تدم إليها طامعًا وليس مُخلصًا .

على أية حال : فإن الحملة الصليبية الرابعة ارتبطت بالبابا انوسنت الثالث[1] Innocent III (١١٩٨-١٢١٦ م / ٥٩٥-٦١٣هـ) الذى أراد القيام بالدعوة لحملة صليبية تسترد بيت المقدس ، ويلاحظ أنه اعتمد على داعية صاحب تأثير فعال فى صورة فولك دى نى Fulk de Neuilly[2] فقام بذات الدور الذى قام به برنارد دى كليرفو، من قبل فى الصليبية الثانية ، ويلاحظ أن ذلك البابا لم يكن يهدف فقط إلى تحقيق ذلك، بل أنه أراد توحيد الكنائس ، وإخضاع كنيسة القسطنطينية إلى سيطرة كنيسة روما ، ويلاحظ هنا أن قلة من القيادات فى الغرب الأوربى هى التى استجابت لدعوته، خاصة ثيبوت الشامبنى Thibault of Champagne ، ثم بلدوين الفلاند رزى baldwin de Flanders، وغيرهما من الأمراء الأوربيين [3].

ويلاحظ أن الشخصية ذات الدور الفعال فى أحداث تلك الحملة الصليبية تمثلت فى السياسى الداهية المخضرم الدوج هنرى داندلو Henry Dandlo دوق للبندقية ، وقد امتلك العديد من الصفات مثل الدهاء ، والحنكة السياسية بالإضافة إلى البعد الاقتصادى [4].

١- أنوسنت الثالث Innicent III : تولى المنصب البابوى خلال المرحلة من ٨ يناير ١١٩٨ إلى ١٦ يوليو ١٢١٦م فى يوم وفاة البابا كلستين الثالث Clestine III الذى تولى بدوره ذلك المنصب من قبل خلال المرحلة من مارس / أبريل ١١٩١ إلى ٨ يناير ١١٩٨م ، واسمه فى الأصل هو لوتاريو Lotario ، ولد فى عام ١١٦٠-١١٦١م ، وفيما بعد درس اللاهوت فى باريس ، والقانون الكنسى فى بولونيا ، صار كاردنيالاً فى عام ١١٩٠م، وقد ألف عدة مؤلفات ومقالات ، أظهر مهارة إدارية فيما بعد ، ومن أعماله المهمة شنه حملة صليبية ضد العناصر الاليجنسية فى جنوب فرنسا، ويعتبره كيلى بابا كبير ومؤثر ويتميز عهده بأنه قمة البابوية فى العصر الوسيط، مات ودفن فى بردجيا Perugia ، Kelly , Oxford dictionaru of popes, pp. 186-188 .

٢- يلاحظ أن فولك دى نى كان قسيسًا وواعظًا ، وقد أسند إليه البابا انوسنت الثالث فى نوفمبر ١١٩٨م أمر الدعوة لحملة صليبية بين شعوب أوربا ، وبدأ عمله فى جزيرة فرنسا أو ما عرف باسم Ile de France ، ومن المهم أن ندرك أن العامة نسبوا له العديد من المعجزات التى نسجوها من خيالهم ، مات فى عام ١٢٠٢م / ٥٩٨هـ، عنه انظر : فلهاردوين ، من مذكرات فلهاردوين فتح القسطنطينية ت. حسن حبشى، ط. جدة ١٤٠٣هـ، ص٤٣ ، حاشية (٤) .

٣- حسنين ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص.٢٥٠ .

٤- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

ولاريب فى أنه عكس العقلية البندقية البرجماتية التى تضع أمور المال فوق أى اعتبار آخر.

وجدير بالذكر : أن ثيبوت الشامبنى توفى عام ١٢٠١م / ٥٩٨هـ : فتولى الأمر من بعده بونيفاس المونتفرتى Bonifane of Montferrat [1]، ووصلت الحملة إلى البندقية ولم يتمكن الصليبيون من دفع المبلغ الذى طلبه البنادقة من أجل استغلال سفنهم لنقل المشاركين فى الحملة إلى هدفها، وقد تم الاتفاق على نصيحة داندلو ومقتضاها أن يتم تأجيل دفع المال حتى يساعد الصليبيون البنادقة على استرداد مدينة زارا Zaraالهنغارية فى دلماشيا (من قبل يوغوسلافيا). والتساؤل الآن لماذا زارا على نحو خاص، ومن الممكن إدراك السبب من وراء ذلك من خلال أنها كانت مركزا تجاريًاكبيراً وحينذاك كانت تخص المجر التى دخلت فى صراع لعشرات الأعوام مع البندقية وكانت لها عملياتها التجارية النشطة، ولذا فإنها لم تكن منافسة بالغة القوة للبندقية فى نطاق الادرياتيك فقط، بل أيضًا فى خارجه، وكانت الطبقة الغنية البندقية تنظر بحقد كبير على تعاظم الدور التجارى لزارا، وحدثت عدة محاولات من أجل الاستيلاء عليها وذلك على مدى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين / الخامس والسادس الهجريين، غير أن زارا تحدت عدة مرات ضد البندقية، ويلاحظ أنها فى عام ١١٨٦م / ٥٨٢هـ دخلت تلك المدينة فى حماية الملك المجرى بيلا الثالث

١- عن انتخاب بونيفاس المونتفرتى انظر :

Villehardnin, The Conquest of Constantioople , in Chronicles of the Crusades , Penguin Books, Trans. by shaw, London 1963 , p.38 .

وأنظر أيضا هذه الدراسة الممتازة :

queller, The Fourth Crusade The Conquest of Constantinople 1201-1204 , Leicestet 1978 , pp. 19-35 .

حيث خصص المؤلف فصلاً خاصًا لانتخاب بونيفاس وهو الفصل الثالث .

محمود سعيد عمران ، تاريخ الحروب الصليبية ، ١٠٩٥-١٢٩١م ، ط. الاسكندرية ١٩٩٥م، ص٢١٥ .

أيضًا : Nicol, Byzantium and venice , Astudy in diplomatic and cultural relations, Cambridge 1995, p. 129 .

وعندما انتخب داندلو دوجا للبندقية عام ١١٩٢م / ٥٨٨هـ، حاول الاستيلاء عليها غير أنه باء بالفشل والآن واتت البندقية الفرصة الذهبية للثأر والانتقام[١] ، وبالفعل حوصرت زارا وهوجمت [٢]، بل أن هناك من يقرر أنه لم يبق حجر يساند حجراً آخر فى المدينة المذكورة [٣]، على نحو يعكس أنها؛ بالفعل دمرت انتقاماً من المنافسة التجارية العنيدة والعتيدة للبندقية ، كما تم نقل أهلها وذلك فى عام ١٢٠٢ م / ٥٩٨هـ، ولاريب فى أن سقوطها يعد فاتحة عهد جديد فى تاريخ الصليبيات ثم الاتجاه فيه إلى قتال المسيحيين بدلاً من المسلمين[٤]، وفى هذا الدليل الوضاح على أن الصليبية تقتل نفسها ؛ بدلاً من قتل المسلمين فها هى زارا الهنغارية المسيحية تدمر على أيدى قوى مسيحية من أجل المال والمال وحده، وليس من أجل أى دافع دينى.

على أية حال ؛ هناك ملاحظة جديرة بالذكر، تتمثل فى أن تفكير الصليبيين فى بداية الأمر؛ اتجه نحو مصر ومهاجمتها ، غير أن البندقية لم تكن لتقبل نهاية مصالحها التجارية من أجل الصليبيات ، ويلاحظ هنا أن تلك المدينة الايطالية امتلكت جالية كبيرة فى الاسكندرية ، وهناك من يرى أنه فى الوقت الذى كانت فيه البندقية تساوم الصليبيين بشأن نقلهم إلى الشرق، كان سفراؤها قد وصلوا إلى القاهرة وعملوا على إبرام اتفاقية مع نائب السلطان العادل أبوبكر الأيوبى[٥]، وهكذا، فيلاحظ أن الطرفين اتفقا على ذلك فى ١٣ مايو ١٢٠٢م / ١٨ شعبان ٥٩٨هـ، ومنحهم العادل عدداً من الفنادق فى الاسكندرية بالاضافة إلى العديد من الامتيازات التجارية ، وتعهد الطرف البندقى بعدم مساعدة أية حملة موجهة نحو مصر .

١- ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق، ص٢٤٩ .

٢- Villchardouin, The Conquest of Constantinople , pp. 46-49 .

٣- اسحق عبيد، روما وبيزنطة ، ص٣٢٥- ص٣٢٦ .

وعن سقوط زارا أنظر:

Villcharduin , p. 49 . queller, The Fourth Crusade, p. 50-66 .

٤- محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢١٦ .

٥- فايد حماد عاشور ، العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، ص١٨٠ .

ومن المتصور أن ذلك الاتفاق قد تأكد خلال عهد الدوق البندقي بطرس زيانى Peter Ziani (١٢٠٥-١٢٢٩م / ٦٠٢-٦٢٧هـ) تدعيمًا لأواصر الصلات القوية على المستوى الاقتصادى بين الطرفين.

وهناك من يقرر : أن الاتفاقات التجارية المذكورة بين الجانبين ، مكنت البندقية من المتاجرة على نطاق متسع مع ممالك الهند النائية ، وعلى هذا الاعتبار عقد البنادقة العزم على تجنب مصر أية أخطار صليبية مستقبلية [1]. وفى هذا دليل قوى يبرهن على ازدواجية السياسة البندقية والطابع البرجماتى لها .

ومن ناحية أخرى، جاء الدور على المنافس التالى الأهم والأخطر للبندقية ونعنى بذلك القسطنطينية التى مثلت هدفًا بالغ الثراء، ويكفى أن نذكر أن البندقية نقمت على الامبراطورية البيزنطية قيام الامبراطور الكسيوس الثالث Alexius III الجليوس (١١٩٥-١٢٠٣م / ٥٩٢-٦٠٠هـ) بحرمانها من العديد من الامتيازات التجارية وفى المقابل تقديم المزيد منها للبيازنة الذين تنافسوا مع البنادقة فى هذا المجال [2]، ثم يلاحظ أن البندقية أرادت القضاء على منافسة الإمبراطورية البيزنطية لها فى تجارة شرق البحر المتوسط ، ولاريب فى أن إسقاط القسطنطينية من شأنه تحقيق ذلك الهدف الذى طالما تحرق البنادقة شوقًا لتحقيقه ، ولانغفل رغبة البنادقة فى الثأر من إحراق الحى البندقى بالقسطنطينية عام ١١٨٢م/ ٥٧٨هـ [3].

ويلاحظ هنا : أن مسار الأحداث ذاتها شجعت البنادقة على تحقيق ذلك الهدف ؛ فمن قبل استولى على العرش البيزنطى الكسيوس الثالث بعد قيامه بثوره على أخيه اسحق الثانى

١- فايد حماد عاشور ، العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى ، ص١٨٠ .

٢- حسنين ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص٢٥٣ .

٣- عن إحراق الحى البندقى فى القسطنطينية عام ١١٨٢م / ٥٧٨هـ انظر :

حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الايطالية ، العلاقات التجارية (١٠٨١-١٢٠١) ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص١٠٦ ، عمر كمال توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية ، ط. الاسكندرية ١٩٩٥م، ص٢٠٧ .

Kaplan "Le Sac de Constantinople" Histoire T. LXVI , Année 1982 , p. 114 .

(١١٨٥-١١٩٥م / ٥٨١-٥٩١هـ) وزج به وابنه الكسيوس الرابع فى غياهب السجن غير أن الآن فر الكسيوس بعد اسحاق الثانى انجليوس من سجنه الذى أودع فيه، واتجه إلى الصليبيين يطلب منهم اعادته إلى العرش البيزنطى والتخلص من حكم الكسيوس الثالث انجليوس وتعهد فى مقابل ذلك أن يدفع للصليبيين المبلغ الذى كان دينًا للبنادقة على الأخيرين ، واستغل الدوج داندلو كافة تلك الظروف وتوجه الصليبيون إلى القسطنطينية ، وبالفعل تمكنوا من دخولها منذ عام ١٢٠٣م / ٦٠١هـ واسترد اسحاق الثانى انجليوس العرش، وتم تتويج ابنه الكسيوس الرابع Alexius IV (١٢٠٤م / ٦٠٢هـ) [١]، مساعداً للامبراطور ، ويلاحظ أن الكسيوس الرابع هذا لم يتمكن من الايفاء بالوعد وتقديم الأموال المطلوبة للبنادقة .

ومن الأمور الجديرة بالذكر : أن ثورة قامت فى العاصمة البيزنطية أطاحت باسحاق الثانى وكذلك الكسيوس الرابع وقتلا بعد أن اتهمتهما الجماهير بالخيانة وممالأة أعداء الامبراطورية ، وقد تولى العرش الكسيوس الخامس Alexius V الذى وقف موقفًا مضاداً من الصليبيين وأيدا الاتجاه الشعبى الكاره لهم، وأمام ذلك التطور اتجه الأخيرون إلى مهاجمة القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م/ ٦٠٢ هـ.

والواقع : أن تلك العاصمة العالمية المجيدة والتى شيدت منذ القرن الرابع الميلادى احتوت على العديد من النفائس، والتحف على مدى ثمانية قرون كاملة ولذلك وجدت بها ثروات وفيرة، والعديد من الأوانى الذهبية، والفضية ، والكثير من الأحجار الكريمة [٣]، ولاريب فى

١- عنه أنظر : Nicol, Bibliographical dictionary , p. 3-4 .

٢- حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢٥٤ .

٣- من أمثلة ذلك : تمثال هرقل الذى صنعه المثال لزيبوس Heraclius of Lysippus وكذلك تمثال الالهة هيرا Hera ، إلهة السماء اليونانية القديمة والتى وجد لها معبد فى جزيرة ساموس Hera of Samos وكذلك الأصابع النحاسية التى أقامها اغسطس بعد الانتصار الذى حققه فى موقعة اكتيوم، وكذلك التمثال البرونزى الذى يمثل روميولوس وريموس Romalus and Remus مع الذئبه ، وكذلك باريس Paris ومعه التفاحة الذهبية، ثم هيلين ملكة طراودة وغيرها .

عن ذلك انظر :

شارلز أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ت. مصطفى طه بدر ، ط. القاهرة ١٩٥٣م، ص٢٢٥-٢٢٦ .

أنها كانت ذات ثراء عريض جدير بعاصمة امبراطورية مثل الامبراطورية البيزنطية ، وقد حل بالمدينة القتل، والسلب والنهب والتدمير ولدينا ما كتبه مؤرخ بيزنطى معاصر هو نيكيتاس خونياتس Nicetas Choniates ، حيث انتحب على مدينته ورثاها قائلاً «ايتها المدينة، يا حديث العالم ، يا منار الأرض ، يا حامية الكنائس ويا سيدة الايمان، يا قلعة العلم؛ لقد تجرعت كأس غضب الله حتى الثمالة ، ولقد حاق بك آتون أكثر بشاعة من ذلك الذى أصاب قديمًا المدن الخمس »[١]. وفى الواقع ، ثم قتل العديدون من البيزنطيين ، واغتصبت الراهبات فى الأديرة، ودخل الجنود الذين لعبت الخمر برؤوسهم كنيسة آيا صوفيا وأحضروا احدى العاهرات لتجلس على العرش البطريركى وجعلوها تنشد الأغانى البذيئة وترقص الرقصات الرخصية أمام مذبح الكنيسة ، واستعملت الأوانى الطاهرة من أجل احتساء الخمور، ويلاحظ أن ذلك السلوك المتوحش والمتبربر استمر فى مدينة قسطنطين مدة ثلاثة أيام[٢]، وقد تمنى نيكتاس خونياتس أن تسقط مدينته على أيدى المسلمين لأنهم ما كانوا ليفعلوا بها ما فعل اللاتين [٣].

١- Nicetas choniates, Ocity of Byzantium , Annales of Niketas Choniates, Trans. by Harry Magoulias, Wayne State university , Detrioit 1984, p. 314 .

Ebeid " Was pope Innocent III , An accomplice in the diversion of the Fourth Crusade 1204)". E.H.R., vol. XV, Cairo 1969, p. 19 .

اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس، بنى غازى ب.ت ، ص١٢ ، وقد أفدت من الترجمة الراقية التى قام بها استاذى العلامة أ.د. اسحق عبيد.

٢- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، الايديولوجية ، الدوافع ، النتائج ، ط. الكويت ١٩٩٣م، ص١٤٨ .

Mayer, The Crusades, p. 191 .

Nicol, Byzantium and Venice , p. 143-144 .

٣- Nicetas Choniates, p. 317 .

حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢٥٦ ، اسمت غنيم ، تاريخ الامبراطور البيزنطية ٣٢٤هـ-١٤٥٣م، ط. الاسكندرية ١٩٨٧م، ص١٥٨ ،

انظر أيضًا : Ostrogorsky , History of The Byzantine State, p. 370 .

Lamb, The Crusades, The Flame of Islam , New York 1931 , p. 261

ومن الملاحظ هنا: أن العديد من التحف ، والنفائس بيعت فى أسواق دمشق ، والقاهرة وحلب، وكذلك الأسواق الأوربية، حتى أن الجياد البرونزية الأربعة التى كانت تزين ميدان السباق فى العاصمة البيزنطية ، قام داندلو بحملها إلى البندقية ، وحتى اليوم تزين واجهة كاتدرائية القديس مارك St. Mark فى فينيسيا [1]، دليلاً على واحدة من أكبر عمليات السلب والنهب التى شهدتها القرون الوسطى، وهكذا: يثبت لنا الصليبيون من جديد، أنهم أهل قتل، وتدمير، وسلب، ونهب ، وها هى مدينة قسطنطين الرائعة تتعرض للمصير المأساوى الذى تعرضت له مدينة بيت المقدس منذ ما يزيد على القرن من الزمان عندما دخلها الصليبيون فى عام ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ، غير أن الفارق الجوهرى أن بيت المقدس كانت مدينة مقدسة للسيادة الإسلامية، أما القسطنطينية فهى مدينة مسيحية وعاصمة الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية ، والتى قامت بدور درع المسيحية الشرقية فى مواجهة الإسلام لعدة قرون، وفى هذا دليل وضاح على أن الصليبيين -فى سبيل أطماعهم الجشعة التى لاتحد- لم يفرقوا بين مدن إسلامية أو مسيحية ، مع ملاحظة أن بيت المقدس لم تنهب لأنها لم تكن على ثراء، أما القسطنطينية : فقد سلبت ونهبت نظراً لثرائها العريض وبصورة لم يسبق لها مثيل فى القرون الوسطى .

١- حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢٥٧ وفى ذلك يذكر ماير ما نصه :

"The most splendid article of plunder was The Famous sixth century quadrige which the Venetians Took home with The Facade of st. Mark's". Mayer, The Crusades, p. 191 .

والقديس مارك St. Mark ، هو القديس مارك الانجيلى، من القرن الأول الميلادى، وقد ورد ذكره فى سفر أعمال الرسل، ويلاحظ أن القديس مارك يرتبط اسمه بمدينة فينيسيا Venice لأنه فى عام ٨٢٩م تم احضار متعلقاته من الاسكندرية وتم وضعها فى الكنيسة الأصلية كنيسة سان ماركو San Marco ، ويلاحظ أن شعاره أسد مجنح ، والجدير بالذكر أن يوم الاحتفال بعيده يوافق يوم ٢٥ أبريل .

عنه أنظر :

Attwater , The Penguin dictionary of Saints, pp. 231-232 .

وعن نهب القسطنطينية أنظر أيضًا :

Mc Neal , "The Fourth Crusade", in Setton, A History of the Crusades, vol. II, Madison 1969, p. 185 .

على أية حال؛ فإن سقوط القسطنطينية على مثل هذه الصورة كان بمثابة كارثة على فكرة الصليبيات ، وكأن الحركة ذاتها تنتحر، فمن قبل كان الاعلان عن ميلادها موجهًا لحرب «الكفار» وقصد بهم البابا حينذاك المسلمين، أما الآن ؛ فإن نطاق «الكفار» امتد ليشمل المخالفين لكنيسة روما في المعتقدات الدينية، ويلاحظ هنا أن انوسنت الثالث شهد عهده تطور الصليبيات بصورة ملفتة للانتباه ، فقد شن صليبية ضد العناصر التى رأتها البابوية مهرطقة فى جنوب فرنسا ، فى صورة الوالدنسيين اتباع بيتر والدو Peter Waldo والكثاريين (الأطهار) [١]، أما الآن ؛ فإن الصليبية تتجه إلى الامبراطورية البيزنطية، ودل ذلك بجلاء على أن الحركة الصليبية ليست ضد المسلمين فقط بل ضد كل من يناصب البابوية العداء، وكل من يرفض الخضوع لسلطان كنيسة روما سيدة الكنائس ، وصاحبة السيادة العالمية على عالم المسيحية - على نحو يؤكد بالفعل أن الصليبية هي السياسة الخارجية للبابوية .

والدليل الفعال على أن «الصليبية» كفكرة انتحرت مع احداث ١٢٠٤م / ٦٠١هـ ، أننا لأول مرة منذ اعلان المشروع فى ١٠٩٥م / ٤٨٩هـ ، نجد أن الحركة تتجه إلى تلك الوجهة وتسقط عاصمة أكبر امبراطورية مسيحية فى المنطقة عمدت على مدى المرحلة الواقعة من القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى وطوال هذه القرون لم تسقط بيزنطة على أيدى الفرس ، والروس ، والنورمان، والمسلمين وغيرهم ، إلا أن سقوطها كان على يد قوة مسيحية ممثلة فى الغرب الأوربى، ولذلك لاعجب والأمر كذلك أن نعتبر عام ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ عامًا فارقًا فى تاريخ الصليبيات على مدى القرنين الثانى عشر ، والثالث عشر الميلاديين / السادس ، والسابع الهجريين .

١- عنهم أنظر :

رمسيس عوض، الهرطقة فى الغرب، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص١٣٧-ص١٥٨ .

وعن أصول وتطور الحملات الصليبية ضد المسيحيين انظر هذه الدراسة القيمة التى قام بها نورمان هاوسلى:

Housley , " Crusades againest Christians, : Their Origins and Early development, , C. 1000-1216", in Crusade and Settlement, ed. by peter W. Edbury , Cardiff 1982 , pp. 17-36 .

ويلاحظ أن الصليبيات ستشن ضد العناصر التى اعتبرتها البابوية مهرطقة فى منطقة بحر البلطيق، وساهم الفرسان التيوتون بدور بارز فى هذا المجال، عن ذلك انظر هذه الدراسة الوافية :

Christiansen, The Northern Crusades The Baltic and The Catholic Frontier 1100-1525, University of Minnesota 1980, pp. 48-250 .

ومن الممكن القول بعبارة أخرى : أن البنادقة بما حققوه فى توجيه الصليبية الرابعة نحو مدينة قسطنطين قد وفروا على الأيوبيين عناءً طويلاً ولم يكن المسلمون يستطيعون تحقيق ذلك الانشقاق الذى حدث فى داخل أفرع الحركة الصليبية، والتفتت الداخلى الذاتى لتلك الحركة أمام المصالح الاقتصادية الكاسحة التى حددت مصيرها برمته .

مهما يكن من أمر : فقد تم تمت إقامة حكم لاتينى فى مدينة قسطنطين وتجرعت العاصمة الامبراطورية كأس الهوان، وقد قام بها حكم لاتينى وتم انتخاب بلدوين الفلاندرزى Baldwin of Flanders امبراطوراً ، كذلك تم تعيين بطريرك جديد فى صورة توماس مورسينى Thomas Morosini[1].

أما الغنائم والأسلاب : فقد تم تقسيمها على النحو التالى، حيث حصل بلدوين على جنوب تراقيا ، وخمسة أثمان العاصمة البيزنطية ، وبعض جزر بحر ايجه Agean Sea مثل ساموس، وخيوس ، ولسبوس، أما قائد الحملة بونيفاس فقد حصل على سالونيك ، ولجد أن نصيب الأسد حصل عليه البنادقة ولا أدل على ذلك من استعراض حجم المناطق التى حصلوا عليها وهى كالآتى :

١- ابيروس L'Epire، واكارنانيا L'Acarnanie ، وايتوليا L'Etolie مع مدن دورازو Du-razo ، وأرتا Arta وغيرها [٢].

٢- الجزر الأيونية ، وعلى نحو خاص كورفو ، وكيفالونيا Cephalonie، وسانت مور Sainte-Maure وزانتى Zante .

٣- البليبونيز فى صورة مدن ، بتراس Patrus، وكالفريتا Calovryta, ، واستروفا Ostrova، ومودون Modon ، ولاكيدومنيا Lacedomonie .

٤- جزر جنوبى وغربى بحر ايجه ، ومنها ناكسس Naxos وأندروس Andros ، وجزيرة يوبيه : خاصة مدينتى اوريوس Oreos وكاريستوس Karystos .

١- حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢٥٧- ص٢٥٨ .

أيضاً : عمر كمال توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢١١ .

٢- هايد، تاريخ التجارة ، ص٢٧٧ ، حيث يقدم تفصيلات كبيرة عن الأملاك التى غنمتها البندقية من جراء صليبية ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ .

٥- مجموعة من المدن متراصة على طول الشاطىء الأوربى لمضيق الدردنيل ، وبحر مرمرة أهمها جاليبولى Galipoli وردستو Rodosto ، وهيراقليا Heracléc .

٦- بضع مدن داخل تراقيا أكبرها اندرينوبل ، بالإضافة إلى جزيرة كريت [١].

ويقرر البعض أن معظم تلك المناطق كانت خصبة وتصل إليها السفن على نحو ميسر ، وكلها على نحو تقريبى وقعت على الطريق البحرى الكبير الذى يصل البندقية بالقسطنطينية[٢].

وقد يتساءل البعض عن موقف البابوية من كل تلك الأحداث وفى حقيقة الأمر أن البابوية - كما يقرر أحد المؤرخين المتخصصين فى العلاقات البيزنطية - اللاتينية- ممثلة فى انوسنت الثالث كان يدرك ادراكًا يقينيًا أن الصليبية الرابعة كانت تستهدف الهجوم على القسطنطينية كما وأنه قد تواطأ فى إدانة اتجاههم نحو زارا ومدينة قسطنطين وبذلك يكون قد سمح لقادة الحملة الرابعة الصليبية بالاتجاه قدمًا فى مخططاتهم العدوانية ضد الإمبراطورية البيزنطية[٣].

والجدير بالذكر : أن البابوية ومنذ زمن بعيد كانت تحلم بتوحيد الكنائس وإخضاع كنيسة القسطنطينية المارقة لسيطرة كنيسة روما. ويلاحظ أن البابا انوسنت الثالث أمر رجال الدين اللاتين فى الصليبية الرابعة بضرورة إدخال الطقوس اللاتينية فى كافة الكنائس البيزنطية[٤] على نحو عكس إن ذلك الاحتلال اللاتينى توغل فى كل مناحى الحياة البيزنطية من السياسة إلى الاقتصاد وإلى الدين أيضًا .

مهما يكن من أمر : فمن الأهمية بمكان التقرير بأن مسئولية سقوط العاصمة البيزنطية موزعة بين البنادقة ، والبابا انوسنت الثالث ، والبيزنطيين أنفسهم ، ومن يتصور البعض أن البيزنطين هم الضحية فى كافة تلك الأحداث التى وقعت على أرض امبراطوريتهم غير أن الواقع التاريخى يؤكد أن بيزنطة سقطت من الداخل قبل سقوطها من الخارج ، فالصراع على المنصب الامبراطورى الذى سمح بالتدخل الاجنبى مثل فرصة ذهبية أمام الغرب الأوربى أحسن

١- هايد، تاريخ التجارة ، ص٢٧٨ .

٢- نفسه ، نفس المرجع والصفحة .

٣- اسحق عبيد، روما وبيزنطة ، ص٣٤٧ .

٤- نفسه، نفس المرجع، ص٣٥٠ .

استغلالها من أجل توجيه ضربة قاضيه لبيزنطه ، ثم أن الضعف العام لتلك الامبراطورية شجع أعداءها على الانقضاض عليها فى غير ما هوادة .

ومن الجلى البين : أنه طوال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى وقعت عدة شواهد دالة على حجم الأطماع اللاتينية فى تلك الامبراطورية ، التى توهمت أن من الممكن مسالمة الغرب اللاتينى وأن بإمكانه اعادة املاكها التى سيطر عليها السلاجقة وتصورت أن لعبة توازن القوى ستظل تلعبها بكفاءة تامة، غير أن الأيام أثبتت عكس ذلك تمامًا ، وقد افتقد الأباطرة البيزنطيون على مدى ذلك القرن المذكور أية خطه استراتيجية عامة لدعم دفاعات امبراطوريتهم : على نحو يمكنهم من مواجهة الخطر الخارجى كما ظل المنصب الامبراطورى مطمعًا لكل طامع ومتمرد يرى أنه جدير بذلك المنصب، وكأننا أمام تاريخ مكرر وحصاد عشرات الأحداث انقلابات ، وصراعات ، واعتقالات دونما تغيير إلا فى اسماء الاشخاص فقط القائمين على تلك الأدوار .

وواقع الأمر أن المؤرخين الذين تباكوا على المصير الدموى لتلك الامبراطورية وهى تذبح بسكين الغرب الأوربى عام ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ لم ينظروا إلى الأمور بنظرة موضوعية ، لقد صنعت بيزنطة تاريخها أحيانًا بقوة، غير أنها الآن صنعته بضعف كامل وهوان مرير، لقد ولى زمن الأباطرة الكبار مثل هرقل ، وليو الثالث الأيسورى، وقسطنطين الخامس، وبازل الثانى، والآن لم يكن فى جعبة بيزنطة فى عصر هوانها إلا أباطرة صغار والأحداث كبار، وبعبارة أخرى: أباطرة يصحبونها إلى مثواها الأخير، مع ملاحظة أن مقدمات ذلك التاريخ كانت بالغة الطول على مدى قرون عديدة، كما أفصحت بجلاء الصفحات السابقة، ودل كل ذلك على حقيقة مهمة وهى المسئولية البيزنطية عن كارثة العام المذكور. وقد يرد البعض بأن هذا يعد تحميلاً للأمور أكثر مما تحتمل على اعتبار أن الكيان السياسى الضعيف لايشارك فى صنع التاريخ ، وأن القوة الفاعلة حينذاك كانت لدى الغرب الأوربى، غير أن من الممكن الرد على أصحاب ذلك التوجه على اعتبار أن قوة الغرب الأوربى ما كان لها مجال حيوى تتوسع فيه اقتصاديًا وسياسيًا وكنسيًا إلا على أطلال ذلك الجسد الامبراطورى المريض فى صورة الامبراطورية البيزنطية وهكذا صدقت تلك المقولة التى قالها يومًا ايوستاثيوس السالونيكى Eustathius of Thessalonica [1] ومفادها أن الغرب أوربيين يعتقدون أن ذلك العالم ليس

١- نظرًا لأهمية تلك العبارة التى ترجمتها بالانجليزية: =

كبيراً على نحو كاف لكى يتسع لهم ولنا (أى البيزنطيين)، ولذلك كان الاجهاز على بيزنطة يمثل تلك الصورة السالفة الذكر.

مهما يكن من أمر : فتلك قوة الغرب الأوربى بقيادة البندقية ، وتلك كانت صورة الهوان البيزنطى، ونصل الآن إلى نتائج الصليبية الرابعة والأمر المؤكد هنا هنا أن تلك الحملة -على نحو خاص- كان لها تأثيرها البالغ على مسار المشروع الصليبى بأكمله، ويكفى أنه نتج عنها سقوط القسطنطينية لأول مرة فى تاريخها منذ أن شيدها قسطنطين الكبير وافتتحها عام ٣٣٠م، وبالتالى فقد أدت الصليبية الرابعة إلى تغيير خريطة التوزيعات السياسية لشرق أوربا إلى حد كبير ، وأزالت السيادة البيزنطية من عدة مناطق، وأعادت تركيب المنطقة على أساس المصالح الاقتصادية ، والسياسية الجديدة.

زد على ذلك؛ أن تلك الحملة جعلت الكثيرين من الصليبيين فى بلاد الشام يقدمون إلى الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ؛ بحثًا عن غنائم لهم على نحو أضعف الكيان الصليبى فى بلاد الشام[1]، وشكل مظهراً من مظاهر انتحار الصليبيات كما أسلفت ، وليس غريبًا بعد ذلك كله أن اعتبرها البعض أنها جاءت لتنذر باخفاق المشروع الصليبى برمته[2].

ومن ناحية أخرى؛ ظهر العامل الاقتصادى ليمثل عنصراً رئيسيًا أكثر من ذى قبل فى مسار تاريخ الصليبيات ، ولاريب فى أن الدور البندقى الفعال، والتنافس مع الامبراطورية البيزنطية حسم الآن لصالح البندقية ، ولايستطيع باحث منصف فى تاريخ تلك الحملة الصليبية إلا أن يعترف بأن العامل الاقتصادى ظهر جليًا على ما عداه من العوامل حينذاك ويضاف إلى

"They (The west - Europeans) Think The world is not big enough for Themselves = and us".

وقد جعلها المؤرخ الكبير شارلز م. براند أول عبارات كتابه المعنون بـ بيزنطة تواجه الغرب ١١٨٠-١٢٠٤ الصادر من جانب جامعة هارفارد ، ط. كمبردج ١٩٦٨م، انظر:

Brand , Byzantium con fronts The west 1180-1204 , Cambridge 1968 .

١- سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٩٤٠ .

٢- نفسه ، نفس المرجع ، والصفحة.

كل ما سبق ؛ فمن الملاحظ أن النكبة التى نكبت بها الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ، أدت إلى التمهيد -بصورة أو بأخرى- لحدوث الانهيار النهائى لها على أيدى الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م / ٨٥٧هـ فى عهد قسطنطين الحادى عشر (١٤٤٩-١٤٥٣م / ٨٥٣-٨٥٧هـ) [1]، بقيادة السلطان محمد الفاتح ، ونستطيع وصف مرحلة القرنين والنصف قرن بين التاريخية المذكورين بأنها مرحلة احتضار بيزنطى طويل الأجل انتهى بأن خرجت بيزنطة بعده من التاريخ بجدارة، مثلما دخلته من قبل بجدارة أيضًا .

وتبقى زاوية أخيرة فى هذا الفصل؛ وهى أن من نتائج إسقاط القسطنطينية فى العام المذكور آنفًا ؛ قيام عدد من الدول والإمارات البيزنطية ، ففى طريبزون قامت امارة بيزنطية تنتسب إلى آل كومنين وقد مدت نفوذها ليشمل الشريط الساحلى للبحر الأسود من هرقلية حتى القوقاز ، وفيما بعد امتد العمر بتلك الإمارة حتى عام ١٤٦١م / ٨٦٦هـ[2]، أى حتى بعد سقوط القلب البيزنطى السقوط الذى لاقيام من بعده، وفى ابيروس أقام ميخائيل أنجلو كومنينوس إمارة بيزنطة امتدت من ليبانتو حتى دورازو ، كذلك قام تيودور لاسكارس الذى كان صهراً لالكسيوس الثالث بجمع ما تبقى من الارستقراطية البيزنطية، وكبار رجال الكنيسة؛ وقام بتتويج نفسه على أنه امبراطور الرومان وذلك عام ١٢٠٦م / ٦٠٣هـ ، أى بعد عامين فقط من سقوط القسطنطينية ، بالإضافة إلى إمارات بيزنطية ثانوية فى جابلاس فى جزيرة رودس ، ومانكافاس فى فيلادلفيا[3].

١- عنه أنظر :

Nicol, Biographical dictionary, p. 29 .

وعن سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م / ٨٥٧هـ انظر :

kritovouls, History of Mehmed The Conqueror, Trans . by Charles Riggs, Princeton 1954 .

Runciman , The Fall of constantinople 1453, Cambridge 1965 .

برنارد لويس، استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ت. سيد رضوان على ، ط. الرياض ١٩٨٢م، ص١٥-ص٢٦ .

٢- عمر كمال توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢١١- ص٢١٢ .

٣- نفسه ، نفس المرجع، ص٢١٢ .

الجدير بالذكر هنا : أن البيزنطيين تمكنوا من استعادة عاصمتهم الجريحة فى عام ١٢٦١م / ٦٦٠هـ ، على يدى ميخائيل الثامن باليولوغوس[1] (١٢٥٩-١٢٨٢م هـ) حيث استمرت المملكة اللاتينية هناك من ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ إلى ١٢٦١م / ٦٦٠هـ ، سبعة وخمسين عاما، غير أن الإمبراطورية البيزنطية العائدة لم تكن قط نفس تلك الامبراطورية السابقة ، لقد عادت ظلاً شاحبًا بعد أن هدها الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين .

وبعد : فتلك صورة سقوط القسطنطينية ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ وانتحار الصليبيات ، أما الفصل التالى فإنه يختص بتناول الحملات الصليبية خلال المرحلة الزمنية الممتدة من عام ١٢١٢م / ٦٠٩هـ إلى ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ .

١- عن ذلك الامبراطور البيزنطى أنظر :

اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ١٢٦١ - ١٢٨٢، ط. بنى غازى ب.ت .

وأيضًا :

Nicol , A Biographical dictionary , pp. 89-90 .

الفصل العاشر

الحمـلات الصليبيـة

من ١٢١٢ إلى ١٢٢٩م / ٦٠٩-٦٢٧هـ

يتناول هذا الفصل بالدراسة الحروب الصليبية خلال المرحلة الزمنية الممتدة من عام ١٢١٢ م / ٦٠٩هـ إلى ١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ . والاستجابة الإسلامية للتحدى الصليبى حينذاك ، ثم مقارنة تلك الاستجابة بما كان للمسلمين خلال القرن السابق ونعنى به القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى.

وفى حقيقة الأمر؛ فإن تلك المرحلة الزمنية من عمر المشروع الصليبى تحتل مكانها البارز فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب خلال ذلك العصر، فقد وقعت خلالها، صليبية الأطفال، ثم ما عرف بالصليبية الخامسة ، ثم السادسة، ومعنى ذلك : أنه خلال أقل من عقدين من الزمان، تكاثفت الجهود الصليبية سواءً من الغرب الأوربى أو من الصليبيين المحليين فى بلاد الشام من أجل القيام بعدة حملات تستهدف المسلمين سواءً فى أرض الكنانة أو فى شقيقتها التاريخية بلاد الشام.

والواقع ، أن تلك المرحلة التاريخية يندر أن نجد لها نظيراً فى تركز النشاط الصليبى خلال سبعة عشر عامًا بكل هذا الثقل السياسى والحربى الذى سنلاحظه فى عرضنا التالى، وذلك كله يدل على أن الصليبية على الرغم من الخطأ القاتل الذى وقعت فيه عام ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ وانتحارها، إلا أنها حاولت اليقظة مرة أخرى، من أجل توجيه الضربات للمسلمين فى تلك المنطقة التى ابتليت بالحروب الصليبية ، وبصفة عامة، لانجد على مدى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى مرحلة زمنية ما وجدنا فيها ذلك التكثيف والالحاح على تحقيق الأهداف الاستراتيجية الصليبية العليا السياسية والاقتصادية كما فى تلك المرحلة ، وكل ذلك من خلال دور فاعل على نحو أكبر من جانب القوى السياسية الغرب أوربية دعمًا للشرق اللاتينى .

ويتطلب الأمر؛ التعرض بإيجاز لأوضاع الدولة الأيوبية بعد رحيل مؤسسها البارز صلاح الدين الأيوبى عام ١١٩٣م / ٥٨٩هـ ، فالواقع : أن المرحلة التالية تعد مرحلة ضعف لتلك

الدولة ، ويكفى أن الأيوبيين دخلوا فى منازعات مع بعضهم البعض إلى أن أكد العادل أبوبكر- شقيق صلاح الدين - نفوذه وقيادته ، وقد تمكن من التحالف مع العزيز عثمان ابن صلاح الدين واتجها إلى دمشق حيث أقام الأفضل نور الدين ابن صلاح الدين فى عام ١١٩٦م/ ٥٩٢هـ، وتمكنا من الاستيلاء على المدينة دونما مقاومة، ومن بعد ذلك أصبح العادل سيداً على دمشق ووسط الشام، وحصل العزيز عثمان على لقب السلطان ، وظلت فى يده مصر وبيت المقدس، أما الأفضل فقد صارت له مدينة صرخد فى اقليم حوران ، وأقام بها[1]، بعد أن أثبت - بحياة السكير التى عاشها- عدم قدرته على تولى فعالية الأمور، وعندما تجدد النزاع بين أفراد البيت الأيوبى من بعد ذلك ؛ تمكن العادل من السيطرة على مقاليد الأمور وصارا الشخصية القيادية البارزة فى البيت الأيوبى.

أما الاتجاه العام لسياسة العادل الأيوبى تجاه الصليبيين ؛ فالملاحظ أنه اتبع سياسة سلمية بصفة عامة ، وفضل الحلول الدبلوماسية أو التلويح باستخدام القوة دون استخدامها فعليًا من ذلك ؛ أنه عقد اتفاقًا للهدنة مع الملك عمورى الثانى لوزينيان فى عام ١١٩٨م / ٥٩٤هـ[2]، وعندما قام فرسان الاسبتارية فى عام ١٢٠٧م / ٦٠٤هـ، بشن الإغارات الحربية على مدينةحمص ، وكذلك استيلاء الصليبيين فى قبرص فى نفس العام على عدد من السفن المصرية ؛ اكتفى العادل الأيوبى بتوجيه الانذار للملك الصليبى، وبرد الأسرى المسلمين[3].

وفى الحقيقة ؛ أن العادل الأيوبى بتلك السياسة ابتعد كثيراً عن سياسة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى، ويبدو أنه كان يخشى أن يؤدى تعامله العسكرى مع الصليبيين إلى قدوم حملة صليبية بنفس الثقل العسكرى والسياسى للحملة الصليبية الثالثة، ومع ذلك فلاتبرر له

١- سعيد عاشور ، مصر والشام، ص٧١- ص٧٢ .

٢- المقريزى، السلوك ، جـ١ / ق١ ، ص١٩٣ ، وقد نص المقريزى على أنه : «كان لايرى محاربة أعدائه».

٣- محمود الحويرى، العادل الأيوبى صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص٧٧ ، سعيد عاشور ، مصر والشام، ص٧٦ .

٣- سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص٧٧ .

تلك السياسة التى ستلحق الضعف بالمسلمين ، خاصة أن توجهه هذا أتى فى وقت لم يكن فيه الصليبيون يتبعون تلك السياسة السلمية من جانبهم كسياسة عامة، كما أن الاتجاه السلمى له سيتزايد من بعده على نحو سيورد المسلمين إلى موارد ساحة التنازلات الغير مسبوقة وهو أمر ستوضحه صفحات هذا الفصل فى حينه .

ويعلق أحد المؤرخين البارزين على الموقف قائلاً : «إن ما قام به صلاح الدين من أعمال تعتبر من المنجزات ذات الأهمية البالغة ، ولو أعقبه حاكم آخر من طرازه لتيسر انجاز ما تبقى من العمل الذى كان ضئيلاً ، غير أن مأساة المسلمين فى العصور الوسطى كانت تتمثل فى الافتقار إلى النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة الزعيم» [١].

على أية حال ؛ فمن الأمور المؤكدة أن الروح الصليبية ظلت تحرك الغرب الأوربى، بل وضمت لها قطاعات لم يسبق لها الإسهام فى تاريخ الحروب الصليبية ، وخير مثال دل على ذلك نجده فى صورة حملتى الأطفال عام ١٢١٢م / ٦٠٩هـ [٢]، وقد حدث أن صبيًا فرنسيًا يدعى ستيڤن Stephen من مدينة كلويس Clyes ، رأى رؤية منامية مؤداها ؛ أن السيد المسيح عليه السلام ؛ أتى إليه فى المنام ، وأمره بأن يدعو إلى قيام حملة صليبية إلى بلاد الشام، وقد تجمع حوله عشرات الآلاف من الأطفال ، وتصور أن البحر سينشق لكى يعبر هو ورفاقه إلى القدس ، واتجه الجميع إلى مرسيليا ، وهلك الكثيرون من مشقة الطريق ، ولما وصلوا إلى البحر لم يجدوه قد انشق ، وانتهى الأمر بأن تم نقلهم بالسفن إلى فلسطين . والمتصور أنهم بيعوا كرقيق فيما بعد .

١- محمد حلمى محمد أحمد، مصر والشام والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٧٩، ص١٧٦ .

٢- عن صليبية الأطفال بالتفصيل أنظر :

Munro , "The Children's Crusade", A.H.R., vol . XIX , 1913-1914 , pp. 516-524 .

Raedts", Le Croisade des " enfants a- T-elle eu Lieu?", L'Histoire, T. XLVII, Année 1982, pp. 30-37 .

Zacour, " The Children's Crusade", in Setton , A History of the Crusades , vol . II, Madison 1969, pp. 325-342 .

عبد الغنى محمود عبد العاطى، «صليبية الأطفال ١٢١٢م»، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م(٢) عام ١٩٨٥م، ص٢٨٢- ص٢٨٩ .

ويلاحظ أن تلك الظاهرة الوافدة الطارئة الجديدة ، لم تكن فقط خاصة بالصبية الفرنسيين ؛ بل أنها شملت كذلك الصبية الألمان ، إذ أن صبيًا يدعى نيقولا Nicola ؛ ظهر فى كولونيا بألمانيا ، وتصور أن بإمكانه تحرير بيت المقدس ، وجمع من حوله الآلاف من الصبية وسلكوا طريقًا إلى ايطاليا من خلال جبال الألب، وقد هلك الكثيرون منهم فى الطريق. وهناك رأى يرى أن أولئك الصبية انتهى بهم الأمر بأن بيعوا فى أسواق النخاسة فى عدد من المدن الإسلامية .

والواقع ؛ أن حملة الأطفال تحتاج منا إلى وقفة ؛ لأنها من أكثر الحملات الصليبية التى تعكس لنا روح ذلك العصر وطبيعته ، ومن الجلى البين أن الغرب الأوربى فى العصور الوسطى تعاظمت لديه الجوانب الغيبيه وكذلك الرؤى والأحلام ، وكل ذلك من خلال تدين عاطفى لايعطى للعقل أية مساحة فيه إلا القليل النادر ، وهكذا نجد أن آتون الحروب الصليبية يزج فيه بأطفال صغار أبرياء كانوا جزءاً من الهوس الدينى الذى شمل الغرب الأوربى حينذاك ، ودفعوا حياتهم ثمنًا لكل ذلك ، ويقرر البعض أن المستوى الفكرى للناس فى أوربا العصور الوسطى حينذاك ساعد على الاعتقاد فى صليبية الأطفال[١].

والجدير بالذكر هنا ؛ أن القيادات السياسية وكذلك الكنسية ؛ لم تستطع دفعًا لذلك التوجه من جانب الأطفال ؛ إذ أن ستيفن هذا لم يتمكن الملك الفرنسى فيليب اغسطس من اثنائه عن عزمه ، وتكرر ذات الأمر بالنسبة لنيقولا الذى لم يتمكن البابا أنوسنت الثالث من إبعاده عن تلك الصليبية . على نحو يكشف لنا من حقيقة مهمة ، وهى أن الهوس بالصليبية على مستوى الجماهير كان كبيراً ، وتكفل الأطفال البسطاء بذلك الأمر، وقد صدقهم الرجال والنساء على الرغم من عدم معقولية تصوراتهم تلك، غير أن ذلك العصر، بأبنائه وتصوراتهم، لم يكن ليقبل التنازل عن ذلك النمط القاصر من التفكير ، ويلاحظ أنه فيما بعد تردد لدى البعض فى الغرب الأوربى أن شيخ الجبل قد شجع اثنين من الاساقفة المنشقين على الكنيسة اللاتينية على أن يهيئوا للصليبيين المذكورين تلك الرؤية [٢]، ومن الواضح أن ذلك التصور جاء تبريراً لتلك السقطة التى انجرف إليها المجتمع الأوربى فى ذلك العصر، والأمر المؤكد؛ أن الصليبية حينذاك اغتالت براءة الطفولة بصورة غير مسبوقة وكأن كافة قطاعات المجتمع الغرب أوربى سواء الرجال والنساء والأطفال شاركوا فى تلك الحركة التاريخية الكبرى.

١- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص٩٥٤ .

٢- عن ذلك انظر : محمود سعيد عمران، الحروب الصليبية، ص٢٢٠ .

Zacour , The Children's Crusade, p. 341 , note(61).

ذلك شأن صليبية الأطفال ، غير أن الحركة الصليبية كان فى جعبتها المزيد من سهام العدوان لتطلقها على المسلمين فى «الشامصر» ، ولا أدل على ذلك مما عرف بالحملة الصليبية الخامسة[1] (١٢١٨-١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ) وقد قادها الملك الصليبى حنا دى برين John de Birenne (١٢١٠-١٢٢٥م / ٦٠٧-٦٢٢هـ) وعاونه المندوب البابوى بلاجيوس Plagius واستهدفت فى الأساس أرض الكنانة ، ويلاحظ هنا أن مصر كانت فى قلب المشروع الصليبى منذ بداياته المبكرة [2]، ويكفى أن نتتبع سريعًا موقع مصر فى المطامع الصليبية لندرك تلك الحقيقة، وأن البعد الافريقى فى التوسعات الصليبية يعد أمراً مؤكداً على المستوى التاريخى منذ وضع الصليبيون أقدامهم على بلاد الشام.

ومن الجلى البين : وفق تصورات الكتابات التاريخية الصليبية ذاتها أن الصليبيين راودتهم فكرة الاتجاه صوب مصر حتى عن قبل الاتجاه إلى بيت المقدس ، غير أنهم تخلوا عن تلك الفكرة لصعوبة تنفيذها حينذاك من قبل تحقيق الهدف المعلن الرئيسى للصليبيات فى صوررة

١- عن مصادر ومراجع تلك الحملة الصليبية بصفة عامة انظر :

Oliver of padenborn , The Capture of Damietta, Trans . by Cavigon, Philadelphia 1948 .

Gesta Obsidions Damiate , in quinti Belli Sacri Scriptores Minores ed. Reinholdus Rohricht, Genevae 1879, pp. 74-115 .

Johannes de Tulbia de Domino Johanne Rege IErusalem , in quinti Belli Sacri Scriptores Minores ed. Reinholgus Rohricht, Genevae 1879, pp. 119- 140 .

Liber Duellii Christani in Obsidione Damiate Exacti, in quinti Belli Sacri Scriptores Minores ed. Reinholdus Rohricht, Genevae 1879, pp. 143-166 .

Fragmentum de Captione Damiate, in quinti Belli Sacri Scriptores Minores ed. Reinholgus Rohricht, Genevae 1879, pp. 169-201

وأفضل دراسة أكاديمية عربية هى :

محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دى برين على مصر ١٢١٨-١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م.

٢- عن أطماع الصليبيين فى مصر وموقعها فى المخططات السياسية والحربية الصليبية انظر :

ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٣ ، ص٢٥٨ ، محمد مصطفى زيادة، مصر والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٤٢م، ص٧- ص٨ ، محمود الحويرى، العادل الأيوبى صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ص٩٠- ص٩١ ، حامد غانم زيان، العلاقات بين صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٧٣م، ص١٠٦ ، مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، ط. القاهرة ١٩٦٩م، ص١٠١ .

المدينة المقدسة ، ومن بعد ذلك ؛ جاءت حملة بلدوين الأول على مصر عام ١١١٨م / ٥١٢هـ، كما أسلفت الذكر من قبل، لتؤكد أن البعد الأفريقي لم يغب عن ذهن مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية وأن الغزاه أدركوا -هم أيضًا- فكرة الشامصر منذ ذلك العهد المبكر ، ثم جاءت حملات الملك عموري الأول على مصر والتسابق بينه وبين نور الدين محمود ليؤكد بالفعل كيف أن الصليبيين في عهد آخر ملوكهم الكبار؛ تحرقوا شوقًا لضم مصر لسيادتهم السياسية، غير أن مسعاهم باء بالخسران المبين، ولم يكتفوا فقط بالبعد الآسيوى لأن شهية الغزاه حينذاك ؛ لم تكن تشبعها بلاد الشام فقط، ثم من بعد ذلك ، تأكد لدى الملك الانجليزى ريتشارد الأول قلب الأسد أن مصر تقف في أبرز مكانة فى حركة الجهاد الإسلامى- مع عدم إنكار دور شقيقتها بلاد الشام بطبيعة الحال- ولذلك كانت نصيحته للصليبيين بضرورة الاتجاه إليها ، وأن الطريق إلى بيت المقدس يبدأ من القاهرة ، ثم من بعد ذلك عرفنا كيف أن الصليبية الرابعة كانت وجهتها فى الأصل صوب مصر ، غير أنها اتجهت من بعد ذلك صوب القسطنطينية من خلال الظروف التاريخية التى سبق وأن شرحتها مفصلاً من قبل.

وفى حقيقة الأمر؛ أن السمة البارزة لصليبيات القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى؛ البعد الافريقى فى السياسات التوسعية الصليبية، ومن ثم وجدنا عدة حملات تستهدف ذلك النطاق الجغرافى المكمل- خاصة قسمه الشمال الشرقى- للوجود الصليبى فى بلاد الشام، ومن ثم كانت الصليبيات الخامسة . والسابعة على مصر، ومن بعد الثامنة على تونس على نحو يؤكد على الالحاح على ذلك البعد وخاصة مصر ويجعلنا ندرك - أكثر من أى وقت مضى- كيف أن الغزاه كانوا خبراء فى معرفة مراكز الثقل السياسية ، والاقتصادية فى ذلك العصر وأن اتجاهاتهم الجغرافية لم تكن عشوائية ، بل تم حسابها بدقة بالغة، وحاولوا تنفيذها باصرار كامل وبكل ما توافر لهم من امكانات محلية، ودعم أوربى خارجى على الرغم من بعض سلبيات التنفيذ أحيانًا .

وقد اتجه البابا انوسنت الثالث Innocent III ؛ إلى الدعوة لتلك الحملة الصليبية فى مجلس اللاتيران الكنسى الذى عقد عام ١٢١٥م / ٦١٢هـ ، وقد ألقى هناك خطابًا عبر فيه عن معاناة بيت المقدس بخضوعها لسيطرة المسلمين ، وطالب الحاضرين بدعمه فى المشاركة فى المشروع الصليبى المرتقب [1]، ويلاحظ هنا أن الشخصية البارزة فى الدعوة لتلك الحملة الصليبية تمثلت فى جاك دى ڤترى Jacques de Vitry .

على أية حال؛ من الملاحظ أن الحملة الصليبية الخامسة اتجهت إلى مصر من ناحية البحر المتوسط، وبالتالى أغفلت الدرس الذى خرج منه الصليبيون فى صورة حملات الملك عمورى الأول، الذى قطع شبه جزيرة سيناء جيئه وذهابًا ؛ باعتبارها البوابة الشرقية لمصر، وهكذا اتضح منذ البداية أن الصليبيين - أحيانًا- لم يستفيدوا من تجارب تاريخهم السابق فى المنطقة، وهكذا خرج الملك حنا دي برين ومعه المندوب البابوى بلاجيوس من عكا متجهًا صوب مصر وخاصة مدينة دمياط[١]. ولاريب فى أن موقعها المتميز على فرع نهر النيل هناك والتقائه بالبحر المتوسط، ودورها الاقتصادى الذى اشتهرت به فى تاريخها ، ثم أنها أقرب الموانىء المصرية إلى الموانىء الصليبية فى الساحل الشامى كل ذلك جعلها هدفًا للصليبيين من أجل الارتكاز من خلالها لتكون نقطة إنطلاق صوب القاهرة .

وقد اتجه الصليبيين إلى الاستقرار عند قرية بورة وواصلوا زحفهم على شاطىء البحر إلى الشمال الغربى فى مقابلة دمياط ، وشرعوا فى الهجوم على ما عرف ببرج السلسلة ، وهو برج منيع فيه سلاسل حديدية تم مدها عبر النيل لمنع السفن التى فى البحر من القدوم إلى الأراضى المصرية[٢]، تمكن الصليبيون من الاستيلاء عليه ، ومن بعد ذلك تم الاستيلاء على دمياط التى سقطت فى أيدى الصليبيين عام ١٢١٩م / ٦١٦هـ[٣]، بعد حصار ستة عشر شهراً ، وفى خضم تلك الأحداث [٤]؛ كان الملك العادل مريضًا وعندما وصلت إلى مسامعه تلك الأخبار السيئة أسلم الروح حزنًا ، وكمداً [٥].

١- De Zahn, "quatre pieces relative de L'Ordre Teutonique en Orient", A.O.L., T.I pp. 164-169 .

جمال الدين الشيال، مجمل تاريخ دمياط، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص٢٠ .

٢- ابن الأثير، الكامل، جـ١٢ ، ص١٢٤ ، المقريزى، السلوك ، جـ١ / ق١، ص١٨٩ .

محمود سعيد عمران، الحروب الصليبية ، ص٢٥٣ .

٣- عن سقوط دمياط انظر : Oliver of Padenborn, The Capture of Damietta, p. 47 .

المقريزى ، السلوك ، جـ١ / ق١ ، ص٢٠١ . عبد المنعم ماجد، الدولة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية ، ص١٢٤ .

٤- المقريزى، السلوك ، جـ١ / ق١ ، ص٢٠١ .

٥- نفسه، نفس المصدر، ص١٩٠ .

ولاريب فى أن سقوط دمياط فى قبضة الغزاه قد دعم وضعهم الحربى، ورفع من روحهم المعنوية ، وفى المقابل عد كارثة لحقت بالأيوبيين فى مصر على نحو أدى إلى انخفاض الروح المعنوية لدى قواتهم ، وسارع الكامل الأيوبى ابن العادل إلى طلب المساعدة من اخوته فى بلاد الشام خاصة أخيه المعظم عيسى.

ويلاحظ هنا، أن الكامل اقترح على الصليبيين فكرة عبر عنها مؤرخ بارز تخصص فى تلك المرحلة الحساسة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى بقوله : «تحول (أى الكامل) فى سرعة ملحوظة إلى فكرة فريدة لم تكن فى مألوف العصور الوسطى أو قبولها أو معقولها بين المسلمين والصليبيين ومحور هذه الفكرة أن الصلح خير من الحرب وأن السلام الدائم سيد العلاقات بين أى طرفين متحاربين ، وخلاصة ما عرض السلطان الكامل على الصليبيين أن تجلو الحملة الصليبية عن الشواطىء المصرية جلاءً تامًا فتعود دمياط وغيرها من البلاد المحيط بها إلى أهلها ، وأن تبحر السفن الصليبية عن المياه المصرية ، وفى المقابل يقدم السلطان الكامل للصليبيين صليب الصلبوت الذى استولى عليه صلاح الدين عند فتح مدينة بيت المقدس ، وأن يرد عليهم مدينة بيت المقدس نفسها، ومعظم البلاد الفلسطينية التى استردها منهم صلاح الدين، ماعدا بلدتين صغيرتين واقعتين فى منطقة الأطراف المصرية الفلسطينية، وهما الكرك والشوبك»[١].

ويلاحظ أنه على الرغم من ذلك العرض البالغ السخاء ؛ رفضه الصليبيون على أساس أنه لابد من هزيمة المسلمين أولاً ثم من بعد ذلك يتم الاتفاق بين الجانبين، ومن الممكن القول دون أدنى تجنى على الكامل الأيوبى أنه ملك التنازلات الأيوبية للصليبيين، وقد صدق المؤرخ الكبير محمود سعيد عمران عندما صنف تلك الفكرة من باب الأفكار الغير معقولة أو مقبولة ، فمن غير المنطقى أو المعقول أن يقدم ذلك العرض للصليبيين وأخطر ما فيه أنه يهدم كل ما أنجزه الراحل الكبير صلاح الدين الأيوبى بل ويقدم بيت المقدس على طبق من ذهب للصليبيين، ومن الطريف أن ذلك الملك الأيوبى ستتوافر لديه «خبرة» فى عرض بيت المقدس للصليبيين كلما ضاقت به السبل فى مواجهة الصليبيين !!! على نحو يؤكد اقتناعه بذلك الأسلوب الذى لن يجلب له سوى الهوان الخالد !!!.

١- محمود سعيد عمران، الحروب الصليبية، ص٢٥٦- ص٢٥٧ ، أيضًا : رأفت النبراوى، النقود الصليبية ، ص٢٣١ .

مهما يكن من أمر؛ فأمام سقوط دمياط فى قبضة الغزاه ، اتجه الكامل إلى الرحيل عن فارسكور حيث أقام جيشه واختار موضعًا آخر، وهو الذى عرف بالمنصورة ، وامتاز بأنه اتخذ شكل المثلث الحصين بضلعين مائيين فى صورة البحر الصغير والنيل فلاتتمكن الحملة الصليبية من الوصول إليه عن طريق النيل «إلا بأسطول نهرى طويل بعيد عن قواعده» (١)، كذلك كان قريبًا من النجدات الأيوبية القادمة من بلاد الشام، ثم إذا ما أدركنا أنه قريب من ميناء سمنود حيث السفن التجارية والمحاصيل الزراعية وكذلك قريب من المواصلات الرئيسية من القاهرة (٢)؛ أدركنا كم كان ذلك الملك موفقًا فى اختيار ذلك الموقع الجديد لاستقرار قواته فى مواجهة الصليبيين ، وتلك زاوية ايجابيه ينبغى أن نقررها لذلك الملك الأيوبى .

ومن المهم هنا: أن نلقى الضوء على مسلك الصليبيين فى دمياط ، إذ أن ذلك سيكشف لنا عن دلالات مهمة ، فالملاحظ أنهم عاثوا فيها فساداً ، وسفكًا للدماء، واغتصابًا للنساء(٣) ، كذلك اتجهوا إلى تحويل مسجدها إلى كنيسة (٤)، وكأنهم بذلك يثبتون أنه أينما أقام الصليبيون فى موقع من مواقع دار الإسلام أو غيرها من المناطق إلا وتجد الدموية والبربرية ، بل أن ذلك صار سمة من سماتهم، سواءً فى بلاد الشام أو مصر، وكأنه تاريخ دموى متواصل الحلقات وأن اختلفت مواقعه الجغرافية ، مع ملاحظة أن تلك السمة ليست قاصرة على أبناء الإسلام بل المسيحيين وحتى اليهود وهو أمر اتضح لنا بجلاء خلال الفصول السابقة من هذه الدراسة .

ويضاف إلى ذلك ؛ أن الغزاه قاموا بسك عملة صليبية فى دمياط مما يدل على أنهم اعتقدوا فى استقرارهم ، واستمرار وجودهم فيها ، وفى هذا المجال نعرف أن الصليبيين عندما استولوا على دمياط كان أمامهم أن يتعاملوا بالعملة الإسلامية التى تم تداولها فى المدينة من

١- محمود سعيد عمران، الحروب الصليبية، ص٢٦٠ .

٢- نفسه، نفس المرجع، ص٢٦١ ، وقد نمت المنصورة نمواً كبيراً فيما بعد، ويقرر ابن العميد ما نصه «بنى الناس الأدر، والفنادق، والأسواق، والحمامات وسميت هذه المنزلة المنصورة »، انظر ابن العميد ، تاريخ الأيوبيين ، تحقيق كلود كاهن ، B.E.O., T. Annéc ، ص١٣٤ .

٣- ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص١٢٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٢٣٨ .

٤- المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢٠١ .

قبل، أو أن يقوموا بسك عملة جديدة، وقد فضلوا الحل الثانى، وبالفعل تم سك نقود صليبية عليها كتابات لاتينية حاول الغزاة فرضها على الأهالى المسلمين بمدينة دمياط، وأطلق البعض على تلك النقود نقود الضرورة وتم سكها فى دار ضرب وصفت بأنها طارئة أملتها الظروف الجديدة الناجمة عن الاحتلال الصليبى لدمياط[١].

ومن زاوية أخرى: من الملاحظ أن تلك النقود لم يتم التعامل بها أمداً طويلاً ، ونجد أنها وصفت بالندرة على اعتبار أنها سكت من أجل الأغراض الحياتية خلال الظروف التى عاشها الصليبيون بدمياط ، ثم أن الغزاه نجحوا فى فرض الحصار حولها ، ولذلك لم تتسرب تلك النقود إلى الأسواق المصرية[٢].

وإلى جانب ذلك : نجد أن الصليبيين عملوا على تنصير الأطفال المسلمين فى دمياط، وقد أقر بذلك المؤرخ الصليبى جاك دى فترى، على نحو دل دلالة وضاحة على أن المنصرين ساروا وراء الفرسان الصليبيين ، وأن الحركة الصليبية بعد أن اخفقت فى غزو البالغين وجعلهم يتحولون عن الإسلام إلى المسيحية ، اتجهت إلى غزو قلوب الأطفال الصغار الأبرياء الذين ليس لهم ناقة ولاجمل فى ذلك الصراع المحموم بين الطرفين، وبصفة عامة من الملاحظ أن السلوك الدموى للصليبيين كان فى حد ذاته أمر منفر يحول دون اعتناق المسيحية خاصة أن أبناءها المتعصبين تلك سياستهم، وهذا هو أسلوبهم الغير حضارى.

على أية حال : استغرق الصليبيون وقتًا طويلاً فى دمياط حيث أضاعوا فى عام ١٢١٩م/ ٦١٦هـ، وعام ١٢٢٠م/ ٦١٧هـ والنصف الأول من عام ١٢٢١م / ٦١٨هـ [٤]، وتأخر توجههم إلى نحو القاهرة ، ودعم الأيوبيون مراكزهم الدفاعية ، ووصلت إلى الكامل إمدادات

١- رأفت النبراوى ، النقود الصليبية ، ص٢٣٤ ،

٢- نفسه، نفس المرجع ، ص٢٣٥ .

٣- عن ذلك انظر :

Jacques de Vetry , p. 128, Oliver of Padenborn , p. 38 .

٤- نفسه ، نفس المرجع ، ص٢٣١ .

قادمة من بلاد الشام، كذلك كان هناك سلاح المياه : فقد استخدم الأيوبيين وقت الفيضان لنهر النيل الخالد، واغرقوا الغزاه وحاصروهم، وتم الاتفاق على هدنة مددتها ثمانية أعوام ، واطلاق سراح الأسرى [١]، وانسحاب الصليبين ومغادرتهم دمياط وعودتهم إلى فلسطين وذلك عام ١٢٢١م / ٦١٨ هـ .

وهكذا باءت الحملة الصليبية الخامسة بالخسران المبين ، وعاد الصليبيون إلى فلسطين وهم يجرون أذيال الخيبة والهوان ، والآن لنتساءل عن أسباب الإخفاق الصليبي، ، والحقيقة أن هناك عوامل مجتمعه أدت إلى ذلك المصير، فهناك ازدواجية القيادة لدى الصليبيين بين الملك حنا دى برين، والمندوب البابوى بلاجيوس، ثم لاتغفل خطأ غزو مصر من الزاوية البحرية وتجنب شبه جزيرة سيناء وهى المدخل المثالى لها، كذلك لابد من أن نذكر المقاومة الباسلة من جانب القوات الأيوبية ومن ورائها قطاعات المصريين الذين دافعوا عن بلادهم ضد الغزاه ، ثم لاتغفل تأخر الصليبيين فى دمياط واستهلاكهم وقتًا متسعًا على نحو سمح لأعدائهم بتنظيم صفوفهم، ولاريب فى أن كافة تلك العوامل مجتمعه صنعت الإخفاق الصليبى المبين[٢].

أما النتائج التى نتجت عن تلك الحملة الصليبية : فقد نتج عنها الفشل وهو أمر ذكرت أسبابه ، كذلك كشفت بجلاء أن الصليبيين لديهم الاصرار على التوسع جنوبًا فى مصر،

١- عن الاتفاق المذكور انظر :

سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق٢ ، ص٦٢٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ص٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٢٤٢ .

Powell , Anatomy of a Crusade 1213-1221, Philiadelphia 1986, p. 190 .

والدراسة المذكورة التى أعدها جيمس م. بوفل تعد من أفضل الدراسات المتخصصة عن الحملة الصليبية الخامسة بالانجليزية.

أيضًا : van Cleve , "The Fifth Crusade," in Setton, A History of the Crusades, vol. II, Madison 1969 , p. 428 .

٢- تناول أ.د. محمود سعيد عمران فى فصل مستقل، أسباب اخفاق الصليبية الخامسة ، انظر :

محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص٤١٠- ص٤٢٤ وكذلك الحروب الصليبية، ص٢٦٦- ص٢٧٦ .

وما حيث دى برين إلا الصورة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى لعمورى الأول ملك المملكة الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

كما كشفت تلك الحملة عن الطابع التنصيرى للحركة الصليبية، وأن ذلك الجانب من الممكن فهم أبعاد المطامع الصليبية فى المنطقة من خلاله ، إذ هدف الغزاه إلى تحويل مسلمى المنطقة إلى مسيحيين يتبعون الكنيسة الأم فى روما، وبذلك يكونوا قد استهدفوا الهوية الدينية ذاتها.

زد على ذلك: أن تلك الحملة كشفت لنا عن العلاقة الأبدية بين مصر والشام ، إذ أن كلاً منهما عمق استراتيجى للآخر، وعندما تعرضت أرض الكنانة للخطر قدم إليها الدعم والعون الحربى من شقيقتها الجغرافية والتاريخية بلاد الشام، وهكذا: وجد الخطر الصليبى المشترك تاريخ المنطقتين المتجاورتين بصورة أكدتها مراحل التاريخ السابقة وكذلك التالية .

على أن من أخطر ما نتج عن تلك الصليبية : أنها كشفت قصر نظر الكامل الأيوبى فيما يتعلق بالعروض البالغة السخاء والسذاجة للصليبيين ، وقد توافر لديه اصرار مثير للعجب على تقديم بيت المقدس للغزاه فى مقابل خروجهم من مصر، ويلاحظ أنه كرر ذلك الأمر عدة مرات وكأن بيت المقدس التى عادت بدماء الشهداء وخاض صلاح الدين المعارك الشرسة من أجلها، كأن تلك المدينة المقدسة مثلت عبئًا على ذلك السلطان الأيوبى وبالتالى أراد التخلص منها بأى صورة ! ، وقد توهم الرجل أن بإمكانه التصرف فى تلك المدينة وأن يعرضها كجارية فى سوق النخاسة ، ومن حسن الحظ - هذه المرة فقط- أن عناد المندوب البابوى الذى طمع فى المزيد رفض العرض، وأنقذت القدس من جانب الصليبيين ، وظلت فى أيدى أبنائها من المسلمين!، وكشفت تلك الحادثة عن مدى إنفراد القادة أحيانًا بقرارات مصيرية خاطئة يمكن أن تجلب أخطر النتائج وأسوأها على مصير أمتهم .

مهما يكن من أمر ؛ فإذا كان ذلك شأن الصليبية الخامسة ، فإن المنطقة كانت لاتزال فى قلب الأطماع الصليبية ، ولا أدل على ذلك من ظهور دور بارز للألمان خاصة من خلال ما عرف بالصليبية السادسة [1]، والتى قادها الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى Friderich II

١- عن تلك الحملة الصليبية بالتفصيل انظر : Van Cleve , "The Crusades of Frederick II" in Settoff, A History of the Crusades , vol . II, pp. 429-462 .

محمد مرسى الشيخ ، عصر الحروب الصليبية فى الشرق، ط. الاسكندرية ١٩٩٧م، ص٤٧٣- ص٤٩١ .

(١٢٢٥-١٢٥٠م / ٦٢٢-٦٤٨هـ) وهو شخصية متميزه ، عرف عنه عشقه للحضارة العربية الإسلامية بعد أن عاش قسمًا من حياته فى صقلية حيث التأثير الإسلامى الكاسح على المستوى الحضارى، ومما يجدر ذكره أن ذلك الإمبراطور الذى أجاد عدة لغات ، ووصف باتساع العلم والثقافة ، وصفه المؤرخ متى الباريسى Mathiew de Paris على أنه أعجوبة العالم Stupor Mundi ، وعلى الرغم من أن ذلك الوصف يعطى نوعًا من الدعاية السياسية الواضحة إلا أنه احتوى جزءاً من الحقيقة التاريخية بشأن تكوينه الفكرى.

ولامراء: فى أن ذلك الإمبراطور كان بمثابة نوعية جديدة من القادة الأوروبين الذين حملوا لواء الحروب الصليبية ، ويلاحظ أن البابوية ممثلة فى البابا جريجورى التاسع Gregory IX(١) (١٢٢٧-١٢٤١م / ٦٢٥-٦٣٩هـ) طلبت منه الخروج لمعاونة الصليبيين فى بلاد الشام، واستعادة بيت المقدس للسيادة الصليبية ، غير أنه ماطل وراوغ كثيراً حتى فرضت عليه البابوية الحرمان الكنسى Excommunication عام ١٢٢٧م / ٦٢٥هـ الذى كان بمثابة الخروج من رحمة الكنيسة ويعتبر قضاءً على مستقبله السياسى، وأمام ذلك اتجه ذلك الامبراطور إلى المشاركة فى المشروع الصليبى بدافع سياسى لاسيما مواجهة المأزق الذى وضعته فيه البابوية .

ومن ناحية أخرى : نجد أن من الضرورى التعرض لأوضاع الأيوبيين فى مصر والشام خلال ذلك الحين، ويلاحظ هنا أن العادل خلف من ورائه أبناءه الذين تبوأوا مكانة سياسية بارزة وهم الكامل ، والمعظم ، والأشرف، ومن بعد تضامنهم فى مواجهة الصليبية الخامسة، نجد أن الضعف والتناحر دب فيهم لاسيما خلال عامى ١٢٢٣-١٢٢٤م / ٦٢٠-٦٢١هـ ، وقد أراد المعظم عيسى التوسع على حساب أقاربه ، مما أثار حفيظة الأشرف، والكامل ، مع ملاحظة أن ذلك الحين شهد مقدم الخطر المغولى، وزحفه على أملاك الخوارزميين وذلك عام ١٢٢٠م / ٦١٧-٦١٨هـ وبذلك اقتربت الأخطار المغولية من الملك الأشرف بن العادل الأيوبى حيث كانت أملاكه فى بلاد الجزيرة ، وخلاط.

١- جريجورى التاسع Gregory IX ، تولى الكرسى البابوية خلال المدة من ١٩ مارس ١٢٢٧ إلى ٢٢ أغسطس ١٢٤١م، وتولى ذلك المنصب بعد وفاة البابا هونوريوس الثالث Honorius III الذى تولى بدوره أمر الكرسى البابوى فى المرحلة من ١٨ يوليو ١٢١٦ إلى ١٨ مارس ١٢٢٧م، عنه انظر :

Kelly , Oxford dictionary of Popes, p. 189-191 .

الجدير بالذكر هنا : أن من مظاهر خطورة ذلك الصراع بين أبناء البيت الأيوبى اتجاههم إلى طلب العون الخارجى ، وعلى هذا الأساس طلب المعظم عيسى معاونة الخوارزمية ، أما الكامل فإنه طلب معاونة الامبراطور الألمانى فردريك الثانى، وهكذا، فعندما أدرك ذلك السلطان الأيوبى الخطر من أخيه المعظم أرسل إلى الإمبراطور الألمانى سفارة على رأسها شيخ الشيوخ فخر الدين يوسف عارضًا التحالف معه وأن يقدم الألمان العون الحربى له، وفى المقابل يقدم الكامل له بيت المقدس، وفتوح السلطان صلاح الدين بالساحل [١]، وحيث أن تلك السفارة وصلت إلى الامبراطور الألمانى بعد إصدار الحرمان الكنسى عليه من جانب البابا جريجورى التاسع [٢]؛ لذلك تمسك بها ذلك الامبراطور ، لأن فيها ارتبط مستقبله السياسى بأكمله ، ويلاحظ أنه أتى وبرفقته خمسمائة فارس فقط، أى أن الحملة المذكورة لم تكن تحمل معها ثقل عسكرى كبير يمكن أن يعمل له الطرف الإسلامى ألف حساب مثلما كان الأمر فى الحملات الصليبية السابقة، والرقم المحدود من المحاربين المصاحبين له يؤكد ادراكه امكانية حصوله على الهدف الذى من أجله قدم دون الاحتياج إلى المزيد منها ، وقد أتى بذلك العدد المحدود كى يوحى للمسلمين أنه قدم ليس للحرب بل «للسلام» .

وبالفعل قدم الامبراطور الألمانى إلى مدينة عكا وذلك عام ١٢٢٨م / ٦٢٥هـ ، ولانغفل هنا زاوية على جانب كبير من الأهمية فى صورة أن ذلك الامبراطور الألمانى عندما وصل إلى بلاد الشام كان البابا قد أرسل رسله بصورة سرية إلى بنى أيوب والكامل على نحو خاص لتحريضهم على عدم تسليم القدس لذلك الامبراطور المارق ، ويعلق العلامة سعيد عاشور على ذلك قائلاً: «لاعجب فى ذلك الموقف الذى اتخذته البابوية ، إذ كانت المعركة بينها وبين الامبراطور فى الغرب أهم فى نظرها من المعركة بين المسلمين والصليبيين فى الشام»[٣]، ويلاحظ أنه عندما وصل المنطقة كانت تغيرات بالغة الأهمية قد حدثت فالمعظم عيسى- العدو اللدود للكامل والذى من أجله يمم شطر الامبراطور الألمانى طالبًا عونه- مات فى العام الماضى أى ١٢٢٧م / ٦٢٤هـ - وأتى من بعده ابنه الناصر داود وهو شاب صغير عديم الخبرة وتمكن الكامل والأشرف من اقتسام أملاك المعظم واستقرت أمور البيت الأيوبى على هذا النحو.

١- المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٢٢١ - ص٢٢٣ .

٢- رأفت عبد الحميد ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص١٩٠ .

٣- مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، ص٩٦- ص٩٧ .

على أية حال؛ اتجه الطرفان إلى التفاوض . واستعمل الامبراطور الألمانى كافة السبل والحيل من أجل تحقيق اتفاق يحصل به على كافة المكاسب فى قبضته حتى يضمن أن مستقبله السياسى لن يقضى عليه ذلك الحرمان الكنسى البغيض ، ولجأ إلى اللين تارة ، بل أنه أحيانًا كان يبكى ويزرق العبرات الساخنة تارة وإلى التلويح بالقوة العسكرية تارة أخرى؛ من أجل استعطاف الكامل الأيوبى الذى ربطت الصداقة بوشائجها بينه وبين فردريك الثانى !! وأخطر ما فى فردريك الثانى هذا أنه بحكم العناصر الشرقية فى شخصيته أوهم المسلمين أنه ما جاء من أجل تحقيق حربهم، بل أنه زاهد فى القدس أو كما ورد لدى البعض «وما لى غرض فى القدس، ولاغيره» [١]، وتمكن ثعلب الدبلوماسية الألمانية من إيهام الأيوبيين بذلك ، وفى النهاية استطاع انتزاع ما عرف باتفاقية يافا عام ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ، وأهم نصوصها:

أولاً: أن تكون هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات، وخمسة أشهر، وأربعين يومًا [٢].

ثانيًا : يحصل الصليبيون على بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة ، وتبنين، وصيدا، وكافة القرى على الطريق من عكا إلى بيت المقدس ومن عكا إلى يافا وكذلك أرض تورون وملحقاتهم بالإضافة إلى صيدا، وقيسارية ، ويمكن للامبراطور تحصينها[٣].

ثالثًا : اشترط الصلح أن تكون بيت المقدس على ما هى عليه، ولايتم تجديد سورها

١- رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، ص١٩٢ .

٢- ابن العميد ، تاريخ الأيوبيين، ص١٣٨ .

٣- عادل عبد الحافظ ، العلاقات السياسية ، ص٢٩٢ ومن خلال هذا البند الذى أورده الباحث المتخصص فى نشاط فردريك الثانى فى بلاد الشام، ندرك حجم ما ناله ذلك الامبراطور ونتساءل ، ما الذى لم يحصل عليه فردريك فى ذلك الاتفاق مع الكامل؟ وانظر أيضًا نصوص مهمة فى:

ابن العميد ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٣٧- ص١٣٨ وحتى تتضح الصورة نورد كيف دخلت تبنين الصلح ، فيقرر ابن العميد ما نصه : «أن الانبروز (أى الامبراطور) طلب من السلطان تبنين وأعمالها بحكم أن صاحبتها بنت الهنفرى ودخلت عليه وسألته فيها فانعم السلطان عليه بها، ودخلت فى نسخة المهادنة التى بينهما»، تاريخ الأيوبيين، ص١٣٨- ، ومن المنطقى تصور أن الكامل كان يتعامل مع أملاك المسلمين على أنها ضيعة شخصية يحق له التعامل والتصرف فيها كما يشاء .

وأن يضع المسلمون أيديهم على الصخرة، والمسجد الأقصى، وتقام الشعائر الإسلامية فيه[1].

ويلاحظ أن ذلك الاتفاق أثار غضب كل من المسلمين والصليبيين على حد سواء فبالنسبة للأولين؛ نجد أن إعطاء بيت المقدس على هذا النحو للصليبيين ، وهى مدينة ذات قداسة خاصة لديهم من خلال أنها أولى القبلتين وبها المسجد الأقصى وارتبطت بحادثة الاسراء والمعراج ، كل ذلك ؛ أثار المسلمين لاسيما فى بلاد الشام ضد الكامل الأيوبى ، ووفق نص المقريزى «اشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار» أما فى دمشق ، فقد تم أخذ العزاء فى فقدان المدينة المقدسة، والقى المؤرخ سبط بن الجوزى خطبة عصماء هاجم فيها الكامل الأيوبى والاتفاق مع الامبراطور الألمانى هجومًا عنيفًا.

أما بالنسبة للصليبيين ؛ فنجد أنهم لم يوافقوا على ذلك الاتفاق ، وقد أظهر مقدم الاسبتارية، ومقدم الداوية عدم رغبتها فى العمل تحت لواء الإمبراطور الألمانى[3]، وقد غضب

١- عن اتفاقية يافا انظر ؛

ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤ ، ص٢٤١- ص٢٤٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٣ ، ص٢٠٥ ، ابن نظيف الحموى ، التاريخ المنصورى، تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو ، ط. دمشق ١٩٨٢م، ص١٧٦ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٢٣٠ - ص٢٣٢ ، ابن أيبك الدوادارى ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، ص٢٩٢ ، نظير حسان سعداوى، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى، ط. القاهرة ١٩٦١م ، ص٩٦- ص٩٧ .

Van Cleve , "The Crusade of Frederick II", in Setton, A History of the Crusades, vol . II, Madison 1469, p. 455 .

, Archer, The Crusades, The Story of the Latin kingdom of Jerusalem , New York 1904, p. 225, Duggan, The Story of the Crusades, p. 225 .

٢- السلوك ، جـ١ ، ص٢٣١ .

٣- King, The Knights Hospitallers in the Holy land , p. 206 .

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٢٢٣ .

الداوية عليه بسبب أنه سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى وكان مركزاً لهم[١]، وبصفة عامة نظر مقدمة الهيئات الدينية الحربية الصليبية- باستثناء التيوتون بالطبع- إلى اتفاقية يافا على أنها بلاقيمة ما دام الامبراطور قد طرده البابا من رحمة الكنيسة الكاثوليكية [٢].

وفى واقع الأمر: إن المؤرخين تباينت وجهات نظرهم تجاه ذلك الاتفاق ، وبصفة عامة: فإن الأغلبية عارضته بشدة ، غير أن هناك من أيده على اعتبار أن الكامل الأيوبى- أمام الأخطار المتعددة التى واجهته ، أيوبية، وخوارزمية ، وصليبية - رأى أن يقدم بيت المقدس للصليبيين دونما أسوار ، حتى يحتفظ بمصر وهى قلب الدولة بعيدة عن الخطر، على اعتبار أن بإمكانه متى شاء استردادها، وعند أصحاب ذلك التوجه فإن الكامل الأيوبى رجل سياسة قدير سبق عصره ، وأظهر تسامحًا فى عصر التعصب ، بل أنه اتجه إلى فكرة تدويل القدس فى ذلك العصر[٣].

ويجدر بى هنا أن أوضح تصورات تجاه ذلك الاتفاق ويمكن اجمالها فى النقاط التالية :

أولاً : من الجلى البين : أن الكامل الأيوبى لم تتوافر لديه الحنكة السياسية التى تجعله نداً للسياسى الألمانى القدير فردريك الثانى ، وقد ذكرت من قبل أن الوضع السياسى تغير- إلى الأفضل - بالنسبة للكامل عقب وفاة المعظم عيسى، ولم يكن هناك مبرر لتنفيذ ذلك الوعد المتسرع والمتهور الذى قطعه على نفسه بتقديم القدس للامبراطور الألمانى طالما لم يساعده

١- Riley - Smith, Feudal Nobitity in the Latin kingdom of Jerusalem , London 1973, p. 170 .

٢- Kantorowicz, Frederick The Second, London 1931, p. 182 .

Riley - Smith , Feudal Nobitiy, p. 170 .

سعيد عاشور ، «الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى» مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد (١١) لعام ١٩٦٣م، ص٢٠٩ .

٣- يلاحظ أن فكرة الدفاع عن الكامل الأيوبى لدى الباحثين العرب ظهرت واضحة جلية عندما أعد الدكتور / عادل عبد الحافظ أطروحة للماجستير بعنوان : العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامى ١١٥٢-١٢٥٠م / ٥٤٧-٦٤٨هـ وذلك عام ١٩٨٦م، ونشرها بالقاهرة عام ١٩٨٩م، وبذلك نلاحظ أن مثل هذا التوجه ظهر منذ ثلاثة عشر عامًا مضت .

فى مواجهة خصومه من البيت الأيوبى أساسًا، وقد أشار إلى تلك الحقيقة - كما أسلفت الحديث من قبل- العلامة سعيد عاشور فى معرض تناوله لذلك الاتفاق[١]، وعبر عن ذات الفكرة المؤرخ الكبير الراحل محمد حلمى محمد أحمد حيث قال ما نصه «كان من حسن حظ الكامل أن أخاه المعظم توفى، لعل هذا يكون حافزا له على الرجوع عن تحالفه مع فردريك الموعود بمملكة بيت المقدس[٢] إلا أنه - للأسف الشديد- وقع ذلك الاتفاق» . والدليل على عدم حنكة الكامل الأيوبى، أن أبسط قواعد اللعبة السياسية فى أية مفاوضات ، ألايقوم طرف من الأطراف باللعب بكافة أوراق مباشرة دفعة واحدة ، بل يحتفظ بها ويتعامل بصورة جزئية وفق مقتضيات الحال[٣]، ومن الواضح أن الكامل لعب بكافة الأوراق دفعة واحدة وبصورة غير مسبوقة، أما الامبراطور فردريك الثانى فكان على درجة عالية من الذكاء ، وقد عبر أحد المؤرخين تعبيراً صادقًا عن الموقف قائلاً : «إن الامبراطور فردريك كان داهية إلى الحد الذى يستطيع به أن يحقق الكثير بالأسلوب الدبلوماسى[٤] من خلال صداقاته».

ثانيًا : عندما ننظر إلى عصر صلاح الدين الأيوبى، ولم يكن مر على اتفاقية صلح الرملة ١١٩٢م / ٥٨٨هـ، واتفاقية يافا ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ سوى سبعة وثلاثين عامًا ، نجد أن السلطان الأيوبى الكبير، يحارب الصليبيين بشراسة ولايفرط فى القدس أبداً ، وتعليل ذلك واضح وهى أن لها مكانتها الدينية- كما أسلفت- ثم أنها رمز لقضية الجهاد، أضف إلى ذلك أنه رأى أنه ليس من حقه كقائد لحركة الجهاد حينذاك أن يقدم القدس للصليبيين ، ويلاحظ هنا أن وضعه القتالى كان أصعب بمراحل إذا ما قارناه مع الكامل الأيوبى ، ويكفى أنه على مدى الأعوام من ١١٨٧م / ٥٨٣هـ إلى ١١٩٢م / ٥٨٨هـ لم يتوقف عن الصراع مع الصليبيين ، ومن أمثلته معركة عكا المريرة على مدى عامين كاملين ، ورفض تمامًا أن يحصل الصليبيون على القدس، ودل ذلك على الحنكة السياسية الحقيقية والبطولة الصادقة ، وهكذا فإن الجيل الذى استشهد رجاله من أجل عودة المدينة المقدسة للمسلمين؛ لم يفكر للحظة فى التفريط فيها، أما الجيل الذى وجد نفسه أمام المدينة المذكورة دونما مشقة فلم تكن تعنيه فى قليل أو كثير، وكان من السهل عليه أن يقدمها للصليبيين دون عناء .

١- مصر والشام والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٠١ .

٢- محمد حلمى أحمد، مصر والشام والصليبيون ، ص٩٠٧ .

٣- أنظر فى هذا المجال، سيف السيف، التفاوض فن الممكن ، ط. الرياض ١٩٩٦م .

٤- عادل عبد الحافظ ، العلاقات السياسية، ص٢٩٠ .

ثالثًا : توافرت لدى الكامل الأيوبى النيه لتقديم القدس على طبق من ذهب للصليبيين من قبل مقدم فردريك الثانى، ولاأدل على ذلك ما حدث خلال الصليبية الخامسة ، وقد كرر عرضه على الصليبيين عدة مرات، على نحو عكس عدم حنكته السياسية وأنه لم يكن لديه القدرة على التعامل مع الصليبيين سياسيًا. وكل مديح توافر لدى المصادر التاريخية العربية لذلك السلطان الأيوبى ربما يكون صادقًا على صعيد السياسة الداخلية وما أحدثه من مشاريع حضارية واستتباب الأمن؛ إلا أن السياسة الخارجية والتعامل مع الصليبيين جعلته لايحظى بتقدير المؤرخ المنصف.

رابعًا : قد يتم الاحتجاج بأن فتوى دينية قدمها أحد الفقهاء وهو القاضى ابن أبى الدم الحموى (ت ١٢٤٤م / ٦٤٢هـ) عكست أن هناك من أيد تلك الاتفاقية من خلال أحكام الإمام الشافعى التى وردت فى كتابه الشهير «الأم» غير أنه مع تقديرى الوافر لأصحاب ذلك التوجه إلا أن من المهم ملاحظة أن فقهاء السلطان فى بعض الأحيان كانوا نكبة على المسلمين عندما برروا لقادتهم تصرفاتهم ولم يعارضوهم ، والاحتجاج هنا بابن أبى الدم وما أورده فى مخطوطة التاريخ المظفرى مردود على اعتبار أنه ألف تاريخه فى عهد السلطان الكامل، ومنطقى أنه تحول ليكون بوقًا دعائيًا لذلك السلطان، كما أنه عاش فى كنف ابن اخت السلطان، وزوج ابنته وهو الملك المظفر صاحب حماه ، ويعبر أحد المؤرخين عن ذلك الموقف قائلا: «يجدر التحذير بعدم أخذ رواياته عن بنى أيوب على علاتها حتى لاتضلل الدارس»[1]، وهكذا ينبغى ألاتغفل الرأى الآخر، الذى وجد حتى فى عصر الكامل غير أنه قمعه فى قسوه ، ومثال ذلك أن أحد قادة جيشه ويدعى سيف الدين بن أبى زكرى حذره من التفريط فى بيت المقدس وحقوق المسلمين ، وطالب بمحاربة «صديقه» الألمانى ومن ذلك قوله : «إبعد دمشق على ابن أخيك الملك الناصر وأطلبه وأطلب أخاك الملك الاشرف وعسكر حلب، ونقاتل هذا العدو فإما لنا وإما علينا، ولايقال عن السلطان أنه أعطى الفرنج القدس»[2].

١- أنظر التحليل المهم الذى يقدم الزميل المؤرخ على عودة الغامدى فى دراسته القيمة :

على عوده الغامدى، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ٥٨٩-٦٥٧هـ/ ١١٩٣-١٢٥٩م، ط. مكة المكرمة ١٩٨٨م، ص٢٦٨، حاشية (١) .

٢- ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص٢٢٤ ، على عوده الغامدى، المرجع السابق ، ص٢٦٩ .

وعلى الرغم من تلك النصيحة الصادقة التى حفظها التاريخ لابن أبى زكرى إلا أن الكامل اعتقله وأرسله إلى مصر حيث سجن هناك[١]. ومن المهم أن نذكر هنا أن ذلك القائد العسكرى الذى عارض سلطانه اقترح عليه الحل العسكرى، وهى فكرة تدل على أن ذلك كان ممكنًا لأنه- وبالبداهة- لو لم يكن ممكنًا لما عرضه ذلك القائد الذى تتصور أن له خبره قتالية يعتد بها بدليل وصوله إلى أن يكون أحد القادة العسكريين للكامل ، وتصوره كان منطقيًا من خلال قلة قوات فردريك الثانى، غير أن السلطان الذى عشق التفريط، واستمتع بالتنازلات ، رأى رؤيته التى عارضتها الجماهير الحاشدة ، ومن غير المنطقى ؛ تصور أن كافة تلك الجماهير الغفيرة التى عارضته كان يحركها الناصر داود عدو الكامل الأيوبى !!!، حقيقة أنه شن ضد قراره ما يوصف «بحملة إعلامية»[٢] عنيفة ، غير أنه كان محقًا تمامًا فى ذلك، لأن اتفاق يافا كان يحتوى على التنازل عن تلك المدينة المقدسة ، ومساحات شاسعة أخرى تعطى للغزاه ولم يكن من الممكن الوقوف دون أن يحرك ساكنًا على ما أقدم عليه الكامل الأيوبى.

خامسًا : من زاوية أخرى ؛ أعارض الخلط بين التسامح والتفريط ، فمن حق الكامل الأيوبى أن يتسامح مع الصليبيين بأن يسمح لهم بالحج إلى المحارم المسيحية المقدسة فى أمن وأمان كاملين ، أما أن يقدم لهم القدس على اعتبار أنها بلا أسوار ، وأنه متى أراد استرجاعها تمكن من ذلك فهو أمر لايدخل ضمن باب التسامح بل التفريط، وامتهان

١- ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص٢٢٤ .

٢- من ذلك الدور الفعال الذى قام به الفقيد المؤرخ البارز سبط الجوزى ، عندما خطب فى المسجد الأموى وتناول فضائل بيت المقدس «ويشع القول فى هذا الفعل» على حد تعبير المقريزى. وقد حضر ذلك المجلس جمع لايحصى من الناس واشتد صراخهم وبكاءهم ، وتم إنشاد قصيدة من ثلاثمائة بيت منها:

على قبة المعراج والصخرة التى ... تفاخر ما فى الأرض من صخرات

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات

ويقرر شيخ مؤرخى مصر الإسلامية ما نصه : «فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم» .

السلوك ، جـ١ / ق١ ، ص.٢٣٣

أيضًا ، ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ٤ ، تحقيق حسنين ربيع، ط. بيروت ب.ت - ص٢٤٦ .

كرامة الأمة ومقدساتها، والتسامح فى غير موضعه يظهر التهاون الذى لامبرر له ويلاحظ هنا أن السلطان صلاح الدين الأيوبى تسامح مع الصليبيين ولم يفرط ، فقد جنبهم الفتك بهم عندما دخل القدس فاتحًا فى أعقاب حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، وسمح لهم فى أعقاب صلح الرملة ١١٩٢م / ٥٥٨هـ بالحج ، غير أنه فى مواقف أخرى كان حازمًا صارمًا لأن الأمر احتاج منه ذلك، وحادثة فرسان الاسبتارية والداوية والفتك بهم عقب حطين أمر مؤكد ، وخير دليل على أن تسامحه الواعى كانت له حدود. وهكذا لم يفرط السلطان العظيم مؤسس الدولة الأيوبية، وإنما الذى تكفل بذلك خير قيام وعلى نحو «كامل» السلطان الكامل نفسه !!

سادسًا : إن ما يمكن تصوره من أن الكامل اتجه إلى وجهة خاصة بتدويل القدس، وأن الفكرة اتجه إليها السلطان صلاح الدين الأيوبى من قبل عندما وافق على مشروع زواج العادل أبوبكر من جوانا Joana شقيقة ريتشارد الأول قلب الأسد ، فيه الكثير من تحميل الأمور أكثر مما تحتمل، لقد كان مشروع الزواج المذكور الذى تضمن أن يحكم الزوجان القدس مناصفة حماية للسلام وتجنبًا للحرب. كان مشروعًا مخفقًا من البداية؛ لعدم معقوليته بالنسبة للصليبيين، ومن المتصور أنه كان مجرد مناورة من جانب الملك الانجليزى كى يكسب بها الوقت لا أكثر ولا أقل ، وهو أمر لم يغب عن فطنة القيادة الأيوبية ولم يكن صلاح الدين الأيوبى يفكر فى تدويل القدس ، إن الفكرة الأخيرة فكرة حديثة للغاية من خلال الصراع العربى الصهيونى وتقديم مقترحات بتدويل القدس ، وهكذا فمن الممكن القول أن تلك الفكرة لم يكن لها سابقة تاريخية فى عصر الحروب الصليبية وقد اعتقد المسلمون تمامًا - وما زالوا- أن القدس عربيه إسلامية وأنها عاشت فى كنف الإسلام خمسة قرون كاملة ، وتمتع غير المسلمين فيها- بصفة عامة- بالتسامح الدينى الذى عجز عنه الصليبيون أنفسهم عندما قدموا إلى المنطقة، وهكذا ، فلم يكن أمر «التدويل » قائمًا حينذاك ، وكيف يفكر السلطان الأيوبى صلاح الدين فى ذلك الأمر وهو الذى استعادها بقوة السلاح ، وهزم الصليبيين فى حطين؟ من قبل ، أن من يفكر فى التدويل من المؤكد أنه لايستند إلى قوة عسكرية تدعم موقفه ، وهكذا ظل ما فعله الكامل نسخة وحيدة للهوان لم تحدث قبل عصره، ولم تتكرر بعده لتكون الحادثة نفسها دليل إدانة فى حدذاتها .

١- السلوك، جـ١ / ق١ ، ص٢٣٠ .

سابعًا : كان من الممكن أن نجد بعض- لا كل - العذر للكامل الأيوبى فى حالة مواجهته لقوات ضخمة مرافقة للامبراطور فردريك الثانى، وعجز إمكانات الأيوبيين الحربية حينذاك، ومن ثم يفكر مثل ذلك التفكير ، غير أن فردريك قدم ومعه خمسمائة فارس إلى حد تصور معه بعض المؤرخين أنه قدم فى نزهة إلى المنطقة، وبديهى أن ذلك العدد الضئيل كان من الممكن لذلك السلطان أن يستغل نقطة الضعف التى لذلك الامبراطور فى صورة قوته العسكرية ومحدوديتها ، ناهيك عن أنه يقاتل على أرض أجنبية وأن الأيوبيين يقاتلون على أرضهم، وملعون من البابا كان من الممكن الاستفادة من كل ذلك لصالح المسلمين ولصالح عدم التفريط فيما لايفرط فيه ، وبدلاً من ذلك وجدناه يقبل التوقيع على اتفاق مهين مثل اتفاقية يافا ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ.

ثامنًا : اتصور أن من غير المنطقى الأخذ بتأييد عدد قليل من الفقهاء الرسميين ، وإغفال البعد الشعبى الجماهيرى الذى صنع تاريخ حركة الجهاد الإسلامى فى ذلك العصر؛ إذ أن الجماهير كانت تقف بجوار القائد الذى يعبر عن أمالها وآلامها فى مواجهة الغزاة وهو ما وجدناه مع صلاح الدين الأيوبى، أما فى حالة الكامل ؛ فقد رفضته الجماهير الصادقة الشعور والتعبير؛ لأنها أدركت أن تضحياتها التى بذلتها على مدى العقود السابقة تذهب أدراج الرياح على يد السلطان الكامل الذى انتزع منه ثعلب الدبلوماسية الألمانية فردريك الثانى نصراً عزيزاً يندر مثاله دون أن يخسر شيئًا من رجاله .

تاسعًا : من الملاحظ أن هناك اتجاهًا يتحدث عن «التسامح الأيوبى» لينطلق من ذلك إلى تصوير سلوك الكامل الأيوبى على أنه جاء من خلال تلك الزاوية «التسامحية» إذا جاز التعبير. ومع ذلك ؛ غير أن هناك ناحية على جانبها من الأهمية وتتمثل فى طرح تساؤل وهو: لماذا يطلب من المسلمين ذلك ؟ وإذا كان ذلك هو حال المسلمين حينذاك فماذا قدم الصليبيون ليكون دليلاً على أن هناك تسامحًا متبادلاً ؟ والاجابة هى لاشىء لأن تاريخهم مع المسلمين على مدى أعوام طويلة مضت معارك ، ومذابح ، ورغبة جارفة من جانبهم فى امتلاك الأرض بأى ثمن ، وفرض سيادتهم السياسية عليها، وأخلص من ذلك إلى أن التسامح الغير مدروس جيداً ضمن الرؤية السياسية العامة؛ لايعد تسامحًا بل تهاونًا بالغًا وتنازلاً أبلغ.

عاشراً : قد يتصور البعض أن ما أقدم عليه الكامل الأيوبى فى اتفاقية يافا عام ١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ وتقديمه القدس له على هذا النحو قد تم استرداده عام ١٢٤٤م / ٦٤٢هـ ؛

عندما دخل الخوارزميون المدينة المقدسة وقضوا على السيادة الصليبية بها، غير أن الأمر بذلك يكون من قبيل «تهوين» ما أقدم عليه الكامل ، إذا أنه أقدم على ذلك عام ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ ولم يكن المعاصرون الذين رفضوا فى غالبيتهم الغالبة هذا الموقف يدركون إلا ضياع رمز الجهاد الإسلامى فى عصر الصليبيات فى صورة تلك المدينة المقدسة على نحو خاص، ولم يكن أحد قط – وهو أمر بديهى- يدرك أنه سيتم استردادها لصالح المسلمين بعد ذلك بخمسة عشر عامًا .

ومن ناحية أخرى؛ علينا ألا نجمل أخطاء حكام المسلمين السابقين فها هو خطأ قتّال صحح بعد خمسة عشر عامًا، مع ملاحظة أن الذى يدفع الثمن دائمًا الشعوب التى يخذلها حكامها أحيانًا جريًا وراء ديكتاتورية ترى أنها على حق، وأن الحشود الحاشدة المعاصرين لايستحقون أن يلتفت إلى تصورهم على الرغم من أنهم المشاركون الفعليون فى صنع تاريخ تلك المرحلة.

حادى عشر : فى واقع الأمر؛ أن قضية الكامل الأيوبى واتفاقه المذكور مع فردريك الثانى؛ يعكس لنا الفجوة الكامنة بين الأجيال الأيوبية ورؤيتها للتعامل مع الوجود الصليبى فى بلاد الشام وتحالفه الاستراتيجى مع الغرب الأوربى، ومن الممكن تصور الأمر كالآتى (جهاد – سياسة دفاعية- تنازل) وهو ترتيب متفق مع عهود كل من صلاح الدين الأيوبى، ثم العادل، ومن بعده الكامل وأتصور أن جذور القضية بدأت مع السياسة الدفاعية للعادل والطرح المتعدد المراث لتقديم القدس للصليبيين حتى خلال الصليبية الخامسة ، وصولاً إلى أحداث عام ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ على نحو عكس لنا سبق الاصرار والترصد من جانب الكامل فى بيع القدس على هذا النحو المزرى والتباين الحاد فى السياسة الأيوبية من خلال تباين تلك الأجيال، ومن الواضح أن الجيل الذى قدم التنازلات لم يقدر جيل التضحيات والجهاد البارز ضد الصليبيي، وهكذا ففجوة الأجيال الأيوبية تلك تمثل واقعًا تاريخيًا وليس من الممكن انكاره لأن إنكاره بمثل تلك الصورة من شأنه ابعادنا عن قلب الحقيقة التاريخية ، مع تقديرى الكامل لكل الآراء المخالفة.

ثانى عشر : فى الواقع أتصور أن المؤرخين الأوربيين من متى الباريسى حتى كانتروتز ، لهم تصوراتهم فى تقويم فردريك الثانى على أنه اعجوبة العالم وأنه سبق عصره ، ولديهم مبرراتهم – من وجهة نظرهم- فى ذلك التقويم ، أما الكامل الأيوبى : فلم يكن سابقًا على عصره فى شىء بل كان متخلفًا بمراحل عن ذلك العصر بدليل ظاهرة «النكوص» التى ظهرت

بجلاء فى اتفاقية ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ، وفى حالة كونه سابقًا لعصره بالفعل لأقدم على ما فيه صالح أمته، وهو أمر كان يتأتى بالحفاظ على ما حققه الجيل الأيوبى الأول.

والتقويم الختامى لذلك السلطان أنه كان محبًا للعلم والعلماء [١]، وصل طريق العلم والجد إلى عالم السياسة، ولم يكن بالسياسى الداهية، أو الحصيف، كما لم يكن بالعسكرى القدير إلا فى أضيق نطاق، أما وصف ابن واصل له بأنه «خافتة ملوك الأرض قاطبة»[٢] فهو من قبيل الدعاية السياسية الخرقاء، والمتصور أنه اقتحم عالم السياسة ولم تكن له مؤهلات لذلك. وقد ظهر ذلك جليًا خاصة عندما تعامل مع أحد كبار رجال عصره فى أوربا فى صورة فردريك الثانى .

ثالث عشر : ليس هنا مقام عرض كافة الآراء التى أوردها قطاع بارز من المؤرخين المسلمين المحدثين بشأن اتفاقية يافا، وأكتفى هنا إلى جانب ما أوردته من قبل عن رأى العلامة سعيد عاشور من قبل - بأن أذكر ما أورده المؤرخان أحمد رمضان ، قاسم عبده قاسم وهما من المتخصصين فى عالم الصليبيين ، يقول الأول ما نصه : «فرط الكامل وبدون قتال ولاهزيمة ودون إراقة قطرة دم واحدة فى مناطق لايحق له أن يدعى أنها ملكًا له بل هى ملكًا للمسلمين جميعًا أراقوا فيها دماءهم تحت راية عمه صلاح الدين الأيوبى فى حطين وبعدها فى معارك يشهد الله على عنفها وضروراتها ومهما ادعى الكامل من أسباب دعته إلى قبول الصلح فى يافا سنة ١٢٢٩م إلا أنها برمتها أسبابًا شخصية لاعلاقة لها بالإسلام والمسلمين وبدل أن يرفع راية الجهاد بعد صلاح الدين يأتى برفع راية الاستسلام فى قبوله هذه المعاهدة »[٣].

أما المؤرخ الثانى ، وهو قاسم عبده قاسم فأورد ما نصه : «أما العالم الإسلامى فقد رأى -بحق أن الهدنة التى عقدها الكامل الأيوبى كارثة حقيقية، وكان رد الفعل الشعبى عنيفًا

١- المقريزى ، السلوك ، ص٢٥٨ يقول : «كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم».

ابن العميد ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٤٤ .

Cahen "Sur le Tarikh Salihi d'Ibn Wasil Notes et Extraits", in M. Sharon ed. Studies in Islamic History and Civilization in Honur of Professor David Ayalon , Jerusalem Cana & Leiden 1986, p. 512 .

٢- Ibid, p. 512 .

٣- العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧٩ .

ضد السلطان الذى بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته، وقد علق ابن الأثير على ذلك بقوله: واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم مالايمكن وصفه ، يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه... »[١].

نصل الآن إلى الزاوية الختامية فى هذا الفصل ؛ وهى خاصة بالنتائج التى نتجت عن تلك الحملة الصليبية- ، وفى حقيقة الأمر أن النتيجة الكبرى، التى تمخضت عنها تمثلت فى عودة بيت المقدس للصليبيين دون إراقة الدماء، ومن خلال حملة صليبية عجيبة خرجت ولعنات البابا تلاحق زعيمها فردريك الثانى، وإذا كانت قد حققت ذلك الهدف الكبير، إلا أنها- من ناحية أخرى- تمكنت من زرع بذور الانشقاق والاختلاف بين المسلمين بشأن اتفاقية يافا ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ المثيرة لأكبر قدرة من الجدل بين المعاصرين وحتى المتأخرين !.

من زاوية أخرى؛ نجد أن تلك الحملة جعلت لألمانيا موقعها الجديد الفعال على خريطة القوى السياسية الأوربية المشاركة فى المشروع الصليبى، ويلاحظ أننا بذلك لدينا ثلاثة أباطرة من الألمان شاركوا فى ذلك المشروع منذ بدايته ، فهناك كونراد الثالث الذى شارك فى الصليبية الثانية، ثم فردريك بارباروسا الذى شارك فى الثالثة أما فردريك الثانى فحقق انتصاراً كبيراً عجز عن تحقيق من قبل ملك فرنسا فيليب أغسطس، وملك انجلترا ريتشارد الأول قلب الأسد، وبذلك تدعم النفوذ الألمانى شرق البحر المتوسط حيث رأى أنه لاحل لمشكلة الحرمان الكنسى الذى فرضه البابا جريجورى التاسع إلا بالاشتراك فى حملة صليبية فى بلاد الشام، على نحو عكس أن السياسة الخارجية الألمانية حينذاك كانت على صلة وثيقة بالسياسة الداخلية وأنهما كانا وجهى عملة واحدة وأن المستقبل السياسى لذلك الامبراطور الألمانى لم يكن فى ألمانيا ذاتها، بل فى بلاد الشام ذاتها .

كذلك ؛ تنتج عن تلك الصليبية أن وضح لنا أن البابوية جعلت من القدس لعبة سياسية ، فهى لاتقبل عودتها على يد رجل فرض عليه الحرمان الكنسى، بل لابد من أن يكون ذلك من خلال رجل أداة طيعة فى يدها على نحو أوضح لنا الدور السياسى الذى لعبته البابوية التى كانت تتباكى من قبل على ضياع تلك المدينة المقدسة فى أيدى المسلمين ، وها هى الآن تضع العراقيل لتحول دون عودتها للمسيحيين .

تلك صورة الصليبيات خلال المرحلة الواقعة من ١٢١٢ إلى ١٢٢٩م/ ٦٠٩-٦٢٧هـ؛ وقد وضح منها كيف أنها زاخرة بالصراع وكذلك الجدل، أما الفصل التالى ، فإنه يختص بالنشاط الصليبى للملك الفرنسى لويس التاسع خلال المرحلة من ١٢٥٠ إلى ١٢٧٠م / ٦٤٨-٦٦٩هـ.

١- ماهية الحروب الصليبية، ص١٥٥ .

الفصل الحادى عشر

النشاط الصليبى للويس التاسع

١٢٥٠ - ١٢٨٠م / ٦٤٨-٦٦٩هـ

يتصدى هذا الفصل بالدراسة للحملات الصليبية التى قام بها الملك الفرنسى لويس التاسع (١٢١٤-١٢٧٠م / ٦١١-٦٦٩هـ) على مصر وتونس خلال المرحلة الزمنية الواقعة بين عامى ١٢٥٠ ، ١٢٧٠م / ٦٤٨-٦٦٩هـ ، ويتجه إلى تحليل دوافع ذلك الملك للاشتراك فى الحروب الصليبية، كذلك تطور أحداث حملتيه الصليبيتين ، ثم النتائج التى نتجت عنها .

وفى واقع الأمر ؛ من الضرورة بمكان أن ترصد لمحة عامة عن التطورات التاريخية البالغة الأهمية التى وقعت فى بلاد الشام ومصر خلال المرحلة الواقعة من توقيع اتفاقية يافا ١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ حتى صليبية لويس التاسع على مصر عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ، ويلاحظ هنا، أن تلك المرحلة شهدت وقائع تاريخية كان لها أثرها الفعال على تطور الصراع الإسلامى-الصليبى فى ذلك العصر .

ويلاحظ هنا؛ أن تلك الهدنة التى اتفق المسلمون والصليبيون عليها والتى بلغت عشر أعوام أعطت للصليبيين الفرصة الملائمة من أجل الاستعداد لشن حملة صليبية جديدة على المنطقة ، ولذلك يعد عام ١٢٣٩م / ٦٣٥هـ عامًا له دلالاته بالنسبة للجانبيين، فقد توفى السلطان الكامل فى ذلك العام، وتولى من بعده ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب[١] فى عام ١٢٤٠م / ٦٣٨هـ.

وقد اتجه البابا جريجورى التاسع Gregory IX [٢](١٢٢٧-١٢٤١-م / ٦٢٥-٦٣٩هـ) إلى الدعوة لشن صليبية جديدة، واستجاب لدعوته ثيبولد الشامبنى ملك نافار Theobald of Champagne ، ووصل بالفعل إلى مدينة عكا وبرفقته رجاله [٣]، ويلاحظ

١- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص١٥٥ .

٢- انظر ما سبق تناوله بشأن ذلك البابا فى الفصل السابق .

٣- عن حملته بالتفصيل انظر :

Painter", The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cronwall 1239-1241", in Setton, A History of the Crusades, pp. 463-485 .

هنا، أن تحالفًا قد تم بين المصريين والخوارزميين أما الصليبيين؛ فقد تحالفوا مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وكذلك المنصور صاحب حلب، ووصل الصدام بين الجانبين إلى ذروته في صورة معركة غزه عام ١٢٤٤م / ٦٤٢هـ، ويلاحظ أن على رأس التحالف المصري - الخوارزمي كان هناك، الأمير ركن الدين بيبرس[1] ، ومن خلال أوصاف المصادر التاريخية العربية؛ يتضح لنا بجلاء مدى ضخامة العناء الحربي والتجهيزات الخاصة التي كانت للقوات المشتركة في القتال[2]، وفي معركة غزة الشهيرة منى التحالف الشامي الصليبي بالهزيمة المنكرة ، ولا أدل على ذلك من قول أحد المؤرخين : «ثبتت الديوية والاسبتار قبالة العساكر المصرية الخوارزمية وقاتلوا إلى أن قتلوا جميعًا ولم يبق منهم إلا يسير وأسروهم وحملوهم إلى مصر»[3]، وبصفة عامة ؛ تعد هذه المعركة من المعارك الحاسمة في تاريخ الصراع الإسلامي-

---

= ليلى عبد الجواد «صليبيبة نافار واسترداد المسلمين مدينة بيت المقدس (١٢٣٩-١٢٤٠م)» ندوة فلسطين عبر عصور التاريخ ، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص١٢٩-ص١٧٥ .

١- لم يكن هذا القائد هو ركن الدين بيبرس البندقداري الذي تولى حكم مصر فيما بعد، وتلقب بالظاهر ، وحكم في المدة من ١٢٦٠-١٢٧٧م / ٦٥٩-٦٧٦هـ، بل هو أحد مماليك الصالح نجم الدين أوب وهو من عناصر الخوارزمية ، وقد خان سيده عام ١٢٤٥م / ٦٤٣هـ حتى تمكن الأخير من إنزال الهزيمة بهم في عام ١٢٤٦م / ٦٤٤هـ فقتله، وقد خلط بعض المؤرخين المحدثين بين الشخصين ومن أمثلتهم كنج وباركر، أما الذين نبهوا إلى ذلك جب وزيادة وعاشور ، وذلك اعتماداً على نص صريح للمؤرخ ابن تغرى بردي، عن ذلك انظر : ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة ، جـ٦، ص٣٢٢ ، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع ، ص٦٩، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٢٠- ص٢١ ، هاملتون جب، صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٧ ، حاشية (١٩) ، وعن الخلط انظر : King , The Knights of St. John in The British Kingdom , London 1943, p. 39 .

أرنست باركر، الحروب الصليبية ، ت. السيد الباز العريني، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص١٥٢ - ص١٥٣ .

٢- ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص٣٣٨ وما بعدها ، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، جـ٨ / ق٢ ، ص٧٤٥ ، الذهبي ، دول الإسلام ، جـ٢ ، ص١٤٧ ، المقريزي، السلوك ، جـ١ / ق٢ ، ص٣١٧ ، ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص٣٢٣ .

٣- ابن العميد ، تاريخ الأيوبيين ، نشر كلود كاهن في مجلة الدراسات الشرقية، م (١٥) عام ١٩٥٥-١٩٥٧م،

B. E. O., T. XV, Années 1955-1957 .

الصليبى، وقد وصفت من جانب البعض بأنها حطين الثانية [1]، وقد تم الفتك بالعديدين من فرسان الهيئات الدينية الحربية الصليبية وهم أهم عناصر الجيش الصليبى، ويلاحظ هنا أنه فى أعقاب تلك المعركة ؛ تمكن الجيش المصرى بمعاونة الخوارزمية من الاستيلاء على بيت المقدس[2] ، ويلاحظ أن تلك كانت الاستعادة الأخيرة للمدينة المقدسة وظلت من بعد ذلك فى أيدى المسلمين طوال سبعة قرون قبل أن يدخلها الانجليز فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٧م / ١٣٣٣-١٣٣٦هـ) وقبل أن يقوم الصهاينة باحتلالها [3].

ولامراء ؛ فى أن سقوط بيت المقدس فى قبضة المسلمين كان له أثره فى الدعوة لقيام حملة صليبية من أجل التوجه إلى بلاد الشرق لتخليصها من ذلك المصير المأساوى - من وجهة النظر الأوربية بطبيعة الحال- ويلاحظ أن البابوية متمثلة فى البابا أنوسنت الرابع[4] Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤م / ٦٤١-٦٥٢هـ) اتجه إلى الدعوة لتلك الحملة الصليبية المرتقبة التى ارتبطت بالملك الفرنسى لويس التاسع .

والواقع أن من الأهمية بمكان ؛ دراسة دوافع ذلك الملك الفرنسى للمشاركة فى المشروع الصليبى ، ويلاحظ هنا أن مؤرخ سيرته جان دى جوانفيل[5] Jean de Joinville قد أضفى عليه

١- Boase, Kingdoms and Stronghold of The Cousades, p. 183 .

وعن معالجة المؤرخين المحدثين لها أنظر :

الدبس، تاريخ سوريا ، جـ٦ ، ص٢٥١ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٢ ، ص٢٦٩- ص٢٧٢ ، نافع العبود ، الدولة الخوارزمية . ط . بغداد ١٩٧٨م، ص١٨٥ ، نظير حسان سعداوى ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى، ص١٠٨- ص١٠٩ .

٢- عن ذلك انظر : Mathew of Paris, English History from the Year 1235 to 1273 , Trans, from The latin by J.A., Giles, vol II, London 1853 , p. 491-496 .

٣- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص١٥٦ .

٤- انوسنت الرابع Inniosent ، تولى المنصب البابوى خلال المرحلة من ٢٥ يونيو ١٢٤٣ إلى ٧ ديسمبر ١٢٥٤م، وقد تولى أمر البابوية فى أعقاب البابا كلستين الرابع Clestin IV الذى تولاه بدوره خلال المرحلة من ٢٥ أكتوبر - ١٠ نوفمبر ١٢٤١م، عنه أنظر :. Kelly , Oxford dictionary of Popes, p. 191-192

٥- أنظر : Jean de Joinville, The life of Saint Louls, in chronicles of the Crusades, Trans. by Shaw, Penguin Classics, London 1976 .

طابعًا دينيًا على نحو جعل العديد من الباحثين يتصورون ذلك الجانب فى الملك الفرنسى المذكور ، وجاء المؤرخون الفرنسيون المحدثون ليعمقوا الفكرة بشأن «القديس لويس» "Saint Louis" ، فهل صفة القداسة التى ارتبطت بلويس التاسع تعنى أننا أمام قائد صليبى يحركه الدين فى المقام الأول ؟ خاصة أنه الملك الوحيد من بين الذين شاركوا فى دعم الحركة الصليبية من بين ملوك أوربا من وصف بالقداسة ، ونجد له - على ذلك- مادة مستقلة فى الدراسات الخاصة بمعاجم القديسين؟[١].

فى تصورى ؛ أن ذلك الملك الفرنسى من التجنى على الموضوعية التاريخية الواجبه أن نتعامل معه مع الرؤية الجوانفيلية التى صيغت فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، والمنطق يدعونا إلى تصور البواعث الحقيقية المحركة لذلك الملك الفرنسى، وفى هذا النطاق نعرف أن لويس التاسع أراد تدعيم نفوذ أسرة آل كابيه الفرنسية فيما وراء البحر المتوسط، من خلال ارتباط الصليبية بفرنسا بصفة عامة- كما أسلفت الإشارة من قبل- وكانت لدى ذلك الملك رؤية اقتصادية لتكوين مستعمرات فرنسية جديدة فى النطاق البحر متوسطى، كذلك لانغفل رغبته فى زعامة أوربا للمشروع الصليبى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، ولانغفل زاوية أخرى على جانبها الكبير من الأهمية فى صورة رغبة ذلك الملك الداهية الذى اتشح بثياب الدين فى تكوين حلف مسيحى/ مغولى يسعى سعيًا حثيثًا إلى تطويق العالم الإسلامى والفتك به، ويقرر أحد المؤرخين ما نصه «الواقع أن فكرة الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع جاءت مواكبة لفكرة إقامة حلف مغولى/ صليبى ضد المسلمين»[٢]. وهذا الموقف يكشف لنا كيف أن ذلك الملك الفرنسى اتبع أسلوبًا جديدًا فى صنع التحالفات السياسية مع القوى الدولية حتى تلك الواقعة خارج النطاق الجغرافى الأوربى من أجل تطويق المسلمين، على نحو يكشف لنا مدى تنامى الحركة الصليبية ودخولها أطوارًا جديدة ، تعكس استعار العداء الأوربى تجاه الإسلام وأهله ، والتفكير فى أساليب جديدة للصراع خاصة بعد أن فشلت العديد من الحملات الصليبية فى تحقيق أهدافها، ولاريب فى أن ما أورده مؤرخ سيرته فى هذا الصدد خير دليل يدعم ذلك التصور [٣].

١- أنظر : Attwater , the Penguin dictoinary of Saints, p. 219-250 .

٢- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، ص١٥٧ .

٣- Jean de Joinville , The Life of Saint Louis, p. 197-198 .

وهكذا ، يتضح لنا بجلاء لايرتاب فيه مرتاب ؛ أن لويس التاسع حركته عدة دوافع مجتمعة كل منها له شأنه فى الصراع الإسلامى – الصليبى حينذاك ، أما اتجاه المؤرخين الأوربيين- ولاسيما الفرنسيين على نحو خاص- لإضفاء طابع المجد حول ذلك الملك الفرنسى على نحو خاص ففى تقديرى الهدف منه خلق نموذج للبطولة الأوربية فى المرحلة القروسطية لتعميق فكرة الصليبيات والتضحية من أجل المسيحية حتى فى عصرنا الحالى، وفى تقديرى أن «الجانب الدعائى» ساهم على نحو كبير فى جعل ذلك الملك وكأنه أسطورة أوربية، وقد بدأ ذلك الجانب منذ جان دى جوانفيل، وحتى الآن على الرغم من أن انجازاته فى عالمى الحرب والسياسية لاتضمن له البتة، ذلك المستوى الرفيع الذى صورته به أقلام الغرب الأوربى.

وهناك من رأى أن الملك لويس التاسع مما شجعه للقيام بتلك الحملة الصليبية ؛ امتلاكه لبعض الذخائر المقدسة مثل تاج الشوك ، وقطعه مما يعتقد المسيحيون أنه خشب الصلب، وقد حصل على تلك المقتنيات من الملك جان دى برين ، ومن بلدوين الثانى الامبراطور اللاتينى للقسطنطينية (١٢٣٧-١٢٦١م / ٦٣٥-٦٦٠هـ) ، وهناك من تصور أن بدايات أفكار ذلك الملك للاشتراك فى المشروع الصليبى ارتبط بحيازته تلك الآثار الدينية، ومع ذلك فمن المتصور أن ذلك يعد سببًا ثانويًا إلى جانب الأسباب الأكثر أهمية الأخرى، وقد أدرك المؤرخ السكندرى الكبير الراحل جوزيف نسيم يوسف ذلك المغزى بصورة وضاحة[١].

على أية حال ؛ خرج لويس التاسع من بلاده ، واتجه إلى جزيرة قبرص التى ظهر دورها كمركز إمداد وتموين للقوى الصليبيين المتجهة لغزو بلاد الشام ومصر، وهناك التقى بممثلى هيئتى الاسبتارية والداوية وغيرها من الهيئات الدينية الحربية الصليبية ، وتدارسوا معًا الدور الذى من الممكن القيام به، دعمًا للصليبيين فى صراعهم المرتقب ضد الأيوبيين[٢].

١- العدوان الصليبى على مصر ، هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٥٣ .

٢- King, The Knights Hospitallers, p. 242 .

محمد محمد أمين، الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٦٨م، ص١١٧ ، محمد العروسى المطوى، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص١١٨ .

مهما يكن من أمر ، فقد اتجه الملك الفرنسى إلى مصر، ويلاحظ أن قواته انقسمت إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول واشتمل على فرسان الداوية بقيادة مقدمهم وليم دى سيناك Wil-liam de Sennac، والفرقة الانجليزية وعلى رأسها وليم السالسبورى William of Salesbury وكذلك فرقة الخيالة الملكية الفرنسية، أما القسم الثانى فاحتوى على فرسان شمبانيا وعلى رأسهم شارل الانجوى Charles of Anjou وبالنسبة للقسم الثالث فقد وجد فيه الملك الفرنسى وفرسانه [١].

ومن الملاحظ أن الغزاه اتجهوا إلى مدينة دمياط التى سبق وأن اتجه إليها من قبل رجال الصليبية الخامسة، قاد فرسان الداوية الهجوم عليها [٢] سقطت دمياط على أيدى الغزاة[٣]، وعملوا على تدعيم وجودهم الحربى فيها ، وقد حقق الصليبيون بذلك نصراً مهمًا ، لكن لم يكن يعنى ذلك أنه نصر نهائى إذ أن وقائع التاريخ السابقة على أرض مصر أثبتت لنا تمامًا كيف أن الاستيلاء على دمياط لا يعد له قيمة فعاله مالم يتم تطوير الهجوم الصليبى جنوبًا صوب القاهرة .

ومن الملاحظ : أن الصالح نجم الدين أيوب : عمل على نقل مركز قيادته إلى المنصورة كى يباشر العمليات الحربية ضد الصليبيين على الرغم من اشتداد وطأة المرض عليه حينذاك، وخلال ذلك تم إرهاق الصليبيين بحرب العصابات المنهكة لهم[٤]، بالإضافة إلى قدوم العون الحربى من الشقيقة الجغرافية والتاريخية لمصر فى صورة بلاد الشام مثلما حدث فى شواهد تاريخية سابقة .

ولا مراء ؛ فى أن ذلك الحين مثل موقفًا عصيبًا لاينسى، فقد أدركت سهام المنيه الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ ، ومن ثم ظهور دور زوجه شجر الدر [٥]؛ التي عملت

١- Oman , A History of the art of war in the Middle Ages vol . I, p. 345 .

جوزيف نسيم يوسف ، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ط. القاهرة ب.ت ، ص٤٨- ص٤٩ ، حياة الحجى ، السياسة الصليبية للملك الفرنسى ، لويس التاسع ، ط. الكويت ١٩٨٣م، ص٥٥ .

٢- محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية ، ص٥١٢ .

٣- المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٥-ص٣٣٦ .

٤- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص١٥٧ .

٥- عن شجر الدر أنظر : =

على عدم إبلاغ الجنود بذلك الخبر حتى لاتنهار معنوياتهم، وعملت على الاسراع باستدعاء ابنه المعظم تورانشاه من بلاد الشام ليتولى مقاليد الأمور ويواجه الغزاه ، ويلاحظ هنا أن ذلك السلطان الراحل كان قد أكثر من شراء عناصر المماليك إلى درجة كبيرة ، وكان مركزهم فى جزيرة الروضة «ببحر النيل» ومن ذلك سمحوا بالمماليك البحرية، وهم الذين ساهموا بدور فعال فى مواجهة الصليبيين وظهر دور بارز لبيبرس البندقداري، الذى سيصل يومًا إلى عرش مصر تحت اسم الظاهر بيبرس وبالقرب من فارسكور جرت وقائع معركة طاحنه وذلك عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ [١]. اثبتت فيها مصر أنها بالفعل مقبرة الغزاه، وسيق الملك الفرنسى أسيراً ذليلاً إلى دار ابن لقمان بالمنصورة والتى لاتزال حتى اليوم شاهدة على الإذلال والهوان الفرنسى فى العصر الوسيط على أرض الكنانة، وتم الاتفاق على انسحاب الصليبيين، واطلاق سراح ملكهم مقابل فدية ماليه، وتردد الداوية فى مساعدة جان دى جوانڤيل على الحصول عليها لإطلاق سراح ملك فرنسا [٢]، وأخيراً ؛ وافق أولئك الفرسان الجشعين بعد ضغط منه، على نحو كشف لنا بجلاء كيف أن رنين الذهب خلب لب حتى الرهبان فى عصر الصليبيات .

= ابن واصل ، مفرج الكروب، ، جـ٥ ، تحقيق حسنين ربيع ، ط. بيروت ب.ت، ص٢٤٠ ، ابن تغرى بردى، ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٣٧٣ ، عائشة عبد العزيز محمد التهامى، «المنشآت المعمارية للسلطانة شجر الدر بمدينة القاهرة »، المؤرخ المصرى، العدد (١٨) ، يوليو ١٩٩٧م، ص٢٧- ص٧٧ ، سنيه قراعة، شجرة الدر ، ط. القاهرة ، ب.ت ، على إبراهيم حسن، نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب، ط. القاهرة، ١٩٨١م، ص١٠٧ .

١- عن تلك المعركة انظر :

محمد مؤنس عوض ، التنظيمات الدينية ، ص٥١٣ .

٢- عن ذلك انظر : Jean de Joinville , p. 259. King , The Knights of St. John, p. 29 .

Conder, The Latin kingdom of Jerusalem p. 355 .

جوزيف نسيم ، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ص١١٦ ، العدوان الصليبى على مصر، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م، ص٢٨٥ ، حسن حبشي، الشرق الأوسط بين شقى الرحى، ط. القاهرة ١٩٤٩م، ص١٠٩ ، محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص١٠٩ .

ولاريب فى أن هناك عدة نتائج نتجت عن هزيمة لويس التاسع عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ، وفشل الصليبية السابعة وتلك النتائج مرتبطة بالعديد من القوى التى دار بشأنها الصراع حينذاك.

والملاحظ أن فعاليات الدور الفرنسى فى دعم الصليبيات وفى التوجه إلى البعد الافريقى نالها الخسران المبين وعجزت فرنسا عن صنع واقع حربى وسياسى فى المنطقة على حساب الأيوبيين، وبذلك تأكد للدارسين كيف أن كافة المحاولات الصليبية لاخضاع مصر سواءً فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين لم تحقق أدنى نجاح ، ولاشك فى أن صورة أسرة آل كابيه الحاكمة فى فرنسا وسط الأسرات الأوربية الحاكمة قد اهتزت بعد الإخفاق الذى منى بذلك الملك الفرنسى .

ومن ناحية أخرى؛ اتضح بجلاء الدور البارز الذى قام به المماليك فى معركة فارسكور، وكيف أن جهادهم أعداء الإسلام كلل بالنجاح ، وفى حقيقة الأمر؛ أن ذلك الدور كان له أثره فى ارتفاع شأنهم ، وبذلك سيصبح لهم السند التاريخى فى الوصول إلى العرش، وليس غريبًا أن العام الذى شهد الانتصار على الغزاه وهو عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ، هو ذاته العام الذى شهد نهاية تورانشاه حريقًا غريقًا لتنتهى الدولة الأيوبية ، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك أو داوية الإسلام المدافعين عنه، ولانغفل زاوية مهمة ، وهى أن تلك الحملة أثبتت لنا دور المرأة المسلمة خلال ذلك الصراع العنيف بين المسلمين والصليبيين على أرض مصر، وتجلى ذلك فى دور شجر الدر التى حفظ لها التاريخ حكمتها فى أصعب المواقف التى مرت بالدولة الأيوبية حينذاك ، والجدير بالذكر هنا : أن المؤلفات التاريخية التى وصلت إلينا من ذلك العصر ندرت فيها الإشارة إلى المرأة المسلمة، ومع ذلك : من الممكن القول أنها كانت تعمل فى الجبهة الداخلية : التى هى أساس نجاح جبهات الصراع الحربى مع الصليبيين، ويلاحظ أن العصر الأيوبى شهد عدداً من الشخصيات النسائية البارزة، ومن أمثلتهن ست الشام[٢](ت١٢١٩م/ ٦١٦هـ) أخت صلاح الدين الأيوبى، التى أقامت عدداً من المنشآت الخاصة بالصوفية ، وكذلك

١- ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٧١ .

٢- عن ست الشام انظر :

أبوشامة ، الذيل على الروضتين ، ص١١٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٦٣ ، حاشية (١)، ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى، ص١٤٨، عمر رضا كحالة، أعلام النساء، ط. دمشق ١٩٤٠م،ص٥٦١ .

نذكر ضيفة خاتون[١] بنت العادل الأيوبى (ت١٢٤٢م / ٦٤٠هـ) التى عرف عنها رعايتها لهم، ولاتغفل أن ذلك العصر وجدت فيه النسوة اللاتى اغفلت أمرهن المصادر التاريخية وكن مجهولات غير أننا ندرك تمامًا مشاركتهن للرجال فى صنع تاريخ أمتهن .

على أية حال، ذلك شأن الصليبية السابعة التى قادها مخفقًا لويس التاسع ، على أية حال: من الضرورة بمكان -قبل مواصلة استعراض تطور المشروع الصليبى- أن تتعرض لبعض الأحداث التاريخية التى حلت بمنطقة الشرق الأدنى خاصة العراق، والشام ، ومصر، وتزامنت مع استقرار الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، وتمثلت فى خطر الاعصار القادم من الشرق فى صورة المغول، وزحفهم على الشرق الإسلامى.

فمن الملاحظ: أن القبائل المغولية الرعوية تمكنت بقيادة جنكيز خان من أن تتحد ومن بعد ذلك قادها للهجوم على الصين ، واستطاع بالفعل دخول بكين عام ١٢١٥م / ٦١٢هـ، ثم اصطدم المغول مع الخوارزمين خاصة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ، ومن بعد ابنه جلال الدين منكيرتى واستطاع المغول اقتحام مناطق الدولة الخوارزمية محدثين أكبر قدر من المذابح والتدمير [٢]، ثم اتجهوا إلى مناطق الاسماعيلية النزارية فى ايران، وبالفعل اسقطوا قلعة الموت الحصينة عام ١٢٥٦م / ٦٥٤هـ[٣] وهى التى استعصت على الكثيرين من قبلهم ،

١- عن ضيفة خاتون انظر : الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، تحقيق مديحه الشرقاوى ، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٨٢- ص٢٨٣ ، ابن العجمى، كنوز الذهب فى تاريخ حلب، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٣٨ تاريخ تيمور ، جـ١ ، ورقة (١١١)، الغزى، نهر الذهب فى تاريخ حلب، جـ٣ ، ط. حلب ١٣٤٥هـ، ص١١٦ ؛ Azhari, Dayfa Khatun, Ayyubid queen of Aleppe 634-640 AH/ 1236-1242 A.D., Cairo 1998. محمود الحويرى، العادل الأيوبى، ص١١٧- ص١١٨ ، عادل نجم ، «الرباط فى العمائر الأيوبية فى سوريا »، بحث فى الكتاب التذكارى للاحتفال الخمسينى للدراسات الآثارية، جامعة القاهرة ، ط. القاهرة ١٩٧٨م، ص٤٠ .

٢- عن العلاقات المغولية الخوارزمية انظر :

عطا ملك الجوينى، تاريخ جهانكشاى ، ت. محمد السعيد جمال الدين، ضمن كتاب دولة الاسماعيلية فى ايران ، ط. القاهرة ، ١٩٧٥م، ص٢٤٧- ص٢٤٨ ، حافظ حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول ، ط. القاهرة ١٩٤٩م، الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، ط. القاهرة ، ١٩٥٠م دراستان ممتازتان لاغنى للباحث عنهما بعد مرور الأعوام الطوال على صدورهما .

أيضًا : فلاديمير سينوف ، حياة جنكيز خان الادارية والسياسية والعسكرية ، ت. سعد بن حذيفه الغامدى، ط. الرياض ١٩٨٣م، ص١٧٧- ص١٩٠ .

٣- عن ذلك انظر: فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ط. بيروت ١٩٨٠م، ص٢٤٢-ص٢٤٣ .

الدور على الخلافة العباسية التى سقطت فريسة سهلة فى أيديهم وذلك عام ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ[1] فى عهد الخليفة المستعصم العباسى ، وتم تدمير بغداد التى كانت يومًا ما حاضرة الدنيا والقلب العباسى المزدهر بالتجارة والعلم والقوة السياسية ، وقد أحدث سقوط الخلافة العباسية دويًا هائلاً لدى المسلمين ، بالإضافة إلى المذابح المروعة التى وقعت فى بغداد ، وتدمير حصاد من التراث الإنسانى الذى فاضت بها مكتباتها العامرة.

ومن بعد تلك الأحداث الصاخبة : جاء الدور على بلاد الشام؛ وبالفعل تمكن المغول من الاستيلاء على حلب، ومن بعدها دمشق ، وتم إرسال التهديدات الوقحة من المغول ومثلهم هولاكو إلى المماليك فى مصر وعلى رأسهم سيف الدين قطز بضرورة الاستسلام لهم [2]، غير أنه رفض ذلك وقبل التحدى ، والتقى مع المغول فى فلسطين عند عين جالوت فى ٣ سبتمبر ١٢٦٠م / ١٥ رمضان ٦٥٨هـ[3]، وهناك جرت واحدة من أكبر المعارك الحاسمة فى مرحلة القرون الوسطى وكان النصر فيها للمسلمين وهزم القائد المملوكى كتبوغا ؛ وكأن فلسطين لها مع التاريخ موعد، فمن قبل حطين وقعت على ثراها الطاهر، والآن نتعرض لعين جالوت التى وقعت عليه أيضًا .

١- عن ذلك انظر : ابن الوردى، تتمة المختصر فى أخبار البشر، جـ٢ ، ط. النجف ١٩٦٩م، ص٢٧٩-ص٢٨٠ ، السيد الباز العرينى، المغول ، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٢١٦- ص٢٢٣ ، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ص٢٤٩- ص٢٨٦ .

٢- عن تلك الرسالة انظر :

المقريزى، السلوك ، جـ١ / ق٢، ص٤٢٧- ص٤٢٩ ، القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، جـ٨، ط. القاهرة ب.ت ، ص٦٣- ص٦٤ .

٣- عن معركة عين جالوت انظر :

القلقشندى، المصدر السابق، جـ٧ ، ص٣٦٠- ص٣٦٢ ، محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الإسلامى ، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٧٥ ، فؤاد عبد المعطى الصياد ، المرجع السابق ، ص٣٠٩- ص٣٢١ ، على السيد على ، «الاسهام العسكرى المصرى فى موقعة عين جالوت» ضمن كتاب أثر الإسلام فى مصر وأثر مصر فى الحضارة العربية الإسلامية، اشراف قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٣٦٥- ص٤١٧ .

Thorau", The Battle of Ayn Jalut: a Re- examination ", in Crusade and settement ed. by peter W. Edbury , Cyrdiff 1985, pp. 236-239 .

Morgan , " The Mongols in Syria , 1260-1300", in Crusade and Settement, pp. 231-235 .

ولانزاع فى أن معركة عين جالوت : تعد ذات نتائج متعددة على كافة الأصعدة والمستويات، فقد أوقفت حركة التوسع المغولى وجعلتها قاصرة على آسيا، ولم تتعداها إلى أفريقيا، كما أنها حمت الحضارة الإسلامية التى استقرت فى مصر بعد سقوط بغداد- حمتها من الإنهيار، ويضاف إلى كل ذلك؛ أن المماليك أثبتوا أنهم بالفعل داوية الإسلام المدافعين عنه وعن أرضه وشعوبه ، وبذلك اكتسبوا دعمًا شعبيًا كبيراً ، ومن زاوية أخرى، أدى القضاء على المغول على هذا النحو إلى القضاء بالتالى على أية احتمال فى تحالف مغولى- صليبى على أرض الشام ضد المسلمين، كما أن الأخيرين تفرغوا من بعد زوال خطر المغول إلى مواجهة الصليبيين[١]، فمن بعد الخطر المزدوج على أرض الشام صار المسلمون يواجهون خطراً قائمًا منفرداً ، وواقع الأحداث أكد ذلك : إذ أنه بعد ثمانية أعوام من عين جالوت كان السلطان الظاهر بيبرس يسقط المسلمون بقيادة إمارة انطاكية الصليبية عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ، وهو أمر سيتم تناوله مفصلاً فى الفصل التالى، وبصفة عامة : خرج المسلمون من محنة المغول أكثر قدرة على التحدى، على الرغم من الخسائر البشرية والعمرانية الهائلة وأكدت ذلك صفحات التاريخ ذاتها .ويضاف إلى ذلك ، أن معركة عين جالوت - كما يرى البعض- تفوق فى أهميتها بعض المعارك الحاسمة فى العصور الحديثة ، ذلك أنها لم تكن حربًا بين شعوب راقية متحضرة تحكمها القوانين ، والقواعد ، والأعراف ، بل أن أحد الطرفين المتصارعين فى صورة المغول كانوا شعبًا بربريًا ميالاً إلى سفك الدماء والتخريب والتدمير ، وهكذا - فعند أصحاب ذلك التوجه - تكون تلك المعركة قد تركت فى تاريخ الانسانية أثراً يفوق بعض المعارك فى الحربين العالميتين الأولى والثانية[٢].

على أية حال ؛ فإن الملك الفرنسى لويس التاسع الذى هزم فى مصر، راودته أحلام الفارس القديم، وتطلع إلى شن حملة صليبية جديدة غير أن هذه المرة لم يكن الهدف متمثلاً فى مصر، إذ أن الدرس الذى تلقاه بالقرب من فارسكور كان كافيًا ليدرك معه استحالة الاتجاه إليها من

١- هناك عرض قيم لنتائج معركة عين جالوت يجده القارىء لدى: فؤاد الصياد، المغول فى التاريخ ، ص٣١٤- ص٣٢٠ ، أيضًا : عبد الله سعيد الغامدى، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص١٢٦- ص١٣٥ . وأيضًا ، على السيد على، الاسهام العسكرى المصرى، ص٤٠٦- ص٤٠٩ .

٢- عبدالله سعيد الغامدى، المرجع السابق، ، ص١٣١ .

زاوية دمياط ، ولذلك فكر فى توجه مغاير ، يعد تصوراً جديداً على العقلية الصليبية خلال القرنين الثانى عشر، والثالث عشر الميلاديين/ السادس، والسابع الهجريين التى تفكر فى تجديد دماء أطماعها بصورة مستمرة ، وعلى هذا الأساس فكر فى توجيه حملة صليبية نحو تونس[1] بالشمال الأفريقى ومن هناك يتم قطع الصحراء الليبية وغزو مصر من الغرب، وقد خطط الصليبيون لتنفيذ ذلك الأمر على أرض الواقع وأدركوا الوقت والجهد المطلوبين لتحقيق ذلك عمليًا .

ومن المقرر ؛ أن هناك عدة عوامل حفزت ذلك الملك الفرنسى للإقدام على تلك الصليبية، فهناك قرب تونس من فرنسا، ثم أن وجود شقيقه شارل الانجوى Charles d'Anjou[2] فى صقلية مثل دعمًا حربيًا وسياسيًا بارزًا لذلك النشاط الصليبى المرتقب .

ومن المهم أن نبحث هنا عن الدوافع التى دفعت ذلك الملك الفرنسى للحملة على تونس ، وفى واقع الأمر إلى جانب التوجه العسكرى ، والسياسى الخاص بغزو مصر من الغرب لتكوين القاهرة مفتاح القدس بعد أن استردها المسلمون ، وهناك الرغبة القوية فى دعم الشرق اللاتينى خاصة بعد أن تمكن الظاهر بيبرس من الاستيلاء على أنطاكية عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ

١- عن حملة ذلك الملك الفرنسى على تونس بصفة عامة أنظر :

Jean de Joinville , The Life of Saint Louis, p. 346 .

ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٣٧٤؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٦ ، ط. القاهرة ب.ت ، ص٢٩٣ .

Strayer, "The Crusades of louis IX" in, Setton, A History of the Crusades, vol . II, 1969, pp. 515-516 .

Talbi, " Saint louis : voir Tunis et Mourir ", L'Histoire, T. XLVIII, Année 1982 , p. 38-41 .

Delaborde, " Ludwige des heiligen Kreuzzug nach Tunis, 1270, und die politik karles I von sizlien , von Richard Sterenfeld , Berlin 1896, p. R.O.L. T. IV, Année 1896 , p. 427 .

مصطفى الكنانى، حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ٦٦٨-٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م ط. الاسكندرية ١٩٨٥م، ص١٣٣- ص٢٧١ .

٢- عن شارل الأنجوى انظر هذه الدراسة الممتازة: محمود سعيد عمران، «شارل كونت الجو بين القسطنطينية وتونس والقدس (١٢٦٦-١٢٨٥م)» المؤرخ العربى العدد (٦) ، م(١) مارس ١٩٩٨م، ص١٦٩-ص١٩٦ .

وهو أمر يوضح لنا الارتباط الوثيق الدائم بين قضايا المطامع الصليبية فى شرق البحر المتوسط وفى غربه، ولاريب فى أن انهيار امارة انطاكية على ذلك النحو : حفز ذلك الملك للاقدام على صليبية لضرب مصر التى وقعت بامكاناتها وراء المماليك «داوية الإسلام» ، هناك أيضًا الدافع الاقتصادى، وتمثل فى رغبته فى سلب موارد تونس الاقتصادية ، وتكوين مثلث تجارى للسيطرة على حركة التجارة غرب البحر المتوسط فى صورة فرنسا- صقلية- تونس، حيث أن من شأن ذلك توفير الأموال الطائلة لميزانية التاج الفرنسى، وتدعيم نفوذ أسرة آل كابيه بالتالى ليس فى شرق البحر المتوسط فقط بل فى غربه أيضًا : على نحو كشف لنا عن أن البحر المتوسط اعتبر حينذك محط اطماع فرنسا الاقتصادية والسياسية وهو المجال الحيوى التقليدى للأطماع الفرنسية التى لاتحد فى القرون الوسطى والحديثة.

والأمر المؤكد : أن الدافع الاقتصادى التجارى كان قويًا فى حملة لويس التاسع على تونس، على نحو يجعل العامل الدينى يتضائل خاصة أن تونس لاصلة لها بالمحارم المسيحية المقدسة ، فهى بعيدة كل البعد عن فلسطين موطن تلك المحارم التى ارتبط بها تاريخ المسيحية الباكر، وفى هذا دليل وضاح على أن ذلك الملك السياسى المحنك والخبير بأمور الاستعمار «أى الاستخراب» الأوربى حينذاك، والذى وصف من قبل بأنه «قديس» : لم يفد إلى تونس إلا من خلال المال والسياسة ، لا من خلال التقوى والورع .

ومع ذلك : هناك من يرى أن من بين أهداف لويس التاسع فى الاتجاه صوب تونس التى حكمتها حينذاك الأسرة الحفصية، خاصة السلطان أبو عبدالله محمد المستنصر بالله الحفصى (١٢٤٩-١٢٧٧م / ٦٤٧-٦٧٥هـ) رغبته فى تنصير ذلك السلطان[1] الذى كان يحسن معاملة التجار الفرنسيين على اعتبار أن اقتصاد بلاده أفاد من تعاملاتهم التجارية معها. وقد أوحى المنصرون للملك الفرنسى إمكانية ذلك، وأن لديه رغبه صادقة فى التحول عن الإسلام إلى المسيحية، وأنه يخشى فقط ثورة رعاياه عليه فى حالة ارتداده، وعلى ذلك؛ صوروا له الأمر على أن من الممكن أن تدعم تلك الصليبية تنصير تلك القيادة المسلمة على نحو يكون له أثره فى تنصير التونسيين من بعد ذلك . ولاريب فى أن ذلك الدافع التنصيرى : خدم فى النهاية الدافع السياسى، والاقتصادى الذى من أجله قدم ذلك الملك الفرنسى إلى الأرض التونسية .

١- Duggan, The Story of The Crusades, p. 244 .

محمد العروسى المطوى ، السلطنة الحفصية ، تاريخها السياسى، ودورها فى الغرب الإسلامى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٢٠٤ ، روبير برونشفيك، تاريخ افريقيا فى العهد الحفصى من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م ، جـ١، ت. حمادى الساحلى، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٨٩ .

ويضاف إلى دوافع الصليبيين لغزو تونس : هناك رغبة شارل الانجوى فى إلقاء القبض على عدد من العصاه الذين تمردوا عليه ولجأوا إلى تونس بالإضافة إلى أنه رغب فى أن يؤدى له أهلها الجزية التى اعتادوا تقديمها إلى الهوهشتافن الألمان [١].

على أية حال؛ اتجه لويس التاسع إلى الاستعداد لحملته ، وبعد ثلاث سنوات من الاستعدادات القوية اتجه إلى تونس، وقد أبحر بحملته الصليبية التى وصفت بأنها ضخمة من ايجمورت ومعه أبناؤه الثلاثة ، وصهره ثيبولد ملك نافار Thibauld of Navarcs وابن أخيه روبرت كونت ارتوا Robert Count d'Artois وكونت بريتانى ، وكونت لامارش ، وولى عهد الفلاندرز ، ويلاحظ أنهم كانوا أبناء رفاقه فى حملته السابقة على مصر، وإلى جانبهم هناك كونت سانت بول Count St. Paul وكذلك كونت سواسون Syason [٢].

ومن زاوية أخرى : هناك من يقرر أن المستنصر الحفصى عمل على السعى السلمى من أجل ابعاد خطر تلك الحملة الصليبية عن بلاده ، وعندما أعيته السبل ، اتجه إلى الاستعداد للقاء الغزاه ،، وعمل على حشد القوات وامدادها بالسلاح، والمؤن، والامدادات كذلك اتجه إلى تخزين الحبوب [٣].

ويلاحظ أن ذلك الملك وقواته نزلوا بتونس فى مقابل قرطاجته فى ١٨ يوليو عام ١٢٧٠م/ ٦٦٩هـ [٤]، وبدلاً من أن يجد سلطانًا يعتنق المسيحية؛ إذا به يجد التونسيين يدافعون عن بلادهم دفاع الأبطال ، وعلى رأسهم سلطانهم الذى أبلى بلاءً حسنًا فى جهاد أعدائه، بل أن هناك أعمالاً توصف بأنها أعمال انتحارية فدائية وقعت هناك- فيقرر المؤرخ بريما Prima فى

١- أحمد رمضان ، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٠٢ .

٢- حياة الحجى، السياسة الصليبية للملك القديس لويس التاسع، ص١٠٦ .

٣- فايز نجيب اسكندر ، المقاومة الإسلامية فى مواجهة العدوان الصليبى على تونس سنة ٦٦٨-٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص١١- ص١٢ .

وعن سعى الحفصيين للمهادنة من قبل الصدام الحربى انظر : ابن أبى دينار ، المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس، ط. بيروت ١٩٩٣م، ص١٥٩ .

٤- حياة الحجى ، المرجع السابق ، ص١٠٦ .

حوليته أنه فى يوم ٢٧ يوليو من عام ١٢٧٠م / ٦ ذى الحجة عام ٦٦٨هـ، قدم ثلاثة من الفرسان المسلمين إلى ساقى الملك وأعلنوا له رغبتهم فى الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية ، وقد أبلغ الملك الفرنسى بذلك ، وأمر الأخير بتشديد الحراسة عليهم، وبعد قليل قدم فى ركابهم مائة من الفرسان المسلمين وأعلنوا نفس الرغبة للصليبيين حتى يأمنوا لهم كما ألقوا سلاحهم أمامهم، وخلال انهماك الصليبيين بالحديث مع المسلمين انقض بعض الفرسان من الأخيرين على الغزاه ، وحاربوهم ولاذ الصليبيون بالفرار من هول المفاجأة ، وعاد المسلمون إلى قواعدهم بعد أن فتكوا بستين فارسًا صليبيًا[١]، وفى هذا الدليل الوضاح من كتابات الأعداء على جهاد التونسيين خلال تلك المرحلة ، وهو أمر يعكس لنا أن «الجهاد» كان لغة قائمة بذاتها يتعامل بها المسلمون فى مشرقهم ومغربهم، قابلها الغزاه فى بلاد الشام ومصر والحجاز، والآن يقابلونها فى تونس .

وتوجد زاوية لها أهميتها هنا؛ وهى موقف مصر المملوكية من الأحداث الواقعة على تونس، وفى هذا الصدد، نجد أن المؤرخ ابن عبد الظاهر، يقرر حدوث صلات دبلوماسية بين الظاهر بيبرس من ناحية، والمستنصر الحفصى من ناحية أخرى. وفيها تعهد الطرف الأول بإرسال الامدادات من الجنود لنجدته ، كذلك أرسل إلى عناصر العربان فى برقة من أجل التقدم لمعاونة أشقائهم التونسيين من الخطر الصليبى المحدق بهم، كذلك سعى إلى حفر الآبار[٢] على مدى الطريق الذى سيسير فيه جنوده لضمان استمرار إمدادهم بالمياه اللازمة .

وذلك الوضع يعكس لنا دلالة مؤثرة ، فى صورة أن الخطر الصليبى الداهم قد جعل القيادة المملوكية تقدم يد المعاونة للتونسيين، وقد أدركت تلك القيادة وجود مخاوف حقيقية من غز مصر وفلسطين ، وكجزء من نظريته الدفاعية اتجه بيبرس إلى تدمير بعض التحصينات كتلك التى فى عسقلان[٣] ؛ حتى لاتقع فى قبضة الصليبيين.

١- Prima, Chronique de Prima , Traduit par Jean du Vignay , Recueil des Historiens des Gaules et de France, paris, 1894 , T. XXIII, ch . XXXII, pp. 48-49 .

نقلاً عن : فايز نجيب اسكندر ، المقاومة الإسلامية ص١٦ .

٢- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص٣٧٤ .

٣- Stevenson , The Crusaders in The east, Beirut 1968 , p. 343 .

على أية حال : حدث تطور فعال فى سياق الأحداث خلال حملة ذلك الملك الفرنسى العجوز، فقد انتشر مرض وبائى فى جيشه وأصيب العديدون وساعدت الظروف الجوية لاسيما الحر الشديد خلال شهر أغسطس على انتشار حدة الاصابة ، بل أن الملك المذكور أصيب بذات المرض ومات يوم الاثنين ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٦ محرم ٦٦٩هـ[١]، وكان ذلك يعنى أن حملة الصليبية أصيبت فى الصميم، ومن بعد ذلك المصير، قدم شارل الأنجوى إلى تونس ليواصل محاولته بعث الروح فى تلك الصليبية المخفقه .

ويلاحظ هنا: أن الرغبة فى السلام فرضها الواقع الحربى والسياسى لدى الطرفين، فبالنسبة للتونسيين ، على الرغم من المقاومة الباسلة التى أظهروها وحفظها لهم التاريخ بجدارة ، إلا أن استمرار الصراع الحربى مع الصليبيين على هذا النحو : خاصة بعد مقدم شارل الانجوى الذى بذل أقصى ما لديه من أجل انقاذ ما تبقى لشرف العسكرية الفرنسية بعد أن اغتيلت من قبل فى مصر، والآن يتأكد ذلك فى تونس، كان يمثل ضغطًا عسكريًا لايستهان به ، وفى ذلك الوقت كانت رجال القبائل الرحل يرغبون فى التوجه نحو المراعى الجنوبية ، ناهيك عن تفشى المرض فى بعض صفوف المسلمين[٢] ولذلك كان من المنطقى تصور قبول حل سلمى مع الغزاه انقاذاً لاقتصاديات البلاد وحقنًا للدماء طالما أن الأخيرين فضلوا الإنسحاب بعد موت ملكهم، والمقاومة الكبيرة التى أبداها التونسيون [٣].

١- عن وفاة لويس التاسع انظر :

Jaen de Joinville , p. 350 .

Strayer, The Crusades, of louis IX , p. 516 .

محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى الشرق والغرب ، ص١٣٨ .

زاهر رياض، شمال أفريقيا فى العصور الوسطى ط. القاهرة ١٩٨١م، ص١٥٣ .

مصطفى الكنانى ، حملة لويس التاسع الصليبية ، ص٢٤٢ .

ويلاحظ أنه أورد الأمراض التى انتشرت بين الصليبيين على أنها إسهال معوى ودوسنتاريا اميبيه حادة وحمى رباعيه .

٢- روبير برونشفيك، تاريخ افريقية فى العهد الحفصى، ص٩٣ .

٣- ويلاحظ أن المستشرق الفرنسى روبير برونشفيك يحاول الايهام بأن عمليات الحفصيين العسكرية =

أما بالنسبة للفرنسيين : فالملاحظ أن شارل الأنجوى صار موقفه قلقًا فى أعقاب وفاة لويس التاسع . وأراد إنقاذ تلك الحملة المشئومة ، ورأى أن الحل السلمى لصالحه طالما أنه لايحارب على أرضه، بل أرض معادية، خاصة أن الفاقد البشرى فى قواته قد تزايد وهكذا، ثم الاتفاق بين الجانبين ووضعت الحرب أوزارها .

وقد تم الاتفاق على التصالح بين الطرفين، واطلاق سراح الأسرى، وعدم ايواء خصوم كل طرف، وتوفير الأمن للمسافرين، وكذلك التجار، وحق الرهبان والقسيسين فى اقامة الكنائس على أرض الحفصيين وتعهد السلطان الحفصى بأن يدفع للصليبية مبلغًا ماليًا قدره مائتين وعشرة آلاف أوقيه ذهب[١].

ومن الملاحظ أن عدداً من المؤرخين الغربيين لاسيما الفرنسيين عملوا على إبراز أثر حر شمال أفريقيا الشديد وانتشار الوباء فى صفوف الجيش الفرنسى ، أثر ذلك على الحاق الهزيمة بالفرنسيين على الرغم من أن ذلك من العوامل المناخية المساعدة ، والعامل الرئيسى هو المقاومة الباسلة التى أظهرها التونسيون ، وليس معنى ذلك بالطبع عدم تقدير الأوضاع الصحية وأثرها على مصير تلك الصليبية، غير أن اجحاف دور ظاهرة الجهاد الإسلامى حينذاك هذا مالايقبل .

ونصل الآن إلى تقدير الأسباب التى أدت إلى إخفاق تلك الحملة الصليبية الثامنة ، وفى هذا المجال يلاحظ أن الملك الفرنسى لويس التاسع لم يكن من الناحية العمرية بإمكانه قيادة تلك الحملة بكفاءة عسكريًا ملائمة ولذلك فلاعجب إذا أظهر جان دى جوانفيل مؤرخ سيرته النصح له بعدم القيام بها دون جدوى[٢]، كذلك هناك مقاومة التونسيين لغزو بلادهم وهو أمر أقرته الحوليات الصليبية ذاتها، ثم لانغفل التقدير الخاطىء من جانب المنصرين الفرنسيين الذين توهموا أن السلطان الحفصى سيرتد عن الإسلام، ويعتنق المسيحية وهو ما لم يحدث

= كانت فاشلة ولذلك دخلوا فى الاتجاه السلمى، وفى رأيى أن ذلك القول لايستند إلى الواقع التاريخى من خلال اعتراف الحوليات الصليبية ذاتها ، انظر اشارته، ص٩٣ .

١- عن الاتفاق انظر نصه فى ملاحق مصطفى الكتانى، الحملة الصليبية الثامنة ، ص٢٨٧- ص٢٩٧ . أيضًا بيير برونشفيك ، تاريخ أفريقيا فى العهد الحفصى ، ص٩٣ .

٢- Jean de Joinville, p. 346 .

وهكذا ؛ كانت كل الدلائل تشير إلى أن تلك الحملة الصليبية ولدت فاشلة ولم يكن ليحالفها النجاح نظراً لكافة الاعتبارات السابقة.

والآن نصل إلى زاوية مهمة ؛ وهى أوجه المقارنة بين الصليبتين السابعة ، والثامنة ، وفى هذا الصدد نجد أن هناك عوامل للاتفاق ، وكذلك عوامل للافتراق والاختلاف، ومن الممكن دراستها من أجل تعميق الرؤية التاريخية لتلك المرحلة من عصر الصليبيات .

فبالنسبة لعوامل الاتفاق ، من الملاحظ أن كلاً من الحملتين يعد قسماً من تاريخ الصليبيات بصفة عامة والتجزئة إلى أرقام ليست إلا لتسهيل الدراسة الاكاديمية بينما الواقع التاريخى ذاته لم يشهد ذلك التجزؤ. كما أن كلاً منهما وقع فى شمالى أفريقيا سواءً فى مصر أو تونس مما عكس البعد الأفريقى المتزايد للسياسة الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، كذلك لانغفل أن القائد لكل منهما تمثل فى الملك الفرنسى لويس التاسع وهى حالة نادرة فى تاريخ الحروب الصليبية فى الشرق، ثم أن الصليبيين فيهما جوبهوا بمعارك الجهاد الإسلامى ضد الغزاة، ثم لانغفل أيضاً أن الفشل كان المصير المشترك لكل منهما.

أما عوامل الافتراق والاختلاف : فيلاحظ أنها قليلة إذ ما قورنت بعوامل الاتفاق السابقة، وفى هذا المجال نجد أن العمليات العسكرية فى الحملة السابقة اتسمت بالضخامة واتساع النطاق وتزايد الاعداد من المقاتلين المشاركين فيها من خلال القوات الصليبية والمصرية ومن عاونها من القوات الشامية ، ولانغفل أن من عوامل الاختلاف بين الحملتين أن من مستشارى لويس التاسع من أيدوه فى صليبيته على مصر غير أنهم عارضوه فى حملته على تونس[1] نظراً لتقدمه فى السن فى الأخيرة.

ومن المهم أن نتناول الآن النتائج التى نتجت عن تلك الحملة الصليبية؛ إذ أنها تعكس لنا التطورات التى لحقت بالمشروع الصليبى خلال المرحلة التاريخية التالية.

فمن الملاحظ؛ أن من خلال تلك الحملة الصليبية؛ اتسع النطاق الجغرافى لحركة الجهاد الإسلامى ضد الغزو الصليبى، وخرج من النطاق الأساسى والأصلى المتمثل فى بلاد الشام

١- خير مثال دال على ذلك موقف جان دى جوانفيل الذى أقر صراحة بمعارضة ذلك الملك الفرنسى، انظر:

Jean de Joinville, p. 346 .

ومصر، وامتد الآن إلى تونس ، وذلك عكس لنا أن القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى شهد تزايد الاتجاه الافريقى لدى الصليبيين حيث كانت أرض الكنانة فى قلب اهتماماتهم ، غير أنها أثبتت فى أكثر من مرة أنها مقبرة الغزاه ، وفى الحملة الصليبية على تونس أخفقت محاولات الصليبيين لغزو مصر انطلاقًا من تونس الشقيقة وعكس ذلك أن الالحاح الصليبى باء بالفشل المبين .

من ناحية أخرى: باءت بالخسران المبين آخر الحملات الصليبية الكبيرة التى قادها أحد ملوك أوربا فى ذلك العصر ، على نحو أكد ما حل بالصليبيات منذ القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، وهو أن وجود كبار الملوك على رأس تلك الصليبيات ، لم يكن يضمن لها النجاح الحربى والسياسى وقد ظهر ذلك أول ما ظهر خلال أحداث الصليبية الثانية.

ومن زاوية أخرى: من الملاحظ أنه من الآن فصاعداً : صار الشمال الافريقى أكثر من أى وقت مضى محور اهتمام القوى الصليبية، وفى هذا المجال: نجد أن المنصر البارز رايموند لول Raymund Lule (١٤ م / ٨هـ) اتجه إلى طرح فكرة القيام بحرب صليبية تأتى من أسبانيا إلى الشمال الأفريقى وتتجه إلى مهاجمة مصر والشام[١]. من الممكن القول بأن حملة لويس التاسع على تونس : تعد بمثابة البدايات المبكرة للاهتمام الفرنسى بالشمال الافريقى فى المرحلة القروسطية ، وهو اهتمام سيتزاد إلى أن يقدر لتلك المنطقة ذات الموقع الاستراتيجى المتميز فى غرب البحر المتوسط، وفى مواجهة الغرب الأوربى، أن تنكب بالاستعمار الفرنسى فى العصر الحديث، وهو استعمار من نوع خاص من خلال اتجاهه إلى ضرب الهوية العقائدية واللغوية للسكان الذين خضعوا له [٢]، ومن ثم كانت محاربته للإسلام واللغة العربية ومحاولة فرنسة تلك المنطقة ، وذلك كله يكشف لنا أن البدايات كانت من قبل فى حملة ذلك الملك الفرنسى ،

١- أحمد رمضان ، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٠٣ وعن ذلك المنصر أنظر :

Zwemer, Raymond Lull, First Missionary to the Moslems, London 1902 .

على العواجى، جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشور ، كلية اللغة العربية- جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، ص٩٠- ص٩١ .

٢- فى حقيقة الأمر، وكواقع تاريخى حديث سقط فى حرب التحرير الجزائرية مليون ونصف مليون جزائرى، وقد اكتشف الجزائريون مقابر جماعية لمئات القتلى الذين سقطوا على أيدى جنود فرنسا، ومما يدعو للسخرية أن يتشدق البعض بدور حضارى لفرنسا فى العصر الحديث فى علاقتها مع الدول العربية دون الأخذ فى الاعتبار تلك المآسى الانسانية المريرة.

ولذا من الممكن اعتبار عام ١٢٧٠م/ ٦٦٩هـ: عامًا فارقًا في بداية تاريخ الاهتمام الاستعماري الفرنسي بذلك الإقليم على نحو خاص .

ومن زاوية أخرى: من الملاحظ أن تلك الحملة نتج عنها فشل محاولة تطوير التنصير على نحو يتجه إلى قيادة مسلمة حتى يمكن من بعد ذلك تنصير رعيتها دون عناء ، ومن الأفضل لنا هنا إلقاء الضوء على تطور المشروع التنصيري نظراً لفائدته في دراسة تلك الحملة ونتائجها على نحو خاص .

والجدير بالذكر في هذا الصدد: أن المشروع الصليبي في توجهه نحو التنصير اعتمد على «أساس علمي» ، وخير دليل على ذلك أن القرن الأول في تاريخ حركة الاستعمار الأوربي في الشرق ، شهد قيام أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم ، من أجل معرفة الأساس العقائدي الذي قام عليه الإسلام، وقد تم ذلك في أسبانيا ، على نحو عكس وحدة المشروع الصليبي وتوجهاته في غرب البحر المتوسط وكذلك شرقه، وقد حدثت تلك الترجمة عام ١١٤٣م / ٥٣٨هـ، بناء على تكليف من جانب بطرس الموقر Peter The Venerable [١] رئيس ديركلوني Cluny الذي توفي عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ، قام ذلك الرجل برحلة إلى أسبانيا فيما بين عامي ١١٤١-١١٤٣م / ٥٣٦-٥٣٨هـ ، شكل لجنة بمساعدة من يدعى ريموند التطيلي Raymond of Tudela ، وقد انجز تلك الترجمة العالم الإنجليزي روبرت الراتيني Robert of Ratina الذي شغل منصب كبير الشمامسة في مدينة بمبلونا بمساعدة راهب ألماني يدعى هرمان Herman، وآخر يدعى بطرس التطيلي Peter of Tudela ، وهناك تصور بأن الأخير قام بدور بارز في مجال ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية [٢]، عام ١١٤٣م / ٥٣٨هـ، وبعد اكتمالها تم

١- عن بطرس الموقر، انظر :

Leclerg, Pierre le Venerable, Abbaye St. Wandrille 1946 .

Kritzeck , Peter The Venerable and Islam , Princeton 1964 .

Southern , Western Views of Islam p. 38 .

السيد أحمد أبو الفضل ، «انتشار ترجمات معاني القرآن الكريم في مشرق العالم ومغربه»، مجلة البحوث الإسلامية العدد (٣٠)، ربيع الأول- ربيع الثاني- جمادى الأول، ط. الرياض ١٤١١هـ، ص٢٥٩، محمد عبد الحميد زقزوق، «الرسالة المحمدية في المؤلفات الغربية»، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة ، جامعة قطر، العدد (٤) الدوحة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٧٩ .

٢- وعن ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية انظر :

D'Alverny , "Deur Traductions latines du Coran au Moyen Age", Arshives d'Histoire doctrinale et Literaire du Moyen Age, T. XXII- XXIII, Année 1947 , 1948 , pp. 69-131 .

إرسالها إلى رئيس ديركلونى برندوس الذى وضعها تحت تصرف كل من يريدها من القائمين على أعمال التنصير[١].

على أية حال ؛ فإن تلك الترجمة للقرآن الكريم تعد أقرب إلى التلخيص المتعجل منها إلى الترجمة، ولاتلتزم بالنص من ناحية الدقة والحرفية، ولاتلتزم كذلك بترتيب الجمل فى الأصل القرآنى[١]، بالإضافة إلى وجود أخطاء جزئية فى فهم بعض الآيات، وخطورة الترجمة المذكورة تكمن فى أنها عدت الأساس الذى قامت عليه الترجمات الأخرى إلى اللغات الأوربية الحديثة مما عكس أهميتها الخاصة[٢].

وبصفة عامة ؛ دلت تلك الترجمة على أن الغرب الأوربى الذى أخرج حركة الصليبيات ؛ يخطط بدقة من أجل محاربة الإسلام فى عقر داره خاصة بعد أن تمت ترجمة القرآن الكريم- على الرغم ما فيها من مسالب عدة- إلى اللغة اللاتينية ، وكما لاحظنا من قبل ، فإن الصليبية الخامسة- شهدت تنصير الأطفال المسلمين فى مصر وبلغوا نحو أربعمائة ، ثم خلال تلك الأحداث قدم فرنسيس الأسيس Francis d'Assisses داعيًا الكامل الأيوبى إلى النصرانية[٣]، وذلك فى عام ١٢١٥م / ٦١٦هـ، فاستمع إلى مقولته ، ولم يعره اهتمامًا ، مما عكس أن المنصرين طمعوا فى تنصير قيادات مسلمة حتى من قبل عهد لويس التاسع ، والآن فى تونس؛ وقعت محاولة تنصير المستنصر الحفصى التى باءت بالفشل ، على الرغم من أن جماعات المنصرين سارت جنبًا إلى جنب بجوار جيوش الصليبيين .

١- السيد أحمد أبو الفضل، انتشار ترجمات معانى القرآن الكريم، ص٢٥٩ .

٢- محمد عبد الحميد زقزوق ، الرسالة المحمدية فى المؤلفات الغربية ، ص٧٩ ، حاشية (١) .

من ذلك ؛ الترجمة الايطالية التى قام بها اريفابينى Arrivabene عام ١٥٤٧م، وعن هذه الترجمة الإيطالية قامت الترجمة الألمانية التى قام بها سالومون شفايجر Schweigger عام ١٦١٦ م، وعلى أساس الترجمة الألمانية قامت الترجمة الهولندية عام ١٦٤١م.

٣- عن ذلك انظر : Van Cleve , The Fifth Crusade, p. 415-416 .

محمود سعيد عمران، حملة لويس التاسع على مصر ، ص٥٠ ، على عوده الغامدى، الراهب الفرنسى ريموند لول، ص١٣٩- ص١٤٠ .

وواقع الأمر : أنه فى الوقت الذى كانت تجرى فيه رحى المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين ، كان هناك معارك أخرى بين الطرفين فى صورة «السجال الدينى» ، والردود المتبادلة، ومحاولة كل طرف إثبات أفضلية معتقده الدينى، ولذا تعتبر هذه المرحلة من أخصب ما وصلنا من انتاج خاص «بالرد على النصارى» من جانب المسلمين، خاصة فى الاندلس، ومصر، وبلاد الشام، وفى تقديرى أن الذى فجر تلك الموجة التأليفية لدى المسلمين ما شعروا به من تعصب كبير أظهره الصليبيون ضد كل ما هو غير مسيحى ومن ثم التف المسلمون حول الهوية الدينية الإسلامية واهتموا بذلك النوع التأليفى الذى يندرج تحت مسمى «مقارنة الأديان» حقيقة أن ذلك التوجه قديم، ونجد صدى له فى رسالة الجاحظ (ق ٨م / ٢هـ) بعنوان «الرد على أهل الذمة» إلا أن عصر الصليبيات بالأخطار المحدقة التى وجدها المسلمون خلاله دعمت أمر التأليف فى المجال المذكور ، وفى هذا الصدد نذكر إسهام ابن تيمية (ت ١٣٢٩م / ٧٢٨هـ) وقد عاصر قسمًا من عصر الحروب الصليبية فى كتابه الشهير شفاء الغليل ، وهكذا فإن ذلك الاتجاه جاء ردًا تأليفيًا من كبار الفقهاء على محاولات التنصير التى تعرضت لها المنطقة ، وكذلك محاربة الإسلام عمومًا فى عقر داره .

مهما يكن من أمر؛ فإن الصليبية الثامنة قادها الملك الفرنسى لويس التاسع، وهو الوحيد من بين ملوك الغرب الأوربى الذى قاد حملتين صليبتين على مصر وتونس على الرغم من أن الفارق الزمنى بينهما بلغ عقدين من الزمان مما عكس اصراره الصليبى ، وبلغ فى الأخيرة من الكبر عتيًا ، ثم أنه الوحيد - على ما أعلم- من الملوك الأوربيين المشاركين فى الصليبيات الذى صار قديسًا Saint، وعلى الرغم من مجهوداته إلا أن الاخفاق حالفه فى الحملتين !، وعلى أية حال ، فإنه أكد - أكثر من ذى قبل- أن تاريخ فرنسا فى القرون الوسطى لاسيما مرحلة الصليبيات موزع بين شرق البحر المتوسط وغربه بصورة وضاحة .

على أية حال؛ يرى أحد المؤرخين ، ما نصه «اتجهت حملة ملك فرنسا إلى تونس ، وانتهت بموته وبموت الروح الصليبية الأوربية معه» (١)، غير أننا مع تقديرنا لوجهة النظر تلك، إلا أننا من الممكن الاختلاف معها؛ إذ أن الروح الصليبية الأوربية لم تمت بعام ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ،

١- حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ١١٧١-١٢٦٨م / ٥٦٧-٦٦٦هـ، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م، ص٤٧٩ .

وهو العام الذى توفى فيه ذلك الملك الفرنسى، بل أنها استمرت بدليل استمرار الحركة الصليبية فيما بعد، وحتى بعد خروج الصليبيين من بلاد الشام عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ، وظل الغرب الأوربى يعلق الآمال على ذلك الكيان الذى زرع على أرض بلاد الشام، وقد تكون الروح الصليبية ضعفت فى أوربا بسبب التطورات السياسية هناك، غير أنها أبداً لم تمت ، بل استمرت ، ولذلك وجدنا أن هناك صليبيات فى العصور الوسطى المتأخرة ، ويكفى أن نطامع الدراسة الوافية التى مرت عليها عشرات السنوات ولاتزال لها أهميتها الخاصة فى صورة ما ألفه عزيز سوريال عطيه عن الحرب الصليبية فى العصور الوسطى المتأخرة[١]، على نحو عكس لنا أن الروح الصليبية الأوربية قد وهنت أحيانًا ، إلا أنها كانت تعود إلى القوة مرة أخرى لتشن هجماتها على أملاك المسلمين .

ذلك عرض لصليبيات الملك الفرنسى لويس التاسع ، أما الفصل التالى؛ أنه اختص بتناول المماليك داوية الإسلام وجهادهم ضد الصليبيين فى بلاد الشام حتى طردهم منها.

١- A Tiya, The Crusade in The later Middle Ages, London 1938 .

وأنظر أيضًا هذه الأطروحة المهمة :

حسين السيد النحال ، الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى ضد مصر وتونس من سنة ١٣٦٥م إلى سنة ١٤٠٧ م، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام١٩٩١م خاصة من ص٨٦ إلى ص٢٥٦ .

وهناك دليل وضاح آخر فى صورة حملة الأمير ادوارد التى قام بها عام ١٢٧١م / ٦٦٩هـ ، وخلالها عقد هدنة لمدة عشر أعوام مع الظاهر بيبرس ١٢٧٢م/ ٦٧٠هـ ثم غادر بلاد الشام بعد أن عجز عن تحقيق مكاسب كبيرة للصليبيين هناك. عن حملته انظر : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٤٠١ .

Ruhricht, Ala Croisade de prince Edward d'Angleterre (1270-1274)" , A. O.L., T. Année 1881 . pp. 617-632 .

مصطفى الكنانى، حملة لويس التاسع، ص٢٦١ حاشية (٥٣) .

الفصل الثانى عشر

المماليك داوية الإسلام والصليبيون

١٢٦٦-١٢٩١م / ٦٦٤-٦٩٠هـ

يتناول هذا الفصل بالدراسة المماليك أو داوية الإسلام من حيث نشأتهم وتطورهم ، والدور الذى قاموا به فى مواجهة الوجود الصليبى فى بلاد الشام خاصة خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى ، ولاريب فى أن تلك المرحلة تعد مرحلة بالغة الأهمية بالنسبة للوجود الصليبى هناك ، وكذلك بالنسبة للإسهام التاريخى للمماليك أنفسهم.

والواقع أن المماليك : هم الرقيق الذين جلبوا من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز ، والقفجاق، وآسيا الصغرى، وفارس ، وتركستان ، وبلاد ما وراء النهر، وبالتالى مثلوا خليطًا من الأتراك ، والجراكسة ، والروم ، والروس، والأكراد بالإضافة إلى أقلية قدموا من الدول الأوروبية[١]، وقد تدفق الوافدون من تلك المناطق ومعهم النخاسون على بلاد الشرق ، خاصة مع ذيوع الأخبار عن ثراء بعض القوى السياسية ورغبتها فى اقتناء مثل تلك العناصر ؛ خاصة من أظهر موهبة حربية متميزة[٢].

والجدير بالذكر ؛ أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب عمل على تكوين فرقة جديدة من المماليك فى صورة المماليك البحرية [٣]، وترجع تلك التسمية إلى اختيار الصالح جزيرة الروضة فى بحر النيل كمركز لهم، وربما كان من دوافعه إلى ذلك أنه لمس غدر عدد من الطوائف الأخرى من الجنود المرتزقة ، ومن الملاحظ أن معظم أولئك المماليك كانوا من الأتراك القفجاق ، وقد تم جلبهم من بلاد القفجاق الواقعة شمالى البحر الأسود Black Sea وكذلك من بلاد القوقاز قرب بحر قزوين Caspian Sea ، امتازوا عن غيرهم من الأتراك بجمال الصورة

١- إبراهيم حسن سعيد، الجيش فى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧٣م، ص١٢ .

٢- نفسه ، نفس المرجع ، ص١٢- ص١٣ .

٣- السيد الباز العرينى، المماليك، ط. بيروت ب.ت ، ص٥٥ .

وقوة الشكيمة، وشدة البأس فى ساحات الوغى[١]، ويلاحظ أن المماليك وصلوا إلى السلطة فى مصر فى أعقاب مقتل آخر سلاطين الأيوبيين وهو المعظم تورانشاه عام ١٢٥٠م / ٤٤٨هـ، ومن بعده تولى الحكم شجر الدر التى وصفت بأنها «أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك»[٢]، وبعد أن حكمت مصر ثمانين يومًا واتجهت إلى الزواج من أتابك العسكر عز الدين أيبك عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ، من بعد ذلك تخلت عن السلطة له، وفيما بعد فتك كل منهما بالآخر، وفتكت شجر الدر بأيبك وقتلها من بعد ذلك مماليكه[٣] انتقامًا لسيدهم ومن بعد تلك الأحداث ، تولى السلطة فى مصر على بن أيبك ، وتلقب بالمنصور ، وحيث أنه كان فى الخامسة عشر من عمره فقد اختير أحد الأمراء كأتابك له فى صورة سيف الدين قطز ، ويلاحظ أن الأخير أمام تعاظم الخطر المغولى، تخلص منه وأبعده عن السلطة بعد أن حكم عامين، وثمانية أشهر ، وثلاثة أيام[٤].

مهما يكن من مر : فقد قام سيف الدين قطز بدور بارز فى تاريخ المنطقة عندما قاد صد المماليك لخطر لمغول فى معركة عين جالوت - السالفة الذكر- عام ١٢٦٠م/ ٦٥٩هـ، ولى أعقابها ، فتك به بيبرس البندقدارى[٥] الذى كان أحد القادة العسكريين الكبار وخشى منه الغدر بعد الانتهاء من مواجهة الخطر المغولى ، وهكذا انتهت حياة رجل عظيم من قادة الجهاد الإسلامى ليس ضد الصليبيين بل ضد المغول ، وبذلك شارك السابقين مصيرهم الدموى من أمثال شرف الدين مودود، وأق سنقر، وعماد الدين زنكى، وغيرهم، ومن المؤلم حقًا أن ذلك المصير تأتى إليه من جانب رفيق سلاحه وصديقه بيبرس البندقدارى ، الذى تولى من بعد ذلك السلطنة ، وتلقب بالظاهر بيبرس .

١- سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص١٧١ .

٢- المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٣٦١ .

٣- عن ذلك انظر : ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص٣٧٦ - ص٣٧٧ .

٤- سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص١٨٢ .

٥- عن مقتل قطز انظر : المقريزى، المصدر السابق ، جـ١ / ق٢ ص٤٣٥ ، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص٢١٠ ، ابن كثير، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٢٢- ص٢٢٣ ، ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٨٣- ص٨٤ . عبد العزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس، ط. الرياض ١٩٨٩، ص٣٦- ص٣٧ .

ويلاحظ أننا نعرف عن التاريخ المبكر لبيبرس أن قبيلته كانت تقيم فى أراضى القبجاق حوالى عام ١٢٢٧م / ٦٢٥هـ عندما قام المغول بأول هجوم لهم على تلك المنطقة ، وأمام خشية تلك القبائل من هجوم آخر للغزاه لجأت إلى أنس خان حاكم الأولاق أو البرغال، ومن المقرر أنه فى عام ١٢٤٢م / ٦٤٠هـ عبرت نهر السوداق، وفيما بعد هاجمهم أنس خان على نحو غادر ، فقتل من قتل، وسبى من سبى ، ومن بين السبايا كان بيبرس وعمره حينذاك لم يتجاوز الرابعة عشر[1]. وبيع من بعد ذلك فى أسواق النخاسة حتى اشتراه الصالح نجم الدين أيوب الذى توسم فيه المهارة الحربية والقدرة على القيادة وبالتالى: احتل مكانة سامية بين عناصر المماليك البحرية، ومن المعروف بيبرس قام بدور بارز خلال المعارك التى نشبت ضد الصليبيين خلال أحداث الصليبية السابقه بقيادة الملك لويس التاسع، ومن بعد ذلك ضد المغول خلال معركة عين جالوت ، على نحو ما أسلفت ذكره من قبل.

والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس تولى السلطة فى مصر خلال المرحلة من (١٢٦٠-١٢٧٧م / ٦٥٩-٦٧٦هـ) ويعد بيبرس وبحق المشيد التأسيسى الفعلى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، ونجد أنه عمل على القيام بدور تاريخى بارز فى زاويتين مهمتين لدراستنا فى صورة احياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن سقطت على أيدى المغول فى بغداد عام ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ، ثم مقاومة الوجود الصليبى فى بلاد الشام.

وفى المجال الأول: نعرف أن المماليك كانوا دائمًا يعانون من مشكلة مؤرقة فى صورة ضعف أصولهم ، وعدم استنادهم إلى أصل نبيل، ولذلك عملوا على الانخراط فى أمر الجهاد الإسلامى من أجل أن تكون لهم المكانة العليا ، على نحو يعوض ما فقدوه من أصول عريقة، وفى هذا المجال قاموا بدور تاريخى بارز ، غير أنهم عملوا على اعادة الخلافة العباسية واحيائها بالقاهرة من أجل أن تكسبهم الشرعية السياسية ، وفى هذا المجال ، نعرف أنه- بعد العديد من الأحداث التاريخية التى لامجال هنا لتفضيلها - استدعى بيبرس أميراً من بنى العباس فى صورة أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسى، غير أنه تخلص منه فيما بعد خاصة أنه أدرك أنه مثل بالنسبة له قيداً عليه، وجعل منه «شريكًا فى الملك» [2].

١- عبد العزيز الخويطر، الملك الظاهر بيبرس ، ص١١- ص١٢ .

٢- سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص١٩٤ .

وعن جهود بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية انظر : ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص٧٢-٨٠ .

وفيما بعد ؛ نجد أنه عمل على اختيار أمير جديد فى صورة أبى العباس أحمد وبايعه بأمر الخلافة وحصل منه بيبرس على تقليد السلطنة وذلك فى عام ١٢٦٣م / ٦٦٢هـ أى بعد ثلاثة أعوام فقط من توليه الحكم فى مصر، مما عكس إدراك بيبرس لأهمية ذلك الأمر من أجل حصول المماليك ممثلين فى شخصه على الشرعية السياسية اللازمة ، وقد سعى بيبرس إلى تحجيم نفوذ ذلك الخليفة العباسى، وكذلك فعل السلاطين الآخرون من المماليك مع باقى الخلفاء العباسيين بالقاهرة .

ولاريب ، فى أن احياء الخلافة العباسية بالقاهرة عكس إدراك الظاهر بيبرس لأهمية دورها، وعكس حرص دولة سلاطين المماليك فى مصر على الظهور بمظهر المدافع عن الإسلام الحريص على إحياء خلافته من بعد سقوطها على أيدى المغول فى بغداد .

أما فيما يتعلق بالصراع بين السلطان الظاهر بيبرس والصليبيين : من الملاحظ أنه اتجه منذ عام ١٢٦٠م / ٦٥٨هـ إلى ابرام العديد من المعاهدات مع القوى السياسية المعاصرة له، ومن أمثلتها بركة خان زعيم مغول القفجاق [١]، وكذلك الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوغوس[٢]، وأيضًا مانفرد هوهشتاون ملك جزيرة صقلية ، وكذلك سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى [٣]. ويعلق أحد كبار المؤرخين على تلك التحركات السياسية والدبلوماسية لذلك السلطان قائلاً : «من الواضح أن الغرض من هذه المعاهدات والاتفاقيات كان إحكام الحصار حول الصليبيين بالشام وحرمانهم من أية معونة يمكن أن تصلهم من الشرق والغرب» [٤]، مما

١- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٨٨، ص٢١٤ وما بعدها ، أيضًا: فايد حمادى عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، ط. القاهرة ١٩٧٦م ، ص٧٥- ص٧٨ ، حياة ناصر الحجى، العلاقات بين المماليك ودولة مغول القفجاق ، ط. الكويت ، ص١١- ص١٣ ، محمود محمد شلبية، علاقات المغول بسلطنة المماليك فى مصر والشام ، رسالة ما جستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ، ص٥١ ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس، ص٨٩- ص٩٢ .

٢- إسحق عبيد ، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس، ص٦١ ، ليلى عبد الجواد ، علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية ٦٥٩-٧٨٤هـ/ ١٢٦١-١٣٨٢م، حوليات كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد (٤٧) عام ١٩٨٨م، ص٦٦- ص٦٧ ، ويلاحظ زن تلك العلاقات أحيانًا سادتها بعض الغيوم كما أوضحت ذلك المؤرخة القديرة أ.د. ليلى عبد الجواد .

٣- سعيد عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٦٣ .

٤- نفسه ، نفس المرجع ، والصفحة .

عكس مدى حنكة ذلك السلطان السياسية وبراعته فى إدارة الصراع الإسلامى الصليبى حينذاك وسعيه إلى تجفيف مصادر الامداد البعيدة للصليبيين .

على أية حال ؛ فإن صراع الظاهر بيبرس مع الصليبيين احتل مكانة بارزة فى تاريخه، وجعله يحتل منزلة كبيرة فى نفوس معاصريه ، ومن الأمور ذات الدلالة أن ذلك السلطان المملوكى على نحو خاص نسجت حوله سيرة شعبية فى صورة «سيرة الظاهر بيبرس»[1] وهى التى لاتزال تتردد فى الريف المصرى على مدى سبعة قرون كاملة، مما عكس أنه تحول ليكون فارسًا شعبيًا يعيش ، ويتعمق وجوده فى الوجدان المصرى بصفة عامة مما عكس ترسخه كقيمة تاريخية، وفى تقديرى أن جهاده للصليبيين- على نحو خاص- هيأ له تلك المكانة التى لم تتأت للعديدين من الحكام السابقين له واللاحقين عليه على مستوى الوجدان الشعبى؛ وهنا لنا وقفه ، من حيث تعميق حقيقة محورية وهى أن الرؤية الشعبية للحكام المسلمين فى المرحلة القروسطية رؤية صادقة وتتسم بالتلقائية دون المواربة أو الرياء أو النفاق الذى تأتى لرجال البلاط، ومؤرخى السلطة، وفقهاء السلطان - أحيانًا- مع عدم إغفال أن هناك قطاعًا من الذين ارتبطوا بخدمة صانعى القرار السياسى حينذاك ؛ وحافظوا على هويتهم ولم يخدعهم بريق السلطة، غير أن ذلك كان فى القليل النادر بصفة عامة.

على أية حال ، من المقرر أن الأعوام الأكثر أهمية وحسمًا فى صراع الظاهر بيبرس مع الصليبيين ارتبطت بالمرحلة من ١٢٦٥م / ٦٦٣هـ حتى عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ، ويلاحظ هنا أنها مثلت حرب تحرير مملوكية شاملة استهدفت الحاق أكبر قدر من الخسائر بالصليبيين واسقاط مراكزهم فى بلاد الشام ، ومن المهم هنا أن نتعرض بالدراسة للدوافع التى حركت ذلك السلطان المملوكى من أجل القيام بدوره الجهادى ضد الصليبيين بمثل ذلك الإلحاح، والاصرار الذى جعله

١- عنها انظر :

سيرة الظاهر بيبرس ، ط. بيروت ب.ت ، ويحاول المستشرق الفرنسى كلود كاهن التأكيد على أن تلك السيرة لم تكن نتاج ذلك العصر بل أنها ألفت فيما بعد لإلهاب حماس المماليك ضد العثمانيين ، وهو أمر يمكن الاختلاف معه ، فالسيرة المذكورة شارك فى تكوينها عصر الحروب الصليبية.

انظر رأيه : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ص٣٧٣- حاشية (١٣) وانظر دراسة قاسم عبده قاسم عنها ضمن كتابه بين الأدب والتاريخ .

يحتل مكانة بارزة فى تاريخ الصراع الإسلامى الصليبى خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى ؛ على نحو جعله الفارس الأشهر لداوية الإسلام.

ومن البداية ؛ أود التقرير بأن الدافع الدينى احتل مكان المقدمة لدى ذلك السلطان البارز ، وقد كان من الممكن أن يتعايش مع الصليبيين بصورة أو بأخرى ، إلا أنه عمل على طردهم مما بقى لهم من أملاك على أرض الشام، ويزعم المؤرخ نورمان هاوسلى Norman Housely أن الظاهر بيبرس كانت دوافعه استراتيجية أكثر من كونها دينية [1]، ومن الممكن القول هنا أن قادة الجهاد الإسلامى فى عصر الصليبيات مثلوا «عقدة» يصعب التخلص منها بالنسبة لبعض الباحثين الغربيين فعملوا على مواجهتهم والتشكيك فى ميولهم الدينية، على الرغم من أن المصادر التاريخية الرسمية وحتى الشعبية تكشف لنا عمق الزاوية الدينية خلال حملات ذلك السلطان المجاهد لبقايا الصليبيين حينذاك .

ومع ذلك؛ فبالإضافة إلى الدافع الدينى هناك الدوافع الأخرى التى تكاملت معًا فى صنع المرحلة التاريخية . أما الدافع الاستراتيجى فله اعتباره غير أنه لن يكون فى المقدمة وكأن الأمر مجرد صراع سياسى بلا مدلول دينى إسلامى وهو هدف قطاع من الباحثين الغربيين فى دراستهم لتلك المرحلة ، وهناك أيضًا تشبه الظاهر بيبرس بالسلطان صلاح الدين الأيوبى الذى مثل تاريخه فى الجهاد دافعًا لمن تولى من بعده سلاطين المسلمين فى ذلك العصر ، وهكذا يتضح لنا أن هناك قافلة من الباحثين الغربيين ضمت مؤرخين مثل جون لامونت، ونورمان هاوسلى وغيرهم ؛ عملوا على تبنى ذلك التوجه الذى لايقف على قدميه أمام طبيعة العصر، ومصادره التاريخيه ومن قبل طبيعة الإسلام كدين ذروة سنامه الجهاد .

مهما يكن من أمر، اتجه الظاهر بيبرس إلى توجيه ضربات للصليبيين لاسيما فى مناطق الساحل الشامى لما لذلك الساحل من أهمية خاصة للكيان الصليبى ماديًا ومعنويًا ، وعلى ذلك ؛ وجدناه فى عام ١٢٦٥م/ ٦٦٣هـ اتجه إلى الاستيلاء على قيسارية، ويافا ، وأرسوف[2]، والجدير بالذكر هنا؛ أن قيسارية اتجه بيبرس إلى التعامل معها من خلال السرية الكاملة ،

١- The Later Crusades, p. 10 .

٢- سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص١٩٨ .

وفرض عليها حصاراً شديداً استخدم والمنجنيقات وهى الات حصار ضخمة ، وبالفعل سقطت فى مارس ١٢٦٥م / ١٥ جمادى الأولى ٦٦٣هـ [١]، ومن الملفت للانتباه هنا: أنه تم الاتفاق قبل إسقاطها على أن يغادر رجالها القلعة سالمين دون أنه تم الاتفاق قبل إسقاطها على أن يغادر رجالها القلعة سالمين دون أن يلحقهم الأذى ، ويلفت أحد المؤرخين المتخصصين فى تاريخ قيسارية الانتباه إلى الفارق بين المذابح التى أقامها الصليبيون عند استيلائهم عليها عام ١١٠١م / ٤٩٤هـ وبين سلوك ذلك السلطان المملوكى[٢].

أما يافا : فالملاحظ أن الظاهر بيبرس عمل على اخضاعها لسيطرته من خلال أهمية موقعها كميناء لبيت المقدس، وتمكن بالفعل من إسقاطها فى ٧ مارس ١٢٦٥م / ٢٠ جمادى الآخرة ٦٦٣هـ[٣]، وتم إرسال حاميتها إلى عكا، وتم هدمها شأنها فى ذلك شأن العديد من المراكز الساحلية الشامية: خوفًا من أن تكون مطمعًا للصليبيين من جديد، وهكذا فإن سياسة التخريب المتبعة حينذاك أملتها ظروف المواجهة الحربية بين المسلمين وأعدائهم .

أما أرسوف إلى الجنوب من قيسارية : وذات التاريخ الحربى خلال الصليبية الثالثة [٤]؛ فيلاحظ أن إخضاع قيسارية من قبل أفاد المماليك فى التعامل معها على اعتبار أن أرسوف لم يكن لها الإفادة من الإمدادات التى كانت تصل إليها من قيسارية ، وقد اتجه إلى حصار أرسوف واستولى على شبكة الخنادق التى احاطتها كما سعى جيشه إلى نقب أسوارها[٥]، وبالفعل تمكن من إسقاطها فى ٢٦ أبريل ١٢٦٥م/ ١٣ رجب ٦٦٣هـ[٦]، ولاريب فى أن

١- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٢٣١ ، حسن عبد الوهاب، قيسارية ، ص٢٢٣ .

٢- نفسه، نفس المرجع ، والصفحة .

٣- عن سقوط يافا انظر :

عبد العزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، ص١٣٣- ص١٣٤ .

Housely , the later Crusades, p. 10 .

٤- أنظر ما سبق ذكره من قبل بشأن دورها فى الصليبية الثالثة .

٥- عبد العزيز الخويطر ، المرجع السابق، ص١١٩ .

٦- عن سقوط أرسوف انظر :

الاستيلاء عليها دعم السيادة المملوكية على قطاع حيوى من الساحل الشامى خاصة الفلسطينى على نحو ساهم بدوره فى اضعاف باقى المراكز الصليبية فى ذلك النطاق الساحلى الاستراتيجى .

وإذا كان ذلك العام ونعنى به عام ١٢٦٥م / ٦٦٣هـ، قد شهد كافة تلك الانجازات ؛ إلا أن ذلك السلطان المملوكى النشط لم يكتف بذلك ، بل اتجه إلى أن يوالى الضربات على الصليبيين ويطرق الحديد وهو ساخن كما يقال، ولذلك فإنه واصل سياسته الهجومية دونما تأخير قد يضر بالصالح الإسلامى العام، وهكذا فإنه فى العام التالى ونعنى به عام ١٢٦٦م / ٦٦٤هـ اتجه إلى الاستيلاء على صفد ، وكذلك هونين ، وتبنين، مما يعكس لنا أنه بالفعل يوصف بالحاصد الأكبر للعديد من المراكز الصليبية فى ذلك العصر.

أما صفد بشمال فلسطين؛ فقد اتجه بيبرس إلى حصارها وإسقاطها وذلك عام ١٢٦٦م / ٦٦٤هـ [(١)]، ويلاحظ أنه عمل على الفتك بفرسان الداوية Templars بعد الاستيلاء على قلعتها نظراً لكونهم لم يلتزموا بنصوص الاتفاق الذى وقعوه مع ذلك السلطان ، والذى نص على مغادرتهم لها دون أن يحملوا معهم متعلقات منه، وخالفوا ذلك. ولذلك تعرض للهجوم من جانب المؤرخين الأوربيين الذين عملوا على وصفه بالدموية لسلوكه معهم، والواقع أن قادة

= ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر ، ص٢٤٣، معقل بن أبى الفضائل ، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه Blochet فى الباترولوجيا الشرقية .P.O ، الجزء ١٢ ، ص٤٧٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣، ص٢٤٤- ص٢٤٥ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ / ق٢ ، ص٥٢٩ ، الدبسى، تاريخ سوريا ، جـ٦ ، ص٢٨٦ ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ،جـ٣ ، ص١٢٧ ، سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس، سلسلة أعلام العرب، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٦٤- ص٦٥ .

Housely , The later Crusades, p. 10 .

١- ابن عبد الظاهر ، المصدر السابق، ص٢٦٢، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ص١٤٩ ، ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ١٣ ، ص٢٤٩ ، مفضل بن أبى الفضائل، المصدر السابق، ص٤٠٩، ابن تغرى بردى، النجوم جـ١ ، ص٥٤٧، ابن الشحنة ، روضة المناظر ، ص١٣٢ ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص٢١٠ ، طه ثلجى الطراونه ، مملكة صفد فى عهد المماليك ، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٥١، سعدون عباس نصر الله، رحيل الصليبيين عن الشرق فى العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٩٥م، ص٩٨- ص١٠١ ،

Housely , The Later Crusades, p. 10 .

المسلمين المجاهدين مثل السلطان صلاح الدين الأيوبى من قبل، والآن الظاهر بيبرس لم تأخذهم شفقة بأولئك الفرسان الذين كان لهم تاريخهم الحافل فى الصدام والصراع الدموى مع المسلمين، وبصفة عامة، ومن خلال تجاربنا السابقة مع الكتابات الغربية عن تاريخ القيادات الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية يتضح لنا بجلاء أنها اتجهت إلى مهاجمة تلك القيادات من حين لآخر ، ومن النادر الاعجاب بها مهما أظهرت من صنوف التسامح مع الأعداء فى العديد من الأحيان .

أما هونين : فإن ذلك السلطان إلى إخضاعها من خلال أهمية موقعها فى شمال فلسطين ، حيث اعتبرت من توابع اقليم الشقيف [١]، وبالفعل عمل على إسقاطها عام ١٢٦٦م / ٦٦٤هـ[٢]، مما وجه لطمه قوية لمراكز الاسبتارية فى تلك المنطقة، وبالنسبة لتنين نجد أنها احتلت موقعًا مهمًا حيث وقعت على بعد سبعة عشر ميلاً من بانياس الداخلية إلى الجنوب الشرقى منها فى مواجهة ساحل صور[٣]، ويلاحظ أن تلك المنطقة اعتبرت منطقة ذات أهمية تجارية؛ حيث عرفت بأنها موضع تمكيس القوافل التجارية بين المسلمين والصليبين [٤].

١- انظر عن موقع هونين انظر :

العثمانى، تاريخ صفد، ص٤٨١ ، تحقيق برنارد لويس ، مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، مجلد (١٥) عام ١٩٥٣م.

B.S.O.A S., vol . XV, 1953 .

شيخ الربوة ، نخبة الدهر، ص٢١١ .

٢- عن سقوط تبنين انظر :

المقريزى ، السلوك ، جـ١ / ق٢ ، ص٥٥٠ ؛ حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ٣ ، ص١٤٣ ، king, The kinghts Hospitallers in the Holy land , p.261 .

٣- عن موقع تبنين انظر :

ابن شداد الحلبى، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص١٥٢، العثمانى، المصدر السابق، ص٤٨٢ ، طه ثلجى الطراونه، مملكة صفد، ص٩٥ .

Jipejian , Sidon Through The ages, Beirut , p. 164 .

٤- ابن جبير ، الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٧٤ .

على أية حال ؛ اتجه ذلك السلطان إلى إسقاطها وبالفعل تمكن من ذلك فى العام المذكور أى عام ١٢٦٦م/ ٦٦٤هـ[١]؛ على نحو أدى بالضرورة إلى اضعاف نفوذ الاسبتارية Hospitallerr الذين سيطروا على تلك المنطقة ، مع ملاحظة أنه اتجه فى العام التالى وهو ١٢٦٧م / ٦٦٥ هـ إلى عقد هدنة مع نفس الهيئة المذكورة فى حصن الأكراد [٢]، وذلك من أجل العمل على التقاط الأنفاس تمهيداً للهجوم المقبل على أملاكها .

وبصفة عامة؛ لم يتوقف ذلك السلطان عن مواصلة سياسة إسقاط المراكز الصليبية فى بلاد الشام ، ويلاحظ أنه من بعد تلك الأحداث بعامين ، وبالتحديد فى عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ؛ اتجه إلى اسقاط قلعة صليبية مهمة فى صورة شقيف أرنون الواقعة على نهر الليطانى ذات الموقع الاستراتيجى الفعال عند الحدود الشمالية لمملكة بيت المقدس الصليبية [٣]، حيث وجدت بالقرب من بانياس الداخلية، ووقعت بينها وبين الساحل [٤]، وكانت قريبة من مدينة صور[٥]، وإلى الجنوب الشرقى من صيدا [٦]، وقد حاصرها المسلمون بقيادة سلطانهم وبالفعل سقطت فى أيديهم فى ١٥ أبريل ١٢٦٨م / ٣٠ رجب ٦٦٦هـ [٧]، ففقد الصليبيون بالتالى مركزاً حصيناً أضيف إلى المراكز الأخرى التى سقطت فى قبضة المماليك .

١- عن سقوط تبنين انظر :

ابن شداد الحلبى، الاعلاق الخطيرة ، جـ١ ، ص١٥٣ ، المقريزى السلوك ، جـ١ ، ص٥٥٠ ؛ حامد غنيم، الجبهة الإسلامية ، جـ٣ ، ص١٤٣ .

٢- عن ذلك انظر :

Vermeulen, " Le Traite d'Armistice entre le Sultan Baybars et les Hospitaliers de Hisn Al- Akrad et Al-Marqab (4Ramadan 665 AH./ 29 Mai 1297 ", in O.L.P., T.IXX Année 1988, pp. 189-195 .

٣- سليمان مظهر، «قلعة شقيف أرنون، مجلة المجمع العلمى بدمشق، عدد عام ١٩٤٤م، ص٤٢٤ ، إلياسى ديب، العقود الدرية، ص١٤٩ .

٤- العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، تحقيق صبيح ، ص١٧١ ، حاشية (١) .

٥- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك، م٥ / جـ١ ، ص٢٢١ ، حاشية (٩٠١) ، فيليب حتى، لبنان فى التاريخ، ت. أنيس فريحه ، ط. بيروت ١٩٥٩م، ص٣٥٨ .

٦- Riley - Smith , The Feudal Nobility, p. 25 .

٧- عن سقوط شقيف ارنون انظر :

والأمر المؤكد : أن اسقاط تلك المراكز الصليبية السابقة قد أدى إلى إضعاف قوة الصليبيين، وحرمانهم من عناصر تثبيت أقدامهم في المنطقة، ومن المعروف أن الوجود الصليبي استمر من خلال الدعم الغربي، والضعف الإسلامي العام - في مراحل الضعف بالطبع التي سبقت الوحدة- ناهيك عن الدور التاريخي الفعّال للقلاع الصليبية التي رسخت ذلك الكيان على الأرض الشامية.

غير أن فعاليات ذلك السلطان لم يكن لها أن تقف عند ذلك الحد فقط، بل اتجهت نحو إسقاط إمارة أنطاكية الصليبية بشمال الشام، والتي كانت من أوائل الإمارات الصليبية التي أقيمت، ووقع صراع إسلامي – بيزنطي – صليبي بشأنها على مدى قرابة مائة وثمانية وستين عامًا مضت ، والآن ، اتجه ذلك السلطان إلى إسقاطها على الرغم من صعوبة ذلك ؛ إذ أنها من أكثر مدن الشام تحصينًا ، واحاطتها المرتفعات من ناحيتي الشرق والجنوب ، واكتنفها نهر العاصي من الغرب حيث تكثر الغياض وكذلك المستنقعات في شمالها ثم أن بأنطاكية سور بالغ الحصانة به ثلاثمائة وستون برجًا [1]. غير أنه على الرغم من ذلك فقد أفادته في ذلك العديد من الظروف الدولية .

فمن الملاحظ ؛ أنه تمكن من تحييد بيزنطة من خلال تحسين علاقة دولة المماليك البحرية مع الدولة البيزنطية في عهد ميخائيل باليولوغوس ، كذلك كان هناك ضعف تلك الإمارة

= ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٢٩٨ ، ابن شداد الحلبي، الأعلاق الخيرة ، ص١٥٦ ، مفضل بن أبي الفضائل ، النهج السديد، ص٥٠٧ .

Ruhricht, "Etudes sur les derniers Temps du Royaume de Jerusalem , les Combates du Sultan Bibars contre des chretiens en Syrie :, A. O. L., T.II, p. 390-391 .

سرور على عبد المنعم ، الدور السياسي لحصن شقيف أرنون في عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة طنطا، ١٩٩٧م، ص١٢٣- ص١٣٠ .

١- أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص٢٥٧ حيث يقول : «وعليها سور من صخر يحيط بها» عبدالله سعيد الغامدي، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، منشورات- جامعة أم القرى مركز البحوث والدراسات الإسلامية- مكة المكرمة ١٤١٠هـ، ص١٨٩ .

الصليبية خاصة أنها لم تعد بنفس القوة التى كانت لها من قبل عندما أقيمت على أرض شمال الشام فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، ودعم مملكة بيت المقدس الصليبية لها بين الحين والآخر ، كذلك الاعتراض البيزنطى الدائم على أية توسعات إسلامية فى المنطقة ، غير أنه الآن ؛ وبعد كارثة ١٢٠٤م / ٦٠٢هـ التى أحاطت باستقلال وحرية بيزنطة وتعرضت للاحتلال اللاتينى المرير، لم يكن هناك ما يعيق توسع ذلك السلطان فى أنطاكية ، وبالفعل عمل على حصارها وإسقاطها فى ١٨ مايو عام ١٢٦٨ م / ٤ رمضان ٦٦٦هـ[١] ، ويلاحظ هنا أنه عمل على الاستيلاء على السويدية أوسان سيمون San Simcon ميناء انطاكية على البحر المتوسط قبل اقدامه على إسقاط الإمارة المذكورة ، وبذلك حرمها من الحصول على أى دعم خارجى، ولاشك أن القوة العسكرية المملوكية حينذاك كان بمقدورها أن تملى واقعًا حربيًا وبالتالى سياسيًا جديدًا .

ولاريب فى أهمية الانجاز الذى قام به المسلمون بقيادة ذلك السلطان ، فقد تم القضاء على تلك الإمارة الصليبية ، ولم يعد هناك التمزق والتنافر الذى عاشته منطقة شمال الشام طوال المرحلة السابقة من تاريخها ، كذلك لم يبق من الوجود الصليبى سوى بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية فى صورة مدينة عكا وبعض المراكز الثانوية الأخرى، بالإضافة إلى وجود إمارة طرابلس . ولاريب فى أن إسقاط إمارة أنطاكية قد زاد من الضغط الحربى والسياسى المملوكى على إمارة طرابلس ذاتها، ومن ناحية أخرى؛ نتج عن ذلك الانجاز، أن ارتفع شأن الظاهر بيبرس وصارت له مكانة بارزة فى التاريخ جنبًا إلى جنب مع الفاتحين العظام مثل عماد الدين زنكى ، وصلاح الدين الأيوبى- مع عدم اغفال دور باقى قافلة المجاهدين المسلمين الكبار فى عصر الصليبيات بطبيعة الحال- وكذلك عمق ذلك الانتصار وجود ذلك السلطان فى الوجدان الشعبى - على نحو ظهر صداه فى صورة السيرة الشعبية الخاصة به كما أسلفت الذكر من قبل.

١- عن سقوط أنطاكية أنظر :

ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٣٠٧ - ص٣١٣ ، المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٥٦٨، الذهبى، دول الإسلام، جـ٢ ، ص١٨٨ ؛ حسين عطيه، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٤٧٠- ص٤٧٣ ؛ سعدون عباس نصر الله ، رحيل الصليبيين عن الشرق، ص١٠٦- ص١٠٨ ، عبد الله سعيد الغامدى، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص١٨٩- ص١٩١ ، عبد العزيز الخويطر ، الملك الظاهر بيبرس، ص١٣٦- ص١٣٨ ، أسد رستم ، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى ، جـ٢ ، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٣٣٨- ص٣٣٩ .

زد على ذلك ؛ أنه باسقاط إمارة انطاكية الصليبية وخضوعها للسيادة المملوكية ، تم حل المشكلة الانطاكية المزمنة التى لم يكن حلها على أيدى البيزنطيين أو الصليبيين ، بل على أيدى داوية الإسلام المماليك وعلى رأسهم سلطانهم الظاهر بيبرس ؛ مما عكس قدرة المماليك البحرية على التأثير فى سياسات المنطقة خلال تلك المرحلة.

ويلاحظ أن من النتائج التى نتجت عن سقوط أنطاكية ؛ أن عدداً من القلاع الحصينة فى تلك المنطقة سقطت بالتالى فى قبضة المماليك مثل حصون ديركوش، وشقيف كفردين ، وشقيف تلميس وهى قلاع كان بيبرس قداتهم من قبل صاحب بوهيمند السادس Bohemond VI (١٢٥١-١٢٦٨م / ٦٤٩-٦٦٧هـ) أنطاكية بالاستيلاء عليها عندما قدم الخطر المغولى إلى بلاد الشام[1]، كذلك أمكن الاستيلاء على حصن بغراس، عام ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ الذى أخلاه فرسان الداوية الأشداء ، ويلاحظ هنا أن أسلوب الإخلاء والانسحاب يعد أمراً وافداً وطارئاً على سياسات الداوية الحربية ، على نحو عكس أن المماليك حينذاك بفرض وجودهم الحربى طرحوا خيارات جديدة على الرهبان الفرسان لم تكن مطروحة من قبل، وبصفة عامة: عمل ذلك السلطان على شحن الحصن بالرجال ، والمعدات وصار أحد الحصون الإسلامية، وبذلك فقدت القوى الصليبية فى شمال الشام أحد الحصون التى عدت مناطق إنطلاق حربية صليبية لمهاجمة الأعمال الإسلامية المجاورة وكذلك مراكز دفاع أيضًا .

والجدير بالذكر هنا ؛ أن ذلك السلطان المملوكى ، مثل ما يشبه قدرات السلطان صلاح الدين الأيوبى من قبل فيما يتعلق بالتواؤم والتوافق بين الحرب والسلم، ولذلك كان أحيانًا يفضل الحل السلمى؛ من أجل التقاط الانفاس واعادة تجهيز قواته على نحو أفضل، مما يعطيه مميزات عسكرية أوفر ، وهكذا وجدناه فى عام ١٢٦٩م / ٦٦٧هـ اتجه إلى عقد اتفاقية مهادنة

١- عبد العزيز الخويطر، الملك الظاهر بيبرس، ص١٣٨ .

٢- عن سقوط حصن بغراس انظر :

ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر، ص٣٢٥- ص٣٢٦ ، على عوده الغامدى ، «حصن بغراس ، ودوره الحربى فى عصر الحروب الصليبية »، ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية، اتحاد المؤرخين العرب، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٣٠١ .

مع سيدة بيروت وهى إيزابيلا الأبيلينية Isabella of Ibelin [١]، ويلاحظ بيروت ذاتها ومناطقها التابعة لها امتدت وفق تلك الاتفاقية من حدود جبيل حتى حدود صيدا ، وكانت لها أهميتها الاستراتيجية والسياسية الفاعلة ، وامتد تلك الهدنة مدة عشر سنوات، ومن أهم ما ورد فيها أن صاحبة بيروت لاتمكن الصليبيين من مهاجمة المناطق الخاضعة لسيادة المماليك، كما أكدت الوثيقة على السلام المتبادل الشامل بين الجانبين، وبذلك دل ذلك السلطان على حنكته السياسية وعدم تفضيله السياسة الحربية دائمًا بل جعل السلم جزءًا من الصراع مع الصليبيين ، دون أن يكون فى ذلك أدنى قدر من التفريط بطبيعة الحال.

على أية حال : سار الاتجاه السلمى والحربى فى سياسة الظاهر بيبرس تجاه الصليبيين فى بلاد الشام فى طريقين متوازيين ، وهكذا وجدناه يتجه من بعد ذلك إلى مواصلة إسقاط القلاع الصليبية فى صورة حصن الأكراد Crac des chevaliers الواقع على طريق القوافل الواقعة بدورها فى الشمال من حمص وحماه من جهة ، وطرابلس ، وطرطوس من جهة أخرى[٢]، وذلك فى وادى النهر الكبير[٣]، وعلى بعد مائتين وأربعين كيلو متر من دمشق ، ومائة وأربعين كيلومتر من طرابلس[٤]، وأربعين كيلو متر من حمص [٥]. ويلاحظ أن ذلك الموقع الاستراتيجى الفريد لذلك الحصن هيأ له السيطرة الحربية على المنطقة الواقعة بين سهول نهر العاصى والبحر المتوسط، وقد أخضعه فرسان الاسبتارية لسيطرتهم ، وعد من أهم قلاعهم فى بلاد الشام بصفة عامة.

١- أنظر نص المعاهدة فى القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤ ، ص٤٠- ص٤٢ . وانظر دراسة هولت الممتازة عنها :

Holt, " Baybars's Treaty with The lady of Beirut in 667/1269 ", in Crusade and Settlements, ed. by peter W. Edbury, Cardiff 1985, pp. 242-245 .

٢- عزيز سوريال عطية، العلاقات ، ص٥٤ .

٣- هنرى لامنس، «دولة العلويين»، المشرق ، العددان (٨) ، (٩) ، م (٢٧) ، عام ١٩٢٩م، ص١٦٨ .

٤- عبد الرحمن ، «العمارة العسكرية فى العصور الوسطى» ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، م(٧) عام ١٩٥٨م، ص١٢٨ حاشية (٣) .

٥- يوسف سمارة، جولة فى الاقليم الشمالى، ص٦٢ وعن موقعه أيضًا انظر :

سليمان عبدالله الخرابشه ، نيابة طرابلس فى العصر المملوكى، ط. عمان ١٩٨٥م، ص٢٣ .

ويلاحظ أن ذلك الحصن الذى وصف بأنه درة العمارة العسكرية الصليبية فى بلاد الشام امتلك حامية ضخمة قدرها البعض بخمسة آلاف رجل[١]، مما عكس خطورة دوره فى الصراع الصليبى الإسلامى فى تلك المنطقة التى وقع فيها.

وعلى أية حال؛ تمكن المسلمون من الاستيلاء على حصن الأكراد فى عهد الظاهر بيبرس، ولدينا - كما يلاحظ كنج- ثلاث روايات تاريخية مهمة عن تلك الحادثة لابن شداد الحلبى، ولابن الفرات ، والنويرى ، ونجد أن الأول يعد أهمهم جميعًا : لمعاصرته لأحداث سقوط الحصن، بيد أنه لم يكن شاهد عيان ، وقد ارتبط بالجيش المملوكى بعد ثلاثة أسابيع من بدء الحصار[٢]، وتركز الهجوم على الجهة الشرقية، ولم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تصد هجومًا مملوكيًا عنيفًا خاصة إذا ما قارنا ذلك الجزء من التحصينات بتلك الواقعة جهتى الجنوب والغرب[٣]. وأخيراً تم إسقاطه فى ٨ أبريل ١٢٧١م / ٢ شعبان ٦٦٩هـ [٤]، فكان ذلك بمثابة ضربة قوية لنفوذ وهيئة الاسبتارية فى بلاد الشام.

ويضاف إلى ذلك : أن المسلمين بقيادة بيبرس اسقطوا فى نفس العام قلعة القرين التابعة لتنظيم النيوتون[٥]، وبالتالى سارت قلعة ذلك التنظيم على نفس الخطى التى سارت عليها قلاع الاسبتارية والداوية من قبل.

١- عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص١٠٩ ، فيليب حتى، لبنان فى التاريخ ، ص٣٧٥ .

٢- King, "The Taking of Krak des Chevaliers in 1271", A., vol . XXIII, March 1949 , p. 83 .

٣- Deschamp , Le Crac des Chevaliers, p. 132-133 .

٤- ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، جـ٢ ، ص١١٧ ، بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة ، رسالة دكتوراه إعداد زبيدة محمد عطا ، جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م ص١٠٥ ، مختار الأخبار ، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية سنة ٧٠٢هـ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، ط. القاهرة ١٩٩٣م، ص٤٥ .

الذهبى ، دول الإسلام ، جـ٢، ص١٧٢ ، ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الذكية فى أخبار الدولة التركية ، تحقيق اولرخ هارمان، ط. القاهرة ١٩٧١م، ص١٥٢ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ / ق٢ ، ص٥٩١ ، عبد القادر المغربى، «الظاهر بيبرس» مجلة المجمع العلمى بدمشق، م (٢١) ، جـ(٥) ، (٦) ، عام ١٩٤٦م، ص٢٣٥ .

٥- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٣٨٥- ص٣٨٦ ، مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد، ص١٩٨- ص١٩٩ ، ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ص١٦١- ص١٦٢ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ / ق١ ص٥٣٢، بيبروس الدوادارى ، مختار الأخبار، ص٤٦ .

على أية حال ؛ من الملاحظ أن صراع ذلك السلطان المجاهد مع القوى الصليبية ارتبط بعناصر الرهبان الفرسان مثل الاسبتارية، والداوية، والتيوتون ، وهم القوة العسكرية الفعلية التى واجهت المماليك. غيرأن الملاحظ هنا أن الضعف حل بهم بالمقارنة بتاريخهم الحربى خلال القرن السابق ونعنى به القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى.

ونصل الآن إلى تقويم لأعمال ذلك السلطان المملوكى ، ويلاحظ هنا أن أعماله تركزت فى مجالين، اسقاط القلاع الصليبية ، ثم إسقاط إمارة أنطاكية وهو أمر عد أهم انجازاته بصفة عامة، ومن الممكن تصور أن الانجازات العسكرية سبقتها الحنكة السياسية وعقد الاتفاقات الدبلوماسية مع القوى المجاورة ، من أجل إضعاف موقف الصليبيين السياسى بصفة عامة ، ولاريب أن النجاح العسكرى واكبه نجاح دبلوماسى مملوكى بارز ، على نحو ضمن لذلك السلطان وجيشه تلك الإنجازات البارزة.

ومع ذلك ، من الانصاف أن نقرر أن هناك عوامل أخرى ساعدت المماليك البحرية حينذاك على تحقيق مثل تلك الانجازات ، ولعل أهمها ما أتصل بأوضاع الصليبيين أنفسهم فى بلاد الشام وكذلك مصادر دعم الصليبيات فى الغرب الأوربى ، فيلاحظ أن القيادات السياسية الصليبية المعاصرة البارزة التى ظهرت على الساحة السياسية والحربية المعاصرة للظاهر بيبرس اتسمت بالضعف ولم يكن لها نفس مكانة الملوك الصليبيين الكبار الذين ظهروا فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى، كما أن الخلافات امتدت بين الصليبيين فى بلاد الشام، ولا أدل على ذلك من أنه حتى من قبل توليه الظاهر بيبرس السلطنة ظهرت تلك الخلافات بجلاء ، ففى عام ١٢٥٧م / ٦٥٥هـ شب النزاع بين عناصر التيوتون وفلورنس اسقف عكا بشأن بعض الأملاك الواقعة فى زمام اسقفية عكا، وطالبت الهيئة الأسقف بايرادات تلك الأملاك [١]، كذلك ثار الخلاف حول دير القديس سابا St. Sabas [٢] ؛ الذى وقع فى تل

١- عن ذلك بالتفصيل : حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ، ص٢٧٨ .

٢- القديس ساباس St. Sabs ؛ ولد هذا القديس فى مدينة قيسارية Casarca فى كبادوكيا Cap- padocia وذلك عام ٤٣٩م، ويعد أحد البارزين من الجيل الأول من الرهبان وصارت تعاليمه ذات تأثير كبير على الحركة الديرانية الشرقية ، ويلاحظ أنه عندما كان مقتبل الشباب لازم القديس أيوثيميوس الكبير Eu- thymius The Gread وفى عام ٤٧٨م أسس جماعة ديرانية فى منطقة مقفرة فيما بين بيت المقدس Je- rusalem والبحر الميت Dead Sea وازدهر أمرها فيما بعد على نحو كبير ويلاحظ أن سيرته وصلت الينا عن طريق كيريل البيسانى Cyril of Scythopolis ، وقد توفى ساباس عام ٥٣٢م، ويوم الاحتفال به هو الخامس من ديسمبر.

عنه انظر : . Attwater, The Penguin dictionary of Saints, p. 301

أيضًا : محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون ص٦٣ .

مونتيجو المطل على ميناء عكا، ويقرر البعض أن الهدف تمثل فى السيطرة على الميناء وليس الدير، وكذلك أمور التجارة شرقى البحر التوسط، وقد احتل الجنوية الدير المذكور عام ١٢٥٦م / ٦٥٤هـ ؛ مما نتج عنه اشتعال الخلاف بصورة متزايدة[١] وبحث الجميع عن حلفاء، وهكذا تحالف الجنوية مع البيازنة وكذلك عائلة ابلين، وتجار مرسيليا ثم هناك بوهيمند السادس Bohemond VI أمير أنطاكية، وطرابلس وعناصر فرسان المعبد، أما الفريق الآخر؛ فقد تكون من الجنوية وأيدهم فلببي المونتفرتى وأسرة اميرياتش سادة جبيل، وانكونا وعناصر الارثوذكس اليونانيين بسوريا، وكذلك فرسان الاسبتارية[٢]، ويقرر أحد المؤرخين أن تلك المنازعات والحروب الأهلية بين الصليبيين تركت آثارها العميقة عليهم، وفقدوا الآلاف منهم، ولا أدل على ذلك من أنه فى العام الأول من تلك الحرب (١٢٥٧-١٢٥٨م / ٦٥٥-٦٥٦هـ) فقد الصليبيون عشرين ألفا منهم، ناهيك عن الخراب الذى وقع فى المدن الكبرى مثل عكا، وصور، والخسائر على المستوى التجارى[٣]، وهكذا؛ ندرك تمامًا أن صراعات الصليبيين الداخلية اجهدتهم واستهلكت طاقاتهم البشرية، والمادية، والسياسية على نحو عكس أنهم تقاتلوا فيما بينهم وكانت المصالح الاقتصادية دومًا وراء مثل تلك المنازعات الباهظة التكاليف من كافة الجوانب ومن الممكن أن نقرر دونما مبالغة- من خلال الأرقام المذكورة بشأن الفاقد البشرى الصليبى من جراء تلك الحرب الأهلية- أن الغزاة فقدوا فى حروبهم الأهلية ما يفوق -فى العديد من الأحيان- فاقدهم البشرى فى العديد من المعارك الجزئية بينهم وبين المسلمين على أرض بلاد الشام؛ مما عكس خطورة التناحر الصليبى الداخلى على وجودهم نفسه.

١- عن الصراع الداخلى والحرب الأهلية فى أمر دير ساباس انظر :

مجهول، تتمة كتاب وليم الصورى لمؤلف مجهول والمنسوب خطأ إلى روتلان ١٢٢٩-١٢٦١م وتحليل وتعليق اسامة زكى زين، ط. الاسكندرية ،١٩٨٩ م، ص٢٣٣ - ص٢٣٨ .

٢- حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٧٩ .

٣- نفسه، نفس المرجع، ص٢٨٠- ص٢٨١ .

وعن الحرب الأهلية بين الصليبيين حينذاك انظر، مجهول، تكملة تاريخ وليم الصورى، ص٢٣٣- ص٢٣٨ .

ومن زاوية أخرى ، من الممكن الاستنتاج أن الصليبيين أثبتوا بتلك الخلافات الدموية المريرة أنهم ليسوا أصحاب قضية حقيقية ، بل غزاة همهم الأكبر المال ولاشيء غيره، بدليل أنهم عندما اختلفوا بشأنه تقاتلوا، وتناحروا على نحو أفاد المسلمين من حيث لايدرون ويصدق عليهم القول بأنهم شاركوا بذلك في صنع انتصارات المسلمين الذين دافعوا بالفعل عن قضية حقيقية لأنهم أصلاً أصحاب الأرض التى قدم الصليبيون من أجل سلبها ونهبها .

ويلاحظ : أن دولة سلاطين المماليك البحرية لم يقتصر دورها على ما فعله الظاهر بيبرس، بل إن دوراً تاريخيًا بارزاً ظهر فى صورة أسرة بنى قلاوون، ومنهما قام مجاهدان بجهاد الصليبيين على نحو بارز ، وتمثل ذلك فى السلطان المنصور قلاوون (١٢٧٩- ١٢٩٠م / ٦٧٨-٦٨٩م) الذى سار على ذات خطى بيبرس من قبل. بدأ عمله ضدهم باسقاط حصن المرقب Castrum Margatum ، وهى التى وقعت إلى الجنوب الشرقى من بانياس بالقرب من ساحل البحر المتوسط، وبالتالى وصفت بأنها وقعت على ساحل جبلة[٢]، ويلاحظ أن الحصن المذكور كان من أكبر وأضخم القلاع الصليبية فى بلاد الشام بصفة عامة، ويقال أنه سمى بالمرقب لأنه الأهله منه ترصد وترقب [٣]، ويلاحظ أن فرسان الاسبتارية سيطرو على ذلك الحصن المنيع .

١- عن مصادر ومراجع تاريخه انظر : ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل، ط. القاهرة ١٩٦١م.

ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، جا، تحقيق محمد محمد أمين، ط. القاهرة ١٩٧٦م .

Hilal . Al. Mansur qalawun's policy againest Crusader States , Master of Arts, American University in Cairo, 1982 .

٢- أبو الفداء ، تقويم البلدان، ص٢٥٥ ، القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٤٥ - ص١٤٦ ، ابن الشحنة ، الدر المنتخب فى تاريخ حلب ، تحقيق شيخو، ط. بيروت ١٩٠٩ م ، ص٢٦٧ ، حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية ، جـ٣ ، ص١٩٨ ، شيخو ، جولة فى الدولة العلوية ، ص٤٩٠ .

عن حصن المرقب بالتفصيل انظر :

آمال هاشم ، المرقب وقلعتها ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م/ ٤٨٧-٦٩٠هـ) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٧م.

٣- ابن عبد الظاهر، المصدر السابق ، ص٨٥ ، فرديناند توتل، زيارة إلى قلعة المرقب، المشرق م (٣٣) ، جـ٤ عام ١٩٣٥م، ص٥٣٥ .

على أية حال : اتجه المنصور قلاوون إلى عقد هدنة مع الاسبتارية فى حصن المرقب وذلك عام ١٢٨١م / ٦٨٠هـ[1]، وعلى رأس العوامل التى دفعته إلى تلك المهادنة انهماكه فى أمر محاربة المغول، غير أن الاسبتارية تعاونوا مع أعداء المسلمين فاتجه قلاوون إلى اسقاط حصن المرقب وتمكن بالفعل من تحقيق ذلك هو وجيشه وذلك عام ١٢٨٥م / ٦٨٤هـ [2]وهناك من يرى أن ذلك حدث فى عهد السلطان الظاهر بيبرس[3] غير أن ذلك القول يحوى مغالطه ظاهرة، ولايجد سنداً ولو باهتًا من المصادر الأصلية المعاصرة أو اللاحقه تدعمه .

ومن الجلى البين؛ أن إسقاط حصن المرقب الذى اشتهر بالمنعة والحصانة جاء دليلاً على أن أسرة قلاوون لن تتنازل عن إسقاط ما بقى للصليبيين من أملاك على أرض الشام، كذلك جاءت تلك الحادثة لتثبت لنا أن الكيان الصليبى آخذ فى الاسراع بالانتهاء على أيدى قادة الجهاد الإسلامى، ويكفى أن نذكر أن ذلك الحصن المنيع فى مراحل قوة الصليبيين كثيراً ما شكل تهديداً كاملاً على أملاك المسلمين المجاورة له، أما الآن : فإن نهايته المحتومة بلغها على أيدى داوية الإسلام ، ولانغفل أيضًا أن ذلك السلطان اتجه إلى الاستيلاء على حصن مرقيه الذى وصف بأنه وقع على سواحل حمص[4]، وكان تابعًا لأمير طرابلس[5]، وكان ذلك فى ذات العام الذى سقط فيه حصن المرقب ونعنى به عام ١٢٨٥م / ٦٨٤هـ، كذلك اتجه إلى

١- King, The Kinghts Hospitallers , p. 282 .

٢- عن سقوط حصن المرقب انظر :

ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور، ص٨٦ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ص٩٦ ، ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ، ص٢٧٠، بيبرس الدوادارى ، زبدة الفكرة ، ص٢٩٥ ، اليونينى البعلبكى ، ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان ، جـ٢ ، ط. حيدر اباد الدكن عام ١٩٥٤م، ص٤٤٧ - ص٤٤٨ ، جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر، ط. القاهرة ١٩٤٧م، ص٢٣٨، سر الختم عثمان، مدينة صور فى القرنين ١٢ ، ١٣م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٧١م، ص٢٣٧-٢٣٨ .

Ziada , "The Mamluk Sultan to 1293", in Setton, A History of the Crusades, vol . II, p. 752, Holt, The Age of The Crusades , The Near East from the Eleventh to 1517 London , 1986 , p. 103 .

٣- أبو الفرج العش،آثارنا فى الاقليم السورى ، ط. دمشق ١٩٦٠م، ص٩٤ .

٤- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص٣١٥ .

٥- ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص٨٧ ، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، جـ٧ ، ص٣١٥ .

الاستيلاء على اللاذقية ، ذلك الميناء الحيوى الخاص بإمارة أنطاكية وعد آخر موقع تبقى من تلك الإمارة الصليبية المنهارة [١]. وأخيراً : جاء اليوم المحتوم لإمارة طرابلس الصليبية ، التى اتجه المنصور قلاوون إلى اسقاطها وذلك فى عام ١٢٨٩م / ٦٨٨هـ[٢] وكان ذلك من خلال فعاليات جيش مملوكى ضخم قدر البعض عدده بأنه احتوى على أربعين ألفًا من الفرسان ، ومائة ألف من المشاة[٣]- وربما يكون هناك مبالغة فى مثل تلك التقديرات الرقمية التى ليس من اليسير التثبيت من دقتها- ويلاحظ أنه حاصر تلك الإمارة الصليبية مدة تسعة وثلاثين يومًا[٤] ولامراء فى أن سقوط تلك الإمارة يعد متأخراً بالمقارنة بالإمارات الصليبية الأخرى التى منها ما سقط فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى ، كما حدث بالنسبة لإمارة الرها، ومع ذلك فمن المتصور أن من عوامل تأخر إسقاط إمارة طرابلس؛ حصانتها ومناعتها، ووجود قلاع صليبية حصينة تدافع عنها، كذلك لانغفل أن الوجود المسيحى المحلى فى صورة الموارنة وما قدموه للصليبيين من مساعدات كل ذلك دعم تلك الإمارة .

وبصفة عامة عمل المماليك على الاستيلاء على عدد من المواقع الصليبية المجاورة مثل بيروت ، وجبله ، وهكذا لم يبق لهم فى بلاد الشام إلا عكا، وصيدا ، وصور، وعثليث[٥]، غير أن الهدف الأكثر أهمية تمثل فى عكا على نحو مؤكد نظراً لموقعها الاستراتيجى على الساحل الفلسطينى ودورها المحورى فى دعم الاقتصاد الصليبى .

١- سعيد عاشور ، مصر والشام فى عصر الأيوبين والمماليك ، ص٢١٥ .

٢- عن سقوط طرابلس انظر :

المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٧٤٦- ص٧٤٧ .

Irwin , "The Mamluk Conquest of The County of Tripoli ", in Crusade and Settement , ed , by Peter W. Wdbury , cardiff 1985, pp. 246-250 . Stevenson , The Crusaders in The east, p. 350 .

٣- سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص٢١٥ .

٤- رشيد عبدالله الجميلى، العرب والتحدى الصليبى، هيئة كتابة التاريخ، موسوعة التاريخ العربى الإسلامى، ط. بغداد ١٩٩٠م، ص١٠٤ .

٥- سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص٢١٦ .

وبالنسبة لمدينة عكا؛ فإن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس كان قد شن العديد من الغارات عليها مستهدفًا إسقاطها في عام ١٢٦٩م / ٦٦٨هـ [١] غير أن جهوده في هذا المجال لم تكلل بالنجاح ؛ أما السلطان المنصور قلاوون الذي راوده ذلك الحلم وعمل على تحقيقه ؛ فقد وقع معاهدة مع الصليبيين مدتها عشر أعوام غير أنهم نقضوها بالاعتداء على إحدى قوافل المسلمين ، ومن ثم اتجه إلى مقاتلتهم[٢] ولكنه ما كان يفرغ من كافة استعداداته لتحقيق ذلك حتى عاجلته المنيه[٣]، غير أن ابنه الأشرف خليل بن قلاوون سعى سعيًا حثيثًا لتحقيق ما عجز عنه والده من قبل ، وفي ذلك الحين كان قد تزايد نفوذ التنظيمات الدينية الحربية الصليبية في مدينة عكا، سواءً في ذلك الاسبتارية ، أو الداوية، أو التيوتون أو تنظيم القديس لازاروس خاصة إذا ما عرفنا أن عكا حينذاك كانت تعد مركز الصليبيين في بلاد الشام، وتزايدت في أهميتها وحجمها العمراني ، والسكاني خاصة منذ عهد الصليبية الثالثة، ثم أنها كانت المدينة التجارية الرئيسية في ساحل شرق البحر المتوسط[٤]، ومن ناحية أخرى؛ فقد تحصنت تحصينًا قويًا ومنيعًا ، كما جددت تحصيناتها بأمر الملك هنري الثالث لوزينان Henry III de Lusignan وأحاط بها سوران ضخمان يضمان كل شبه الجزيرة التي تقع عليها مدينة عكا ، والناحية المتصلة بها من جهة الشمال، كما أحاط بها خندق متسع [٥]، أما عن

١- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٣٦٢- ص٣٦٥ .

٢- ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص١٧٧ .

ATiya, The Crusade in the later Middle Ages, London 1938, p. 29 .

٣- ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص١٧٨- ص١٧٩ ، سعيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ط. القاهرة ١٩٥٩م، ص٦٨ .

٤- عن دورها التجاري انظر :

Daniel , p. 55 . Benjamin of Tudela , p. 80 .

هنري لامنس ، «تجارة سوريا في الأجيال الوسيطة »، المشرق ، العدد (٢٠) ، عام ١٩١٩م، ص٩٢١،

King, The Knights Hospitallers, pp. 289 Stevenson, The Crusaders, p. 351 .

٥- Bradford, The The Shield and Sword , p. 48 , Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem , p. 342 , king, The knights Hospitallers, p. 239 .

أعداد فرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون، وفرسان القديس توماس، والقديس لازاروس الذين شاركوا فى معركة عكا الأخيرة ضد الجيش المملوكى ؛ فهناك من يقرر أن مجموع عدد المدافعين الصليبيين بلغ أربعة آلاف أو ثمانية آلاف من المقاتلة الراجلة، ونحو سبعمائة أو خمسمائة فارس وذلك وفق ما يذكره ستيفنس [١]، أما كنج ؛ فإنه يقدم لنا جانبًا إحصائيًا هامًا تحديداً للمواقع التى احتلتها عناصر الرهبان الفرسان ، وذلك من خلال وثيقة مهمة عبارة عن الرسالة التى أرسلها مقدم الاسبتارية جان القليرى John de Villiers إلى صديق له فى أوربا واصفًا له ظروف سقوط المدينة[٢] ويرى أن حاميتها تكونت من سبعمائة فارس وأربعة عشر ألفًا من المشاه وكان حوالى اثنين وأربعين من الداوية ، ونحو مائة وأربعين من الاسبتارية تحت قيادة مقدمهم، وكانت التنظيمات الثلاثة الأخرى، فرسان التيوتون ، وفرسان القديس لازاروس، وفرسان القديس توماس متواجدة ضمن تلك القوات غير أنه لم يكن فى مقدورها أن تمد القوى الصليبية بأكثر من خمسين فارسًا منهم[٣].

أما عن توزيعات تلك القوات ؛ فقد وزعها مقدم الداوية وليم البوكيتى William de Bouiquet ، على النحو التالى: الحائط الشمالى من البحر إلى حائط القديس لازاروس [٤]، عهد به إلى فرسان الداوية وفرسان القديس لازروس ومن هذه النقطة إلى حائط القديس توماس فقد عهد بها إلى ماتيو الاليموتى Mathew de Elermont مقدم الاسبتارية ، وعهد بحائط مالديس إلى الفرسان التيوتون ، وقوات ملك بيت المقدس وبقية الحائط الشمالى الشرقى، والحائط الشرقى إلى البحر عهد به إلى قوات فرنسية ، والجليزية [٥]، ولانغفل هنا

= عبد الرءوف عفيفى، الأشرف خليل بن قلاوون ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة القاهرة ب.ت، ص٢٧ .

١- The Crusader in The East, p. 252 .

٢- عن تلك الوثيقة التى نشرها كنج فى كتابه عن فرسان الإسبتارية فى الأرض المقدسة انظر :

John de Villiers, Aletter of John de Villiers Master of The Hospital describing the fall of Acre, in King, The Knights Hospitallers in The Holy land , pp. 301-303 .

٣- Stevenson , The Crusaders in The East, p. 252 .

٤- La Monte. Feudal Monarchy , p. 276 .

٥- إبراهيم خميس، العلاقات السياسية، ص٢١٩ .

أن الداوية كانت تقوم بالدفاع عن مقرها داخل عكا الذى وقع فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة.

ويلاحظ أنه على الرغم من كافة تلك التجهيزات ؛ إلا أن عكا احتوت على عناصر الضعف والانهيار الداخلى، ومن مظاهر ذلك تعدد الجنسيات بها، واختلافها فى المصالح ، والأهداف ، كذلك لانغفل الإنحلال الخلقى الذى اشتهرت به تلك المدينة على نحو خاص ناهيك عن التصارع السياسى العارم [١]. ولاريب فى أن تصارع كافة تلك العناصر يجعلنا ندرك أن سقوط الكيانات السياسية من الداخل قبل الخارج ، وذلك قانون التاريخ الذى لم تحد عكا عنه قيد أنمله .

مهما يكن من أمر ؛ فإن المماليك عملوا على جلب أدوات الحصار المتعددة التى كان لها أثرها فى تحطيم أسوار المدينة ، وقد قرر ابن بهادرانه اجتمع علي عكا من المجانيق الكبار، والصغار مالم يجتمع على غيرها[٢]، بلغ عدد المجانيق نحو اثنين وخمسين منجنيقًا ، وتم تجهيزها خلال أربعة أيام[٣]، وإلى جانب ذلك كانت هناك الدبابات ، والكباbيش وغيرها من أدوات الحرب فى الجيش المملوكى ، ولاريب فى أن تجهيزات الجيش المملوكى فى حملته على عكا أظهرت لنا أننا أمام امكانيات حربية ضخمة تتفق مع الوزن الحربى، والسياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، كما أنها عكست مدى الاهتمام الكبير الذى أظهره السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى مواجهة عكا ، وتحقيق الحلم الذى طالما راود المسلمين بشأن إسقاطها فى قبضتهم .

ويهمنا هنا ؛ تناول الأدوار التاريخية التى قام بها فرسان التنظيمات الدينية الحربية الصليبية خلال أحداث حصار عكا؛ ففى أول الأمر قام الداوية بشن هجوم عنيف على حامية

١- Gibbon , A History of The decline and fall of The Roman Empire, vol . II, London 1953, p. 421 .

محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية، ، ص٥١٧ .

٢- فتوح النصر، جـ٢ ، ورقة (١٦٩) .

٣- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، جـ٨ ، تحقيق لجلاء عز الدين وقسطنطين زريق ، ط. بيروت ، ص١١١ .

حماه، بيد أن المسلمين تمكنوا من صد هجومهم وتم أسر بعضهم وعاد البعض الآخر إلى مواقعه بعد أن أصيب التنظيم بخسائر فادحة من الناحية البشرية[1]، وقام الاسبتاريون بعد ذلك بهجوم آخر فى فى جنح الظلام، غير أن المسلمين أشعلوا المشاعل من فورهم فأحبطوا الهجوم، وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من المهاجمين ، ولما أيقن هؤلاء الآخرون مدى فداحة خسائرهم اتجهوا إلى اتباع سياسة دفاعية[2] ، ومن ناحية أخرى؛ فقد شارك تنظيم التيوتون فى الدفاع عن عكا، واستمر يقوم بعملياته الحربية ضد المماليك[3].

وعلى الرغم من المقاومة التى أظهرها القوات الصليبية داخل عكا؛ إلا أن المدينة سقطت فى مايو ١٢٩١م / جمادى الأولى ٦٩٠هـ[4]، ويهمنا هنا ذلك الدور الذى لعبته عناصر الرهبان الفرسان بعد سقوط المدينة وخضوعها للسيادة المملوكية .

وللإنصاف التاريخى ؛ فإن تلك العناصر الصليبية أظهرت دفاعًا مستميتًا فى مواجهة المسلمين، وكان ذلك الدفاع أمراً لم تنكره المصادر التاريخية العربية واللاتينية ، على حد سواء، وأشار البعض إلى ذلك صراحة بينما اتجه البعض الآخر إلى الإشارة الضمنية ، ويلاحظ أن المؤرخ بيبرس الدوادارى وهو شاهد عيان معاصر لسقوط عكا فى أيدى المماليك، أورد رواية توضح أن الفرنجة تحصنوا فى الأبراج الشواهق التى كان فيها الاسبتارية والداوية الذين كانوا يقاتلون قتالاً مدراراً[5] وذكر ابن تغرى بردى نفس الرواية ، حيث أورد لنا ما

١- عبد الرؤف عفيفى، الأشرف خليل بن قلاوون، ص٢٨ .

٢- نفسه، نفس المرجع والصفحة.

٣- Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem , p. 342 .

٤- عن سقوط عكا أنظر :

بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة ، ص٣٢٥، أبو الفداء، المختصر ، جـ٤ ، ص٢٦ ، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣ ، ص٣٢٠، ابن أيبك الدوادارى، الدرة الزكية ، ص٣٩ ، مفضل ابن أبى الفضائل ، النهج السديد، ص٥٤٧ ، البغدادى، عيون أخبار التواريخ ، ورقة (٧٠) ، مصطفى الكنانى ، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى، جـ٢ ، ص٢٨٤ .

Holt , The Age of The Crusades, p. 104 .

٥- بيبرس الدوادارى، المصدر السابق ، ص٣٢٥ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه، ص٣٧٥ .

يؤكد لنا أن الاسبتارية والداوية قد تحصنوا فى أبراج شواهق فى وسط المدينة[١]. بينما حدثنا أبو الفدا عن أن عدداً من الأجزاء الحصينة فى داخل المدينة تحصن بها بعض الفرنج ، ولم يذكر هويتهم أو صفتهم [٢]، غير أن من الممكن التقرير بأن الاسبتارية والداوية وغيرهم من عناصر الرهبان الفرسان : هم الذين حملوا لواء المقاومة العنيفة ضد المماليك على الرغم من عدم التكافؤ فى العدد والعتاد بين الجانبين حتى بعد سقوط المدينة فى أيدى المماليك وتقرر أمرها لصالحهم .

وإذا كانت المصادر العربية قد ذكرت روايتها السابقة معضده للدور الحربى لأولئك الرهبان الفرسان ، فإن المصادر اللاتينية تلقى ضوءاً كاشفًا ، وتتمثل فى الرسالة المرسلة من مقدم الاسبتارية جان الفليبرى إلى صديقه فى أوربا واصفًا له الظروف العصيبة التى أحاطت بالتنظيم خلال حصار جيش الأشرف خليل للمدينة ، وتوضح لنا المجهودات التى بذلها أفراد تلك التنظيمات ومدى استبسالهم فى القتال ضد أعدائهم دون جدوى[٣]. وتجلى مظهر آخر من

١- النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص٦ .

٢- أبو الفداء، المختصر ، جـ٤ ، ص٢٦ .

عن أبى الفداء أنظر : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٩ ، ص٢٩٢ ، ص٢٩٣ ، الزبيدى، ترويح القلوب فى ذكر الملوك بنى أيوب ، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٤٧ ، نفيس أحمد ، الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى، ت. فتحى عثمان ، ط. الكويت ١٩٧٨م، ص١١١- ص١١٢ ، حسين أحمد أمين، الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين المعاصرين لها، ط. القاهرة ١٩٨٣م، ص٢٠- ص٢١ ، محمد مؤنس عوض ، الجغرافيون والرحالة المسلمون زمن الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص١٩٥- ص١٩٦ .

وعن مقاومة عناصر الرهبان الفرسان انظر هذه المقالة الممتازة :

Little , "The Fall of Akka in 690 / 1291 : The Muslin Version" in N. Sharon , ed ., Studies in islamic History and Civilization in Honour of Professor David Ayalon, Jerusalem : Cana, Leiden 1986, p. 175 .

٣- John de Villiers, pp. 301-303 .

٤- Ibid , p. 301-302 .

Barber, Trial of Templars, p. 13 . Duggan , the Story of the Crusades, p. 250 .

مظاهر الدور الحربى الذى لعبته تلك العناصر الصليبية من خلال معرفتنا بأن مقدم الاسبتارية ذكر أن مقدم الداوية سقط قتيلاً من خلال دفاعه هو ورجاله عن الحوائط التى عهد إليه بأمر الدفاع عنها هو ورجال التنظيم، أما مقدم الاسبتارية ، فقد ذهبت إحدى المؤرخات إلى القول بأنه سقط قتيلاً [١]، غير أن هذا الرأى لايجد ما يدعمه من مصادر لاتينية، فالوثيقة المذكورة التى كتبها مقدم الاسبتارية نفسه، توضح لنا أنه جرح فقط وتمكن من الانسحاب مع باقى القوات الصليبية من المدينة[٢].

ويلاحظ أنه فى أعقاب سقوط مدينة عكا فى قبضة المماليك : قام المنتصرون بقتل عناصر الاسبتارية والداوية وباقى عناصر الرهبان الفرسان الأخرى[٣]، وتأكدت تلك الحادثة من جانب المصادر اللاتينية والعربية على حد سواء : فأعادت إلى الأذهان ما حل بهم من قتل على أيدى المسلمين فى أعقاب معركة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، وعقب الاستيلاء على قلعة صفد عام ١٢٦٦م / ٦٦٤هـ .

وبسقوط عكا؛ فقدت تلك التنظيمات مركزها القيادى الحصين على مدى المائة عام السابقة على قوطها، ولم يبق لهم سوى بعض المراكز مثل انطرطوس ومثليث ، ويلاحظ هنا أنها سقطت فى نفس عام سقوط عكا أى ١٩٢١م / ٦٩٠هـ وارتحلت حاميتها إلى جزيرة قبرص[٤]، بينما ظلت جزيرة ارواد أمام انطرطوس مركزاً صليبيًا حتى عام ١٣٠٣م / ٧٠٣هـ، وعلى أثر ذلك انتقلت تلك التنظيمات إلى الجزر المتناثرة فى البحر المتوسط مثل قبرص Cyprus [٥]، وورودس

١- سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ط. القاهرة ١٩٦٧م، ص١١٧ .

٢- John de Villiers, p. 302 .

٣- Ludolph von Suchem, p. 59 .

بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة ، ص٣٢٧، ابن أيبك الدودارى ، الدرة الزكية ، ص٣١٠ ، مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زرستين Zetlersteen تحت عنوان :

Beitrge Zur Geschichte der Mamlukensultane ,

ط. ليدن ١٩١٩م، ص٨ .

٤- بيبرس الدواداري ، زبدة الفكرة ، ص٣٣٠ ،

Fedden, Crusades Castles, p. 59 .

٥- انظر : سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٥٧م.

عاطف مرقص، قبرص والقوى الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين، رسالة دكتوراه - غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩١م .

Rhodes (١) ، ومالطة Malta (٢)، حيث أسسوا كيانات سياسية هناك دامت أمداً طويلاً ، وهى تحاول بعث فكرة الصليبيات ضد ديار المسلمين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

على أية حال ، يلفت البعض النظر إلى مصادفة تاريخية لاتخلو من غرابة ، فيقرر- أنه فى نفس اليوم الذى سقطت فيه عكا فى قبضة المماليك والساعة ذاتها من عام ١١٩١م / ٥٨٧هـ استولى الصليبيون على عكا من السلطان صلاح الدين الأيوبى(٣). وهى مصادفة ذات طابع قدرى صرف، وأكدت أن التاريخ دول، وأن دولة الصليبيين فى بلاد الشام حان ميعاد أفولها من بلاد الشام إلى الأبد.

والآن : من الممكن أن نتناول النتائج التى نتجت عن إسقاط عكا فى قبضة المماليك، والواقع أنها متعددة ؛ فيلاحظ أن الوجود الصليبى فى بلاد الشام؛ وجهت له لطمة قاضية ، وأمكن طرد آخر بقايا الغزاة من الأرض المسلمة ، كذلك ارتفع شأن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذى سجل التاريخ اسمه كأحد القادة البارزين الذين اسقطوا الكيانات السياسية الصليبية الكبيرة سواءً الإمارات أو المدن، ومن ناحية أخرى، تأكد لدى المؤرخين صحة الوصف الذى وصفه المؤرخ الكفيف صاحب البصيرة ابن واصل عندما وصف المماليك بأنهم «داوية الإسلام» المدافعين عن حياضه، ولانغفل هنا أنه بسقوط عكا انتهت المرحلة الشامية من الحروب الصليبية لتبدأ «المرحلة الجزرية» ونعنى بها جزر البحر المتوسط السالفة الذكر التى ارتبطت بها الصليبيات من الآن فصاعداً كمراكز استقرار وانطلاق لمهاجمة مناطق المسلمين .

على أية حال ؛ فإن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذى يوصف بأنه آخر السلاطين المماليك «الكبار» فى مشروع الجهاد ضد الصليبيين لم يطل به العمر، إذ تعرض للاغتيال بعد وقت قصير من اسقاط عكا، وبذلك يتأكد لنا ما قد لاحظناه من قبل فى صورة النهاية المأساوية للعديدين قادة الجهاد الإسلامى الذين نذروا أنفسهم له، وانتهت حياة بعضهم على مثل تلك الصورة الدموية وهكذا، انضم ذلك البطل لقافلة احتوت شرف الدين مودود، وآق

١- انظر : سامى سلطان سعد، الاسبتارية فى رودس ، رسالة دكتوراه غير منشوره كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م.

٢- انظر : Cavaliero, The last Crusaders, London 1960 .

٣- الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص٣٢٠ .

سنقر، وعماد الدين زنكى وسيف الدين قطز سواء كان جهادهم ضد الصليبيين أو المغول، إذ أن الهدف واحد وتمثل في الدفاع عن ديار الإسلام.

والجدير بالذكر هنا : أن الأشرف خليل قام بذلك الدور التاريخى ولم يكن عمره قد تجاوز العشرين عامًا ، وهو أمر يذكرنا بما حدث فيما بعد عندما تمكن محمد الفاتح العثمانى من الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣م / ٨٥٥هـ ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والعشرين عامًا ، على نحو يعكس أن الدخول إلى بوابة التاريخ لايشترط لها عمراً محدداً ومن الممكن لشباب فى ربيع العمر أن يكتب له المجد والفخار .

على أية حال : قد يتوهم البعض أن الصليبيات انتهت بسقوط عكا، غير أنها استمرت من بعد ذلك ، وظلت الروح الصليبية تحاول الإنطلاق صوب مناطق متعددة من أملاك المسلمين فى النطاق البحر المتوسطى، ويكفى للتدليل على فكرة الاستمرارية من واقعة هجوم القبارضة فى عهد بطرس الأول لوزينيان Peter Lusignan على مدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ[١] وسلبها، ونهبها ، وسفك دماء أهلها كشأن مذابحهم التى أقاموها للمسلمين والمسيحيين على حد سواء فى بيت المقدس ، والقسطنطينية ، ودمياط وغيرها.

١- عن تلك الحملة الغادرة انظر : النويرى السكندرى ، كتاب الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقفة الاسكندرية ، تحقيق عزيز سوريال عطيه، ٧ أجزاء ، حيدر أباد الدكن ١٩٦٨-١٩٧٦م .

حسن حبشى ، «هجوم القبارضة على الاسكندرية ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م من نصوص جديدة للنويرى، المجلة التاريخية المصرية ، م (١٥) عام ١٩٦٩م .

Edbury , " The Crusading policy of king peter I of Cyprus 1359-1369 ", in The Eastern Mediterranean lands in the Period of the Crusades, ed. by P. M. Holt , London 1977, pp. 90-105 .

وعن النويرى السكندرى : المؤرخ المعاصر لأحداثها ، انظر : عزيز سوريال عطية، أحد مصنفى الموسوعات السكندريين فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) دراسة نقدية تحليلية لكتاب (الإلمام) للنويرى السكندرى ت. جوزيف نسيم يوسف ، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م ، ص١٥٩- ص٢٣٩ .

وهكذا : كانت نهاية الصليبيين فى بلاد الشام ، عادت بهذه الانتصارات جميع بلاد الساحل بأكمله إلى المسلمين ، وهكذا فإن الصليبيين الذين كانوا قبلاً على أهبة فتح دمشق ومصر ومناطق أخرى طردوا من كل بلاد الشام والمناطق الساحلية[١].

على أية حال؛ من بعد عكا كانت هناك بعض المراكز الأخرى مثل صيدا، وبيروت، وعثليث، وطرطوس، وجميعها سقطت فى أيدى داوية الإسلام ، ومن بعد ذلك اتجه الأخيرون إلى هدم قلاع الساحل حتى لايعود الصليبيون إلى المنطقة مرة أخرى من خلال تلك المواقع الحصينة [٢].

ويعلق المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه على تلك الأحداث فى مراره ظاهرة قائلاً «سوريا الفرنجية ألقيت فى البحر فى ربيع سنة ١٢٩١ فضاع سدى قرنان من البطولة وأحرزت اسيا ثأرها من أوربا »[٣].

ومن المهم ملاحظة أن الصليبية تمثل ظاهرة تاريخية مستمرة ولاتزال قائمة إلى يومنا هذا ، مع ملاحظة أنها اتخذت أشكالاً جديدة ، ولم تعد بنفس الصورة العدائية الحربية التقليدية التى وجدت خلال العصور الوسطى، ولاتزال «الروح الصليبية» تحرك قطاعات لها شأنها فى الغرب الأوربى وبالتبعية التاريخية الكيان الأمريكى أيضًا ، وليس ذلك إلا بسبب الميراث المؤسف لعصر الحروب الصليبية ، فالصليبية بالتالى جزء أساسى فى العقل الجمعى الأوربى والأمريكى، وينبغى ألايغفل عن أذهاننا أن حركة الاستعمار الأوربى للعالم العربى فى العصر الحديث ما هى إلا الامتداد الطبيعى للحروب الصليبية فى العصور الوسطى ، وقد يتصور البعض أن هذا القول يحوى مبالغة ما، غير أن الواقع التاريخى يؤكده، ولايمكن فهم حركة الاستعمار الاوربى فى العصر الحديث خاصة للعالم العربى إلا من خلال فهم أساسها فى المرحلة القروسطية ومن المهم أن نلاحظ أن الاتصال بالغرب – حتى فى العصر الحديث- لم يكن كله

١- أمين معلوف ، الحروب الصليبية كما رآها العرب ، ص٣٢١ .

٢- عن ذلك انظر :

Hardwicke , " The Crusader States 1192-1291", in Setton, A History of the Crusades, vol. II, Madison 1969, p. 598 .

٣- رصيد التاريخ ، ص١٥٢ .

تنويراً مثلما يتوهم البعض، بل إلى جانب ذلك الأمر، هناك عمليات الاستخراب ، والنهب والسلب المنظم لثروت المستعمرات ، وكذلك ما هو أخطر فى صورة التبعية الفكرية والثقافية للغرب، وهى داء عضال ليس فى الإمكان الشفاء منه دون الحفاظ على هويتنا العربية الإسلامية والمزج الواعى بين الأصالة والمعاصرة وألايتحول بعضنا إلى أبواق دعائية للغربُ الذى يريد ايجاد من يحقق أهدافه على حساب أهداف أبناء منطقتنا ذات التاريخ الدامى معه فى عصر الصليبيات من قبل.

مهما يكن من أمر، فذلك عرضنا عن المماليك داوية الإسلام والصليبيين ١٢٦٦-١٢٩١م/ ٦٦٤-٦٩٠هـ أما الفصل التالى فيتناول نتائج الحروب الصليبية سواء على الغرب الأوربى أو الشرق الإسلامى .

الفصل الثالث عشر

نتائج الصليبيات على
الغرب الأوربى والشرق الإسلامى

يتناول هذا الفصل بالدراسة : نتائج الحروب الصليبية على كل من الغرب الأوربى وكذلك الشرق الإسلامى، ولاريب فى أنها أثرت فى الطرف الغازى مثلما أثرت أيضًا فى الطرف الذى تعرض للغزو مما يعكس لنا أهمية النتائج التى نتجت عن تلك الظاهرة التاريخية الكبرى فى عالم القرون الوسطى.

وواقع الأمر؛ أن الباحث فى هذه الناحية يواجه بعض الصعوبات من خلال تقدير حجم ومدى ذلك التأثير الذى ترك على الجانبين المتنازعين ، مع ملاحظة أن هناك من قد يتوهم بأن القرنين الذين كانا يمثلان عمر الوجود الصليبى فى الشرق وهما القرنان الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين لم يكونا بذات التأثير - من الزاوية الحضارية الإسلامية- الذى أحدثته ثمانين قرون فى الأندلس ، ونحو قرن ونصف من الزمان فى صقلية، وهكذا ، وجدنا من يفضل فعالية المناطق الجغرافية الواقعة فى قلب جسد القارة الأوربية سواءً فى جنوبها أو فى غربها عن تلك المنطقة الواقعة إلى الغرب من آسيا ، وفى مواجهة كل من أوربا وأفريقيا ونعنى بها بلاد الشام.

وفى تصورى؛ أن الأمرلايرتبط بموقع جغرافى وأفضليته فقط، بل من خلال اعتبارات أخرى، لاسيما العمق الحضارى للموقع الذى يأتى إليه وافدون عليه يغزونه بقوة السلاح ويتصورون أنهم تفوقوا على أهله بتلك القوة ، ثم من بعد ذلك تؤكد وقائع التاريخ أنهم- على المدى البعيد- لم ينتصروا، بل أنهم خضعوا للتأثير الكاسح لأبناء تلك المنطقة خاصة إذا كان لها خاصية فريدة هى «الفلترة» ، و«الامتصاص» ، و«الاحتواء» ، ولم تكن تلك الصفات لتغادر منطقة بلاد الشام ذات الطبيعة التاريخية الخاصة المذكورة بالإضافة إلى أنها مثلت -فى الأصل- منطقة التقاء العديد من حضارات العالم القديم - كالحضارة المصرية واليونانية والفارسية والرومانية فوصفت بأنها منطقة «التقاء الحضارات» وكأن عصا تسيار العالم وضعت عندها، وهى خاصية امتلكتها أيضًا بجدارة شقيقتها الجغرافية والتاريخية «مصر»

بطبيعة الحال من خلال زاوية «الشامصر» التى سبق وأن تناولتها عدة مرات على مدى فصول هذا الكتاب.

وفى تقديرى المتواضع ، أن تلك الخصائص السالفة الذكر التى امتلكتها بجدارة تاريخية بلاد الشام، لم تتوافر لغيرها من المناطق ويكشف لنا الاستقراء التاريخى العام لتلك البلاد أن كثيراً من الغزاه قدموا إليها واحتوتهم وامتصتهم ثم لفظتهم وإن طال أمد وجودهم على أرضها يستوى فى ذلك غزاة العالم القديم والوسيط وكذلك الحديث والمعاصر ، على نحو عكس تفرد تلك المنطقة ، وخصوصيتها ، ولاريب فى أن ذلك كان له دوره البارز عند تناول الأثر الذى وقع على الصليبيين على مدى القرنين السالفى الذكر هناك.

وواقع الأمر؛ أن الصليبيين على أرض بلاد الشام وبعد استقرارهم هناك واجهوا موجة من التمشرق شاملة لم يستطيعوا لها دفعًا ، وتلك الموجة هى التى قدمت رد الفعل الإسلامى الشامى على المدى البعيد للتحدى الصليبى، خاصة إذا ما أدركنا أنه إلى جانب التفوق الحضارى لبلاد الشام كجزء من مراكز الحضارة الإسلامية المزدهرة شأنها فى ذلك شأن العراق وأقاليم المشرق الإسلامى المتعددة وكذلك مصر، وإلى جانب ذلك كان الغرب الأوربى الذى خرجت منه ظاهرة الحروب الصليبية متخلفًا على المستوى الحضارى، ولاتصل حضارته البته إلى مستوى حضارة عالم الإسلام البالغة الرقى- دونما تعصب أجوف - بل من خلال موضوعية راسخة- وهكذا لم يكن أمام الصليبيين إلا أن يتأثروا بتلك الحضارة شاءوا أو أبوا خاصة مع تعاقب الأجيال الصليبية ووجود اجيال ولدت على الأرض التى تنزع عليها الجانبان ونعنى بها بلاد الشام.

والجدير بالذكر هنا ؛ أن التأثير الإسلامى على الصليبيين امتد على نطاق جغرافى واسع فمن بلاد الشام امتد إلى قلب الغرب الأوربى ذاته، مما عكس الدور البارز لتلك الظاهرة التاريخية الفريدة ونعنى بها ظاهرة الحروب الصليبية .

ولاريب أن الغرب الأوربى ذاته ؛ كان حينذاك يعيش مرحلة محورية فى تكوينه الفكرى وفى رغبته الوثابة فى التطلع إلى الافادة من الحضارات الأخرى خاصة فى صورة نهضة القرن الثانى عشر التى سبقت الإشارة إليها من قبل ، وهذا يكشف لنا عن خاصية مهمة وهى أنه ليحدث التأثير الحضارى لابد من توافر حضارة متفوقة تعطى عطاءها الحضارى ، وأيضًا من يريد الافادة من ذلك ، وكان الغرب الأوربى هو الطرف الآخر الذى أراد أن ينهل من تلك

الحضارة ، وهكذا توافر ركنى التأثير والتأثر ، وفى ذات الحين لانغفل معابر الحضارة الإسلامية الأخرى التى من خلالها تعلمت أوربا من تلك الحضارة فى صقلية وجنوب ايطاليا وكذلك الأندلس. مع إدراكنا الكامل لخصوصية بلاد الشام حيث قدم إليها مئات الآلاف من الصليبيين كحجاج ، وتجار، وجنود، ومنهم من استقر هناك ومنهم من عاد أدراجه إلى أوربا، كذلك هناك الجيوش التى تأتى وتستقر ردحًا من الزمان وتعود إلى القارة الأوربية وقد تغير فيها شىء ما لأن من يستقر هناك يتعامل يومًا مع نمط حضارى مختلف عن النمط الأوربى، ثم إذا ما لاحظنا أن الحروب الصليبية كحركة تاريخية عدت ظاهرة بحر متوسطية ؛ أدركنا إمكانية التأثير على نطاق متسع من جانب المسلمين فى الغرب الأوربى عبر أبناء ذلك الغرب، ومن خلال الواقع الجغرافى المعاش حيث وجدت وسائل الاتصال المتعددة البرية ، والبحرية التى جعلت من ذلك التفاعل أمراً ميسوراً .

ولانغفل ناحية مهمة هنا؛ وهى تتمثل فى الدور البيزنطى على المستوى الحضارى حيث قامت الامبراطورية البيزنطية بدور الجسر الحضارى الذى عبرت من خلاله حضارة الإسلام فى ذلك العصر إلى الغرب الأوربى ، خاصة أنها تأثرت بحكم الموقع الجغرافى- بتلك الحضارة وأثرت فيها بالطبع ، وكثيراً ما مر بربوعها الصليبيون وعادوا عبرها ، وكذا لعبت دورها الفعال حينذاك ، مع عدم اغفال تأثير المراكز والجسور الحضارية الأخرى التى تعايشت معًا من خلال عصر واحد بظروف تاريخية مشتركة ومتشابهة .

وهكذا ؛ نستطيع أن نخلص إلى مقولة محورية وهى أن الغرب الأوربى الذى أطلق سهام الصليبيات على الشرق فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى ؛ لتؤدى إلى الدمار، والخراب ردت إليه فى صورة تأثير حضارى كاسح من خلال طبيعة تلك المنطقة التى تلقت صدمة الغزو العسكرى، كذلك من خلال تعدد جسور التأثير ووسائله ، ومن خلال النطاق الجغرافى البحر متوسطى الذى من عن طريقه أمكن التأثير بعمق فى الغرب الأوربى .

والآن نستعرض التأثيرات التى أحدثتها الحروب الصليبية على الغرب الأوربى على المستويات الاقتصادية والسياسية والفكرية ونواحى العمارة والفروسية وغيرها من مجال التأثر الأخرى .

والواقع أن التأثير الاقتصادى للحروب الصليبية على الغرب الأوربى كان كثيراً ، ولأدل على ذلك من ملاحظة : أن الكثيرين هناك باعوا أرضهم من أجل الاشتراك فى المشروع

الصليبى كذلك اضطروا إلى الاستدانة ، ونتج عن ذلك إنخفاض أسعار الأراضى والعقارات فى الغرب الأوربى حينذاك من خلال تزايد العرض على الطلب [١]، وهناك من يقرر أن ذلك الوضع ساعد على اضطراب النظام الاقطاعى وأدى إلى احداث خلل فى الضرائب الاقطاعية، ولذلك لجأ ملوك أوربا إلى فرض ضرائب جديدة فى صورة ضريبة «العشور» .

وجدير بالذكر أن أول من بدأ الاتجاه إليها الملك الفرنسى لويس السابع ، وذلك عندما اتجه إلى المشاركة فى أحداث الحملة الصليبية الثانية، ونظراً لاحتياجه المال؛ عمل على شن تلك الضريبة ، وسار على نفس خطاه ملوك أوربيون آخرون سواءً فى فرنسا أو خارجها ، مثل فيليب أغسطس وريتشارد الأول قلب الأسد[٢]، وقد لاحظنا من قبل خلال عرض أحداث الصليبية الثالثة أمر عشور صلاح الدين Saladin Tithes [٣]، من أجل تمويل تلك الحملة الصليبية ، وعلى ذلك المقرر أن الحروب الصليبية : أدت إلى تطوير النظام الضرائبى فى أوربا حينذاك.

وينبغى ألانغفل؛ أن تمويل الحملات الصليبية بصفة عامة، كان أمراً بالغ الصعوبة ، حيث احتاج القادة وكذلك المشاركون فيها الأموال الطائلة من أجل دعمها ، ويكفى أن نذكر أن رحلة الحاج إلى الأرض المقدسة احتاجت توفير نفقات عام كامل من أجل تحقيق ذلك الحلم، فما بالنا بجيوش كاملة، تذهب ليس للحج، بل للحرب، ولذلك عمل بعض الباحثين إلى دراسة تمويل الصليبيات[٤] باعتبارها من العناصر الأساسية فى دراسة المشروع الصليبى برمته.

ومن زاوية أخرى : من الملاحظ أن اشتراك الأقنان فى المشروع الصليبى قد أفقد أوربا جانبًا مهمًا من البيئة البشرية التى احتاجتها للزراعة، واتجه السادة الاقطاعيون إلى الاستعانة

١- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٧٧م، ص٣١٧ .

٢- نفسه، نفس المرجع، ص٣١٧ .

٣- Barker, The Crusades, p. 61 .

٤- انظر دراسة كونستابل الممتازة :

Constable , "The Financing of the Crusades in the Twelfth Century", in Outremer studies in the History of crusadug Kingdom of Jerusalem, Presented to Joshua prawer, ed. by B. kedar, R. Smail H . Mayer , Jerusalem 1982, pp. 64-88 .

بعناصر من الأحرار بدلاً منهم [١]، كذلك نجد أن ذلك العصر شهد ما وصفه بالبعض «باختلال الزراعة»[٢]، ووجد اتجاه الاقتصاد الأوربى نحو التجارة التى ازدهرت ازدهاراً بالغًا خاصة من خلال الدور الفعال الذى قامت به المدن التجارية الايطالية مثل البندقية، وجنوة ، ومن خلال الثورة التجارية التى سبق وأن أشرت إليها من قبل، ومع الصفقات التجارية الضخمة التى عقدت مع الشرق تدفقت الأموال على الغرب الأوربى خاصة بعد تحجيم دور المسلمين كوسطاء تجاريين وتصدى المدن الايطالية للأمر بصورة غير مسبوقه ، وهكذا ، فليس غريبًا أن قامت الأسرات التجارية الايطالية بدورها البارز فى هذا الشأن، ومع تدفق الثروة ، ووجود بعض الأسرات الواعية لدورها الحضارى، وجدنا أن ايطاليا هى أولى الدول الأوربية التى حدثت بها النهضة الأوربية الحديثة، مما عكس أن الاتصال بالشرق والاثراء من ورائه أفاد أوربا تمامًا على كافة المستويات الاقتصادية والفكرية فيما بعد .

والأمر المؤكد ؛ أن انتعاش التجارة فى الغرب الأوربى واكبه انتعاش نشاط أعمال المصارف، وكذلك الازدهار الذى أصاب الأسواق ، ومنطقى أن الاهتمام زاد بالطرق البرية والبحرية ، على نحو خاص ، ومعنى ذلك كله، ان الانتعاش التجارى الذى أصاب الغرب الأوربى خاصة من خلال المتاجرة مع الشرق أثر بصورة شاملة على مختلف نواحى الحياة هناك .

وواقع الأمر؛ أننا إذا ما نظرنا إلى صورة أوربا عشية القيام بالمشروع الصليبى فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وصورتها فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، سندرك أن الفارق الحضارى الشاسع لم يكن صنيعة أوربية صرفة بل أن أصوله نجدها بجلاء فى الشرق الذى أدت ثرواته إلى تلك «الطفرة الحضارية» التى عاشتها أوربا من خلال اتصالها بالشرق .

ولا أدل على ذلك ، من أن النمو الذى حدث فى حياة المدن الأوربية جعلها تحصل على براءات تحريرها من السادة الاقطاعيين نصت على منحها حريتها الادارية والمالية والقضائية ،

١- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى، ص٣١٨ .

٢- نفسه، نفس المرجع، ص٣١٧ .

وبالفعل صارت العديد من المدن بمثابة «قومونات» أي وحدات سياسية واقتصادية مستقلة في إدارة شئونها الداخلية [١].

وهكذا ؛ يمكن القول: أن التجارة مع الشرق بصورة غير مسبوقة ؛ أدت إلى تغيير شامل في الغرب الأوربي، ويقرر البعض أن «زيت التجارة أضاء نور الحضارة»[٢]، وهو قول تؤكده وقائع التاريخ الأوربي ذاتها واتصاله بالشرق خلال تلك المرحلة .

أما على المستوى السياسي ؛ فيلاحظ أن الحروب الصليبية أدت إلى اجتماع أوربا بأكملها على هدف مشترك واحد، لم تجتمع علي من قبل لقرون عديدة ماضية ، وكان الاتجاه نحو الشرق السمه العامة المميزة للتاريخ الأوربي خلال ذلك العصر[٣]. وهكذا فإن أوربا لأول مرة في تاريخها الوسيط تتجه تلك الوجهة الشرقية بمثل ذلك الالحاح من خلال الدوافع التي سبقت دراستها من قبل .

ومن ناحية أخرى؛ أدت الحروب الصليبية إلى تفكك النظام الإقطاعي- كما أسلفت الذكر من قبل- وهو الذي أدى - من قبل- إلى منافسة الملوك الأوربيين أنفسهم ، حيث كان السادة الاقطاعيون بمثابة ملوك بجوار الملوك الفعليين، وعندما حدثت الدعوة للحروب الصليبية انطلق أولئك السادة إلى الشرق لتكوين أملاك لهم هناك، وباعوا أملاكهم، على نحو دعم نفوذ الملكيات الأوربية ، ويرى البعض: «أن تزايد قوة الملوك وضعف الاقطاعيين من أهم أسباب ظهور القوميات واتحاد الممالك في أوربا »[٤].

زد على ذلك؛ من الملاحظ أن زيادة نفوذ الملكيات الأوربية انعكس بدوره على علاقاتهم مع المؤسسة الكنسية ذاتها، ويلاحظ هنا ؛ أن نفوذ المؤسسة الكنسية تزايد في عصر الحروب الصليبية ، وحققت الكنيسة ثراءً فاحشًا ، ودبت حياة الفساد في صفوف العديين من رجالها البابا نفسه !!! على نحو أدى فيما بعد إلى ثورة عدد من المفكرين الأوربيين على مفاسد الكنيسة ، وهناك من يقرر أن ملوك انجلترا وفرنسا كانوا أول المتمردين على الكنيسة ، وهي

١- عن ذلك : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى، جـ٢ ، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص٣١٠- ص٣١٣ .

٢- محمد سعيد عمران ، الحروب الصليبية ، ص٣٤٧ .

٣- محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص١٥٩ .

٤- نفسه، نفس المرجع، ص١٦٠ .

البلاد التى شارك ملوكها فى الصراع ضد المسلمين فى الشرق فى عصر الحروب الصليبية [1].
وحتى على المستوى الدستورى ، يرى البعض أن دستور انجلترا يعد أثراً من الآثار الناجمة عن الحروب الصليبية [2] - مع عدم إغفال التطور الطبيعى للتاريخ الدستورى الانجليزى ذاته وهو عنصر على قدر كبير من الأهمية- ويلاحظ أنه عندما عاد ريتشارد قلب الأسد إلى انجلترا بعد انتهاء دوره فى بلاد الشام والصعوبات التى لقيها فى أعقاب ذلك، طلب منه مرافقوه تطوير بلاده لتواكب حياة الشرق ، وبدأ الانجليز يطالبون بحياة سياسية ذات اتجاه يضمن حريتهم، وهكذا فإنه فى عهد أخيه يوحنا (١١٩٩-١٢١٦م / ٥٩٦-٦١٣هـ) قامت انتفاضة تطالبه بوضع دستور للبلاد، وأرغم الملك على توقيع ما يعرف بالماجنا كارتا Magna Charta أو العهد الأعظم ، وقد تكون من ثلاث وستين مادة انقسمت إلى أربعة مجموعات تناولت العلاقة بين الكنيسة والدولة ، والعلاقات الاقطاعية بين الملك وأتباعه وكذلك الاجراءات الحكومية الملكية فى القضايا المدنية فيما بين الملك ورعاياه ، كذلك تناولت حقوق البارونات كاملة [3].

ويلاحظ أن الملك يوحنا تعهد بأن يمنح جميع الأحرار فى مملكته كافة حرياتهم كاملة ، وألايتم إلقاء القبض على رجل حر أو أن يسجن أو تنزع ملكيته أو يخرج من دائرة حماية القانون له أو أن ينفى أو يتعرض لأى نوع من الإيذاء إلا من خلال محاكمة علنية بموجب القانون ، ومما يجدر ذكره هنا: أن العهد الأعظم يعد- وبحق- أساس الحريات التى نجد الانجليز يتمتعون بها اليوم مما عكس أهميته البالغة فى التاريخ الدستورى لانجلترا [4].

أما الأثر على المستوى الفكرى: فيلاحظ أن هناك اتجاهًا لدى بعض الباحثين يرى أن الصليبيين ماقدموا إلى المنطقة إلا كغزاة، ولذلك لم يكن هناك ما يجعلهم يتأثرون بحياة المسلمين الفكرية فى بلاد الشام ثم ينقلونها من بعد ذلك إلى الغرب الأوربى بصورة أو بأخرى، بيد أن وقائع التاريخ ذاتها تفند ذلك التوجه .

١- محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب، ص١٦١ .

٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب، ت. عادل زعيتر ، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص٣٦٥ .

٣- عبدالله الربيعى، أثر الشرق الإسلامى فى الفكر الأوربى خلال الحروب الصليبية ، ط. الرياض ١٩٩٤م، ص١٤٨- ص١٤٩ .

وعن الماجنا كارتا انظر :

جيمس دوروثى، الماجنا كارتا (العهد الأعظم) ت. مصطفى طه حبيب، ط. القاهرة ١٩٦٥ م.

٤- عبدالله الربيعى، المرجع السابق، ص١٤٩ .

والواقع أن الحروب الصليبية، تركت تأثيرها على الصليبيين فى بلاد الشام، وكذلك على الغرب الأوربى، ويكفى أن نرصد ذلك فى بعض الاتجاهات ، ومنها على صعيد حرية الفكر، العلوم الانسانية، وعلى صعيد العلوم العملية .

وفيما يتصل بحرية الرأى والفكر المعارض ، نجد أن الغرب الأوربى بعد تجربة الحروب الصليبية التى خسر فيه الرجال، وترملت النساء ، وتيتم الأطفال -ناهيك عن التأثير البالغ الأهمية لحركة الجامعات التى بدأت فى أوربا من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى- أدرك قطاع مهم ومؤثر من ابنائه أن ثمن ذلك المشروع الصليبى الذى دعت إليه البابوية كان فادحًا ، ومن ثم ظهرت أفكار معارضة لفكرة الحروب الصليبية ، على اعتبار أن من الممكن للشخص المسيحى القيام بالعبادة وهو فى بلاده هناك ، ولايحتاج الأمر منه إلى الذهاب إلى الشرق حيث الأماكن المقدسة المسيحية ، وتصاحبه المغامرة والمخاطرة ولاريب فى أن ذلك كان مقدمة لظهور ما يمكن وصفه بالرأى العام المضاد للصليبيات ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك التوجه الشاعر الفرنسى وليم روتبيف [١] William Rutebeuf الذى نظم قصيدة شعرية تتجه إلى معارضة المشروع الصليبى، وهناك أيضًا رالف نيجر Ralph Niger ، وهمبرت الروماتزى Humbert of Romans [٢]، وقد اتجها نفس الوجهة .

ومع ذلك ؛ فالملاحظ أن ذلك التوجه المعارض للحروب الصليبية جاء بعد زمن طويل من الصراع بين الغرب الأوربى والشرق الإسلامى وبعد الخسائر الفادحة التى منى بها الغرب الأوربى من جراء تنفيذ دعوة البابوية فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى ، وكأن ذلك الغرب أصر على ألايدرك الدرس إلابعد المرور فى طريق الآلام، والدماء، والدمار !!!

١- عن ذلك الشاعر وقصيدته انظر :

William Rutebeuf in Masson , Mediaeval France from The Reign of Hugues Capet to the Begining of the Sixteenth Century , London 1888 , pp. 96-97 .

وعن الرأى العام المضاد للصليبيات انظر هذه الدراسة الرائدة فى موضوعها : Throop, Criticism of the Crusad : Astudy of Public Opinion and Crusade Propaganda, Amesterdam 1940 .

٢- عن ذلك بالتفصيل انظر هذه الدراسة الممتازة : Finucane , Soldiers of the Faith Crusaders and Moslems at War, New York 1983, p. 208-209 .

وهكذا ؛ إذا ما أدركنا ظهور الحركات المعارضة للبابوية مثل الوالدنسيين والكتاريين ، وكذلك الفكر المعارض للصليبيات ، أدركنا أننا أمام تغير له شأنه فى الغرب الأوربى ، ولم تعد البابوية هى المسيطرة الكاملة على العديد من مناحى الحياة هناك ، بل حدث تطور له شأنه على مستوى الفكر الأوربى بصفة عامة ، ولم يكن ذلك ليتحقق دون الحروب الصليبية التى أحدثت تغييراً شاملاً هناك، وهكذا يمكن القول بجلاء أن البابوية التى احكمت سيطرتها على الغرب الأوربى عشية قيام الحروب الصليبية ؛ لم تكن بنفس القدرة على احكام ذات القبضة مع نهاية المشروع الصليبى فى مرحلته الشامية ، على نحو أوضح التطور التاريخى الذى حدث هناك، ومن الانصاف أن نقرر أن هناك عاملين ساهما على نحو كبير فى تشكيل العقل الأوربى منذ القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى فصاعداً فى صورة عنصر داخلى وهو الجامعات وعنصر خارجى وهو الاتصال بالشرق من خلال الحروب الصليبية .

أما أثر الحروب الصليبية فى اللغة والأدب ؛ فيلاحظ أن ذلك المجال حدث على نطاق متسع ، ويرصد البعض كلمات عديدة نقلها الصليبيون إلى لغاتهم من خلال وجودهم فى الشرق الإسلامى، ومنها على سبيل المثال لا الحصر كلمة «جلاب» (وهو شراب من بعض الأعشاب العطرية) ونجدها فى الانجليزية Julep ، وفى الفرنسية Julep وفى الاسبانية والبرتغالية Julepe ، وفى الايطالية qiulebbe كذلك نذكر كلمة «سمت» فى الانجليزية Zenith وفى الفرنسية Zénhith وفى الاسبانية Azimut ، كما أن كلمة «شراب» فى الانجليزية Syrup، والفرنسية Sirop وفى الايطالية Sciroppo, Sorropo ، أما كلمة «عود» فهى فى الاسبانية Laud وفى البرتغالية alaude، وإذا اتجهنا إلى كلمة «جرة» نجدها فى الانجليزية jar ، وفى الفرنسية Jarre ، وفى الاسبانية Jarro , Aliara ، وفى البرتغالية Zarro و Jarro وفى الايطالية Giarro و Giaro [1]، وهناك العديد من الأمثلة الأخرى التى لايتسع المجال هنا لإيرادها ، وهى تكشف لنا كيف أن لغة الضاد وجدت من الحروب الصليبية مجالاً متسعًا كى تدلف منه إلى اللغات الأوربية الأخرى.

من ناحية أخرى ؛ أثرت الحروب الصليبية فى تطعيم شعر التروبادور[2] ؛ وهو الشعر الغنائى فى جنوب فرنسا والذى ظهر هناك فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس

١- عبد الله الربيعى، أثر الشرق الإسلامى ، ص٥٦ .

وأنظر أيضًا : البدراوى زهران ، الصراع اللغوى فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ب-ت .

٢- عن شعر التروبادور انظر : مريم البغدادى، شعراء التروبادور ، ط. جده ١٩٨١م، ص٩- ص١٢٩ .

الهجرى، تطور ذلك الشعر على يدى وليم العاشر دون أكويتاين William X of Aquitaine (١٠٧١-١١٢٧م / ٤٧٤-٥٢١هـ) وقد اشترك فى الصليبية الأولى مع غيره من شعراء التروبادور Trapador ويقال أنه أمضى هناك عامًا على نحو أثر على حسه الشعرى، ويلاحظ أن أشعاره لم يبق منها سوى إحدى عشرة قصيدة ست منها حوت شعراً خليعًا ، والخمس الأخريات تناولت الحب العذرى العفيف [١].

زد على ذلك : أن الحروب الصليبية أثرت فى الجانب القصصى لدى الأوربيين ، ولا أدل على ذلك مما تردد لدى البعض من أن جاك الفترى Jacques de Vitry أسقف عكا (١١٧٠-١٢٤٠م / ٥٦٦-٦٣٨هـ) كان يروى بعض المقتطفات من «ألف ليلة وليلة»[٢] لبعض عناصر الصليبيين الذين قدموا إلى بلاد الشام، ومن بعد عودتهم إلى بلادهم قاموا بروايتها على أصدقائهم، وقد تم نشر تلك الأقاصيص من خلال مجموعة قصصية بعنوان «أعمال الرومان» Gesta Romanorum وذلك فى القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى، وهو القرن التالى مباشرة لعصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، ومن خلالها ظهرت فى أوربا قصص مشابهة مثل ديكاميرون Decaméron أى قصص الأيام العشرة التى ألفها بوكاشيو Boccaccio (١٣١٣-١٣٧٥م / ٧١٣-٧٧٧هـ) الايطالى الذى أثر بدوره على تشوسر الانجليزى Chaucer (١٣٤٢-١٤٠٠م ٧٤٣-٨٠٣هـ) فى أشعاره .

وبالنسبة للتاريخ نجد أن الحروب الصليبية قد أدت إلى نقله فريدة فى تطور الكتابة التاريخية فى الغرب الأوربى ، فيلاحظ هنا أن الحروب الصليبية أفرزت لنا المؤرخ الصليبى البارز وليم الصورى William of Tyre [٣]، Williams Tyrannus ، الذى ألف كتابه الشهير

١- عبدالله الربيعى ، أثر الشرق الإسلامى، ص٥٩ .

٢- عن ألف ليلة وليلة أنظر المادة الخاصة بها فى دائرة المعارف الإسلامية ، كذلك انظر :

قاسم عبده قاسم ، «الحروب الصليبية فى ألف ليلة وليلة» ، دراسة فى تأثير الحروب الصليبية على الوجدان الشعبى، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط م(٣) عام ١٩٨٥م ، ص٢٢٨- ص٢٥٧ .

٣- عن وليم الصورى انظر :

Krey , "William of Tyre , The Making of an Historian in The Middle Ages", S., vol . XvI, 1941 , pp. 149-166 .

تاريخ الأعمال التى جرت فيما وراء البحر Historia rerum impartibus Transmarini gestarum, A History of The deeds done beyond The Sea[1] الذى أجاد عدة لغات منها اللغة العربية، وقد طالع المصادر التاريخية العربية ، وأفاد منها عندما اتجه إلى الكتابة التاريخية ، ويلاحظ أنه درس فى الغرب الأوربى على مدى عشرين عامًا خلال المرحلة من (١١٤٢-١١٦٢م / ٥٣٧-٥٥٨هـ) وعاد من بعد ذلك أدراجه إلى الشرق اللاتينى حيث ارتبط بالملك الصليبى عمورى الأول (١١٦٣-١١٧٤م / ٥٥٩-٥٧٠هـ) وعمل على أن يؤلف كتابًا يتناول فيه الملوك السابقين وكذلك الملك عمورى نفسه .

والجدير بالذكر هنا : أن ذلك المؤرخ الصليبى يتسم تاريخه بالروح الناقدة ، والبصيرة النافذة ، فلاعجب أن وجدناه ينقد على المملكة الصليبية عدم التزامها بالاتفاقيات الدبلوماسية التى عقدتها مع المسلمين فى بعض الأحيان، كذلك وجه النقد أحيانًا إلى الهيئات الدينية الحربية خاصة الداوية Templars ، وعمل على نقد الجيل الصليبى الذى حاصره على

= Crawford , " William of tyre and the Maronites", S., vol . XXX, 1955 , pp. 222-228.

Davis, " William of Tyre", in Relations between East and west in the Middle Ages , ed . Derek baker , Edinfurgh 1971 , p. 64-75 .

Vissey , "William of Tyre and The art of Historiography ", Med . Stud., XXXV 1973, pp. 433-455 .

Edbury , "William of Tyre, A Historian of the Crusades and The Kingdom of Jerusalem (1130-1184), B.F.A.A.U, vol. XXXV, 1988 , pp. 43-52 .

Edbury and Rowe , William of Tyre, Historian of the latin East, Cambridge 1988 .

عمر كمال توفيق ، «المؤرخ وليم الصورى »، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية م (٢١) ، عام ١٩٦٨م، ص١٨١- ص٢٠٠ ، السيد الباز العرينى، مؤرخو الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٢م ، ص٩٩- ص١٥٢، ط. القاهرة ١٩٦٢م، محمد مؤنس عوض ، الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٤٩- ص٥٠ ، وليم الصورى مؤرخًا للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية ، سلسلة دراسات شرق أوسطيه، مركز الشرق الأوسط، القاهرة ١٩٩٥م.

١- صدرت ترجمتان عربيتان لتاريخ وليم الصورى، الأولى على يد سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٩٠م، والثانية على يد استاذنا الكبير أ.د. حسن حبشى ط. القاهرة ١٩٩٥م.

اعتبار أنه كان جيلاً ضعيفًا لم تتوافر لديه مؤهلات الجيل الصليبى الأول الذى حمل على كاهله عبء التأسيس، ومن ناحية أخرى؛ وجدنا ذلك المؤرخ يتسم بقدر من الموضوعية ، -مع عدم إغفال ميوله الصليبية الواضحة وهو أمر منطقى ومتوقع تمامًا- ولذلك وجدناه يمتدح السلطان نور الدين محمود ، وكذلك السلطان صلاح الدين الأيوبى بصورة لم نعهدها فى غيره من المؤرخين الصليبيين ، مع عدم إغفال أن كفاءة القائدين المسلمين المذكورين ساعدت ذلك المؤرخ الصليبى على الإشادة بهما على ذلك النحو دونما مواربة.

زد على ذلك؛ أن وليم الصورى تمتع بجانب كبير من الرؤية المستقبلية ، وهكذا وجدناه يتوقع سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية وتحدث فى الفصل الأخير من تاريخه عن من ينقذ تلك المملكة ويلاحظ أنه مات مسمومًا فى الأرجح العام ١١٨٥م/ ٥٨١هـ، وبعد ذلك بعامين كان السلطان صلاح الدين الأيوبى يدخل بيت المقدس فاتحًا عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ فى أعقاب معركة حطين الحاسمة وتحققت رؤيته .

والواقع أنه كثيراً ما يقال أن ذروة الكتابة التاريخية فى الغرب الأوربى ، لم تكن فيه بل فى الشرق اللاتينى على يدى وليم الصورى ، ويلاحظ أن تأثيره هناك كان متعاظمًا حيث وجدت عدة تكملات لتاريخه ، مما يعكس إدراك بعض المؤرخين هناك لأهميته ، ومن ثم حرصوا على إقامة ذيول له وتكملات تضيف إلى الحد الذى وصل إليه ذلك المؤرخ البارز .

ولانغفل هنا أن نذكر؛ أن الحروب الصليبية أفرزت لنا عدداً من المؤرخين ومن أمثلتهم مؤرخ الجستا Gesta المجهول [١]، وفوشيه الشارترى Fucher of Chartres [٢]، والبرت الاكسى Albert d'Aix [٣] ، وكفارو الكاسفلونى Caffaro [٤]،

١- انظر Anonymous , The deeds of the Franks and other pilgrims, Trans. by R. Hill, London 1962 .

صدرت ترجمة عربية له على يد أستاذنا الكبير أ.د. حسن حبشى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م.

٢- Fulcher of Chartres , A History of the Expedition to Jerusalem , Trans. by Rita Rian, Tennesse 1969 .

صدرت ترجمتان له على يدى جميل العسلى وقاسم عبده قاسم .

٣- Albert d'Aix , Historia Hierosolymitano, in R.H.C., T. IV, Paris 1879 .

تعكف الباحثة الانجليزية سوزان ادجتون منذ أعوام على ترجمته إلى الانجليزية .

٤- Caffaro Caschifelone , De Liberatione Civitatum Orientis Liber, ed. R.H.C., Hist. Occ; vol . V .

ورايموند اجيل Raymond d'Aguiler[١]، وبطرس توديبود Peter Tudebode [٢]، وامبراوز Am- broise ، وجاك الفترى Jacque de Vitry [٣] وغيرهم كثير غير أن وليم الصورى على نحو خاص يمتاز عليهم من حيث النزعة العقلانية ، وغزارة التفصيلات ، وشمولية رؤيته التاريخية، وذلك مع عدم إغفال أهمية باقى المؤرخين الصليبيين بطبيعة الحال نظراً لكون الكتابة التاريخية عن ذلك العصر تعتمد - بداهة- على تصوريات كافة أولئك المؤرخين دون استثناء خاصة أنهم تناثروا على امتداد تاريخ الحروب الصليبية وعلى مدى قرنين كاملين .

ومن زاوية أخرى؛ من الملاحظ أنه نتج عن الحروب الصليبية واحداثها الصاخبة وجود مؤرخين من الغرب الأوربى لم يقدموا إلى الشرق اللاتينى عملوا على تسجيل أحداثها ، ومن ذلك ألبرت الأكسى Albert d'Aix الذى لم يتجه إلى زيارة بلاد الشام واعتمد على روايات المعاصرين الذين كانوا يعودون ادراجهم منناك إلى حيث عكف على كتابة تاريخية .

وهكذا نستطيع القول دون مبالغة أو اعتساف فى الأحكام أن الصليبيات أثرت إيجابيًا على الكتابة التاريخية فى الغرب الأوربى من خلال اهتمام المؤرخين هناك بالكتابة فى شأنها، أو تأليف ذيول وإضافات لما ألفه بعض المؤرخين الصليبيين أنفسهم، ومثل ذلك كله تطوراً نوعيًا فى الكتابة التاريخية الأوربية فى العصور الوسطى بصفة عامة ، ولم تكن تلك الإضافة لتحدث دون تأثير الحروب الصليبية بأحداثها الجسام .

ومن ناحية أخرى ؛ تركت الحروب الصليبية تأثرها الوضاح على المعرفة الجغرافية فى الغرب الأوربى، ولاأدل على ذلك من ظهور عدد كبير من الحجاج الذين قدموا إلى بلاد الشام وعملوا

١- Raymond d'Aguilers , Historia Francorum qui Ceperunt Iherusalem, Trans. with Introducion and notes by John Hugh Hill and Laurita Hill, Philadelphia 1968 .

٢- Peter Tudebode , Historia de Hierosolymitano Itinere , Trans. by John Hugh Hill and Laurita L.Hill .

وله ترجمة إلى العربية قام بها حسين عطيه ، ط. الاسكندرية ١٩٩٨ م.

٣- Ambroise , The Crusade of Richard Heart of Lion , Trans , by Hubert, New York 1943 .

٤- Jacques de Vitry, History of Jerusalem , Trans. by Aubrey Stewart, P.P. T.S., vol . XI , London 1896 .

وله ترجمة عربية قام بها سعيد البيشاوى وصدرت فى عمان ١٩٩٨م.

على تأليف رحلات تناولت جغرافية الأرض المقدسة Terrum Sacrum بل أن هناك مؤلفات كانت بمثابة دليل سياحي Touristic Guide إلى تلك الأماكن لمن يرتادها للمرة الأولى حتى ترشده عندما يقصدها ، وفي واقع الأمر أن لدينا مؤلفات متعددة توصف بأنها كتب رحلات أو دلائل جغرافية ألفها أشخاص عديدون من أمم مختلفة ، منهم الانجليزي ، والألماني، والروسي، والاسباني، وغيرهم كثيرون [١]، ومن أمثلتهم رحلة سايولف Saewulf [٢]، الذي زار بلاد الشام في بدايات القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري، ثم هناك الأب دانيال الروسي Daniel [٣]، الذي زار بلاد الشام وخاصة مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد ملكها المؤسس بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨م/ ٤٩٤-٥١٢هـ) وذلك في حوالي عام (١١٠٦-١١٠٧م / ٥٠٠-٥٠١هـ) على الأرجح، كذلك لانغفل الرحالة الألماني ثيودريش[٤] Theoderich ، وكذلك الرحالة يوحنا الورزبرجي John of Wurzburg[٥] الذي قدم من ألمانيا هو

١- عن أولئك الرحالة انظر :

محمد مؤنس عوض ، الرحالة الأوربيون في مملك بيت المقدس الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٢م ، ص٤٢- ص٢٣٨ .

نقولا زيادة ، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٩٨- ص١١٤ .

٢- أنظر رحلته: Saewulf , Pilgrimage of Saewulf , Trans . by Bishop of Clifton , P.P.T.S.,
vol . IV , London 1896 .

ترجمها سعيد البيشاوي وصدرت في عمان عام ١٩٩٧م.

٣- أنظر رحلته: Daniel , Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy land , Trans
by wilson , P.P.T.S., vol . IV , London 1895 .

ترجمها سعيد البيشاوي إلى العربية وصدرت في عمان عام ١٩٩٢م.

٤- أنظر رحلته: Theoderich, Derscription of the Holy Places, Trans. by Aubrey Stewart,
P.P.T.S., vol . V, London 1896 .

٥- أنظر رحلته: John of Wurzburg , Description of the Holy land , Trans . by Aubrey
Stewart, P.P.T.S., vol V, London 1896 .

ترجمها سعيد البيشاوي إلى العربية وصدرت في عمان ١٩٩٧م.

الآخر، وزار مملكة بيت المقدس فى سبعينات القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى، وألفا رحلتين مهمتين للأرض المقدسة فى فلسطين عكستا الاهتمام الألمانى بتلك البقاع ، ولانغفل أيضًا الرحالة الاسبانى اليهودى بنيامين التطيلى Benjamin of Tudela [(١)] الذى زار بلاد الشام هو الآخر فى حوالى سبعينيات القرن الأول من تاريخ الصليبيين هناك ، ولايفوتنا أيضًا الاشارة إلى رحالة يهودى آخر هو بتاحيا الراتسبونى Bethachia of Ratisbon حيث وفد إلى المنطقة وألف رحلته الجديرة بالاهتمام، وكذلك نشير هنا إلى اليونانى يوحنا فوكاس John-nes Phocas الذى ألف كتابًا عن رحلته إلى فلسطين فى سبعينات القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى، ومن القرن التالى وهو القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى : ظهرت عدة رحلات من أهمها رحلة بوركهارد من جبل صهيون[(٢)] Burchard of Mounr Sion وغيرها، مما لايتسع المجال هنا لايراده .

والأمر المؤكد: من خلال استعراض تلك المؤلفات : أن المعرفة الجغرافية الأوربية بالشرق اتسعت بصورة غير مسبوقة من خلال عصر الحروب الصليبية[(٣)] التى عرفت الغرب الأوربى على

١- أنظر رحلته : Pethacia de Ratisbon , Tour du Monde , Ou voyages du rabbin Pethachia de Ratisbonne dans le XII siecle, J.A., Année 1881 .

٢- أنظر رحلته :

Joannes Phocas, A Breif Dscrption of The Holy land , Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S.., Vol . V, London 1896 .

٣- انظر رحلته :

Burchard of Mount Sion, Trans. by Aubrey Stewart , P.P.T.S., vol . XII, London 1896 .

وقد ترجمها سعيد البيشاوى إلى العربية وصدرت فى عمان ١٩٩٥م.

وعنها انظر هذه الدراسة المهمة للباحث الإسرائيلى أربيه جرابوس :

Grabios , " Christian Pilgrims in the Thirteenth century and the latin kingdom of Jerusalem : Burchard of Mound Sion ", in Outremer Studies in the History of the CrusadingKingdom of Jerusalem , Presented to Joshua prawes, ed. by B. Kedar , R.C. Smail , H.E. Mayer , Jerusalem 1982, pp. 285-296 .

٣- انظر فى ذلك دراسة جون رايت الممتازة : =

آسيا لاسيما أجزاء فى غربها ، ومن بعد ذلك ستؤدى محاولات تنصير المغول إلى المزيد من التعرف على مناطق فى وسطها وشرقها . ومن الأمور ذات الدلالة أن الرحالة البندقى الشهير ماركوبولو[١] Marco Polo (ق١٣م / ٧هـ) جاء افرازاً لعصر الحروب الصليبية، وكافة تلك المؤلفات التى ألفها أصحابها مثلت زاداً جغرافيا أوربيًا أفاد أوربا فى رحلتها من العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

ولاريب فى أن عصر الحروب الصليبية مَثَّل مرحلة استكشاف كبيرة من جانب أوربا «للآخر» سواء كان مسلمًا أو يهوديًا خارج حدودها الجغرافية ، ومن قبل تلك الحروب كانت أوربا قابعة ساكنة، منهمكة فى أمورها الداخلية، أما الآن : فالصراع مع الشرق حفز الكثيرين لاستكشاف سحر الشرق وروعته ، ومن ثم الانبهار والتأثر به ، ولانغفل أن تلك الرحلات لم تكن قاصرة على المعارف الجغرافية ، بل أنها احتوت على العديد من الصور عن المجتمعات التى قابلها الصليبيون لاسيما المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى ذلك العصر، فلاعجب إذا ما اتجه البعض إلى تصور تلك الرحلات خاصة خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ، بدايات مبكرة لحركة الاستشراق الأوربى.

ذلك كان تأثير الصليبيات فى مجالات اللغة، والأدب، والتاريخ، والجغرافيا ، أما إذا اتجهنا إلى أحد العلوم العملية فى صورة الطب، نجد أن أوربا أفادت من ظاهرة الحروب الصليبية فائدة عظمى فى تطوير معارفها الطبية، ومن المعروف أن الطب فى الغرب الأوربى فى القرون الوسطى ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالكنيسة التى نظرت إلى المرض على اعتبار أنه عقاب إلهى من جراء الذنوب والآثام التى اقترفها الناس[٢]، ومن ثم وردت إشارات خاصة بمهاجمة كبار رجال الكنيسة للأطباء ودورهم فى علاج الأمراض، من ذلك ما نعرفه من أن جريجورى أسقف تور Gregory of Tours (٥٤٠-٥٩٤م) أنزل عباراته القاسية على الأطباء ، وقرر أن

Wright, The Geographical Lore in the Time of the Crusades, A Study in the History = of Medieval Science and Tradition in Western Europe , New York 1965 .

١- انظر : ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو، ت. عبد العزيز توفيق جاويد، سلسلة الينابيع ، ط. القاهرة.

٢- Ency : Brit., "History of Medicine ", vol . XI , Chicago 1976 , p. 828 .

وظيفتهم تؤدى إلى إلحاق الآلام بالمرضى أكثر من تخفيف حدتها [١]، وعلى الرغم من تلك النظرة ؛ إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور عدد من المنشآت والمؤسسات العلاجية لعبت دورها العلاجى الفعال فى أوربا العصور الوسطى[٢].

مهما يكن من أمر؛ فمع مقدم الصليبيين إلى المنطقة ظهرت لديهم الحاجة إلى الاهتمام بالطب ، لعلاج العديد من الأمراض التى واجهتهم وكذلك توفير العناية الصحية بالحجاج الذين قدموا من كافة أنحاء عالم المسيحية Christendom ، وأيضًا من أجل الحفاظ على البنية البشرية التى عانوا فى الأصل من نقصها، ويلاحظ أن الطب عند الصليبيين تراوح بين تخلف وسائل العلاج أحيانًا كما أشار ذلك اسامة بن منقذ[٣]، أو أنهم تمكنوا من علاج بعض الحالات المرضية التى وصفت بأنها مستعصية [٤]، وبصفة عامة تفوق الطب لدى المسلمين على نظيره لدى الصليبيين ، ولذلك سعوا إلى الافادة من علوم المسلمين الطبية على نحو أفاد الطب فى أوربا ذاتها بالتالى .

والواقع أن أحد الباحثين تصور ما نصه : «عاد الصليبيون إلى بلادهم ولم ينقلوا إليها شيئًا من طب العرب رغم ما كانوا يعرفونه يقينًا من تفوقهم فيه» [٥]، كما رأى آخر أن الصليبيين أصلاً قدموا إلى المنطقة بوصفهم غزاة ولم يقدموا إليها كطلاب علم، بل أنهم، ظلوا

١- زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب، ت. كمال الدسوقى وابراهيم بيضون، ط. بيروت ١٩٨١م، ص٢٢٠ .

٢- عن ذلك بالتفصيل انظر :

محمد مؤنس عوض، أضواء على الطب فى المناطق الصليبية فى المرحلة من ١٠٩٨-١١٧٤م / ٤٩١-٥٧٠هـ ، دراسات شرق أوسطية ، مركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس ، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٥- ص٩ .

٣- الاعتبار ، ص١٧٠ .

٤- محمد كامل حسين، «فى الطب والأقربازين» ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص٢٦٠ .

٥- نفسه، نفس المرجع ، ص٢٦١ .

أيضًا : أحمد طه ، الطب الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٩١ .

فى حالة استنفار عسكرى طوال مدة إقامتهم فى الشرق[١]، بالإضافة إلى ما تصوره البعض من أن الحياة العقلية فى الشرق الفرنجى ليست إلا حياة عقلية خاصة بمستعمرة فرنجية [٢]، ويعنى بذلك أنها حياة مجدبة غير مزدهرة ، كذلك هناك من اعتقد أن ما جرى من تبادل ثقافى بين الصليبيين والمسلمين فى بلاد الشام كان محدوداً لأنهم لم يختلطوا فى الغالب إلا بعناصر الفلاحين وعامة الناس [٣].

وواقع الأمر : أنه على الرغم من الصفه الحربية التى اتصف بها الكيان الصليبى فى بلاد الشام ؛ إلا أن الصليبيين عملوا على الإفادة من علوم المسلمين لاسيما فى الطب، ولا أدل على ذلك من أنهم عملوا على ترجمة كتاب على بن العباس المجوسى المعنون بـ «كامل الصناعة الطبية» أو الملكى، وهكذا ؛ فإن ذلك من شأنه تفنيد ابعاد الصفة العلمية عن اهتمامات الصلبيين ، أو تصور أنهم اختلطوا فقط بالفلاحين وعامة الناس؛ ومنطقى تصور أنهم اختلطوا بقطاعات من الأطباء المسلمين أيضًا.

وواقع الأمر؛ أن على بن العباس المجوس عد أحد كبار أطباء المسلمين، وهو فى الأصل من الأهواز[٤] من أرض فارس ، وتوفى عام ٩٩٤م / ٣٢٦هـ وعرف لدى الأوربيين باسم هالى عباس Haly Abbas [٥]، وألف كتابه الشهير كامل الصناعة الطبية للملك عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى[٦] (٩٤٩-٩٨٣م / ٣٣٨-٣٧٢هـ) ، ووصف الكتاب بأنه «جامع كامل لكل

١- أنتونى ويست ، الحروب الصليبية ، ت. شكرى محمود نديم، مراجعة محمود حسين، ط. بغداد ١٩٦٧م، ص٣٥ .

٢- ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ت. السيد الباز العرينى، ط. بيروت ١٩٩٣م، ص٨٢٢ .

٣- قدرى قلعجى، صلاح الدين الأيوبى، ص٦٢١ .

٤- ابن أبى أصيبعه، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا، ط. بيروت ب.ت ، ص٣١٩ .

٥- Mackinney , Medical Illustrations , in Medieval Manuscripts, London 1969, p. 177 .

٦- عنه انظر : ابن أبى أصيبعه، المصدر السابق، ص٣٢٠ ، حاشية (١)، إدوارد براون ، الطب العربى، ت. داود سليمان ، ط. بغداد ١٩٨٦م، ص٥٦- ص٥٧ .

Sezgin , Geschichte des Arabischen Schrifttum , Band III, Leiden 1970, p. 320 .

ما يحتاج إليه المتطبب »[١]، ويلاحظ هنا أن مؤلفه قام فيه بتلخيص كافة المعارف الطبية حتى عصره أي حتى القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى بصورة اتسمت بالتنظيم والترتيب[٢] بالإضافة إلى العمق ، وتلك الصفات جعلته الكتاب المفضل لدى الأطباء المسلمين إلى أن ظهر إلى الوجود كتاب القانون لابن سينا (ت ق١١م / ٥هـ) فمال الناس إليه [٣]. واعتبرت إحدى الباحثات مؤلفه أول من كتب بصورة عميقة فى الجراحة فى كتابه المذكور [٤]، فلاعجب أن صار المرجع الأساسى لعلم التشريح Anatomy فى سالرنو حيث وجدت هناك مدرسة طبية طبقت شهرتها الآفاق اعتمدت على الطب العربى[٥].

ويلاحظ أن كتاب كامل الصناعة الطبية تمت ترجمته مرتين ، الأولى على يد قسطنطين الأفريقى Constantinus AFricanus فى دير مونت كاسينو Mont Casino فى ايطاليا فى القرن الحادى عشر الميلادى[٦] / الخامس الهجرى ، غير أنه نسب الكتاب لنفسه مثلما فعل بالنسبه لكتب أخرى.

أما الترجمة الثانية؛ -وهى التى تعنينا هنا- فقد تمت فى بلاد الشام وبالتحديد فى انطاكية عام ١١٢٧م / ٥٢١هـ على يد ستيفن الانطاكى Stephenus Antiochenus فى عهد بوهيمند الثانى Bohemond II أمير انطاكية (١١٢٦-١١٣٠م / ٥٢٠-٥٢٤هـ) ، وهناك من يرى أن

١- حاجى خليفه ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، جـ٢ ، ط. استانبول ١٩٤٣م، ص١٣٨٠ .

٢- جاك ريسلر ، الحضارة العربية ، ت. خليل أحمد خليل ط. بيروت ١٩٩٣م ، ص٢٠٣ .

٣- الفاضل لجيب عمر، الطب الاسلامى عبر القرون ، ط. الرياض ١٩٨٧م، ص١٧٥ .

٤- حنيفه الخطيب، الطب عند العرب، ط. بيروت ١٩٨٨م، ص٢٩ .

٥- عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تطوره ، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص١٢٠ .

وعن تلك المدرسة الطبية انظر :

Kristeller , "The School of Salerno , its development and of learning ", B.H.M., vol . XVII, 1979 .

محمد مؤنس عوض، من إسهامات الطب العربى الإسلامى فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص٣١- ص٣٢ .

٦- عبدالله الربيعى، أثر الفكر الإسلامى ص١٢٦- ص١٢٧ .

ذلك كان بمثابة الكتاب الوحيد الذى نقله الصليبيون إلى اللاتينية عندما كانوا فى بلاد الشام [١].

غير أن ذلك التصور لاينطبق على الواقع التاريخى فى شيء ، لأن هناك كتابًا آخر تمت ترجمته فى القرن التالى، ونعنى به القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى وهو كتاب «سر الأسرار فى طب العيون» وترجم فى أنطاكية أيضًا عام ١٢٤٧م / ٦٤٦هـ [٢] .

على أية حال ؛ عرفت ترجمة كتاب كامل الصناعة الطبيه التى قام بها ستيفن الانطاكى باسم Practica Pantegni et Stephononis ، ويلاحظ أن المخطوطات اللاتينية تبرز وجود جزأين من الكتاب، القسم النظرى ويسمى Theorica ومخطوطاته متعددة، وكذلك القسم العملى ويسمى بـ Practic ، ويلاحظ أن مخطوطاته أكثر شيوعًا [٣]، ومن المنطقى تصور أن شيوع نسخ الجانب العملى من الترجمة اللاتينية يعكس الحاجة إليه؛ على أساس أنه يتعرض إلى وسائل المعالجة وأساليبها المختلفة وفقًا لطبيعة كل مرض.

والجدير بالذكر ؛ أنه فى ختام ترجمة ستيفن الانطاكى وضع شرحًا لبعض المفردات التى وردت فى الكتاب كما لدى ديوسقوريدس Dioscorides كبير العشابين اليونانيين القدامى، وتعليل ذلك ، أن القراء الذين كانوا يجدون صعوبة فى متابعة وفهم التعبيرات اللاتينية عندئذ كان بمقدورهم استشارة الخبراء ؛ إذ أنه فى صقلية Sicily وسالرنو Salerno ، كان هناك طلاب لتلك الموضوعات وكان هناك اليونانيون الذين على دراية باللغة العربية [٤]، لغة الحضارة فى عالم القرون الوسطى دون مبالغة ، حيث قامت بدور الوسيط بين التراث المكتوب باليونانية إلى أوربا حينذاك .

ومن المهم أن نلاحظ؛ أن ستيفن الانطاكى؛ أدرك منذ ذلك الوقت المبكر؛ ضرورة أن يضع

١- عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٢٨١ حاشية (٦) .

٢- عبد الجليل حسن المهدى، الحركة الفكرى فى ظل المسجد الأقصى، ط. عمان، ١٩٨٠م، ص٤١ ، حاشية (١٥٣) .

٣- Haskins, Studies in the History of Medieval Science, Cambridge 1927, p. 131 .

٤- Ibid, p. 132-133 .

قاموسًا للمصطلحات اللاتينية، واليونانية، والعربية الطبية[١] ، بالإضافة إلى أنه وصف بالأمانة العلمية - وهذا حقه علينا- حيث أورد فى ترجمته اسم المؤلف الأصلى على بن العباسى المجوسى[٢].

على أية حال : من الملاحظ أنه إلى جانب ستيفن الانطاكى، وجد مترجم آخر هو برنارد سلفستر Bernard Silvester وعمل على الترجمة من العربية إلى اللاتينية وعاصر عهد الملك عمورى الأول (١١٦٣-١١٧٤م/ ١١٥٩-١١٧٠م) على نحو يعكس حجم الاهتمام الصليبى بعلوم المسلمون حينذاك.

هكذا: وقع تأثير المسلمين الطبى فى الصليبيين ، ومن بعد ذلك فى الغرب الأوربى، ومن الممكن تعليل ذلك من خلال إدراكنا إلى أن القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين شهدا انجازات حضارية للمسلمين على نحو متسع من خلال أن التحدى الصليبى أوجد استجابة حضارية اسلامية ومن ثم ظهر العلماء والمفكرون فى العديد من مناحى الحضارة الإسلامية، فلم يكن الأمر بالتالى تدهوراً بل تقدمًا ، وفى حالة كون حال، تلك الحضارة على ذلك المستوى من الانهيار- كما تصور البعض- لما حدث ذلك التأثير البعيد المدى فى الصليبيين أنفسهم وفى الغرب الأوربى فى ذلك العصر، وذلك دون إغفال الأثر المدمر الذى نتج عن الغزو المغولية الشرسة لقلب الخلافة الإسلامية فى صورة بغداد عام ١٢٥٨م / ٦٥٧هـ. فيلاحظ أن قرنًا ونصفًا من العطاء الحضارى أثر على الصليبيين وامتد إلى الغرب الأوربى بالتالى ، وحتى بعد سقوط عاصمة الخلافة ، اتجه العديد من العلماء إلى الفرار من العراق ثم بلاد الشام واتجهوا إلى مصر من طلبًا للأمان تحت رعاية دولة المماليك الفتيه ، التى قدر لها إلحاق الهزيمة بالمغول كما أسلفت الإشارة من قبل.

وفى تصورى: أن الحضارة الإسلامية كان فى مقدورها العطاء حتى ذلك العصر على الأقل، بدليل التأثير الذى أحدثته فى الصليبيين وكذلك الغرب الأوربى بالتالى، وبالإضافة إلى كافة

١- Daniel The Arabs and Medieval Europe, London 1979, p. 278 .

٢- كمال السامرائى، مختصر تاريخ الطب العربى، جـ١، ط. بغداد ١٩٨٥م، ص٢٣٢ .

٣- Haskins, Studies, p. 136 .

العناصر السابقة يجدر بنا ذكر التأثير الإسلامى فى مجال الفن الحربى والفروسية ، ويلاحظ أن الصليبيين استفادوا من المسلمين فى عدة جوانب مثل استعمال القوس القذاف ، وكذلك الدروع التى يلبسها الفرسان والخيول ثم هناك الوسائد القطنية التى وضعت تحت الدروع، وأيضًا استخدام الحمام الزاجل من أجل حمل المعلومات الحربية ، ثم أيضًا انتشار علامات النسب التى وضعت على الأسلحة ، ويضاف إلى ذلك كله أمر اتخاذ الصليبيين، أمر تنعيل الجياد بالحديد من المسلمين [١]، وغيرها من العناصر التى عكست حجم تأثير المسلمين فيهم.

ولانغفل إلى جانب ذلك؛ أن الغرب الأوربى أخذ عن الشرق خلال عصر الحروب الصليبية جعل المدخل الموصل من باب القلعة إلى داخلها على هيئة زاوية قائمة Bententrance مثلما نجد فى أبواب القاهرة وكذلك فى القلاع الإسلامية فى بلاد الشام التى شيدت هناك فى القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى [٢]، ثم أن الصليبيين نقلوا إلى الغرب الأوربى انشاء السقاطات Machicolation [٣] وهى عبارة عن أجسام بارزة عن السور تعتمد على كوابيل مفتوحة من أسفلها ويتم استخدامها من أجل إلقاء الزيوت المغلية والمقذوفات الحجرية على المهاجمين إذا أمكنهم تجنب السهام، وتهديد السور عن طريق الاقتراب منه، ولذلك فإنها بنيت عادة فوق الأبواب، وأحيانًا فى أماكن أخرى من السور على نحو يعوق المهاجم عن تسلق السور، أو إحداث ثلمه به وهناك من يطلق خطأ على تلك السقاطات تعبير مشربيات لبروزها، غير أن الأولى كانت لها وظيفة حربية بينما الثانية وظيفتها مدنية[٤].

١- محمد العروسى المطوى، الحروب الصليبية ، ص١٦٦ .

٢- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامى، ص٣٢٥ .

٣- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ط. القاهرة ١٩٧٠م، ص١٩١ .

٤- عنها انظر : Creswell, Short Account of Early Islamic architecture, London 1958 , p. 121 , p. 122 . Fedden , Crusader castles, p. 25 .

عبد المعطى الجلابى ، «التأثيرات الإسلامية فى عمارة الغرب فى العصور الوسطى»، مجلة عاديات حلب، معهد التراث العلمى العربى - جامعة حلب ، جـ١ ، عام ١٩٧٥م، ص٢٧٧-، حجاجى إبراهيم، «القلاع وتطور الفكر الهندسى»، المنهل، العدد (٤٥٢) ، م (٤٨) يونيو ١٩٨٤م، سعيد عاشور ، المدنية الإسلامية وآثارها على الحضارات الأوربية، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص١٩٩ ، محمد مؤنس عوض ، فى الصراع الإسلامى الصليبى، السياسة الخارجية للدولة النورية ، ص٢٨٠ .

كذلك أخذ الغرب عن المسلمين فى ذلك العصر فكرة المزاغل، وهى عبارة عن فتحات طولية (رأسية) ضيقة خارجية ،.يتم توزيعها على امتداد أسوار القلاع وكذلك فى الأبراج ويتم تشييدها على أساس أن تكون ضيقة من الخارج لتجنب أن يكون المدافع عرضة للإصابة الخارجية [١].

ويضاف إلى ذلك كله : تأثر الغرب عن العمارة الحربية الإسلامية بعنصر البرقان Barbican وقد أطلقت الكلمة المذكورة لتعنى البرج الكبير الذى بنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته التى أقيمت فوق الخندق الذى أحاط الحصن [٢].

أما التأثير على مستوى الفروسية : فالأمر المؤكد أن الحروب الصليبية شهدت المواجهة بين نمطين من الفروسية ، الفروسية الأوربية ، والفروسية الإسلامية ، ونجد أن بلاد الشام مثلت الأرض التى شهدت تلك المواجهة ، وقد تأكد- دون اعتساف اجوف فى الأحكام أو شيفونية- أن الفروسية الإسلامية فى العديد من الأحيان اتسمت بالطابع الأخلاقى ، وقد تمثل ذلك فى السلطان صلاح الدين الأيوبى، أما الفروسية الغربية فقد اتسمت بالدموية فى العديد من الأحيان ، والميل إلى الاندفاع والرعونة بصورة أدت إلى زيادة الهوة بين المسلمين والصليبيين فى ذلك العصر.

وفى تقديرى أن الفروسية الإسلامية ممثله فى قائد بثقل صلاح الدين الأيوبى وأخلاقياته الرفيعة كانت المدخل المنطقى لتكوين اسطورة له فى الفكر الأوربى لازالت أصداؤها باقية إلى الآن، وهكذا يتضح لنا أن نبل الفروسية الإسلامية ممثلة فى ذلك القائد الفذ مثلت القوة الغازية للصليبيين فى عقر دارهم من خلال الاعجاب به والانبهار بسلوكياته التى شكلت النموذج الصادق للفروسية الإسلامية .

تلك كانت تأثيرات الحروب الصليبية على الغرب الأوربى أما تأثيراتها على المجتمع الإسلامى فكانت متعددة هى الأخرى.

١- حجاجى ابراهيم ، القلاع وتطور الفكر الهندسى، ص٢٩٢ .

٢- عبد الرحمن زكى، العمارة العسكرية، ص٧٦ .

وعن تأثر الصليبيين بالأبراج فى العمارة العسكرية انظر : أحمد فكرى «التأثيرات الفنية الإسلامية العربية على الفنون العربية»، مجلة سومر ، الجزء (١) ، (٢) ، م (٢٣) عام ١٩٦٧م، ص٧٩ .

فعلى المستوى السياسى؛ كشفت الحروب الصليبية بجلاء عن عجز الخلافتين العباسية والفاطمية عن مواجهة الغزو الصليبى[١]، وأن دولة الخلافة لم يكن لها أن تواجه تلك التوسعات الصليبية التى تمت فى وقت قياسى بكل التصورات ، ولذلك ظهرت الكيانات السياسية الجديرة بالمواجهة مع الخطر الصليبى فى صورة الاتابكيات- المجاهدة على نحو خاص- وما تفرع منها من دول مثل الدولة الزنكية ، من بعدها الدولة النورية، كذلك لانغفل دور الدولة الأيوبية، وأخيراً الدولة المملوكية، وهكذا فإن الحروب الصليبية أوصلت إلى السلطة الكيانات السياسية ذات الطابع العسكرى .

وعلى المستوى الاقتصادى، من الملاحظ أن تلك الحروب على الرغم من مشاركة القوى الإسلامية فى حركة التجارة ، إلا أن تحجيم دور المسلمين إلى حد ما كوسطاء تجاريين أفاد اعداءهم أكثر من أن لحقت بهم فائدة كبيرة ، وصارت المكاسب الضخمة لدى المدن التجارية الايطالية ، حقيقة أن المسلمين نالهم جانب من ذلك الرواج التجارى غير أن الاحتلال الصليبى لمناطق حيو، فى بلاد الشام أخر اقتصادياتهم على المستوى التجارى، ولانغفل أيضًا أن الغزو الصليبى والاغارات المستمرة على مناطق المسلمين وخاصة المناطق الزراعية أدى إلى إلحاق الأضرار الجسيمة بالمزروعات لاسيما فى المناطق الحدودية وأدى إلى فرار الكثيرين من المشتغلين بالقطاع الزراعى إلى المناطق الأكثر أمنًا الواقعة تحت السيادة الإسلامية .

ومن ناحية أخرى ؛ لانغفل الجانب الاجتماعى، ويلاحظ هنا أن المواجهة مع الصليبيين أدت إلى زيادة الفاقد البشرى لدى المسلمين مع امكانيتهم تعويضه بين الحين والآخر، ويلاحظ وجود ظاهرة الأرامل[٢] واليتامى، وما صاحب ذلك من أمراض اجتماعية يصعب تجاهلها عند الحديث عن ذلك العصر، ويلاحظ أن المصادر التاريخية اغفلت كثيراً تناول ذلك الجانب على الرغم من أهميته على الصعيد الاجتماعى.

أما على المستوى الفكرى؛ فيلاحظ أن الغزو الصليبى. كما أسلفت الاشارة من قبل، أدى إلى بعث فكرى لدى المسلمين، ومن ثم ظهر نتاج زاخر لأعلام مسلمين كبار يندر اجتماعهم فى عصر واحد مثل ذلك العصر ويكفى أن نأخذ مثالين على ذلك الوضع من خلال عدد من العلوم

١- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص١٨٣ .

٢- عن ظاهرة الترمل انظر : سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨ / ق٢، ص٢٩٨، ابن العديم ، زبدة الحلب، جـ٢ ، ص٣٤٠، ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية، ص٢٢٣ ويلاحظ اشارة تلك المصادر إلى قيام نور الدين محمود بتزويج الأرامل .

ففى مجال التاريخ نجد أن عدداً كبيراً من المؤرخين قد ظهر فى ذلك العصر، وقد ألفوا فى العديد من مجالات التأليف فبالنسبة للتاريخ هنا العديد من المؤلفات مثل الحوليات، والتراجم، والوفيات ، والطبقات والخطط ، ونذكر من أمثلتهم العظمى (ت ١١٦٣م/ ٥٥٨هـ)، وابن عساكر (ت ١١٧٦م / ٥٧١هـ) ، ابن القلانسى (ت ١١٦٠م/ ٥٥٥هـ) ، وابن الأثير (ت ١٢٣٢م/ ٦٣٠هـ) وبهاء الدين ابن شداد (ت ١٢٣٤م / ٦٣٢هـ) والعماد الاصفهانى (ت ١٢٠١م / ٥٩٧هـ) والقاضى الفاضل (ت ق١٢ م / ٦هـ) وابن عبد الظاهر (ت ١٢٩٣هـ/ ٦٩٢هـ) وابن واصل (ت ١٢٩١م / ٦٩٠هـ) وبيبرس الدوادارى (ت ١٣٢٥م/ ٧٢٥هـ) وغيرهم [١].

ويلاحظ أن ظاهرة الحروب الصليبية أفرزت لنا أولئك المؤرخين الكبار الذين سجلوا كافة دقائق تلك الأحداث الصاخبة ، وجهاد المسلمين خلالها، ولاريب فى أن الصراع الإسلامى-الصليبى أدى إلى ازدهار الكتابة التاريخية من خلال إدراك أولئك المؤرخين «للوظيفة الحضارية للتاريخ» باعتباره وسيلة الحفاظ على ماضى الأمه من الضياع.

أما فى مجال الجغرافيا والرحلات ؛ فقد قدمت لنا بلاد الشام عدداً من المبدعين سواء من أبنائها أو من زارها وألف عنها ، ومنهم نذكر ياقوت الحموى (ت ١٢٢٨م/ ٦٧٦هـ) والقزوينى (ت ١٢٨٣م / ٦٨٢هـ) وعز الدين بن شداد (ت ١٢٨٥م / ٦٨٤هـ) وأبو الفداء (ت ١٣٣٢م / ٧٣٢هـ) وكذلك أسامة بن منقذ (ت ١١٨٨م / ٥٨٤هـ) والسائح الهروى[٢] (١٢١٥م/ ٦١١هـ) وقد ألف أولئك العلماء الكبار مؤلفات فى المعاجم الجغرافية أو فى الرحلات، بصورة أفادت فى الأضواء الكاشفة على ذلك العصر .

أما فى مجال الأدب لاسيما الشعر فنجد أن هناك عدداً بارزاً من الشعراء مثل ابن منير الطرابلسى (ت ١١٥٤م / ٥٤٨هـ) ، وابن القيسرانى (ت ١١٥٣م / ٥٤٨هـ) ، العماد الاصفهانى (ت ١٢٠١م / ٥٩٧هـ) ابن سناء الملك (ت ١٢١١م / ٦٠٨هـ) وابن الساعاتى (ت ١٢٠٧م / ٦٠٤هـ) وغيرهم كثيرون . أما فى مجال النثر فهناك تفوق ظاهر العماد الأصفهانى؛ الذى شغل منصب رئيس ديوان الانشاء فى عهد الناصر صلاح الدين الأيوبى ،

١- عن أولئك المؤرخين ومؤلفاتهم انظر قائمة المصادر .

٢- عن أولئك الجغرافيين والرحالة انظر قائمة المصادر وأيضاً :

محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام، زمن الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

وكذلك القاضى الفاضل، ويلاحظ أن سلاح الكلمة أدرك قيمة ذلك السلطان وغيره من قادة الجهاد الإسلامى [1].

فإذا اتجهنا إلى العلوم العملية ومنها الطب، وجدنا ذلك العصر ضم عدداً زاخراً من الأطباء، ويكفى أن نطالع ما ألفه ابن أبى أصيبعة (ت ١٢٨٠م/ ٦٦٨هـ) وكتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء كى ندرك تلك الحقيقة ، ومن الأطباء الذين برعوا فى ذلك العصر نذكر أبو الفضل بن وقار (ت ١١٥٩م / ٥٥٤هـ) وابن البذوخ (ت ١١٨٠م / ٥٧٦هـ) ، وابن البطران (ت ١١٩١م / ٥٨٧هـ) وأبو الحكم الأندلسى (ت ١١٥٥م / ٥٥٠هـ) ، وابن النقاش (ت ١١٧٤م / ٥٧٠هـ) ، وعبد اللطيف البغدادى (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) ، وابن النفيس (ق١٣م / ٧ هـ) ويلاحظ أن أولئك الأطباء لم يكتفوا بممارسة تخصصاتهم الطبية فحسب ، بل ألفوا العديد من المؤلفات الطبية التى عكست مدى ازدهار التأليف الطبى كمًا وكيفًا فى ذلك العصر .

ولانزاع ؛ فى أن كافة أولئك المبدعين فى المجالات المتعددة السالفة الذكر ؛ يكشف لنا عن أن ذلك العصر شهد ازدهاراً فكريًا ، ولم يكن يعانى من انحدار كما توهم البعض، ولذلك يصدق عليه القول بأنه شهد عبقرية القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين ، وقد يوجد من يتصور أن مثل أولئك الأعلام كان من الممكن ظهورهم فى أى عصر آخر، غير أن ذلك القول مردود، فتجمعهم بمثل ذلك العدد الكبير ونوعية الابداع المتميزة ما كان ليحدث إلا من خلال ظاهرة التحدى الصليبى والاستجابة الإسلامية كرد عملى على ذلك التحدى، وهكذا نخلص إلى القول بأنهم جميعًا خرجوا من رحم عصر الحروب الصليبية دون غيره .

على أية حال ، فإن مقارنة عامة بين تأثير الصليبيات على كل من الفريقين المتصارعين تكشف لنا من فورنا عن التأثير الايجابى الأكبر لتلك الحروب على أوربا والعكس بالنسبة للمسلمين ، وهو أمر منطقى من خلال تفوق حضارة عالم الإسلام فى ذلك العصر .

ذلك عرض لنتائج الحروب الصليبية على الغرب الأوروبى والشرق الإسلامى.

١- عن أولئك انظر : أحمد بدوى، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام، ط. القاهرة ب.ن .

٢- عن أولئك الأطباء انظر :

ابن أبى أصيبعه ، عيون الأنباء فى طبقات الاطباء، تحقيق نزار رضا ، ط. بيروت ب.ت .

الخاتمـة

تمخضت الدراسة عن عدد من النتائج المهمة من الممكن إبرازها على النحو التالى :

أولاً : كشفت الدراسة بجلاء عن أن هناك ما يمكن وصفه بإشكالية دراسة عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام على مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين ، من ذلك تعدد وجهات النظر والتصورات بين المؤرخين المعاصرين والمتأخرين الذين انتسبوا إلى عقائد، واعراق، وأمم متباينة ، وغزارة التأليف التاريخى بصفة عامة الذى بلغنا من ذلك العصر، كذلك هناك مشكلة الموضوعية وكيفية التعامل مع الكيان الصليبى الغازى للمنطقة من خلال روح الموضوعية ، وما هى حدود تلك الموضوعية مع الأخذ فى الاعتبار، الارتباطات العقائدية ، والقومية للمؤرخ المسلم الحديث عند تعرضه لتلك الأحداث التاريخية الصاخبة ، ولانغفل كذلك مشكلة المسئولية التاريخية ، فقد صدرت بعض قرارات لقادة تاريخيين فى ذلك العصر ، وأدت إلى نتائج بعيدة المدى فكيف يمكن الحكم على مسئوليتهم التاريخية تجاه قراراتهم ونتائجها المترتبة عليها دون اعتساف الاحكام أو القولبة بل من خلال الانصاف التاريخى قدر الاستطاعة ، وغيرها من مشكلات الدراسة.

ثانيًا : اتضح الاهتمام بدور الحشود البشرية فى حركة تاريخ الحروب الصليبية فلم تكن القضية مجرد صراع بين قيادات سياسية وعسكرية كما قد يتضح لنا من خلال كتب الحوليات، بل أن الجماهير كان لها القدح المعلى شاء المؤرخون الرسميون أو أبوا ، وهكذا فالصليبيات صدام مجتمعين بتصورات متغايرة، ومفاهيم مختلفة، وتغييب دور الجماهير من شأنه ، اغفال عنصر محورى فى تاريخ تلك المرحلة البالغة الأهمية فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. والوقوع فى أسر «الفرد القائد» دون إدراك أن الجماهير هى ذاتها الرحم الذى خرج منه ذلك القائد

وبالنسبة للجماهير فى بلاد الشام، ومصر، وتونس التفت حول قادتها لتصنع معهم وبهم الانتصارات ضد الصليبيين ، طالما أنها وجدت القادة الذين يدركون مطالبها ، وخير مثال صادق دال على ذلك مؤسس الدولة الأيوبية صلاح الدين الأيوبى، الذى قادها إلى صنع زلزال حطين واستعادة بيت المقدس، وإسقاط مملكة الصليبيين، أما عندما حدث العكس ، وظرت قيادة تنفرد بالقرار السياسى، ونفرط فيما لايفرط فيه، كانت ثورة الجماهير غاضبة عليها ومعها صفوة من الفقهاء الواعين الذين لم ينخرطوا فى تجميل صورة المفرطين ، وخير مثال دال

على ذلك الكامل الأيوبى وعلاقته بالامبراطور الألمانى فردريك الثانى واتفاق يافا عام الذى وقع بينهما ثم تسليم القدس للصليبيين، وهو أمر يؤكد لنا أن النبض الشعبى فى عصر الصليبيات كان نبضًا صادقًا وأن الجماهير أيدت من حقق لها آمالها واسقطت من لم يحقق إلا مصالحه الشخصية على حسابها على الرغم من أنها هى التى صنعت أولئك القادة كما صنعت الجبهة اداخلية التى دعمت جبهات الصراع الحربى مع الصليبيين .

ثالثًا : أكدت الدراسة على أهمية عنصر «الكاريزما Carisma فى ذلك العصر، وقد حفل عصر الحروب الصليبية بالعديد من الشخصيات ذات المحبوبية والتأثيرية الخاصة سواءً لدى المسلمين أو لدى الصليبيين على حد سواء، ومن خلال تلك «الكاريزما» تم نسج أساطير خاصة بأولئك القادة ترضى الوجدان الشعبى، وتصورهم أحياء بعد موتهم وأنهم سيعودون يومًا ما لنشر أعلامهم من جديد خفاقه منتصره ، والمثال الفعلى للكاريزما فى الجانب الإسلامى نجده فى شخص صلاح الدين الأيوبى، وهو أبرز القادة المسلمين أصحاب التأثيرية والمحبوبية على قلوب الجماهير فى ذلك العصر أما الجانب الصليبى فهناك شخصيات امتلكت ذات الموهبة مثل بطرس الناسك Peter The Hermit ؛ الذى اعتبر أفضل من قدم الدعاية الصليبية للجماهير خلال الحملة الصليبية الأولى، وهناك أيضًا الامبراطور الألمانى فردريك باباروسا Frederich barbarossa (ذو اللحية الحمراء) فلاعجب أن نسجت أسطورة عن صلاح الدين لدى الصليبيين، وكذلك الأساطير الخاصة بكل من بطرس الناسك وفردريك باباروسا فى عصر يوصف بأنه عصر الملاحم والأساطير لاسيما لدى الغرب الأوربى.

رابعًا : أكدت الدراسة على زاوية جديرة بالاهتمام فى صورة التباين بين الأجيال الصليبية، بين جيل التأسيس ثم الأجيال التالية وصولاً إلى عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ ؛ وهو عام وفاة آخر الملوك الصليبيين الكبار ونعنى به الملك عمورى الأول ومن بعده كان الضعف الفعلى لدى الصليبيين ، وقد أدرك المؤرخ الصليبى الحصيف الذى سبق عصره وليم الصورى ذلك الأمر وشدد على خطورته دون أن يجد آذانًا صاغيه ، وكأنه صوت صارخ فى البرية لدى الصليبيين؛ وواقع الأمر أن تلك الفجوة بين الأجيال الصليبية ساهم فيها إلى حد بعيد أمر «التمشرق» Orientation [1]، فحقيقة أن الغزاه هزموا المسلمين عسكرًا ، إلا أن الأخيرين هزموهم حضاريًا ، ومع الاستقرار ضعفت دافعية القتال لدى الأجيال التى ولدت فى الأرض المقدسة .

١- اتوجه بالشكر والتقدير لأستاذى أ.د. حسن حبشى الذى تناقشت معه بشأن مصطلح التمشرق، وأفادنى برأيه السديد.

خامسًا : أبرزت الدراسة أهمية المشكلات الأساسية التى واجهت الصليبيين فى بلاد الشام فى صراعهم مع المسلمين وأهمها نقص العنصر البشرى، مشكلة الأمن، مشكلة نقص المياه ، مشكلة الاعتماد العسكرى على الغرب، مشكلة ضعف السيولة النقدية من حين لآخر ، وقد ظل الكيان الصليبى يعانى من كافة تلك المشكلات مجتمعه ولم يستطع أن يجد حلاً نافعًا وكاملاً لها ، فى حين نجد أن الكيان الإسلامى المحيط بالصليبيين لم يكن ليعانى من كافة تلك الزوايا ، بمثل نفس الصورة وإن وجدت لديه تلك المشكلات فكانت بشكل أقل حدة وأمكن معالجة بعضها ، ومثلت سهول وديان الفرات، والعاصى، والنيل وغيرها زاداً بشريًا واقتصاديًا اعان آلة الجهاد ضد الغزاه ، والأمر المؤكد فى تصورى أن تلك المشكلات أخذت تحدث آثارها الفتاكة فى الكيان الصليبى إلى أن اجهدته ولم يستطع الغزاه دفعًا لها ، وجاء الدور الإسلامى البارز من خلال حركة الجهاد ليطبق فى النهاية على ذلك الكيان الدخيل. مع ملاحظة أن الصليبيين على مدى قرنين كاملين من الزمان عجزوا عن إيجاد حلول ناجحة لأى واحدة من تلك المشكلات الحادة المزمنة .

سادسًا : كشفت الدراسة بجلاء عن أن سقوط الكيانات الصليبية فى قبضة قادة حركة الجهاد الإسلامى مَثَّلَ أمراً معقداً شاركت فى صنعه عوامل داخلية ثم خارجية مشتركة ، وأكدت على أن السقوط يبدأ من الداخل قبل الخارج ، ولذلك فإن إغفال العوامل الداخلية للصليبيين ودورها الفاعل فى اجهاد كيانهم من شأنه إبعادنا عن الحقيقة التاريخية لذلك العصر. ويلاحظ أن عوامل الضعف الداخلى لم يدرك خطرها المعاصرون من الصليبيين وتوهموا أن كيانهم سيستمر وأنه يمتلك القدرة على البقاء على أرض الشام، دون إدراك أن هناك توافق مشترك بين ضربات الداخل والخارج على نحو صنع فى النهاية طرد الغزاه من المنطقة إلى غير رجعة .

سابعًا : أوضحت الدراسة حقيقة محورية وهى عجز الصليبيين عن تقديم اسهام حضارى يبرر وجودهم فى المنطقة نظراً لأن حضارتهم كانت متواضعة المستوى بالمقارنة بالحضارة الإسلامية فى ذلك العصر، وهكذا تعاظمت الصفة العسكرية على كيانهم وعجزوا عن تقديم نموذج حضارى لأبناء المنطقة - وذلك على الرغم من اهتماماتهم العلمية كما لاحظنا فى أمر الطب- وهكذا فإنهم بعد أن غادروها لم يتركوا لنا إلا تاريخًا دمويًا فى الغالب، وقلاعًا ومعارك هنا ومعارك هناك مما عكس أن الطبيعة الحربية للصليبيين وعجزهم عن تقديم نموذج

حضارى ما ، كانت من عوامل انهيارهم ككيان يعيش فى المنطقة ، ولانغفل أن العطاء الحضارى غالبًا كان من الجانب الإسلامى الذى عمل على تهذيب أولئك الغزاه ، وأمكن نقل العادات والتقاليد مع التزاوج والتجارة على اعتبار تأثير التزاوج الكبير، كذلك فإن زيت التجارة أضاء نور الحضارة كما يقال ، وقد كشف اسامة بن منقذ فى الاعتبار ادراكه الواعى للصفة العسكرية للغزاه وأدرك أن ميزتهم الوحيدة هى الفروسية، ويلاحظ أن تلك الصفة الحربية لم تكن لتصلح دومًا فى حوار الحضارات الذى كان الأقوى فيه الجانب الإسلامى.

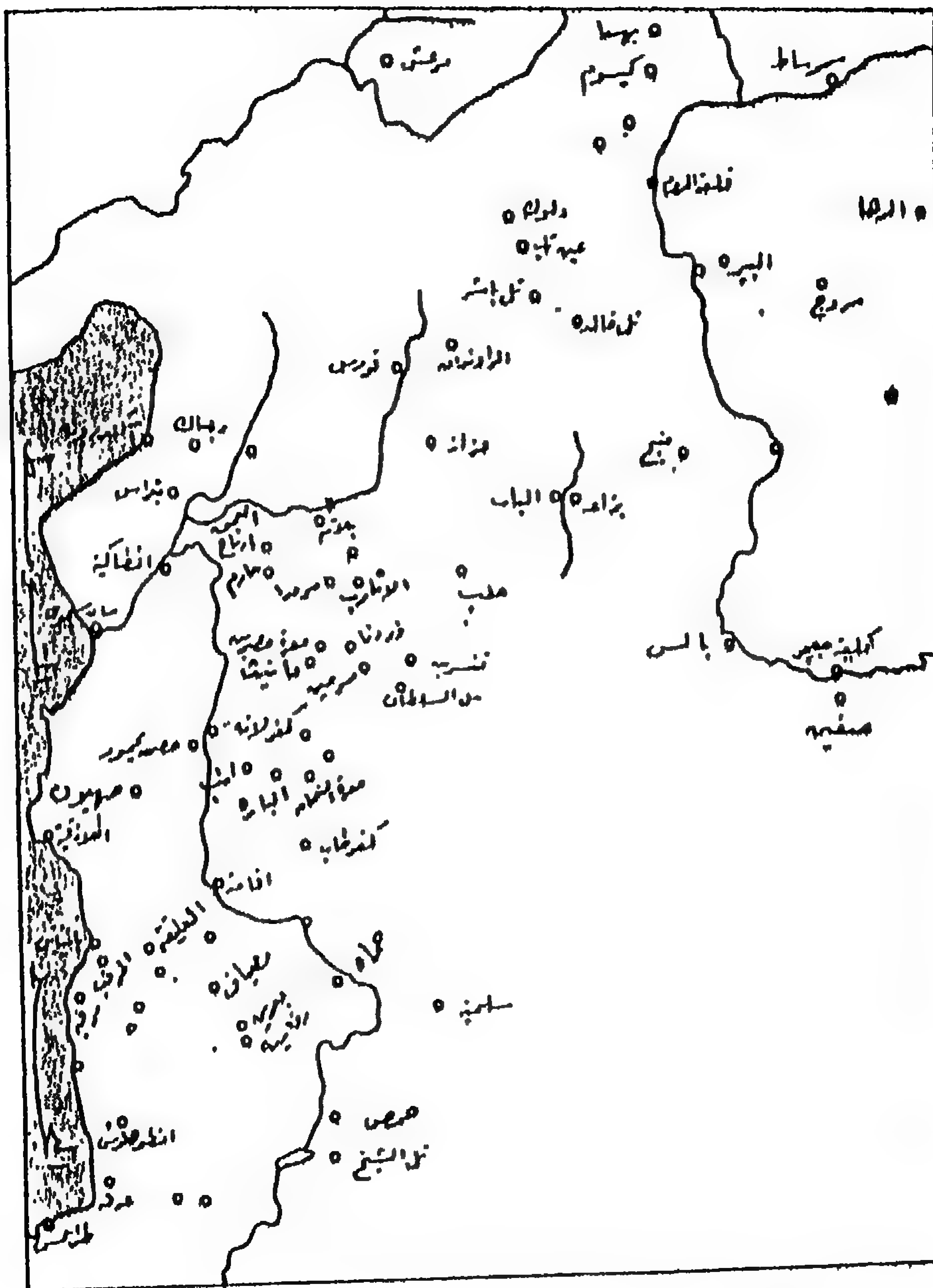
ثامنًا : اتجهت الدراسة إلى تفنيد بعض تصورات المستشرقين لاسيما العناصر الفرنسية التى تصورت أن الصليبيين نجحوا فى تقديم نموذج فعلى للتعايش بين أمه توصف بأنها «فرنجية سورية» وعملوا على تدعيم ذلك التصور على اعتبار اسهام فرنسا الحضارى فى القرون الوسطى وقدرتها على ذلك الاسهام ، وذلك تدعيمًا لدورها فى التاريخ الحديث عندما أخضعت مناطق فى العالم العربى للسيطرة الفرنسية مثل سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب، ويلاحظ أن من المؤرخين الفرنسيين من ألف كتاباته أثناء الاستعمار الفرنسى لتلك الدول، وبالتالى تلون موقفه تجاه عصر الصليبيات بتلك الزاوية وعمل على تصوير الأمر وكأن الحروب الصليبية بمثابة الرسالة الحضارية الفرنسية فى القرون الوسطى لشرق البحر المتوسط وشعوبه ، غير أن ذلك أمر مغلوط لأن الغزاه عجزوا عن تكوين أمه موحدة ، وظل الانفصال قائمًا ومستمراً ، وظل الكيان الغاصب لايملك مبررات وجوده بالنسبة للمسلمين ومن ثم كان الجهاد ضد الغزاه لا يهدأ إلا بطردهم من المنطقة نهائيًا .

تاسعًا : سعت الدراسة إلى تفنيد تصورات بعض الباحثين الغربيين عندما عالجوا الصراع الإسلامى- الصليبى ، فقد كان لبعضهم ازدواجية الرؤية ؛ فاتهموا قادة المسلمين بالدموية وغضوا الطرف عن دموية القادة الصليبيين التى لم تخطئها عين ، وذلك يكشف لنا أن ذلك القطاع من المؤرخين الغربيين ؛ عندما كتب تاريخ المنطقة والصراع الذى دار على أرضها بين المسلمين والصليبيين ،ولم يستطع أن ينسى «صليبية» القديمة بل استنفرها عندما كتب تاريخ تلك المرحلة، ومن ثم من الضرورى بمكان عدم أخذ كل كتاباتهم بأخذ التصديق الكامل ، بل لابد من إدراك خطورة هوية البعض منهم وأثرها على رؤيته التاريخية.

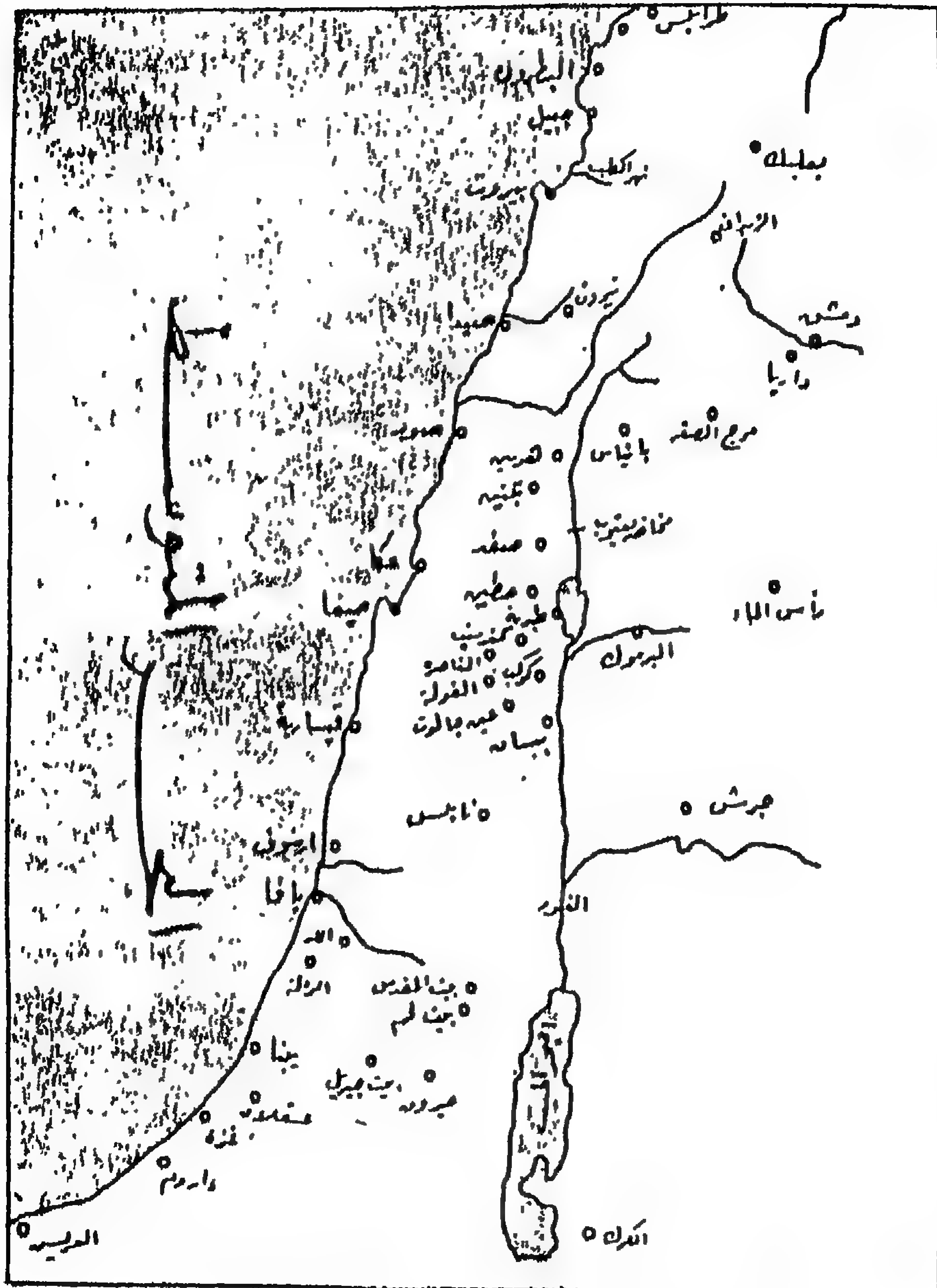
عاشراً : أوضحت الصفحات السابقة الاختلافات ين القرنين الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى ، والثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى فى تاريخ الصليبيين على أرض

الشام والجزيرة. فالقرن الأول شهد التأسيس وظل الصليبيون يأخذون فيه بزمام المبادرة إلى أن حلت بهم كارثة حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ. أما القرن التالى؛ فإنه افتتح بكارثة سقوط القسطنطينية خلال الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ التى توصف بحق بأنها انتحار الصليبيات ، وجاءت الصراعات بين العناصر الصليبية خاصة خلال النصف الثانى من القر المذكور على نحو جعل نهاية الصليبيين أمراً محتومًا ، ويضاف إلى ذلك أن القرن الثالث عش الميلادى / السابع الهجرى شهد مشروع طرد البقايا الصليبية والذى تكفل به داوية الإسلا بجدارة تاريخية كاملة. وهكذا ندرك بجلاء أن القرنين المذكورين على الرغم من انهما وحدة زمنية واحدة ؛ إلا أن التناقض كان ظاهراً فيهما بين الانجازات الصليبية وتدهور الأفول والنهاية.

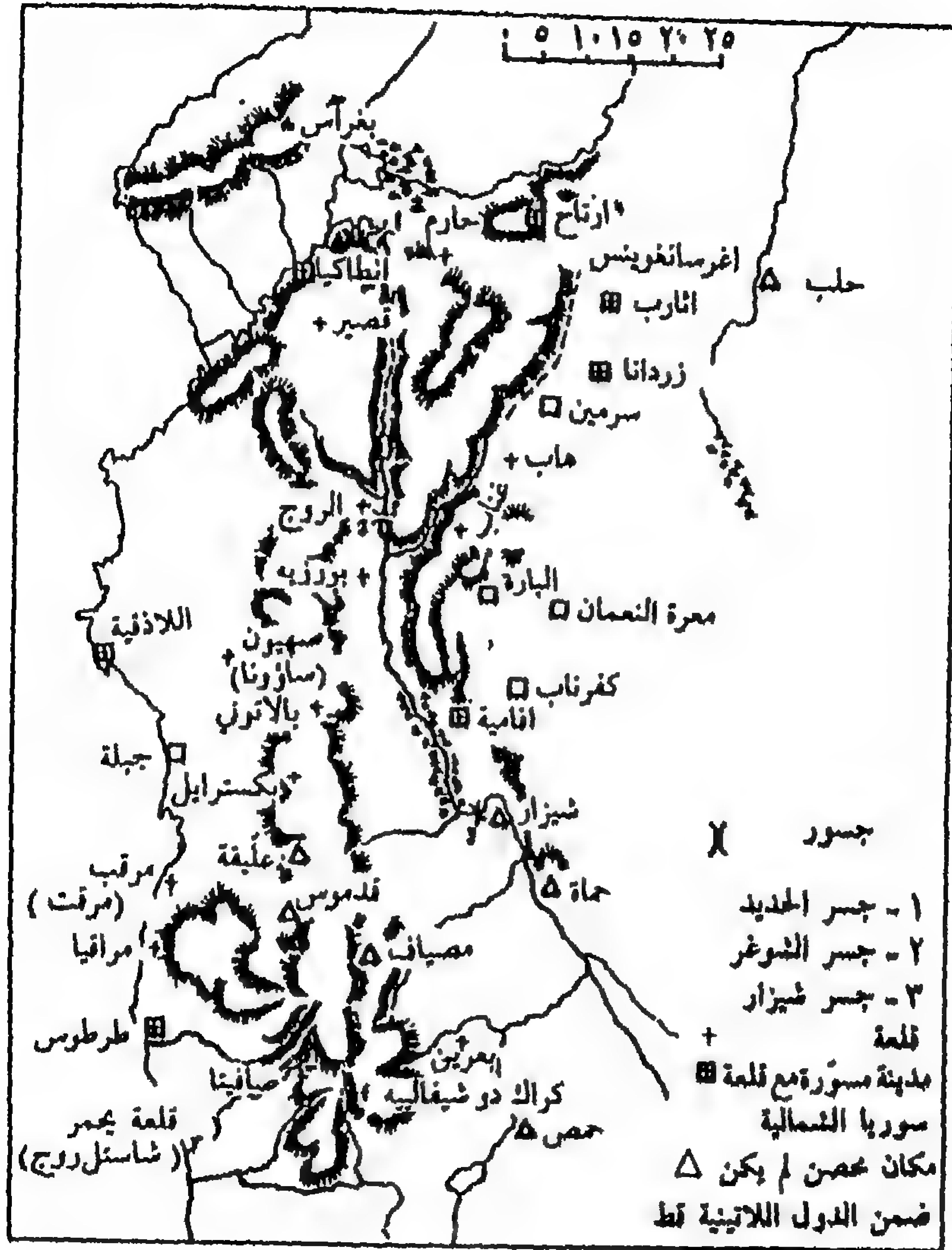
حادى عشر : أكدت الدراسة على حقيقة محورية متمثلة فى أن من مناهج الدراسة لتاريخ الصليبيات مالا يتفق مع الواقع التاريخى الذى عاشه المعاصرون ، ولا أدل على ذلك من تسمية الحملات بمسميات رقمية ، من الأولى حتى الثامنة ، إذ أن ذلك هدفه تسهيل الدراسة ، بينما لم يعرف المعاصرون ذلك الأمر البتة ، وهكذا فمن الأهمية بمكان دراسة الحروب الصليبية على اعتبارها مشروعًا صليبيًا متكاملاً دون تفكك أو تجزئة، وإن اضطررنا إلى الأمر الأخير، فينبغى أن ندرك الرؤية الشمولية للمشروع إذ أنها تعيننا على إدراكه بصورة واعيه متكاملة ككل واحد مشترك، وتصورى هنا أن أية معالجة جزئية تفرضها الحدود الاكاديمية ينبغى لها أن تكون من خلال موقعها ضمن إطار شامل للمشروع الصليبى بأكمله .



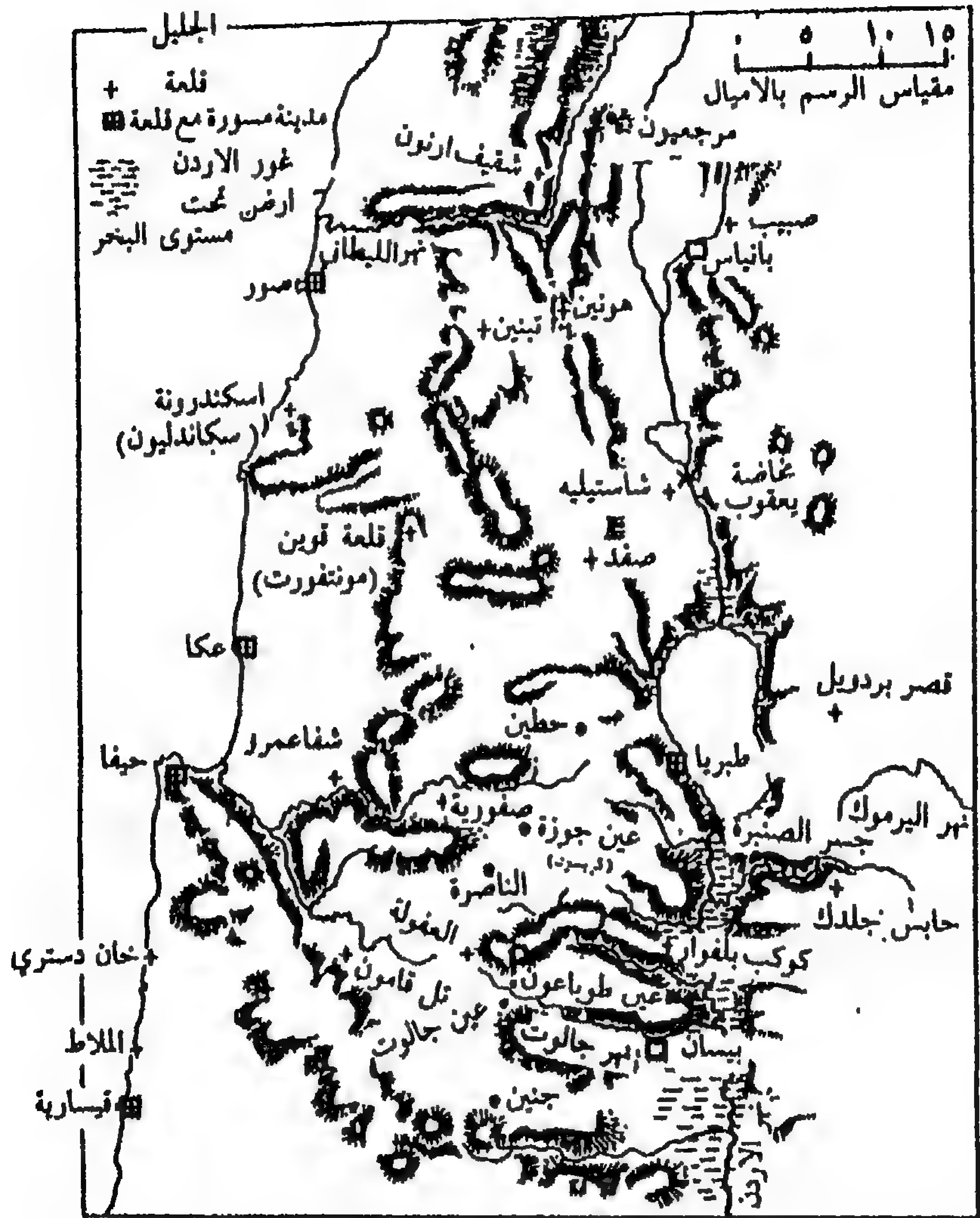
شمال الشام نقلاً عن العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.



فلسطين نقلاً عن العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.

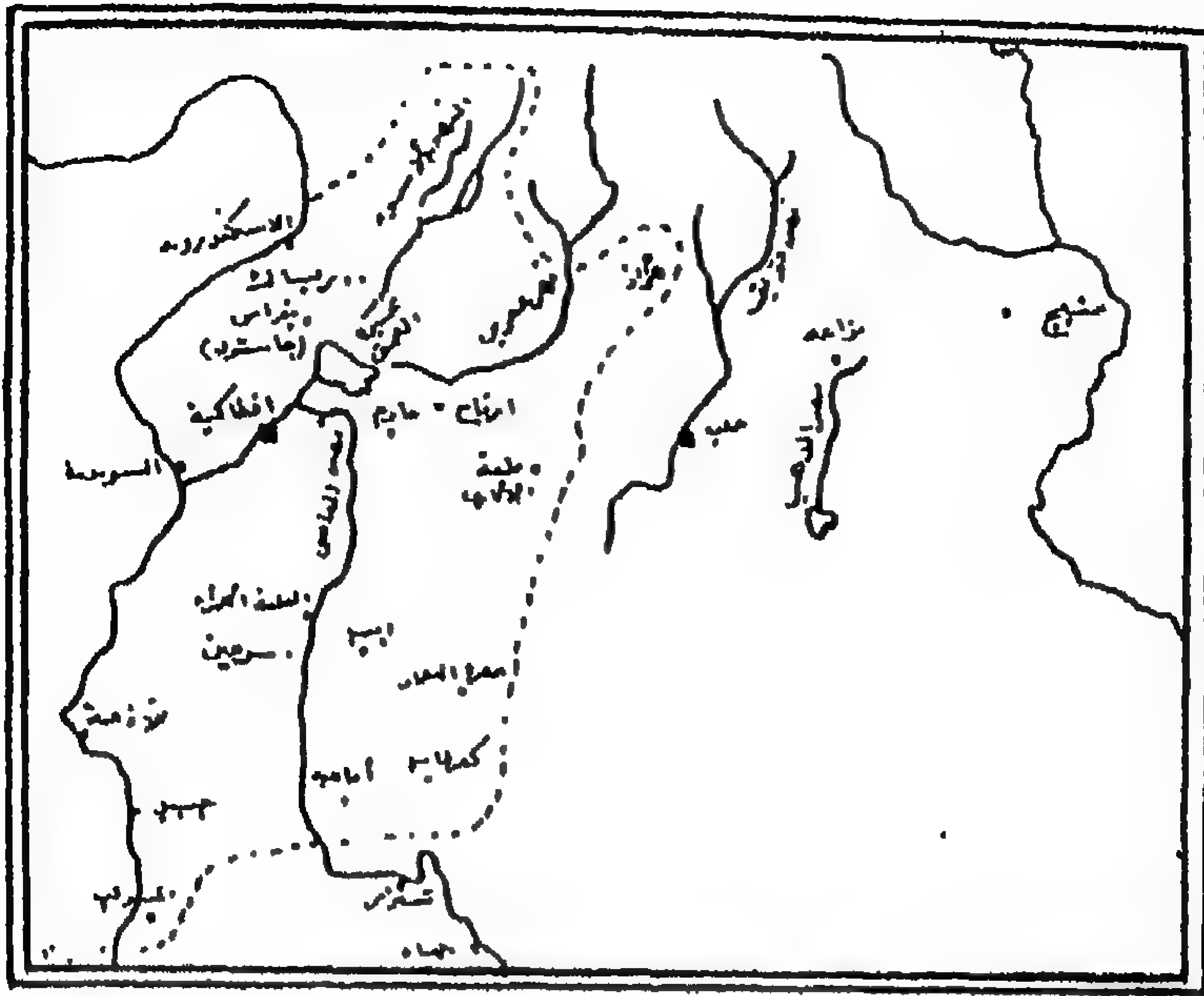


القلاع الصليبية فى إمارتى أنطاكية وطرابلس
نقلاً عن سمايل، الحروب الصليبية.



القلاع الصليبية فى شمال فلسطين

نقلاً عن سمايل، الحروب الصليبيــة.



إمارة أنطاكية، نقلاً عن عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الأول



إمارة الرها، نقلاً عن نفس المرجع.

قائمة المختصرات

List of Abbreviations

A. Antiquity .

A. H. R. : American Historical Review.

B. : Byzantium .

B. E. O. : Bulletin d'Etudes orientales.

B.F.A.A.U : Bulletin of Faculty of Arts Alexandria University .

B.H.M. : Bulletin of History of Medicine .

B.S.O.A.S.: Bulletin of the School of Oriental and African Studies.

C.M.H.: Cambridge Medieval History .

C.S.H.B. : Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae

E.H.R. Egyptian Historical Review

Egyprian Historical Review.

Ency. Brit . : Encyclopedia Britannica.

H. U. C. A. : Hebrew Union College Annual .

J. A. : Journal Asiatique.

J.A.O.S. : Journal of American Oriental Society .

J.E.H. : Journal of Economic History .

J.R.A.S. : Journal of Royal Asiatic Society .

Med. Stud. : Medieval Studies .

M.H. : Medical History .

M.W. : Muslim World .

O.L.P. : Orientalia Lovaniensia Periodica.

P.L. : Patrologia Latina.

P.O. : Patrologia Orientalia.

P.P.T.S. : Palestine Pilgrims Text Society .

R.B. : Revue Biblique .

R.P.S.O. : Revista degli Studi Orientali ..

R.H.C.: Recueil des Historiens des Croisades.

R.E.I . : Revue d'Etudes Islamiques.

R.E.J. : Revue d'Etudes des Jiefs .

R.H.R. : Revue de Histoire des Religions .

R.O.L. : Revue de L'Orient latin .

S. Speculum .

S.O. : Studi Orientale.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المخطوطة :

ابن أيبك الدواداري (أبوبكر بن عبدالله ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤٠٩ تاريخ .

ابن العجمي (موفق الدين بن ذر الحلبي ت ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)، كنوز الذهب في تاريخ حلب مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٣٨ تاريخ تيمور .

البغدادي (أحمد بن عبدالله ت ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م) عيون أخبار الأعيان عن من مضى من سالف العصر والأزمان مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٨١٠ تاريخ .

الخالدي (بهاء الدين محمد بن لطف الله ت ٩٢٧هـ/ ١٥٣١م) ، المقصد الرفيع المنشأ الهادي ، لديوان الانشاء ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٤٥ .

السلامي (شهاب الدين أحمد، غير معروف عام الوفاة) ، مختصر التواريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٣٥ تاريخ .

ثانيًا : المصادر العربية والمعربة المطبوعة

القرآن الكريم

ابن أبي أصيبعه (موفق الدين أبي العباسي ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء تحقيق نزار رضا ، ط. بيروت ب-ت .

ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ق١١ هـ / ١٧م) ، المؤنس في أخبار افريقية وتونس ط. بيروت ١٩٩٣م.

ابن أبي الفضائل (مفضل بن أبي الفضائل ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) ، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، تحقيق بلوشيه Blochet الباترولوجيا الشرقية P.O.T.XII الجزء ١٢ ط. باريس .

ابن الأثير الجزرى (عز الدين محمد ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل فى التاريخ ط. بيروت ١٩٦٦م، ١٩٦٧، ١٩٧٩م ، ط. القاهرة ١٢٩٠هـ، ط. القاهرة ١٣٤١هـ، ط. القاهرة ب-ت. التاريخ الباهر فى دولة الاتابكة بالموصل ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

ابن أيبك الدواداری (أبو بكر بن عبدالله ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) ، الدرة المضيئة فى تاريخ الدولة الفاطمية تحقيق صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة ١٩٦١م. الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، تحقيق سعيد عاشور ، ط. القاهرة ١٩٧٢م ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان ط. القاهرة ١٩٧١م.

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧١هـ/ ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ط. القاهرة١٩٦٣م.

ابن تيمية (تقى الدين أحمد ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) ، الحسبة فى الإسلام ط. القاهرة ١٤٠٠هـ .

ابن جبير (محمد بن أحمد ت ٦١٤ أو ٦١٦ هـ/ ١٢١٧ أو ١٢١٩م) ، الرحلة ، ط. بيروت ١٩٨٠م، ط. بيروت ١٩٨٤م ، ط. بيروت ب-ت .

ابن حبيب (الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق محمد محمد أمين ، ط. القاهرة ١٩٧٦م.

ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، مراتب الاجماع فى العبادات والمعاملات والاعتقادات ط. القاهرة ب-ت .

ابن حماد (أبو عبدالله محمد بن على ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) ، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامى نقرة وعبد الحليم عويس ط. القاهرة ١٤٠١هـ.

ابن حوقل (أبوالقاسم بن حوقل ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، صورة الأرض ، تحقيق دى جويه ، ط. ليدن ١٩٣٨م.

ابن خلدون (عبدالله بن خلدون ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ط. القاهرة ب-ت. ، ط. بيروت ب-ت.

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط. القاهرة ١٩٤٨م.

ابن زولاق (الحسن بن ابراهيم ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٥م) ، فضائل مصر وأخبارها وخواصها تحقيق على محمد عمر ط. القاهرة ١٩٩٩م .

ابن شاهنشاه الأيوبى (محمد بن تقى الدين عمر ت ٦١٧هـ/ ١٢٣٠م)، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق حسن حبشى ، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

ابن شاهين (غرس الدين خليل ت ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك تحقيق بول راڤيس، ط. بريس ١٨٩٤م .

ابن الشحنة (أبو الفضل محمد ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م) ، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب تحقيق سركيس ط. بيروت ١٩٠٩م. روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر، بهامش جـ(٨) من الكامل لابن الأثير ، ط. القاهرة ١٢٩٠هـ.

ابن شداد (القاضى بهاء الدين ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ط. القاهرة ١٣١٧ هـ ، ط. بيروت ب-ت.

ابن شداد (عز الدين أبو عبدالله ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) ، الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، جـ٢، تحقيق سامى الدهان ، ط. دمشق ١٩٥٦م.

ابن طولون الصالحى (شمس الدين ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) ، القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، جـ١ ، ط. دمشق ١٩٤٩م.

ابن ظافر الأزدى (جمال الدين أبو الحسن ت ٦١٢هـ/ ١٢١٦م) ، أخبار الدول المنقطعة تحقيق أندريه فريه ط. القاهرة ١٩٧٢م.

ابن ظهيره ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة تحقيق السقا والوكيل ط. القاهرة ١٩٦٩م.

ابن عبد الظاهر (محيى الدين ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م) ، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ط. القاهرة ١٩٦١م. الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ط. الرياض ١٩٧٦م.

ابن العبرى (غريغوريوس ت ٦٨٥هـ/ ١٢٥٦م) ، تاريخ مختصر الدول، ط. بيروت ١٨٩٠م ، ١٩٥٨م .

ابن العديم (كمال الدين أبوالقاسم ت٦٦٠هـ / ١٢٦١م) ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ثلاثة أجزاء تحقيق سامى الدهان ، الجزء الأول، ط. دمشق ١٩٥٤م . الجزء الثانى ، ط. دمشق ١٩٥٤م. الجزء الثالث ، ط. دمشق ١٩٦٨م. ثلاثة تراجم من ابن العديم نشر برنارد لويس B. Lewis فى Melanges Fuad Koprulu، ط. استانبول ١٩٥٣م.، بغية الطلب فى تاريخ حلب القسم الخاص بتراجم السلاجقة ، تحقيق على سويم الجمعية التاريخية التركية ط. أنقرة ١٩٧٦م.

ابن عساكر (أبو القاسم عبى بن الحسن ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م)، تاريخ مدينة دمشق تحقيق صلاح الدين المنجد ط. دمشق ١٩٥١م. ترجمة محمود بن زنكى تحقيق نيكيتا اليسيف مجلة الدراسات الشرقية م(٢٥) عام ١٩٧٢م B.E.O., T. XXV, Année 1972 .

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م)، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ط. القاهرة ب-ت.

ابن العميد (جرجس بن العميد ت ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م)، تاريخ الأيوبيين تحقيق كلود كاهين فى مجلة الدراسات الشرقية م(١٥) عام ١٩٥٥-١٩٥٧م B.E.O., T. XV, Années 1955-1957 .

ابن الفرات (ناصر الدين محمد ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك م٤ / جـ١ تحقيق الشماع ط. بغداد ١٩٦٩م ، جـ٨ تحقيق نجلاء عز الدين وقسطنطين زريق ، ط. بيروت .

ابن قاضى شهبة (تقى الدين أحمد ت٨٥١هـ/ ١٤٤٨م)، الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ط. بيروت ١٩٧١م.

ابن القلانسى (أبو يعلى حمزه ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق، أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٧م، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨٣ .

ابن كثير (الحافظ عماد الدين اسماعيل ٧٤٤هـ/ ١٣٧٣م)، البداية والنهاية ط. القاهرة ١٩٣٢م ، ط. القاهرة ١٩٣٥م، ط. بيروت .

ابن مماتى (شرف الدين ت٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) ، قوانين الدواوين تحقيق عزيز سوريال عطية ط. القاهرة ١٩٤٣م. الفاشوش فى حكم قراقوش تحقيق عبداللطيف حمزه ، ضمن كتاب حكم قراقوش ، ط. القاهرة ١٩٨٢م .

ابن منظور (محمد بن مكرم الانصارى ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب ، إعداد يوسف خياط ط. بيروت ب-ت .

ابن منكلى (محمد بن منكلى ت ٧٧٥هـ / ١٣٧٦م)، الأحكام الملوكية والضوابط النموسية فى فن القتال فى البحر. ، تحقيق عبد العزيز عبد الدايم رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧٤م.

ابن نظيف الحموى (أبو الفضائل محمد ت ق٧هـ / ١٣م)، التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان ، تحقيق أبو العيد دودو ط. دمشق ١٩٨٢م.

ابن واصل (جمال الدين محمد ت ٦٩١هـ/ ١٢٩١م)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، الأجزاء من ١-٣ تحقيق جمال الدين الشيال ، ط. القاهرة ١٩٥٣م ، ط. بيروت ب-ت ، من ٤ إلى ٥ أجزاء تحقيق حسنين ربيع ط. بيروت ب-ت.

ابن الوردى (أبوحفص زين الدين ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، تتمة المختصر فى أخبار البشر ط. القاهرة ب-ت ، ط. النجف ١٩٦٩م .

أبوشامة (شهاب الدين زبو محمد ت ٦٥٥هـ/ ١٢٦٧م)، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية جـ/١ ق١ ، تحقيق محمد حلمى أحمد ط. القاهرة ١٩٥٦م.، جـ١ / ق٢ ، تحقيق محمد حلمى أحمد ط. القاهرة ، ١٩٦٢م، ط. القاهرة ب-ت.

أبو الفداء (إسماعيل بن على ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، تقويم البلدان، تحقيق رينو ودى سلان ط. باريس ١٨٤٠م. المختصر فى أخبار البشر ط. بيروت ١٩٦٠م.

أبو الفوارس (صدر الدين أبو الحسن ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، أخبار الدولة السلجوقية تصحيح إقبال ط. لاهور ١٩٣٢م.

الإدريسى (الشريف الادريسى ت ق٦ هـ/ ١٢م)، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، تحقيق دى لافيلا وجابريلى وآخرين ط. نابولى ١٩٦٥-١٩٧٧م.

أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو المظفر ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ط. بيروت ١٩٨١م.

بطرس توديبود (القرن ١٢م / ٦هـ) ، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ت. حسين عطية ، ط. الاسكندرية ١٩٩٨م.

بنيامين التطيلى (بنيامين التطيلى ق١٢ م / ٦هـ)، الرحلة ، ت. عزرا حداد ط. بغداد ١٩٤٥م.

بيبرس الدواداري (ركن الدين ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م)، زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة عطا رسالة دكتوراه كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م.

مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى ٧٠٢هـ تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، ط. القاهرة ١٩٩٣م.

البيهقى تاريخ البيهقى ت. يحيى الخشاب ط. القاهرة ١٩٥٦م.

الترمذى (محمد بن عيسى ت حوالى ٢٧٦هـ/ ٨٩٢-٥٩٣م)، سنن الترمذى ، تحقيق أحمد شاكر ومصطفى الحلبى ، ط. القاهرة ب-ت.

الجوينى (عطا ملك الجوينى ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)، تاريخ جهانكشاى ت. محمد السعيد جمال الدين ، ضمن كتاب دولة الاسماعيلية فى إيران ، ط. القاهرة ١٩٧٥م.

حاجى خليفة (مصطفى كاتب شلبى ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م)، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، جـ٢ ، ط. استانبول ١٩٤٣م.

الحريرى ، الإعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، ط. دمشق ١٩٨١م.

الحميرى، الروض المعطار فى خبر الأقطار، ط. بيروت ١٩٨٤م.

الحنبلى، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق مديحه الشرقاوى ط. القاهرة ١٩٩٦م.

الذهبى (الحافظ الذهبى ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)، دول الإسلام جـ٢، تحقيق شلتوت ومصطفى ابراهيم ط. القاهرة ١٩٧٤م.

الرازى (فخر الدين ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٠م)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين تحقيق النشار، ط. بيروت ١٩٨٢م .

رايموند اجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة القدس ت. حسين عطية ، ط. الاسكندرية عام ١٩٩١م.

الزهرى (أبو عبدالله محمد القرن ٦هـ / ١٢م)، كتاب الجغرافية تحقيق محمد الحاج صادق مجلة الدراسات الشرقية العدد (٢١) عام ١٩٦٨م P.E.O., T. XXI Année 1968 .

السائح الهروى (أبو الحسن على ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م)، الاشارات إلى أماكن الزيارات تحقيق دومنيك سورديل ط. دمشق ١٩٥٣م.

سبط بن الجوزى (أبو المظفر يوسف ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان جـ٨ / ق١ ، ط. حيدر اباد الدكن ١٩٥١م. ، بالإضافة إلى قسم حققه مسفر الغامدى خاص بالسنوات من ٤٨١ إلى ٥١٧هـ/ ١٠٨٨-١١٢٣م منشورات معهد البحوث العلمية واحياء التراث الإسلامى ط. مكة المكرمة ١٩٨٧م.

السبكى (تاج الدين عبدالوهاب ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، طبقات الشافعية الكبرى، ط. القاهرة ب-ت.

سيرة الظاهر بيبرس ، ط. بيروت ب-ت .

السيوطى (عبد الرحمن أبى بكر ت٩١١هـ / ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة فى ملوك مصر والقاهرة ط. القاهرة ب-ت . تاريخ الخلفاء ط. القاهرة ١٩٦٩م .

السيوطى (المنهاجى ت ٨٨٠هـ/ ١٤٨٥م) اتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى ، جـ١، تحقيق أحمد رمضان ، ط. القاهرة ١٩٨٢ م.

شيخ الربوة الدمشقى (أبوعلى عاش القرن ٦هـ / ١٢م)، تذكرة أرباب الألباب فى كيفية النجاه من الحروب ، تحقيق كلود كاهن فى مجلة الدراسات الشرقية م (١٢) عام ١٩٤٧ -١٩٤٨ . . B.E. O., T. XII, Année 1947 - 1948

العامرى (أبو الحسن محمد بن يوسف ت ٣٨١هـ / ٩٩٢م)، الاعلام بمناقب الإسلام، تحقيق عبد الحميد غراب ، ط. القاهرة ١٩٦٧م.

العثمانى (صدر الدين محمد بن عبد الرحمن ت٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م)، تاريخ صفد ، تحقيق برنارد لويس فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية B.S.O.A.S. م(١٥) عام ١٩٥٣م.

العظيمى (محمد بن على ت ٥٥٦هـ/ ١١٦١م)، تاريخ العظيمى ، تحقيق كلود كاهن الجريدة الآسيوية ، عام ١٩٣٩م . J. A., Année 1939 ، تحقيق على سويم، الجمعية التاريخية التركية ، ط. انقرة ١٩٨٨م.

العماد الكاتب الأصفهانى (محمد بن محمد ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) ، تاريخ دولة آل سلجوق اختصار الفتح البندارى ط. بيروت ١٩٨٠م. الفتح القسى فى الفتح القدسى ط. القاهرة ١٣٢١هـ ، تحقيق محمد صبيح ط. القاهرة ١٩٦٥م.

العماد الأصفهانى (القاضى) (محمد بن محمد عاش فى القرن ٦هـ/ ١٢م)، البستان الجامع لجميع تواريخ الزمان، تحقيق كلود كاهن مجلة الدراسات الشرقية م(٧) ، (٨) عـــام ١٩٣٧ - ١٩٣٨م . B.E.O., T. VII-VIII Année 1937-1938 .

فلهاردوين ، من مذكرات فلهاردوين فتح القسطنطينية، ت. حسن حبشى ط. جدة ١٤٠٣هـ.

القزوينى (زكريا بن محمد ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد ط. بيروت ١٩٦٠م.

القلقشندى (أبو العباسى أحمد ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ط. القاهرة.

الكتاب المقدس ط. القاهرة ب-ت

ماركوبولو ، رحلات ماركوبولو ت . عبد العزيز توفيق جاويد ط. القاهرة .

الماوردى (أبو الحسن على ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط. القاهرة ب-ت .

مجهول ، تتمة كتاب وليم الصورى لمؤلف مجهول والمنسوب خطأ إلى روتلان ١٢٢٩-١٢٦١م ترجمة وتحليل وتعليق أسامة زكى زيد ط. الاسكندرية ١٩٨٩م.

مجهول (فارس صليبى فى جيش بوهيمند عاصر القرن ٥هـ/ ١١م)، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ت. حسن حبشى ، ط. القاهرة ١٩٥٨م) .

مجهول (رحالة مراكشى عاصر القرن ٦هـ/ ١٢م)، الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ط. الاسكندرية ١٩٥٨م.

مجهول ، تاريخ سلاطين المماليك نشر زترشتين Zettersten تحت عنوان Beitrage Zur Geschichte der Mamlukensultane , Leiden 1919 .

مسلم (أبو الحسين مسلم ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، صحيح مسلم ط. القاهرة ب-ت .

المقدسى البشارى (شمس الدين ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم تحقيق دى جويه ، ط. ليدن ١٩٠٩م، ط. ليدن ١٩٦٧م.

المقرى (شهاب الدين أحمد ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ٣ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط. القاهرة ١٩٤٩م.

المقريزى (تقى الدين أحمد ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، جـ١ ، ط. القاهرة ١٩٣٦م. اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق محمد محمد أحمد ، ط. القاهرة ١٩٧١م ، ط. القاهرة ١٩٧١م.

ناصر خسرو (ناصر خسرو علوى ت ٤٨١هـ/ ١٠٥٨م)، سفر نامه ، ت يحيى الخشاب ط. القاهرة ١٩٤٥م.

نظام الملك (الوزير الحسن بن على ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، سياست نامه ت. السيد العزاوى، ط. القاهرة ١٩٧٦م .

النعمان بن حيون (أبو حنيفة ت ٣٩٣هـ/ ٩٧٢-٩٧٣م)، دعائم الإسلام ، جـ١ تحقيق فيطى، ط. القاهرة ١٩٥١م ، تأويل الدعائم ط. القاهرة ، كتاب الاقتصاد تحقيق وحيد ميرزا ط. دمشق ١٩٥٣م .

النويرى (شهاب الدين النورى ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الأرب فى فنون الأرب جـ٢٧ ، تحقيق سعيد عاشور ط. القاهرة ١٩٨٠م .

النويرى السكندرى (محمد بن قاسم القرن ٨هـ / ١٤م)، كتاب الإلمام بالاعلام فيما حدث به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، ٧ أجزاء ، ط. حيدر أباد الدكن ١٩٦٨-١٩٧٦م.

الواسطى المقدسى (أبو بكر محمد بن أحمد ت ق٥ هـ/ ١١م)، فضائل البيت المقدسى ، تحقيق اسحق حسون ، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية الجامعة العبرية- القدس ١٩٧٩م.

الهروى (أبو الحسن على ت ٦١١هـ/ ١٩٧٩م)، الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق دومنيك سورديل ط. دمشق ١٩٥٣م.

الوهرانى (ركن الدين محمد ت ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م)، منامات الوهرانى ومقاماته ، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش ، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

اليافعى (أبو محمد عبدالله ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ط. حيدر أباد الدكن ١٣٤٨ هـ .

ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٧٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان ، تحقيق وستنفيلد ط. لبزج ١٨٨٩م ، ط. بيروت ١٩٥٥م، ١٩٧٧م ، ١٩٩٠م.

اليونينى البعلبكى (قطب الدين موسى ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان جـ٢، ط. حيدر أباد الدكن ١٩٥٤م.

ثالثًا : المصادر الأوربية اللاتينية واليونانية والسريانية والأرمينية والعبرية :

Albert d'Aix , in R.H.C. Hist. Occ. T . IV , Paris, 1879 .

Ambroise, The Crusade of Richard Heart of Lion , Trans. by Hubert , New York 1943 .

Anna Comnena, Alexiad , Trans. by Sewter, Penguin Books, London 1979 . also in peters, The First Crusade , The Chronicles of Fulcher of Chartres and other Source Materials, Philadelphia 1971.

Anonymous Syriac Chronicle, The First and Second Crusade Trans. by Tritton, J.R. A.S., 1933.

Anonymous, The deeds of The Franks and Other Pilgrims To Jerusalem, Trans. by R. Hill, London 1962.

Baldric of Dol, in Peters, The First Crusade, The Chronicles. of Fulcher of Chartres, and other Source Materials, Philadelphia 1971.

Benjamin of Tudela, The Travels of Benjamin of Tudela, in Wright, Early Travels in Palestine, London 1848.

Burchard of Mont Sion, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., VII., London 1896.

Chronicle of The Third Crusade, A Translations of ITinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Recardi, Trans. by Helen Nicolson, London 1997.

Cinnamus, The deeds of John and Manuel Comnenus, Trans. by Charles M. Brand, Columbia 1976., Epitome Historiarum, in C.S.H.B, Bon 1836.

Commororatorium on the Churches of Jerusalem, in Wilkinson, Jerusalem Pilgrims Before The Crusades, London 1977.

Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land, Trans. by Wilson, P.P.T.S., vol. IV, London 1895.

Ernoul, Ernoul's Account of Palestine, Trans. by C.R. Conder. P.P.R.S., vol. VI, London 1896. also, Chronique d'Ernoul et Bernard Le Tresorier, ed. par Mas Latric, Paris 1971.

Eugene III announce acrusade Desember I, 1145 ", in Tharcher, Source Book for Medieval History, new York 1905.

Eugene III Writing to king Louise VII of France and his subjects Proclaims The Second Crusade on God's Behalf, March 1146 ", in Louise and Jonathan Riley Smith, the Crusades, Idea and Reality, London 1981.

Felix Fabri, The Wanderings of Felix Fabri , Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol . VII, Part II , London 1893 .

Fragmentum de Captione Damiate, in quinti Bellisacri Scriptores Minores , ed. Reinholdus Rohricht , Genevae 1879 .

Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jersalem, Trans. by Rita Rian , Tennesse 1969 .

Geoffrey of Vinsauf , Crusade of Richard Coeur de lion , in Chronicles of the Crusades, London 1908 .

Gesta Obsidionis Damiate , in quonti Belli Sacri Scriptores Minores ed. Reinholdus Rohricht, Genevae 1879 .

Guide Book to Palestine Trans. by J.HBernard , P.P.T.S., vol . V, London 1897 .

Issac Ben Joseph Ibn Chelo, in Adler, Jewish Travellers in the Middle Ages, New York 1987 .

Jacques de Vitry, History of Jerusalem, Trans. by Aubrey Stewart, P.P.T.S., vol . London 1896 .

Jean de Joinville , The Life of Saint louis , Trans. by Shaw , London 1976 .

Johannes de Tulbia de Domino Johanne Rege Ierusalem, in quinti Belli Sacri Scriptores Minores , ed. Reinoldus Rohricht, Genevae 1879 .

John de Villiers, Aletter of John de Villiers Master of Hospital describing the Fall of Acre , n king , the knights Hospitallers , in the Holy Land, London 1931 .

Kritovouls , History of Mehmet the Conqueror , Trans. by Charles Riggs, Princeton 1954 .

Liber Duellii Christiani in Cbsidione Damiate Exacti, in quinti Belli Sacri Scriptores Minores , ed. Reinholdus Rohricht, Genevae1879.

Ludolph Von Suchem , Description of the Holy land Trans . by Aubrey Stewart ,
P.P.T.S.. vol . VII , Part II, London 1893 .

Marino Santo , Secrets for True Crusaders to help them to recover the Holy land , trans
by Aubrey stewart , P.P.T.S., vol . VII, London 1896 .

Mathew of paris , English History from the year 1235 to 1273, Trans. From The Latin
by J.A. Giles, vol . II, London 1853 .

Mathieu d'Edesse, Chronique de Mathieu d'Edesse (962-1136) Avec la Continuation de
Gregoire le Pretre Jusq'en 1162 ed. M.G. Dulaurier, Paris 1858 .

Michael le Syrien, Chronique , ed. par Chabot , Paris 1903 .

Nicetas Choniates, O City of Byzantium Annales of Nikitas Choniates. by Harry Ma-
goulias, Wagne State University , Detriot 1984 .

Odo of Deul , De Profectione Ludovici VII in Orientem ed , with an English Translation
by Virginia Gingerick Berry , New York MCMXLVIII

Oliver of Padenborn , The Capture of Damietta, Trans. by cavigan, Philadelphia 1948 .

Otto of Freising , The deeds of Frederich Barbarossa , Trans. by Charles Christopher
Microw , Toronto 1966 .

Otto of St. Blasion , The Third Crusade from the chronicle of Otto of St. Blasion , in
Thatcher, Source Book of Medieval History , New York 1905 .

Psellus , Chronographia, in Ashour and Rabie , Fifty documents in Medieval History ,
cairo 1971 . also , Fourteen Byzantine Rulers , the Chronographia of Michael psel-
lus, Penquin Books, Lonon 1966 .

Rabbi Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen, in Adler , Jewish Travellers in the Middle
ages, New York 1987 .

Rabbi Jacob The Messenger Rabbi Jechiel of Paris , in Adler, Jewish Travellers in the
Middle Ages, New York 1987 .

Ralph Glaber, Historiarum, in Wilkinson, Jerusalem Pilgrims before The Crusades, London 1977 . also , Historiarum libri quinque , in the High Middle Ages 1000-1300 , ed. by Bryce D. lyon , U.S.A. 1964 .

Raymond d'Aquilers, Historia Francorum qui Ceperunt Iherusalem , Trans. with Introduction and Notes by John Hugh Hill and laurita L. Hill, philadelphia 1968 .

Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de Lion , in Chronicls of the Crusades, London 1908 .

Robert the Monk , in Peters the First Crusade , The chronicles of Fulcher of Chartres and other source Materials, Philadephia 1971 .

Roger of Wondover, Flowers of History, Trans . by Giles , vol . II, London 1849 .

Tacitus, Germany and its Tribes, Complete Works of Tacitus , Trans. by Brodribb, Colombia 1942 .

The Jews and the Crusades, The Hebrew chronicle of the First and Second Crusade, Trans. by Shlomo Eidelburg, Madison 1977 .

The Saga of Sigurd , in Wright, Early Travels in palestine London 1848 .

The Song of Roland , Trans . by Sayers, Penguin Classics, London 1977 .

Urban To all faithful in Flanders, December 1095, in Louise and Jonathan Riley - Smith, The Crusades , Idea and Realitey, London 1981 .

Urban to his partisans in Bolonya , 19 September 1096 , in Louis and Jonathan Riley - Smith, The Crusades, Idea and Reality, London 1981 .

Urban to the Religious of the Congregation of Valombroso 7 October 1096, in Louis and Jonathan Riley - Smith , The Crusades, Idea and Reality , London 1981 .

Urban to the Counts of Besalu , Empurias, Roussillon and Cerdana and Their knights, January 1096-29 , July 1099 in Louise and Jonathan Riley - Smith , The Crusades, Idea and Reality, London 1981 .

Villehardouin , The Conquest of Constantinople, in Chronicles of the Crusades, Penquin Books, Trans. by Shaw , London 1963 .

William of Tyre, History of deeds done beyond The Sea, 2 vol Trans. by Bebcock and Krey, New York 1943 .

William Rutebeuf, in Masson , Mediaeval France From The Reign of Hugues Capet to The Beginning of the Sixteenth Century , London 1888 .

رابعًا : المصادر الفارسية

خواندمير (غياث الدين بن همام ت ٩٤٥هـ/ ١٥٣٥م) حبيب السير ، ط. تهران ١٣٣٣ .

ميرخوند (محمد بن خاوندشاه ت ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م) تاريخ روضة الصفا ، ط. تهران ١٣٣٩ .

خامسًا المراجع العربية والمعربة :

آدم سميث ، الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة ، ط. بيروت ب-ت.

إبتسام مرعى خلف الله ، العلاقات بين الخلافة الموحدية والشرق الإسلامى ٥٢٤-٩٣٦هـ/ ١١٣٠-١٥٢٩م) ، ط. القاهرة ١٩٨٥م.

إبراهيم حسن سعيد (د.) ، الجيش فى عصر سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير - كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٣م .

إبراهيم خليل (د.) ، «كربوغا صاحب الموصل ودوره فى مقاومة الصليبيين » المؤرخ العربى، العدد (٥) عام ١٩٧٩م.

إبراهيم سعيد فهيم (د.) ، حركة الحج الأوربى إلى الأماكن المقدسة فى الشرق الأدنى ١٢٩١-١٥١٧م/ ٦٩٠-٩٢٣هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٧م.

إبراهيم طرخان (د.) ، الناصر صلاح الدين وتحرير القدس ، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

أبو الفرج العش آثارنا فى الإقليم السورى ، ط. دمشق ١٩٦٠م.

أحمد أحمد بدوى (د.) ، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام، ط. القاهرة ب-ت . الحياة العقلية فى مصر والشام فى عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ب-ت .

أحمد بدر (د.) ، «الأندلسيون والمغاربة فى القدس» مجلة أوراق، المعهد الأسبانى العربى، العدد (٤) مدريد ١٩٨١م.

أحمد توفيق الطيبى (د.)، «وقعتا حطين والأرك نصران متوازيان على الغزاه الصليبيين فى الشرق والغرب». مجلة البحوث التاريخية ، السنة (١٠) ، العدد (١) يناير ١٩٨٨م.

أحمد حمد أحمد (د.)، «فقه التاريخ وانتصارات صلاح الدين» المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد (٥٩) السنة (١٥) ، الكويت ١٩٩٧م .

أحمد دراج (د.) ، عيذاب»، مجلة نهضة أفريقيا ، السنة الأولى، العدد (٩) يوليو ١٩٥٨م، الكويت ١٩٩٧م .

أحمد رمضان (د.)، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الحرب الصليبية، ط. القاهرة ب–ت . شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ط. القاهرة ١٩٧٧م. المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

أحمد شلبى (د.) ، الجهاد والنظم العسكرية ، ط. القاهرة .

أحمد طه (د.) ، الطب الإسلامى ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

أحمد عارف الزين ، تاريخ صيدا ، ط. صيدا ١٣٣١هـ .

أحمد عبد الجواد الدومى ، صلاح الدين الأيوبى الناصر لدين الله ، ط. صيدا ب–ت . .

أحمد فارس الشدياق ، أخبار الأعيان فى جبل لبنان ، ط. بيروت .

أحمد فكرى (د.) ، «التأثيرات الفنية الإسلامية على الفنون» ، مجلة سومر، م(٢٣) ، جـ١، جـ٢ عام ١٩٦٧م.

أحمد مختار العبادى (د.) ، «البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك» ضمن كتاب تاريخ البحرية المصرية ، ط. جامعة الاسكندرية ١٩٧٢م .

إدوارد براون ، الطب العربى، ت. داود سليمان ، ط. بغداد ١٩٨٦م.

ارشيد يوسف (د.)، سلاجقة الشام والجزيرة فى الفترة ما بين ٤٣٥–٥٧٠هـ ، ط. الرياض ١٩٨٨م.

إرنست باركر، الحروب الصليبية ت. السيد الباز العرينى، ط. بيروت ب-ت ، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

أسامه زكى زيد (د.) ، الصليبيون واسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى) ، ط. الاسكندرية ١٩٨٠م. .
صيدا ودورها فى الصراع الصليبى- الإسلامى ، ط. الاسكندرية ١٩٨١م.

إسحق أرمله السريانى ، الحروب الصليبية فى الآثار السريانية ، ط. بيروت ١٩٢٩م.

إسحق عبيد (د.) ، «قصة عصور القديسة هيلانه على خشبة الصلب أسطورة أم حقيقة» مجلة كلية الآداب ، جامعة عين شمس م(١٧) ، عام ١٩٧٠م، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة لكتاب مدينة الله لأوغسطين ط. القاهرة ١٩٧٢م، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ط. بنى غازى ب-ت ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ، ط. القاهرة ١٩٧٠م ، الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع، ط. بنى غازى ١٩٧٥م.

أسد رستم (د.) ، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم ، ط. بيروت ١٩٥٦م .
كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى جـ٢ ، ط. بيروت ١٩٨٨م.

إسرائيل ولفنسون ، موسى بن ميمون ، ط. القاهرة ١٩٣٦م.

اسمت غنيم (د.) ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ٣٢٤-١٤٥٣م ، ط. الاسكندرية ١٩٨٧م، الياس ديب .

إلياس فريحه ، أسماء المدن والقرى اللبنانية ، ط. بيروت ١٩٥٦ م.

اليكس جورافسكى ، الإسلام والمسيحية ، ت. خلف محمد الجراء ، عالم المعرفة ، ط. الكويت ١٩٩٦م .

أمال هاشم ، بانياس الداخلية ودورها فى الصراع الإسلامى الصليبى عصر الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م / ٤٩٧-٦٩٠هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٧م.

أمين طليع ، أصل الموحدين الدروز وأصولهم ، ط. بيروت ١٩٦١م .

أمين معلوف ، الحروب الصليبية كما رآها العرب ت. عفيف دمشقية، ط. بيروت ١٩٨٩م.

أمينة الشوربجى ، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى ٣٥٨-٥٦٧هـ/ ٩٦٩-١١٧١م ، ط. القاهرة ١٩٩٤م.

أنتونى بردج ، الحروب الصليبية ت. غسان سبانو ، ط. دمشق ١٩٨٥م.

أنتونى ويست ، الحروب الصليبية ت. شكرى محمود نديم مراجعة محمود حسين ، ط. بغداد ١٩٦٧م.

أنور عبد العليم (د.) ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، ط. الكويت ١٩٧٩م.

البدراوى زهران ، الصراع اللغوى فى عصر الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ب-ت.

برنارد لويس ، الدعوة الاسماعيلية الجديدة- الحشيشية ت. سهيل زكار ط. بيروت ١٩٧١م. استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ت. سيد رضوان، ط. الرياض ١٩٨٢م.

بسام العسلى ، فن الحرب الإسلامى أيام الحروب الصليبية، ط. بيروت ١٩٨٨م.

بوريس رأوشنباخ ، «تعميد كييف» مجلة رسالة اليونسكو العدد التذكارى بمناسبة مرور ألف عام على دخول المسيحية فى روسيا القديمة ، عدد رقم (٣٢٥) يونيو ١٩٨٨م.

ترتون ، أهل الذمة فى الإسلام ، ت. حسن حبشى، ط. القاهرة ١٩٦٧م.

توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ت. حسن إبراهيم، ط. القاهرة ١٩٧٠م.

تيسير بن موسى ، غزوات الافرنج ، ط. بنى غازى ١٩٨٣م.

جاك ريسلر ، الحضارة العربية ، ت خليل أحمد خليل، ط. بيروت ١٩٩٣م.

جلال حسنى سلامه ، عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، ط. نابلس ١٩٩٨م.

جمال الدين الرمادى (د.) ، الأمن والسلام فى الإسلام ، ط. القاهرة ١٩٦٣م. ط. القاهرة ١٩٦٣م.

جمال الدين سرور (د.) ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٤٧م.

جمال الدين الشيال (د.) ، مجمل تاريخ دمياط ، ط. القاهرة ١٩٤٩م. تاريخ مصر الإسلامية جـ٢ ، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م.

جمال الدين محمود (د.) ، الإسلام وقضية السلام والحرب ، ط. القاهرة ١٩٨٠م

جمال الزنكى (د.)، مؤيد الدولة ياغى سيان صاحب أنطاكية والحملة الصليبية الأولى ٤٧٧- ٤٩١هـ/ ١٠٨٥-١٠٩٨م «حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت ، الحولية (١٨) ، الرسالة ١٢٦، ط. الكويت ١٩٩٧-١٩٩٨م.

جمعه الجندى (د.) ، حكم النورمان فى صقلية ٤٨٩-٥٨٦هـ / ١٠٩١-١١٩٤م رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٨٠م ، حياة الصليبيين ونظمهم فى الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر دراسة تطبيقية على مملكة بيت المقدس رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٨٥م .

جمعه رجب طنطيس (د.) ، الحياة فى فلسطين دراسة فى الجغرافية الاقتصادية والسياسية، ط. بنى غازى ١٩٨٩م.

جميل حرب محمود (د.)، الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى ، ط. جدة ١٩٨٥م .

جنفيان توفيل ، صلاح الدين بطل الإسلام ت. جورج أبى صالح ، ط. بيروت ١٩٩٢م.

جوستاف لوبون ، حضارة العرب ت. عادل زعيتر ، ط. القاهرة ١٩٤٥م.

جوزيف بن داهموس ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى ت. محمد فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

جوزيف نسيم يوسف (د.) ، هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ط. القاهرة ب-ت . «الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية» مجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية م(١٦) ، عام ١٩٦٢-١٩٦٣ م، العدوان الصليبى على مصر وهزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ، ط. الاسكندرية ١٩٦٧م ، ط. بيروت ١٩٨١م. «أنشودة رولان قيمتها التاريخية وما أثير حولها ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ط. الاسكندرية ١٩٨٣م، العرب والروم واللاتين

فى الحرب الصليبية الأولى ط. الاسكندرية ١٩٨٣م ، ط. بيروت ب-ت. «معركة حطين خلفياتها ودلالاتها» عالم الفكر ، م(٢٠) العدد الأول أبريل، مايو - يونيو ١٩٨٩م. تاريخ الحركة الصليبية ، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م.

جون لامونت ، «الحرب الصليبية والجهاد » ضمن كتاب دراسات إسلامية ت. نقولا زيادة، ط. القاهرة ١٩٦٨ م.

جوناثان رايلى سميث ، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠-١٣١٠ ، ت صبحى الجابى ، ط. دمشق ١٩٨٤م، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ت. محمد فتحى الشاعر، ط. القاهرة ١٩٩٣م .

جيمس دوروثى ، الماجنا كارتا (العهد الأعظم) ت. مصطفى طه حبيب، ط. القاهرة ١٩٦٥م.

حاتم الطحاوى (د.)، الحياة الاقتصادية فى المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام (٤٩٤ / ٥٨٣هـ - ١٠٩٩-١١٨٧م) رسالة ماجستير كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام ١٩٩٢م. بيزنطة والمدن الايطالية العلاقات التجارية (١٠٨١-١٢٠٤) ، ط. القاهرة ١٩٩٨م.

حافظ حمدى (د.)، الدولة الخوارزمية والمغول ط. القاهرة ١٩٩٨م. الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، ط. القاهرة ١٩٥٠م .

حامد زيان غانم (د.)، العلاقات بين صقلية ومصر والشام إبان الحروب الصليبية رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧٣م. فردريك بارباروسا والحملة الصليبية الثالثة ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

حامد غنيم (د.) ، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية جـ٢، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

حجاجى إبراهيم (د.) ، «القلاع وتطور الفكر الهندسى» المنهل، العدد (٤٥٢) م(٤٨) ، يونيو ١٩٨٧م.

حسن إبراهيم (د.) ، الفاطميون فى مصر ، ط. القاهرة ١٩٣٢م .

حسن الأمين (د.) ، «صلاح الدين الأيوبى نظرة مختلفة »، العربى العدد (٤٤٢) سبتمبر ١٩٩٥م .

حسن حبشى (د.) ، نور الدين والصليبيون ط. القاهرة ١٩٤٨ ، الشرق الأوسط بين شقى الرحى ، ط. القاهرة ١٩٤٩م ، الحرب الصليبية الأولى ط. القاهرة ١٩٥٨م، «هجوم القبارصه على الاسكندرية ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م من نصوص جديدة للنويرى» المجلة التاريخية المصرية م(١٥) عام ١٩٦٩م.

حسن عباس حسن (د.) ، الصباغة المنطقية للفكر السياسى الإسلامى رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة عام ١٩٨٠م.

حسن عبد الوهاب (د.) ، المحاولات التبشيرية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية حوليات كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية . تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة حوالى ١١٩٠- ١٢٩١م / ٥٨٦-٦٩٠هـ ط. الاسكندرية ١٩٨٩م، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى ط. الاسكندرية ١٩٩٠م. مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية ، ط. الاسكندرية ١٩٩٧م، «الرشوة فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام منذ الحملة الصليبية الأولى وحتى سقوط بيت المقدس ١٠٩٥-١١٨٧م / ٤٨٨-٥٨٣هـ» ضمن كتاب مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية ط. الاسكندرية ١٩٩٧م، «مصر وأمن البحر الأحمر فى عصر الحروب الصليبية» ضمن كتاب مقالات وبحوث فى التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية ، ط. الاسكندرية ١٩٩٧م.

حسنين ربيع (د.) ، «البحر الأحمر فى العصر الأيوبى» ندوة البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية» ، ط. القاهرة ١٩٨٠م ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ط. القاهرة ١٩٨٧م .

حسين أحمد أمين (د.) الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين المعاصرين لها، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

حسين السيد النحال (د.) ، الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى مصر وتونس من سنة ١٣٦٥ إلى ١٤٠٧م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس عام ١٩٩١م .

حسين عطية (د.) ، إمارة أنطاكية الصليبية رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية ١٩٨١م . إمارة انطاكية والمسلمون ، ط. الاسكندرية ١٩٨٩م.

حسين مؤنس (د.)، صور من البطولة ط. القاهرة ١٩٤٨م. نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ، ط. القاهرة ١٩٨٤م.

الحسينى عبدالله ، الجذور التاريخية للنصيرية العلوية ، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

حنا أبى راش ، جبل الدروز ، ط. القاهرة ١٩٨٥م .

حنيفة الخطيب (د.) ، الطب عند العرب ، ط. بيروت ١٩٨٨م.

حياة ناصر الحجى (د.)، العلاقات بين المماليك ودولة القفجاق ، ط. الكويت. السياسة الصليبية للملك لويس التاسع ، ط. الكويت .

خاشع المعاضيدى (د.)، الحياة السياسة فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ، ط. بغداد ١٩٧٦م.

خاشع المعاضيدى وسوادى عبد ودريد نورى (د.)، تأريخ الوطن العربى والغزو الصليبى ط. بغداد ١٩٨٦م.

دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية، إعداد خورشيد وآخرين ، ط. القاهرة.

ديفيد جاكسون ، «معركة حطين والاستيلاء على القدس» ضمن كتاب حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد ، ط. القاهرة ١٩٨٩م.

رأفت عبد الحميد (د.) ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٨م .

رأفت النبراوى (د.)، النقود الصليبية فى الشام ومصر ، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

راجية إبراهيم عبد الوهاب(د.) ، الاستراتيجية العسكرية لصلاح الدين الأيوبى ، عن سلسلة دراسات عن الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس عام ١٩٨٦م.

رجب محمد عبد الحليم (د.) ، «الحركة الصليبية والغرب الإسلامى فى القرن الحادى عشر للميلاد (دور البابوية)» ندوة الاطار التاريخى للحركة الصليبية ، اتحاد المؤرخين العرب ، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

رشيد الجميلى (د.) ، دولة الاتابكة بالموصل بعد عماد الدين زنكى ، ط. بيروت ١٩٧٠م، العرب والتحدى الصليبى هيئة كتاب التاريخ موسوعة التاريخ العربى الإسلامى ، ط. بغداد ١٩٩٠م.

رمسيس عوض (د.) ، الهرطقة فى الغرب ، ط. القاهرة ١٩٩٧م.

روبير برنشفيك ، تاريخ أفريقية فى العهد الحفصى من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥، ت. حمادى الساحلى ، ط. بيروت ١٩٨٨م.

رينيه جروسيه ، رصيد التاريخ ت. محمد خليل الباشا ، ط. بيروت ب-ت .

زاهر رياض (د.) ، شمال أفريقيا فى العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٨١م.

زبيدة عطا (د.) ، الترك فى العصور الوسطى ط. القاهرة ب-ت، الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين ، ط. القاهرة ١٩٩٤م.

زكى نقاش (د.) ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية ، ط. بيروت ١٩٥٨م.

زينب عبد القوى (د.) ، الانجليز والحروب الصليبية فى الفترة من ١١٨٩ إلى ١٢٩١م ، ط. القاهرة ١٩٩٦م .

زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ت. الدسوقى وبيضون ، ط. بيروت .

سامر مخيمر وخالد حجازى (د.) أزمة المياه فى المنطقة العربية سلسلة عالم المعرفة ١٩٩٦م.

سامى سلطان سعد (د.)، الاسبتارية فى رودس رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م.

سامية محمد أحمد عمار (د.)، جبيل تحت حكم اللاتين وعلاقاتها السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٨٣م.

ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ، ت. السيد الباز العرينى ، ط. بيروت ١٩٩٣م.

سر الختم عثمان (د.) ، صور فى القرنين ١٢ ، ١٣م رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧١م.

سرور على عبد المنعم ، الدور السياسى لحصن شقيف أرنون فى عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة طنطا ١٩٩٧م.

سعاد ماهر (د.) ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ط. القاهرة ١٩٦٧م.

سعد زغلول عبد الحميد(د.) ، «سياسة نامه لنظام الملك» تراث الإنسانية م(٩) ، جـ(٢)، ط. القاهرة ١٩٧١م. «العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور يوسف بن عبد المؤمن الموحدى» مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية م(٦) ، (٧) عام ١٩٥٢- ١٩٥٣م.

سعد محمد المومنى (د.) ، القلاع الإسلامية فى الأردن الفترة الأيوبية والمملوكية ط. عمان ١٩٨٨م.

سعدون عباس نصر الله ، خروج الصليبيين من الشرق فى العصور الوسطى ، ط. بيروت ١٩٩٥م.

سعيد برجاوى ، الحروب الصليبية فى الشرق ، ط. بيروت ١٩٨٤م .

سعيد البيشاوى ، الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م)، ط. الاسكندرية ١٩٩٠م.

سعيد الديوجى ، الموصل فى العهد الأتابكى ، ط. بغداد ١٩٥٨م.

سعيد عاشور (د.) ، قبرص والحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٥٧م، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ط. القاهرة ١٩٥٩م، الظاهر بيبرس، ط. القاهرة ١٩٦٣م ، المدينة الإسلامية وآثارها على الحضارة الأوربية، ط. القاهرة ١٩٦٣م ، «الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى» مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عدد عام ١٩٦٣م، أضواء جديدة على الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٦٤م، الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٣م ،

ط. القاهرة ١٩٨٢م، أوربا العصور الوسطى ، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ط. القاهرة ١٩٨١م، «ملامح المجتمع الصليبى فى بلاد الشام» مجلة المستقبل العربى، عدد (٨) عام ١٩٨٧م، «حطين وقائع وعبر» مجلة العربى ، العدد (٣٤٤) يوليه ١٩٨٧م.

سليمان الرحيلى (د.) ، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة فى عهدى الخليفة هارون الرشيد والامبراطور شارلمان ، ط. الرياض ب-ت .

سليمان عبدالله الخرابشه (د.) ، نيابة طرابلس فى العصر المملوكى، ط. عمان ١٩٩٣م .

سمايل (ر.سى) ، الحرب الصليبية ت. سامى هاشم ، ط. بيروت ١٩٨٢م .

سميرة الليثى (د.) ، جهاد الشيعة ، ط. بيروت ١٩٧٦م .

سميره يونس عبد القادر (د.) ، النورمان والدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى، ط. القاهرة ١٩٩٥م .

السنهورى ، الإسلام والجهاد، ط. القاهرة .

سنيه قراعه ، شجرة الدر ، ط. القاهرة ب-ت .

سهيل زكار (د.)، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية دراسة تتناول قيام الامبراطورية السلجوقية وأحوال الشام والجزيرة عشية الغزو الصليبى ، ط. دمشق ١٩٨١م .

سوسن محمد نصر(د.) ، منطقة الجزيرة الفراتيه والوحدة خلال القرن السادس الهجرى» ، مجلة الشرق الأوسط مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس العدد (٧) عام ١٩٩٠م.

السيد أحمد أبو الفضل (د.) ، «انتشار ترجمات معانى القرآن الكريم فى مشرق العالم ومغربه» مجلة البحوث الإسلامية العدد (٣٠) ، ربيع الأول ربيع الثانى جمادى الأول، ط. الرياض ١٤١١هـ.

السيد الباز العرينى (د.) ، مصر فى عصر الأيوبيين، ط. القاهرة ١٩٦٠م ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٩٦٢م ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية جـ١، ط. القاهرة ١٩٦٣م ، المماليك، ط. بيروت ب-ت . الشرق الأوسط فى العصور الوسطى الأيوبيون ، ط. بيروت ب-ت ،

المغول ط. بيروت ١٩٨٦م.

سيد الحريرى ، الأخبار السنية فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط. القاهرة ١٣١٧هـ .

السيد عبد العزيز سالم (د.) ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، ط. الاسكندرية ب-ت . تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى ، ط. الاسكندرية ١٩٨٦م .

السيد عبد العزيز سالم والعبادى (د.)، تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، ط. بيروت ١٩٧٢م البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٩٣م.

سيد فرج (د.)، «القدس عربيه إسلامية الدارة ، العدد (٣) السنة (١٨) يناير ١٩٨٤م .

سيد قطب ، معالم فى الطريق ، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

سيد الناصرى (د.)، الروم والمشرق العربى، ط. القاهرة ١٩٩٣م.

شارل ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية ت. أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر، ط. القاهرة ١٩٤٨م.

شارلز أومان ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ط. القاهرة ١٩٥٣م.

شاكر أبوبدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ط. بيروت ب-ت .

شاكر مصطفى (د.) ، «طغتكين رأس الأسرة البورية» مجلة كلية الآداب- جامعة الكويت العدد (١) يونيو ١٩٧٢م. «دخول الترك الغز إلى بلاد الشام» ضمن كتاب تاريخ بلاد الشام ، ط. عمان ١٩٧٤م ، «دخول الترك الغز إلى الشام فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر» مجلة كلية الآداب- جامعة الكويت العدد (٥) ، يونيو ١٩٧٤م. «حطين والفرص الضائعة» مجلة العربى، العدد ٣٤٤ يوليو ١٩٨٧م، منشور ضمن كتاب تاريخنا وبقايا صور ، ط. الكويت ١٩٨٩م.

صباح محمد محمد (د.) ، «التنين فى المصادر العربية» ضمن كتاب دراسات فى التراث الجغرافى العربى ط. بغداد ١٩٨١م.

صفاء حافظ عبد الفتاح (د.) ، الموانى والثغور المصرية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى، ط. القاهرة ١٩٧٧م .

صلاح الدين نوار (د.) ، العدوان الصليبى على العالم الإسلامى . ٤٩٠-٦١٥هـ/ ١٠٩٧-١٢١١م ط. الاسكندرية ١٩٩٣م.

طارق منصور (د.)، الروس والمجتمع الدولى رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٩م.

طه ثلجى الطراونه (د.)، مملكة صفد فى عصر سلاطين المماليك، ط. عمان ١٩٨٢م.

طه شرف ، دولة النزارية أجداد أغا خان كما أسسها الحسن بن الصباح، ط. القاهرة ١٩٥٠م.

عائشة بنت عبدالله (د.) ، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ط. مكة المكرمة ١٩٨٠م.

عائشة عبد العزيز التهامى (د.)، «المنشآت المعمارية للسلطانه شجر الدر بمدينة القاهرة» المؤرخ المصرى ، العدد (١٨) يوليو ١٩٩٧م.

عادل زيتون (د.)، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ط. دمشق ١٩٨٠م. العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى، ط. دمشق ١٩٨٠م.

عادل عبد الحافظ (د.)، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامى ١١٥٢ -١٢٥٠م / ٥٤٧-٦٤٨هـ ، ط. القاهرة ١٩٨٩م.

عادل نجم عبو (د.)، «الرباط فى العمائر الدينية الأيوبية فى سوريا» ضمن الكتاب التذكارى للاحتفال الخمسينى للدراسات الآثارية - جامعة القاهرة ، ط. القاهرة ١٩٧٨م.

عاطف مرقص (د.) ، قبرص والحروب الصليبية فى القرنين ١٢ ، ١٣م رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الاداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩١م.

عبد الجليل حسن المهدى (د.) ، الحركة الفكرية فى ظل المسجد الأقصى ، ط. عمان ١٩٨٠م.

عبد الحليم منتصر (د.) ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تطوره، ط. القاهرة ١٩٨٠م.

عبد الرءوف عون عفيفى ، الأشرف خليل بن قلاوون، رسالة ماجستير غير منشورة كلية

الآداب- جامعة القاهرة ب-ت .

عبد الرحمن زكى (د.) ، «العمارة العسكرية فى العصور الوسطى» المجلة المصرية للدراسات التاريخية م(٧) عام ١٩٥٨م. «القلاع فى الحروب الصليبية» المجلة المصرية للدراسات التاريخية م(١٥) عام ١٩٦٩م.

عبد الرحمن زكى ومحمود عيسى ، الحروب بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٤٧م.

عبد الرحمن سيد الأهل ، أيام صلاح الدين، ط. بيروت ١٩٦١م.

عبد العزيز عبد الدايم (د.) ، إمارة طرابلس الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٧م.

عبد العظيم رمضان (د.) ، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٨٣م. الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة ، ط. القاهرة ١٩٩٩م.

عبد الغنى إبراهيم رمضان (د.)، «شرف الدين مودود أتابك الموصل والجزيرة» مجلة كلية الآداب- جامعة الرياض م(٤) ، السنة (٤) عام ١٩٧٦-١٩٧٧م .

عبد الغنى محمود عبد العاطى (د.) ، «صليبية الأطفال» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط م(٣) ، عام ١٩٨٥م .

عبد القادر المغربى ، «الظاهر بيبرس» مجلة المجمع العلمى بدمشق م(٢١) ، جـ(٥) ، جـ(٦) عام ١٩٤٦م.

عبد القادر اليوسف (د.)، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر ، ط. بيروت ١٩٦٩م.

عبد الكريم كلشنى (د.)، الصليبيون الألمان فى الشام من ٥٨٥- ٥٨٦هـ/ ١١٨٩-١١٩٠م المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، ط. عمان ١٩٧٤م.

عبد اللطيف حمزة (د.) ، حكم قراقوش ط. القاهرة ١٩٨٢م.

عبداللطيف عبد الهادى السيد (د.) ، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس الصليبية فى

عهد بلدوين الثالث (١١٤٦-١١٦٣م) رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس ١٩٩٠م.

عبدالله الدروبي (د.) ، «المياه في الاستراتيجية الاسرائيلية» ، مجلة مستقبل العالم الإسلامي ، العدد (١٥) عام ١٩٩٥م .

عبدالله سعيد الغامدي (د.) ، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، منشورات جامعة أم القرى، مركز البحوث والدراسات الإسلامية ، ط. مكة المكرمة ١٤١٠هـ.

عبدالله الربيعي (د.) ، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية ط. الرياض ١٩٩٤م، «الدوافع الدينية للحركة الصليبية» ضمن ندوة الاطار التاريخي للحركة الصليبية ، اتحاد المؤرخين العرب القاهرة ١٩٩٦م .

عثمان توران (د.)، الأناضول في عهد السلاجقة والإمارات التركمانية ت. علي عوده الغامدي ، ط. الرياض ١٤١٨هـ .

عبد المنعم ماجد (د.)، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، ط. القاهرة ١٩٥٩م. العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦١م. الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي، ط. بيروت ١٩٦٢م. ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ط. القاهرة ١٩٨٥م. الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية ط. القاهرة ١٩٩٧م.

عبد الهادي التازي (د.)، «بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية» المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ط. عمان ١٩٧٤م.

عبد الوهاب حسن القرش قبرص والصراع البيزنطي- الإسلامي في الفترة من ٢١ - ٣٥٤هـ/ ٦٤١-٩٦٥م رسالة ماجستير غير منشور كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٩٦م.

عبد المعطي الجلابي (د.) ، التأثيرات الإسلامية في عمارة الغرب في العصور الوسطى » مجلة عاديات حلب، معهد التراث العلمي العربي، جـ١ ، عام ١٩٧٥م.

عثمان توران (د.)، الاناضول في عهد السلاجقة والامارات التركمانية ، ت. علي عوده الغامدي ، ط. الرياض ١٤١٨هـ.

عثمان عشرى (د.) ، الاسماعيليون فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ م رسالة، دكتوراه غير منشورة كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م.

عزيز سوريال عطية (د.) ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ت. فيليب صابر، ط. القاهرة ١٩٧٢م، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ت. فيليب صابر، ط. القاهرة ١٩٧٧م، «أحد مصنفى الموسوعات السكندريين فى القرن الرابع عشر الميلادى(القرن الثامن الهجرى) دراسة نقدية تحليلية لكتاب الالمام للنويرى السكندرى ، ت جوزيف نسيم يوسف ، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ط. الاسكندرية ١٩٨٣م.

عصام الدين عبد الرءوف (د.) ، بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى، ط. القاهرة ب-ت.

عصام سالم سيسالم (د.) ، جزر الإسلام المنسية التاريخ الإسلامى لجزر البليار ، ط. بيروت ١٩٨٤م .

عفاف صبره (د.) ، العلاقات بين الشرق والغرب علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة ١١٠٠-١٤٠٠ ، ط. القاهرة ١٩٨٣م، «الأمير مودود بن التونتكين» الدارة ، العدد (٢) السنة (١٢) عام ١٩٨٩م.

عماد الدين خليل (د.) ، الإمارات الأرتقية فى الجزيرة والشام ٤٦٥-٨١٢هـ/ ١٠٧٢-١٤٠٩م أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر، ط. بيروت ١٩٨٠م . المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى فى الموصل ٤٨٩-٥٢١هـ/ ١٠٩٥-١١٢٧م ، ط. الرياض ١٩٨١م .

عمر رضا كحالة ، أعلام النساء ، ط. دمشق ١٩٤٠م .

عمر فروخ (د.) ، تاريخ العلوم عند العرب ، ط. بيروت ١٩٨٤م.

عمر كمال توفيق (د.) ، مملكة بيت المقدس الصليبية ط. الاسكندرية ١٩٥٨م، الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة ط. الاسكندرية ١٩٨٩م، مقدمات العدوان الصليبى الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية، ط. الاسكندرية ١٩٦٦م، «المؤرخ وليم الصورى» مجلة كلية

الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٦٨م، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين دراسات تحليلية وثائقية فى التاريخ الدبلوماسى ط. الاسكندرية ١٩٨٦م، تاريخ الدولة البيزنطية ط. الاسكندرية ١٩٩٥م.

على أحمد (د.) ، «دور الأندلسيين والمغاربة فى الحروب الصليبية على مسرح الشام ومصر» ندوة الاطار التاريخى للحركة الصليبية منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

على أحمد السيد (د.) ، الخليل والحرم الابراهيمى عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م/ ٤٩٢-٥٨٣هـ ، ط. القاهرة ١٩٩٨م .

على حسنى الخربوطلى (د.)، البردى ، حامد عرس ١٩٩٨م ، الإسلام وأهل الذمة ، ط. القاهرة ١٩٦٩م. «وثيقة عهد البابا الكسندر الثالث لدير صهيون فى القدس عام ١١٧٨م عرض ودراسة وتحليل» بحث مقدم لمؤتمر فلسطين عبر العصور على ضوء البردى، عام ١٩٩٨م .

على السيد على (د.)، «الاسهام العسكرى المصرى فى موقعة عين جالوت» ضمن كتاب أثر الإسلام فى مصر وأثر مصر فى الحضارة العربية الإسلامية اشراف د. قاسم عبده قاسم ، ط. القاهرة ١٩٩٩م.

على عبد الحليم محمود (د.) ، الغزو الصليبى والعالم الإسلامى، ط. الرياض ١٩٨٢م.

على العواجى (د.) ، جهاد المسلمين ضد الصليبيين فى المغربين الأدنى والأوسط فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية اللغة العربية- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

على عوده الغامدى(د.) بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى٤٦٣-٤٩١هـ/ ١٠٧٠-١٠٩٨م، ط. مكة المكرمة ١٩٨٤م، بلاد الشام قبيل الغزو المغولى ، ط. مكة المكرمة ١٩٨٨م. المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين ط. الطائف ١٤١١هـ ، «حصن بغراس ودوره الحربى فى عصر الحروب الصليبية» ندوة الإطار التاريخى للحركة

الصليبية ، اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ١٩٩٥م. «الراهب الفرنسيسكانى ريموند لول ومحاولاته نشر النصرانية فى شمال أفريقية» المؤرخ العربى، العدد (٦) م(١) مارس ١٩٩٨م.

عليه عبد السميع الجنزورى (د.) ، إمارة الرها الصليبية ط. القاهرة ١٩٨٦م .

على الغمراوى (د.) ، المجموعات الحديثة لمصادر تاريخ الغرب الأوربى فى العصور الوسطى وأطوار البحث التاريخى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين ، ط. القاهرة ١٩٩٣م.

الغزى ، نهر الذهب فى تاريخ حلب ، ط. حلب ١٣٤٥هـ .

فاروق جرار (د.) ، «أسطول صلاح الدين» مجلة الأبحاث - الجامعة الامريكية ببيروت ، السنة (١٣) ، جـ (١) ، ط. بيروت ١٩٦٠م.

فاروق عمر فوزى ومحسن حسين (د.) ، تاريخ فلسطين فى العصور الإسلامية الوسطى، ط. بغداد ١٩٨٧م.

الفاضل لجيب عمر (د.) ، الطب الإسلامى عبر العصور ، ط. الرياض ١٩٨٧م.

فايد حماد عاشور (د.)، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى ط. القاهرة ١٩٧٦م. العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى ط. الاسكندرية ١٩٨٠م، جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ، العصر الفاطمى والسلجوقى والزنكى ، ط. بيروت ١٩٨٥م.

فايز لجيب اسكندر (د.) ، المقاومة الاسلامية فى مواجهة العدوان الصليبى على تونس سنة ٦٦٨-٦٦٩هـ / ١٢٧٠م، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

فتحى عبد العزيز (د.) ، دور الكنيسة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م.

فتحى عثمان (د.) ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، جـ١، ط. القاهرة ١٩٦٦م.

فتحية النبراوى (د.) ، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية فى العصور

الوسطى ١٠٠٠-١٣٠٠ ، ط. القاهرة ١٩٨٢م.

فرديناند توتل ، «زيارة إلى قلعة المرقب» المشرق ، م (٣٣) ، جـ(٤) عام ١٩٣٥م.

فريد شافعى (د.) ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ط. القاهرة ١٩٧٠م .

فهمى توفيق مقبل ، الفاطميون والصليبيون ، ط. بيروت ١٩٧٩م.

فلاديمير سينوف ، حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية ، ت. سعد بن حذيفة الغامدى، ط. الرياض ١٩٨٣م.

فيليب حتى(د.) ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ٢ ، ت . اليازجى، ط. بيروت ١٩٥٩م، لبنان فى التاريخ ت. أنيس فريحه، ط. بيروت ١٩٥٩م.

قاسم عبده قاسم (د.)، «الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية ، الظاهرة ومغزاها» ندوة التاريخ الإسلامى والسيط م(١) ، ط. القاهرة ١٩٨٢م ، الحروب الصليبية نصوص ووثائق الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م ط. القاهرة ١٩٨٥م ، «الدوافع الاجتماعية للحروب الصليبية» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط م(٣) ، ط. القاهرة ١٩٨٥م. الخلفية الأيدولوجية للحروب الصليبية ، دراسة تطبيقية على الحملة الأولى ، ط. القاهرة ١٩٨٧م ، الحروب الصليبية فى ألف ليلة وليلة دراسة فى تأثير الحرو الصليبية على الوجدان الشعبى» ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط م(٣) ، ط. القاهرة ١٩٨٥م، «بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية» مجلة عالم الفكر ، م(٢٢) العدد (٢) اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٣م.

قدرى قلعجى ، صلاح الدين الأيوبى قصة الصراع بين الشرق والغرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ط. بيروت ١٩٧٩م.

كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى جـ٦ ، ت. عبد الحليم النجار ، ط. القاهرة ١٩٧٧م.

كارول هيلنبراند ، «صلاح الدين : تطور أسطورة غربية» ضمن كتاب ٨٠٠عام حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ط. القاهرة ١٩٨٩م.

كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة الجبل ت. دراج ، ط. القاهرة ١٩٧٤م .

كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ت. بدر الدين قاسم ، ط. بيروت ١٩٧٣م، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ت. أحمد الشيخ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

كليفورد بوزوث ، الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى دراسة فى التاريخ والأنساب ، ت. حسين على اللبودى ، مراجعة سليمان ابراهيم العسكرى ، ط. القاهرة ١٩٩٥م .

كمال بن مارس ، العلاقة بين الموصل وحلب وأثرها على الحرب الصليبية رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب - جامعة عين شمس عام ١٩٩١م .

كمال الدسوقى (د.) ، تاريخ ألمانيا ط. القاهرة ١٩٦٩م.

كمال السامرائى (د.) ، مختصر تاريخ الطب العربى، جـ١ ، ط. بغداد ١٩٨٥م .

كمال الصليبى (د.) ، الموارنة صورة تاريخية ، محاضرة ألقيت فى دير مار ضومط، فى ١٢ ، ١٣ سبتمبر ١٩٦٩م. ملف النهار ، العدد (٤٠) يناير ١٩٧٠م.

كوبلاند وفينوجرادوف ، الإقطاع فى العصور الوسطى بغرب أوربا ت. محمد مصطفى زيادة ط. القاهرة ١٩٤٥م.

ليلى طرشوبى (د.) ، إقليم الجليل فى عصر الحروب الصليبية - القرن الثانى عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٨٦-١٩٨٧م.

ليلى عبد الجواد (د.) ، الدولة البيزنطية فى عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، ، ط. القاهرة ١٩٨٥م ، «علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية ٦٥٩-٧٨٤هـ/ ١٢٦١-١٣٨٢م» حوليات كلية الآداب- جامعة القاهرة، حولية (٤٦ ، (٤٧) عام ١٩٨٨م. تاريخ الروس من خلال المصادر العربية ط. القاهرة ١٩٩٠م؛ «صليبية نافار واسترداد المسلمين مدينة بيت المقدس (١٢٣٩-١٢٤٠م) ندوة فلسطين عبر التاريخ ط. القاهرة ١٩٩٦م .

مايكل هارت ، العظماء مائة وأعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم ت. أنيس منصور ط. القاهرة.

مجموعة من الباحثين ، أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية إعداد مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية اليونسكو ، ط. القاهرة ١٩٧٠م.

محسن محمد حسين (د.) ، الجيش الأيوبى فى عهد صلاح الدين ، ط. بيروت ١٩٨٦م.

محمد أبو زهرة (د.) ، نظرية الحرب فى الإسلام ، ط. القاهرة ١٩٦١م.

محمد حلمى محمد أحمد (د.) ، مصر والشام والصليبيون ، ط. القاهرة ١٩٧٩م.

محمد الدعمى (د.) ، «تاريخ التأريخ الأوربى للإسلام والعرب من العصر الوسيط حتى الثورة الصناعية » الكلمة ، العدد (١٦) ، السنة (٤) عام ١٩٩٧م.

محمد شديد ، الجهاد فى الإسلام ، ط. القاهرة ب-ت.

محمد شلتوت ،الإسلام دين وشريعة ، ط. القاهرة.

محمد صالح منصور (د.) ، أثر العامل الدينى فى توجيه الحركة الصليبية ، ط. بنى غازى ١٩٩٦م .

محمد عبد الحميد زقزوق (د.)، «الرسالة المحمدية فى المؤلفات الغربية» مركز بحوث السنة والسيرة- جامعة قطر العدد (٤) ، الدوحة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب، ط. بيروت ١٩٨٢م ، السلطنة الحفصية تاريخها السياسى ودورها فى الغرب الإسلامى، ط. بيروت ١٩٨٦م.

محمد فتحى الشاعر (د.) ، أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م ط. القاهرة ١٩٩٠م.

محمد كامل حسين (د.) «فى الطب والأقربازين» ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

محمد كامل مراد (د.) «القتال فى الإسلام » مجلة كلية اللغة العربية ، الرياض عام ١٩٧٢م.

محمد مؤنس أحمد عوض (د.) التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م ، الصراع السنى الشيعى فى بلاد الشام

في القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى من خلال رحلة ابن جبير »، ندوة العرب وآسيا ، جامعة القاهرة ابريل ١٩٨٩م ، الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م ط. القاهرة ١٩٩٢م ، «وليم الصورى مؤرخًا للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية» سلسلة دراسات شرق أوسطية - مركز بحوث الشرق الأوسط - جامعة عين شمس - القاهرة ١٩٩٥م ، «أضواء على الطب فى المناطق الصليبية ١٠٩٨-١١٧٤م» سلسلة دراسات شرق أوسطية - مركز بحوث الشرق الأوسط ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٩٥م ، الملك النرويجى سيجورد ودوره فى دعم الحركة الصليبية ١١٠٧-١١١١م ، دراسات شرق أوسطية مركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٩٥م ، فصول ببليوغرافية فى تاريخ الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٦م ، الزلازل فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٩٦م ، فى الصراع الإسلامى- الصليبى معركة أرسوف ١١٩١م / ٥٨٧هـ ط. القاهرة ١٩٩٧م ، من إسهامات الطب العربى الإسلامى فى العصور الوسطى ط. القاهرة ١٩٩٧م، فى الصراع الإسلامى الصليبى السياسة الخارجية للدولة النورية، ط. القاهرة ١٩٩٨م ، الحروب الصليبية دراسات وبحوث تاريخية ونقدية ، ط. عمان ١٩٩٩م.

محمد ماهر حمادة (د.) ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى، ط. بيروت ١٩٨٦م.

محمد محمد أمين (د.) ، الصالح نجم الدين أيوب رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٦٨م.

محمد محمود النشار (د.) ، «البابوية وفرنسا على مسرح الحروب الصليبية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى». ندوة الاطار التاريخى للحركة الصليبية - اتحاد المؤرخين العرب ، ط. القاهرة ١٩٩٦م .

محمد مختار ، كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية ، ط. القاهرة ١٣١١هـ .

محمد مرسى الشيخ(د.) ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها

١٠٩٧-١١٤٤م ، ط. الاسكندرية ١٩٧٢ الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ط. الاسكندرية ١٩٨٠م ، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ط. الاسكندرية ١٩٩٤م عصر الحروب الصليبية فى الشرق ، ط. الاسكندرية ١٩٩٧م .

محمد مصطفى زيادة ، مصر والحروب الصليبية ط. القاهرة ١٩٤٢م، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ط. القاهرة ١٩٦١م.

محمود الحويرى (د.) ، الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى ط. القاهرة ١٩٧٩م ، العادل الأيوبى صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٩٨٠م، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٢م.

محمود رزق محمود (د.) ، العلاقة بين ارناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبى حتى موقعة حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٧٧م .

محمود سعيد عمران (د.) ، «معركة حارم قصة التحالف البيزنطى الصليبى الأرمنى ضد نور الدين محمود» المؤرخ العربى، العدد (٨) عام ١٩٧٧م ، الحملة الصليبية الخامسة حملة حنا دى برين على مصر ١٢١٨- ١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ ، ط. الاسكندرية ١٩٧٨م ؛ معالم تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ط. بيروت ١٩٨٠م معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية مدخل لدراسة التاريخ السياسى والحربى ، ط. بيروت ١٩٨١م ؛ السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد مانويل كومنين ط. الاسكندرية ١٩٨٥م، القادة الصليبيين الأسرى فى أيدى الحكام المسلمين ٤٩٣-٥٣١هـ/ ١١٠٠-١١٣٧م ط. بيروت ١٩٨٦م ، «الهدن بين المسلمين والصليبيين فى عصر الدولة الأيوبية » ضمن كتاب دراسات فى بحوث تاريخ العصور الوسطى، ط. الاسكندرية ١٩٩٦م. «شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس» المؤرخ العربى، العدد (٦) م(١)، مارس ١٩٩٨م.

مختار العبادى (د.) ، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ط. القاهرة ١٩٦٩م.

مرفت محمد سالم ، حصن الأكراد ودوره فى الصراع الصليبى الإسلامى رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية عام ١٩٩٢م .

مريم البغدادى (د.) ، شعراء التزويادور، ط. جدة ١٩٨١م.

مسفر الغامدى (د.) ، الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى قبل قيام الدولة الأيوبية فى مصر ٤٩١-٥٦٩هـ/ ١٠٩٧-١١٧٣م ، ط. جدة ١٩٨٦م.

مصطفى الحيارى (د.) ، القدس زمن الفاطميين والفرنجه ، ط. عمان ١٩٩٤م.

مصطفى طلاس ومحمد وليد الجلاد ، قلعة الحصن حصن الأكراد، ط. دمشق ١٩٩٠م.

مصطفى غالب ، أعلام الاسماعيلية ، ط. بيروت ١٩٦٩م.

مصطفى الكتانى (د.) ، العلاقة بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى ١١٧١-١٢٩١م/ ٥٦٧-٦٩٠هـ ، ط. الاسكندرية ١٩٨١م. «المؤرخ الجنوى كفارو الكاسيكفلونى سيرته وأعماله وقيمتها التاريخية » ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، م(٣) . عام ١٩٨٥م. حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ، ط. الاسكندرية ١٩٨٥م.

المقرى الفيومى ، المصباح المنير ، ط. القاهرة ١٩٢٦م.

مكسيموس مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة المدعوة بحرب الصليب ، ت.ك . مكسيموس مظلوم ، ط. اورشليم ١٨٦٥م.

ملكوم ليونز جاكسون ، صلاح الدين ت، على ماضى مراجعة نقولا زيادة وفهمى سعيد، ط. بيروت ١٩٨٨م.

موريس لومبار، الإسلام فى مجده الأول ت. اسماعيل العربى، ط. الدار البيضاء ١٩٩٠م.

مولر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ت. محمد وليد الجلاد ، ط. دمشق ١٩٨٤م.

ميخائيل إسكندر ، القدس عبر التاريخ ، ط. القاهرة ١٩٧٢م.

ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق ت. إلياس شاهين ، ط. موسكو ١٩٨٦م.

نافع العبود (د.) ، الدولة الخوارزمية ، ط. بغداد ١٩٧٨م.

نبيلة مقامى (د.)، فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣م رسالة

نجيب العقيقى (د.) ، المستشرقون ، جـ٢ ، ط. القاهرة ١٩٨٠م .

نظير حسان سعداوى (د.) ، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى، ط. القاهرة ١٩٥٨م ، جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ط. القاهرة ١٩٥٩م ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، ط. القاهرة ١٩٦١م ؛ تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة الوسطى، ط. القاهرة ١٩٦٨م.

نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، ط. القاهرة ١٩١٦م.

نفيس أحمد (د.) ، الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى ت. فتحى عثمان ، ط. الكويت ١٩٧٨م.

نقولا زيادة (د.) ، رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى ، ط. بيروت ١٩٨٦م .

نقولا يوسف ، تاريخ دمياط منذ أقدم العصور ، ط. القاهرة ١٩٥٩م.

نيكيتا اليسيف ، السلطان نور الدين بعد زنكى محمود بن زنكى أق سنقر ٥١١-٥٦٩هـ/ ١١١٨-١١٧٤م ت. سليم تندلفت، ط. دمشق ١٩٩٨م.

هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبى دراسات فى التاريخ الإسلامى ، ت. يوسف أبيس، ط. بيروت ١٩٧٣م.

هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، جـ١ ، ط. ت أحمد رضا، ط. القاهرة ١٩٨٥م .

هنرى لامنس ، تسريح الأبصار فيما يحتوى لبنان من الآثار، ط. بيروت ١٩١٤م ؛ «تجارة سوريا فى الأجيال الوسيط » المشرق العدد (٢٠) عام ١٩١٩م ؛ « دولة العلويين» المشرق العددان (٨) ، (٩) م(٢٧) عام ١٩٢٩م .

هيكل نعمة الله والياس مليحة ، موسوعة علماء الطب ، ط. بيروت ١٩٩١م.

وفاء محمد على (د.)، دراسات فى تاريخ الدولة الأيوبية، ط. القاهرة ١٤١٠هـ .

ول ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ٤ /م٤ ت محمد بدران ، ط. القاهرة ١٩٧٦م .

يوسف الدبس ، تاريخ سوريا ، ط. بيروت ١٩٠٠م.

يوسف درويش غوانمه (د.)، دراسات فى تاريخ فلسطين فى العصر الإسلامى، ط. عمان ١٩٨٤م ، إمارة الكرك فى العصر الأيوبى، ط. عمان ١٩٨٤م.

يوسف سماره ، جولة فى الاقليم الشمالى ، ط. القاهرة ١٩٦٠م.

يوسف ضو (الأب) ، تاريخ الموارنة جـ٢ ، ط. بيروت ١٩٧٠م.

يوشع براور، عالم الصليبيين ت. قاسم وخليفه، ط. القاهرة ١٩٨١م، ط. القاهرة ١٩٩٩م.

فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ت. عبد الهادى أبوريدة ، ط. القاهرة ١٩٥٨م.

سادسًا : المراجع الأجنبية

Abel (F.M), "Les deux Mahomeric : El-Birch , El-qoubeibeh", R.B., T. XXXV, Année 1926 .

Alptekin (C.), The Reign of Zangi (521-541 / 1127-1146) Ataturk University , Erzurum 1978 .

Archer (T.A.) and kingsford (C.L.) , The Crusades , The Story of The latin kingdom of Jerusalem , New York 1904

Artz (F.), The Mind of the Middle Ages, New York 1953 .

Ashtor (E.), " Saladin and The Jews", in H.U.C.A., vol . XXVII, Cin Cinuati 1956 .

A Tiya (A.S), The Crusade in the later Middle Ages, London 1938 .

Attwater (P.) , The penguin Dictionary of Saints, London 1977 .

Aube (p.) , Geoffrey de Bouiin , Paris 1985 .

Baldwin (M.) "The latin States under Baldwin III and Amalric I " in Setton, A History of the Crusades, vol. I, Pennsylvania 1958 .

"Mission To "the East in the Thirteenth and Fourteenth centuries" , in Setton, A History of the Crusades, vol . V, Philadelphia 1985 .

Barber (M.), Trial of Remplars, Cambridge 1978 .

Barker (E.) , The Crusades, London 1949 .

Belloc, The crusade World's debate, London 1957.

Berry (V.G.), "The Second Crusade ", in Setton, A History of the Crusades, vol. I, pennsylvania 1958.

Bradford (R.), The Shield and The Sword, The Knights of St. John, Jerusalem Phodes and Malta, New york 1973.

Brand (C.M.), Byzantium Confronts The West 1180-1204, Cambridge 1968.

Brooke (Z.N), A History of Europe From 911 to 1198, London 1938.

Brundage (J.), "Prostitution, Miscegration and Sexual Purity in the First Crusade", in Crusade and Settement, ed. by Peter Edbury, Cardiff 1985.

Byrene (E.), Commercial Contact of the Genoese in The Syrian Trade of The Twelfth Centyr ", J.E.H., vol. XXXI, 1916.

Cahen (C.), "La Campagne de Mantzikert", B.vol. IX, Année 1934.

, La Syrie du nord a'L'epoque des Croisades, paris 1940.

, " Note Sur les Communate Syrienne des Nusayris ", R.E.I., T. XXXVIII, Année 1978.

, "Sur le Tarikh Salihi d'Ibn wasil Note et extraits ", in M. Sharon ed, Studies in Islamic History and Civilization in Honour of Prodessor David Ayalon, Jerusalem, Leiden 1986.

Cavaliero, Thelast of the Crusaders, London 1960.

Constable (G.)," The Financing of the Crusade in the Twelfth Century ", in Outremer Studies, Jerusadlem 1982.

Charonis, "The Byzantine Empire in The Eleventh Century", in Setton, A History of the Crusades, vol. I, Pennsylvania 1955.

Chalandon (F.), Jean II commnene et Manuel I Commnene, T. II, Paris 1912.

Christiansen (E.), The Northern Crusades The Baltic and the Catholic Frontier 1100-1525, Univsity of Minnesota 1980.

Citarello, " The Relations of Amalfi with the Arab World before the Crusades ", Speculum, vol. XLII.

Conder (G.R.), The Latin kingdom of Jerusalem, London 1897.

Creswell, Short Account of Early islamic architecture, London 1958.

Culton, Medieval Panorama, Cambridge 1949.

D'Alverny (M.th), " Deux Traductions latines du Coran an Moyen Age", A.H.d.L., T. XXII- XXIII, Année 1947 - 1948.

Davis, " William of Tyre "in Relations between East and west in the Middle Ages ed. by derek Baker, Edinburgh 1973.

De. Brouwer, Saint Bernard L'homme d'Eglise, Paris 1953.

Delaborde, Ludwige des Heiligen Kreuzzug nach Tunis 1270, und die Politik Karles I von Sizilien, von Richard Sterefeld, Berlin 1896 ", R.O. L., T. IV, Année 1896.

Deshcamps (R.), Le Crac des Chevaliers, Paris 1934.

De Zahn, " quatre pieces relatives de L'Ordre Teutonique en Orient ", A.O.L., T.I.

Duggan (A.), The Story of the Crusades, London 1960.

Dussaud (R.), Histoire et Religion des Nusairis, Paris 1900.

Ebeid (I.), "Was Pope Innocent III An accomplice in the diversion of The Fourth Crusade (1204) ", E.H.R., vol. XV, Cairo 1969.

Edbury (P.W.), "William of Tyre Historian of the Crusades and the latin Kingdom of Jerusalem ", B.F.A. A.U., vol. XXXV, Alexandria 1988.

, The kingdom of Cyprus and the Crusades, 1191-1374 Cambridge 1991.

Edbury (P.W.) and Rowe (J.W.), William of Tyre, Historian of the latin East, Cambridge 1988.

El- Azhari (T.K.), The Saljuqs of Syria during The Crusades 463-549 A.H./ 1070-1154 A.D., Berlin 1997.

, ' Dayfa Khatun, Ayyubid queen of Aleppo 634- 640 A.H./ 1236 - 1242 A.D., Cairo 1998.

Elisseeff (N.), Nur Al-Din, un prince Musulman au Temps des Croisades, Damas 1967.

Ellenmlun (R.), Frankish Rural Settlement in The latin kingdom of Jerusalem, Cambridge 1998.

Ency. Brit, " History of Medicine ", vol. XI, Chicage 1976.

Erwing, Arab and Druze at Home, London 1907.

Farag (W.A.), Byzantium and its Muslim Neighbours during The Reign of Basil II, 976-1025, ph. D., Bremengham 1979.

Favier (J.), "Les Templiers ou L'echec des banquiers de la Croisade", L'Histoire, T. XL VII, Année 1982.

Fedden (R.), Crusader Castles, Beirut 1957.

Fink (H.), " Maudud Precursor of Saladin in M.W., T. XLIII, 1953.

, "The Foundation of The latin States 1100-1118", in Setton. A History of the Crusades, vol. I, Madison 1969.

Finucane (R.C.), Soldiers of the Faith Crusader and Moslems at war, New York 1983.

France (J.), Victory in the East, A Military History of the First Crusade, Cambridge 1996.

Fuller, Decissive Battles of Western Europe and Their influences upon History, London 1954.

Gabrieli (F.), Arab Historians of The Crusades, Trans. by Costello, london 1969.

Gate (J.L.), "The Crusade of 1101", in Setton , A History of The Crusades, Vol. I, Pennsylvania 1969 .

Genevive (B.B.), Le Cartulaire du Chapitre de Saint Sepulchre de Jerusalem , Paris 1984 .

Gibb (H.), The Damascus Chronicle of the Crusades, London 1932 .

, " The Italian Cities and The Arabs before 1095", in Setton, AHistory of the Crusades, vol . I, pennsylvania 1958 .

, ' Zengi and the fall of Edessa", in Setton, A History of The Crusades, vol . I, pennsylvania 1958 .

, The Life of Saladin, Oxford 1973 .

Gibbon (E.), History of the decline and fall of the Roman Empire, vol . II, London 1953.

Goitein (S.) , : "Geniza Sources for The Crusader Period Asurvey in Outremere Studies in the History of Crusading Kingdom of Jerusalem Presented to Joshua prawer, ed. by B. Kedar , R.C. Smail, H. E. Mayer , Jerusalem 1982 .

GraBois (E.), " Christian Pilgrims in The Thirteenth Century and The Latin kingdom of Jerusalem , Burchard of Mount Sion", in Outremer Studies Jerusalem 1982 .

Grant , Historical Introduction to the New Testament , New York 1963 .

Greilsammer (M.), "Structure and Aims of the Livre au Roi" in Outremer Studies, Jerusalem 1982 .

Hadia Dagani (S.), " Natives and Franks in Palestine : Perceptions and Interaction", in Conversion and Continuty : Undigenous Christan Communities in Islamic Lands, Eighth to Eighteenth Centuries , ed. Michael Gervers and Ramzi Jibran Bikhazi, Papers in Mediaeval Studies 9, Torento , Pontifical Institute of Mediaeval Studies , 1990 .

, " Some Medieval Accounts of Salah Al-Din's Recovery of Jerusalem (Al-quds) in Studio Palestina, Studies in Honour of Constantine K. Zurayk

ed. by Hisham Nashaba, Institute for Palestine Studies, Beirut 1988 .

Hagenmeyer (H.) , " Chronologie de la Premiere Croisade ", R.O.L., T.VII, Année 1899.

Hamilton (B.) , The Latin church in The Crusader States, London 1980 .

Hammer , " Tableau genealogique des Saixaute Treize Sectes de L'Islam ", J.A., T. VII, Année 1925 .

Hardwicke (M.N) , " The Crusader States 1192-1291" Setton , A History of the Crusades, vol . II, Madison 1969 .

Haskins, Studies in the History of Medieval Science, Cambridge 1927 .

, The Renaissance of the Twelfth Century, Cambridge 1928 .

Hastinge , Dictionary of The Bible , New York 1952 .

Hilal (A.), Al- Mansur qalaun's policy Twards latin States in Syria, Master of Arts, A.U.C., 1982 .

Hill (R.) , " The Christian View of The Muslims at the Time of the First Crusade ", in The Eastern Mediterranean Lands in the Period of The Crusades, ed. by P.M. Holt, London 197 .

Hill (J.H.), Raymond IV Count Toulouse, Syracuse 1967 .

Hodgson (M.), " Al-Darazi and Hamza in the Origins of The Druze Religion ", J.A.O. S., vol VXXXII, 1962 .

Holt (P.N.) , The Age of the Crusades, The Near East from the Eleventh to 1517 , London 1986 .

Housely (N.), " Crusades againest Christians Their Origins and early development (1000-1216) ", in Crusade and Settement, ed. by Peter Edbury , Cardiff 1982 .

, The Later Crusades 1274-1580, Oxford 1992 .

Hume (E.E.), Medical Work of the Knights Hospitaller of Saint John of Jerusalem, Bal-

timone 1940 .

Hussey (J.) , " The Later Macedonians, The Comneni and the Angeli", C.M.H., vol . V Cambridge 1979 .

Irwin (R.), "Conquest of County of Tripoli", in Crusade and Settement , ed Peter Edbury, Cardiff 1982 .

Jipejian (N.) Byblos Through the Ages, Beirut 1968 .

Johnson (E.N.) The Crusade of Frederick barbarossa and Henry VI ", in Setton , A History of the Crusades, vol . II, Madison 1969 .

Kantorowicz , Frederick The Second, London 1931 .

Kaplan (M.) , " Le Sac de Constantinope", L'Histoire , T. XLVII, Année 1982 .

Kedar (B.), Crusade and Mission , European Approach to Muslims , Princeron 1988 .

Kelly, Oxford dictionary of Popes, Oxford1996 .

Kerr, The Crusades, London 1966 .

King (E.J.), The Kights Hospitallers in the Holy Land , London 1931 .

, The Knights of St. John in the British Kihndom , London 1943 .

King (C.), " The Taking of Krak de Chevaliers in 1271 ", in A. , vol . XXIII, March 1949 .

Khayat (M.) , " The Shiite Rebellions in Aleppo in the Sixth A.H. / Twelfth A.D. Century R. d. S.O., T. XLVI , December 1971 .

Kohler (Ch.), "Chartres de L'Abbaye de Notre dame de la Vallée de Josaphat en Terre Sainte (1102-1291), ", R.O.L., T.VII.

Krey (A.C) , " William of Tyre , The Making of an Historian in the Middle Ages", Speculum , vol . XVI, 1941 .

, The First Crusade, Princeton 1958 .

Kristeller (P.O.) "The School of Salerno its development and its Contribution to the History of Science", B. H. N., vol XVII, 1975.

Kritzeck, peter the Venerable and Islam, Princeton 1964.

Lambe (H.), The Crusade The Flame of Islam, New York 1931.

La Monte, (J.), The Feudal Monarchy in the latin Kingdom of Jerusalem, Cambridge 1932, NewYork 1970.

Lane- Poole, (S.), Saladin and The fall of the latin kingdom of jerusalem, London 1898.

Leclerq, (D.J.), Pierre le Venerble, Abbaye St. Wandville 1946.

Le Strange (G.), The lands of the Eastern Caliphat, Mesopotamia,persia and central Asia From the Moslem Conquest to the Time of Timure, London 1966.

Little (D.), " The Fall of Akka in 690 / 1291 : The Muslin Version ", in M. Sharon, ed. Studies in Islamic Hisotry and Civilization in Honour of Professor David Ayalon, Jerusalem : Cana, Leiden 1986.

Lockhart, Hassanil-Sabah and the Assassins ", B.S.O.A.S., vol. V, London 1929.

Loyn and John Percival, The Reign of Charlemagne, Documents on Carolingian Gover ment and Administration, London 1975.

Lombard (M.) The Golden Age of Islam, Trans. by Jean Spencer, Holland 1975.

Magdalino (P.), The Empire of Manuel I Komnenos, 1143-1180, Cambridge 1997.

Mackinney, Medical Illustrations in Medieval Manuscripts, London 1969.

Matheson (S.), Persia, An Archaeological Guide, London 1972.

Mariott, The Eastern question, Oxford 1958.

Mayer (H.E.), The Crusades, Trans. by John Gillingham, Oxford 1978, 1987.

Meyendorff and Paynes (N.), "The Byzantine inheritance in Russia" in Paynes and Moss, Byzantium An Introduction to the East Roman Civilization, Oxford 1952.

Micheau (F.), "Jihad, l'islam relève defi ", in L'Hisoire , T. XLVII, Année 1982 .

Morgan (D.O.), "The Mongols in Syria 1260-1300", in Crusade and Settement ed. by Peter Edbury , Cardiff 1985 .

Munro (P.C), " The Speech of pope Urban II at Clermont ", A.H.R., vol . II, 1905 .

, "Did the Emperor Alexius I ask for aid at the Council of Piacenza ?", A.H.R., vol . XXVII, 1922 .

Munz (P.) , Frederick Barbarossa, Astudy in Medieval Politics, London 1969 .

Nicholson (R.L.) Tancred: Astudy of his career and work in their relation to the First Crusade and the establishment of the latin States in Syria and Palestine , Chicagco 1940 .

Nicol (D.), A Bibliographical dictionary of the Byzantine Empire, London 1991 .

, Byzantium and Venice Astudy in diplomatic and Cultural relations, Cambridge 1995 .

Neubauer , " Le Memorbuch de Mayence ", R.E.J., T. IV, Année 1882 .

O'Leary (D.), Ashort History of The Fatimid Khalifate, London 1923 .

Oman (C.), A History of The Art of war in the Middle Ages, vol. II , London 1924 .

Ostrogorsky (G.) , History of the Byzantine State, Trans . by Hussey , Oxford 1956 .

Painter (S.) "The Crusade of Thibauld of Champagne and Richard of Cronwall 1239 - 1241 ", in setton , AHistory of the Crusedes, Madison 1969 .

Patlayean (E.) ," Les Juifs, les infideles de L'Europe ", L'Histoire , T. LXVII, Année 1982.

Pirenne (H.), Mohammed and Charlemagne, London 1954 .

Porges (W.), " Les relation Hebraiques des persecution des Juifs pendant la Premiere Croisade R.E.J., vol . XXV .

Powell , Anatony of A crusade 1213-1221, Philadelphia 1986 .

Prawer (J.), " The Settement of the latins in Jerusalem ", Speculum vol . XXV , 1952.

, The Latin Kingdom of Jerusalem , European colonialism in the Middle Ages, London 1972 .

, Crusader Institutions, Oxford 1980 .

, " Social Classes" in Setton, A History of the Crusades, vol .V, Wisconson 1985 .

Pringle (P.) , " Magna Mahumeria (al-Bira) The Archaeology of Afrankish Town in Palestine" in Crusade and Settlement, ed. by peter W. Edbury, Cardiff 1985 .

queller (D.E.), The Fourth Crusade , The Conquest of Constantinople 1201-1204, Leicester 1978 .

Raedts (P.), "La Croisade des enfants a-T-elle eu Lieu ?", L'Histoire, T. XLVII, Année 1982 .

Rey (E.) les colonies Franques de Syrie aux XII et XIII Siecles, Paris 1883 .

, " Résume Chronologique de L'Histoire des Princes d'Antioch" R.O.L., T.IV, Ammée 1896 .

Riant (C.) , Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades", A.O.L., T.I, Annéc 1880 .

Richard (J.), La Comte de Tripolis Sous la Dynastie Toulousaine , Paris 1945 ,

, "Hospitalles and Hospital Congregation ", Outremer Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem Presented to Joshua Prawer, ed. by R.C. Smail, H.E. Mayer, B. Kedar , Jerusalem 1982 .

, " An Account of the Battle of Hattin refering to The Frankish Mercenaries in Oriental Moslem State", Speculum , T. XXXII .

, " La bataille de Hattin, Saladin defait L'Occident", L'Histoire , T. XLVII, Année 1987 .

,"Agricultural Conditions in the Crusader States ", in Setton, vol . V, Wvsconson 1989 .

Riley - Smith (J.), Goverment in Latin Syria and The Commercial Privileges of foreign Merchants, in Derek Baker Relations between East andWest Edinburgh 1973.

, Feudal Nobility in The latin Kingdom of Jerusalem , London 1973 .

Riley - Smith and Louise, The Crusades, Idea and Reality , London 1981 .

Ruhricht (R.), Beitrage Zur : Geschichte der Kreuzzuges, Easter Band , Berlin 1874.

, Etudes sur les derniers temps du Royaume de Jerusalem, Les Combates du Sultan Bibars Contre des Chretiens en Syrie, A.O.L.T. II, Année 1880 .

,"la Croisade de Prince Edward (1270-1274), A.O.L., Année 1881.

, Chronolgisches Vevzeichniss der Auf die geographie des Heiligien landes, Bezuglichen Literture von 333 Bis 1878, Berlin 1890 .

, Regesta Regni Hierosoly mitani, Oenipont 1893 .

Runciman (S.), A History of The Crusades, Penguin Books, London 1978 .

, "The Pilgrimages To Palestine Before 1095", in Setton, AHhistory of the Crusades, vol . I, Pennsylvania 1969 .

, The Fall of Constantinople, 1453 , Cambridge .

Russell (J.C.), "The Population of the Crusades ", in Setton, A History of the Crusades, vol . V, Wisconsin 1985 .

Rybarov, Early Cnturies of Russian History , Mossow 1965 .

Salibi (K.), Syria under Islam , Byrouth 1909 .

Schlumberger (G.), Renauld de Chatillon prince d'Antioch, Paris 1933 .

Sezgin (F.), Geschichte des Arabischen Schriftum, Band III , Leiden 1970 .

Sivan (E.), " Refungies Syro Palestinien au Temps des Croisade", R.E.I., Année 1967.

Southern (R.W.), Western Views of Islam in the Middle Ages, Cambridge 1978 .

Small (R.C.), Crusading Warefare (1097-1193), Cambridge 1956 .

, The Crusaders in Syria and the Holy land , London 1974 .

Stevenson (W.B.), The Crusaders in the East, Beirut 1968 .

Strayer (J.) , " The Crusades of St. Louis ", in Setton , A History of the Crusades, vol II. Madison 1969 .

Talbi (M.), " Saint Louis , Voir Tunis et Mourir ", L'Histoire , T. XLVIII, Année 1982 .

The Oxford dictionary of Byzantium , Prepared at Dumbarton Oaks , Oxford 1991 .

Thompson (J.W.) Social and Economic History of the Middle Ages , vol . I, London 1959 .

Thorau (P.), " The Battle of Ayn Jalut : Re-Examination", in Crusade and Settoment, cardiff 1985 .

Throop (P.) , Criticism of the Crusade : A study of public Cpinion and Crusade Propaganda , Amesterdam 1940 .

Tibble (S.) , Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem (1099-1291, Oxford 1989 .

Vanchez (A.) , " Saint Bernard Predicaton irresistable", L'Histoire, T. XLVI, Année 1981.

Van Cleve (T.C.), "The Fifth Crusade " in Setton A History of the Crusades, vol. II, Madison 1969 .

, " The Crusade of Frederick II, " in Setton A History of the Crusades, vol . II, Madison 1969 .

Vasiliev (A.), History of theByzantine, Empire 324-1453, vol. II, Madison 1959 .

Vermeulen (U.), " Le Traite d'Armistice entre le Sultan Baybars et les Hospitaliers de Hisn Al- Akrad et Al-Marqab (4Ramadan 665 A.H. 129 Mai 1297", in O.L.P., T. IXX, Année 1988 .

Vryonis (S.), "The Experience of Christions under Seljuk and Ottoman Domination , Eleventh to Sixteenth Century , in Conversion and Continuity : Idigenous Christian Communities in Christian Communities in Islamic lands , Eighth to Eighteenth Centuries , ed. Michael Gervers and Ramzi Jibran Bikhazi , Papers in Mediaeval Studies 9, Toronto Pontifical Institute of Medieval Studies 1990 .

Walker (P.E.), The Crusade of John Tzimisches in the Light of New Arabic evidences", B., 1977 .

Watt (M.), " The Islamic Conception of Jihad ", in the Holy war , ed. by James Brundage , oHio State 1974 .

, " Perception of The Crusades", in vad - Nama , in Memoria di Alessandro Bausani I, Islamistica , ed . by Biancamaria Scarcia Armoretti & Lucia Rostagno Universita di Roma , la Sapienza , S.O., 10, Rome : Bard: 1991.

Woodhouse (F.C.), The Military Religious Orders in the Middle Ages, London 1879 .

Woodings (A.), "The Medical Resources and Practice of The Crusader States in Syria (1099-1193)" M.H., vol . XV, July 1971 .

Wright (J.), The Geographical lore in the Time of the Crusades Astudy in The History of Medieval Science and Tradition in Western Europe , New York 1965 .

Wright (W.), Early Travels in palestin,e London 1848 .

Zacour (N.P.), "The Children's Crusade", in Setton , A History of the crusades, vol . II, Madison 1969 .

Ziada (M.M.), " Mamluk Sultan ", in Setton, A History of the Crusades, vol . II, Pennsylvania 1958 .

Zwemer (S.), Raymond lull, First Missionary to the Moslems , London 190

رقم الإيداع ٩٩/١٥١٣٨

الترقيم الدولى 977 - 322 - 020 - 6

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

دكتور محمد مؤنس عوض

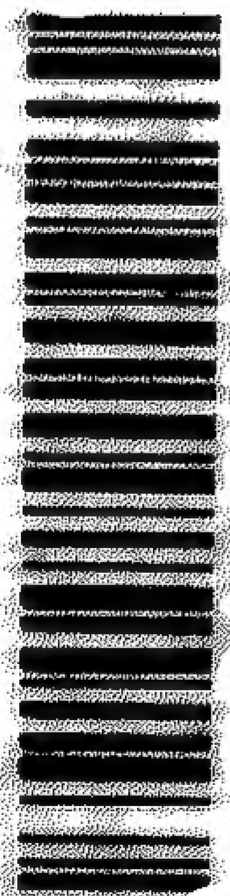


الحروب الصليبية

العلاقات بين الشرق والغرب









للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES